الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف العلامة المفسّر

آية الله الشيخ

ناصر مكارم الشيرازي

المجلد التاسع

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

مكارم

تاب ا

١٧ / ١٨

النور

القصص

للمطب

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

١٧ - ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء السابع عشر

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى المصححة

جميع الحقوق محفوظة و مسجلة للناشر

١٤٣٤ هـ -٢٠١٣م

يحظر نسخ أو تصوير أو ترجمة أو إعادة التنضيد بشكل كامل أو جزئي أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة خطيّة من الناشر.

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة
مفرق سنتر زعرور- ص ب : ١١/٧١٢٠
هاتف: ٤٥٠٤٢٦ - ٤٥٠٤٢٧ فاكس: ٠١/٤٥٠٤٢٧

Published by Alaalami Library
Beirut- Lebanon po. Box 7120
Tel - Fax: 450427
E-mail: alaalami@yahoo.com.

يطلب في العراق : كربلاء - شارع السدرة - تلفون : ٠٧٨٠١٥٦١٩٨٠

سُورَةُ النُّور

مدنيّة وعدد آياتها أربع وستُّون

فضل سورة النور

جاء في حديث عن الرّسول ﷺ قوله: «من قرأ سورة النور أُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمِن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى»(١)

وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «حصنوا أموالكم وفروجكم بتلاوة سورة النّور وحصّنوا بها نساءكم، فإنَّ من أدْمَنَ قراءتها في كل يوم أو في كل ليلة لم يزن أحَدٌ من أهل بيته أبداً حتى يموت»(٢).

والاهتمام بمضمون السورة الذي دعا بطرق مختلفة إلى مكافحة عناصر الانحراف بالتزام العفّة، يوضح الغاية الأساسية في الحديثين أعلاه ومفهومهما العملي.

محتوى سورة النّور

يمكن اعتبار هذه السورة خاصّة بالطهارة والعفة، وكفاح الانحطاط الخلقي، لأنّ محور تعاليمها ينصب على تطهير المجتمع بطرق مختلفة مِن الرذائل والفواحش، والقرآن الكريم يحقق هذا الهدف عبر مراحل، هي:

المرحلة الأُولى: بيان العقاب الشديد للمَرأة الزانية والرجل الزاني، وهو ما ورد حاسماً في الآية الثّانية من هذه السورة.

المرحلة الثّانية: بيان حدّ الزنا الذي لا تنبغي إقامته إلاّ بشروط مشدّدة للغاية، إذ لابدَّ من أربعة شهود يشهدون أنّهم رأوا بأمّ أعينهم رجلاً غريباً يزني بامرأة غريبة عنه، يفعل بها فعل الزوج بزوجه ساعة مباشرته إيّاها.

وَلو شهدَ الرجلُ على زوجتِهِ بالزّنا للاعَنَ القاضِي بينهما، أو يُقرُّ أحدُهما أو كلاهما بالحق.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٢٢، بداية سورة النّور.

(٢) تفسير مجمع البيان للآية موضع البحث، وكتاب ثواب الأعمال للصدوق (حسبما نقله نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٦٨).

ومن اتّهم محصنةً ولم يأتِ بأربعةِ شهود جلدَهُ القاضي أربعة أخماسٍ حدّ الزّنا، أي ثمانين جلدة، لِئلاّ يتصوَّرَ أحَدٌ أنَّ بإمكانه الطَّعْنَ على الناسِ وَهَتك حُرُماتِهِم وهو في منجىً عن العقاب.

ثمّ طرحت الآية بهذه المناسبة الحديث المعروف باسم الإفك، وما فيه من اتّهام إحدى نساء النّبي ﷺ، فعقّب القرآن المجيد على هذه المسألة مُوضِّحاً للمسلمين مَدَى بشاعة الافتراء والتهمةِ، وَفظاعَةِ إشاعةِ الفاحِشة عُدواناً على الناس، وكاشفاً عمّا ينتظر القائم بذلك من عقوبات إلهية.

وفي المرحلة الثّالثة: تناولت الآية أحد السبل المهمّة لاجتناب التدهور الأخلاقيّ، من أجل ألا يُتصوَّرَ أنَّ الإسلام يهتم فقط بمعاقبة المذنبين.

فطرحت الآية نظر الرجال إلى النساء بشهوة أو بالعكس، وحجاب المرأة المسلمة، لأنَّ أحد أسباب الانحراف الجنسي المهمّة ناجم عن هاتين المسألتين، وإذا لم تحل هاتان المسألتان جذرياً، لا يمكنُ القضاءُ على الانحطاط والتفسخ.

وفي المرحلة الرّابعة: كخطوة للنجاة من التلوث بما يُخِلُّ بالشرف - دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكاليف، ليحارب الإشباع الجنسي غير المشروع بإشباعٍ مشروع.

وفي المرحلة الخامسة: بيّنت الآيات جانباً من آداب المعاملة، ومبادىء تربية الأولاد وعدم دخول الأبناء الغرفة المخصصة للوالدين في ساعات الخلوة والاستراحة إلاّ بإذن منهما، بغية المحافظة على أفكارهم من الانحراف، كما بيّنت آداب الحياةِ الأُسريّة عامّة.

وفي المرحلة السادسة: جاء ذكر مسائل خاصّة بالتوحيد والمبدأ والمعاد والامتثال لتعاليم النّبيّ ﷺ. كلّ ذلك خلال البحوث المطروحة، ومن المعلوم أنّ الاعتقاد بالوحدانية والنّبوة والمبدأ والمعاد، يدعم مناهج التربية الأخلاقية في الفردِ والجماعة، فذلك الاعتقاد هو الأصل، وما عداهُ مِنْ أمور فروع عَلَيْه، تورق وتثمر إذا قويَ الأصْلُ واشتَدّ.

وتطرقت بحوث هذه الآيات إلى حكومة المؤمنين الصالحين العالمية، وأشارت إلى تعاليم إسلامية أُخرى، وهي تشكل - بمجموعها - وحدة متكاملة شاملة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾

التّفسير

حدّ الزاني والزانية

سمّيت هذه السورة بالنّور لأنّ آية النور فيها من أهم آياتها، إضافة إلى أنّ مضمونها يشعشع في جوانح الرجل والمرأة والأسرة والبشر عفّة وطهارة، وحرارة وتقوى، ويعمر القلوب بالتوحيد والإيمان بالمعاد والاستجابة لدعوة النّبي ﷺ.

وأُولى آيات هذه السورة المباركة بمثابة إشارة إلى مجمل بحوث السورة ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿سُورَةٌ﴾ كلمة مشتقّة من «السور» أي الجدار المرتفع، ثمّ أطلقت على الجدران التي تحيط بالمدن لحمايتها من مهاجمة الأعداء، وبما أنّ هذه الجدران كانت تعزل المدينة عن المنطقة المحيطة بها، فقد استعملت كلمة «سورة» تدريجياً في كل قطعة مفصولة عن شيء، ومنها استعملت لتعني قِسماً من القرآن، كما قال بعض اللغويين: إنَّ «سورة» بناء جميل مرتفع، وهذه الكلمة تطلق أيضاً على قسم من بناء كبير، وتطلق السورة على أقسام القرآن المختلفة المفصولة بعضها عن بعض[1].

وعلى كل حال فإنّ هذه العبارة إشارة إلى كون أحكام ومواضيع هذه السورة - من اعتقادات وآداب وأوامر إلهية - ذات أهمّيّة فائقة، لأنّها كلها من الله.

وتؤكّد ذلك عبارة «فرضناها»، لأنّ «الفرض» يعني قطع الشيء الصلب والتأثير فيه كما يقول الراغب في مفرداته.

---

(١) «لسان العرب» الجزء الرّابع، مادة «سور».

وعبارة ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ قد تكون إشارة إلى الحقائق المنبعثة عن التوحيد والمبدأ والمعاد والنّبوة، التي تناولتها هذه السورة، وهي إزاء «فرضنا» التي تشير إلى الأوامر الإلهيّة والأحكام الشرعية التي بيّنتها هذه السورة، وبعبارة أُخرى: إحداها تشير إلى الاعتقادات، والأُخرى إلى الأحكام الشرعية.

ويحتمل أن تعني «الآيات البينات» الأدلة التي استندت إليها هذه الأحكام الشرعية.

وعبارة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ تؤكّد أنّ جذور جميع الاعتقادات الصحيحة، وتعاليم الإسلام التطبيقية، تكمن في فطرة البشر.

وعلى هذا الأساس فإنّ بيانها يعتبر نوعاً من التذكير.

وبعد هذا الاستعراض العام، تناولت السورة أوّل حكم حاسم للزاني والزانية ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ ولتأكيد هذا الحكم قالت: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾.

وأشارت الآية في نهايتها إلى مسألة أُخرى لإكمال الاستنتاج من العذاب الإلهي ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وتشتمل هذه الآية على ثلاثة تعاليم:

١ - الحكم بمعاقبة النساء والرجال الذين يمارسون الزنا.

٢ - إقامة هذا الحكم الإلهي بعيداً عن الرأفةِ بمن يقامُ عليه، فهذه الرأفةُ الكاذبة تؤدّي إلى الفساد وانحطاط المجتمع، وتضع الآيةُ الإيمان بالله ويوم الحساب مُقابِل الرأفةِ التي قَدْ يحس بها أحد تجاه الزاني والزانية ساعة إقامة الحدّ عليهما، لأنّ أداء الأحكام الإلهيّة من غير تأثرٍ بالعواطِف دليل على صدق الإيمان بالمبدأ والمعاد، والإيمان بالله العالم الحكيم يعني أنّ لكل حكم من أحكامه غاية وهدف حكيم، والإيمان بالمعاد يُشعر الإنسان بالمسؤولية إزاء كل مخالفة.

وذكر بهذا الصدد حديث مهم عن الرّسول الأكرم ﷺ: «يُؤتى بوالٍ نقص من الحدّ سوطاً، فيقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ فيقول: رحمةً لعبادك، فيقال له: أنت أرحم بهم منّي؟! فيؤمر به إلى النار، ويؤتى بمن زاد سوطاً، فيقال له: لِمَ فعلت ذلك؟ فيقول: لينتهوا عن معاصيك! فيقول: أنت أحكم به منّي؟! فيؤمر به إلى النّار!»(١).

(١) تفسير الفخر الرّازي، ج ٢٣، ص ١٤٨.

٣ - أوجب الله حضور عدد من المؤمنين في ساحة معاقبة الزناة ليتعظ الناس بما يرونَ مِنْ إقامة حكم الله العادل على المذنبين، وبملاحظة النسيج الاجتماعي للبشر نرى أنّ انحطاط الشخص لا ينحصر فيه، بل يسري إلى الآخرين، ولإتمام التطهير يجب أن يكون العقاب علناً مثلما كان الذنب علناً.

وبهذا يتّضح الجواب عن السؤال: لِمَ يعرّض الإسلامُ كرامة إنسان بين الناس إلى الخدش والامتهان؟ فيقال: ما دَامَ الذنبُ سِرّاً لِم يَطّلِعْ عليه أحَدٌ وَلم يبلُغ القضاء، فلا بأسَ بكتمانِهِ في النفس واستغفارِ الله مِنْهُ، فإنّه تعالى يَسْتُرُه بلطفِهِ ويُحبُّ مَنْ يَسْتُرهُ، أمّا إذا ظهر الجُرْمُ بالأدِلَّةِ الشرعيّةِ، فلابُدَّ من تنفيذ العقاب بشكل يبطل آثار الذنب السيئة، ويبعثُ على استفظاعه وَبَشاعته، ومن الطبيعي أن يولي المجتمع السليم الأحكامَ اهتماماً كبيراً، فتكرار التحدّي للحدود الشرعيَّة يُفْقِدُها فاعليتها في صيانَةِ الطمأنينة والاستقرار في النفوس، ومِنْ هنا وجبت إقامة هذا الحَدِّ عَلَناً ليمتنع الناسُ مِن تكرار فاحِشَة ساءَتْ سبيلاً.

ويجب أن لا ننسى أنّ كثيراً من الناس يهتم باطّلاع الناسِ على سُوءِ فِعله أكثر من اهتمامه بِما يَنْزِلُ به من العقابِ على ذلك الفِعل الشنيع، ولهذا وجبت إقامة الحَدِّ على الزّاني بحضور الناس، وهذا الإعلان لإقامة هذا الحدِّ الإلهي أمام الناس قد يمنع المفسدين مِن الاستمرار في الفَسادِ ويكون بمثابة فرامل قوية أمام التمادي في ركوب الشهوات.

وبعد بيان حدِّ الزّنا، جاء بيان حكم الزواج من هؤلاء في الآية الثّالثة كما يلي: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

اختلف المفسّرون في كون هذه الآية بياناً لحكم إلهي، أو خبراً عَنْ قضيّة طبيعيَة.

فيرى البعض أنَّ الآية تبيّن واقعة ملموسة فقط، فالمنحطون يختارُون المنحطات، وكذلِك يفعلْنَ هن في اختيارهن، بينما يَسْمُو المتطهّرون المؤمنون عن ذلك. ويحرّمون على أنفسهم اختيار الأزواج من ذلك الصنف تزكيةً وتطهيراً، وهذا ما يَشْهَدُ به ظاهِرُ الآية الذي جاء على شكل جملة خبرية.

إلاّ أنّ مجموعة أُخرى ترى في هذه العبارة حكماً شرعياً وأمراً إلهياً يمنع المؤمنين من الزواج من الزانياتِ، ويمنع المؤمناتِ من الزواج من الزناة، لأنّ الانحرافات الأخلاقية كالأمراضِ الجسميةِ المعدية في الغالب. فضلاً عن أنَّ ذلك عارٌ يأباهُ المؤمِنُ وينأى عنه.

مضافاً إلى المصير المبهم والمشكوك الذي ينتظر الأبناء الذين ينشؤون في أحضان ملوثة ومشكوكة، من مثل هذا الزواج!

ولهذه الأسباب والخصوصيات منعه الإسلام.

والشاهد على هذا التفسير جملة ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ التي تدلّ على تحريم الزنا.

والدليل الآخر أحاديث عديدة رويت عن النّبي الأكرم ﷺ وسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام التي فسّرت هذه الآية باعتبارها حكماً إلهياً ينص على المنع.

وحتى أن بعض كبار المفسّرين كتب بشأن نزول هذه الآية: إنّ رجلاً من المسلمين استأذن الرّسول ﷺ في أن يتزوج «أم مهزول» وهي امرأة كانت تسافح ولها راية على بابها، فنزلت الآية[1]، عن عبد الله بن عباس وابن عمر ومجاهد وقتادة والزهري، والمراد بالآية النهي وإن كان ظاهرها الخَبَر.

ويؤيده ما روي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام أنّهما قالا: «هم رجال ونسَاء كانوا على عهد رسول الله ﷺ مشهورين بالزنا، فنهى الله عن أُولئك الرجال والنساء، والناس على تلك المنزلة، فمن شهر بشيء من ذلك وأقيم عليه الحدّ فلا تزوجوه حتى تعرف توبته»[2].

ولا بدّ أن نذكّر أنّ العديد من الأحكام جاء جملاً خبرية. ولا ضرورة لأن تكون إنشائيةً آمرةً ناهيةً.

والجديرُ بالانتبَاهِ أَنَّ المشركين كانوا يعطفون على الزُّناةُ، وهذا يكشِفُ عن أنَّ الزّنا والشِّركَ صنوانِ. قال الرّسول الأكرم ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص»[3].

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٤، ص١٢٥، تفسير الآية مورد البحث والقرطبي في تفسيره لهذه الآية. حيث رويا هذا الحديث.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٢٥، من تفسير الآية مورد البحث.

(٣) الكافي، الأصول، ج ٢، ص ٣٢ (المطبعة الإسلامية عام ١٣٨٨). حسبما نقله صاحب نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٧١.

ملاحظات:

١ - الحالات التي يعدم فيها الزاني

ما ذكرته الآيةُ السابقة حكْمٌ عامٌّ يُستثنى منه زنا المحصن والمحصنة، فحدُّهُما القتل، إذا ثبت عليهما الجُرْمُ.

ويقصد بالمحصن الرجل الذي له زوجة تعيشُ معه، والمحصنة هي المرأة المتزوجة التي يعيش زوجها معها، فمن توفر له السبيل المشروع لإرضاء الغريزة الجنسية ثمّ يزني فإنّ حدّه القتل.

كما أنّ الزنا بالمحرمات حكمه الإعدام.

وكذلك الزنا بالعنف والإكراه، أي الاغتصاب فحكمه القتل أيضاً، وفي بعض الحالات يحكم إضافة إلى الجلد بالنفي وأحكام أُخرى ذكرتها الكتب الفقهية.

٢ - لماذا ذكرت الزانية أولاً؟

لا شك في أنّ ممارسة هذا العمل الذي يخالف العفة، هي في غايةِ القبح، وتزدادُ قُبحاً وبشاعةً بالنسبة للمرأةِ، فحياؤها أكثر من حياء الرجل، والخروج عليه دليل تمرد شديد جدّاً، وإضافة إلى أنّ عاقبته المشؤومةَ بالنسبةِ لها أكبر رغم فداحتِهِ وَوَبالِه على الطرفين كليهما.

ويحتمل أن تكون المرأة مصدر الوساوس في اقتراف هذا الذنب، وتعتبر في كثير من الأحيان السبب الأصلي فيه، ولهذا كله ذكرت الآية الزانية أولاً ثمّ الزاني، إلاّ أنّ النساء والرجال من أهل العفّة والإيمان يجتنبون هذه الأعمال.

٣ - لماذا تكون العقوبة علنية؟

تستوجب الآية السابقة - التي جاءت بصيغة الأمر - حضور طائفة من المؤمنين حين تنفيذَ حدّ الزنا، لكنّ القرآن لم يشترط أن يجري ذلك في الملأ العام، بل تركه للظروف، ويكفي حضور ثلاثة أشخاص أو أكثر وفق ما يقرر القاضي[1].

وفلسفة هذا الحكم واضحة؛ لأنّه أوّلاً: إنّ الهدف هو أن يكون هذا الحكم عبرة للناس جميعاً، وسبباً لتطهير المجتمع.

---

(١) شكك عدد من المفسّرين في ضرورة حضور مجموعة من المؤمنين حين تنفيذ حدّ الزنا، في حين أنّ الأمر بالحضور ظاهر من الآية، وهي لا تقصد الاستحباب.

وثانياً: ليكون خجل المذنب مانعاً له من ارتكاب هذا الذنب في المستقبل.

وثالثاً: متى نُفّذ الحدّ بحضور مجموعة من النّاس يتبرأ القاضي والقائمين على تنفيذ الحدّ من أيّة تهمة كالارتشاء أو المهادنة أو التفرقة أو ممارسة التعذيب وأمثال ذلك.

ورابعاً: حضور مجموعة من الناس يمنع التعنت والإفراط في تنفيذ الحدّ.

وخامساً: حضور الناس يمنع المجرم من نشر الشائعات والاتهامات ضد القاضي، كما يحول هذا الحضور من نشاط المجرم التخريبي في المستقبل وغير ذلك من الفوائد.

٤ - ماذا كان حدّ الزاني سابقاً؟

يستفاد من الآيتين (١٥) و(١٦) من سورة النساء أنّ الحكم قبل نزول سورة النّور كان السجن المؤبّد للزانية ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ﴾ وإلحاق الأذى بالزناة غير المحصنين ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ ولم يحدد مقدار هذا الأذى حتى حددته هذه الآيةُ بمائة جلدة، وعلى هذا حلّ الإعدام محل السجن المؤبد في الحكم على الزانية المحصنة، وحُدِّدَ الأذى لغير المحصن بمائة جلدة (ولمزيد من الاطّلاع راجع التّفسير الأمثل في تفسير الآيتين (١٥) و(١٦) من سورة النساء).

٥ - منع الإفراط والتفريط عند تنفيذ الحدّ!

لا ريب في أنّ القضايا الإنسانية والعاطفية توجب بذل أقصى الجهود لمنع إصابة بريء بهذا العقاب، وإصدار العفو وفق الأحكام الإلهية، أمّا إذا ثبت الذنب فلابُدَّ مِن الحسم مِن غير تأثر بالمشاعر الكاذبة والعواطف البشرية إلاّ بالحَقّ، فهيجانُها الجارفُ يُلحِقُ بالنظام الاجتماعي ضرراً كبيراً.

ولا سيما وقد وردت في الآية عبارة: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: عندما يكون الحكم من الله فهو أَبْصَرُ وأحكَم بمواقِع الرأفةِ والرَّحمةِ، فحين ينهى عن الانفعال العاطفي في إقامة حكم شَرْعِي من أجل أنّ أكثرية الناس تتملّكهم هذه الحالة، فيحتمل غلبة عواطفهم وإحساساتهم على عقلهم وإيمانهم، ولا جدالَ في وجود فئة قليلة من الناس تَمِيلُ إلى العُنْفِ، وهذا انحرافُ عَمَّا دَعَانا إليه رَبُّ العِزَّةِ والحِكْمةِ - سبحانَهُ - مِنَ العَدْلِ والإحسان اللذين لا يظهران إلاّ بإقامةِ أحكامِهِ الرشيدة، فلا ينبغي لِمُسلِم أن يزيد أو ينقص في حكم الله سبحانه.

٦ - شروط تحريم الزواج بالزانية والزاني

ذكرنا أنّ ظاهر الآيات السابقة يحرّم الزواج من الزانية والزاني، وخصصتِ الأحاديث الشريفةُ ذلك بالذين اشتهروا بالزنا ولم يتوبوا، وأمّا إذا لم يشتهروا بهذا العمل القبيح، أو أنّهم تركوه وطهّروا أنفسهم منه، وحافظوا على عفتهم، فلا مانع من الزواج منهم.

أمّا الدليل على الصورة الثّانية، وهي حالة التوبة، فإنّه لا ينطبق عنوان الزاني والزانية على هؤلاء فكانت حالة مؤقّتة زالت عنهم، أمّا في الحالة الأُولى فقد ورد هذا القيد في الروايات الإسلامية ويؤيده سبب نزول الآية السابقة، ففي حديث معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الفقيه المعروف «زرارة» سأله عن تفسير ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾، فقال الإمام عليه السلام: «هن نساء مشهورات بالزنا ورجال مشهورون بالزنا، قد شهروا بالزنا وعرفوا به، والناس اليوم بذلك المنزل، فمن أقيم عليه حدّ الزنا، أو شهر بالزنا، لا ينبغي لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه توبته»[١].

كما جاءت أحاديث أُخرى بهذا المضمون.

٧ - فلسفة تحريم الزنا

لا يخفى على أحد مساوىء هذا العمل القبيح على الفرد والمجتمع، ومع ذلك نرى من اللازم بيان هذا المعنى باختصار: إنّ ممارسة هذا العمل القبيح وانتشاره يعرّض النظام الأسريّ إلى الدمار.

ويجعل العلاقة بين الابن وأبيه غامضة وسلبية.

وقد بيّنت لنا التجربة أنّ الأولاد المجهولي النسب يتحولون إلى جُناة خطرين على المجتمع.

كما أنّ هذا العمل القبيح يؤدّي إلى مصادمات بين أصحاب المطامع والأهواء.

إضافة إلى انتشار أنواع الأمراض النفسية والجلدية، وذلك ليس خافياً على أحد.

ومن نتائجه المشؤومة الإجهاضُ وارتكاب الجرائم من هذا القبيل ولمزيد الاطلاع راجع التّفسير الأمثل آخر الآية ٣٢ من (سورة الإسراء).

(١) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٣٣٥.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

التّفسير

عقوبة البهتان

قَد يستغِلّ المعترضون ما نَصّتْ عليه الآيات السابقة من عقوبات شديدة للزاني والزانية فيسيئون للمتطهّرين، فبيّنت الآيات اللاحقةُ هنا عقوبات شديدة للذين يرمون المحصنات، ويُسخّرونَ هذا الحكم لأغراضهم الدنيئة، فجاءت هاتان الآيتان لحفظ الحرمات الطاهرة وصيانة الكرامات مِن عبث هؤلاء المفسدين.

تقول الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فالأشخاص الذين يتّهمون النساء العفيفات بعمل ينافي العفّة (أي الزنا)، ولم يأتوا بأربعة شهود عدول لإثبات ادعائهم. فحكمهم ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ وتضيف الآية حكمين آخرين: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

فهنا لا يقع مثل هؤلاء الأشخاص تحت طائلة العقاب الفيزيقي الشديد فحسب، بل إنّ كلامهم وشهادتهم يسقطان عن الاعتبار أيضاً، لكيلا يتمكنوا من التلاعب بسمعة الآخرين وتلويث شرفهم في المستقبل، مضافاً إلى أنّ وصمة الفسق تكتب على جبينهم فيفتضح أمرهم في المجتمع، وذلك لمنعِهم من تلويث سمعة الطاهرين.

وهذا التشديد في الحكم المشرّع لحفظ الشرفِ والطهارةِ، ليس خاصاً بهذه المسألة، ففي كثير من التعاليم الإسلامية نراه ماثلاً أمامنا للأهميّة البالغة التي يمنحها الإسلام لشرف المرأة والرجل المؤمن الطاهر.

وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا اتهم المؤمن أخاه انماث الإيمان من قلبه كما ينماث الملح في الماء»(١).

ولكِنَّ المولى العزيزَ الحكيمَ سبحانه وتعالى لا يسدّ بابَ رحمته في وجه التائبين،

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٢٦٩، باب التهمة وسوء الظن.

الذين تابوا من ذنوبهم وطهّروا أنفسهم، وندموا على ما فرَّطوا، وسعوا في تعويض ما فاتهم مِن البرّ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد اختلف المفسّرون في كون هذا الاستثناء يعود إلى جملة ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ أو إلى جملة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا﴾، فإذا كانَ الاستثناءُ عائداً إلى الجملتينِ معاً، فمعنى ذلك قبول شهادتهم بعد التوبة وإزالَتُه الحكمَ بفسقهم، أمّا إذا كان عائداً إلى الجملة الأخيرة، فإن الحكم عليهم بالفسق سيزول عنهم في جميع الأحكام الإسلامية، إلاّ أن شهادتهم تظل باطلة لا تُقبَلُ منهم حتى آخر أعمارهم.

إلاّ أنّ المبادىء المعمول بها في «أُصول الفقه» تقول: «إن الاستثناء الوارد بعد عدّة جمل يعود إلى الأخيرةِ منها، إلاّ في حالة وجود قرائن تنص على شمول هذه الجمل بهذا الاستثناء، وهنا يوجد مثل هذه القرينة، لأنّه عندما يزول الحكم بالفسق عن الشخص بتوبته إلى الله، فلا يبقى دليل على رَدِّ شهادته لأنّ عدم قبول الشهادة كان من أجل فسقه، فإذا تاب ورجعت إليه ملكة العدالة فلا يسمى فاسقاً.

وجاءت أحاديث عن أهل البيت عليهم السلام مؤكّدة هذا المعنى، فقد روى أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن النضر بن سويد وحماد عن القاسم بن سليمان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يقذف الرجل فيجلد حداً، ثمّ يتوب ولا نعلم منه إلاّ خيراً أتجوز شهادته؟ قال: «نعم. ما يقال عندكم؟».

قلت: يقولون: توبته فيما بينه وبين الله، ولا تقبل شهادته أبداً.

فقال: «بئس ما قالوا: كان أبي يقول: إذا تاب ولم نعلم منه إلاّ خيراً جازت شهادته»[(١)].

كما رويت أحاديث أُخرى في هذا الباب بهذا المعنى، ولكن يوجد حديث واحد يحمل على التقية.

ومن الضروري أن نذكّر بأنّ كلمة ﴿أَبَدًا﴾ في جملة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَـٰدَةً أَبَدًا﴾ دليل على عمومية الحكم، وكما نعلم فإنّ كل عام يقبل الاستثناء (خاصّة الاستثناء المتصل به)، فالرأي القائل أنّ لفظة ﴿أَبَدًا﴾ تمنع تأثير التوبة خطأ مؤكّد.

(١) وسائل الشيعة، ج ١٨، كتاب الشهادات، الباب ٣٦، ص ٢٨٢.

بحوث

١ - المراد من كلمة «رمى»

«الرّمي» في الأصل هو إطلاق السهم أو قذف الحجر وأمثالهما، وطبيعي أنّه يؤذي في معظم الأوقات، وقد استخدمت الكلمة هنا كناية عن اتهام الأشخاص وسبابهم ووصفِهم بما لا يليق، لأنّ هذه الكلمات كالسهم يصيب الشخص ويجرحه.

ولعل ذلك هو السبب في استخدام هذه الآيات - والآيات المقبلة - لهذه الكلمة بشكل مطلق، فلم تردِ الآيةُ على هذا النحو ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ وإنّما جاءت ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ لأنّ مفهوم ﴿يَرْمُونَ﴾ وخاصّة مع ملاحظة القرائن الكلامية يستبطن معنى (الزنا)، وعدم التصريح به ولا سيما عند الحديث عن النساء العفيفات نوع من الاحترام لهن، وهذا التعبير مثال بارزٌ لإكرام المتطهرين، ونموذج لاحترام الأدب والعفة في الكلام.

٢ - لماذا أربعة شهود؟

من المعلوم أنّ شاهدين عادلين يكفيان - في الشريعة الإسلامية - لإثبات حق، أو ذنب اقترفه شخص ما، حتى وإن كان قتل النفس. أمّا في إثبات الزنا فقد اشترط الله تعالى أربعة شهود، وقد يكون ذلك لأنّ الناس يتعجلون الحكم في هذه المسألة، ويتطاولون بإلصاق تهمة الزنا بمجرّد الشك، ولهذا شدّد الإسلام في هذا المجال ليحفظ حرمات الناس وشرفهم، أمّا في القضايا الأُخرى - حتى قتل النفس - فإنّ موقف الناس يختلف.

إضافة إلى أن قتل النفس ذو طرف واحد في الدعوى، أي إنّ المجرم واحد، أمّا الزنا فذو طرفين، حيث يثبت الذنب على شخصين أو يُنْفَى عنهما، فإذ كان المخصص لكل طرف شاهدين، فيكون المجموع أربعة شهود.

وهذا الكلام تضمنه الحديث التالي: عن أبي حنيفة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام أيّهما أشدّ الزنا أم القتل؟ قال: فقال عليه السلام: القتل: قال: فقلت: فما بال القتل جاز فيه شاهدان، ولا يجوز في الزنا إلاّ أربعة؟ فقال لي: ما عندكم فيه يا أبا حنيفة، قال: قلت: ما عندنا فيه إلاّ حديث عمر، إنّ الله أجرى في الشهادة كلمتين على العباد، قال: ليس كذلك يا أبا حنيفة ولكنّ الزنا فيه حدّان، ولا يجوز أن يشهد كلّ اثنين على واحد،

لأنّ الرجل والمرأة جميعاً عليهما الحدّ، والقتل إنّما يقام الحدّ على القاتل ويدفع عن المقتول(١).

وهناك حالات معينة في الزنا، ينفذ الحد فيها على طرف واحد (كالزنا بالإكراه وأمثاله) إلاّ أنّها حالات مستثناة والمتعارف فيه اتفاق الطرفين، ومن المعلوم أنّ غايات الأحكام تتبع الغالب في الأفراد.

٣ - الشّرط المهم في قبول التوبة

قلنا مراراً: إنّ التوبة ليست فقط بالندامة على ما اقترفه الإنسان وتصميمه على تركه في المستقبل، بل تقتضي - إضافة إلى هذا - أن يقوم الشخص بالتعويض عن ذنوبه اقترفها، فإذا وجّه المرء تهمة لامرأة أو رجل طاهر ثمّ تاب، فيجب عليه أن يعيد الاعتبار إلى من تَضَرَّرَ باتّهامِه، وذلِك بأن يكذب هذه التهمة بَيْنَ كل الذين سمعوها عنه.

فعبارة ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ التي أعقبت عبارة ﴿تَابُواْ﴾ هي إشارة إلى هذه الحقيقة، حيث أوجبت التوبة - كما قلنا - أولا، ثمّ إصلاح ما أفسده وإعادة ماء وجه الذي أساء إليه، وليس صحيحاً أن يتّهم إنسانٌ أخاهُ ظلماً في ملأ عام، أو يعلن عن ذلك في الصحّف وأجهزة الإعلام، ثمّ يستغفر في خلوة داره - مثلاً - ويطلب من الله الصفح عنه، وبالطبع لن يقبل الله مثل هذه التوبة.

لذلك روي عن أئمّة المسلمين قال الرّاوي: سألته عن الذي يقذف المحصنات، تقبل شهادته بعد الحدّ إذا تاب؟ قال: نعم، قلت: وما توبته؟ قال: يجيء فيكذب نفسه عند الإمام ويقول: «قد افتريت على فلانة ويتوب ممّا قال»(٢).

٤ - أحكام القذف

يوجد باب تحت عنوان «حد القذف» في كتاب الحدود.

و«القذف» على وزن «فَعْلُ» يعني لغةً رمي الشيء نحو هدف بعيد، إلاّ أنّه استخدمت كلمة «رمى» كناية عن اتهام شخص ما في عرضه، أو بتعبير آخر: هو سباب يرتبط بهذه الأُمور.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٧٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص (٢٨٣) (أبواب الشهادات باب ٣٦ الحديث ٤).

و«القذف» إذا جرى بلفظ صريح، وبأي لغة وأية صورة فحدّه - كما قلنا سابقاً - هو ثمانون جلدةً، وإذا لم يكن صريحاً فيعزّر القاذف. (ولم ترد في الشريعة الإسلامية حدود للتعزير بل وكل التعزير إلى تقدير القاضي ليقرر حدودها وفق خصائص المذنب وكيفية وقوع الذنب والشروط الأُخرى).

وإذا وجه شخص اتهاماً لمجموعة من الناس، وكرره بالنسبة لكل واحد منهم، فإنّه يواجه حدّ القذف لكل تهمة تفوّه بها، أمّا إذا اتهمهم مرّة واحدة، فينفَّذُ بحقه حَدٌّ واحدٌ إن طالبوا القاضي جميعاً مرة واحدة، وأمّا إذا أقام كلّ واحد منهم الدعوى بصورة مستقلة، فإنه يعاقب المذنب بعدد هذه الدعاوى.

وهذا الموضوع من الأهميّة إلى درجة أنّه إذا اتهم شخصاً ومات المتهم، فلورثته الحق في المطالبة بإقامة الحدّ على الذي اتهم مورثّهم بشيء، وبما أنّ هذا الحكم مرتبط بحق الشخص، فلصاحب الحق العفو عن الذنب وإسقاط الحدّ عنه، باستثناء حالة تكرر هذا الذنب من شخص معين بحيث يعرّض وجود وشرف المجتمع إلى الخطر، فيكون حسابه عسيراً.

وإذا تسابّ شخصان سَقَط الحد عنهما، إلاّ أنّ حاكم الشرع يعزرهما، ولهذا لايجوز للشخص رَدُّ السّباب بالمثل، بَل لَهُ أنْ يطلب من حاكم الشرع معاقبة المذنب.

وعلى كل حال فإنّ هذا الحكم الإسلامي يَرْمي إلى المحافظة على سمعة الناس وشرفهم، وإلى الحيلولةِ دون انتشار المفاسد الاجتماعية والأخلاقية التي يبتلى المجتمع بها عن هذا الطريق، ولو تُرِكَ المفسدون يعملون ما يحلو لهم يسبّون ويتهمون الأشخاص والمجتمع متى شاؤوا دون رادع، لتعرض شرف الناس وكرامتهم إلى الهتك، ولوصل الأمر بسبب هذه التهم الباطلة إلى وقوع الريبة بين الزوج وزوجته، وسوء ظن الأب بشرعية ولده إلى الخطر، ويسيطر الشك وسوء الظن على المجتمع كله، وتروّج الشائعات فتصيب الطاهرين أيضاً، وهنا يستوجب العمل بحزم كبير مثلما عامل الإسلام هؤلاء المسيئين مروّجي التهم والشائعات.

أجل، يجب أن يُضربوا ثمانين جلدة إزاء كل تهمة بالزنا ليقفوا عند حَدّهم، ولتتم المحافظة على كرامة الناس وشرفهم.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

سبب النّزول

روى ابن عباس أنّ سعد بن عبادة (سيد الأنصار) من الخزرج، قال لرسول الله ﷺ بحضور جمع من الأصحاب: «يا رسول الله! لو أتيت لكاع (زوجته) وقد يفخّذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت إنّ في ظهري لثمانين جلدة، فقال النّبي ﷺ:

يا معشر الأنصار ما تَسمعون إلى ما قال سيدكم؟

فقالوا: لا تلمه فإنّه رجل غيور، ما تزوج امرأة إلاّ بكراً، ولا طلّق امرأة له فاجترى رجل منّا أن يتزوجها.

فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، والله إنّي لأعرف أنّها من الله، وأنّها حق، ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك.

فقال ﷺ: فإنّ الله يأبى إلاّ ذاك.

فقال: صدق الله ورسوله.

فلم يلبثوا إلاّ يسيراً حتى جاء ابن عم له، يقال له: هلال بن أُمية من حديقة له قد رأى رجلاً مع امرأته ليلاً، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: إنّي جئت أهلي عِشَاء فوجدت معها رجلاً رأيته بعيني وسمعته بأُذني.

فكره ذلك رسول الله ﷺ حتى رئيت الكراهة في وجهه، فقال هلال: إنّي لأرى الكراهة في وجهك، والله يعلم إنّي لصادق، وإنّي لأرجو أن يجعل الله لي فرجاً.

فهمَّ رسولُ الله بضربه، واجتمعت الأنصار وقالوا: ابتلينا بما قال سعد، أيجلد هلال

وتبطل شهادته؟ فنزل الوحي وأمسكوا عن الكلام حين عرفوا أنّ الوحي قد نزل، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ الآيات، فقال رسولُ الله ﷺ: أبشر يا هلال، فإنّ الله تعالى قد جعل فرجاً.

فقال: قد كنت أرجو ذاك من الله تعالى»[1].

وبنزول الآيات السابقة علم المسلمون الحل السليم لهذه المشكلة، وشرحها كما يأتي.

التّفسير

عقاب توجيه التهمة إلى الزوجة!

يستنتج من سبب النّزول أنّ هذه الآيات في حكم الاستثناء الوارد على حدّ القذف، فلا يُطبق حدّ القذف ﴿ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ على زوج يتّهم زوجته بممارسة الزنا مع رجل آخر، وتقبل شهادته لوحدها ويمكن في هذه الحالة أن يكون صادقاً كما يمكن أن يكون كاذباً في شهادته وهنا يقدم القرآن المجيد حلاً أمثل هو:

على الزوج أن يشهد أربع مرات على صدق ادعائه ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾﴾ وبهذا على الرجل أن يعيد هذه العبارة «أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها من الزنا» أربع مرات لإثبات ادعائه من جهة، وليدفع عن نفسه حدّ القذف من جهة أُخرى. ويقول في الخامسة: «لعنة الله عليَّ إن كنت من الكاذبين».

وهنا تقف المرأة على مفترق طريقين، فإمّا أن تقرّ بالتهمة التي وجهها إليها زوجها، أو تنكرها على وفق ما ذكرته الآيات التالية.

ففي الحالة الأُولى تثبت التهمة.

وفي الثّانية ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾. وبهذا الترتيب تشهد المرأة خمس مرات مقابلُ شهادات الرجل الخمس - أيضاً - لتنفي التهمة عنها. بأن تكرر أربع شهادات

(١) تفاسير مجمع البيان، ج٧، ص١٢٨، وتفسير في ظلال القرآن، وتفسير نور الثقلين، وتفسير الميزان، في تفسير الآيات مورد البحث (مع بعض الاختلاف).

«أشهد بالله إنّه لمن الكاذبين فيمَا رماني من الزنا» وفي الخامسة تقول «أن غضب الله عليَّ إن كان من الصادقين».

وهذِهِ الشهاداتُ منهما هي ما يسمّى بـ«اللعان»، لاستخدام عبارة اللعن في الشهادة.

وليترتب على هذين الزوجين أربعة أحكام نهائية:

أوّلها: انفصالهما دون طلاق.

وثانيها: يحرم الزوج على الزوجة إلى الأبد، أي لا يمكنهما العودة إلى الحياة الزوجية معاً بعقد جديد.

وثالثها: سقوط حدّ القذف عن الرجل، وحد الزنا عن المرأة (وإذا رفض أحدهما تنفيذ هذه الشهادات يقام عليه حَدُّ القذف إن كان الرافض الرجل، وإن كانت المرأة يقام عليها حدّ الزنا).

ورابعها: الطفل الذي يولد بعد هذه القضية لا ينسب إلى الرجل، وتحفظ نسبته للمرأة فقط.

ولم ترد تفاصيل الحكم السابق في الآيات المذكورة أعلاه، وإنّما جاء في آخر الآية موضع البحث ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾. فهذه الآية إشارة إجمالية إلى تأكيد الأحكام السابقة، لأنّها تدل على أنّ اللعانَ فضل من الله، إذ يحل المشكلة التي يواجهها الزوجان، بشكل صحيح.

فمن جهة لا يجبر الرجل على التزام الصمت إزاء سوء تصرف زوجته ويمتنع من مراجعة الحاكم الشرعي.

ومن جهة أُخرى لا تتعرض المرأة إلى حدّ الزنا الخاص بالمحصنة بمجرّد توجيه التهمة إليها، بل يمنحها الإسلام حق الدفاع عن نفسها.

ومن جهة ثالثة لا يلزم الرجل البحث عن شهود أربعة إن واجه هذه المشكلة، لإثبات هذه التهمة النكراء والكشف عن هذه الفضيحة المخزية.

ومن جهة رابعة يفصل بين هذين الزوجين ولا يسمح لهما بالعودة إلى الحياة الزوجية بعقد جديد في المستقبل أبداً، لتعذّر الاستمرار في الحياة الزوجيةِ إن كانت التهمة صادقة، كما أنّ المرأة تصاب بصدمة نفسية إن كانت التهمة كاذبة، وتجعل الحياة المشتركة ثانية صعبة للغاية ولا تقتصر على حياة باردة وخاملة، بل ينتج عن هذه التهمة عداء مستفحلٌ بينهما.

ومن جهة خامسة توضح الآية مستقبل الوليد الذي يولد بعد توجيه هذه التهمة.

هذا كله فضل من الله ورحمة مَنَّ بها على عباده، وحل هذه المشكلة بشكل عادل يُعبِّرُ عَنْ لطفِ اللهِ بعبادِهِ وَرَحمته لهم، ولو دققنا النظر في الحكم لرأينا أنّه لا يتقاطع مع ضرورة وجود شهود أربعة في هذه القضية، إذ إنّ تكرار كل من الرجل والمرأة شهادتهما أربع مرات يعوض عن ذلك.

ملاحظات

١ - لماذا استثني الزوجان من حكم القذف؟

السّؤال الأوّل الذي يطرح نفسه هنا: ما هي خاصية الزوجين، ليصدر هذا الحكم المستثنى بحقّهما؟

ونجد جواب هذا السؤال من جهة في سبب نزول الآية، وهو عدم تمكن الرجل من التزام الصمت إزاء مشاهدته لزوجته وهي تخونه مع رجل آخر.

كيف له أن يمتنع عن رد الفعل إزاء الاعتداء على شرفه؟ وإذا توجّه إلى القاضي وهو يصرخ ويستنجد، فقد يواجه حدّ القذف، لعدم تيقن القاضي من صدق دعواه، وإذا حاول إحضار أربعة شهود، فإن ذلك صعب عليه لمساسه بشرفه، وقد تنتهي الحادثة ولا يمكنه إحضار شهوده في الوقت المناسب.

ومن جهة أُخرى، فإنّ الغرباء يتّهمون بعضهم بعضاً بسهولة، ولكن الرجل والمرأة نادراً ما يتّهم أحدهما الآخر.

ولهذا السبب حكم الشارع في هذه القضية بوجوب إحضار أربعة شهود في غير الزوجين، وإلاّ نُفِّذَ حَدُّ القذف على الذي يوجه تهمة الزنا، وليس الأمر كذلك بالنسبة للزوجين، ولهذا خصّهما الحكم المذكور لما فيهما من ميزات خاصّة في هذه الحالة.

٢ - كيفية اللعان

توصلنا بعد الإيضاحات التي ذكرناها خلال تفسير هذه الآيات، إلى وجوب تكرار الرجل شهادته أربع مرات ليثبت صحة دعواه في اتهامه لزوجته بالزنا، ولينجو من حَدِّ القذف، وبهذا فإن هذه الشهادات الأربع من الزوج بمثابة أربعة شهود، وفي الخامسة يتقبل لعنة الله عليه إن كان كاذباً.

ومع الالتفات إلى أن تنفيذ هذه الأحكام يتم عادة في محيط إسلامي ملتزم وبيئة

متديّنة، ويرى الزوج نفسه مضطراً للوقوف بين يدي الحاكم الشرعي، ليدلي بشهادته أربع مرات بشكل حاسم لا يقبل الشك والترديد، وفي الخامسة يطلب من الله أن يلعنه إن كان كاذباً، فهذا كله يمنع الرجل من التهوّر وتوجيه اتهام باطل إلى زوجته.

أمّا المرأة التي تريد الدفاع عن نفسها وترى نفسها بريئة من هذه التهمة، فعليها تكرار شهادتها أربع مرات وتشهد أنّ التهمة باطلة، لإيجاد موازنة بين شهادتي الرجل والمرأة، وبما أنّ التُّهمة موجهة للمرأة، فإنّها تدافع عن نفسها بعبارة أقوى في المرحلة الخامسة، حيث تدعو الله أن ينزل غضبه عليها إن كانت كاذبة.

وكما نعلم فإنّ «اللعنة» ابتعاد عن الرحمة.

وأمّا «الغضب» فإنّه أمر أشد من اللعنة، لأنّ الغضب يستلزم العقاب، فهو أكثر من الابتعاد عن الرحمة.

ولهذا قلنا في تفسير سورة الحمد: إنّ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم أسْوَأ من ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ على الرغم من أنّ الضالّين هم بالتأكيد بعيدون عن رحمة الله تعالى.

٣ - العقاب المحذوف في الآية

جاءت الآية الأخيرةُ - ممّا نحن بصدده - جملةً شرطيةً لم يذكر جزاءها حيث تقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾. لكنّها لم تذكر نتيجة ذلك، وبملاحظة القرائن فيها يتّضح لنا جواب الشرط، والصمت إزاء مسألة ما يكشف عن أهميتها البالغة، ويثير في مخيلة المرء تصورات عديدة لها، وكل تصور منها له مفهوم جديد، فهنا قد يكون جواب الشرط: لولا فضل الله ورحمته عليكم، لكشف عن أعمالكم وفضحكم.

أو: لولا فضل الله ورحمته عليكم، لعاقبكم فوراً وأهلككم.

أو: لولا هذا الفضل، لما وضع الله سبحانه وتعالى مثل هذه الأحكام الدقيقة من أجل تربيتكم.

وفي الواقع فإن حذف جواب الشرط يثير في فكر القارىء كل هذه الأمور(١).

---

(١) ذكر تفسير «الميزان» جواب الشرط بشكل يشمل التفاسير الأُخرى قال: «لولا ما أنعم الله عليكم من نعمة الدين وتوبته لمذنبيكم وتشريع الشرائع لنظم أمور حياتكم، لزمتكم الشقوة، وأهلكتكم المعصية والخطيئة، واختل نظام حياتكم بالجهالة».

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ
امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾
لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ
﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ
هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي
مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ
لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم
مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

سبب النّزول

ذكر سببين لنزول الآيات السابقة

أوّلهما: ما روته عائشة زوجة الرّسول قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سفر أقرع بين أزواجه فأيّتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة[1] غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب وأنا أُحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل.

فدنونا من المدينة قافلين، آذن ليله بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلمّا قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار[2]. قد انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنّي فيه، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنّما تأكل المرأة العلقة[3] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة

(١) هي غزوة بني المصطلق في العام الخامس للهجرة.
(٢) ظفار كقطام بلد باليمن قرب صنعاء، وجزع ظفاري منسوب إليها والجزع الخرز وهو الذي فيه سواد وبياض.
(٣) العلقة من الطعام ما يمسك به الرمق.

الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فيممت منزلي الذي كنت به فظننت أنّهم سيفقدوني فيرجعون إليّ فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت.

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثمّ الذكوانيّ من وراء الجيش فأدلج(١) فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة واحدة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطأها على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك فيّ من هلك.

وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أُبيّ ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أُشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكى إنّما يدخل عليّ فيسلم ثمّ يقول: كيف تيكم؟ ثمّ ينصرف فذاك الذي يريبني ولا اشعر بالشرّ حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي أُم مسطح قبل المناصع(٢) وهي متبرزنا وكنّا لا نخرج إلاّ ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأوّل في التبرّز قبل الغائط فكنّا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا وأُم مسطح فأقبلت أنا وأُم مسطح قبل بيتي قد أشرعنا(٣) من ثيابنا فعثرت أُم مسطح في مرطها(٤) فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟

قالت: إي هنتاه(٥) أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي.

فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ فسلّم ثمّ قال: كيف تيكم؟ فقلت:

---

(١) أدلج القوم: ساروا الليل كله أو في آخره.
(٢) المناصع: المواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة.
(٣) أي رفعنا ثيابنا.
(٤) المرط - بالكسر - كساء واسع يؤتزر به وربما تلقيه المرأة على رأسها وتتلفع به.
(٥) خطاب للمرأة يقال للرجل يا هناه.

أتأذن لي أن آتي أبوي؟ - قالت: وأنا حينئذ أُريد أن أستيقن الخبر من قبلهما - قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت لأبوي فقلت لأُمي: يا أُمتاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوّني عليك فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبّها ولها ضرائر إلاّ أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثمّ أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأُسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله، فأمّا أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الودّ فقال: يا رسول الله ﷺ أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً، وأمّا علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثيرة وإن تسأل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت شيئاً يريبك؟ قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمضه أكثر من أنّها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله.

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي فقال وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله ﷺ أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من بني الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعد ابن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميّة فقال لسعد: كذبت لعمر الله ما تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أُسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة، قال: كذبت لنقتلنه فإنّك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاورا الحيّان: الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكنوا وسكت.

فبكيت يومي ذلك فلا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي.

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثمّ جلس ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل قبلها وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء،

فتشهد حين جلس ثمّ قال: أمّا بعد يا عائشة إنّه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثمّ تاب تاب الله عليه.

فلمّا قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص[1] دمعي حتى ما أُحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عنّي رسول الله ﷺ. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأُمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إنّي والله لقد علمت أنّكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به فلئن قلت لكم: إنّي بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدّقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنّي منه بريئة لتصدّقنّي، والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلاّ قول أبي يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

ثمّ تحوّلت فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرّئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرّئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أُنزل عليه فلمّا سري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك فكان أوّل كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة أمّا الله فقد برّأك، فقالت أُمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلاّ الله الذي أنزل براءتي، وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ العشر الآيات كلها.

فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ - إلى قوله - ﴿رَّحِيمٌ﴾ قال أبو بكر: والله إنّي أُحبّ أن يغفر الله لي فأرجع إلى مَسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

---

(١) قلص: اجتمع وانقبض.

قالت عائشة: فكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة حجش عن أمري فقال: يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلاّ خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج النّبي ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك[١].

وفي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام يقول: لما هلك إبراهيم ابن رسول الله ﷺ حزن عليه حزناً شديداً فقالت عائشة: ما الذي يحزنك عليه؟ ما هو إلاّ ابن جريح، فبعث رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وأمره بقتله.

فذهب علي عليه السلام ومعه السيف وكان جريح القبطي في حائط فضرب علي عليه السلام باب البستان فأقبل جريح له ليفتح الباب فلما رأى عليّاً عليه السلام عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان فوثب علي عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولّى جريح مدبراً فلما خشي أن يرهقه[٢] صعد في نخلة وصعد علي عليه السلام في أثره فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء.

فانصرف علي عليه السلام إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون كالمسمار المحميّ في الوبَر أم أُثبّت؟ قال: لا بل تثبّت. قال: والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء، فقال: الحمد لله الذي صرف عنّا السوء أهل البيت[٣].

تحقيق المسألة

على رغم ممّا ذكرته معظم المصادر الإسلامية لهذين السببين فإنّ هناك أموراً غامضةً في السبب الأوّل تثير النقاش، منها:

١ - يستفاد من تعابير هذا الحديث - رغم تناقضاته - أنّ الرّسول الأكرم ﷺ وقع تحت تأثير الشائعة، وأدّى ذلك إلى مشاورتِهِ أصحابَهُ وتغيير سلوكِهِ مع عائشة حتى ابتعد عنها لمدّة طويلة.

وهذا الموضوع لا ينسجم مع عصمةِ النّبي ﷺ وحسب، بل كل مسلم ثابت الإيمان لا ينبغي أن يقع تحت تأثير الشائعات دون مبرر، وإذا تأثّر بالشائعة فعليه ألا يُغيِّر سلوكَهُ عملياً، ولا يَسْتَسلِم للشائعةِ وأثرها فكيف بالمعصوم؟!

(١) تفسير الميزان، ج١٥، ص٩٦ - ١٠٠. (٢) أرهقه: أدركه.
(٣) المصدر السابق، ص١٠٣.

فهل يمكن التصديق أنّ العتاب الشديد الذي ذكرته الآيات التالية وتساءلت: لماذا وقع بعض المؤمنين تحت تأثير هذه الشائعة، ولماذا لم يطلبوا شهوداً أربعة، يشمل النّبي ﷺ؟ هذه تساؤلات تدفعنا في أقل تقدير إلى الشك في صحة سبب النّزول الأول.

٢ - رغم أنّ ظاهر الآيات يَدُلُّ على أن حكم القذف (الاتهام بعمل مخلٍّ بالشرف والعفة) نزل قبل حديث الإفك، فلماذا لم يستدع النّبي ﷺ عبد الله بن أبي ابن سلول وعدداً آخر ممَّنْ نشروا هذه الشائعة ليجري الحد الذي فرضه الله؟ (الاتهام بعمل مخلٍّ بالشرف والعفة الاّ أن يقال بأن آيات القذف والإفك نزلت سويةً وأن حكم القذف قد شرح حينذاك لتناسبه مع الموضوع ففي هذه الصورة ينتفي هذا الإشكال ولكن يبقى الأوّل على قوّته).

أمّا بالنسبة لسبب النّزول الثّاني، فإنّ ما يثير فيه النقاش هو عدّة أُمور، منها:

١ - إن الذي وجّه التهمة - وفقاً لسبب النّزول هذا - هو شخصٌ واحدٌ لا غير، في الوقت الذي ذكرت الآيات فيه أنّهم مجموعة، وقد روّجوا لها لدرجة شيوعها تقريباً في المدينة كلها. لهذا استخدمت الآيات ضمير جمع للمؤمنين الذي عاتبتهم بشدّة، والذين تورّطوا في تصديق وترويج هذه الشائعة، وهذا لا ينسجم أبداً مع سبب النّزول الثّاني.

٢ - يبقى سؤال هو: إذا كانت عائشة ارتكبت هذا الإثم (القذف) ثمّ ثبت خلافه، فلماذا لم يُنفِّذِ النّبي ﷺ حَدَّ القذف بحقها؟

٣ - كيف يمكن للنّبي الأكرم ﷺ أن يصدر حكم القتل بحق شخص بشهادة امرأة واحدة؟ مع أنّ التنافس بين زوجات رجل واحد أمر اعتياديّ، والانحراف عن الحق والعدل أو ارتكاب إحداهن لخطأ على الأقل ممكن.

وليس مهماً ما يكون سبب النّزول، بل المهم أن نعلم من مجموع الآيات هو أنّه قد اتهم شخص بريء بعمل مخلّ بالعفة والشرف حين نزول هذه الآيات، وأنّ الشائعات كانت منتشرة في المدينة، كما يفهم من الدلائل الموجودة في هذه الآية، أن هذه التهمة كانت موجهة لشخص له أهميّة خاصّة في المجتمع آنذاك، وأنّ مجموعة من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الإخلال بالمجتمع الإسلامي بترويجهم هذه الشائعة، فنزلت هذه الآيات، وتصدّت لهذه الحادثة بقوة، ودفعت المنحرفين والمنافقين الحاقدين إلى جحورهم.

ومهما يكن سبب نزول هذه الأحكام، فإنّها لا تخص سبب النّزول وحده، ولا تنصرف لزمانه ومكانه فقط، بل هي أحكام نافذة في كُلِّ بيئة وزمان.

بعد هذا الحديث نشرع في تفسير هذه الآيات لنرى كيف يتابع القرآن بفصاحته وبلاغته هذه الحادثة الخاصّة، وكيف يبحث تفاصيلها بدقّة.

التّفسير

حديث الإفك المثير

تقول أوّل آية من الآيات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادثة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ لأن من علائم الفصاحة والبلاغة، حذف الجملِ الزائدة، والاكتفاء بما تدلّ عليه الكلمات من معانٍ شاملة.

كلمة «الإفك» على وزن «فكر» كما يقول الراغب الإصفهاني: يقصد بها كل مصروف عن وجهه، الذي يحق له أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادلة عن المهاب «مؤتفكة» ثمّ أطلقت على كل كلام منحرف عن الحق ومجانب للصواب، ومن ذلك يطلق على الكذب «إفك».

ويرى «الطبرسي» في مجمع البيان أنّ الإفك لا يطلق على كل كذبة بل الكذبة الكبيرة التي تبدل الموضوع عن حالته الأصلية، وعلى هذا يستفاد أنّ كلمة «الإفك» بنفسها تبيّن أهمّية هذه الحادثة وكذب التهمة المطروحة.

وأمّا كلمة «العُصبة» فعلى وزنِ «فُعْلَة» مشتقّة من العَصَبْ، وجمعها أعصاب، وهي التي تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، وعلى شكل شبكة منتشرة في الجسم، ثمّ أطلقت كلمة «عصبة» على مجموعة من الناس متحدة وذات عقيدة واحدة.

واستخدام هذه الكلمة يكشف عن الارتباط الوثيق بين المتآمرين المشتركين في ترويج حديث الإفك، حيث كانوا يشكّلون شبكة قوية منسجمة ومستعدة لتنفيذ المؤامرات.

وقال البعض: إنّ هذه المفردة تستعمل في عشرة إلى أربعين شخصاً[(١)].

وعلى كل حال فإنّ القرآن طمأن وهدّأ روع المؤمنين الذين آلمهم توجيه هذه التهمة إلى شخصية متطهرة ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، لأنّه كشف عن حقيقةِ عدد من

(١) نقل تفسير «روح المعاني» هذا المعنى عن كتاب «الصحاح».

الأعداء المهزومين أو المنافقين الجبناء، وفضح أمر هؤلاء المرائين، وسوّد وجوههم إلى الأبد.

ولو لم تكن هذه الحادثة، لما افتضح أمرهم بهذا الشكل، ولكانوا أكثر خطراً على المسلمين.

إنّ هذا الحادث علّم المسلمين أن اتّباع الذين يروّجون الشائعات يجرّهم إلى الشقاء، وأنَّ عليهم أن يَقِفُوا بقوّة أمام هذا العمل. كما علّم هذا الحادث المسلمين درساً آخر، وهو أنَّ لا ينظروا إلى ظاهر الحادثِ المؤلم، بل عليهم أن يتبحّروا فيه، فقد يكون فيه خير كثير رغم سوء ظاهره.

وممّا يلفت النظر أنّ ذكر ضمير «لكم» يعمّ جميع المؤمنين في هذا الحادث، وهذا حقّ، لأن شرف المؤمنين وكيانهم الاجتماعي لا ينفصل بعضه عن بعض، فهم شركاء في السرّاء والضرّاء.

ثمّ تعقّب هذه الآية بذكر مسألتين:

أولاهما: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ إشارة إلى أنّ المسؤولية الكبرى التي تقع على عاتق كبار المذنبين لا تحول دون تحمل الآخرين لجزء من هذه المسؤولية، ولهذا يتحمل كلّ شخص مسؤوليته إزاء أية مؤامرة.

والمسألة الثانية: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال بعض المفسّرين: إنّ الشخص المقصود هو «عبد الله بن أُبي ابن سلول» قائد أصحاب الإفك.

وقال آخرون: إنّه مسطح بن أُثاثة. وحسان بن ثابت كمصاديق لهذا الخطاب.

وعلى كل حال، فإنّ الذي نشط في هذا الحادث أكثر من الآخرين، وأضرم نار الإفك، هو قائد هذه المجموعة الذي سيُعاقَبُ عِقاباً عظيماً لِكبر ذنبه. (ويحتمل أن كلمة «تولى» يقصد بها رأس مروجي حديث الإفك).

ثمّ تَوجّهت الآية التالية: إلى المؤمنين الذين انخدعوا بهذا الحديث فوقعوا تحت تأثير الشائعات، فلامتهم بشدّة ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

أي: لِمَاذا لم تقفوا في وَجْهِ المنافقين بقوّة، بل استمعتم إلى أقوالهم التي مسّت مؤمنين آخرين كانوا بمنزلة أنفسكم منكم. ولماذا لم تدفعوا هذه التهمة وتقولوا بأن هذا الكلام كذب وافتراء: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؟

إنّكم كنتم تعرفون جيداً الماضي القبيح لهذه المجموعة من المنافقين، وتعرفون جيداً

طهارة الذي اتّهم، وكنتم مطمئنين من عدم صدق هذه التهمة وفق الدلائل المتوفرة لديكم.

وكنتم تعلمون أيضاً بما يحاك من مؤامرات ضدّ النّبي ﷺ من قبل الأعداء والمنافقين، لذا فإنّكم تستحقون اللوم والتأنيب لمجرد هذه الشائعات الكاذبة، ولالتزامكم الصمت إزاءها، فكيف بكم وقد اشتركتم في نشر هذه الشائعة بوعي أو دون وعي منكم؟

وممّا يلفت النظر أنّ الآية السابقة بدلاً من أن تقول: عليكم أن تحسنوا الظن بالمتهم وتصدقوا تهمته، فإنّها تقول: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ وهذه العبارة - كما قلنا - إشارة إلى أنَّ أنفس المؤمنين كنفس واحدة، فإذا اتّهم أحدهم، فكأنّ التهمة موجهة لجميعهم، ومثالهم في ذلك كمن اشتكى عضو منه فهبت بقية الأعضاء لنجدته.

وهكذا يجب أن يهبّ المسلم للدفاع عن إخوته وأخواته في الدين مثلما يدافع عن نفسه[١].

وقد استعملت كلمة «الأنفس» في آيات أخرى من القرآن في هذا المعنى أيضاً - في مثل هذه الحالات - كما هو في الآية ١١ من سورة الحجرات ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾! أمّا الاستناد إلى الرجال والنساء المؤمنين فيشير إلى قدرة الإيمان على ردع سوء الظن بالآخرين.

وحتى هذه اللحظة كانت الملامة ذات طابع أخلاقي ومعنوي، وتقضي بعدم التزام المؤمنين جانب الصمت إزاء مثل هذه التهم القبيحة، أو أن يكونوا وسيلة بيد مُروّجي الشائعات.

ثمّ تهتم الآيات بالجانب القضائي للمسألة فتقول: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي لماذا لم تطلبوا منهم الإتيان بأربعة شهود. ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

إنّ هذه الملامة تبيّن أنّ الحكم بأداء أربعة أشخاص لشهادتهم، وكذلك حدّ القذف في حالة عدمه قد نزل قبل الآيات التي تناولت حديث الإفك.

وأمّا الجواب عن سؤال: كيف لم يقدم النّبي ﷺ على تنفيذ هذا الحدّ؟ فإنّه

---

(١) وأمّا قول البعض بأن المضاف محذوف وتقديره «ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفس بعضهم خيراً» ليس صائباً ويفقد الآية جمالها وروعتها.

واضح، لأنّه ﷺ لم يقدم على شيء ما لم يسند من قبل الناس، فالتعصب القبلي قد يؤدّي إلى مقاومة سلبية لبعض أحكام الله ولو بصورة مؤقتة، وقد ذكر المؤرخون أنّ الأمر كان هكذا في هذه القضية.

وأخيراً جمعت الآية التالية هذه الملامات، فقالت: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ونظراً لأن ﴿أَفَضْتُمْ﴾ مشتقة من الإفاضة، بمعنى خروج الماء بكثرة، واستُعْمِلت في حالات أُخرى للتوغل في الماء، نَتَج مِن هذِهِ العبارة أنَّ شائعة الإتهام توسعت بشكل شملت المؤمنين مضافاً إلى مروجيها الأصليين (المنافقين).

وتبيّن الآية التالية - في الحقيقة - البحث السابق. وهو كيف ابتلي المؤمنون بهذا الذنب العظيم نتيجة تساهلهم؟ فتقول: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي تذكّروا كيف رحّبتم بهذه التهمة الباطلة فتناقلتموها ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

وتشير هذه الآية إلى ثلاثة أنواع من ذنوبهم العظيمة في هذا المجال:

الأوّل: تَقَبُّل الشائعة: استقبالها وتناقلها.

الثّاني: نشر الشائعة دون أي تحقيق أو علم بصدقها.

الثّالث: استصغار الشائعة واعتبارها وسيلة للّهو وقضاء الوقت، في وقت تمسّ فيه كيان المجتمع الإسلامي وشرفه، إضافة إلى مساسها بشرف بعض المسلمين.

وممّا يلفت النظر أنَّ الآية استعملت تعبير ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ تارةً وأخرى تعبير ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ على الرغم من أنَّ جميعَ الكلام يصدر عن طريق الفم واللسان، إشارة إلى أنّكم لم تطلبوا الدليل على الكلام الذي تقبلتموه، ولا تملكون دليلاً يُسوّغُ لكم نَشْرَهُ، والأمر الوحيد الذي كان بأيديكم هو لقلقة لسانكم وحركات أفواهكم.

ونظراً لهول هذه الحادثة التي استصغرها بعض المسلمين، أكدتها الآية ثانية، فأنّبتهم مرّة أُخرى ولذعتهم بعباراتها إذْ قالت: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

وسبق لهذه الآية أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنهم بالذي وجه إليه الاتهام باطلاً، وهنا تقول الآية: إضافة إلى وجوب حسن الظن بالمتهم يجب ألا تسمحوا لأنفسكم بالتحدث عنه، ولا تتناولوا التهمة الموجهة إليه، فكيف بكم وقد كنتم سبباً لنشرها!

عليكم أن تعجبوا لهذه التهمة الكبيرة، وأن تذكروا الله سبحانه وتعالى، وأن تلجأوا إلى الله يطهركم من نشر هذه التهمة وإشاعتها، ومع كل الأسف استصغرتموها ونشرتموها بكل يسر، فأصبحتم بذلك آلةً بيد المنافقين المتآمرين المروجين للشائعات.

هذا وسنتناول بالبحث - خلال تفسير الآيات القادمة - ذنب اختلاق الشائعة ودوافعها، والسبيل إلى مكافحتها، بعون الله وتوفيقه.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

التّفسير

حرمة إشاعة الفحشاء

تحدثت هذه الآيات أيضاً عن حديث الإفك، والنتائج المشؤومة والأليمة لاختلاق الشائعات ونشرها، واتهام الأشخاص الطاهرين بتهمة تمسّ شرفهم وعفتهم. وهذه القضية مهمّة بدرجة أنّ القرآن المجيد تناولها عدّة مرات، وعَرَضَ لها من طرق مختلفة مؤثرة، باحثاً محللاً لها من أجل ألاّ تتكرر مثل هذه الواقعة الأليمة في المجتمع الإسلامي، فذكر أولاً ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾(١).

أي أنّ من علامات الإيمان أن لا يتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، وإذا ارتكبها فذلك يدلّ على عدم إيمانه أو ضعفه، والجملة المذكورة تشكل - في الحقيقة - أحد أركان التوبة، إذ إنّ الندم على الماضي لا يكفي، بل يجب التصميم على عدم تكرار ارتكاب الذنوب في المستقبل، لتكون توبة كاملة.

وللتأكيد أكثر على أنّ هذا الكلام ليس اعتيادياً، بل صادر عن الله العليم الحكيم، ولبيان الحقائق ذات الأثر الفعّال في مصير الإنسان، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

---

(١) لهذه الجملة كلمة محذوفة هي حرف «لا» وتقديرها: «يعظكم الله أن لا تعودوا لمثله أبداً» وإذا لم نقدّر محذوفاً، فإنّ عبارة: «يعظكم» تعني ينهاكم. أي إنّ الله ينهاكم من العودة إلى مثل هذا العمل.

فهو يعلم تفاصيل أعمالكم تمام العلم، ويصدر أحكامَهُ بمقتضى حكمته الهادِيةِ لكم. وبتعبير آخر: إنّه يعلم حاجاتكم وما يضرّكم وما ينفعكم بمقتضى علمه الواسع، ويصدر أحكامه وأوامره المتناسبة لاحتياجاتكم بمقتضى حكمته.

ولتثبيت الأمر نقل الكلام من مورده الخاص إلى بيان عام لقانون شامل دائم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

وممّا يلفت النظر أنّ القرآن الكريم لم يقل: الذين يشيعون الفاحشة، بل قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ وهذا يحكي عن الأهمّية القصوى التي يدليها القرآن لذلك. وبعبارة أخرى: إنّه لا ينبغي توهم أنّ ذلك كان من أجل زوجة النّبي ﷺ أو شخص آخر بمنزلتها، بل من أجل كلّ مؤمن ومؤمنة، فلا خصوصية في ذلك، إنّما هي عامّة للجميع على الرغم من أن كل حالة لها خصائصها، وقد تزيد الواحدة على الأُخرى في الخصائص أو تنقص.

كما يجب الانتباه إلى أنّ إشاعة الفحشاء لا تنحصر في ترويج تُهمة كاذبة ضد مسلم مؤمن، يتهم بعمل مخل بالشرف، بل هذه مصداق من مصاديقها ولهذا التعبير مفهوم واسع يضم كل عمل يساعد في نشر الفحشاء والمنكر.

وقد وردت في القرآن المجيدِ كلمة «الفحشاء» غالباً للدلالة على العمل المخل بالعفّة والشرف. ولكن من الناحية اللغوية، فقد ذكر الراغب الإصفهاني مفهوماً واسعاً لها فقال: الفحش والفحشاء والفاحشة، ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

ويستعمل القرآن أحياناً هذا المفهوم الواسع، حيث يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾(١).

وبهذا يتّضح المفهوم الواسع للآية:

أمّا قول القرآن الكريم: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فقد يكون إشارة إلى الحدود والتعزيرات الشرعية. وردود الفعل الاجتماعية، وما يبتلى به الناس في هذه الدنيا من مظاهر مشؤومة بسبب أعمالهم القبيحة، إضافة إلى عدم تقبل أية شهادة منهم، وإدانتهم بالفسق والفجور وافتضاح أمرهم، كل ذلك من النتائج الدنيوية التي تترتب على أقوالهم وأعمالهم القبيحة.

(١) سورة الشورى، الآية: ٣٧.

وأمّا عذابهم الأليم في الآخرة، فيكون في ابتعادهم عن رحمةِ الله، واستحقاقهم غضب الله وعذاب النار.

وتختم الآية بالقول: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أجل، وإن الله يعلم بالعاقبة المشؤومة التي تنتظر الذي يشيعون الفحشاء في الدنيا والآخرة، ولكنّكم لا تعلمون أبعاد هذه القضية.

إنّه يعلم الذين يبيتون في قلوبهم حب هذا الذنب، ويعلم الذين يمارسونه تحت واجهات خداعة، أمّا أنتم فلا تعلمون ذلك ولا تدركونَهُ.

أجل، يعلم الله كيف ينزل أحكامه ليحول دون ارتكاب هذه الأعمال القبيحة.

وكررت الآية الأخيرةُ - ممّا نَحنُ بصددِهِ مِن الآيات التي تناولت حديث الإفك ومكافحة إشاعة الفحشاء، وقَذْف المؤمنين المتطهرين - هذه الحقيقة لتؤكّد القول ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

بحوث

١ - ما معنى إشاعة الفحشاء؟

بما أنّ الإنسان مخلوق اجتماعي، فالمجتمع البشري الذي يعيش فيه لَهُ حُرْمة يجب أن لا تقِلَّ عَنْ حرْمتِهِ الشخصيَّةِ، وطهارةُ كلّ مِنْهُما تُساعِدُ في طهارةِ الآخر، وقبح كلّ منهما يسري إلى صاحِبه، وبموجب هذا المبدأ كافح الإسلام بشدّة كُلَّ عمل ينشر السموم في المجتمع، أو يدفعه نحو الهاوية والانحطاط.

ولهذا السبب حارب الإسلام - بقوة - الغيبة والنميمة، لأنّ الغيبة تكشف العيوب الخفية، وتسيء إلى حرمة المجتمع.

أوجب الإسلام ستر العيوب والسبب في ذلك هو ما تقدم من الحيلولة دون انتشار الذنوب في المجتمع، واكتسابها طابع العمومية والشمول.

وعندما نرى اختصاص الذنب العلني بأهمّية أكثر من الذنب الذي يرتكب في الخفاء، حتى أنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: «المذيع بالسيئة مخذول والمستتر

(١) لهذه الجملة محذوف كما يبدو في آيات أُخرى سبقت، وتقديره «لولا فضل الله عليكم لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم».

بالسيئة مغفور له»[١]. فالسبب هو ما ذكرنا.

وهكذا لنفس السبب يدين القرآن - بشدّة - ارتكاب الذنوب في العلن، كإشاعة الفحشاء التي ذكرتها الآيات السابقة فارتكاب الذنوب كالنار التي تسري في الهشيم، تأتي على المجتمع مِن أساسه فتنخُره حتى تَهْدِمَهُ وَتَذْروهُ، لهذا يجب الإسراع لإطفاء هذه النار، أو لمحاصرتها على الأقل. أمّا إذا زدنا النار لهيباً، ونقلناها من مكان إلى آخر، فإنّها ستحرق الجميع، ولا يمكن بَعْدَئذ إطفاؤُها أو السيطرة عليها.

وإضافة إلى ذلك، فإنّه لو عظم الذنب في نظر عامّة الناس، وتمّت المحافظة على سلامة ظاهر المجتمع من التلوث والفساد، فإن ذلك يمنع انتشار الفاحشة بصورة مؤكّدة، أمّا إشاعة الفحشاء والذنوب والتجاهر بالفسق، فمن شأنها أن تحطم هذا السدّ الحاجز للفساد. ويستصغر شأن الذنوب من قبل الناس، ويسهل التورط فيها.

وقد جاء في حديث للرسول الأكرم ﷺ قوله: «من أذاع فاحشة كان كمبتدئها»[٢].

وجاء في حديث آخر عن محمد بن الفضيل عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك الرجل من إخواني بلغني عنه الشيء الذي أكرهه فأسأله عنه فينكر ذلك وقد أخبرني عنه قوم ثقات؟ فقال الإمام عليه السلام لي: «يا محمّد كذب سمعك وبصرك عن أخيك، وإن شهد عندك خمسون قسامة. وقال لك قول فصدقه وكذبهم، ولا تذيعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم به مروءته، فتكون من الذين قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾»[٣] [٤].

وممّا يلزم ذكره أنّ لإشاعة الفحشاء صوراً عديدةً فتارة يكون من قبيل افتعال تهمة كاذبة ونَقلها بين الناس.

وأُخرى يكون بإنشاء مراكِزَ للفساد ونشر الفحشاء.

وثالثة بتوفير وسائل المعصية للناس، أو تشجيعهم على ارتكاب الذنوب.

ورابعة يرتكب الذنب في العلن دون ملاحظة الدين، ولا رعاية لقانون ولا التفات

(١) أصول الكافي، ج ٢، باب ستر العيوب.

(٢) المصدر السابق، باب التغيير.

(٣) كتاب ثواب الأعمال، ص٢٤٧، حسبما ذكره تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٨٢.

(٤) لهذه القضية استثناءات، منها موضوع الشهادة في المحكمة، أو حالات النهي عن المنكر حيث لا سبيل إلاّ بكشف العمل القبيح الذي يرتكبه شخص ما والشهادة ضده.

لآداب عامّة، وكل هذه مصاديق لإشاعة الفحشاء، لانّ لهذه الكلمة مفهوماً واسعاً (فتأملوا جيداً).

٢ - مصيبة الشائعات

إن اختلاق ونشر الشائعة الكاذبة يُودِّي إلى سَيْطَرةِ القَلَقِ واستبدادِ الاضطراب وانعدام الثقةِ، وهذِهِ مِن أهَمِّ ما تَرْمي إليه الحَرْبُ النفسيّةُ للمستعمرين بغية إثارة الْبَلْبلةِ وَنشر الفَزَع، ليتسنى لهم التَّغَلُّب العَسكري والسياسي.

فعندما يعجز العدوّ عن إلحاق الضرر بصورة مباشرة، يقوم بنشر الشائعات، لبثّ الرعب والقلق في الناس، ليشغلهم بأنفُسهم، وَلِيَحْرِفَهُمْ عَنْ أهم قضاياهم حساسية، وليتسنّى لهُ الظُّهُور عليهم والتمكُّن مِنهُم في كل مجال. واختلاق الشائعة من الأسلحة المخربة المستعملة ضدّ الصالحين والطيبين، لِعَزْلِهِم وإقصاءِ الناس عنهم.

وبحسب أسباب النّزول المعروفة بشأن الآيات موضع البحث لجأ المنافقون إلى أخَسِّ السبل لتلويث سمعة النّبي ﷺ والحط من شأنه المقدّس لدى الناس، باختلاق شائعة تمسّ طهارة وعفة إحدى زوجاته مستغلين في ذلك فرصة سنحت لهم، ممّا أدى إلى تشويش أفكار المسلمين، وإدخال الحزن إلى قلوبهم، بحيث اضطرب الجميع، وأصاب المؤمنين القلق الشديد حتى نزل الوحي وأنقذهم من هذه الحالة، ومرّغ أُنُوفَ المنافقين في الوَحلِ بما اختلقوا هذه الشائعة، وجعلهم عبرة للآخرين.

ورغم أنّ اختلاق الشائعة يعدّ نوعاً من الكفاح في المجتمعات التي تسودها الدكتاتورية ويفتقد الناس فيها الحرية، إلاّ أنّ من أسبابها ودوافعها الانتقام، وتصفية الحساب مع أشخاص معنيين، وإزالة الثقة العامّة بالشخصيات الكبيرة، وحرف الرأي العام عن القضايا الجوهرية.

ولا يهمنا أن نعلم دوافع اختلاق الشائعات، إنّما المهم تحذير المجتمع من مغبة الوقوع في براثن الذين يختلقون الشائعات وينشرونها بين الناس، وبذلك يدمرون المجتمع وأنفسهم بأيديهم! وأن نعلّم الناس بأن يدفنوا الشائعة في مهدها، وإلاّ فقد أدخلنا السرور إلى قلب العدوّ، وعرضنا أنفسنا إلى عذاب الدنيا والآخرة كما نصّت عليه الآيات السابقة.

٣ - استصغار الذنب

يستفاد من الآيات السابقة أنّها استنكرتْ استصغار نشر البهتان والتهمة، وهو خطأ

فادِحٌ وَجُرْمٌ عظيمٌ وفي الحقيقة إن استصغار الذنب بذاته ذنب آخر، فالذي يرتكب الذنب ويشعر بعظمة ذنبه، ويندم على ما فعل هو الذي يؤمل فيه التوبة والجبران.

أمّا الذي يستصغر الذنب ويقول: ما أسعدني إن كان ذنبي هذا فقط، فهذا الشخص يسير في طريق خطر وقد يواصل ارتكاب ذنبه، لهذا نقرأ في حديث للإمام علي عليه السلام قوله: «أشد الذنوب ما استهان به صاحبهُ»(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ
يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ
وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ
وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ
ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾
يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ
ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ
وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ
مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

للعقوبات حساب!

على الرغم من عدم متابعة هذه الآيات حديث الإفك بصراحة، إلاّ أنّها تعتبر مكملة لمضمون ذلك البحث، وتحذّر المؤمنين جميعاً من تأثير الأفكار الشيطانية التي تبدو أوّلاً في صورة باهتة، فلابدّ من الانتباه إليها، وإلاّ فالنتيجة سيئة للغاية، ولا يمكن تلافيها بسهولة، فعلى هذا حينما يشعر الفرد بأوّل وسوسة شيطانية بإشاعةِ الفحشاء أو

(١) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة رقم ٣٤٨.

ارتكاب أي ذنب آخر فيجب التصدي له بقوّة حاسمة، حتى يمنع من انتشاره وتوسّعه.

وتخاطب الآية الأُولى المؤمنين، فتقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾(١).

وإذا فسّرنا الشيطان بأنّه كل مخلوق مؤذ وفاسد ومخرّب، يتّضح لنا شمولية هذا التحذير لأبعادِ حياتنا كلها، وحيث لا يمكن جرّ أي إنسان مؤمن متطهر مرّة واحدة إلى الفساد، فإنّ ذلك يتمّ خطوة بعد أُخرى في طريق الفساد:

الخطوة الأُولى: مرافقة الملوثين والمنحرفين.

الخطوة الثّانية: المشاركة في مجالسهم.

الخطوة الثّالثة: التفكير بارتكاب الذنوب.

الخطوة الرّابعة: ارتكاب الأعمال المشتبه بها.

الخطوة الخامسة: ارتكاب الذنوب الصغيرة.

وأخيراً الابتلاء بالكبائر، وكأنّ الإنسان في هذه المرحلة يسلّم نفسه لمجرم ليقوده نحو الهاوية، أجل هذه ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ﴾(٢).

ثمّ تشير الآية إلى أهم النعم الكبيرة التي منَّ الله بها على الإنسان في هدايته فتقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ولا شك في أنّ الفضل والرحمة الإلهية ينقذان الإنسان من الانحطاط والانحراف من الذنوب جميعاً، فالله منحه العَقْلَ، ولطف به فأرسل إليهِ الرُّسُلَ، وَيسَّرَ له سُبُلَ الارتقاء والاهتداء، وأعانَهُ على استكمالِ الخَيْرِ، وإضافة إلى هذه المواهب شمل الله الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصّة، وإمداداته التي يستحقونها، والتي تعتبر أهم عنصر في تطهير وتزكية النفس.

وكما أسلفنا. مراراً، فإنّ عبارة ﴿مَن يَشَآءُ ۗ﴾ لا تعني المشيئة دون مبرّر، بل إنّ الله

---

(١) هناك محذوف لجملة (ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء) وهو جواب الشرط وتقديره «ومن يتبع خطوات الشيطان ارتكب الفحشاء والمنكر فإنّه يأمر بهما» (روح المعاني، ج ١٨، ص ١١٢ تفسير آخر الآيات مورد البحث) ويجب الإنتباه إلى أن جملة فإنّه يأمر بالفحشاء، لا يمكن اعتبارها جواباً للشرط.

(٢) بحثنا الفرق بين الفحشاء والمنكر في تفسير الآية (٩٠) من سورة النحل.

يهدي عباده الذين يسعون في نيلها، الذين يسيرون في الطريق إلى الله، ويجاهدون في سبيله، فيمسك الله بيدهم ويحفظهم من وساوس الشيطان وكيده حتى يبلغهم الهدف الأسمى.

وبعبارة أُخرى: إنَّ الفضل والرحمة الإلهيّة تارة يكون لهما جانب تشريعي عن طريق الرسل عليهم السلام والكتب السماوية، وما فيها من تعاليم إلهية وبشارات وإنذارات سماوية، وأُخرى يتخذ الفضل والرحمة الإلهيّة جانباً تكوينياً عن طريق الإمدادات المعنوية الإلهيّة.

والآيات موضع البحث استهدفت القسم الثّاني، بدليل عبارة ﴿مَن يَشَآءُ﴾، ويجب الانتباه إلى أن «الزكاة» و«التزكية» تعني في الأصل النمو، والعمل من أجل النمو، إلاّ أنّها وردتْ غالباً بمعنى التطهُّر والتطهير.

ويمكن إرجاعها إلى أصل واحد، إذ إنّ النمو والرشد لا يمكن أن يتحققا إلاّ بزوالِ الحواجز والتطهير من المفاسد والرذائل.

وذكر عدد من المفسّرين سبباً لنزول الآية الثّانية - من الآيات موضع البحث - يكشف عن تلاحمها مع الآيات السابقة، قال: إنّ هذه الآية نزلت بشأن عدد من الصحابة أقسموا على عدم تقديم مساعدة مالية إلى الذين تورّطوا في هذه القضية وأشاعوا هذه التهمة بين الناس، وألا يشاركوهم همومَهم، فنزلت هذه الآية لتمنعهم من رَدِّ فعل قاس، وأمرتهم بالعفو والسماح.

وقد روى سبب النّزول هذا «القرطبي» في شأن نزول هذه الآيات في تفسيره عن ابن عباس والضحاك، ورواه المرحوم «الطبرسي» عن ابن عبّاس، ورواهُ آخرون لدى تفسير الآيات موضع البحث، وهو يمتاز بعموميته.

إلاّ أنّ مجموعة من مفسّري أهل السنة يُصرُّون على أن هذه الآية نزلت بخصوص «أبي بكر» حيث أقسم بعد حادث الإفك على عدم تقديم أية مساعدة مالية لـ«مسطح بن أثاثة» الذي كان ابن خالته، أو ابن أخته، وهو الذي نشر شائعة الإفك، في حين أنّ الضمائر التي استعملتها الآية، جاءت بصيغة الجمع، وتبيّن أنّ مجموعة من المسلمين اتخذوا قراراً بقطع مساعداتهم عن هؤلاء المجرمين، إلاّ أنّ هذه الآية نهتهم عن العمل.

ومن المعلوم أنّ الآيات القرآنية لا تختص بسبب النّزول فقط، بل تشمل جميع

المؤمنين إلى يوم القيامة، فهي توصي المسلمين جميعاً بألاّ يستسلموا لعواطفهم، وألاّ يتخذوا مواقف عنيفة إزاء أخطاءِ الآخرين.

نعود الآن إلى تفسير الآية بملاحظة سبب النّزول هذا:

يقول القرآن: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

إنّ هذا التعبير يكشف أنّ عدداً ممن تورّط في قضية الإفك كانوا من المهاجرين في سبيل الله إذْ خدعهم المنافقون، ولم يُجز الله طردهم من المجتمع الإسلامي لماضيهم المجيد، كما لم يسمح بعقابهم أكثر ممّا يستحقونه.

كلمة ﴿يَأْتَلِ﴾ مشتقّة من «أليّة» (على وزن عطيّة) أي اليمين، أو إنّها مشتقة من «ألُو» (على وزن دلو) بمعنى التقصير والترك.

وعلى هذا، فإنّ الآية تعني وفق المعنى الأوّل النّهي عن هذا القَسَمْ بقطع مثل هذه المساعدات(١)، وعلى المعنى الثّاني النهي على التقصير في مساعدتهم وترك مثل هذا العمل.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ لتشجيع المسلمين وترغيبهم في العفو والصفح بقولها: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فإنّكم مثلما تأملون من الله العفو عنكم وأن يغفر خطاياكم، يجب عليكم العفو والصفح عن الآخرين ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والمثير للدهشة أنّ أصحاب الإفك أُدينوا بشدّة في آيات شديدة اللهجة، إلاّ أن هذه الآية الشريفة تتحرك من موقع التأثير على المتشدّدين في موقفهم من هؤلاء لمنعهم من تجاوز الحدّ في العقوبة بثلاث جمل ذاتِ تَشَعْشُع أخّاذ. الأول: الأمر بالعفو والصفح.

ثمّ تقول: ألا تحبّون أن يغفر الله لكم؟ فينبغي عليكم أن تعفوا وتصفحوا كذلك.

ولتأكيد ذلك تذكر الآية صفتين من صفات الله «الغفور» و«الرحيم».

وهكذا تقول الآية للناس: لا يمكنكم أن تكونوا أحرص من الله الذي هو صاحب هذا الحكم، وهو يأمركم بألاّ تقطعوا مساعداتكم.

ممّا لاشك فيه أنّ جميع المسلمين الذين تورطوا في حادثة الإفك لم يكونوا مشاركين

---

(١) في هذه الحالة يجب تقدير وجود حرف «لا» قبل «يؤتوا» فيكون التقدير «ولا يأتل... أن لا يؤتوا».

في التآمر بهذا الصدد، ولكن المنافقين هم الذين وضعوا أساس فتنة الإفك وتبعهم مسلمون مضلَّلون.

ولا شك في أنّهم جميعاً مقصّرون ومذنبون، ولكن بين هاتين المجموعتين فرق كبير، وعلى هذا يجب أن لا يعامل الجميع سواسية.

وعلى كل حال، ففي الآيات السابقة درس كبير لحاضر المسلمين ومستقبلهم، وتذكير لهم بأن لا يتجاوزوا الحدُّ المقرّرُ في معاقبةِ المذنبينِ، ولا ينبغي طردهم من المجتمع الإسلامي، أو إغلاق باب المساعدة في وجوههم، ذلك من أجل المحافظة عليهم كي لا يزدادوا انحرافاً فيقعوا في أحضان العدوّ، أو ينحازوا إلى جانبه.

وترسم هذه الآيات صورة للتعادل الإسلامي في جذبه ودفعه، وتشكل آيات الإفك والعقوبات الشديدة التي تفرض على الذين يتهمون الآخرين في شرفهم «قوة الدفع». وأمّا الآية موضع البحث التي تتحدث عن العفو والصفح وكون الله غفوراً رحيماً. فإنها تكشف عن «قوة الجذب»!

ثمّ تعود الآية إلى قضية القذف واتّهام النساء العفيفات المؤمنات في شرفهن، فتقول بشكل حازم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

ذكرت هذه الآية المباركة ثلاث صفات لهؤلاء النسوة، كلّ واحدة تشكل دليلاً على مدى الظلم الذي تعرضن إليه باتهامهنّ في شرفهنّ: «المحصنات» أي العفيفات الطاهرات الذيل و«الغافلات» البعيدات عن كل تهمة وتلوّث و«المؤمنات»، كما تكشف العذاب العظيم الذي ينتظر من يقترف هذا العمل(١).

كما أنّ عبارة - «غافلات» تلفت النظر، لأنّها تكشف عن منتهى طهارتهنّ من أي انحراف وتلوّث، أي أنّهن غافلات عن كل تلوث جنسي إلى درجة وكأنّهن لا يعلمن بوجود مثل هذا العمل فتارة يكون الإنسان في مقابل الذنب أن لا يخطر على ذهنه وجود مثل هذا الذنب في الخارج وهذه مرحلة عالية من التقوى.

ويحتمل أن يكون المراد من ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ أنّهن لا يعلمن بما ينسب اليهنّ من بهتان في الخارج، ولهذا لسن في صدد الدفاع عن أنفسهنّ، وفي النتيجة فإنّ الآية تطرح موضوعاً جديداً للبحث، لأنّ الآيات السابقة تحدثت عن مثيري التهم الذين يمكن التعرف عليهم

---

(١) تفسير الميزان، تفسير الآيات مورد البحث، ج ١٥، ص ١٢٢.

ومعاقبتهم. إلاّ أنّ الحديث هنا يدور حول مثيري الشائعات الذين أخفوا أنفسهم عن العقاب والحدّ الشرعي: فتقول الآية: إنّ هؤلاء لا يتصورون أنّهم بهذا العمل سيكون بإمكانهم تجنب العقاب الإلهي دائماً، لأنّ الله تعالى سيبعدهم عن رحمته في هذه الدنيا، كما ينتظرهم العذاب العظيم في الآخرة.

إن هذه الآية رغم مجيئها بعد حديث الإفك، وظهورها بمظهر الارتباط بذلك الحادث، فإنّها كبقية الآيات التي تنزل لسبب خاص، وهي ذات مفهوم عامّ، لا تختص بحالة معينة.

والذي يثير الدهشة هو إصرار بعض المفسّرين كالفخر الرازي في «التّفسير الكبير»، وآخرين، على أنّ مفهوم هذه الآية خاص باتهام نساء النّبي ﷺ ويجعلون هذا الذنب بدرجة الكفر، ويستدلون بكلمة «اللعن» التي ذكرتها الآية، في الوقت الذي لا يمكن فيه اعتبار توجيه التهمة - حتى إن كان هذا الذنب عظيماً كاتهام نساء النّبي ﷺ لوحده سبباً للكفر. لهذا لم يعامل النّبي ﷺ أصحاب الإفك معاملة المرتدين عن دينهم. بل إنّ الآيات التالية التي بيّنا شرحها توصي بعدم تجاوز الحد المقرر لهم وعدم الإفراط في عقابهم، فذنبهم لا يُوازي الكفر بالله.

وأمّا «لعنة الله» فهي تصدق على الكافرين ومرتكبي الكبائر أيضاً، وعليه أوردت هذه الآيات المتحدِّثة عن حدّ القذف (في الأحكام الخاصّة باللعان) مرتين كلمة «لعن» ضد الكذابين المسيئين للناس، كما استعملت الأحاديث الإسلامية كراراً كلمة «اللعن» ضد مرتكبي الذنوب الكبيرة، وحديث «لعن الله في الخمر عشر طوائف. . .» معروف.

وتحدد الآية التالية وضع الذين يتهمون الناس بالباطل في ساحة العدل الإلهي، قائلة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

تدور ألسنتهم بما لا تشتهي أنفسهم لتستعرض الحقائق، وعندما يجد المجرمون الدلائل والشواهد العينية على ما اقترفوه من أعمال إجرامية، تراهم يعترفون بذنوبهم ويفضحون أمرهم خلافاً لرغبتهم الباطنية، حيث لا ينفع في ذلك اليوم إنكارهم للتهم الموجهة إليهم.

وتشهد أيديهم وأرجلهم، وكما ذكرت الآيات القرآنية: تنطق جلودهم وكأنّها شريط مسجّل، تنطق بما اقترف صاحبها من ذنوب، حيث رسمت آثار الجرائم عليها طوال عمره، حقاً إنّه يوم البروز والافتضاح، ويوم تنكشف فيه السرائر.

وإذا وجدنا في بعض آيات القرآن إشارة إلى يوم القيامة تذكر ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١) فإنّه لاخلاف فيها مع هذا البحث، إذ يمكن أن تتعطل الأفواه عن الكلام أولا، فتشهد سائر أعضاء الجسم، وعندها تكشف الأيدي والأرجل الحقائق، ينطق اللسان بما جرى ويعترف بالذنوب كلّها.

بحوث

١ - مَن هنّ الخبيثات ومَن هم الخبيثون؟

ذكر المفسّرون تعاريف مختلفة لـ «الخبيثات» و«الخبيثون» و«الطيبات» و«الطيبون»:

١ - قيل إنّ المراد هو الكلام السيىء والتهمة والافتراء والكذب الصادر عن المخطئين والمذنبين من الناس، وعلى العكس من ذلك الكلام الطيّب ما يصدر عن الطيّبين المتطهرين، وحسبما يقول المثل المأثور «ينضح الإناء بما فيه».

٢ - وقيل إن كلمة «الخبيثات» تعني «السيئات» وكل الأعمال السيئة وغير المرغوب فيها التي تصدر عن الخبثاء من الناس، وعلى العكس من ذلك «الحسنات» الخاصّة بالطيبين من الناس.

٢ - «الخبيثات» و«الخبيثون» تعنيان النساء والرجال الساقطين، وهم عكس ﴿ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ و﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ الخاصتين بالنساء والرجال المتطهرين.

وظاهر الآية قصد هذا المعنى بذاته، حيث هناك قرائن تؤكّد هذا المعنى:

أ - جاءت هذه الآيات إثر آيات الإفك - وبعد آية ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا التّفسير ينسجم مع مفهوم تلك الآيات.

ب - إن جملة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ التي تقصد الرجال والنساء الطاهرين من الدنس دليل آخر على صحة هذا التّفسير.

ج - قرينة المقابلة لجمع المذكر السالم في ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ حيث يقصد بها الرجال الخبيثون، فمن ذلك يعلم أن الخبيثات جمع مؤنث حقيقي، وتعني النساء الساقطات.

د - إضافة إلى ذلك روي حديث عن الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام قالا: «هي مثل

(١) سورة يس، الآية: ٦٥.

قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً. . .﴾ إنّ أُناساً همّوا أن يتزوّجوا منهنّ فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم»[١].

كما نقرأ في روايات كتاب النكاح، كيف كان أصحاب الإمام يستفسرون منه أحياناً عن الزواج بالخبيثات فيجيبهم سلباً. وهذا يدل على أنّ الخبيثة تعني المرأة الساقطة، وليس الكلام السيّىء ولا العمل المنحط[٢].

والسؤال الآخر: هل أن خبث هذه المجموعة من النساء والرجال أو طيبهم يراد به الشرف والعفّة، أو يتعلّق بانحطاط في الفكر أو العمل أو القول؟

إنَّ المفهوم الأوّل للآية هو الأصوب، لأنّه يطابق ما جاء في الآيات والأحاديث، لكنَّ بعضَ الأحاديث يعطي معنىً واسعاً لكلمتي الخبيث والطيب اللتين وردتا في هذه الآيات، ولا يحصرهما بالانحطاط الخلقي وطهارة الشخص.

وعلى هذا فلا يبعد أن يكون مفهوم الآية الأُولى خاصاً بذلك المعنى الخاص، إلاّ أنّه بملاحظة الملاك والغاية من الحكم يمكن تعميمه وتوسعته.

وبتعبير آخر: إنّ الآية السابقة بيان لميل الصنو إلى صنوه، رغم اختصاصها من حيث الموضوع ببحث العفّة والانحطاط الخلقي، «تأملوا جيداً».

٢ - هل هذا حكم تكويني أم تشريعي؟

لا شكّ في أنّ الأمثال التالية تشير إلى سنّة تكوينيّة تطبق على المخلوقات جميعاً، حتى على ذرات الوجود في الأرض والسماء، وهي جذب الشيء لنظيره كما يجذب الكهرب التبن.

أصحاب النور ينجذبون إلى أصحاب النور.

وأصحاب النّار يميلون إلى أصحاب النّار.

و«السنخية علّة الانضمام» كما يقول المثل.

وعلى كل حال، فإنّ كل صنو يتبع صنوه، وكل مجموعة متجانسة ترتاح لأفرادها، إلاّ أنّ هذه الحقيقة لا تمنع من كون الآية السابقة كما هي عليه الآية ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٣٥ في تفسير الآيات مورد البحث.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٣٣٧، الباب ١٤ من أبواب ما يحرم بالمصاهرة.

زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ إشارة إلى حكم شرعي يمنع الزواج من النساء اللواتي اشتهرن بالعمل المخلّ بالشرف.

أليس لجميع الأحكام التشريعية جذور تكوينية؟

أليس هناك انسجام بين السنن الإلهيّة، التشريعية منها والتكوينية؟ (لإيضاح أكثر راجع شرح الآية التي ذكرناها).

٣ - جواب استفسار

الاستفسار هو: إننا نشاهد عبر التاريخ أو في حياتنا حالات لا تنسجم مع القانون السابق، ومثال ذلك ما جاء في القرآن المجيد ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا. . .﴾(١). ومقابل هذه الحالة ذكر القرآن المجيد زوجة فرعون مثالاً للإيمان والطهارة: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢).

كما شوهد نظير هاتين الحالتين في صدر الإسلام، حيث ابتلي بعض قادة المسلمين بنساء سيئات، وآخرون مَنَّ الله عليهم بنساء مؤمنات جاء ذكرهن في كتب التاريخ الإسلامي.

وفي الجواب عن ذلك نقول إنّه مضافاً إلى أنّ لكل قانون استثناءات، فلابدّ من ذكر مسألتين:

١ - قلنا خلال تفسير الآية موضع البحث: إنَّ القصد من الخبيث الانحطاط الخلقي والسقوط بارتكاب أعمال مخلة بالشرف، والطيب ضد الخبيث، وعلى هذا فجوابُ السؤال السابق يكون واضحاً، لأنّ نساء الأنبياء والأئمة الأطهار عليهم السلام. لم ينحرفن ولم يخبثن أبداً، وإنّما القصد من الخيانة في قصتي نوح ولوط عليهما السلام، التجسس لمصلحة الكفّار وليس خيانة شرفهما، وأساساً إن هذا العيب من العيوب المنفّرة ونعلم أن المحيط العائلي للأنبياء عليهم السلام يجب أن يكون طاهراً من أمثال هذه العيوب المنفرة للناس حتى لا يتقاطع مع هدف النّبوة في جذب الناس إلى الرسالة الإلهيّة.

٢ - إضافة إلى ذلك، فإنّ نساء الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، لم يكنّ كافرات منذ البداية،

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.

(٢) سورة التحريم، الآية: ١١.

بل يصبن بالضلال أحياناً فيما بعد، ولهذا تستمر علاقة الأنبياء والأولياء بهنّ على ما كانت عليه قبل ضلالهنّ، كما أنّ امرأة فرعون لم تكن مؤمنة بربّ موسى حين زواجها، إذ إنّ موسى عليه السلام لم يكن قد ولد بعد، وقد آمنت برسالته السماوية بعد أن بعثه الله، ولم يكن لها مخرج إلاّ بمواصلة حياتها الزوجية والكفاح، حتى انتهت حياتها باستشهادها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

لا تدخلوا بُيوت الناس حتّى يؤذنَ لَكم

بيّنت هذه الآيات جانباً من أدب المعاشرة، والتعاليم الإسلامية الاجتماعية التي لها علاقة وثيقة بقضايا عامّة حول حفظ العفّة، أي كيفية الدخول إلى بيوت الناس، وكيفية الاستئذان بالدخول إليها.

حيث تقول أوّلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾. وبهذا الترتيب عندما تعزمون على الدخول لابدّ من إخبار أصحاب البيت بذلك ونيل موافقتهم.

والذي يلفت النظر في هذه الجملة استعمالها ﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ ولم تستعمل «تستأذنوا» لأنّ الجملة الثّانية لبيان الاستئذان بالدخول فقط، في الوقت الذي تكون الجملة الأُولى مشتقّة من «أنس» أي الاستئذان المرافق للمحبّة واللطف والمعرفة والإخلاص، وتبيّن كيف يجب أن يكون الاستئذان برفق وأدب وصداقة، بعيداً عن أي حدّة وسوء خلق، ولو تبحرنا في هذه الجملة على هذا الأساس لوجدنا فيها الكثير من الأدب الذي يدور حول هذا الموضوع، وهو يعني ألا تصرخوا وألاّ تقرعوا الباب بقوة، وألا تستأذنوا

بعبارات حادّة، وألا تدخلوا حتى يُؤذنَ لكم، فتسلّموا أوّلاً سلاماً يستبطن مشاعر السلام والودّ ورسالة المحبة والصداقة.

وممّا يلفت النظر في هذا الحكم الذي يتصف بأبعاد إنسانية وعاطفية واضحة، مرافقته لجملتين أولاها: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وثانيها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وهذا بحدّ ذاته دليل على أنّ لهذه الأحكام جذوراً في أعماق العواطف والعقول الإنسانية، ولو دقق الإنسان النظر فيها لتذكر أن فيها الخير والصلاح.

وأردف القرآن هذا الحكم بجملة أخرى في الآية التالية: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

قد يكون المراد من هذه العبارة أنّهُ رُبّما كانَ في المنزل أحد، ولكن من لدَيه حقّ إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففي هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

أو قد لا يوجد أحد في المنزل، ولكن صاحب المنزل على مقربة من ذلك المكان، أو في منزل الجيران بحيث لو طرق المرء الباب أو نادى صاحبه فقد يسمعه، ثمّ يحضر ليسمح له بالدخول، وعلى أي حال، فالمسألة المطروحة أن لا ندخل منزلاً دون إذن.

ثمّ تضيف الآية ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ إشارة إلى أنّه لا لزوم لانزعاج المرء إن لم يؤذن له بالدخول، فلعلّ صاحب المنزل في وضع غير مريح، أو أن منزله لم يهيأ لاستقبال الضيوف!

وبما أنّ بعض الناس قد يدفعهم حبّ الاطلاع والفضول حين رفضهم استقباله على استراق السمع، أو التجسس من ثقب الباب لكشف خفايا أهل المنزل وليطلع على أسرارهم، لهذا قالت الآية: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

وبما أن لكل حكم استثناءً، لرفع المشكلات والضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آية موضع البحث: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.

وتضيف في الختام ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. ولعل ذلك إشارة إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرّع بأنّ المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونة متذرعاً بعدم علمه بأنّها مسكونة، إلاّ أنّ الله يعلم بكلّ هذه الأعمال، ويعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

بحوث

١ - الأمن والحرية في حريم المنزل

لا ريب في أنّ لوجود الإنسان بعدين: بعد فردي، وآخر اجتماعي، ولهذا فله نوعان من الحياة: حياة خاصّة، وأخرى عامّة. ولكل واحدة خصائصها وآدابها، حيث يضطر الإنسان في البيئة الاجتماعية إلى تحمل قيود كثيرة من حيث اللباس والحركة، ومواصلة الإنسان حياته على هذا النسق وحده - خلال الأربع والعشرين ساعة - مُتعب ويبعث على الضجر، إذ إنّه يرغب في أن يكون حراً خلال فترة من الليل والنهار ليستريح بعيداً عن هذه القيود، مع أسرته وبين أولاده، لهذا يلجأ إلى منزله الخاص به، وينعزل بذلك عن المجتمع بشكل مؤقت، ليتخلص من قيوده، فيجب أن يكون محيط المنزل آمناً إلى حدٍّ كاف.

وأمّا إذا أراد كلّ عابر الدخول إلى منازل الآخرين، فلا تبقى حرمة لمنازل الناس، ويسلب منها أمنها وحريتها، وبهذا تتحول إلى بيئة عامّة كالسوق والشارع. ولهذا السبب كانت بين الناس - على مرّ العصور - أعراف خاصّة في هذا المجال، حتى أنّ جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان وتعاقب عليه، وحتى في حالات الضرورة القصوى ولغرض حفظ الأمن وغايات أخرى أجيز عدد قليل على وفق القانون بالدخول إليها.

ونصّت الأحكام الإسلامية على تعاليم وآداب خاصّة في هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلاّ نادراً.

نقرأ في حديث أنّ الصحابي الجليل أبا سعيد الخدري استأذن على الرّسول ﷺ وهو مستقبل الباب فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تستأذن وأنت مستقبل الباب»[1].

وجاء في حديث آخر أنّ النّبي ﷺ كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب. من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: السلام عليكم، وذلك لأنّ الدور لم يكن عليها حينئذ ستور.

وجاء في الأحاديث الإسلامية ضرورة استئذان المرء حين دخوله إلى منزل والده أو والدته، وحتى حين الدخول إلى منزل ولده[2].

(١-٢) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٣، ص ١٩٨، آخر آية مورد البحث.

وجاء في حديث عن الرّسول ﷺ جواباً على استفسار رجل، قال: استأذن على أمي؟ أجاب ﷺ: نعم. قال: إنّها ليس لها خادم غيري أفأستاذن عليها كلما دخلت؟ قال ﷺ: أتحب أن تراها عريانة؟ قال الرجل: لا، فقال ﷺ: فاستأذن عليها[1].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام عن جابر بن عبد الله الانصاري قال: «خرج رسول الله ﷺ يريد فاطمة عليها السلام وأنا معه فلما انتهينا إلى الباب وضع يده فدفعه ثمّ قال: السلام عليكم، فقالت فاطمة عليها السلام: وعليك السلام يا رسول الله، قال: أدخل؟ قالت: ادخل يا رسول الله، قال ﷺ: أدخل ومن معي؟ قالت: يا رسول الله ليس عليّ قناع، فقال: يا فاطمة خذي فضل ملحفتك فقنعي بها رأسك ففعلت، ثمّ قال: السلام عليكم، فقالت: وعليك السلام يا رسول الله، قال أدخل قالت: نعم يا رسول الله، قال أنا ومن معي؟ قالت: ومن معك؟ قال: جابر، فدخل رسول الله ﷺ فدخلت...»[2]

وهذا الحديث يبيّن لنا كيف كان النّبي ﷺ وهو القدوة للمسلمين كافة، يراعي هذه الأُمور بدقة، وحتى جاء في حديث عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «الاستيذان ثلاثة: أوّلهنّ يسمعون، والثّانية يحذرون، والثّالثة إن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا لم يفعلوا فيرجع المستأذن»[3].

ويرى بعض المفسّرين ضرورة وجود فواصل زمنية بين كل استئذان وآخر، إذ قد يكون صاحب المنزل لم يتهيأ - بعد - بلباس مناسب، أو يريد تغيير هيئة أو إعداد منزله، فيجب إعطاءه فرصةً ليعدّ نفسه ومنزله لاستقبال ضيفه، وعلى الضيف الانصراف دون انزعاج أو توتُّر إن لم يُسمح له بالدخول.

٢ - ما المقصود بالبيوت غير المسكونة؟

في معرض الإجابة على هذا السؤال لابدّ من الإشارة إلى اختلاف المفسّرين في ذلك، فقد قال البعض: يقصد بها المباني التي لا يسكنها شخص معين، وهي لعموم الناس، كالمنازل العامّة في الطرق البرية والفنادق والحمامات العامّة وأمثالها، وقد جاء هذا المعنى بصراحة في حديث للإمام الصادق عليه السلام[4].

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٨٦. (٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٨٧.
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٦١، أبواب مقدمات النكاح، الباب ٢٣.
(٤) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٦١.

وفسّر البعض ذلك بالخرائب التي ليست لها جدران ولا أبواب، يدخلها من يشاء، غير أنّ هذا التّفسير يبدو بعيداً جداً عن الصواب، فلا أحد يضع متاعه في هذه المنازل.

وقال آخرون: إنّها إشارة إلى مخازن التجار وحوانيتهم، التي احتوت على متاع الناس أمانةً لديهم لغرض البيع، ويمكن لكلّ صاحب متاع الدخول إلى هذا المخزن ليأخذ متاعه، وهذا التّفسير أيضاً يبدو غير منسجم مع ما قصدته الآية.

كما يحتمل أنّها قصدت المنازل التي ليس فيها أحد، ويضع المرء متاعه فيها أمانةً بعد علمه برضا صاحبها ضمناً في حراستها ورفعها عند الحاجة.

وبعض هذه التفاسير لا يتناقض مع غيره، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل ينسجم انسجاماً أفضل مع معنى الآية وقصدها، ويتّضح بذلك أنّه لا يجوز لشخص له متاع في منزل أن يدخل المنزل دون استئذان من صاحبه حتى لو لم يكن في البيت أحد حينذاك.

٣ - عقاب من يتلصّص على منازل الناس

جاء في كتب الفقه والحديث: إذا تلصّص شخص على داخل منزل وشاهد امرأة فيه لم تتحجب، فلأهل الدار أوّلاً نهيهُ عن هذا العمل، وإن امتنع رموه بالحجارة. وإن عاود، فبإمكانهم الدفاع عن أعراضهم بآلة جارحة، فلو قُتل هذا الشخص في هذه الحالة فدمه هدر ولا ديّة له.

وطبيعي أنّه لابدّ من تتبع هذه الخطوات أوّلاً بأول. أي: عليهم أوّلاً اتباع السبيل اليسير لمنعه، ثمّ اتباع أُسلوب العنف.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

سبب النّزول

جاء في كتاب الكافي حول سبب نزول أوّل آية من الآيات السابقة، عن الإمام الباقر عليه السلام قال: استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يقنعن خلف آذانهن، فنظر إليها وهي مقبلة، فلمّا جازت نظر إليها ودخل زقاق قد سمّاه يعني فلان، فجعل ينظر خلفها واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشقّ وجهه، فلمّا مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره، فقال: والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأخبرنّه، قال: فأتاه فلمّا رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآية: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(1).

التّفسير

مكافحة السفور وخائنة الأعين

قلنا في البداية: إنّ هذه السورة - في الحقيقة - اختصت بالعفة والطهارة وتطهير الناس من جميع الانحرافات الجنسية، وبحوثها منسجمة، وهي تدور حول الأحكام الخاصّة بالنظر إلى الأجنبية والحجاب، ولا يخفى على أحد ارتباط هذا البحث بالبحوث الخاصّة بالقذف.

تقول الآية أوّلاً: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾.

وكلمة ﴿يَغُضُّواْ﴾ مشتقّة من «غضّ» من باب «ردّ» وتعني في الأصل التنقيص، وتطلق غالباً على تخفيض الصوت وتقليل النظر، لهذا لم تأمر الآية أن يغمض المؤمنون عيونهم، بل أمرت أن يغضّوا من نظرهم، وهذا التعبير الرائع جاء لينفي غلق العيون بشكل تام بحيث لا يعرف الإنسان طريقه بمجرّد مشاهدته امرأة ليست من محارمه،

---

(1) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٣٩، تفسير نور الثقلين، والميزان، وروح المعاني مع بعض الاختلاف في تفسير الآية مورد البحث.

فالواجب عليه أن لا يتبحّر فيها، بل أنّ يرمي ببصره إلى الأرض، ويصدق فيه القول أنّه غضَّ من نظره وأبعد ذلك المنظر من مخيلته.

وممّا يلفت النظر أنّ القرآن الكريم لم يحدد الشيء الذي يستوجب غضّ النظر عنه. (أي أنه حذف متعلّق الفعل) ليكون دليلاً على عموميته، أي غضّ النظر عن جميع الأشياء التي حرم الله النظر إليها.

ولكن سياق الكلام في هذه الآيات، وخاصّة في الآية التالية التي تتحدث عن قضية الحجاب، يوضح لنا جيداً أنّها تقصد النظر إلى النساء غير المحارم، ويؤكّد هذا المعنى سبب النّزول الذي ذكرناه[١] سابقاً.

ويتّضح لنا ممّا سبق أنّ مفهوم الآية السابقة ليس هو حرمة النظر الحاد إلى النساء غير المحارم، ليتصور البعض أنَّ النظر الطبيعي إلى غير المحارم مسموح به، بل إنّ نظر الإنسان يمتدّ إلى حيّز واسع ويشمل دائرة واسعة، فإذا وجد امرأة من غير المحارم عليه أن يخرجها عن دائرة نظره، وألاّ ينظر إليها، ويواصل السير بعين مفتوحة، وهذا هو مفهوم غضّ النظر. (فتأملوا جيداً).

الحكم الثّاني في الآية السابقة: هو «حفظ الفروج». و«الفرج» - كما قلنا سابقاً - يعني الفتحة والفاصلة بين شيئين، إلاّ أنّها هنا ورد كناية عن العورة.

والقصد من حفظ الفرج - كما ورد في الأحاديث - هو تغطيته عن الأنظار، وقد جاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «كلّ آية في القرآن فيها ذكر الفروج فهي من الزنا، إلاّ هذه الآية فإنّها من النظر»[٢].

إن الإسلام نهى عن هذا العمل المندفع مع الأهواء النفسية والشهوات، لأنّ ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ كما نصّت عليه الآية - موضع البحث - في ختامها.

ثمّ تحذر الآية أُولئك الذين ينظرون بشهوة إلى غير محارمهم، ويبررون عملهم هذا بأنّه غير متعمّد فتقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

وتناولت الآية التالية شرح واجبات النساء في هذا المجال، فأشارت أوّلاً إلى

---

(١) اختلف المفسّرون في تعليل وجود «من» في جملة ﴿يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ فقال بعضهم: إنّها للتبعيض وقيل: إنّها زائدة، وقيل: ابتدائية. ولكن الظاهر هو المعنى الأوّل.

(٢) أصول الكافي، وتفسير علي بن إبراهيم، ج٢، ص١٠١، (وفق ما نقله تفسير نور الثقلين ج ٣، ص٥٨٧، ٥٨٨).

الواجبات التي تشابه ما على الرجال، فتقول: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

وبهذا حرم الله النظر بريبة على النساء أيضاً مثلما حرّمه على الرجال، وفرض تغطية فروجهن عن أنظار الرجال والنساء مثلما جعل ذلك واجباً على الرجال.

ثمّ أشارت الآية إلى مسألة الحجاب في ثلاث جمل:

١ - ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

اختلف المفسّرون في تفسير الزينة التي تجب تغطيتها، والزينة الظاهرة التي يسمح بإظهارها.

فقال البعض: إنّ الزينة المخفية هي الزينة الطبيعية في المرأة (جمال جسم المرأة) في حين أنّ استخدام هذه الكلمة بهذا المعنى قليل.

وقال آخرون: إنّها تعني موضع الزينة، لأنّ الكشف عن أداة الزينة ذاتها كالعضد والقلادة مسموح به، فالمنع يخصُ موضعها، أي اليدين والصدر مثلاً.

وقال آخرون: خصّ المنع أدوات الزينة عندما تكون على الجسم، وبالطبع يكون الكشف عن هذه الزينة مرادفاً للكشف عن ذلك الجزء من الجسم، (وهذين التّفسيرين الأخيرين لهما نتيجة واحدة على الرغم من متابعة القضية عن طريقين مختلفين).

والحق أنّنا يجب أن نفسر الآية على حسب ظاهرها ودون حكم مسبق، وظاهرها هو التّفسير الثّالث.

وعلى هذا، فلا يحق للنساء الكشف عن زينتهن المخفية، وإن كانت لا تُظهر أجسامهن، أي لا يجوز لهن الكشف عن لباس يتزيّنّ به تحت اللباس العادي أو العباءة، بنصّ القرآن الذي نهاهنَّ عن ذلك.

وذكرت الأحاديث التي رُويت عن أهل البيت عليهم السلام هذا المعنى، فقد فسّروا الزينة المخفية بالقلادة والدملج (حلي يشدُّ أعلى الساعد) والخلخال[1].

وقد فسّرت أحاديث عديدةٌ أُخرى الزينة الظاهرة بالخاتم والكحل وأمثاله، لهذا نفهم بأنّ المراد من الزينة المخفية الزينة التي تحت الحجاب (فتأملوا جيداً).

٢ - وثاني حكم ذكرته الآية هو: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ وكلمة «خُمُر» جمع

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم لآخر الآية مورد البحث.

«خِمار» على وزن «حجاب» في الأصل تعني «الغطاء»، إلاّ أنّه يطلق بصورة اعتيادية على الشيء الذي تستخدمه النسوة لتغطية رُؤوسهن.

و«الجيوب» جمع «جيب» على وزن «غيب» بمعنى ياقة القميص، وأحياناً يطلق على الجزء الذي يحيط بأعلى الصدر لمجاورته الياقة.

ويستنتج من هذه الآية أنّ النساء كنّ قبل نزولها، يرمين أطراف الخمار على أكتافهن أو خلف الرأس بشكل يكشفن فيه عن الرقبة وجانباً من الصدر، فأمرهن القرآن برمي أطراف الخمار حول أعناقهن أي فوق ياقة القميص ليسترن بذلك الرقبة والجزء المكشوف من الصدر. (ويستنتج هذا المعنى أيضاً عن سبب نزول الآية الذي ذكرناه آنفاً).

٣ - وتشرح الآية في حكمها الثّالث الحالات التي يجوز للنساء فيها الكشف عن حجابهنّ وإظهار زينتهنّ، فتقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا﴾.

١ - ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

٢ - ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾.

٣ - ﴿أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾.

٤ - ﴿أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ﴾.

٥ - ﴿أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾.

٦ - ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾.

٧ - ﴿أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾.

٨ - ﴿أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾.

٩ - ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾.

١٠ - ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

١١ - ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ أي الرجال الذين لا رغبة جنسية عندهم أصلاً بالعنن أو بمرض غيره.

١٢ - ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

٤ - وتبيّن الآية رابع الأحكام فتقول: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي على النساء أن يتحفّظن كثيراً، ويحفظن عفّتهنّ، ويبتعدن عن كلّ شيء يثير نار الشهوة في قلوب الرجال، حتى لا يتهمن بالانحراف عن طريق العفة.

ويجب أن يراقبن تصرفهن بشدّة بحيث لا يصل صوت خلخالهن إلى آذان غير المحارم، وهذا كله يؤكّد دقّة نظر الإسلام إلى هذه الأمور.

وانتهت الآية بدعوة جميع المؤمنين رجالا ونساءً إلى التوبة والعودة إلى الله ليفلحوا ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتوبوا أيّها الناس ممّا ارتكبتم من ذنوب في هذا المجال، بعدما اطلعتم على حقائق الأحكام الإسلامية، وعودوا إلى الله لتفلحوا، فلا نجاة لكم من كلّ الانحرافات الخطرة إلاّ بلطف من الله ورحمته، فسلّموا أمركم إليه!

صحيح أنّه لا معنى للذنوب والمعاصي - في هذه المسألة - قبل نزول هذه الأحكام من الله، إلاّ أنّنا نعلم بأنّ قسماً من المسائل الخاصّة بالانحطاط الخلقي ذا جانب عقلاني وكما في الاصطلاح أنّها من «المستقلات العقلية» ويكفي لوحده في تحديد المسؤولية.

بحوث

١ - فلسفة الحجاب

ممّا لا شكّ فيه أنّ الحديث عن الحجاب للمتغربين في عصرنا الذي سمّوه بعصر التعري والحرية الجنسية، ليس حديثاً سارّاً حيث يتصوّرونه أُسطورة يعود لعصور خلت.

إلاّ أنّ الفساد الذي لا حدّ له، والمشاكل المتزايدة والناتجة عن هذه الحريّات التي لا قيد لها ولاحدود، أدّى بالتدريج إلى إيجاد الأُذن الصاغية لهذا الحديث.

وقد تمّ حلّ كثير من القضايا في بيئات إسلامية ودينية أُخرى، خاصّة في أجواء إيران بعد الثورة الإسلامية، وأُجيب عن الكثير من هذه الأسئلة بشكل مقنع.

ومع كل هذا تستوجب أهمّية الموضوع بحث هذه القضية بحثاً واسعاً وعميقاً.

والقضية المطروحة (نقولها مع الاعتذار): هل من الصحيح أن تُستغل النساء للتلذّذ من جانب الرجال عن طريق السمع والنظر واللمس (باستثناء المجامعة) وأن يَكُنْ تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الأُمور خاصّة لأزواجهنّ؟

إنّ النقاش يدور حول هذا السؤال: هل يجب بقاء النساء في سباق لا نهاية له في عرض أجسامهنّ، وتحريك شهوات وأهواء الرجال؟ أو يجب تصفية هذه الأُمور من أجواء المجتمع، وتخصيصها بالأُسرة والحياة الزوجية؟!

الإسلام يساند الأسلوب الثّاني. ويعتبر الحجاب جزءاً من هذا الأُسلوب، في الوقت الذي يساند فيه الغربيون والمتغربون الشهوانيون الأُسلوب الأوّل!

يقول الإسلام: إنَّ الأُمور الجنسية سواءً كانت مجامعة أو استلذاذاً عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاصّ بالأزواج، ومحرّم على غيرهم، لأنّ ذلك يؤدّي إلى تلويث المجتمع وانحطاطه، وعبارة ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ التي جاءت في الآية السابقة تشير إلى هذه المسألة.

إنّ فلسفة الحجاب ليست خافية على أحد للأسباب التالية:

١ - إنّ تعري النساء وما يرافقه من تجميل ودلال - وما شاكل ذلك - يحرك الرجال - خاصّة الشباب - ويحطّم أعصابهم، وتراهم قد غلب عليهم الهياج العصبي، وأحياناً يكون ذلك مصدراً للأمراض النفسية، فأعصاب الإنسان محدودة التحمّل، ولا تتمكن من الاستمرار في حالة الهيجان؟

ألم يقل أطباء علم النفس بأنّ هذه الحالة من الهيجان المستمر سبب للأمراض النفسية؟

خاصّة إذا لاحظنا أنّ الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز في الإنسان وأكثرها عمقاً، وكانت عبر التاريخ السبب في أحداث دامية وإجرامية مرعبة، حتى قيل: إنّ وراء كلّ حادثة مهمّة امرأة!

أليس إثارة الغرائز الجنسية لعباً بالنار؟

وهل هذا العمل عقلاني؟

الإسلام يريد للرجال والنساء المسلمين نفساً مطمئنة وأعصاباً سليمة ونظراً وسمعاً طاهرين، وهذه واحدة من فلسفات الحجاب.

٢ - تبيّن إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق وتفكّك الأُسرة في العالم، بسبب زيادة التعرّي، لأنّ الناس أتباع الهوى غالباً، وهكذا يتحوّل حبّ الرجل من امرأة إلى أُخرى، كلّ يوم، بل كل ساعة.

أمّا في البيئة التي يسودها الحجاب (والتعاليم الإسلامية الأُخرى) فالعلاقة وثيقة بين الزوج وزوجته، ومشاعرهما وحبّهما مشترك.

وأمّا في سوق التعري والحرية الجنسية، حيث المرأة سلعة تباع وتشترى، أو في أقل تقدير موضع نظر وسمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمته، وتنهار أُسس الأُسر

بسرعة كانهيار بيت العنكبوت، ويتحمل هذه المصيبة الأبناء بعد أن يفقدوا أولياءهم ويفقدوا حنان الأُسرة.

٣ - انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعيين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء الحجاب، ولا حاجة إلى إحصائية بهذا الصدد، فشواهدها ظاهرة في المجتمع الغربي، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.

لا نقول: إنّ السبب الرئيسي في ازدياد الفحشاء والأبناء غير الشرعيين ينحصر في إلغاء الحجاب وعدم الستر، ولا نقول: إنَّ الاستعمار المشؤوم والقضايا السياسية المخربة ليس لها دور قوي فيه، بل نقول: إن التعري من الأسباب القوية لذلك.

وكما نعلم فإن انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعيين مصدر أنواع الجرائم في المجتمعات البشرية قديماً وحديثاً.

وبهذا تتضح الأبعاد الخطرة لهذه القضية.

وعندما نسمع أنّ الولادات غير الشرعية في بريطانيا بلغت بحسب إحصائياتهم خمسمائة ألف طفل كلّ عام، وأنّ علماءها حذّروا المسؤولين من مغبّة هذا الوضع، ليس لأنّه - كما يقولون - بسبب مخالفته للقضايا الأخلاقية والدينية، وإنّما بسبب الخطر الذي أوجده هؤلاء الأبناء لأمن المجتمع، فقد وجدوا أنّهم يمثّلون القسم الأعظم من ملفات القضايا الخاصّة بالجرائم.

ومن هنا ندرك أهمية هذه القضية، وأنّها كارثة حتى للذين لا يؤمنون بدين ولا يهتمون بأخلاق.

وكلّما انتشر الفساد الجنسي في المجتمعات البشرية اتّسع التهديد لهذه المجتمعات وتعاظم الخطر عليها، وقد برهنت دراسات العلماء في التربية على ظهور الأعمال المنافية للعفة، وتفشّي الإهمال في العمل والتأخر، وعدم الشعور بالمسؤولية، في المدارس المختلطة والمنشآت التي يعمل فيها الرجال والنساء بشكل مختلط.

٤ - قضية «ابتذال المرأة» وسقوط شخصيتها في المجتمع الغربي ذات أهمّية كبيرة لا تحتاج إلى أرقام، فعندما يرغب المجتمع في تعري المرأة، فمن الطبيعي أن يتبعه طلبها لأدوات التجميل والتظاهر الفاضح والانحدار السلوكي، وتسقط شخصيّة المرأة في مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلةً إعلاميّة يُروّج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

وهذا السقوط يفقدها كلّ قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنّه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنّها أداةٌ لإشباع شهواتِ الآخرين، الوحوش الكاسرة في صور البشر!

كيف يمكن للمرأة في هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟!

ومن المؤسف أن تلعب المرأة باسم الفن، وتشتهر وتكسب المال الوفير، وتنحطّ إلى حدِّ الابتذال في المجتمع، ليرحب بها مسيّرو هذا المجتمع المنحط خلقيّاً، في المهرجانات والحفلات الساهرة؟!

هكذا حال المرأة في المجتمع الغربي، وقد كان مجتمعنا قبل انتصار الثورة الإسلامية كذلك، ونشكر الله على إنهاء تلك المظاهر المنحطة في بلادنا بعد تأسيس الجمهورية الإسلامية، فقد عادت المرأة إلى مكانتها السامية التي أرادها الله لها، وها هي تمارس دوراً إيجابياً في المجتمع مع محافظتها على حجابها الإسلامي، حتى أنها ساهمت بشكل فعّال خلف جبهات الحرب بمختلف الأعمال لدعم الجبهة والجهاد في سبيل الله.

وكان هذا جانباً من الفلسفة الحيوية لموضوع الحجاب في الإسلام، وهو ينسجم مع تفسيرنا.

الإشكال الذي يورده معارضو الحجاب:

نصل هنا إلى الانتقادات التي يطرحها معارضو الحجاب، فنبحثها بشكل مضغوط:

١ - أهم الإنتقادات التي يذكرها معارضو الحجاب أنّ النساء يشكلن نصف المجتمع، والحجاب يجعلهنّ في معزل عن المجتمع، ويكون ذلك سبباً في تأخرهنّ الثقافي، وانعدام الاستفادة من هذه الطاقات العظيمة في ازدهار الاقتصاد. وإذا شغر مكانهنّ في المنشآت الثقافية والاجتماعية أصبحن موادَّ استهلاكيّة ليست بذات جدوى للمجتمع.

إلاّ أنّ هؤلاء المتمسّكين بهذا المنطق غفلوا عن عدّة أُمور، أو تغافلوا عنها، للأسباب التالية: -

أوّلاً: من الذي قال: إنّ الحجاب الإسلامي يعزل المرأة عن المجتمع؟

لئن صعب علينا الجواب عن هذا السؤال في السابق، فما نظن أنّنا بعد قيام الجمهورية الإسلامية المباركة بحاجة إلى دليل على نهضةِ المرأة نهضة كريمةً ومشاركتها

في تشييد المجتمع الإسلامي المنشود مشاركةً تحقق النفع للمرأة والأُسرة والحكومة والأُمّة، فهي مسؤولة في الدوائر والمصانع والمتاجر، وفي النشاط السياسي في المسيرات والمظاهرات، في الإذاعة والتلفزيون، وفي المراكز الصحيّة - خاصّة في معالجة جرحى الحرب - وفي المدارس والجامعات، حتى في ساحة الحرب ومجاهدة العدو.

وباختصار: إنّ الواقع الاجتماعي في بلدنا خير جواب عن هذا السؤال، وإذ كنّا نتحدث في السابق عن إمكانية حدوث ذلك، فإنّنا اليوم نراه ماثلاً بين أعيننا، وكما يقول الفلاسفة: خير دليل على إمكان وجود الشيء حدوثه، ولا حاجة للبرهنة على وجود الواقع.

ثانياً: إضافة إلى ذلك، ألا تُعتبر إدارة المنزل وتربية الأبناء الأصحّاء رجال المستقبل - الذين يديرون عجلة الاقتصاد والسياسة في البلاد - عملاً؟

إن الذين لا يعدّون هذه المسؤولية للمرأة أمراً إيجابياً جاهلون بحقيقة دور المرأة في الأُسرة وفي التربية، وفي بناء مجتمع سليم فعّال، بل لا يعترفون إلاّ بمغادرة الرجال والنساء المنازل صباحاً - كالغربيين - ليلتحقوا بالدوائر والمصانع، ويجعلون أبناءهم تحت رعاية الآخرين، في دور الحضانة، أو يغلقوا عليهم المنازل ليعيشوا في معتقل دون رعاية، حتى يعود الوالدان من العمل وقد أرهقهما التعب!

هؤلاء غافلون عن أنّ افتقاد الأطفال للرعاية والعطف، يؤدّي إلى تحطّم شخصيتهم ويعرض المجتمع إلى الخطر.

٢ - كما يتذرع معارضو الحجاب بادعائهم بأنّه يعوق المرأة عن نشاطها الاجتماعي ولا ينسجم مع العصر الحديث، ويقولون: كيف تحفظ المرأة حجابها وطفلها وعملها في آن واحد؟!

إنّهم غافلون عن أنّ الحجاب ليس العباءة ونحوها، بل هو غطاء الجسم، فإن تسنى للمرأة الاحتجاب بالعباءة فذلك حسن، وإلاّ كفاها غطاءُ الرأس واللباس المحتشم حجاباً. وقد لبّت نساؤنا الريفيات وخاصّة العاملات - في مزارع الرز المملوكة لعوائلهن - هذا اللباس، حيث يمارسن الحراثة والبذار والاهتمام بالزرع ثمّ حصاده، وبرهنّ عمليّاً على إمكانية محافظة المرأة على حجابها دون أن يمنع ذلك ممارستها لأشقّ الأعمال.

٣ - يعترض المخالفون للحجاب قائلين: إنّ الحجاب يفصل بين الرجال والنساء، ويزيد في حرص الرجال بدلاً من إخماد هذا الحرص، لأنَّ (المرء حريص على ما منع).

وهذه سفسطة واضحة، فلو قارن المرء بين مجتمعنا على عهد الطاغوت واليوم لتجلّى له الحقّ صريحاً، فبالأمس كان نزع الحجاب إجبارياً، واليوم يسود الحجاب الإسلامي مجتمعنا كله، والفساد كان ينتشر بالأمس في كل أنحاء البلاد، ويسيطر التسيب على معظم الأُسر، ويزداد الطلاق بنسبة عالية، وترتفع نسبة المواليد غير الشرعية، وآلاف المصائب الأُخرى. ونحن لا نجزم بأنّ كل الفساد قد زال في بلادنا واقتلعت جذوره، إلاّ أنّه ممّا لا شك فيه أنّه قد انخفض بدرجة كبيرة، واستعاد مجتمعنا سلامته بدرجة كبيرة.

وإذا استمر الوضع على هذا المنوال بعون من الله، فإنّنا سنتمكن من حلّ جميع المشاكل. ويبلغ مجتمعنا مرتبة الطهارة الكاملة، ويحفظ للمرأة مكانتها الرفيعة.

٢ - استثناء الوجه والكفين

هناك اختلاف في الرأي بين الفقهاء حول شمول حكم حجاب الوجه والكفّين من الرسغ إلى أطراف الأصابع، أم لا؟

الكثير من الفقهاء يرى أنّ تغطية الوجه والكفين مستثنى من حكم الحجاب، في الوقت الذي أفتى آخرون بوجوب تغطيتها، أو في الأقل احتاطوا في وجوب تغطيتها، وطبيعي أنّ القول باستثناء وجوب الحجاب على الوجه والكفين هو في حالة عدم نشوب فساد، وإلاّ فيجب تغطيتها.

وهناك قرائن في الآية الشريفة تؤيد هذا الاستثناء وتؤيّد الرأي الأوّل:

أ - استثناء الزينة الظاهرة في الآية السابقة، سواء دلت على أنّها تقصد موضع الزينة أو الزينة ذاتها، تكشف عن عدم وجوب تغطية الوجه والكفين.

ب - إن حكم الآية السابقة بوجوب رمي أطراف خمار المرأة على طرفي الياقة يفهم منه تغطية جميع أجزاء الرأس والرقبة والصدر، ولم يتحدث هذا الحكم عن تغطية الوجه، وهذا دليل آخر على هذا الرأي.

ولإيضاح ذلك نقول: كانت بعض نساء العرب يلبسن الخمار ويرمين طرفيه على الكتفين بشكل تبقى الرقبة وجزء من الصدر مكشوفين، وقد أصلح الإسلام هذه الحالة،

فأمر بتغطية الرقبة والصدر برمي طرفي الخمار على جانبي ياقة الثوب، لتبقى دائرة الوجه وحدها مكشوفة.

ج - كما جاءت أحاديث إسلامية عديدة في هذا المجال تؤكّد ما ذهبنا إليه(١) مع وجود أحاديث معارضة لها، ولكنّها ليست بتلك الدرجة من الصراحة، والجمع بينهما بالقول باستحباب تغطية الوجه والكفين - عند خشية الفساد والانحراف - أمر ممكن، كما تدل شواهد تاريخية على أنّ تغطية الوجه بقناع لم تكن عامّة في صدر الإسلام (ذُكر شرح مفصل فقهي وروائي عن هذه القضية في البحوث الفقهية عن النكاح).

إلاّ أنّنا نؤكّد ثانية أنّ هذا الحكم في وقت لا يؤدّي إلى استغلال أو انحراف.

كما يجب القول: إنَّ استثناء الوجه والكفين من حكم الحجاب لا يعني جواز النظر بشكل عمومي من قبل الرجال، وإنّما هو نوع من التسهيلات التي مُنحت للمرأة في الحياة.

٣ - ما المقصود من ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾؟

ذكرنا في تفسير الآية السابقة أنّ تاسع مجموعة مستثناة بالإطلاع على زينة النساء هنّ النساء الأُخريات، وبملاحظة عبارة ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ ندرك أنّها تقصد النساء المسلمات، ولا يكشفن عن زينتهنّ لغير المسلمات، وفلسفة ذلك، أنّه من المحتمل أن يصفن - غير المسلمات - لأزواجهنّ ما شاهدنه من زينة النساء المسلمات، وهذا ليس عملاً صائباً من قبل المسلمات.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب (من لا يحضره الفقيه): «لا ينبغي للمرأة أن تكشف بين يدي اليهودية والنصرانية فإنّهنّ يصفن ذلك لأزواجهنّ»(٢).

٤ - تفسير عبارة ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾

لظاهر هذه العبارة مفهوم واسع، ويدل على أنّه بإمكان المرأة الظهور دون حجاب بحضور عبدها، إلاّ أنّ بعض الأحاديث صرّحت بأنّ ذلك يعني فقط الظهور بين الجواري حتى لو كنّ غير مسلمات، ولا يشمل هذا الحكم العبيد. ففي حديث للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «لا ينظر العبد إلى شعر سيّدته»(٣).

(١) كتاب وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٤٥، الباب ١٠٩، من أبواب مقدمات النكاح.
(٢) من لا يحضره الفقيه، حسبما ذكره تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٩٣.
(٣) وسائل الشيعة، الباب ١٢٤، من مقدمات النكاح، الحديث ٨.

ويستفاد من أحاديث أُخرى تعميم هذا الحكم على الجواري والعبيد، إلاّ أنَّ ذلك خلافاً للاحتياط.

٥ - تفسير ﴿أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾

﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾ في الأصل مشتقة من «أَرَب» على وزن «عرب» وكما يقول الراغب الإصفهاني في مفرداته، شدّة الحاجة التي تدفع بالإنسان إلى إيجاد حلٍّ لها.

كما استعملت بمعنى الحاجة بشكل عامّ، والقصد هنا من «أُولي الإربة من الرجال» الذين لهم رغبة جنسية وهم بحاجة إلى زوجة، وعلى هذا، فإنَّ «غير أولي الإربة» هم الرجال الذين لا رغبة جنسية لديهم أصلاً.

ولكن من المقصود بذلك؟

هنالك اختلاف بين المفسّرين.

قال البعض منهم: إنّهم كبار السنّ الذين خمد لديهم دافع الشهوة الجنسية، (كالقواعد من النساء والنسوة اللاتي تجاوزت أعمارهن حدّ الزواج وهنّ كالمتقاعدات في هذا المجال).

وقال آخرون: إنَّ المقصود هو الخصي من الرجال.

وقال بعض المفسّرين: إنّه الرجل الخنثى، أي: الذي لا يمتلك آلة الرجولة.

إلاّ أنّ التّفسير الذي يمكن الاعتماد عليه، هو الذي جاء في أحاديث مؤكّدة عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام: «هو الأحمق الذي لا يأتي النساء» من أنّ القصد هنا هو الأبله من الرجال الذي لا يحسّ برغبة جنسية أبداً، ويستفاد منهم في الأعمال البسيطة وخدمة الأفراد، وعبارة «التابعين» تؤكّد هذا المعنى[(١)].

وبما أنّ هذا الوصف - أي عدم الشعور بالرغبة الجنسية - يصدق على فئة خاصّة من المسنين. فلا نستبعد إمكانية توسعة مفهوم الآية ليشمل هذه الفئة، وقد روي حديث عن الإمام الكاظم عليه السلام يؤكّد ذلك، بيد أنّ ذلك لا يعني أنّهم يصبحون من المحارم، غاية الأمر هو عدم وجوب تغطية الرأس أو جزء من اليدين بحضور هذه المجموعة.

---

(١) لتوضيح أكثر راجع جواهر الكلام، ج ٢٩، ص ٩٤، وكذلك الوسائل الباب ١١١، من مقدمات النكاح (ج ١٤، ص ١٤٨) وكذلك التهذيب ج ٧، ص ٤٦٨.

٦ - أي طفل مستثنى من هذا الحكم؟

ذكرنا أنّ المجموعة الثّانية عشرة - أي الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم - مستثنون من حكم الحجاب.

وعبارة «لم يظهروا» تعني أحياناً «لم يطلعوا» وأحياناً أُخرى «لم يعتدوا» لأنّها جاءت بهذين المعنيين، حيث استعملها القرآن مرّة بهذا المعنى، وأُخرى بالمعنى الثّاني، ومثال ذلك ما جاء في الآيه (٢٠) من سورة الكهف ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾.

ونقرأ في الآية الثّانية من سورة التوبة ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

إلاّ أنّ هذا الفرق ليس له أثر كبير بالنسبة للآية موضع البحث، حيث المقصود فيها الأطفال الذين ليس لهم ميول جنسية، بسبب عدم قدرتهم وعدم اطلاعهم وعلى هذا يجب على النساء المسلمات أن يتحجبن بحضور الأطفال الذين بلغوا مرحلة برزت فيها رغبتهم الجنسية وقدرتهم على ذلك.

٧ - لماذا لم يذكر العم والخال ضمن المحارم؟

يطرح هذا السؤال بعد دراسة الآيات السابقة: لماذا لم يذكر العم والخال ضمن المحارم - قط - وهم من المحارم؟

ربّما كان القرآن قد استهدف البلاغة في تعابيره بعدم ذكر أيّة كلمة إضافية، فقد دلّ استثناء ابن الأخ وابن الأخت على أنّ العمّة والخالة تعتبران من محارم الرجل، ويتّضح بذلك أن العم والخال لإحدى النساء هما من محارمها.

وبعبارة أُخرى: إنّ الحرمة ذات جانبين، فمن جهة بنات الأُخت وبنات الأُخ من محارم الرجال، وإنّه من الطبيعي سيكون من الجهة الثّانية العمّ والخال من المحارم «فتدبّر».

٨ - تحريم سبل الإثارة!

آخر كلام في هذا المجال هو أنّ الآية السابقة نصّت على حرمة المشي بقوّة من قبل النساء ليسمعن صوت الخلخال.

وهذا يدل على دقّة الأحكام الإسلامية ومبلغ اهتمامها بالقضايا الخاصّة بعفّة الناس وشرفهم، بحيث لا يسمح معها بالقيام بمثل هذه الأعمال.

ومن البداهة أن لا يسمح الإسلام بإثارة شهوات الشباب، عن طريق نشر الصور

الخلاعية، والأفلام المثيرة للشهوات، والقصص والروايات الجنسية، ولا ريب في أنّ البيئة الإسلامية يجب أن تكون طاهرة سليمة من هذه الأُمور التي تجرّ أفرادها إلى مهاوي الفساد وظلماته، وتدفع بالشباب والشابات نحو الانحطاط الخلقي والرذيلة.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

الترغيب في زواج يسير التكاليف

طرحت هذه الآية - منذ بدايتها حتى الآن - سبلاً أمينةً متعدّدةً للحيلولة دون الانحطاط الخلقي والفساد، فكلّ واحد من هذه السبل يرتقي بالأُمّة فرداً وجماعةً إلى عالم أرحب من الطّهر والاستقامة، ويحول دون تقهقرها أو انحدارها في مهاوي الرّذيلة، وقد أشارت الآيات - موضع البحث - إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا وهو الزواج اليسير الذي يتمّ بعيداً عن أجواء الرياء والبذخ، لأنّ إشباع الغرائز بشكل سليم وشرعي خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب، أو بعبارة أُخرى: كل مكافحة سلبية لا بدّ أن ترافقها مكافحة إيجابية.

لهذا تقول بداية الآية موضع البحث: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.

و﴿الْأَيَامَىٰ﴾ جمع «أيّم» على وزن «قيّم» وتعني في الأصل المرأة التي لا زوج لها، وكذلك تطلق هذه الكلمة على الرجل الذي لا زوجة له، فيدخل في هذا المفهوم كلّ من ليس له زوج، سواء كان بكراً أم ثيّباً.

وعبارة: ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ أي «زوّجوا» - وبما أنَّ الزواج يتمّ بالتراضي وحرية الاختيار الطرفين، فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيد للزواج، عن طريق تقديم العون المالي عند الحاجة، أو العثور على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج والاستفادة من وساطة الأشخاص لحلّ المشاكل المستجدة.

وباختصار: إنّ مفهوم الآية واسع، حتى أنَّهُ ليضم كلّ خطوة وحديث في هذا المجال، ولا اختلاف في أنَّ أصل التعاون الإسلامي يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

وجاء ذلك هنا بصراحة ليؤكّد أهميّة الزواج الخاصّة. وهي أهميّةٌ بالغة المدى، إذ ورد حديث بصددها عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله: «أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين في نكاح حتى يجمع الله بينهما»(١).

وجاء في حديث آخر عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قوله: «ثلاثة يستظلون بظلّ عرش الله يوم القيامة، يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، رجل زوّج أخاه المسلم، أو خدمه، أو كتم له سرّاً»(٢).

كما جاء في حديث عن الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قوله في الذي يسعى لزواج أخيه المسلم «كان له بكلّ خطوة خطاها، أو بكلّ كلمة تكلم بها في ذلك عمل سنة قيام ليلها وصيام نهارها»(٣).

وبما أنّ بعض الأعذار كالفقر أو عدم وجود وتوفّر الإمكانات اللازمة قد تقف حائلاً دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج وتشكيل الأُسرة. يقول القرآن بهذا الصدد: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

إنّ قدرة الله واسعة سعة تشمل عالم الوجود كلّه، وعلمه واسع يحيط بما خفي وبما ظهر من المقاصد والأفعال، خاصّة الذين يقدمون على الزواج ابتغاء المحافظة على عفتهم وطهارتهم، وبهذا يشمل الله الجميع بفضله وكرمه.

ولنا في هذا المجال دراسة وتحليل، وسنذكر أحاديث عديدة في نهاية هذا البحث.

ولكن أحياناً بالرغم من بذل الجميع جهودهم لتهيئة مستلزمات زواج إنسان ما لا يفلحون في ذلك، ممّا يضطره إلى مضي فترة من الزمن محروماً من الزواج، ولكي لا

(١-٣) وسائل الشيعة، ج١٤، ص٢٧، الباب ١٢، من أبواب مقدمات النكاح.

يظنّ أن إقدامه على الفساد أمراً مباحاً تقتضيه الضرورة أسرعت الآية التالية لتأمره بالطهارة والعفّة فقالت: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

فيجب عليه تجنّب التلوث والفساد في هذه المرحلة المتأزّمة ومواجهة الامتحان الإلهي، حيث لا يقبل أي عذر منه، فلابدّ أن يمتحن قوّة إيمانه وشخصيته وتقواه في هذه المرحلة.

ويهتم الإسلام كعادته بالعبيد الضعفاء اجتماعياً من أجل تيسير حريتهم، فيتناول القرآن المجيد مسألة المكاتبة (وهي تعهد الغلام بتوقيعه اتفاقاً ينص على القيام بعمل معيّن أو دفع مبلغ مقابل عتقه)، فتقول الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾.

وتقصد عبارة ﴿عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي قد بلغوا من النمو الجسمي ووجدتم فيهم صلاحية لإبرام العقد، وقدرتهم على إنجاز ما تعهدوا به.

أمّا إذا لم يتمكنوا من الوفاء بما عاهدوا عليه، فلا ينبغي مكاتبتهم وعتقهم، لأنّ في ذلك ضرراً عليهم وعلى المجتمع، فيجب تأجيل ذلك إلى وقت آخر يؤهّلهم من حيث القدرة والصلاحية، ولأجل ألا يقع العبيد في مشاكل لا يتمكنون من حلّها ويعجزون عن تسديد ما بذمتهم، يدعو القرآن الكريم إلى مساعدتهم فيقول: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

هناك اختلاف حول هذا المال بين المفسّرين: فقال عدد كبير منهم: - إنّه حصة من الزكاة، مثلما نصت عليه الآية (٦٠) من سورة التوبة. ليتمكن العبيد من الوفاء بدينهم وانعتاقهم.

وقال آخرون: على مالك الغلام أن يتبرع بقسم من أقساط الدَّين، أو يساعده بإعادته إليه، ليتمكن من الحياة الحرّة.

كما يحتمل أنّ المقصود هنا منح العبيد في البداية مبلغاً للإنفاق، أو جعله رأسمال لهم ليمكنهم من التجارة والعمل وإدارة شؤونهم الخاصّة، ودفع الأقساط التي بذمّتهم، وطبيعي أنّ التفاسير الثلاثة هذه غير متناقضة، ويمكن للآية السابقة أن تستوعبها جميعاً.

والهدف الحقيقي هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفة بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «تضع عنه من نجومه التي لم

تكن تريد أن تنقصه، ولا تزيد فوق ما في نفسك»(١).

إشارة إلى مجموعة من الناس كانوا يكاتبون عبيدهم بمبالغ أكبر ممّا يعطونهم، ويتظاهرون بمساعدتهم، وقد نهى الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك مبيّناً أنّه يجب أن يكون التخفيض حقيقيّاً.

وعقّبت هذه الآية بإشارة إلى أحد الأعمال القبيحة التي كان يمارسها عبّاد الدنيا إزاء جواريهم: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

قال بعض المفسّرين في سبب نزول هذه الآية: كان عبد الله بن أُبي يملك ست جوارٍ يجبرهن على البغاء، وعندما نزلت آيات قرآنية تنهى عن الفحشاء جئن إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وعرضن شكواهن على سيّدهنّ عنده، فنزلت الآية أعلاه ونهت عن ارتكاب هذا الإثم(٢).

وهذه الآية تكشف عن مدى الرذيلة والانحطاط الخلقي الذي كان سائداً في عهد الجاهلية، وقد واصل البعض أعماله القبيحة هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقة، وأنهت هذه الأعمال.

ومع بالغ الأسف نجد عصرنا الذي سمي بجاهلية القرن العشرين، تمارس البشرية هذا العمل بقوة وعلى قدم وساق في بلدان تدّعي المدنية والحضارة والدفاع عن حقوق الإنسان، وكذلك كان الوضع في بلادنا على عهد الطاغوت، إذ كان هذا العمل القبيح يمارس ببشاعة ومرارة، وكان البعض يخدع البنات البريئات والنساء الجاهلات، ويدفع بهنّ إلى مراكز الفساد، ويجبرهنّ على القيام بأعمال الرذيلة والفساد، ويغلق أبواب النجاة بوجوههنّ ليجني ثروات طائلة وتفصيل الكلام في ذلك مؤلم وخارج عن عهدة هذا الكتاب.

وبالرغم من أنّ العالم المعاصر يدّعي التحضّر وإزالة معالم العبودية القديمة، إلاّ أنّ الجرائم والمفاسد الخُلقية تشيع بشكل أكثر توحّشاً من كلّ ما حدث في غابر الأيّام، ونسأل الله أن يحفظ الإنسانية من شرّ هؤلاء الذين يدّعون التمدّن، كما نحمده ونشكره على زوال هذه المعالم من إيران بعد انتصار الثورة الإسلامية.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٠١.

(٢) تفسير مجمع البيان في تفسير آخر الآية مورد البحث، وتفسير القرطبي (مع بعض الاختلاف).

وجدير بالذكر أنّ عبارة ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لا تعني في مفهومها أنهنّ إن رغبن في الفساد فلا مانع من إجبارهن، بل تعني نفي الموضوع بشكل تامّ من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع، لأنّ مسألة الإكراه تصدق في حالة عدم الرغبة فيه. وإلاّ فبيع الجسد وإشاعة هذا الفعل بأية صورة كانت هو من كبائر الذنوب.

وجاءت هذه العبارة لتثير غيرة مالكي الجواري إن كان لهم أدنى غيرة، ومفهومها أنّ الجواري مع أنهنّ من الطبقة الدانية ولكن لا يرغبن في ارتكاب الفاحشة، فلماذا ترتكبون هذه الأعمال المنحطة على الرغم من تصوركم أنّكم طبقة راقية؟

وفي الختام - على حسب الأُسلوب الذي يتبعه القرآن - يفتح طريق التوبة للمذنبين، ويشجعهم على إصلاح أنفسهم: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويمكن أن تكون هذه الجملة - كما قلنا - إشارة إلى الوضع السائد بين ملاّك الجواري الذين غلب عليهم الندم، واستعدوا للتوبة وإصلاح أنفسهم.

أو تكون هذه الجملة إشارة إلى النسوة اللواتي يرتكبن هذا العمل القبيح بإكراه من قبل أسيادهنّ.

وعلى نهج القرآن، نجد آخر الآيات - موضع البحث - تستنتج وتلخّص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقة: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ وكذلك دروس وعبر من الأقوام الماضية تنفعكم في يومكم هذا: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

مسائل مهمة

١ - الزواج سنّة إلهيّة

على الرغم من أنّ الزواج في الوقت الحاضر قد تعقد بما أحاطته الأعراف الاجتماعية من عادات خاطئة وخرافية أحياناً، فأصبح طريقاً صعباً لا يتمكن الشاب من سلوكه، فإنّه لو اجتزنا هذه العراقيل لأدركنا أنّ الزواج تعبير فطري منسجم مع قانون الخليقة وضروري لبقاء نسل الإنسان، وسكن لروحه، وراحة لجسمه، وحل للمشاكل النفسية والاجتماعية، فالإسلام يخطو بانسجام مع الخلق، وله تعابير جميلة مؤثرة، ومن

جملتها حديث مشهور عن الرّسول الأعظم ﷺ: «تناكحوا وتناسلوا تكثروا، فإنّي أباهي بكم الأُمم يوم القيامة ولو بالسقط»[(١)].

ونقرأ حديثاً آخر له ﷺ: «من تزوج فقد أحرز نصف دينه فليتق الله في النصف الباقي»[(٢)].

والسبب في كلّ هذا الاهتمام هو أنَّ الغريزة الجنسية من أقوى وأشرس الغرائز في الإنسان، وتنافس الغرائز الأُخرى بأجمعها، وانحرافها يعرّض دين المرء إلى الخطر، ولذا يعلو صوت حديث نبوي آخر: «شراركم عزّابكم»[(٣)] لهذا شجعت الآيات - موضع البحث - وأحاديث عديدة المسلمين على التعاون في تزويج العزّاب، وتقديم ما بوسعهم من مساعدات في هذا السبيل.

وقد حمّل الدّين الإسلامي الآباء مسؤولية كبيرة عن أبنائهم، والآباء الذين يتصرّفون دون مبالاة إزاء هذه القضية، فإنّهم يشاركون في انحراف أبنائهم. كما نقرأ في حديث للرسول الأعظم ﷺ: «من أدرك له ولدٌ وعنده ما يزوجه فلم يزوجه، فأحدث، فالإثم بينهما!»[(٤)].

وقد أكّدت تعاليم الإسلام - لهذا السبب أيضاً - بالتيسير في نفقات الزواج والمهر، لإزالة الحواجز من طريق العُزّاب. خاصّة إذا علمنا أنّ المهر الغالي يقف حجر عثرة في وجه زواج العزّاب. ففي حديث للرّسول الأكرم ﷺ يقول: «من شؤم المرأة غلاء مهرها»[(٥)].

وجاء في حديث آخر أعقب الحديث السابق: «من شؤمها شدّة مؤونتها»[(٦)].

وقد صرّحت الآية السابقة بأنّ الفقر لا يمكن أن يكون مانعاً للزواج، وقد يغني الله المرء بالزواج.

وبهذا حكمت الآية وأدانت الذين يفرون من الزواج بحجّة أنّهم فقراء، ولا يتحملون هذه المسؤولية الإلهية والإنسانية، بأعذار واهية.

والسبب في التأكيد على الزواج، هو أنّ المرء يشعر بعد زواجه بمسؤوليته في الحياة، فيزج قواه للكسب الحلال، بينما نجد العزاب في معظم الحالات مشردين!

(١-٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٥٦١ (مادة الزوج).

(٣-٤) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٠٤، في تفسير الآية مورد البحث.

(٥-٦) وسائل الشيعة، ج ١٥، الباب ٥، من أبواب المهور، ص ١٠.

لعدم شعورهم بالمسؤولية، والمتزوج يكتسب شخصية اجتماعية، حيث يجد نفسه مسؤولاً عن المحافظة على زوجته، وماء وجه أُسرته، وتأمين حياة سعيدة ومستقبل زاهر لها، ويستغلّ المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد في نفقاته ليتغلّب على الفقر بأسرع وقت ممكن، لهذا ذكر الإمام الصادق عليه السلام «الرزق مع النساء والعيال»[1].

جاء في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حين شكا رجل إليه فقره فأجابه صلى الله عليه وآله: «تزوّج». فتزوّج فوسع له[2].

ولا جدال في أنَّ الإمدادات الإلهية والقوى الروحية الخفية تساعد هذا الشخص الذي تزوج ليحفظ نفسه ويطهرها، وعلى كلّ مؤمن أن يطمئن لما وعده الله، فقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ترك التزويج مخافة العيلة فقد ساء ظنّه بالله، إن الله عزّوجلّ يقول: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾»[3].

وهناك أحاديث عديدة في هذا المجال، لو تناولناها جميعاً بالبحث لخرجنا عن بحثنا التّفسيري هذا.

٢ - المراد من عبارة: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾

ممّا يلفت النظر في الآيات موضع البحث أنّها حين التحدّث عن زواج الرجال والنساء الأيامى تأمر بالتعجيل في الزواج، وعدم وضع العراقيل في وجهه، أمّا بالنسبة للعبيد والجواري، فتطلب توفر شرط الصلاح فيهم للزواج.

وذهب عدد من المفسّرين (كالعلاّمة صاحب تفسير الميزان وكذلك صاحب تفسير الصافي) إلى صلاحيتهم للزواج في حين أنّ هذا الشرط يجب أن يتوفر في النساء والرجال الأحرار أيضاً.

وقال البعض الآخر: إنّه يقصد الصلاح من ناحية الأخلاق والعقيدة، لأنّ الصالحين يتمتعون بمكانة خاصّة من هذه الجهة، ولكن السؤال يبقى على حاله.

لماذا لم يرد هذا الشرط في الأحرار؟

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٥٩٥.
(٢) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥، الباب ١١ «من أبواب مقدمات النكاح».
(٣) وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٤، الباب ١٠ «من أبواب مقدمات النكاح».

ويحتمل أن يكون المراد غير هذا: - إذ إنّ أكثر العبيد في تلك الفترة في مستوى ثقافي وأخلاقي واطىء، فلا يشعرون بأيّة مسؤولية، ولا يُقدرون المشاعر المشتركة في الحياة، فلو تزوجوا لتركوا زوجاتهم بسهولة، ومن هنا استوجبت الآية التأكد من صلاحيتهم للزواج.

ومفهوم هذه الآية أن يعدّوا العبيد للزواج أوّلاً بتهذيب أخلاقهم وزيادة صلاحهم، ليكونوا بمستوى المسؤولية التي تقع على عاتقهم بعد الزواج.

٣ - ما هو عقد المكاتبة؟

قلنا: إنَّ الإسلام وضع برنامج التحرر التدريجي للعبيد، واستفاد من كل فرصة لعتقهم، فكانت قضية «المكاتبة» حكماً يجب اتباعه، كما نصّت عليه الآيات موضع البحث.

وتشتق «المكاتبة» من الكتابة، والكتابة في الأصل مشتقّة من «كتب» بمعنى «الجمع» أي: جمع الحروف والكلمات، وبما أنّ العقد بين المولى والعبد يتمّ بكتابة موادَّ يتفق عليها، فلذلك سمّيت «مكاتبة». فعقد المكاتبة نوع من الاتفاقات يتمّ بين المولى وعبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطاً لسيّده، فاذا دفع آخر قسط ينال حريته.

وأمر الإسلام ألا تتجاوز هذه الأقساط ثمن العبد نفسه.

وإذا عجز العبد لسبب ما عَن دفع الأقساط المترتبة بذمّته، وجب أن تسدّد هذه الأقساط من بيت المال أو من الزكاة ليعتق، حتى أنَّ بعض الفقهاء قال بصراحة: إذا تعلقت زكاة بذمّة السيّد، وجب عليه احتساب هذه الأقساط منها، وهذا العقد لازم التنفيذ، ولا يمكن فسخه من أيّ طرف من طرفي العقد.

ويتّضح بذلك كيف يجعل هذا المشروع عتق العبيد يسيراً، ليعيشوا أحراراً مستقلين حتى في فترة إعداد الأقساط، كما أنّ أسيادهم لا يتضررون بذلك، فلايدفعهم هذا إلى إلحاق الأذى بعبيدهم.

ولعقد المكاتبة أحكام وفروع عديدة مذكورة في الكتب الفقهية في باب المكاتبة.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)﴾

التّفسير

آية النور!

تحدث الفلاسفة والمفسّرون والعرفاء الإسلاميون كثيراً عن مقاصد الآيات أعلاه، وهي مُرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التي عرضت لقضية العفة ومكافحة الفحشاء بمختلف السبل.

وبما أنَّ ضمانة تنفيذ الأحكام الإلهيّة، وخاصّة السيطرة على الغرائز الثائرة، ولا سيّما الغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز، لا تتمّ دون الاستناد إلى الإيمان، ومن هنا امتد البحث إلى الإيمان وأثره القويّ، فقالت الآية أوّلاً: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

ما أحلى هذه الجملة! وما أثمنها من كلمات! أجل إنّ الله نور السماوات والأرض... النور الذي يغمر كلّ شيء ويضيئه.

ويرى بعض المفسّرين أنّ كلمة «النّور» تعني هنا «الهادي»، وذهب البعض الآخر أنّ المراد هو «المنير»، وفسّرها آخرون بـ«زينة السماوات والأرض».

وكلّ هذه المعاني صحيحة، سوى أنّ مفهوم هذه الآية أوسع بكثير ممّا ذُكر، فالقرآن المجيد والأحاديث الإسلامية فسّرت النور بأشياء عدّة منها:

١ - «القرآن المجيد»: - ذكرت الآية (١٥) من سورة المائدة: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ

ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ وجاء في الآية (١٥٧) من سورة الأعراف: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٢ - «الإيمان» ذكرت الآية (٢٥٧) من سورة البقرة: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

٣ - «الهداية الإلهية» مثلما جاء في الآية (١٢٢) من سورة الأنعام: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؟!

٤ - «الدين الإسلامي» كما نقرأ في الآية (٣٢) من سورة التوبة: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

٥ - النّبي الأكرم ﷺ - نقرأ عن النّبي ﷺ في الآية (٤٦) من سورة الأحزاب: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

٦ - الأئمة الأطهار: كما جاء في الزيارة الجامعة لهم: «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقّين»، وكذلك في نفس هذه الزيارة: «وأنتم نور الأخيار وهداة الأبرار».

٧ - «العلم والمعرفة» حيث عُرِّف بالنور كما جاء في الحديث المشهور: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»(١).

كلّ هذه من جهة، ومن الجهة الأُخرى علينا التدقيق في خصائص النور وميزانه، ليتّضح أنّه يمتاز بما يلي:

١ - النور أجمل وألطف ما في العالم، وهو مصدر لكلّ جمال ولطف!

٢ - النور أسرع الأشياء، كما ثبت لمشهوري العلماء الكبار في العالم، إذ تبلغ سرعته ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثّانية، وبإمكانه الدوران حول الكرة الأرضية سبع مرات في طرفة عين (أقلّ من ثانية واحدة).

ولهذا السبب تقاس المسافات الهائلة بين النجوم فقط بسرعة الضوء، والوحدة المستعملة في هذا المجال هي السنة الضوئية، أي: المسافة التي يقطعها الضوء وهو بتلك السرعة الهائلة - في سنة واحدة.

٣ - بالنور يمكن مشاهدة الأشياء في العالم، ومن دونه يستحيل رؤية أيّ شيء، فالنور ظاهر بنفسه ومظهر لغيره.

---

(١) مصباح الشريعة، ص١٦.

٤ - إنّ ضوء الشمس يُعدّ من أهم أنواع النور في عالمنا، فهو ينمي الأزهار والنباتات وبه تستمرّ الحياة، بل هو رمز بقاء المخلوقات الحيّة، ولا يمكن لموجود حيّ أن يستمرّ في الحياة دون أن يستفيد من نور الشمس بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

٥ - ثبت اليوم أنّ جميع الألوان يمكن مشاهدتها بنور الشمس أو الأنوار الأُخرى، وَلولاها لعاشت المخلوقات في عتمة قاتمة.

٦ - إنّ جميع أنواع الطاقة الموجودة في محيطنا (باستثناء الطاقة النووية) مصدرها الشمس من قبيل حركة الرياح، سقوط المطر، وحركة الأنهر والوسائط فيها والشلالات ولو دققنا في حركة جميع المخلوقات الحية لوجدناها ترتبط بنور الشمس.

مصدر الحرارة وتدفئة الأحياء كلها هو الشمس، حتى أنّ حرارة النار المتولدة من الخشب أو الفحم أو الفحم الحجري أو النفط ومشتقاته مصدرها حرارة الشمس، لأنّ هذه الأشياء بِحسب الدراسات العلمية تعود إلى النباتات أو الحيوانات، وهذه بدورها قد استفادت من نور الشمس وحرارتها، فخزنت الفائض منها في جسمها، لهذا فإنّ حركة المحرّكات والمكائن أيضاً من بركات الشمس.

٧ - نور الشمس قاتل الميكروبات والمخلوقات المضرّة، وبفقدان هذا النور تتبدّل الأرض إلى مستشفى كبير قد ابتلي سكانها بأنواع الأمراض ويصارعون الموت بين لحظة وأُخرى!

وكلما دققنا في عالم النور الذي يشكل ظاهرة فريدة، يتّضح لنا أثرهُ البالغ الأهميّة وبركاته العظيمة.

وبملاحظة هاتين المقدمتين إذا أردنا تشبيه الذات المقدّسة لربّ العالمين (رغم منزلته العظيمة التي لا نظير لها ولا شبيه) فلا نجد خيراً من النور؟! الله الذي خلق كل شيء في عالم الوجود ونوّره، فأحيا المخلوقات الحية ببركته، ورزقها من فضل، ولو انقطعت رحمته عنها لحظة، لأصبح الجميع في ظلمات الفناء والعدم.

وممّا يلفت النظر أنّ كل مخلوق يرتبط بالله بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنّه كلام الله.

والدين الإسلامي نور لأنّه دينه.

الأنبياء أنوار لأنّهم رسله.

والأئمّة المعصومون عليهم السلام أنوار إلهيّة، لأنّهم حفظة دينه بعد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والإيمان نور، لأنّه رمز الالتحام به سبحانه وتعالى.

والعلم نور، لأنّه السبيل إلى معرفته عزّ وجلّ.

ولهذا: الله نور السماوات والأرض.

وإذا استعملنا كلمة «النور» بمعناها الواسعِ، أي الظاهر في ذاته والمظهر لغيره في هذه الحالة يصبح استعمال كلمة النور الذات الله المقدّسة حقيقة ولا تشبيه فيها، لأنّه لا يوجد أظهر من الله تعالى في العالم، وكلّ الأشياء تظهر من بركاتِ وجودِه.

وجاء في كتاب التوحيد، عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حين سئل عن معنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال «هادٍ لأهل السماوات، وهادٍ لأهل الأرض».

وهذه في الواقع واحدة من خصائص النور الإلهي، ولا يمكن حصره بهذه الخصيصة، ولهذا يمكن جمع كلّ ما قيل في تفسير هذه الآية، وكلّ تفسير هو إشارة إلى أحدِ أبعادِ هذا النور الذي لا مثيل له.

والجديرُ بالذكر ما جاء في الفقرة السابعة والأربعين من دعاء الجوشن الكبير الذي يحتوي على صفاتِ الله تعالى: «يا نور النور، يا منور النور، يا خالق النور، يا مدبّر النور، يا مقدّر النور، يا نور كلّ نور، يا نوراً قبل كلّ نور، يا نوراً بعد كلّ نور، يا نوراً فوق كلّ نور، يا نوراً ليس كمثله نور» وبهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره وتنتهي إلى نوره الطاهر.

وقد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفة ذلك، إذْ ذكر مثالاً رائعاً دقيقاً لكيفية النور الإلهي: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ولشرح هذا المثال يجب الإلمام بعدّة أُمور:

«المشكاة» في الأصل تعني الكُوّة التي تخصص في الجدار لوضع المصابيح الزيتية فيها لحفظها من الرياح، وأحياناً تبنى في الجدار فتحة صغيرة، يغطى جانبها المشرف على ساحة الدار بالزجاج، لإضاءة داخل وخارج الغرفة كما تحفظ المصباح من الرياح، كما تطلق هذه الكلمة على وعاء (الفانوس القديم) يصنع من زجاج على شكل

متوازي المستطيلات له باب وفتحة في أعلاه لخروج الهواء الساخن. وكانوا يضعون المصباح فيه.

وباختصار نقول: إنّ المشكاة محفظة للمصباح من الرياح الشديدة، وغالباً ما يثبت في الجدار لتركيزِ الضوء وسهولة انعكاسِه.

«الزجاجة» تطلق في الأساس على الأحجار الشفّافة، وسَمّيت الصفائح الشفافة بالزجاج لأنّها تصنع من مواد معدنية، والزجاجة هنا تعني الزجاجة التي توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، وتنظّم جريانَ الهواء، لتزيد من نور الشعلة.

«المصباح» يتألف من وعاء للزيت وفتيل.

عبارة: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تشير إلى الطاقة التي تُجهِّز هذا المصباحَ بوقود لا ينضب معينه، وزيت الزيتون من أجود الوقود المستعمل للمصابيح، ثمّ إنّ هذا الزيت يُحْصَلُ عليه من زيتون شجر يتعرّض للشمسِ من جميعِ جوانبه بشكل متساوٍ، لا أن تكون الشجرة في الجانب الشرقي مِنَ البستان وبجانب حائط يمنع وصول أشعة الشمس إليها، كما لا تكون في جهة الغرب ليتعرض جانب واحد منها على أشعة الشمس، فلا تنضج ثمرتها بصورة جيدة ولا يكون زيتها نقياً وصافياً.

وبعد هذا الإيضاح يتبيّن أنّنا للاستفادة من نور المصباح بإشعاع قويّ نحتاج إلى توفر أربعة أشياء.

«محفظة للمصباح» لا تقلّل من نوره، بل تركز هذا النور وتعكسه و«زجاجة» تنظم جريان الهواء حول الشعلة، ويجب أن تكون شفّافة بدرجة لا تمنع تشعشع النور، و«مصباح» هو مصدر النور، وهو عبارة عن إناء فيه زيت وفي أعلاه الفتيل.

وأخيراً «مادة الاحتراق» صافية خالصة شفّافة مستعدة للاشتعال بدرجة يتصوَّر فيها الإنسان أنّها سوف تشعل لوحدها دون أن يمسّها قبس من النار.

كلّ هذه العبارات تكشف في الحقيقة عن ظاهر القضية.

ومن جهةٍ أُخرى أورد كبار المفسّرين تفاسير عديدة بشأن هذا التشبيه وأنّه ما هو «المشبّه» ومن أيّ نور إلهي يكون:

قال البعض: المقصود هنا نور الهداية الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين، وبعبارة أُخرى: المقصود الإيمان الذي استقرّ في قلوب المؤمنين.

وقال آخرون: إنّ المشبّه يعني هنا القرآن الذي ينير قلوب الناس.

وآخرون: إنّه اشارة إلى شخص النّبي الأكرم ﷺ.

وآخرون: إنَّه إشارة إلى أدلة التوحيد والعدل الإلهي.

وآخرون: إنّه روح الطاعةِ والتقوى التي هي أساسُ كلِّ خير وسعادة.

وفي الحقيقة فإنّ هذهِ التفاسير قد أوردت كلّ ما جاء في القرآن والأحاديث الإسلامية بعنوان مصاديق للنور، وجوهرها واحد، وهو نور الهداية بذاته، ومصدره القرآن والوحي ووجود الأنبياء، وينهل من أدلة التوحيد، ونتيجته التسليم بحكم الله والتمسك بالتقوى.

وتوضيح ذلك: إنّ نور الإيمان الموجود في قلوب المؤمنين يحتوي على العناصر الأربعة المتوفرة في المصباح المضيء، هي:

﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ وهو شعلة الإيمان في قلب المؤمن يضيء طريق الهداية.

و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ هي قلب المؤمن ينظم الإيمان في ذاته ويحفظه من كل سوء.

و﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ صدر المؤمن، أو بعبارة أُخرى: شخصيته بما فيها وعيه وعلمه وفكرهُ الذي يصون إيمانه من الأعاصير والأخطار.

﴿شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ هي الوحي الإلهي الذي يكون بمنتهى الصفاء والطهارة وتوقد شعلة إيمان المؤمنين - في الحقيقة - من نورُ الله الذي ينير السماوات والأرض وقد أشرق من قلوب المؤمنين، فأضاءَ وُجودَهم ونور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدلَّة العقلائية بنور الوحي، فيكون مصداق «نور على نور».

ولهذا ترى القلوب المستعدة لاستقبالِ النورِ الإلهي تهتدي، وهي المقصودة بعبارة ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وعلى هذا فإنَّ المحافظة على النور الإلهي (نور الهداية والإيمان) يستوجب توفر مجموعة من المعارف والعلوم والوعي والأخلاق وبناء الذات، من أجل أن تكون كالمشكاة تحفظ هذا المصباح.

كما تحتاج إلى قلب مستعد لينظِّم هذا النور الإلهي كما تنظم الزجاجة شعلة المصباح.

وتحتاج إلى مدد من الوحي، ليمنحها طاقة مثلما تمنحها الشجرة التي سمّاها القرآن بعبارة ﴿شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾.

وتجب المحافظة على نورِ الوحي من التلوث والميول المادية والانحراف إلى الشرق أو الغرب الذي يؤدّي إلى التفسخ والاندثار.

ولتعبىء قوى الإنسان بشكل سليم بعيداً عن كلّ فكر مستورد وانحراف، لتكون مصداقاً لـ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

وكلّ تفسير يتضمّن حكماً مسبقاً ويتضمّن ذوق المفسّر وعقيدته الخاصّة به، أو رغبة يسارية أو يمنيةً، أو خرافة يؤدّي إلى تلويث سمعة هذه الشجرة المباركة، ويُقلل من تشعشع مصباحها. وأحياناً يُطفئه.

هذا هو المثال الذي ذكره اللهُ لنورِهِ في هذه الآية، وهو الذي أحاط بكلّ شيء علماً.

وممّا سلف يتّضح لنا أن ما ذكرته الرّوايات عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام بخصوص تفسير هذه الآية أنّ المشكاة هي قلب نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم والمصباح نور العلم، والزجاجة وصيه علي عليه السلام، والشجرة المباركة إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يرجع نسب بيت النبوّة إليه، وعبارة ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ تعني نفي أيّ ميل إلى اليهودية والنصرانية فهو وجه آخر لنور الهداية والإيمان، ومصداق واضح لها، ولا يعني أنّ هذه الآية مختصة بهذا المصداق.

كما أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ النور الإلهي هو القرآن، أو الأدلة العقلائية، أو النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بذاته، له جذور مشتركة بالتّفسير أعلاه.

وقد شاهدنا حتى الآن خصائص هذا النور الإلهي، نور الهداية والإيمان من خلال تشبيهه بمصباح قويّ الإضاءة.

ويجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، وشكل موضعه؟ ليتّضح لنا ما كان ضرورياً إيضاحه في هذا المجال، لهذا تقول الآية التالية: إنّ هذه المشكاة تقع ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ لكي تكون في مأمن من الشياطين والاعداء والانتهازيين ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ ويتلى فيها القرآن والحقائق الإلهية.

وقد اعتبر العديد من المفسّرين هذه الآية مرتبطةً كما قلنا بالآية التي سبقتها[1]، غير أنّ البعض من المفسّرين يرى أنّ هذه الجملة ترتبط بالجملة التي تليها، إلاّ أنّ ذلك بعيد عن الصواب.

---

(١) هكذا يكون تقدير الآية «هذه المشكاة في بيوت... أو هذا المصباح في بيوت... هذه الشجرة في بيوت نور الله في بيوت» في الوقت الذي يرى أصحاب التّفسير الثّاني أنّ عبارة «في بيوت» تعود إلى كلمة «يسبح» ليكون معنى الآية ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي في الصباح والمساء، إلاّ أنّ هذا التّفسير لا ينسجم مع وجود كلمة ﴿فِيهَا﴾ لأنّه يعد تكراراً لا داعي له، إضافة إلى عدم انسجامها مع الأحاديث الواردة بهذا الصدد (فتأملوا جيداً).

أمّا ما أورده البعض وتساءل عن مدى تأثير هذا النور الباهر في البيوت المذكورة بتلك الخصوصيات، فجوابه واضح، لأنّ البيوت التي ورد ذكرها في هذه الآية والتي يحرسها رجال أشداء يقظون، هم الذين يحفظون هذه المصابيح المنيرة، إضافة إلى أنّ هؤلاء الرجال يبحثون عن مصدرِ نور، فيهرعون إليه بعد أن يتعرّفوا على موضع هذا النور.

ولكن ما المقصود من هذه البيوت؟

الجواب يتّضح بما ذكرته آخر الآية من خصائص حيث تقول: إنّه في هذه البيوت يسبّح أهلها صباحاً ومساءً: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾[(١)].

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ إنّ هذه الخصائص تكشف عن أنّ هذه البيوت هي المراكز التي حُصِّنَتْ بأمر من الله، وأنّها مركز لذكر الله ولبيان حقيقة الإسلام وتعاليم الله، ويضم هذا المعنى الواسع المساجد وبيوت الأنبياء والأولياء خاصّة بيت النّبي ﷺ وبيت عليّ عليه السلام. ولا دليل يؤيّدُ حصرها من قبل بعض المفسّرين - بالمساجد أو بيوت الأنبياء وأمثالها.

وفي الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «هي بيوت الأنبياء وبيت عليّ منها»[(٢)].

وفي حديث آخر حيث سئل النّبي ﷺ لمّا قرأ الآية، أي بيوت هذه؟ فقال: «بيوت الأنبياء» فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله، هذا البيت منها، يعني بيت عليّ وفاطمة. قال: «نعم، من أفاضلها»[(٣)].

وكل ذلك إشارة إلى مصاديق واضحة تذكرها الأحاديث كعادتها حين تفسير القرآن.

أجل، إنَّ كُلَّ مركز يقامُ بأمر من الله، ويذكر فيه اسمه ويسبح له فيها بالغدو

---

(١) «الغدو» على وزن «علو» بمعنى الصبح، ويقول الراغب الإصفهاني: الغدوة والغداة من أوّل النهار، وقوبل في القرآن بالآصال، نحو قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ وقوبل الغداة بالعشيّ.
و«الآصال» جمع «الأصل» على وزن «رُسُل» وهو بدوره جمع للأصيل بمعنى العصر، والسبب في ذكر الغدو مفردة والآصال جمعاً يقول الفخر الرازي، لأنّ الغدو ذات بعد مصدري ولا يجمع المصدر.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٠٧.

(٣) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٤٤، للآية مورد البحث.

والآصال، وفيه رجال لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله، فهي مواضع لمشكاة الأنوار الإلهية والإيمان والهداية.

ولهذه البيوت عدّة خصائص:

أوّلها: أنّها شيّدتْ بأمر من الله.

والأُخرى: إنّ جدرانها رُفعت وأُحكم بناؤها لتمنع تسلل الشياطين.

وثالثها: أنّها مركز لذكر الله.

وأخيراً: فإنّ فيها رجالاً يَحرسُونُها ليل نهار، وهم يسبحون الله، ولا تلهيهم الجواذب الدنيوية عن ذكر الله.

هذه البيوت بهذه الخصائص، مصادر للهداية والإيمان.

ولابدّ من التنبيه إلى ورود كلمتين في هذه الآية هما «التجارة» و«البيع» وهما كلمتان تبدوان وكأنّ لهما معنىً واحداً، إلاّ أنّ الفرق بينهما هو أنّ التجارة عمل مستمر، والبيع يُنجز مرة واحدة، وقد تكون عابرة.

ويجب الالتفاتُ إلى أنَّ الآية لم تقل: إنّ هؤلاء لا يمارسون أبداً التجارة والبيع بل قالت: إنّهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

إنّهم يخافون يوم القيامة والعدل الإلهي الذي تتقلّب فِيه القلوبُ والأبصار من الخوف والوحشة (ويجب الانتباه إلى أنَّ الفعل المضارع يخافون يدلّ على الاستمرار في الخوف وهذا الخوف هو الذي دفعهم إلى تحمل مسؤولياتهم ولبلوغ رسالتهم في الحياة).

وأشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافي لحراس نور الهداية وعشّاق الحقّ والحقيقة، فقالت: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، ولا عجب في ذلك، لأنّ الفضل الإلهي لمن كان جديراً به غير محدود: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال بعض المفسّرين عما تعنيه عبارة ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ في هذه الآية، أنّها إشارة إلى جميع الأعمال الطيبة، سواء كانت واجبة أم مستحبة، صغيرة أم كبيرة.

ويرى آخرون أنّها إشارة إلى أنّ الله يكافىء الحسنة بعشر أمثالها، وأحياناً بسبعمائة مثلها، حيث نقرأ في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام: ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾. كما جاء في الآية (٢٦١) من سورة البقرة حول جزاء المنفقين في سبيل الله أنّ المكافأة تعادل سبعمائة مرة أو ضعفها.

كما يمكن أن تفسّر العبارة السابقة بأنّ المقصود هو أنّ الله يكافىء جميع أعمالهم بموجب أفضلها، ويشمل ذلك أبسط أعمالهم وأوسطها، حيث يجعلها الله بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأة.

وليس هذا بعيداً عن رحمة الله وفضله، والعدالة تقضي بمساواة المكافأة مع العمل في سبيل الله، إلاّ أنّ رحمة الله وسعتْ كلّ شيء، فهو يهب دون حساب ولا حدود، فذاته المقدسة غير محدودة، وأنعمه لا تنتهي، وكرمه عظيم لا حدود له.

ملاحظات

استعرضنا كثيراً من مسائل هذه الآيات خلال تفسيرنا لها، وبقيت عدّة أحاديث يقتضي الأمر ذكرها بُغية إتمام هذا البحث.

١ - نقرأ في كتاب روضة الكافي حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير آية النور: «إنّ المشكاة قلب محمد صلى الله عليه وآله والمصباح النور الذي فيه العلم، والزجاجة قلب علي عليه السلام أو نفسه»(١).

٢ - وجاء حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام في توحيد الصدوق: «إنّ المشكاة نور العلم في صدر النّبي صلى الله عليه وآله والزجاجة صدر علي... ونور علي نور إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في أثر الإمام من آل محمد صلى الله عليه وآله، وذلك من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله عزّ وجلّ خلفاء في أرضه وحججاً على خلقه، لا تخلو الأرض في كلّ عصر من واحد منهم»(٢).

٣ - وفسّر حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام المشكاة بفاطمة عليها السلام والمصباح بالحسن عليه السلام والزجاجة بالحسين عليه السلام (٣).

وكما أشرنا سابقاً فإنّ للآيات مفهوماً واسعاً، وكلّ حديث من هذه الأحاديث بيان لمصداق بارز من مصاديقها دون الإخلال بعموميتها.

وبهذا لا نجد تناقضاً في الأحاديث السابقة.

٤ - نقرأ في حديث عن أبي جعفر الثمالي قال: قال أبو جعفر عليه السلام الباقر لقتادة: من أنت؟ قال: أنا قتادة بن دعامة البصري فقال له أبو جعفر عليه السلام: أنت فقيه أهل البصرة؟ قال: نعم، فقال له الإمام الباقر عليه السلام: ويحك ياقتادة إنّ الله خلق خلقاً من

(١-٣) تفسير نور الثقلين في تفسير الآيات مورد البحث (مع بعض التلخيص ج ٣، ص ٦٠٢ و٦٠٣).

خلقه فجعلهم حججاً على خلقه، فهم أوتاد في أرضه قوّام بأمره نجباء في علمه اصطفاهم قبل خلقه، أظلة عن يمين عرشه قال: فسكت قتادة طويلاً ثمّ قال: أصلحك الله والله لقد جلست بين يدي الفقهاء وقدّامهم، فما اضطرب قلبي قدّام واحد منهم كما اضطرب قدّامك.

فقال له الإمام الباقر عليه السلام: أتدري أين أنت؟ بين يدي: ﴿بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴿٣٧﴾﴾ فأنت ثمّ ونحن أُولئك.

فقال له قتادة: «صدقت والله جعلني الله فداك والله ما هي بيوت حجارة ولا طين...»[1].

٥ - وذكر حديث آخر حول رجال الله حماة الوحي والهداية: «هم التجار الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، إذا دخل مواقيت الصلاة أدوا إلى الله حقّه فيها»[2].

إشارة إلى أنّ هؤلاء الرجال همّهم ذكر الله ولا يقدمون عليه شيئاً، رغم أنّهم يمارسون نشاطاً اقتصادياً في الحياة.

٦ - وصفت شجرة الزيتون في الآيات السابقة بأنّها شجرة مباركة.

وكان لهذه الشجرة أهمية بالغة حين نزول القرآن، وقد اتّضح ذلك اليوم، لأنّ كبار العلماءِ أخبرونا بخلاصة تجاربهم ودراساتهم عن خواص أنواعِ النباتات، وحول شجرة الزيتون يقولون: إنّها مباركة حقّاً، وثمرها مفيد جدّاً، ويمنحنا أجود الزيوت، ولها دور حيوي في سلامة الجسم.

يقول ابن عباس: إنّ أجزاء هذه الشجرة مفيدة ومريحة، وحتى رماد خشبها فيه منفعة، وهي أولُ شجرة نبتت بعد طوفان نوح عليه السلام، وقد دعا لها الأنبياء وباركوها.

٧ - ذكر المفسّرون الكبار عدّة تفاسير لعبارة «نور على نور» فقال المرحوم الطبرسي في مجمع البيان: إنّها إشارة إلى أنبياء من نسل واحد يتعاقبون على النبوة ويُواصِلُونَ طريق الهداية.

ويقول الفخر الرازي في تَفسيرهِ: إنّها إشارة إلى تجمع شعاع النور وتراكمه، حيث ذكر حول المؤمن: «يقف المؤمن بين أربعة مواقف، فإذا وهبهُ الله شكره، وإذا أصابته

(١-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٠٩.

مصيبة صبر وصمد، وإذا تكلم صدق، وإذا حكّم بين اثنين عدل، وهو إنسان واع بين جهلة ومثله كحيّ بين أموات. إنّه يسير بين خمسة أنوار: كلامه نور، عمله نور، إقامته نور، رحله نور، هدفه نور الله يوم القيامة».

ويمكن أن يكون النور الأوّل الذي ذكرته الآية إشارة إلى نور الهداية الإلهيّة عن طريق الوحي، والنور الثّاني نور الهداية عن طريق العقل.

أو أنّ النور الأوّل هو نور الهداية التشريعة، والنور الثّاني نور الهداية التكوينية فهو نور على نور.

وبهذا فسّرت هذه العبارة بمختلف مصادر النور، مرّة فُسّرت بالأنبياء وأُخرى بأنواعِ النور، ومرة ثالثة بمراحل النور المختلفة، وهي ممكنة جميعاً في آن واحد، لأنّ مفهوم الآية واسع جداً (فتأملوا جيداً).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

أعمال سرابية

تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الإيمان والهداية، ولإتمام هذا البحث ولتوضيح المقارنة بين الذين نوّر الله قلوبهم وبين الآخرين تناوَلَتْ هذه الآيات عالَم الكفر والجهل والإلحاد المظلم، وتحدثت عن الكفّار والمنافقين الذين وجودهم ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ خلافاً للمؤمنين الذين أصبحت حياتهم وأفكارهم ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾.

الكلام في الآية الأُولى عن الذين يبحثون عن الماء في صحراءَ جاقّة حارقة، ولا يجدون غير السراب فيموتون عطشاً، في الوقت الذي عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، ومنبع الهداية الرائعة، فاستراحوا بجنبها، فتقول أوّلاً: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ

﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ ولكن يجد الله عند أعماله ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

«السراب» مشتق من السرب على وزن «حَرْبْ» بمعنى الطريق المنحدر، وتطلق كلمة السراب على لمعان يشاهد في الصحارى والمنحدرات من بعيد وكأنّه ماء، وما هو إلاّ انعكاسٌ لأشعة الشمس(١).

ويرى البعض أنّ «القيعة» جمع «قاعة»، بمعنى الأرض الواسعة التي لاماء ولا نبات فيها، ويطلق ذلك على الصحارى التي يظهر فيها السراب في معظم الأحيان، إلاّ أنَّ بَعْضَ المفسّرين واللغويين يرون أنّ هذه الكلمة مفردة، وجمعها «قيعان» أو «قيعات»(٢).

ورغم عدم وجود الفرق مِنْ حيثُ المعنى، فإنّ الآيَةُ تُوجِبُ أن تكون هذه الكلمة مفردة، لأنّها ذكرت السراب مفرداً والسراب الواحد يكون في أرض واحدة طبعاً.

ثمّ تناولت الآية الثّانية مثالاً آخر لأعمال الكفّار وقالت: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ وبهذا المنوال تكون ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾.

أجل، إنّ النور الحقيقي في حياة البشر هو نور الإيمان فقط، ومن دونه تَسودُ الحياةَ الظلمات، ونور الإيمان هذا إنّما هو لطفٌ من عندِ الله ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

ولفهم عمق هذا المثال لا بدّ من الاهتمام بمعنى كلمة «اللجّيّ» وهو البحر الواسع والعميق. وبالأصل مشتقّة من «اللجاج» بمعنى متابعة عمل ما (التي تطلق عادة على الأعمال غير الصحيحة) ثمّ أُطلقت على تتابع أمواج البحر واستقرارها الواحدة بعد الأُخرى، ولقد استخدمت هذه الكلمة بهذا المعنى لأنّ البحر كلّما كان عميقاً وواسعاً تزداد أمواجه.

ولَوْ تصوَّرتُم بحراً هائجاً عميقاً، ومع علمنا أنَّ نور الشمسِ أقْوى أنواعِ النور، لكنّه لا ينفذ إلاّ بمقدار مُعيَّن في البحر، وآخر حدود نفوذه في العمق لا يتجاوز سبعمائة متر، حيث يسودُ الظلام الدائم أعماق البحار والمحيطات.

---

(١) يقول علماء الفيزياء المعاصرون: عند ارتفاع درجات الحرارة فالهواء المجاور للأرض يتمدد ويزداد تخلخله فيختلف مع الطبقة المجاورة له، وبذلك تنعكس موجة الضوء ويحدث السراب.

(٢) تراجع التفاسير التالية: مجمع البيان، ج٧، ص١٤٦، روح المعاني، تفسير القرطبي، تفسير الفخر الرازي، ج٢٤، ص٧ ومفردات الراغب.

كما نعلم أنّ الماء إذا كان هادئاً يعكسُ النورَ بشكل أفضل، بينما تكسر أمواج البحر أشعة الشمس، ولا تسمح لها بالنفوذ إلى العُمقِ إلاّ بِمقدارٍ أقل، وإذا أضفنا إلى ذلك مسألة مرور سحاب داكن اللون فوق هذا البحر الهائج، فإنّ الظلام يَزْدادُ عُتمة وسواداً بشكل كبير[١].

إن الظلام في عمق البحر من جهة، وظلمة الأمواج الهائجة من جهة أُخرى، وظلمة الغيوم السوداء من جهة ثالثة، ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض.

وفي مثل هذا الظلام لا يمكنُ رؤية أيّ شيء، مهما اقتَرب منّا، حتى لو وضع الإنسان الشيء نُصبَ عينيه لما استطاع مشاهدته.

وهكذا حال الكفار الذين حرموا من نور الإيمان فابتلوا بهذه الظلمات، خلافاً للمؤمنين الذين نوّر الله قلوبهم وطريقهم وهم مصداق ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

وقال بعض المفسّرين: إنّ هذه الظلمات ثلاثة أقسام، قد ابتلي غير المؤمنين بها، وهي: ظلمة العقيدة الباطلة، وظلمة القول الخاطىء، وظلمة السلوك السيّىء، وبعبارة أُخرى: إنّ أعمالِ غير المؤمنين أساسها الفكري ظلمات. وكذلك أقوالَهُم التي هي انعكاس لعقائدهم، ثمّ انسجامها مع أفعالهم الظلمانية.

وقال آخرون: إنَّ هذه الظلمات الثلاث عبارة عن مراحل جهل غيرِ المؤمنين، وأوّلها أنّهم لا يعلمون، وثانيتُها أنّهم لا يعلمون بأنّهم لا يعلمون، وثالثتها أنّهم مع كل هذا يتصوّرون أنّهم يعلمون، وبهذا يعيشون في جهل مركّب دَامِس.

وقال البعض الآخر: إنَّ أساس المعرفة - كما يقول القرآن المجيد - في ثلاثة أشياء: القلب والعين والأذن (وبالطبع يعني بالقلب العقل). كما جاء في الآية (٧٨) من سورة النحل: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[٢]. ولكن الكفّار فقدوا بكفرهم نور العقل والسمع والبصر، فصاروا في ظلمات متراكمة.

ولا تناقض بين هذه التفاسير الثلاثة، كما هو واضح، إذ يمكن أن تشملهم هذه الآية جميعاً.

---

(١) يجب الانتباه إلى أن «السحاب» يعني كما جاء من «لسان العرب» الغيوم الممطرة، وعادة تكون السحب المتراكمة أكثر عتمة.

(٢) تفسير الفخر الرازي، للآية مورد البحث.

وعلى كلّ حال، فيمكننا أن نصل إلى استنتاج عام من الآيتين السابقتين. فقد شبّهت الآية أعمال غير المؤمنين بنور كاذب كسراب يراه ظمآن في صحراء جافة، لا يروي هذا السراب العطاشى أبداً، وإنّما يزيد في سعيهم للحصول على الماء فيرهقهم دون نتيجة تذكر.

ثمّ ينتقل القرآن من الحديث عن هذا النور الكاذب، الذي هو عبارة عن أعمال المنافقين إلى باطن هذه الأعمال، الباطن المظلم والمخيف والموحش حيث تتعطل فيه حواسُ الإنسان، وتظلم عليه الدنيا حتى لا يرى نفسه، فكيف يمكنه رؤية الآخرين؟

وطبيعي أنّ المرء في هذه الظلمات في وحدة مطلقة وجهل دائم، لا يجد طريقه، ولا رفيق سفره، ولا موقف له، ولا يملك وسيلة للنجاة، لأنّه لم يكتسِب شيئاً من مصدر النور، أي الله سبحانه وتعالى، وقد ختم الله على قلبه بالجهل والضلال.

ولعلكم تتذكرون أنّنا قلنا: إنَّ النور مصدر أنواع الجمال والحياة والحركة، عكس الظلام الذي يعتبر مصدر القبائح والموت والعدم والسكون والسكوت.

الظلام مصدر الخوف والكراهية، وهو توأم الهمّ والغمّ، هكذا وضع الذين افتقدوا نور الإيمان، وغرقوا في ظلمات الكفر.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾

التّفسير

الجميع يسبّح لله

تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الهداية والإيمان، وعن الظلمات المضاعفة للكفر والضلال.

أمّا الآياتُ موضعُ البحث، فإنّها تتحدّث عن دلائل الأنوار الإلهيّة وأسباب الهداية، وتخاطب الآية النّبي ﷺ فتقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكذلك الطير يسبّحن لله في حال أنّها باسطات أجنحتهن في السماء ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وبما أنّ هذا التسبيح العام دليل على خلقِهِ تعالى لجميع المخلوقات، وخالقيته دليل على مالكيته للوجود كله، وكذلك دليل على أنَّ كُل ما في الوجود يرجع إليه سبحانه، فتضيف الآية ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

كما يحتمل وجود رابطة بين هذه الآية وسابقتها، حيث تحدّثت الآية الأُولى في آخر جملة لها، عن علم الله بأعمال البشر جميعاً وعلمه بالمسبحين له.

أمّا هذه الآية فقد أشارت إلى محكمة العدل الإلهي في الآخرة، وأنّ لله ما في السماوات والأرض، وهو الحاكِمُ والقديرُ العادِل في مصيرِ الناس وما في الوجود.

مسائل مهمة

١ - ماذا تعني عبارة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾

حسبما يراها الكثير من المفسّرين، تَعني: ألم تعلم، حيث التسبيح العام من قبل جميع المخلوقات في العالم لا يمكن إدراكه بالعين، بل بالقلب والعقل.

ولكونِ هذهِ القضية واضحةً جِداً وكأنّها ترى بالعين المجرّدة، استخدمت الآيةُ عبارة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

كما يجب الانتباه إلى أنّه على الرغم من كونِ المخاطَب في هذه الآية النّبي ﷺ بالذات، فإنّ عدداً من المفسّرين يرى أنّها تشمل الناس جميعاً، لأنّ ذلك من أساليب القرآن المجيد اتبعها في كثير من آياته.

وقال البعض: إنَّ هذا الخطاب خاصّ بالنّبي ﷺ في مرحلة الرؤيا والمشاهدة، حيث منحه اللهُ القدرة على مشاهدة تسبيح جميع المخلوقات، وكذلك منح سبحانه وتعالى هذه القدرة لجميع عباده المخلصينَ له المتمسّكين بِهُداه.

أمّا بالنسبة لعامّة الناس، فالمسألة تخصّ إدراكَهُم لتسبيح الموجوداتِ عن طريق العقل، وليس بالمشاهدةِ البصريَّةِ[1].

٢ - التسبيح العام لجميع المخلوقات

تحدّثت الآيات المختلفة في القرآن المجيد عن أربع عبادات تمارسها مخلوقات هذا

(١) تفسير الصافي للآية مورد البحث.

الكون العظيم، هي: التسبيح، والحمد، والسجود، والصلاة، أمّا الآية موضع البحث، فقد تناولت الصلاة والتسبيح.

وتحدثت الآية الخامسة عشرة من سورة الرعد عن السجود العام: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أمّا الآية الرّابعة والأربعون من سورة الإسراء، فقد تحدثت عن التسبيح والحمد من قبل جميع المخلوقات في الوجود كله ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وقد تناولنا حقيقة الحمد والتسبيح العامّين من قبل المخلوقات والتفاسير المختلفة الواردة بهذا الصدد، في تفسيرنا الآية الرّابعة والأربعين من سورة الإسراء، ونذكر هنا ملخصه:

هناك تفسيران جديران بالاهتمام، وهما: -

١ - إنّ ذرات هذا العالم كلها - عاقلة أو غير عاقلة - لها نوع من الإدراك والشعور، وهي تسبح في عالَمِها لله وتحمده على الرغم مِن عدم إدراكنا لها، ولهذا التّفسير أدِلَّة قرآنية.

٢ - إن القصد من التسبيح والحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله» أي نظام الوجود وأسراره المدهشة الكامنة في كلّ مخلوق تتحدّث بصراحة عن عظمة الخالق وعلمه وحكمته التي لا حدود لها، إذْ كُل مخلوق جميل، وكلّ أثر فنيّ بديع يثير الدهشة والإعجاب، حتى أنّ لوحة فنية وقطعة شعرية جميلة، تحمد وتسبّح لِمبدعها. فمن جهة تكشف عن صفاته (بحمدها له) ومن جهة أُخرى تنفي عنه أي عيب أو نقص (فتسبحه)، فكيف وهذا الكون العظيم بما فيه من عجائب وغرائب لا تنتهي! (للاطلاع أكثر على ذلك يُراجع تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء في تفسيرنا هذا).

وإذا قلْنا: إنّ عبارة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تعني تسبيح كلّ من في السماوات والأرض، ونحدد كلمة ﴿مَن﴾ بذوي العقول، فإنّ التسبيح يخصّ هنا المعنى الأوّل، فهو تسبيح بوعي وإرادة ولازم هذا القول أن الطيور أيضاً لها شعور، لأنّ كلمة الطيور جاءت بعد حرف ﴿مَن﴾. ولا عجب في ذلك، لأنّ آيات قرآنية أُخرى قالت بوجود مثل هذا الشعور لدى بعض الطيور (يراجع تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنعام).

٣ - التسبيح الخاص بالطيور

ما السبب في ذكر تسبيحِ الطيور من بين جميع المخلوقات، وخاصّة في حالة بسط جناحيها في السماء؟

المسألة تكمن في أنّ الطيور إضافة إلى تنوُّعها الكبير، تمتاز بصفات خاصّة تجلب نظر كل عاقل إليها، حيث تحلّق هذه الأجسام - وبعضها ثقيل - في السماء خلافاً لقانون الجاذبية، وتطير بسرعة من نقطة إلى أُخرى في الجوّ، وتركب أمواج الرياح وهي باسطة جناحيها دون أي تعب أو جهد بشكل يثير الإعجاب.

والمثير فيها هو إدراكها لقضايا الأنواء الجوية، ومعلوماتها الدقيقة لِوَضع الأرض الجغرافي - خلالَ سفرِها وهجرتها من قارة إلى أُخرى، حتى أنّ بعضها يُهاجر من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي.

فهي تمتلك جهاز توجيه خفي عجيب يرشُدها إلى الهدف إبان سفرها الطويل، حتى لو تلبّدت السماءُ بالغيوم. وهذه من أكثر الأُمور إثارة للدهشة والعجب، ومن أوضح أدلة التوحيد.

طيور الليل بدورها تملك راداراً مدهشاً يخبرها حين الطيران في ظلمة الليل عن كلّ حاجز أمامها، حتى أنّ بعضها يرى سمكة تحت الماء، فيخطفها بسرعة البرق، وهذه ميزة مدهشة في هذه الطيور!!

وعلى كل حال فإنّ هناك أُموراً عجيبة في الطيور جعلت القرآن المجيد يخصّها بالذكر.

٤ - عبارة ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾

نسب عدد من المفسّرين ضمير «علم» إلى كلمة «كلّ»، وبهذا يصبح معنى العبارة السابقة: كلّ من في الأرض والسماء، وكذلك الطيور علم صلاته وتسبيحه.

وقال بعض المفسّرين: إنّ ضمير ﴿عَلِمَ﴾ يعود إلى الله تعالى، أي أنّ الله علم صلاة وتسبيح كلّ منهم.

والتّفسير الأوّل يلائم الآية بشكل أفضل.

وبهذا الترتيب يعلم كلّ مسبّح لله أُسلوب تسبيحه وطريقته وشروطه وخصائص صلاته.

فإذا كان التسبيح بوعي من هذه الكائنات يتّضح جيداً مفهومُ هذا الكلام، أمّا إذا كان بلسان حالها فيكون مفهومه أنّ كلّ واحد منها له نظام خاصّ يُعبِّرُ بشكل من الأشكال عن عظمة الله، وكلّ واحد منها يعكس قدرة الله وحكمته.

٥ - ما المقصود بالصلاة؟

قال بعض المفسّرين كالمرحوم «الطبرسي» في مجمع البيان، و«الآلوسي» في روح البيان: إنّ الصلاة هي الدعاء.

وهذا هو مفهومها اللغوي، وبهذا تمارس جميع المخلوقات في الأرض والسماء الدعاء إلى الله بلسان حالها أو مقالها وتسأله الرحمة، لأنّه أرحم الراحمين، وأنّه سبحانه وتعالى يمنّ عليها برحمته كُلاً بحسب قابليته.

غاية الأمر أنّهم جميعاً يعلمون حاجتهم ومطلبهم وما ينبغي أن يدعوا، وإضافة إلى ذلك - وفق الآيات التي أشرنا إليها سابقاً - فهم خاضعون لعظمة الله، وقد سَلَّموا بقوانين الخلق، ويُردِّدون من الأعماق الثناء على صفاتِهِ الكاملة سبحانَه وتعالى، ونفي كلّ نقص عنه جَلّ اسمُه المقدّس.

وبهذا الشكل تتمّ العبادات الأربع «الحمد» و«التسبيح» و«الدعاء» و«السّجود».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾

التّفسير

جانب آخر من الخلق العجيب

نواجه ثانية - في هذه الآيات - جانباً آخر من مسألة الخلق المدهشة، وما احتوته من آيات العلم والحكمه والعظمة، وكلّ ذلك من أدلّة توحيد ذاتِ اللهِ الطاهرة.

يخاطِبُ القرآنُ المجيد النبيّ ﷺ ثانية ويقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ وبعد أن تتراكم السحب ترى قطرات المطر تخرج من بين السحاب وتهبط على الجبال والسهول والصحاري ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾.

وكلمة ﴿يُزۡجِي﴾ مشتقّة من «الإزجاء»، أي سوقه بأُسلوب لين لترتيب المخلوقات المتبعثرة هنا وهناك بقصد جمعها.

وهذا التعبير يصدق بالنسبة للسحب، حيث ترتفع كلّ قطعة منه من جانب من البحر. ثمّ تسوقها يد القدرة الإلهيّة وتجمعها، فتراكم بعضها على بعض.

وكلمة «ركام» على وزن «غلام»، بمعنى الأشياء المتراكمة بعضها فوق بعض.

وأمّا «الودق» على وزن «شرق»، فيرى الكثيرون أنّها حبّات المطر، إلاّ أنّ الراغب الإصفهاني يرى في مفرداته أنّها ذرات دقيقة من الماء، أي: الرذاذ الذي يتناثر في الفضاء حين هطول المطر.

والمعنى الأوّل أكثر ملاءمة هنا، فما يدلّ بشكل أكبر على عظمة الله هو ذرات المطر نفسها وليس رُذاذه، إضافة إلى أنّ القرآن كُلّما ذكر السحاب ونزول بركات الله من السماء، أشار فيها إلى المطر. فهو الذي يحيي الأرض بعد موتها ويبعث الحياة في الأشجار والنباتات، ويروي عطش البشر والحيوان.

وأشار القرآن إلى ظاهرة أُخرى من ظواهر السماء المدهشة، وهي السحاب، حيث قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ أي من جبال السحب في السماء تنزل قطرات المطر على شكل ثلج وَبَرَد، فتكون بلاء لمن يريد الله عذابه فتصيب هذه الثلوج المزارع والثمار وتتلفها وقد تصيب الناس والحيوانات فتؤذيهم ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ومن لم يرد تعذيبه دفع عنه هذا البلاء ﴿وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ﴾.

أجل، إنّه هو الذي ينزّل الغيث المخصب من سحابة تارة... وهو الذي يُصيّره بَرَداً بأدنى تغيير بأمره فيصيب به (بالأذى) من يشاء، وربما يكون مُهلكاً أحياناً.

وهذا يدلّ على منتهى قُدرته وعظمته - إذ جَعَلَ نفع الإنسان وضرره وموته وحياته متقارنة، بل مزج بعضها ببعض!

وفي نهاية الآية يشير إلى ظاهرة أخرى من الظواهر السماوية التي هي من آيات التوحيد فيقول سبحانه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

فالسُّحبُ المؤلفة في الحقيقة من ذرات الماء تحمل في طيّاتها الشحنات «الكهربائية»، وتُومض إيماضاً يُذهل برقها ﴿ٱلۡعُيُونِ﴾ والأبصار وَيَصُكّ رعدها السمع من صوته، وربّما اهتزت له جميع الأجواء.

إن هذه الطاقة الهائلة بين هذا البخار اللطيف لمثيرةٌ للدهشة حقّاً!...

ردّ على استفسار:

السؤال الذي بقي هنا هو: ما هذا الجبل الذي في السماء ينزل منه البَرَد؟ أجاب المفسّرون عن هذا الاستفسار بأجوبة مختلفة، هي:

١ - قال البعض: إنَّ كلمة الجبال هنا كناية، مثلما نقول جبل من غذاء أو جبل من علم. وعلى هذا فإنّ مفهوم الآية السابقة، هو أنّ هناك بَرَداً متراكماً كالجبل في قلب السماء أوجد السحاب، وينزل قسم منه في المدن، وقسم آخر في الصحراء، ويصيب به من يشاء.

٢ - وقال آخرون: المقصود من الجبال السحب المتراكمة بحيث تشبه الجبل.

٣ - وذكر صاحب تفسير «في ظلال القرآن»، بياناً آخر هو الأوفق حسب الظاهر، وهو: «إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثمّ تؤلف بينه وتجمعه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قطع البرد الثلجية الصغيرة، ومشهد السحاب كالجبال لا يبدو لنا كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد جبال حقاً، بضخامتها ومساقطها وارتفاعها وانخفاضها، وإنّه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلاّ بعد ما ركبوا الطائرات»[(١)].

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أنَّ العلماء يرون في كيفية تكون البَرد في السماء أنَّ قطرات المطر تنفصل من السحاب، وإذا مرت بطبقة باردة من الهواء أصبحتْ ثلجاً، ثمّ تدفعها أحياناً العواصف الموجودة هناك إلى الأعلى، فتدخل قطع الثلج هذه إلى داخل السحب، ويكتسب بعضها مياهاً جديدة ثمّ تهبط، فتتجمد ثانية عند مرورها بطبقة من الهواء البارد جدّاً.

وكلما تكرر وقوع هذا العمل نَمَت هذه القطع من الثلج وازداد وزنها، إلى أنْ تقع على الأرض بعد أن تعجز الأعاصير عَنْ دفعِها إلى الأعلى مرّة أُخرى. أو أنَّ الإعصار يهدأ فيسقط البرد على الأرض.

وبهذا الشرح العلمي يتّضح لنا المراد من كلمة «الجبال» التي وردت في هذه الآية، لأن تكوّن البَرَد بقطع كبيرة وثقيلة ممكن في حال تراكم السحب، حتى يقذف الإعصار حبّات البَرَد وسطها، لتكسب هذه الحبّات قدراً أكبر من مياه السحب.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج (١٩ - ٢٠)، ص ١٠٩ - ١١٠ - دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأُولى. تفسير في ظلال القرآن، ج٦، ص١٠٩.

وذلك ممكن في حالة وجودِ جبال مرتفعة من السحب، لتكون مصدراً جيداً لتكون البَرد[١].

ونقرأ هنا تحليلاً آخر ذكره بعضُ الكتّاب، وخلاصته كالآتي: «أشارت الآيات موضع البحث بصراحة إلى الجبال الثلج، أي الجبال التي فيها نوع من الثلوج».

وهذا يثير الانتباه كثيراً، لأنّ اختراع الطائرات والتمكن من التحليق بها في مستوىً مرتفع زاد من آفاق علم البشر، فقد تمكّن العلماء من الوصول إلى سُحب مستورة ومتكونة من تراكمات ثلجية، وحقّاً ممكن أن تسمى بجبال الثلج.

وممّا يثير الدهشة أنَّ أحد علماء السوفيت استخدم - لعدة مرات - اسم «جبال السحب» و«جبال الثلج» خلال شرحه موضوع سُحُب العواصف الثلجية، وبهذا يتّضح لنا وجود جبال من الثلج في السماء.

وأشارت الآية التالية إلى إحدى معاجز الخلق ودلائل عظمة الله، وهو خلق الليل والنهار بما فيهما من خصائص، حيث تقول: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

وذكرت لمعنى ﴿يُقَلِّبُ﴾ عدّة تفاسير، فقال البعض: إنَّ تقلب الليل والنهار هو أنه إذا حَلَّ أحدهما محل الآخر.

وقال البعض: إنَّه قصر أحدهما وطولُ الآخر، ويَحْدُثُ ذلك بصورة تدريجية وله ارتباطٌ بالفصول الأربعة.

واعتبر آخرون تقلبات الحرّ والبرد، وحوادث أُخرى تقع في الليل والنهار[٢].

وليس بين هذه التفاسير أيُ تناقض، بل يمكن جمعُها في مفهوم عبارة ﴿يُقَلِّبُ﴾، ولا ريب - وقَدْ برهن العلم على ذلك - أنَّ لتعاقب الليل والنهار والتغييرات التدريجية الحاصلة منه أثر فَعّال في استدامة الحياة وبقاء الإنسان، وفي ذلك عبرة لأُولي الأبصار.

---

(١) تكرر حرف ﴿مِن﴾ ثلاث مرات في عبارة ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ﴾ أولاها ابتدائية، وثانيتها لها نسبة مع ابتدائية، وأمّا الثّالثة فقد اختلف في تفسيرها كما ذكرنا أعلاه، فهي بحسب التّفسير الأوّل بيانية، ويكون مفهوم الجملة هو ينزل من السماء من جبال من برد. وقد حذف مفعول الفعل ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ وهو البرد، ويفهم ذلك من قرينة في الكلام، وعلى حسب التفسيرين الثّاني والثّالث اللذين اخترناهما تكون ﴿مِن﴾ إمّا زائدة (حسبما نقله تفسير روح المعاني عن الأخفش) أو هي للتبعيض.

(٢) التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٤، ص١٥، وتفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٤٨، وتفسير روح المعاني.

وإذا كانت حرارة الشمس على نسق واحد، فإنّها ترفع درجة حرارة الهواء، وتقتل الأحياء وتتعب الأعصاب، لكنَّ وقوع الليل بين نهارين يعدِّل من أثر الشمس القوي ويلائمه.

كما إنّ التغييرات التدريجية في ساعات الليل والنهار هي السبب في ظهور الفصول الأربعة، وعامِلٌ مؤثِّرٌ جدّاً في نمو النباتات وحياة جميع الأحياء وهطول المطر وتكوين المياه الجوفية التي هي مِنْ كنوزِ الأرض(١).

وأشارت آخر الآيات - موضع البحث - إلى أبرز صورة وأوضح دليل على التوحيد، وهي مسألة الحياة بصورها المختلفة، فقالت: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ أي أنّ أصلها جميعاً من ماء، ومع هذا فلها صور مختلفة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالزواحف. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطيور ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالدواب.

وليس الخلق محدداً بهذِهِ المخلوقات، فالحياة لها صور أُخرى متعددةٌ بشكل كبير، سواءً كانت أحياء بحرية أم حشرات بأنواعها المتعددة التي تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآية في الختام ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

بحوث

١ - ماذا يعني الماء هنا؟

وإلى أي نوع من الماء أشارت الآية موضع البحث؟

للمفسِّرين بهذا الصدد ثلاثةُ آراء:

١ - يقصد بالماء النطفة، وقد اختار الكثير من المفسّرين هذا المعنى، وقد أشارت إليه بعض الأحاديث.

وهناك مشكلة تواجه هذا التّفسير، إذْ إنَّ الأحياء جميعاً لم تخلق من ماء النطفة، فمنها أحياء مجهرية ذات خلّية واحدة، وأُخرى تخلق من انقسام الخلايا وليس من النطفة إلاّ أن يقال بالنسبة للحكم أعلاه: إنّ المراد هو الجانب النوعي وليس عاماً.

٢ - والتّفسير الثّاني يقول: إنَّ المقصود هنا ظهور أوّل مخلوق، فقد ذكرت بعض الأحاديث أنَّ أوّل ما خلق الله الماء، ثمّ خلق الإنسان من الماء.

---

(١) بحثنا في هذا المجال في التّفسير الأمثل عند تفسير الآية ٦ من سورة يونس.

وينسجم هذا مع النظريات الجديدة القائلة: إنّ أوّل عنصر حي ظهر في البحار. وهذه ظاهرة سادت أعماقَ البحار وسواحلها. (وطبيعي فإنّ القدرة التي خلقت هذا الموجود الحيّ بجميع تعقيداته ورعته في المراحل البعدية هي قدرة أسمى من الطبيعة أي إرادة الله تعالى).

٣ - آخر تفسير لخلقِ الأحياءِ مِنَ الماءِ، هو أنَّ الماءَ يشكّل حالياً أساسَ تكوينها، وأكبر نسبة من بنائها، ولا يمكن للأحياء أن تواصل حياتها دون الماء.

وطبيعي أن لا نجد تناقضاً بين هذه التفاسير، لكنَّ التّفسيرين الأوّل والثّاني أقرب إلى الصواب على ما يبدو[١].

٢ - جواب على استفسار

يطرح هنا سؤال يقول: إنَّ الحيوانات لا تحدد بهذه الأنواع الثلاثة (الزواحف وثنائية الأرجل ورُباعيتها) إذ إنّ هناك دوابّاً لها أكثر من أربع أرجل؟

والجواب عنه يكمن في الآية ذاتها، أي في قولِه تعالى ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ فهي تتناول الحيواناتِ كافّة، مضافاً إلى أن أهم الحيوانات التي يستخدمها الإنسان، هي هذه الأنواع الثلاثة.

ويرى البعض أنّ الأحياء التي لها أكثر من أربع أرْجُل، تعتمد على أربع منها، والباقي منها سواعد مساعدة لها[٢] [٣].

٣ - صور الحياة المختلفة

لا شك أنّ الحياة تعتبر أعجب ظاهرة في العالم، ذلك السرّ الذي لم يقدر العلماء على فكّ رموزه حتى الآن، فالجميع يقول: إنَّ الأحياء خلقت من مادّة لا حياة فيها، إلاّ أنّه لا أَحَدَ يعلم كيف حدثت هذه الطفرة وفي أيّ ظرف، إذْ لم يشهد أيّ مختبر تبدُّلَ

---

(١) استند البعض من دعاة نظرية التطور إلى هذه الآيه لإثبات نظريتهم، إلاّ أننا ذكرنا عدم ثبوت هذه النظرية في تفسيرنا للآية (٢٦) من سورة الحجر. والجدير بالاهتمام هو أنّه يجب أن لا نطبق الآيات مع النظريات، فالآيات القرآنية تحكي عن حقائق لا تتغير، أمّا النظريات العلمية فتتغير.

(٢) تفسير القرطبي، وتفسير الفخر الرازي للآية مورد البحث.

(٣) لابدّ من الاهتمام بهذه المسألة لغوياً، وهي أنّ الضمير «هم» في «منهم» رغم أنّه للجمع العاقل، فقد استخدمتها الآية لغير العاقل أيضاً. وكذلك حرف «من» وذلك بسبب استخدام هذه الكلمات أحياناً لغير العاقل أيضاً.

موجود عديم الحياة إلى آخر حي، على الرغم من انشغال الآلاف من العلماء طوال سنين عديدة في التفكير بذلك، وإجراء تجارب مُختبرية يخطئها الحصر.

وهناك خيال من بعيد يتراءى للعلماء في هذا المجال، ولكنّه مجرّد خيال وشبح، فإنّ العلم البشري عاجز عن كشف أسرار الحياة مَع تقدّمِه الهائل، وذلك لتعقد هذه الأسرار بدرجة كبيرة.

وفي الظروف السائدة تولّد الأحياء من أحياء أُخرى، ولا يولد أيُّ حيّ من غير حيّ. ولكن المؤكّد أنّ هذا الحال لم يكن كذلك في الماضي البعيد. أو بعبارة أُخرى: أنّ الحياةُ تملك تاريخاً لظهورها.

ولكن كيف وتحت أية شروط؟

إنّ ذلك لغز لم تتضح حقيقته بعدُ، والأعجب من ذلك تنوع الحياةِ في هذه الصور الكاملة، تبدأ من الأحياء المجهرية وحيدة الخلية حتى تصل إلى الحيتان العظيمة التي يتجاوز طولُ الواحدة منها الثلاثين متراً، وتبدو إحداها كأنّها جبل من لحم طائف في المحيط.

ومن مئات الآلاف من الحشرات المختلفة إلى الآف من الطيور الجميلة، كلّ له عالمه الخاصّ به وأسرارُهُ الذاتية.

وتشغل كتب علم الحيوان اليوم حيّزاً كبيراً من مكتبات العالم، ويستعرض مؤلفوها جوانب من أسرار هذه الأحياء، خاصّة الأحياء البحرية.

والبحر دوماً تكمن فيه الأسرار التي ما تزالُ معلوماتُنا قاصرة عن استكناهها، على الرغم من سِعة تطوّرنا العلميّ وعُمقِه، حقّاً الله اكبر، خلق كلّ هذه الأحياء، ومنحها ما تحتاج إليه، فما أعظم قدرته وعلمه!

سبحانه! كيف وضع كلّ واحد منها في ظروف مناسبة له، ووفّر غذاءه وما يحتاج إليه، والأعجب من ذلك خلقه سبحانه وتعالى جميع هذه الكائناتِ، من ماء وقليل من تراب.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم

مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

سبب النّزول

ذكر المفسّرون سببين لنزول بعض هذه الآيات

قيل نزلت الآيات في رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فدعاه اليهودي إلى رسول الله ﷺ ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف (اليهودي) (حتى أنّ بعض الرّوايات ذكرت أنَّ المنافق قال صراحة: يحتمل أن لا يعدل محمداً فينا):

وحكي أنّه كان بين علي عليه السلام وعثمان (وحسب رواية بين علي عليه السلام والمغيرة بن وائل) منازعة في أرض اشتراها من علي عليه السلام فخرجت فيها أحجار، وأراد ردَّها بالعيب، فلم يأخذها فقال: بيني وبينك رسولُ الله ﷺ. فقال الحكم بن أبي العاص (وهو من المنافقين): إن حاكمته إلى ابن عمّه يحكم له، فلا تحاكمه إليه، فنزلت الآيات واستنكرت عليه ذلك بشدَّة، وهو المروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أو قريب منه[1].

التّفسير

الإيمان وقبول حكم الله

تحدثت الآيات السابقة عن الإيمان بالله وعن دلائل توحيده وعلائمه في عالم التكوين، بينما تناولت الآيات - موضع البحث - أثَرَ الإيمان وانعكاس التوحيد في حياة الإنسان، وإذعانه للحقّ والحقيقة.

تقول أوّلاً: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ آيات تنور القلوب بنور الإيمان والتوحيد، وتزيد في فكر الإنسان نوراً وبهجة، وتبدّل ظلمات حياته إلى نور على نور. وطبيعي أنّ هذه الآيات المبينات تُمهد للإيمان، إلاّ أنَّ الهداية الإلهيّة هي صاحبةُ الدور الأساسي ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٥٠ وتفسير روح المعاني وتفسير التبيان وتفسير القرطبي وتفسير الفخر الرازي وتفسير الصافي وتفسير نورالثقلين، ج٣، ص٦١٥، (مع بعض التصرف).

وكما نعلم فإنّ إرادة الله ومشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه وتعالى يدخل نور الهداية إلى القلوب المستعدة لتقبله، أي التي أبدت المجاهدة في سبيل الله وقطعت خطوات للتقرب إليه، فأعانها على قَدرِ سَعْيِها في الوصول إلى لطفه سبحانه.

ثمّ استنكرت الآية الثّانية وذمّت مجموعة من المنافقين الذين يدّعون الإيمان في الوقت الذي خلت فيه قلوبُهُم من نور الله، فتقول الآية عن هذه المجموعة ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ما هذا الإيمان الذي لا يتجاوز حدود ألسنتهم، ولا أثر له في أعمالهم؟

ثمّ تذكر الآية التي بعدها دليلاً واضحاً على عدم إيمانهم ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

ولتأكيد عبادة هذه المجموعة للدنيا وفضح شركهم، تُضيف الآية ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ وبكامل التسليم والخضوع.

والجدير بالذكر أنّ العبارة الأُولى تحدثت عن الدعوة إلى الله ورسوله ﷺ. وأمّا العبارة التالية أي كلمة ﴿لِيَحْكُمَ﴾ فإنّها جاءت مفردة، وهي تشير إلى تحكيم الرّسول ﷺ لوحده؛ وذلك لأنّ تحكيم الرّسول ﷺ ليس منفصلاً عن تحكيم الله تعالى، حيث إنّ كلا الحكمين في الحقيقة واحد.

كما يجب الانتباه إلى أنّ ضمير الهاء المتصلّة في «إليه» يعود إلى النّبي ﷺ نفسه، أو إلى تحكيمه، وكذلك لا بدّ من الالتفات إلى أنّ الآية نسبت التخلُف عن هذا الحكم والإعراض عن تحكيم الرّسول ﷺ إلى مجموعة من المنافقين فقط، ولعل ذلك لأنّ الفئات الأُخرى لم تكن بهذه الدرجة من الجرأة وعدم الحياء، لأنّ للنفاق مراتب أيضاً كمراتب الأيمان المختلفة.

وبيّنت الآية الأخيرة في ثلاث جمل، الجذور الأساسية ودوافع عدم التسليم إزاءَ تحكيم الرّسول ﷺ فقالت أوّلاً: ﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

هذه صفة من صفات المنافقين يتظاهرون بالإيمان، ولكنّهم لا يُسلّمون بحكم الله ورسوله، ولا يستجيبون له، إمّا بسبب انحرافهم قلبياً عن التوحيد أو الشك والتردد ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ وطبيعي أنّ الذي يتردّد في عقيدته، لن يستسلم لها أبداً.

وثالثها فيما لو لم يلحدوا ولم يشكوا، أي كانوا من المؤمنين: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾.

في الوقت الذي يعتبر هذا تناقضاً صريحاً، إذ كيف للذي يؤمن برسالة محمد ﷺ ويعتبر حكمه حكم الله تعالى أن يَنْسِب الظلم إلى الرّسول ﷺ؟!

وهل يمكن أن يظلم الله أحداً؟

أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟

إنّ الله تعالى مقدّس عن كلّ هذه الصفات ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ إنّهم لا يقتنعون بحقّهم، وهم يعلمون أنَّ النّبي الأكرم ﷺ لا يجحف بحقّ أحد، ولهذا لا يستسلمون لحكمه.

ويرى مفسّر «في ظلال القرآن»: في الآية: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ أنّ السؤال الأوّل للإثبات، أي لإثبات وجود مرض النفاق في قلوبهم فمرض القلب جدير بأن ينشىء مثل هذا الأثر.

والسؤال الثّاني للتعجب، فهل هم يشكّون في حكم الله وهم يزعمون الإيمان؟ هل هم يشكّون في مجيئه من عند الله؟ أو هم يشكّون في صلاحيته لإقامة العدل؟

والسؤال الثّالث لاستنكار أمرهم الغريب، والتناقض الفاضح بين ادعائهم وعملهم.

وإنّه لعجيب أن يقوم مثل هذا الخوف في نفس إنسان، فالله خالق الجميع وربّ العالمين، فكيف يحيف في حكمه على أحد من خلقه لحساب مخلوق آخر(١).

وما يورده هذا المفسّر هو أنَّ عبارة ﴿أَمِ ارْتَابُوا﴾ تعني الشك في عدالةِ الرّسول ﷺ وفي صحة تحكيمه في الوقت الذي يرى كثير من المفسّرين أنّهُ الشكُّ في أصل النّبوة كما هو الظاهر.

بحثان

١ - مرض النفاق

ليست هذهِ المرة الأُولى التي يستخدم فيها القرآن عبارة «المرض» للنفاق، فقد استخدمها في مطلع سورةِ البقرة عند بيانه لصفات المنافقين ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ وكما قُلنا في المجلد الأوّل في أثناءِ تفسير الآية المذكورة، فإنّ النفاق في

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج (١٧ - ٢٠)، ص ١١٥ - طبعة دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأُولى.
تفسير في ظلال القرآن، ج٦، ص١١٥.

حقيقته مرض وانحراف عن الطريق السوي، فالإنسان السليم له صورة واحدة هي انسجامُ روحِه مع بدنه.

فإذا كان مؤمناً فكلّ أجزاء بدنه تعبر عن إيمانها، وإذا كان عديم الإيمان فإنّ ظاهره وباطنه يكشفان عن كفره وانحرافه.

أمّا إذا كان مُتظاهراً بالإيمان ومبطناً للكفر، فإنّ ذلك يعتبر نوعاً من المرض.

وبما أنّ هؤلاء الأشخاص (المنافقين) لا يستحقون لطف الله ورحمته، بسبب عنادهم وإصرارهم على المُضِي بمناهجهم المنحرفة، فقد تركهم الله على حالهم، ليزدادوا مرضاً.

والمنافقون في الواقع أخطر مجموعة في المجتمع، لأنّه لا يتّضح للمؤمن بأيّ أُسلوب يجب أن يعاملهم، فهم ليسوا أصدقاء ولا يبدون أنّهم أعداء، فيستفيدون من إمكاناتِ المؤمنين ويصونون أنفسهم عن العقاب المفروض على الكفار بالتظاهر وإخفاءِ حقائِقهم المشؤومةِ، فأعمالهم أتعس من أعمال الكفّار.

ولكن هؤلاءِ لا يمكنهم أن يُواصِلُوا هذا المنهج لمدّة طويلة، فلابدّ أن يفتضح أمرهم وينكشف باطنهم. وكما ذكرت الآيات - موضع البحث - وسببُ نُزولها. افتضاحهم في عملية تحكيم واحدة وانكشاف باطنهم الخبيث[١].

٢ - الحكومة العادلة هي الحكومة الإلهية فقط

لاشك في أنّ الإنسان مهما سعى في تهذيب نفسه مِن الصفات الرذيلة، خاصّة الكِبر والبغضاء وحب الذات والأنانية، فإنّه قد يبتلى ببعضها دون وعي منه، إلاّ المعصوم من البشر، إذ يعصمه الله من الخطأ والزلل.

ولهذا السبب نقول: الله وحده هو المشرّع الحقيقي، لأنّه إضافة إلى علمه المطلق بحاجات الإنسان، فإنّه يعلم سبل سدِّ هذه الحاجات، وهو الذي لا يزلُّ ولا ينحرف بسبب احتياجه وميول الحب والبغض فيه سبحانه.

وقضاء الله والنّبي والإمام المعصوم أفضل قضاء، ويليهم التابعون السائرون على نهجهم المتوكلون على الله، إلاّ أنّ البشر الذي يصاب بالكبر وحبّ الذات لا يرضخ

(١) لإيضاح أكثر حول صفات المنافقين يراجع التّفسير الأمثل من بداية سورة البقرة آخر الآية العاشرة وما يليها.

لهذا القضاء، فهو يبحث عن قضاء يشبع طمعه وشهواته. ما أجمل العبارة التي استخدمتها الآية الكريمة بحق هؤلاء ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

كما أنّ المرور في مثل هذا الامتحان، خير دليل على إيمان الإنسان أو عدم إيمانه.

ويستوقفنا قولُ القرآن في موضعٍ آخر: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١).

أجل، المؤمنون الحقيقيون لا يرتضون قضاءَك فحسب، وإنّما قد سلّموا أنفسهم لك حتى إنْ لحقهم ضررٌ.

أمّا المنافقون، فلا يقنعون بحكم من الله ورسوله ﷺ إلاّ ما يحقق مصالحهم، فهم عبيد لها، وعلى الرغم من ادعائهم الإيمان، فهم مشركون حقّاً!

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾

التّفسير

الإيمان والتسليم التام إزاء الحقّ

لاحظنا في الآيات السابقة ردّ فعل المنافقين، الذين اسودّتْ قلوبهم، وأصبحت ظلمات في ظلمات. وكيف لم يرضخوا لحكم الله ورسوله ﷺ، وكأنّهم يَخافُونَ أن يحيف الله ورسوله عليهم، فيضيع حقّهم!

أمّا الآيات - موضع البحث - فإنّها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم الله ورسوله، فتقول: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

(١) سورة النساء، الآية: ٦٥.

ما أجمل هذا التعبير المختصر والمفيد ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾!

وقد وردتْ كلمة ﴿إِنَّمَا﴾ في الآية السابقة لتحصر كلام المؤمنين في عبارة: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والواقع أن حقيقة الإيمان يكمن في هاتين الكلمتين فقط.

كيف يمكن أن يرجّح شخص حكم شخص آخر على حكم الله، وهو يعتقد بأنّ الله عالم بكلّ شيء، ولا حاجة له بأحد، وهو الرحمن الرحيم؟ وكيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم الله إلاّ السمع والطاعة؟

فما أحسن هذه الوسيلة لامتحان المؤمنين الحقيقيين ونجاحهم في الامتحان؟! لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ولا شك في أنّ الفلاح نصيبُ الذي يسلّم أمرَه إلى الله، ويعتقد بعدله وحُكمِه في حياته المادية والمعنوية.

وتابعت الآية الثّانية هذه الحقيقة بشكل أكثر عمومية، فتقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[١].

وقد وصفت هذه الآية المطيعين المتقين بالفائزين، كما وصفت الآيةُ السابقة الذين يرضخون لحكم الله ورسوله بالمفلحين.

وتُفيد مصادر اللغة أنَّ «الفوز» و«الفلاح» بمعنىً واحد تقريباً، قال الراغب الإصفهاني في مفرداته: «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة» و«الفلاح: الظفر وإدراك البغية» (وفي الأصل بمعنى الشق وبما أنّ الأشخاص المفلحين يشقون طريقهم إلى مقصدهم ويزيلون العقبات منه أطلق الفلاح على الفوز أيضاً) وبما أنّ الكلام في الآية السابقة كان عن الطاعة بشكل مطلق، وفي الآية قبلها عن التسليم أمام حكم الله، وأحدهما عام والآخر خاص، فنتيجة كليهما واحدة.

و ما يستحقُّ الملاحظة هو أنّ الآية الأخيرة ذكرت ثلاثةَ أوصاف للفائزين: هي: طاعة الله والرّسول، وخشية الله، وتقوى الله.

وقال بعض المفسّرين: إنّ الطاعة ذات معنىً عام، والخشية فرعها الباطني، والتقوى فرعها الظاهري، وقد تحدثت أوّلاً عن الطاعةِ بشكل عامّ، ثمّ عن باطنها وظاهرها.

---

(١) أصل «يتقه» بسكون القاف وكسر الهاء «يتقيه» وقد حذفت الياء منها لأنّها في حالة جزم وقد حذفت إحدى الكسرتين المتاليتين لأنّها ثقيلة للفظ.

ورُوي عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ قال: «إنَّ المعني بالآية أميرالمؤمنين (علي عليه السلام)»(١).

ولا خلاف في أنَّ علياً عليه السلام خير مصداق لهذه الآية، وهذا هو المراد من هذا الحديث فلا يفقد الآية عموميتها.

لحن الآية التالية - وكذلك سبب نزولها الذي ذكرته بعض التفاسير - يعني أنّ بعض المنافقين تأثروا جداً على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقة والتي وجّهت اللوم الشديد

إليهم، فجاؤوا إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقسموا يميناً مغلظة أنّنا نسلّم أمرنا إليك، ولهذا أجابَهُم القرآن بشكل حاسم ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم وبيوتهم فقل لهم: لا حاجة إلى القسم، وعليكم عملاً إطاعة الله بصدق وإخلاص ﴿قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

يرى كثير من المفسّرين أنّ كلمة ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ في هذه الآية يقصد منها الخروج للجهاد في سبيل الله، غير أنّ مفسّرين آخرين يرون أنّها تقصد عدم التهالك على المال والحياة، واتباع الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم أينما رحل وحَلّ وطاعته.

وقد وردت كلمة «الخروج» ومشتقاتها في القرآن المجيد بمعنى الخروج إلى ميادين الجهاد تارة، وتركِ المنزل والأهل والوطن في سبيل الله تعالى تارة أخرى، إلاّ أنّ الآيات السابقة التي تحدثت عن حكم الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم في القضايا المختلفة يجعلنا نتقبل التّفسير الثّاني، بمعنى أن المنافقين جاؤوا إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ليعربوا عن طاعتهم لحكمُه صلى الله عليه وآله وسلم والتسليم له، فأقسموا على إخراج قسم من أموالهم، بل أنّ يتركوا الحياة الدنيا إن أمرهم بذلك.

ولا مانع من الجمع بين التّفسيرين، أي إنّهم كانوا على استعدادهم لترك أموالهم وأهليهم، والخروج للجهاد ولتضحية في سبيل الله.

ولكن بما أنّ المنافقين يتقلبون في مواقفهم بحسب الظروف السائدة في المجتمع، فتراهم يقسمون الأيمان المغلّظة حتى تشعُرَ بأنّهم كاذبون، فقد رَدَّ القرآن - بصراحة - أنه لا حاجة إلى اليمين، وإنّما لا بُدّ من البرهنة على صدق الادعاء بالعمل، لأنّ الله

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦١٦.

خبير بما تعملون. يعلم هل تكذبون في يمينكم، أم تبغون تعديل مواضعكم واقعاً؟

لهذا أكدت الآية التالية - التي هي آخر الآيات موضع البحث - هذا المعنى، وتقول للرسول ﷺ أن: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

ثمّ تضيف الآية أنّ هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ففي صورة العصيان فقد أدّى وظيفته وهو مسؤول عنها كما أنّكم مسؤولون عن أعمالكم حين أنّ وظيفتكم الطاعة، ولكن ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ لأنّه قائد لا يدعو لغير سبيل الله والحقّ والصواب.

في كل الأحوال ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وإنّه ﷺ مكلّف بإبلاغ الجميع ما أمر الله به، فإن أطاعوه استفادوا، وإنْ لم يُطيعوه خَسروا، وَلَيْسَ على النّبي أن يجبر الناس على الهداية وتقبّل دعوته.

وما يلفت النظر في الآية السابقة تعبيرها عن المسؤولية بـ«الحملِ» الثقيل وهذا هو الواقع، فرسالة النّبي ﷺ تستوجب الإبلاغ عليه ﷺ وعلى الناس طاعته. إنّها لمسؤوليةٌ لا يطيق حملها إلاّ المخلصون.

ولذا روى الإمام الباقر عليه السلام حديثاً عن النّبي ﷺ قال فيه: «يا معشر قرّاءِ القرآن، اتقوا الله عزّ وجلّ فيما حملكم من كتابه، فإنّي مسؤول، وأنتم مسؤولون: إنّي مسؤول عن تبليغ الرسالة، وأمّا أنتم فتسألون عما حُمِلتُم من كتاب الله وسنّتي»(١).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾

سبب النّزول

روى كثير من المفسّرين. ومنهم السيوطي في «أسباب التنزيل» والطبرسي في «مجمع البيان» وسيد قطب في «في ظلال القرآن» والقرطبي في تفسيره، مع بعض الاختلاف،

(١) بحار الأنوار، ج٧، ص٢٨٣.

سبب نزول هذه الآية أنه: عندما هاجر الرّسول ﷺ والمسلمون إلى المدينة، استقبلهم الأنصار بترحاب، ولكن العرب تحالفوا ضدهم، لهذا كان المسلمون يبيتون ليلتهم والسلاح إلى جانبهم لا يفارقهم، إذ كانوا في حالة تأهّب تامّ، وقد شقّ على المسلمين ذلك، حتى تساءل البعض: إلى متى يدوم هذا الوضع؟ وهل يأتي زمان نستريح وتطمئنّ أنفسنا ولا نخشى إلاّ الله؟ فنزلت الآية السابقة تبشرهم بتحقّق ما يصبون إليه[1].

التفسير

حكومة المستضعفين العالمية

تحدثت الآية السابقة عن طاعة الله ورسوله والتسليم له، وقد واصلت الآية - موضع البحث - هذا الموضوع، وبيّنت نتيجة هذه الطاعة ألا وهي الحكومة العالمية التي: وعدها الله المؤمنين به. فقالت الآية مؤكّدة: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ ويجعله متجذراً وثابتاً وقوياً بين شعوب العالم.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ وبعد سيادة حكم التوحيد في العالم وإجراء الأحكام الإلهية، واستقرار الأمن واقتلاع جذور الشرك، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وعلى كلّ حال يبدو من مجمل هذه الآية أنّ الله يبشّر مجموعة من المسلمين الذين يتصفون بالإيمان والعمل الصالح بثلاث بشائر:

١ - استخلافهم وحكومتهم في الأرض.

٢ - نشر تعاليم الحقّ بشكل جذري وفي كلّ مكان (كما يستفاد من كلمة «تمكين». . .).

٣ - انعدام جميع عوامل الخوف والاضطراب.

وينتج من كل هذا أن يُعبد الله بكلّ حرية، وتُطبق تعاليمُه ولا يشرك به، ويتمّ نشرُ عقيدة التوحيد في كلّ مكان.

ويتّضح ممّا يلي متى تمّ وعد الله هذا، أو متى سيتم؟

(١) تفسير أسباب النزول، ص١٦٣، وتفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٥٢، وتفسير القرطبي، وتفسير في ظلال القرآن، ذيل الآية مورد البحث.

بحوث

١ - تفسير عبارة ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

هناك اختلاف بين المفسّرين حول الذين أشارت إليهم الآية الشريفة من الذين استخلفوا في الأرض قبل المسلمين.

البعض من المفسّرين يرى أنّهم آدم وداود وسليمان عليهم السلام، حيث قالت الآية (٣٠) من سورة البقرة حول آدم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وفي الآية (٢٦) من سورة ص جاء بصدد داود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

وبما أنَّ سليمان عليه السلام ورِث حكم داود عليه السلام بمقتضى الآية (١٦) من سورة النمل فإنَّه قد استخلف في الأرض.

لكن بعض المفسّرين - كالعلاّمة الطباطبائي في الميزان - استبعد هذا المعنى وَرَأى أنَّ عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ لا تُناسبُ مقامَ الأنبياء، إذ إنَّ القرآن المجيد لم ترد فيه هذه العبارة بخصوص الأنبياء، وإنّما هي إشارة إلى أمم خلت، وكانت على درجة من الإيمان والعمل الصالح بحيث استخلفها الله في الأرض.

ويرى مفسرون آخرون أنَّ هذه الآية إشارة إلى بني إسرائيل، لأنّهم استخلفوا في الحكم في الأرض بعد ظهور موسى عليه السلام وتدمير حكم فرعون والفراعنة، حيث يقول القرآن المجيد في الآية (١٢٧) من سورة الأعراف: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ ويضيف: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(١)] أي جعلناهم حكاماً بعد أن استضعفوا في الأرض.

ولا شكّ في أنَّهُ كان في بني إسرائيل - حتى في زمن موسى عليه السلام - أشخاص عرفوا بفسقهم وكفرهم، لكنّ الحكم كان بيد المؤمنين الصالحين، (وبهذا يمكن دفع ما أشكل به البعض على هذا التّفسير) ويظهر أن التّفسير الثّالث أقرب إلى الصواب.

٢ - الذين وعدهم الله باستخلاف الأرض

لقد وعد الله المؤمنين ذوي الأعمال الصالحة بالاستخلاف في الأرض وتمكينهم من نشر دينهم وتمتعهم بالأمن الكامل، فما هي خصائص هؤلاء الموعودين بالاستخلاف؟

---

(١) سورة القصص، الآية: ٦.

هناك اختلاف بهذا الصدد بين المفسّرين: يرى البعض من المفسّرين أنّ الوعد بالاستخلاف خاصّ بأصحاب الرّسول ﷺ الذين استخلفهم الله في الأرض في عصر النّبي ﷺ. (ولا يقصد بالأرض جميعها بل هو مفهوم يطلق على الجزء والكل).

ويرى آخرون أنّه خاصّ بالخلفاء الأربعة الذين خلفوا الرّسول ﷺ.

ويرى البعض أنَّ مفهومه واسع يشمل جميع المسلمين الذين اتصفوا بهذه الصفات.

ويرى آخرون أنّه إشارة إلى حكومة المهدي (عج) الذي يخضع له الشرق والغرب في العالم، ويجري حكم الحقّ في عهده في جميع أرجاء العالم، ويزول الاضطراب والخوف والحرب وتتحقق للبشرية عبادة الله النقية من كلّ أنواع الشرك.

ولا ريب في أنّ هذه الآية تشمل المسلمين الأوائل، كما أنّ حكومة المهدي (عج) مصداق لها، إذْ يتفق المسلمون كافة من شيعة وسنة على أن المهدي (عج) يملأ الأرض عَدْلاً وقسطاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً.

ومع كل هذا لا مانع من تعميمها. وينتج من ذلك تثبيت أُسس الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين في كلّ عصر وزمان، وأنَّ لهم الغلبة والحكم ذا الأسس الثابتة.

أمّا قول البعض: إنّ كلمة «الأرض» مطلقة وغير محددة، وتشمل كلّ الأرض، وبذلك تنحصر بحكومة المهدي (أرواحنا له الفداء)، فهولا ينسجم مع عبارة ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، لأنّ خلافة وحكومة السابقين بالتأكيد لم تشمل الأرض كلها.

وإضافة إلى ذلك فإنّ سبب نزول هذه الآية يبيّن لنا - على أقلّ تقدير - وقوع مثل هذا الحكم في عصر النّبي ﷺ (رغم حدوثه في أواخر حياته ﷺ).

ونقولها ثانية: إنّ نتيجة جهود جميع الأنبياء والمرسلين حصول حكم يسوده التوحيد والأمن الكامل والعبادة الخالية من أيّ نوع من الشرك، وذلك حين ظهور المهدي (عج)، وهو من سلالة الأنبياء عليهم السلام وحفيد النّبي الأكرم ﷺ، وهو المقصود في هذا الحديث الذي تناقله جميع المسلمين عن الرّسول ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي، اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1].

---

(١) احتوى كتاب «منتخب الأثر» على مائة وثلاثة وعشرين حديثاً بهذا الصدد، من مصادر إسلامية مختلفة خاصّة السنّية منها. للاستزادة يراجع هذا الكتاب في ص ٢٤٧، وما يليها.

وممّا يجدر ذكره هنا قول العلاّمة الطبرسي في تفسير هذه الآية: روي عن أهل بيت رسول الله ﷺ حول هذه الآية: «إنّها في المهدي من آل محمد»(١).

وذكر تفسير «روح المعاني» وتفاسير عديدة لمؤلفين شيعة عن الإمام السجاد عليه السلام في تفسير الآية موضع البحث أنه قال: «هم والله شيعتنا - أهل البيت - يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منّا، وهو مهدي هذه الأمة يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وهو الذي قال رسول الله ﷺ فيه: لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم...».

وكما قلنا، لا تعني هذه التفاسير حصر معنى هذه الآية، بل بيان مصداقها التام، وممّا يؤسف له عدم انتباه بعض المفسّرين - كالآلوسي في روح البيان - إلى هذه المسألة، فرفضوا هذه الأحاديث.

وروى القرطبي المفسّر المشهور من أهل السنة عن المقداد بن الأسود عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «ما على ظهر الأرض بيت حجر ولا مدر إلاّ أدخله الله كلمة الإسلام»(٢).

وللحصول على إيضاح أكثر حول حكومة المهديّ (عج) وشرح أدلتها في كتب علماء السنة والشيعة، يراجع تفسير الآية (٣٣) من سورة التوبة.

٣ - الهدف النهائي عبادة خالصة

إنّ مفهوم عبارة: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ من الناحية الأدبية سواء كانت جملة حالية أم مستقبلية(٣)، هو أن الهدف النهائي إعدادُ حكومة عادلة راسخة الأُسس، ينتشر فيها الحقّ والأمن والاطمئنان، وتكون ذات تحصينات أُسسها العبودية لله وتوحيده على نحو ما ذكرتهُ آية قرآنية أُخرى تذكر الغاية من الخلق ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٤).

عبادة هدفها السامي تربية البشر وتسامي أنفسهم، عبادة لا يحتاج الله إليها، وإنّما يحتاج إليها البشر لطّي مراحل تكاملهم الإنساني.

---

(١) تفسير مجمع البيان في تفسير الآية مورد البحث.
(٢) تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٢٩٢.
(٣) في الصورة الأولى الجملة الحالية للضمير «هم» الذي جاء في الآيات السابقة. وفي الصورة الثّانية تقدر بـ«ليعبدونني» واحتمل آخرون أنها جملة استئنافية وهو احتمال ضعيف.
(٤) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

وعلى هذا فإنّ الفكر الإسلامي ليس كالأفكار المادية التي تتوخى مكاسب مادية ورفاهية في الحياة، بل تكون للحياة المادية قيمة في الإسلام إن أصبحت وسيلة لتحقيق هدف معنوي سام، فالاهتمام بكون العبادة خاليةً من شوائبِ الشرك نافيةً للأهواءِ الزّائفة، يعني أنّه لا يمكن تحقق هذه العبادة الصافية إلاّ بتشكيل حكومة عادلة.

هذا ويمكن كسب مجموعة من الناس إلى جانب الحقّ بالتربية والتعليم والتبليغ المستمر، ولا يمكن تعميم هذه الحالة في المجتمع إلاّ بتشكيل حكومة عادلة يقودها المؤمنون الصالحون، ولهذا سعى الأنبياء إلى تشكيل مثل هذه الحكومة خاصّة الرّسول الأكرم ﷺ، فبمجرّد وصوله ﷺ إلى المدينة المنورة، وفي أوّل فرصة، شكّل نموذجاً لها.

ويمكن الاستنتاج من ذلك أنّ جميع الجهود - من حرب وسلام وبرامج تثقيفية واقتصادية وعسكرية - تنصّب في ظلّ هذه الحكومة في مسيرة العبودية لله الخالية من كل شائبة من شوائب الشرك.

ولابدّ من القول: إنّه لا يعني خُلو الأرضِ من المذنبين والمنحرفين في ظلّ حكومة الصالحين المؤمنين الذين يمكّنهم الله من نشر الحقّ والعدل، وعبادته عبادة خالية من صور الشرك، بل مفهوم هذه الحكومة هو أنها تُدار من قبل المؤمنين الصالحين، والصفة السائدة في المجتمع هي خلوه من الشرك، وبما أنّ الإنسان خلق حرّاً، فإن مجال الانحراف موجود حتى في أفضل المجتمعات الإنسانية (فتأملوا جيداً).

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾

التّفسير

استحالة الفرار من حكومته تعالى

وعدت الآية السابقة المؤمنين الصالحين بالخلافة في الأرض، وتهيىء هاتان الآيتان الناس للتمهيد لهذه الحكومة، وخلال نفيها وجود حواجز كبيرة لهذا العمل، تضمن هي بذاتها نجاحه، وفي الحقيقة إنّ إحدى هاتين الآيتين بيّنت المقتضي، بينما نفت الثّانية المانع، فهي تقول أوّلاً: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾.

وهي الوسيلة التي توثق الصلة بين الخالق والمخلوق، وتقرّب الناس إلى بارئهم، وتمنع عنهم الفحشاء والمنكر.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي الوسيلة التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وتقلل الفواصل بينهما، وتقوي ارتباطهما العاطفي.

وبشكل عام يكون في كلّ شيء تبعاً للرسول: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ طاعة تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقيادة الحكم في الأرض ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وتكونون لائقين لحمل راية الحقّ والعدل.

وإذا احتملتم أنّ الأعداء الأقوياء المعاندين يمنعوكم من تحقق ما وعدكم الله إيّاهُ، فذلك غير ممكن، لأنّه قادرٌ على كلّ شيء، ولا يحجُب إرادته شيء، ولهذا ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهؤلاء الكفار لا يستطيعون الفرار من عقاب الله وعذابه في الأرض، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط، بل إنّهم في الآخرة ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وكلمة «معجزين» جمع «معجز»، المشتقّة من الإعجاز بمعنى نفاد القدرة، وأحياناً يتابع المرء شخصاً يفر من يديه، ولا يمكنه القبض عليه وقد خرج من سلطته فهو يعجزه، لهذا استعملت كلمة «معجز» بهذا المعنى، وكذلك تشير الآية السابقة إلى المعنى ذاته، ومفهومها أنكم لا يمكنكم الفرارُ من حكومة الله.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾

التّفسير

آداب الدخول إلى المكان الخاصّ بالوالدين

إنّ أهم مسألة تابعتها هذه السورة - كما ذكرنا - هي مسألة العفاف العام ومكافحة كل انحطاط خلقي، بأبعاده المختلفة.

وقد تناولت الآيات - موضع البحث - إحدى المسائل التي ترتبط بهذه المسألة، وشرحت خصائصها، وهي استئذان الأطفال البالغين وغير البالغين للدخول إلى الغرفة المخصصة للزوجين.

فتقول أوّلاً: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ فيجب على عبيدكم وأطفالكم الاستئذان في ثلاثة أوقات ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾.

«الظهيرة» تعني كما يقول «الراغب الإصفهاني» في مفرداته و«الفيروزآبادي» في القاموس المحيط: منتصف النهار وقريب الظهر حيث ينزع الناس عادة الملابس الإضافية، وقد يختلي الزوج بزوجته.

﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ أي هذه ثلاثة أوقات للخلوة خاصّة بكم.

«العورة» مشتقّة من «العار»، أي: العيب، وأطلق العرب على العضو التناسلي العورة، لأنّ الكشف عنه عار.

كما تعني العورة الشقّ الذي في الجدار أو الثوب، وأحياناً تعني العيب بشكل عامّ.

وعلى كلّ فإنّ إطلاق كلمة (العورة) على هذه الأوقات الثلاثة بسبب كون الناس في حالة خاصّة خلال هذه الأوقات الثلاثة، حيث لا يرتدون الملابس التي يرتدونها في الأوقات الأُخرى.

وطبيعي أنّ المخاطب هنا هم أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الأُصول، لأنّ الأطفال لم يبلغوا بعد سنّ التكليف لتشملهم الواجبات الشرعية.

كما أنّ عمومية الآية تعني شمولها الأطفال البنين والبنات، وكلمة «الذين» التي هي لجمع المذكر السالم، لا تمنع أن يكون مفهوم الآية عاماً، لأنّ هذه العبارة استعملت في كثير من الموارد وقصد بها المجموع، كما في آية وجوب الصوم، فلفظ «الذين» هناك يَعُمُّ المسلمين كافةً (سورة البقرة الآية ٨٣).

ولا بدّ من القول بأنّ هذه الآية تتحدّث عن أطفال مميّزين يعرفون القضايا الجنسية، ويعلمون ماذا تعني العورة، لهذا أمرتهم بالاستئذان عند الدخول إلى غرفة الوالدين، وهم يدركون سبب هذا الاستئذان، وجاءت عبارة «ثلاث عورات» شاهداً آخر على هذا المعنى ولكن هل أنّ الحكم المتعلق بمن ملكت أيديكم يختص بالعبيد الذكور منهم أو يشمل الإماء والجواري، هناك أحاديثُ مختلفةٌ في هذا المجال، ويمكن ترجيح الأحاديث التي تؤيد ظاهر الآية، أي شمولها الغلمان والجواري.

وتختتم الآية بالقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فلا حرج ولا إثم عليكم وعليهم إذا دخلوا بدون استئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة، أجل: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

كلمة ﴿طَوَّافُونَ﴾ مشتقة من «الطواف» بمعنى الدوران حول شيء ما، وقد جاءت بصيغة مبالغة لتأكيد تعدد الطواف.

وبما أنّ عبارة ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جاءت بعد كلمة ﴿طَوَّافُونَ﴾ فإنّ مفهوم الجملة يكون: إنّهُ مسموح لكم بالطواف حول بعضكم في غير هذه الأوقات الثلاثة، ولكم أن تتزاوروا فيما بينكم ويخدم بعضكم بعضاً.

وكما قال «الفاضل المقداد» في كنز العرفان، فإنّ هذه العبارة بمنزلة دليل على عدم ضرورة الاستئذان في غير هذه الأوقات، لأنّ المسألة تتعقد إن رغبتم في الاستئذان كلّ مرّة(١).

وبيّنت الآية التالية الحكم بالنسبة للبالغين، حيث تقول: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وكلمة «الحلم» على وزن «كتب» بمعنى العقل والكناية عن البلوغ، الذي يعتبر توأماً لِطفرة عقلية وفكرية، ومرحلة جديدة في حياة الإنسان.

وقيل إنّ الحلم بمعنى الرؤيا، فهي كناية عن احتلام الشباب حين البلوغ.

وعلى كلّ حال يستفاد من الآية السابقة، أنّ الحكم بالنسبة للبالغين يختلف عنه بالنسبة للأطفال غير البالغين، لأنّ أولئك يجب عليهم استئذانُ الوالدين في الأوقات الثلاثة فقط، لأنّ حياتهم قد امتزجت مع حياة والديهم بدرجة يستحيلُ بها الاستئذانُ كلّ

---

(١) كنز العرفان، ج ٢، ص ٢٢٥.

مرة، وكما أنّهم لم يعرفوا المشاعر الجنسية بعد، أمّا الشباب البالغ، فهم مكلّفون في جميع الأوقات بالاستئذان حين الدخول على الوالدين.

ويَخصُّ هذا الحكم المكان المخصَّص لاستراحةِ الوالدين. أمّا إذا كان في غرفة عامّة يجلس فيها آخرون أيضاً، فلا حاجة للاستئذان منهما بالدخول.

والجدير بالذكر إنّ عبارة ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إشارة إلى الكبار الذين يستأذنون من الوالدين حين الدخول إلى غرفتهما. وقد أردفتِ الآيةُ الشباب الذين بلغوا الرشد بهؤلاء، الكبار.

وتقول الآية في الختام للتأكيد والاهتمام الفائق: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وهذا هو نفس التعبير الذي جاء في آخر الآية السابقة دون تغيير، باستثناء استعمال الآية السابقة كلمة «الآيات» وهذه استعملت كلمة «آياته» ولا فرق في معناهما.

وسنتناول بحث ميزات هذا الحكم، وكذلك فلسفته في ذيل تفسير هذه الآيات.

وفي آخر الآيات - موضع البحث - استثناء لحكم الحجاب، حيث استثنت النساء العجائز والمسنّات من هذا الحكم، فقال: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

ولهذا الاستثناء شرطان:

أولهما: وصول هذه العجائز إلى عمر لا يتوقع أن يتزوجن فيه، أو بعبارة أُخرى: أن يفقدن كلّ جاذبية أُنثوية.

وثانيهما: ألا يتزيّن بزينة بعد رفع حجابهنّ، ويتّضح بذلك أنّه لا ضير في رفع الحجاب بعد إجراء هذين الشرطين، ولهذا استثناهنّ الإسلام من حكم الحجاب.

كما أنّ - من الواضح - أنّه لا يقصد برفع العجائز للحجاب إباحة خلع الملابس كلها والتعريّ، بل خلع اللباس الفوقاني فقط. وكما عبّرت عنه بعض الأحاديث بالجلباب والخمار.

وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في شرح هذه الآية أنّه: «الخمار والجلباب»، قلت: بين يدي من كان؟ قال: «بين يدي من كانت غير متبرجة بزينة»[1].

(١) وسائل الشيعة، ج ١٤ كتاب النكاح ص ١٤٧، الباب ١١٠.

كما وردت أحاديث أُخرى عن أهل البيت عليهم السلام بهذا المضمون أو ما يقاربه[1].

وتضيف الآية في ختامها ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

فالإسلام يرغب في أن تكون المرأة أكثر عفّة وأنقى وأطهر. ولتحذير النساء اللواتي يسئن من سوء الاستفادة من هذه الحرية، بأن يتحدثن أو يتصرفن بأُسلوب لا يليق بشرفهنّ، تقول الآية محذرة إيّاهن: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ كلّ ما تقولونه يسمعه الله، وما تكتمون في قلوبكم أو في أذهانكم يعلمه الله أيضاً.

بحثان

١ - فلسفة الاستئذان والمفاسد المترتبة على عدم الالتزام به

لا يكفي اللجوء إلى القوة لاقتلاع جذور المفاسد الاجتماعية كالأعمال المخلة بالشرف، ولا يرجى نتيجة مرضية من العقاب فقط في القضايا الاجتماعية. وإنّما يستوجب اتباع عدة أُمور كالتثقيف الإسلامي، وتعليم آدابه الخلقية، واتباع السبل الصحيحة في القضايا العاطفية. وإلى جانب هذه الأُمور يكون العقاب كعامل لردع المنحرفين عن الطريق السوي.

ولهذا السبب بدأت سورة النور - وهي في الواقع سورة العفاف والشرف - بالحديث عن جلد الرجال الزناة والنساء الزانيات، كما تحدثت في نفس الوقت عن تسهيل الزواج ورعاية الحجاب الإسلامي، والنهي عن النظر بلذة وتحريم اتهام الآخرين بشرفهم وناموسهم، وأخيراً استئذان الأبناء حين الدخول إلى غرفة الوالدين.

وهذا يدلّ على عدم إغفال الإسلام أي من هذه التفاصيل التي لها علاقة بمسألة العفاف والشرف.

وعلى الخدم أن يستأذنوا حين الدخول إلى غرفة الزوجين الخاصّة اللذين يخدمانهما، كذلك يستوجب على الأطفال البالغين عدم الدخول إلى الغرفة المذكورة دون استئذان، وتعليم الأطفال غير البالغين الذين يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالوالدين، أن لا يدخلوا غرفة الوالدين دون استئذان وعلى الأقل في الأوقات الثلاثة التي أشارت إليها الآية «قبل صلاة الفجر وحين الظهر ومن بعد صلاة العشاء».

وهذا نوع من الأدب الإسلامي، رغم قلّة الالتزام به مع كلّ الأسف، ورغم بيان

---

(١) للإستزادة يراجع المصدر السابق.

القرآن ذلك بصراحة في الآيات السابقة، فإنّه من النادر أن يتناوله الخطباء والكتّاب، ولا يعرف سبب إهمال هذا الحكم القرآني الحاسم؟!

ورغم أنّ ظاهر الآية يوجب هذا الحكم، وحتى لو اعتبرناه مستحباً فإنّه ينبغي الحديث عنه، وبحث جزئياته ورغم تصور بعض السذج بأنّ الأطفال لا يدركون شيئاً عن هذه الأُمور، وأن خدم البيت لا يهتمون بها، فإنّ الثابت هو حساسية الأطفال بالنسبة لهذه القضية (فكيف بالنسبة للكبار). وقد يؤدّي إهمال الوالدين ورؤية الأطفال لمشاهد ممنوعة إلى انحرافهم خلقياً وأحياناً إلى إصابتهم بأمراض نفسية.

وقد واجهنا أشخاصاً اعترفوا بأنّهم أُثيروا جنسياً، أو أُصيبوا بعقد نفسية لمشاهد جنسية من هذا القبيل وقد شبّت في قلوب البعض منهم نار الحقد على الوالدين، إلى درجة الرغبة في قتلهما، أو الانتحار، كلّ ذلك بسبب الأثر الذي زرعه في نفوسهم إهمال الوالدين، وعدم حيطتهم حين الممارسة الجنسية أومقدماتها.

هنا تتضح لنا قيمة وأهمّية هذا الحكم الإسلامي الذي بلغه العلماء المعاصرون، بينما جاء به الإسلام قبل أربعة عشر قرناً، وهنا نجد لزاماً علينا توصية الآباء والأُمهات بالجدية في الحياة الزوجية، وتعليم أولادهم الاستئذان حين الدخول إلى غرفتهما، واجتناب كلّ عمل قد يثير الأولاد ويحركهم، ومن هذه الأعمال مبيت الزوجين بغرفة فيها أولاد بالغون، فيجب اجتناب ذلك بالقدر الممكن، وأن يعلما بأنّ هذه الأُمور تؤثّر بشكل كبير في مستقبل أولادهما.

وممّا يلفت النظر حديث للرّسول ﷺ يقول فيه: «إيّاكم وأن يجامع الرجل امرأته والصبي في المهد ينظر إليهما»[1].

٢ - حكم الحجاب بالنسبة للنساء العجائز

لا خلاف في أصل هذا الاستثناء في حكم الحجاب بين علماء المسلمين، لأنّ القرآن صريح في هذا الأمر، إلاّ أنّ هناك أقوالاً في خصوصيات هذا الحكم.

فبالنسبة لعمر هؤلاء النسوة، والحدّ الذي يجب أن يبلغنه ليكنّ من القواعد، هناك أقوال، فبعض الأحاديث الإسلامية تنص على أنّ المراد هو «المسنّة»[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج ١٠٣، ص ٢٩٥.

(٢) وسائل الشيعة، ج ١٤، كتاب النكاح، الباب ١١٠، الحديث ٤.

بينما فسّرته أحاديث أخرى بـ «القعُود عن النكاح»(١).

ولكن عدداً من المفسّرين يرى أنّها تعني «النساء اللواتي لا يطمئن، فيصلن إلى مرحلة عدم الحمل. ولا يرغب أحد في الزواج بهنّ»(٢).

ويبدو أنّ جميع هذه التعابير تشير إلى واقع محدد، هو بلوغهن سناً لايتزوجن عادة، وقد يحدث نادراً أن يقدم بعضهن على الزواج في هذا العمر.

كما جاءت تعابير مختلفة في الأحاديث الإسلامية حول المقدار من الجسم المسموح بكشفه، لأنّ القرآن الكريم ذكر المسألة بشكل عام ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾ ويقصد بهذه الثياب الملابس الفوقانية.

وجاء في بعض الأحاديث جواباً على سؤال: أي الثياب يجوز وضعها؟

يجيب الإمام الصادق عليه السلام: «الجلباب»(٣).

بينما ذكر حديث آخر أنّه «الجلباب والخمار»(٤).

ويبدو أنّ هذه الأحاديث غير متناقضة، وقصدها جواز الكشف عن رؤوسهن، وعدم تغطية الشعر والرقبة والوجه، كما قالت أحاديث أُخرى - وقال فقهاء - بشمول الاستثناء إلى حدّ الرسغ، ولا سند لدينا يسمح بأكثر من ذلك.

وعلى كلّ حال، فإنّ ذلك مسموح لهنّ بشرط أن يكنّ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ﴾ وأن يخفين الزينة التي تحت الحجاب، والتي من الواجب إخفاؤها من قبل جميع النساء، وأن لا يرتدين الملابس التي تتزيّن بها النساء، والتي تثير انتباه الآخرين، وبتعبير آخر: إنّه مسموح لهنّ بعدم التحجب على أن يخرجن إلى الشارع بلباس محتشم ودون تزين بزينة.

وهذا كلّه ليس حكماً إلزامياً، إذ إنّ الأفضل لهن أن يخرجن محجبات كالنساء الأُخريات، كما جاء في آخر الآية المذكورة، إذ هنّ معرضات إلى الزلل - وإن كان نادراً.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٤، كتاب النكاح، الباب ١١٠، الحديث ٥.
(٢) الجواهر، ج ٢٩، ص ٨٥ وكنز العرفان، ج ٢، ص ٢٢٦.
(٣) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب ١١٠، الحديث ١.
(٤) المصدر السابق، الحديث ٢ و٤.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

التّفسير

البيوت التي يُسمح بالأكل فيها

تحدثت الآيات السابقة عن الاستئذان في أوقات معينة، أو بشكل عام حين الدخول إلى المنزل الخاصّ بالأب والأم.

أمّا الآية موضع البحث فإنّها استثناء لهذا الحكم، حيث يجوز للبعض وبشروط معينة، الدخول إلى منازل الأقرباء وأمثالهم، وحتى أنّه يجوز لهم الأكل فيها دون استئذان، حيث تقول هذه الآية أولاً: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

لأنّ أهل المدينة كانوا - كما ورد بصراحة في بعض الأحاديث - وقبل قبولهم الإسلام، يمنعون الأعمى والأعرج والمريض من المشاركة في مائدتهم، ويتنفّرون من هذا العمل.

وعلى عكس ذلك كانت مجموعة منهم بعد إسلامها، تفرد لمثل هؤلاء موائد خاصّة، ليس لاحتقارهم المشاركة معهم على مائدة واحدة، وإنّما لأسباب إنسانية، فالأعمى قد لا يرى الغذاء الجيد في المائدة، وهم يرونه، ويأكلونه، وهذا خلاف الخلق السليم، وكذلك الأمر بالنسبة للأعرج والمريض، حيث يحتمل تأخرهما عن الغذاء، وتقدم السالمين عليهما، ولهذا كلّه لم يشاركوهم الغذاء على مائدة واحدة، ولهذا كان الأعمى والأعرج والمريض يسحب نفسه حتى لا يزعج الآخرين بشيء، ويعتبر الواحد منهم نفسه مذنباً إن شارك السالمين غذاءهم في مائدة واحدة.

وقد استفسر من الرّسول ﷺ عن هذا الموضوع، فنزلت الآية السابقة التي نصّت على عدم وجود مانع من مشاركة الأعمى والأعرج والمريض للصحيح غذاءه على مائدة واحدة[١].

وقد فسر آخرون هذه العبارة باستثناء هذه الفئات الثلاث من حكم الجهاد، أو أنّ القصد أنّه مسموح لكم استصحاب العاجزين معكم إلى الأحد عشر بيتاً التي أشارت إليها الآية في آخرها، ليشاركوكم في غذائكم.

إلاّ أن هذين التفسيرين - كما يبدو - بعيدان عن قصد الآية، ولا ينسجمان مع ظاهرها. (فتأملوا جيداً).

ثمّ يضيف القرآن المجيد: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾.

والمقصود بعبارة بيوتكم الأبناء أو الزوجات.

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ﴾.

﴿أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ﴾.

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

بالطبع فإنّ هذا الحكم له شروط وإيضاحات سيأتي ذكرها في آخر تفسير الآية.

ثمّ تضيف الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

ذكر أنّ مجموعة من المسلمين كانوا يمتنعون عن الأكل منفردين، بل كانوا يبقون

(١) ذكرت هذا التّفسير أيضاً، التفاسير التالية: «الدر المنثور» و«نور الثقلين» و«مجمع البيان» و«الصافي» و«التّفسير الكبير» و«التبيان» ذيل الآية مورد البحث.

جياعاً لمدّة حتى يجدوا من يشاركهم غذاءهم، فعلمهم القرآن المجيد أن تناول الغذاء مسموح بصورة جماعية أو فردية[١].

ويرى البعض: إنّ مجموعة من العرب كانت تقدّم غذاء الضيف على حدة احتراماً له، ولا يشاركونه الغذاء (حتى لا يخجل أثناء تناوله الطعام).

لقد رفعت الآية المذكورة هذه التقاليد واعتبرتها غير محمودة[٢].

وقال آخرون: إنّ البعض كان يرى عدم جواز تناول الأغنياء الغذاء مع الفقراء، والمحافظة على الفروق الطبقية حتى على مائدة الطعام. لهذا نفى القرآن المجيد هذا التقليد الخاطىء والظالم بذكره العبارة السابقة[٣].

ولا مانع من احتواء الآية السابقة لكلّ هذه المعاني.

ثمّ تشير الآية إلى أحد التعاليم الأخلاقية فتقول: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ واختتمت بهذه العبارة ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وقال بعض المفسّرين: إنّ المقصود من عبارة: ﴿بُيُوتًا﴾ في هذه الآية، هي البيوت الأحد عشر المذكورة سابقاً.

وقال آخرون: إنّها المساجد.

ولكن يبدو أنّها عامّة، تشمل جميع البيوت، سواء الأحد عشر بيتاً التي يجوز للمرء الأكل فيها، أو غيرها كبيوت الأصدقاء والأقرباء، حيث لا يوجد دليل على تضييق المفهوم الواسع لهذه الآية.

ولكن ما هو المقصود من عبارة: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؟

نجد هنا عدداً من التفاسير: حيث يرى البعض من المفسّرين أنّه سلام البعض على البعض، مثلما جاء في قصّة بني إسرائيل (سورة البقرة الآية ٥٤): ﴿فَٱقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ﴾.

ورأى آخرون أنّه يعني السلام على الزوجة والأبناء والأهل، حيث هم بمنزلة النفس، لهذا استخدمت الآية تعبير «الأنفس»، كما جاء هذا التعبير أيضاً في آية المباهلة (سورة آل عمران الآية ٦١)، وهذا يبيّن لنا أن قرب الشخص من الآخر قد يصل إلى درجة أنّه يكون كنفسه، أي يكونان كنفس واحدة، مثلما كان عليّ عليه السلام من الرّسول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١-٣) تفسير التبيان، للآية مورد البحث.

ويرى بعض المفسّرين أنّ الآية السابقة أشارت إلى بيوت لم يسكنها أحد، حيث يحيي المرء نفسه عند دخولها فيقول: السّلام عليكم من قبل ربّنا. أو: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ونرى عدم وجود تناقض بين هذه التفاسير، حيث يجب السلام عند الدخول إلى أيّ منزل كان، ويجب أن يسلم المؤمنون بعضهم على بعض، ويسلّم أهل المنزل أحدهم على الآخر. وأمّا إذا لم يجد أحداً في المنزل فيحيي المرءُ نفسه، حيث تعود هذه التحيات بالسلامة على الإنسان ذاته.

لهذا نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام يجيب فيه على سؤال يخصّ تفسير هذه الآية فيقول: «هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثمّ يردّون عليه فهو سلامكم على أنفسكم»(١).

وفي حديث عن الباقر عليه السلام أيضاً، يقول فيه: «إذا دخل الرجل منكم بيته فإن كان فيه فليسلم عليه، وإن لم يكن فيه أحد فليقل: السلام علينا من عند ربّنا، يقول الله عزّ وجلّ: «تحيّة من عند الله مباركة طيبة»(٢).

بحوث

١ - هل أن تناول غذاء الآخرين غير منوط بإذنهم؟

كما شاهدنا في الآية السابقة، إنّ الله تعالى سمح أن يأكل الإنسان في بيوت أقربائه المُقرّبين وبعض الأصدقاء وأمثالهم، وأصبح عدد هذه البيوت أحد عشر بيتاً، ولم تشترط الآية استئذانهم لتناول الطعام، ولا شك في عدم وجوب الاستئذان، إذ إنّ بوجود الإذن بالأكل يمكن تناول الغذاء العائد لأي شخص، وبذلك لا تبقى ميزة لهذه المجموعة المؤلفة من أحد عشر بيتاً.

فهل يشترط توفر الرضى القلبي بتناول الغذاء «وكما يقال من شاهد الحال». بسبب الصلة الوثيقة بين الطرفين؟ إن ظاهر إطلاق الآية ينفي هذا الشرط، إذ يكفي احتمال حصول رضاه فقط وعادة يحصل الرضى.

أمّا إذا كانت الحالة تؤكّد عدم رضى صاحب الطعام في تناول غذائه، فبالرغم من إطلاق الآية وشمولها لهذا المورد أيضاً، إلاّ أنّه لا يبعد انصراف الآية عن هذا المورد،

(١-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٢٧.

وخاصّة أنّ مثل هذا المورد نادر الوقوع، ومن المعلوم أنّ الإطلاقات لا تشمل الأفراد النادرة.

وعلى هذا فإنّ الآية المذكورة تخصص الآيات والرّوايات التي تشترط في التصرف بأموال الآخرين إحراز رضاهم في دائرة محدودة. وتكرر القول بأن هذا التخصيص، في نطاق محدد، أي تناول الغذاء بمقدار الحاجة تناولاً بعيداً عن الإسراف.

والذي ذكرناه متعارف عليه بين كبار فقهائنا، وجاء بعضه بصراحة في الأحاديث الإسلامية، حيث ذكر رواية معتبرة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال عند الإستفسار منه عبارة «أو صديقكم» الوارد في هذه الآية قال عليه السلام: «هو والله الرجل يدخل بيت صديقه فيأكل بغير إذنه»[1].

كما ذكرت أحاديث أُخرى بهذا المضمون، أكّدت أنّه لا يشترط الاستئذان في هذه الحالات. (وبالطبع لا يوجد خلاف بين الفقهاء حول عدم جواز الأكل من غذاء الآخرين دون الاستئذان الذي نهت عنه الآية بصراحة مع العلم بهذا النهي لهذا أهملت الآية السابقة ذكره).

وحول عبارتي «عدم الإفساد» و«عدم الإسراف» فقد صرحت بعض الأحاديث بذلك أيضاً[2].

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه ورد حديث في هذا الباب يقول بأنّه يمكن الاستفادة فقط من غذاء خاص وليس أيّ غذاء، إلاّ أنّ الفقهاء أعرضوا عن هذا الحديث لضعف سنده.

واستثنى بعض المفسّرين الأطعمة الممتازة التي يحفظها صاحب المنزل لنفسه، أو لضيوفه المقربين، أو لمناسبات خاصّة. وهذا الاستثناء غير بعيد، بسبب انصراف الآية عنه[3].

٢ - فلسفة هذا الحكم الإسلامي

يمكن أن يثير هذا الحكم تساؤلاً بالمقارنة مع الأحكام الشديدة التي نصت عليها

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٤٣٤، كتاب الأطعمة والأشربة - أبواب آداب المائدة - الباب ٢٤ الحديث، ١.

(٢) المصدر السابق، الحديث ٤.

(٣) لإيضاح أكثر يراجع جواهر الكلام ج ٣٦، ص ٤٠٦، (كتاب الأطعمة والأشربة).

التعاليم في تحريم الغصب، هو: كيف سمح الإسلام بذلك، رغم تشديده في قضية التصرف بأموال الآخرين؟!

إنّنا نرى أنّ هذا السؤال ينسجم مع طبيعة البيئات المادية تماماً، كالمجتمع الغربي، حيث يطرد الأبناء من المنزل حين البلوغ! ولا يهتمون بالوالدين حين إصابتهم بالعجز أو الشيخوخة! حيث نشاهد الأبناء هناك، لا يثمنون أتعاب الوالدين ولا يشفقون عليهما، بسبب تسلط التفكير المادي على العلاقات الاجتماعية في الغرب! ولا خبر هناك عن العاطفة الإنسانية والشفقة!

إلاّ أنّ التعاليم الإسلامية والعواطف الإنسانية التي تمتد جذورها في المجتمع الإسلامي، خاصّة بين الأهل والأقرباء والأصدقاء، قد ميّزت المجتمع الإسلامي عن المجتمع الغربي.

والواقع أنّ الإسلام جعل علاقات الأقرباء والأصدقاء أسمى من الأُمور المادية، وهذا يعكسه الصفاء والود اللذان يسودان المجتمع الإسلامي الحقيقي، حيث يبتعد أفراد هذا المجتمع عن الصفات غير المحمودة كالبخل وحب الذات.

ولا ريب أن أحكام الغصب تكون نافذة في غير هذه الدائرة، ولكن الإسلام في داخل هذه الدائرة يفضل القضايا العاطفية والروابط الإنسانية، فهي التي ينبغي أن تسود العلاقات بين الأقرباء والأصدقاء جميعاً.

٣ - من هو الصديق؟

لا شك أنّ للصداقة مفهوماً واسعاً، وهي تعني هنا بالتأكيد الأصدقاء الخاصين الذين تربطهم علاقات وثيقة، وهذه العلاقة توجب التزاور فيما بينهم والأكل من طعام الآخر، ولا حاجة هنا - كما أسلفنا - إلى إحراز الرضا، بل يجوز الأكل بمجرّد عدم العلم بعدم رضا صاحب الغذاء.

لهذا قال بعض المفسّرين حول هذه الآية: الصديق هو الذي يصدق في علاقاته معك.

وقيل: الصديق هو الذي يصدّق ظاهره باطنه وكما يبدو فإن الجميع يشيرون إلى حقيقة واحدة.

ويتّضح من هذه العبارة أنّ الذي لا يسمح بمشاركة صديقه لغذائه، لا يمكن اعتباره صديقاً!

ومن المناسب هنا أن نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام ضمّ مفهوم الصداقة الواسع وشروطها الكاملة:

«لا تكون الصداقة إلاّ بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء منها فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة.

فأوّلها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة.

والثّانية: أن يرى زينك زينه وشينك شينه.

والثّالثة: أن لا تغيره عليك ولاية ولا مال.

والرّابعة: أن لا يمنعك شيئاً تناله مقدرته.

والخامسة: وهي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات»(١).

٤ - تفسير عبارة ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾

جاء في بعض أسباب النّزول أنّ المسلمين في صدر الإسلام كانوا يسلمون أحياناً مفاتيح منازلهم إلى الذين لا يشملهم الجهاد. حين توجههم إلى الجهاد في سبيل الله، وكانوا يسمحون لهم بتناول الطعام من هذه المنازل، إلاّ أنّ هؤلاء كانوا يمتنعون من الأكل في هذه المنازل خوفاً من ارتكاب إثم في ذلك.

وحسب هذه الرواية فإنّ المراد من عبارة ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ هو ما ذكرنا(٢).

وروي عن ابن عباس أيضاً أن قصد الآية هو وكيل الشخص على ما يملكه من ماء وبستان ومواشٍ، حيث سمح له بتناول الفاكهة من بستان الموكّل بقدر حاجته والشرب من حليب ماشيته.

كما فسّر آخرون ذلك بحارس المخزن الذي يسمح له بتناول قليل من المواد الغذائية الموجودة في هذا المخزن.

ومع ملاحظة سائر المجموعات التي ورد ذكرها في هذه الآية، يبدو أنّها تقصد الذين يسلمون مفاتيح منازلهم لأشخاص موثقين ومقربين لهم، وهذا التقارب الوثيق بينهما يؤدّي إلى أن يكونوا في صف الأقرباء والأصدقاء المقرّبين، وسواءً كان وكيلاً رسمياً أم لا.

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، ص ٤٦٧.

(٢) تفسير القرطبي، ج ١٢، ص ٣١٥ (وجاء في وسائل الشيعة الجزء السادس عشر، ص ٤٣٦، الباب ٢٤ من أبواب المائدة حديث بهذا المضمون).

وإذا لاحظنا أنّ بعض الأحاديث تفسر عبارة: ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ بالوكيل الذي يتعهد بالإشراف على أموال شخص آخر، فإنّ ذلك مصداق للآية وليس لتحديد معناها وحصرها بهذا التّفسير.

٥ - السلام والتحية

«التحية» مشتقّة من الحياة، بمعنى الدعاء لسلامة الآخرين، سواء كانت بشكل السلام عليكم، أو السلام علينا، أو قولاً كحيّاك الله، فكل هذا إعراب عن المحبة التي يبديها الشخص عند لقائه بآخر، وتدعى بالتحية.

ويقصد بعبارة ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾. ربط التحية بالله بشكل ما، أي «السلام عليكم»، سلام الله عليكم، أو نسأل الله أن يسلمكم، إذ إن كل موحّد يرى ربط الدعاء بالله، وطبيعي أنّ الدعاء بهذا الشكل يكون مباركاً وطيباً، (تناولنا بحث السلام وأهمّيته ووجوب الردّ على التحية، في تفسير الآية ٨٦ من سورة النساء).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾

سبب النّزول

ذكرت عدة أسباب لنزول الآية الأُولى من الآيات أعلاه، فقد جاء في بعض الأحاديث أنّ هذه الآيه نزلت في «حنظلة بن أبي عياش» الذي صادف زواجه ليلة معركة أُحد، وكان الرّسول ﷺ يشاور أصحابه حول هذه المعركة، فجاءه حنظلة يستأذنه المبيت عند زوجته، فأجازه ﷺ.

وقد بكّر حنظلة للالتحاق بصفوف المسلمين، وكان على عجل من أمره بحيث لم يتمكن من الاغتسال، ودخل المعركة على هذه الحال، وقاتل حتى قتل في سبيل الله.

قال رسول الله ﷺ فيه: «رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضة بين السماء والأرض».

لهذا سمي حنظلة بعدها بـ«غسيل الملائكة»(١).

وذكر سبب آخر لنزول هذه الآية حيث «روى ابن إسحاق» في سبب نزول هذه الآيات أنّه لما سمع رسول الله ﷺ بتجمع قريش والأحزاب على حربه - وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة. فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه فدأب ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين لا ينجزون إلاّ اليسير من العمل، أو يتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ﷺ ولا إذنه، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابدّ منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويسأله في اللحوق بحاجته فيأذن له.

فإذا قضى حاجته، رجع إلى ما كان فيه من عمله رغبة في الخير واحتساباً له، فأنزل الله تعالى في أولئك المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ...﴾ الآية، ثمّ قال تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النّبي ﷺ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ...﴾ الآية(٢).

التّفسير

لا تتركوا النبيّ وحده!

قال بعض المفسّرين حول علاقة هذه الآيات بسابقتها، وفيهم المرحوم «الطبرسي» في مجمع البيان «وسيد قطب» في تفسير في ظلال القرآن: بما أنّ الآيات السابقة طرحت للبحث جانباً من أُسلوب التعامل مع الأصدقاء والأقرباء. فإنّ الآيات موضع البحث تناولت كيفية تعامل المسلمين مع قائدهم النّبي ﷺ، وقد أكّدت التزام الوقار أمامه، وطاعته وعدم ترك الجماعة إلاّ بإذنه.

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم، حسبما نقله تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ٦٢٨.

(٢) في ظلال القرآن - طبعة دار إحياء الكتب العربية - الجزء ١٧، ص ١٢٦. تفسير في ظلال القرآن، ج٦، ص١٢٦، ذيل الآيات مورد البحث.

ويمكن أيضاً أنّ الآيات السابقة تحدثت عن ضرورة طاعة الله ورسوله ﷺ، ومن علائم طاعته عدم تركه أو القيام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآيات - موضع البحث - حول هذا الموضوع. فتقول أوّلاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

والمراد من «أمر جامع» كلّ عمل يقتضي اجتماع الناس فيه ويتطلب تعاونهم، سواء كان عملاً استشارياً، أو مسألة حول الجهاد ومقاتلة العدو، أو صلاة جمعة في الظروف الاستثنائية وأمثالها.

وإذا وجدنا أنّ بعض المفسّرين، قالوا بأنّه يعني الاستشارة أو الجهاد أو صلاة الجمعة أو العيد فنقول: إنّهم عكسوا جانباً من معاني هذه الآية، وأسباب النّزول السابقة أيضاً هي من مصاديق هذا الحكم العام.

وفي الحقيقة إنّ هذا من شروط النظم والتنظيم ولا يمكن لأية مجموعة منظمة منسجمة أن تهمله، فغياب شخص واحد قد تترتب عليه صعوبات ويلحق ضرراً بالهدف النهائي، خاصّة إذا كان قائد الجماعة رسول الله ﷺ وكلامه مطاع.

كما يجب الانتباه إلى أنّ الإذن لا يعني الاستئذان الشكلي لقضاء الشخص أعماله الخاصّة والتفرغ لتجارته، وإنّما أن يكون صادقاً في الاستئذان، فإذا وجد القائد أن غياب هذا الشخص يلحق ضرراً، فمن حقه أن لا يأذن له، وعليه أن يضحي بمصلحته من أجل هدف أسمى، لهذا تضيف الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن الواضح أنّ هؤلاء المؤمنين لا يستأذن أحدهم لعمل بسيط في حين أنّهم اجتمعوا لأمر أهم، والمقصود من عبارة: ﴿شَأْنِهِمْ﴾، الأعمال الضرورية والمهمّة فقط.

ومن جهة أخرى، لا تعني إذن النّبي ﷺ للأشخاص دون دراسة جوانب المسألة وأثر حضور وغياب الأفراد، بل جاء هذا التعبير ليطلق يد النّبي ﷺ وأن لا يأذن لأحد حين إحساسه بضرورة حضوره في الجماعة.

ودليل هذا الكلام ما جاء في الآية (٤٣) من سورة التوبة حيث يلام الرّسول ﷺ لإذنه بعض الأفراد: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾.

وتبيّن هذه الآية كيف أوجبت على النّبي ﷺ التحقيق قبل الإذن، وأن يلاحظ أبعاد هذه المسؤولية الإلهية.

وتقول الآية في الختام: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

و هنا يطرح سؤال: ما الغرض من هذا الإستغفار؟ فهل هم مذنبون رغم أخذهم الإذن من الرّسول بالمغادرة، كي يحتاجوا إلى استغفاره لهم؟

وللجواب على هذا السؤال هناك وجهان:

أحدهما: أن يستغفر لهم تنبيهاً على أنّ الأوْلى أن لا يقع الاستئذان منهم وإن أذن لهم، لأنّ ذلك يعتبر تقديم الشخص لمصلحته الخاصّة على مصلحة المسلمين، ولا يخلو هذا الأمر من «الترك الأولى» ولذا يحتاج إلى الاستغفار (كالاستغفار على عمل مكروه)[1].

كما تبيّن هذه العبارة ضرورة عدم الاستئذان بالقدر الممكن. واتباع التضحية والإيثار حتى لا يتورطوا بارتكاب عمل تركه أولى كمغادرة الجماعة لعمل بسيط.

والوجه الثاني: يحتمل أنّه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة لتمسّكهم بآداب الله تعالى في الاستئذان[2].

ولكن نرى عدم وجود تناقض بين هذين الوجهين، كما أنّه من الطبيعي أن لا تخصّ هذه التعاليم التنظيمية الرّسول ﷺ وأصحابه فقط، وإنّما هي واجبة الاتباع إزاء كلّ قائد إلهي، سواء كان نبياً أم إماماً أم عالماً نائباً لهما، حيث يتوقف مصير المسلمين على هذه الطاعة، كما يحتمه - إضافة إلى القرآن - العقل والمنطق، لأنّ استمرار التنظيم يتوقف على رعاية هذه المبادىء، ولا يمكن إدارة المجتمع بدونها.

والمدهش تفسير كبار مفسّري أهل السنة لهذه الآية بأنّها دليل على جواز الاجتهاد وتوقف الحكم على رأي المجتهد، ولا يخفى أنّ الاجتهاد المطروح في مباحث الأصول والفقه يخصّ الأحكام الشرعية، ولا يتعلق بالاجتهاد في الموضوعات حيث إنّ الاجتهاد في الموضوع لا يقبل الإنكار، فكل قائد جيش أو مدير دائرة أو مشرف على

(١) التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٤، ص٣٩، وتفسير روح المعاني، وتفسير القرطبي للآيات مورد البحث.

(٢) التّفسير الكبير للفخر الرازي - في تفسيره للآية مورد البحث ص ٣٩ من طبعة دار الكتب العلمية بطهران - الطبعة الثّانية. التّفسير الكبير، ج٢٤، ص٣٩، ذيل الآيات مورد البحث.

جماعة يجتهد في القضايا الإجرائية الخاصّة بدائرة عمله، وليس هذا دليلاً على إمكان الإجتهاد في الأحكام الشرعية العامّة بإيجاب حكم بدعوى المصلحة العامّة، أو نفي حكم أو تشريع آخر.

ثمّ بيّنت الآية التالية حكماً آخر له علاقة بتعاليم النبي ﷺ حيث تقول: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

إن الرّسول ﷺ عندما يدعوكم للاجتماع، فإنه لابدّ من أن يكون لمسألة إلهية مهمّة، لهذا يجب عليكم الاهتمام بدعوته، والالتزام بتعاليمه، وألاّ تهملوها، فأمره من الله ودعوته منه سبحانه وتعالى.

ثمّ تضيف الآية: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾مشتقّة من «تسلل»، وتعني سحب الشيء من موضعه، كأنّ يقال: سلّ السيف من غمده، كما يطلق على الذين يفرون سرّاً من مكان تجمع محدد لهم، كلمة «متسللون».

﴿لِوَاذًا﴾ مشتقّة من «ملاوذة» بمعنى الاختفاء، وتعني هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار، أو بتعبير آخر: استغفال الآخرين ثمّ الفرار من مكان تجمعهم، وهذا ما كان يقوم به المنافقون حينما يوجه الرّسول ﷺ الدعوة للجهاد أو لأمر مهم آخر، يقول لهم القرآن المجيد: «إنّ عملكم النفاقي هذا إن خفي على الناس فإنّه لا يخفى على الله، وسيعاقبكم على هذه الأعمال ومخالفتكم لأوامر الرّسول ﷺ في الدنيا والآخرة».

ماذا يقصد بكلمة ﴿فِتْنَةٌ﴾ هنا؟ قال بعض المفسّرين: إنّها القتل، وآخرون قالوا: إنّها تعني الضلال، كما قال بعضهم: إنّها السلطان الظالم، وقيل: إنّها بلاء النفاق الذي يتوغل في قلب الإنسان.

كما يحتمل أن تعني الفتنة الفتن الاجتماعية ومشاكلها، وأن يسود الهرج والمرج في المجتمع، وابتلائه بالهزيمة، وسائر الفتن الأُخرى التي يبتلى بها المجتمع في حالة عصيانه أوامر قائده.

وعلى كلّ حال فالفتنة ذات مفهوم واسع يضمّ جميع هذه الأُمور وغيرها، مثلما يضمّ العذاب الأليم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة أو كليهما.

وممّا يجب الانتباه إليه في تفسير الآية محل البحث وجود احتمالين إضافة إلى ما ذكرناه هما:

الأوّل: أنّ القصد من قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أنّكم عندما تدعون النّبي ﷺ فينبغي أن تدعوه بأدب واحترام يليق بمنزلته، وليس كما تدعون بعضكم بعضاً، والسبب يكمن في أنّ جماعة من المسلمين لم يتعلموا - بعد - الآداب الإسلامية في التعامل مع الآخرين، فكانوا ينادون الرّسول ﷺ بعبارة: يا محمّد! وهذا لا يليق بنداء قائد إلهي كبير، وتستهدف الآية تعليم الناس أن يدعوا الرّسول ﷺ بعبارات رزينة وبأسلوب مؤدب، كأن يدعوه: يا رسول الله، أو: يا نبيّ الله.

وهذا التّفسير ورد في بعض الرّوايات أيضاً إلاّ أنّه لا ينسجم مع ظاهر الآية التي تحدثت عن الاستجابة لدعوة الرّسول ﷺ ووجوب عدم الغياب عن الجماعة دون استئذان منه ﷺ إلاّ أن نقول: إن كلا المعنيين مقصودان للآية واحدة، وأن مفهوم الآية شامل للتفسيرين الأوّل والثّاني.

والآخر: ويبدو أنّه ضعيف جدّاً، وهو ألاّ تجعلوا دعاء النّبي ﷺ على أحد الأشخاص ولعنه له كدعاء بعضكم على بعض[1]، لأنّ دعاء ولعن النبي ﷺ يتمّ وفق حساب دقيق وخاضع للتعاليم الإلهية، وهو نافذ حتماً.

ولكن ليس لهذا التّفسير علاقة بأوّل الآية ونهايتها، ولم يرد حديث إسلامي خاصّ به، ولهذا السبب لا يمكن قبوله.

وتجدر الإشارة إلى أنّ علماء الأُصول فسّروا عبارة ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ بأنّ أوامر الرّسول ﷺ تدل على الوجوب، إلاّ أنّ هذا الاستدلال فيه نواقص أُشير إليها في علم الأُصول.

وآخر آية من الآيات موضع البحث، - والتي هي آخر سورة النور - إشارة بليغة إلى قضية المبدأ والمعاد التي تعتبر دافعاً لامتثال التعاليم الإلهية جميعاً، وضمان لتنفيذ جميع الأوامر والنواهي، ومنها التي وردت في هذه السورة حيث تقول: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

فإنّ الله العالم بكلّ شيء ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي يعلم أُسلوبكم في التعامل

---

(١) لقد جاء بعد كلمة الدعاء «لام» فإنّها تعني الابتهال والدعاء، أمّا إذا جاء الحرف «على» فإنّها تعني الدعاء على شخص لغير صالحه، وإذا افتقدت الجملة أي من هذين الحرفين فيحتمل أن تتضمّن العبارة المعنيين.

وأعمالكم واعتقادكم ومقاصدكم، فكلّها واضحة له سبحانه وتعالى، وثابتة في لوحة علمه ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ ويجازيهم بها ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

وممّا يلفت النظر تأكيد الآية ثلاث مرات على علم الله بأعمال البشر، ليشعر الإنسان أنّه مراقب بشكل دائم، ولا يخفى على الله شيء من أعمال هذا الإنسان أبداً، ولهذا الاعتقاد أثره التربوي الكبير ويضمن سيطرة الإنسان على نفسه إزاء الانحرافات والذنوب.

إلهي، نوّر قلوبنا بنور العلم والإيمان، وقوّ مشكاة وجودنا للمحافظة على هذا الإيمان، لنجتاز صراطك المستقيم الذي سار عليه أنبياؤك لكسب رضاك، ولتحفظنا بلطفك من كل انحراف.

ربّاه، نوّر أبصارنا بنور العفة، وقلوبنا بنور المعرفة، وأرواحنا بنور التقوى، ونور وجودنا كله بنور الهداية، واحفظنا من التيه والغفلة، وأعذنا من وساوس الشيطان.

إلهي، وطّد أركان حكومة العدل الإسلامي من أجل تنفيذ حدودك، واحفظ مجتمعنا من الزلل والسقوط في هاوية الرذيلة، إنك على كل شيء قدير.

سُورَةُ الفُرْقَان

مكيّة وعدد آياتها سبع وسبعون

محتوى سورة الفرقان

هذه السورة بحكم كونها من السور المكية[١]، فإن أكثر ارتكازها على المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد، وبيان نبوة النّبي ﷺ والمواجهة مع الشرك والمشركين، والإنذار من العواقب الوخيمة للكفر وعبادة الأصنام والذنوب.

وتتألف هذه السورة في مجملها من ثلاثة أقسام: -

القسم الأوّل: الذي يشكل مطلع هذه السورة، يدحض منطق المشركين بشدّة، ويستعرض ذرائعهم، ويردُّ عليها، ويخوفهم من عذاب الله، وحساب يوم القيامة، وعقوبات جهنم الأليمة، ويذكرّهم بمقاطع من قصص الأقوام الماضية الذين افترستهم على أثر مخالفتهم لدعوة الأنبياء - الشدائد والبلايا والعقوبات، وذلك على سبيل الدرس والعبرة لهؤلاء المشركين المعاندين.

في القسم الثاني: لأجل إكمال هذا البحث، تبحث الآيات بعض دلائل التوحيد ومظاهر عظمة الله في الأكوان، بدءاً من ضياء الشمس إلى ظلمة وعتمة الليل، وهبوب الرياح، ونزول الأمطار، وإحياء الأراضي الموات، وخلق السماوات والأرضين في ستة أيّام، وخلق الشمس والقمر، وسيرهما المنظم في الأفلاك السماوية، وما شابه ذلك.

فالقسم الأوّل في الحقيقة - يحدد مفهوم ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾، والقسم الثّاني يحدد مفهوم ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

القسم الثالث: مختصر جذاب جدّاً، وجامع لصفات المؤمنين الحقيقيين ﴿عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وعباد الله المخلصين، في مقايسة مع الكفّار المتعصبين الذين ذكروا في القسم

(١) يُصر بعض المفسّرين على أن ثلاث آيات من هذه السورة (٦٨، ٦٩، ٧٠) نزلت في المدينة، ولعل ذلك لأنّ أحكاماً مثل قتل النفس والزنا، شُرّعت في هذه الآيات، في حين أن التدقيق في الآيات التي قبلها والتي بعدها، يكشف جيداً عن أنّ السياق واحد متصل ومنسجم تماماً حول (عباد الرحمن) وبيان أوصافهم، لذا فالظاهر أنّ السورة نزلت كلها في مكّة.

الأوّل، فتتحدد منزلة كل من الفريقين تماماً، كما أنّنا سنرى أنّ هذه الصفات مجموعة من الاعتقاديات والأعمال الصالحة ومكافحة الشهوات، وامتلاك الوعي الكافي، والإحساس والالتزام بالمسؤولية الاجتماعية.

واسم هذه السورة قد أُخذ من آيتها الأُولى، التي تعبر عن القرآن بـ«الفرقان» (الفاصل بين الحق والباطل).

فضيلة سورة الفرقان:

ورد في حديث عن النّبي ﷺ أن: «من قرأ سورة الفرقان (وتدبّر في محتواها وعمل بما ورد فيها) بعث يوم القيامة وهو مؤمن أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور»(١). (أي مؤمن بأن الساعة...). ونقل في حديث آخر عن إسحاق بن عمار عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنّه قال له: «يابن عمار، لا تدع قراءة سورة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فإن من قرأها في كل ليلة لم يعذبه الله أبداً، ولم يحاسبه، وكان منزله في الفردوس الأعلى»(٢).

كما أننا سنرى - في تفسير هذه السورة - أنّ كلَّ من تلا بحق صفات عباد الله المخلصين المبيّنة في السورة كما هي، وامتزجت بقلبه وروحه، وبنى صفات أعماله طبقاً لها فإنّ منزِله الفردوس الأعلى.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾

التّفسير

المقياس الأعلى للمعرفة

تبدأ هذه السورة بجملة ﴿تَبَارَكَ﴾ من مادة «بركة»، ونعلم أنّ الشيء ذو بركة، عبارة

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٥٩، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) ثواب الاعمال للصدوق، ص١٠٩، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٢.

عن أنّه ذو دوام وخير ونفع كامل، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[1].

الملفت للانتباه أنّ ثبوت البركة لذات الخالق عَزَّوَجَلَّ بواسطة نزول الفرقان، يعني أنّه أنزل قرآناً فاصلاً بين الحق والباطل، وهذا يدل على أن أعظم الخير والبركة هي أن يمتلك الإنسان بيده وسيلة المعرفة - معرفة الحق من الباطل.

وهنا وقفة مهمّة أيضاً، وهي أنّ كلمة «الفرقان» وردت بمعنى «القرآن» تارةً، وتارةً بمعنى معجزات مميزة للحق من الباطل، ووردت بمعنى «التوراة» تارةً أخرى.

عن القرآن والفرقان، أهما شيئان، أو شيء واحد؟ فقال: «القرآن: جُملةُ الكتاب، والفرقان: المحكم الواجب العمل به»[2].

ولا منافاة بين هذا القول وبين أنّ الفرقان هو جميع آيات القرآن، والمراد هو أنّ آيات القرآن المحكمات تعتبر مصداقاً أوضح وأبرز للفرقان وللتمييز بين الحق والباطل.

ولموهبة «الفرقان والمعرفة» أهمّية بالغة بحيث إنّ القرآن المجيد ذكرها كمكافأة عظيمة للمتقين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا . . .﴾[3].

نعم، فبدون التقوى لا يمكن تمييز الحق من الباطل، لأنّ الأهواء والذنوب تلقي على وجه الحق حجاباً كثيفاً، وتعمي بصر ابن آدم وبصيرته.

وعلى أية حال، فالقرآن المجيد هو الفرقان الأعلى.

القرآن وسيلة لتشخيص الحق من الباطل في نظام حياة البشر.

القرآن وسيلة لتشخيص الحق من الباطل في مسير الحياة الفردية والاجتماعية، وهو الميزان والمحك على صعيد الأفكار والعقائد، والقوانين، والأحكام، والآداب، والأخلاق.

وهذه الوقفة مهمّة أيضاً، حيث يقول تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ نعم، فمقام العبودية والانقياد التامّين هو الذي يحقق اللياقة لنزول الفرقان، ولتلقي موازين الحق والباطل.

---

(١) ورد شرح كلمة «البركة» في ج ٥، آخر الآية (٥٤) من سورة الأعراف، شرح أصل «البركة».

(٢) تفسير البرهان، ج٣، ص١٥٥.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

والنكتة الأخيرة التي طرحت في هذه الآية، تبيّن أنّ هدف الفرقان النهائي هو إنذار العالمين، الإنذار الذي نتيجته الإحساس بالمسؤولية تجاه التكاليف الملقاة على عاتق الإنسان، وعبارة ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ كاشفة عن أنّ شريعة الإسلام عالمية لا تختص بمنطقة معينة، ولا بقوم أو عنصر معينين، بل إنّ بعضهم قد استدل منها على خاتمية النّبي ﷺ، وذلك أن «العالمين» كما أنّها غير محدودة من حيث المكان، فكذلك مطلقة من حيث الزمان أيضاً، فـ«العالمين» تشمل جميع الأجيال القادمة أيضاً (فتأمل!).

الآية الثّانية تصف الله الذي نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هي الأساس، والبقية نتائج وفروع لها، فتقول أوّلاً: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

نعم، إنّه الحاكم على كل عالم الوجود، وكل السماوات والأرض، فلا شيء خارج عن سلطة حكومته، وبالالتفات إلى تقدم ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الذي هو دليل الحصر في اللغة العربية يستفاد أنّ الحكومة الواقعية والحاكمية المطلقة في السماوات والأرض منحصرة به تبارك وتعالى، ذلك لأنّ حكومته عامّة وخالدة وواقعية، بخلاف حاكمية غيره التي هي جزئية ومتزلزلة. وفي نفس الوقت فهي مرتبطة به سبحانه.

فكلمة ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ كما يقول «الراغب» في «المفردات» بمعنى تملك الشيء والحاكمية عليه، في حين أنّ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ ليس دليلاً على الحاكمية وتصرف المالك دائماً. وبهذا الترتيب: فكلُ مُلك مُلكاً، في حين أنّ ليس كل مِلك مُلكاً.

ثمّ يتناول تفنيد عقائد المشركين واحدة بعد الأُخرى، فيقول تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾[2].

وكما قلنا من قبل فإن الحاجة إلى الولد من حيث الأصل إمّا لأجل الاستفادة من طاقته البشرية في الأعمال، أو لأجل الاستعانة به حال الضعف والعجز والشيخوخة، أو لأجل الاستئناس به في حال الوحدة، ومن المعلوم أنّ ذاته المقدّسة عزّ وجلّ منزّهة عن أي واحد من تلك الاحتياجات.

---

(١) كلمة (المُلك) كما يقول «الراغب» في «المفردات» بمعنى تملك الشيء والحاكمية عليه، في حين أنّ (المِلك) ليس دليلاً على الحاكمية وتصرف المالك دائماً. وبهذا الترتيب: فكلُ مُلك مُلكاً، في حين أنّ ليس كل مِلك مُلكاً.

(٢) ورد إيضاح أكثر حول نفي الولد عن الله تعالى، ودلائل ذلك في تفسير الآية (١١٦) من سورة البقرة.

وبهذا الترتيب، يدحض اعتقاد النصارى بأنّ «المسيح» عليه السلام ابن الله، أو ما يعتقده اليهود أنّ «العزير» ابن الله، وكذلك يدحض اعتقاد مشركي العرب، ثمّ يضيف جل ذكره: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

فإذا كان لمشركي العرب اعتقاد بوجود الشريك أو الشركاء، ويتوهمونهم شركاء لله في العبادة، ويتوسلون بهم من أجل الشفاعة، ويسألونهم المعونة لقضاء حوائجهم، حتى آل بهم الأمر أنّهم كانوا يقولون بصراحة - حين التلبية للحج - جملاً قبيحة ملوثة بالشرك، مثل: «لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فإنّ القرآن يدين ويدحض كل هذه الأوهام.

ويقول تعالى في العبارة الأخيرة: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

ليس كمثل اعتقاد الثنويين الذين يعتقدون بأنّ قسماً من موجودات هذا العالم مخلوقات «الله»، وأنّ قسماً منها مخلوقات «الشيطان».

وبهذا الترتيب كانوا يقسمون الخلق والخلقة بين الله والشيطان، ذلك لأنّهم كانوا يتوهمون الدنيا مجموعة من «الخير» و«الشر»، والحال ألاّ شيء في عالم الوجود إلاّ الخير من وجهة نظر الموحد الحق. فإذا رأينا شرّاً، فإمّا أن يكون ذا جنبة «نسبية» أو «عدمية»، أو أن يكون نتيجة لأعمالنا (فتأمل)!.

بحث

تقدير الموجودات بدقة

ليس نظام العالم الدقيق والمتقن - وحده - من الدلائل المحكمة على معرفة الله وتوحيده، فتقديراته الدقيقة أيضاً دليل واضح آخر، أنّنا لا يمكن أن نعتبر مقادير موجودات هذا العالم المختلفة، وكميتها وكيفيتها المحسوبة، معلولة للصدفة التي لا تتوافق مع حساب الاحتمالات.

وقد تقصّى العلماء الأمر في هذا الصدد، وأزاحوا الستار عن أسراره المدهشة التي تذهل فكر الإنسان، وتترك لسانه يترنم بتمجيد عظمة وقدرة الخالق بلا اختيار.

ونعرض لكم - ها هنا - جانباً من ذلك:

يقول العلماء: لو كانت قشرة الأرض أسمك ممّا هي عليه الآن بمقدار بضعة أقدام، لما وجد غاز «الأوكسجين» الذي يعتبر المادة الأصلية للحياة، ولو كانت البحار أعمق

من عمقها الفعلي عدّة أقدام لا متصت جميع ما في الجوّ من الكاربون والأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة لحيوان ونبات على سطح الأرض، ويحتملِ أن تقوم قشرة الأرض والبحار بامتصاص كل الأوكسجين، وكان على الإنسان أن ينتظر نمو النباتات التي تلفظ الأوكسجين.

وطبقاً للحسابات الدقيقة في هذا المجال يتّضح أنّ للأوكسجين مصادر مختلفة، ولكن مهما كان مصدره فإنّ كميته مطابقة لاحتياجاتنا بالضبط.

ولو كانت طبقة الغلاف الجوي أرق ممّا هي عليه الآن ممّا هو، فإنّ بعض الشهب التي تحترق كل يوم بالملايين في الهواء الخارجي، كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية، وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال وأربعين ميلاً في الثّانية، وكان في إمكانها أن تشعل كل شيء قابل للاحتراق. ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة، ولو تعرض الإنسان للاصطدام بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة، لتحول إلى رماد لمجرّد حرارته.

الغلاف الجوي سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيمياوي التي يحتاج إليها الزرع والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات، دون أن تضر بالإنسان، إلاّ إذا عرّض نفسه لها مدة أطول من اللازم. وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من أعماق الأرض طول الدهور، ومعظمها سام، فإنّ الهواء باق دون تلوث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان.

إنّ الجهاز الذي يقوم بهذه الموازنة العظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء، أي البحار والمحيطات التي هي مصدر الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل، وأخيراً استمد الإنسان نفسه جميع تلك المقومات الحيوية منهما، فدع من يدرك ذلك يقف في روعة أمام عظمته تعالى، ويقرُّ بواجباته شاكراً!

إنّ التعادل العجيب بين الأوكسجين وثاني أوكسيد الكاربون فيما يتعلق بالحياة الحيوانية، وعالم النبات كلّه، قد استرعت أنظار كل العالم المفكر، غير أن أهمّية ثاني أوكسيد الكاربون لم يدركها الجميع بعد، وثاني أوكسيد الكاربون هو الغاز المألوف في تعبئة ماء الصودا، وهو غاز ثقيل، ولحسن الحظ يعلق بالأرض، ولايتمّ فصله إلى أوكسجين وكاربون إلاّ بصعوبة كبيرة، وإذا أشعلت ناراً، فإنّ الخشب - الذي يتكون غالباً من الأوكسجين والكاربون والهيدروجين - يتحلل تحت تأثير الحرارة ويتحد

الكاربون مع الأوكسجين بشدّة، وينتج من ذلك ثاني أوكسيد الكاربون. والهيدروجين الذي يطلق يتحد بمثل تلك الشدة مع الأوكسجين فنحصل على بخار الماء، ومعظم الدخان هو كاربون خالص غير متحد مع غيره.

وحين يتنفس رجل فإنّه يستنشق الأوكسجين فيتلقاه الدم، ويقوم بتوزيعه إلى جميع أنحاء جسمه، ويقوم هذا الأوكسجين بحرق طعامه في كل خلية ببطء شديد عند درجة حرارة واطئة نسبياً، النتيجة هي ثاني أوكسيد الكاربون وبخار الماء.

وبذلك يتسلل ثاني أوكسيد الكاربون إلى رئتيه، ويعود إلى الجو مرّة أُخرى من خلال الزفير، وكلّ كائن حيواني حي يمتص الأوكسجين ويلفظ ثاني أوكسيد الكاربون.

ما أعجب نظام الضوابط والموازنات الذي منع أي حيوان - مهما يكن من وحشيته، أو ضخامته، أو مكر - من السيطرة على العالم غير أنّ الإنسان وحده بإمكانه قلب هذا التوازن الذي للطبيعة بنقله النباتات والحيوانات من مكان إلى آخر، وسرعان ما يلقى جزاءه القاسي على ذلك ماثلاً في تطورات آفات الحيوان والحشرات والنبات.

والواقعة الآتية مثل بارز على أهمّية تلك الضوابط فيما يتعلق بوجود الإنسان، فمنذ سنوات عديدة زرع نوع من الصبّار (الكاكتوس) في أستراليا كسياج وقائي، ولكن هذا الزرع مضى في سبيله حتى غطى مساحة تقرب من مساحة إنجلترا، وزاحم أهالي المدن والقرى، وأتلف مزارعهم، وحال دون الزراعة، ولم يجد الأهالي وسيلة لصده عن الانتشار، وصارت أستراليا في خطر من اكتساحها بجيش من الزرع الصامت، يتقدم في سبيله دون عائق!

وطاف علماء الحشرات بنواحي العالم حتى وجدوا أخيراً حشرة لا تعيش إلاّ على ذلك الصبار ولا تتغذى بغيره، وهي سريعة الانتشار وليس لها عدو يعوقها في أستراليا، وما لبثت هذه الحشرة حتى تغلبت على الصبّار، ثمّ تراجعت، ولم يبق منها سوى بقية قليلة للوقاية، تكفي لصدّ الصبّار عن الانتشار إلى الابدّ.

وهكذا توافرت الضوابط والموازين، وكانت دائماً مجدية.

فلماذا لم تسيطر بعوضة الملاريا على العالم وتقتل بذلك النوع البشري مع أنّ البعوض متوفر في جميع أنحاء العالم حتى في القطبين؟ ومثل ذلك أيضاً يمكن أن يقال عن بعوضة الحمى الصفراء التي تقدمت شمالاً في أحد الفصول حتى وصلت إلى نيويورك.

ولماذا لم تتطور ذبابة «تسي تسي» «الذبابة المنومة» حتى تستطيع أن تعيش في غير مناطقها الحارة، وتمحو الجنس البشري من الوجود؟ يكفي أن يذكر الإنسان الطاعون والأوبئة والجراثيم الفتاكة التي لم يكن منها وقاء حتى الأمس القريب، وأن يذكر كذلك ما كان له من جهل تام بقواعد الوقاية الصحية، ليعلم أنّ بقاء الجنس البشري معها يدعو حقاً إلى الدهشة![1].

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

التّفسير

الاتهامات المتعددة الألوان

هذه الآيات - في الحقيقة - تتمة للبحث الذي ورد في الآيات السابقة، في مسألة المواجهة مع الشرك وعبادة الأوثان. ثمّ في الادعاءات الواهية لعبدة الأوثان، واتهاماتهم فيما يتعلق بالقرآن، وشخص النّبي ﷺ.

الآية الأُولى - في الواقع - تجر المشركين إلى المحاكمة، ولتحريك وجدانهم تقول بمنطق واضح وبسيط، وفي نفس الوقت قاطع وداحض: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

المعبود الحقيقي هو خالق عالم الوجود، ولا يدعي المشركون هذا الادعاء لأوثانهم، بل يعتقدون أنّها مخلوقة لله.

---

(١) اقتباس من كتاب «الإنسان لا يقوم وحده» تأليف كريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي بعنوان (العلم يدعو للإيمان)، من الصفحات ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٧١، ١٥٩، ١٦٠.

وبعدُ، فماذا يمكن أن تكون دوافعهم لعبادة الأوثان التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فما بالك بما تستطيعه للآخرين!؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

والأُصول المهمّة عند الإنسان هي هذه الأمور الخمسة بالذات: النفع والضر، والموت، والحياة، والنشور.

فمن يكن بحق مالكاً أصيلاً لهذه الأُمور، يكن بالنسبة إلينا جديراً بالعبادة.

لكن هذه الأصنام غير قادرة أصلاً على هذه الأُمور لنفسها، فكيف تريد أن توفّر هذه الأمور لمن يعبدها من المشركين؟!

أي منطق مفتضح هذا!؟ أن ينقاد الإنسان ويتذلل على أعتاب موجود لا اختيار له في نفسه، فما بالك باختياره للآخرين!؟

هذه الأوثان ليست عاجزة في الدنيا عن حلِّ مشكلة ما لعبدتها فحسب، بل إنّها لا يؤمل منها شيء في الآخرة أيضاً.

هذا التعبير يدل على أنّ هذه الفئة من المشركين، المخاطبة في هذه الآيات، كانت تقبل بالمعاد نوعاً من القبول (المعاد الروحي لا الجسدي)، أو أنّ القرآن - حتى مع عدم اعتقادهم بمسألة المعاد - يتناول القضية كمسلّمة، فيخاطبهم بشكل قاطع على هذا الصعيد، وهذا مألوف، فالإنسان أحياناً يكون أمام شخص منكر للحقيقة، لكنّه يدلي بكلامه طبقاً لأفكاره هو، دون اعتناء بأفكار ذلك المنكر، خاصّة وأنّ دليلاً ضمنياً على المعاد قد كمن في نفس الآية، لأنّ خالقاً حينما يبتدع مخلوقاً - وهو مالك موته وحياته وضرّه ونفعه - لا بدّ أن يكون له هدف من خلقه، ولايمكن أن يتحقق هذا الهدف فيما يخص الناس بدون الإيمان بالنشور، ذلك لأنّه إذا انتهى بموت الإنسان كل شيء، فسوف تكون الحياة فارغة بلا معنى، وهذا يدلّ على أن ذلك الخالق لم يكن حكيماً.

إذا تأملنا جيداً وجدنا مسألة «الضرر» جاءت في الآية قبل «النفع» وذلك لأن الإنسان ينفر من الضرر بالدرجة الأُولى، ولهذا كانت جملة «دفع الضرر أولى من جلب المنفعة» أحد القوانين العقلائية.

وإذا كان «الضرر» و«النفع» و«الموت» و«الحياة» و«النشور» جاءت بصيغة النكرة، أيضاً، فلأجل بيان هذه الحقيقة، وهي أنّ هذه الأوثان لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، حتى في مورد واحد، فما بالك بالموارد كلها!؟

وإذا ذكرت ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ و﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾ بصيغة «جمع المذكر العاقل» (في حال أنّ هذه الأوثان الحجرية والخشبية ليس لها أدنى عقل أو شعور) فذلك لأنّ هذا الخطاب لا يتعلق بالأوثان الحجرية والخشبية فحسب، بل بالجماعة التي كانت تعبد الملائكة أو المسيح، ولأنّ العاقل وغير العاقل مجتمعان في معنى هذه الجملة، فذكر الجميع بصيغة العاقل من باب «التغليب» كما في الاصطلاح الأدبي.

أو أن الخطاب في هذه العبارة كان طبقاً لاعتقاد المخاطبين به، حتى يثبت عجزهم وعدم استطاعتهم، يعني: إذا كنتم تعتقدون أن هذه الأوثان ذات عقل وشعور، فلماذا لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ضرراً، أو أن تجلب منفعة!؟

الآية التالية - تتناول تحليلات الكفار - أو حججهم على الأصح - في مقابل دعوة النّبي ﷺ، فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

في الواقع، إنّهم من أجل أن يلقوا عن عواتقهم مسؤولية تحمل الحق - شأن كل الذين أصروا على معارضة القادة الربانيين على طول التاريخ - اتهموا الرّسول ﷺ أوّلاً بالافتراء والكذب، خاصّة وأنّهم قد استخدموا لفظة ﴿هَٰذَآ﴾ ليحقروا القرآن.

ثمّ من أجل أن يثبتوا أنّه غير قادر على الإتيان بمثل هذا الكلام - لأنّ الإتيان بمثل هذا الكلام المبين مهما يكن بحاجة إلى قدرة علمية وافرة، وما كانوا يريدون التسليم بهذا - ومن أجل أن يقولوا أيضاً: إنّ هذه خطّة مدبرة ومحسوبة، قالوا: إنّه لم يكن وحده في هذا العمل، بل أعانه قوم آخرون، وهذه مؤامرة بالتأكيد، ويجب الوقوف بوجهها.

بعض المفسّرين قالوا: إنّ المقصود بـ ﴿قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ جماعة من اليهود.

وقال آخرون: إنّ المقصود بذلك ثلاثة نفر كانوا من أهل الكتاب، وهم: «عداس» و«يسار» و«حبر» أو «جبر».

على أية حال - بما أنّ هذه المواضيع لم يكن لها وجود في أوساط مشركي مكّة، وإنّ قسماً منها مثل قصص الأنبياء الأولين كان عند اليهود وأهل الكتاب - فقد كان المشركون مضطرين إلى نسبة هذه المطالب إلى أهل الكتاب كي يخمدوا موجة إعجاب الناس من سماع هذه الآيات.

لكن القرآن يردُّ عليهم في جملة واحدة فقط، تلك هي: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾(١).

«الظلم» هنا لأنّ رجلاً أميناً طاهراً وصادقاً مثل الرّسول الأكرم ﷺ اتّهموه بالكذب والافتراء على الله، وبالاشتراك مع جماعة من أهل الكتاب. فظلموا أنفسهم والناس أيضاً.

و«الزور» هنا أن قولهم لم يكن له أساس مطلقاً، لأنّ النّبي ﷺ دعاهم عدّة مرات إلى الإتيان بسورة وآيات مثل القرآن، فعجزوا وضعفوا أمام هذا التحدي.

وهذا بالذات يدل على أنّ هذه الآيات ليست من صنع عقل البشر، لأنّ الأمر لو كان كذلك، لكانوا يستطيعون بمعونة جماعة اليهود وأهل الكتاب أن يأتوا بمثلها، ومن هنا فإنّ عجزهم دليل على كذبهم، وكذبهم دليل على ظلمهم.

لهذا فالجملة، القصيرة ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ رد بليغ وداحض في مواجهة ادعاءاتهم الواهية.

كلمة «زور» في الأصل من «زَور» (على وزن غور) أخذت بمعنى: أعلى الصدر، ثمّ أطلقت على كل شيء يتمايل عن حدّ الوسط، وبما أن «الكذب» انحرف عن الحق، ومال إلى الباطل، فقد، سمّوه «زوراً».

تتناول الآية التالية لوناً آخر من التحليلات المنحرفة والحجج الواهية للمشركين فيما يتعلق بالقرآن، فتقول: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.

لا شيء عنده من قبل نفسه، لا علم ولا ابتكار، فكيف له بالنّبوة والوحي! إنّه استعان بآخرين، فجمع عدّة من الأساطير القديمة، وأطلق عليها اسم الوحي والكتاب السماوي. وهو يستلهمها من الآخرين طيلة اليوم من أجل الوصول إلى هذا الهدف ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

إنّه يتلقى المعونة لأجل هدفه في الأوقات التي يقلُّ فيها تواجد الناس، أي بكرة وعشياً.

هذا الكلام - في الحقيقة - تفسير وتوضيح للاتهامات التي نقلت عنهم في الآية السابقة، إنّهم في هذه الجملة القصيرة أرادوا أن يفرضوا على القرآن مجموعة من نقاط الضعف:

---

(١) ﴿جَآءُو﴾ من مادة «مجيء»: يراد بها عادة معنى «القدوم»، لكنّها وردت هنا بمعنى «الإتيان»، كما نقرأ أيضاً في الآية (٨١) سورة يونس أن موسى عليه السلام قال للسحرة ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾.

أوّلها: أن ليس في القرآن موضوع جديد مطلقاً، بل مجموعة من الأساطير القديمة.

والثّانية: أنَّ نبي الإسلام لا يستطيع الاستمرار بدعوته - حتى يوماً واحداً - بدون مساعدة الآخرين، فلا بدّ أن يُملوا الموضوعات عليه بكرة وعشياً، وعليه أن يكتبها.

والأُخرى: أنّه يعرف القراءة والكتابة. فإذا قال: إنّني أُمّي، فهي دعوى كاذبة.

إنّهم - في الواقع - كانوا يريدون أن يفرقوا الناس عن النّبي ﷺ بواسطة هذه الأكاذيب والاتهامات، في الوقت الذي يعلم كل العقلاء الذين عاشوا مدّة في ذلك المجتمع، أنّ النّبي ﷺ لم يكن قد درس عند أحد، مضافاً إلى أنّه لم تكن له أية رابطة مع جماعة اليهود وأهل الكتاب، وإذا كان يستلهم من الآخرين كل يوم بكرة وعشياً، فكيف أمكن أن يخفى على أحد؟ فضلاً عن هذا، فإن آيات القرآن كانت تنزل عليه في السفر والحضر، بين الناس ومنفرداً، وفي كل حال.

مضافاً إلى كل هذا، كان القرآن مجموعة من التعليمات الاعتقادية، والأحكام العملية، والقوانين، ومجموعة من قصص الأنبياء، ولم تكن قصص الأنبياء لتشكل كل القرآن، مضافاً إلى أنّ ما ورد من قصص الأقوام الأولين في القرآن لم يكن له شبه لما جاء في العهدين (التوراة والإنجيل) المحرفين، وأساطير العرب الخرافية، لذلك لأنّ ما في العهدين مليء بالخرافات، والقرآن منزّه عنها، ولو وضعنا القرآن والعهدين جنباً إلى جنب، وقايسنا بينهما، فسوف تتجلى حقيقة الأمر جيداً[1].

لذا فالآية الأخيرة تصرح بصيغة الرد على هذه الاتهامات الواهية، فتقول: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. إشارة إلى أن محتوى هذا الكتاب، والأسرار المتنوعة فيه من علوم ومعارف وتاريخ الأقوام الأولين، والقوانين والاحتياجات البشرية، وحتى أسرار عالم الطبيعة والأخبار المستقبلية، تدل على أنّ ليس من صنع ومتناول عقل البشر، ولم ينظّم بمساعدة هذا أو ذاك. بل بعلم الذي هو جدير بأسرار السماء والأرض، والمحيط بكل شيء علماً.

---

(١) يعتقد جماعة من المفسّرين أنّ المراد من جملة ﴿اكْتَتَبَهَا﴾: هو أنّ النّبي ﷺ أراد من الآخرين أن يكتبوا له هذه الآيات، وكذلك، جملة ﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ مفهومها: هو أنّ أُولئك كانوا يلقونها إليه، وكان هو يحفظها، لكنّه مع الالتفات إلى أنّنا لا دليل لدينا على حمل هاتين الجملتين على خلاف الظاهر، يكون التّفسير الذي ورد في المتن هو الأصح، ففي الواقع إنّ أولئك كانوا يريدون أن يتهموا النّبي ﷺ من هذا الطريق، بأنّه يقرأ ويكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أمياً عمداً.

لكن مع كل هذا، فإن القرآن يترك طريق التوبة مفتوحاً أمام هؤلاء المغرضين والمنحرفين، فيقول تبارك وتعالى في ختام الآية ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

فبمقتضى رحمته أرسل الأنبياء، وأنزل الكتب السماوية، وبمقتضى غفوريته سيعفو في ظل الإيمان والتوبة عن ذنوبكم التي لا تحصى.

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ۝١٠﴾

سبب النّزول

في رواية عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أنّه قال: قلت لأبي علي بن محمد عليه السلام: هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجّهم؟ قال: مراراً كثيرة وذلك أنّ رسول الله كان قاعداً ذات يوم بفناء الكعبة، فابتدأ عبد الله بن أبي أمية المخزومي فقال: يا محمد لقد ادّعيت دعوى عظيمة، وقلت مقالاً هائلاً، زعمت أنّك رسول ربّ العالمين، وما ينبغي لربّ العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا، تأكل كما نأكل وتمشي في الأسواق كما نمشي، فقال رسول الله: اللّهمّ أنت السامع لكل صوت، والعالم بكلّ شيء، تعلم ما قاله عبادك فأنزل الله عليه: يا محمد: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾(١).

التّفسير

لِمَ لا يملك هذا الرّسول كنوزاً وجنات؟!

استعرض القرآن في الآيات السابقة قسماً من إشكالات الكفّار فيما يخص نزول

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦.

القرآن المجيد، وأجاب عليها، ويعرض في هذه الآيات قسماً آخر يتعلق بشخص الرّسول ﷺ ويجيب عنها، فيقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

ما هذا النّبي الذي يحتاج إلى الغذاء كغيره من الأفراد العاديين؟ ويمشي في الأسواق من أجل الكسب والتجارة وشراء احتياجاته؟ فليست هذه سيرة الرسل ولا طريقة الملوك والسلاطين! وفي الوقت الذي يريد هذا الرّسول التبليغ بالدعوة الإلهيّة، ويريد أيضاً السلطنة على الجميع!

لقد كان المشركون يرون أنّه لا يليق بذوي الشأن الذهاب إلى الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ينبغي أن يرسلوا خدمهم ومأموريهم من أجل ذلك.

ثمّ أضافوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾، فلِمَ لم يُرسل إليه - على الأقل - ملك من عند الله، شاهد على صدق دعوته، وينذر معه الناس!؟

حسن جداً، لنفرض أنّنا وافقنا على أن رسول الله يمكن أن يكون إنساناً، ولكن لماذا يكون فقيراً فاقداً للثروة والمال!؟ ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

ولم يكتفوا بهذا أيضاً، فقد اتهموه آخر الأمر بالجنون بما ابتنوه من استنتاج خاطىء، كما نقرأ في ختام هذه الآية نفسها ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾. ذلك أنّهم كانوا يعتقدون أنّ السحرة يستطيعون أن يتدخلوا في فكر وعقول الأفراد فيسلبونهم قوام عقولهم!

من مجموع الآيات أعلاه، يستفاد أنّ المشركين كانت لديهم عدّة إشكالات واهية حول الرّسول ﷺ، وكانوا يتنازلون عن مقالتهم مرحلة بعد مرحلة.

أوّلاً: إنّه أساساً يجب أن يكون ملكاً، وهذا الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ليس ملكاً بالضرورة.

ثمّ قالوا: حسن جدّاً، إن لم يكن ملكاً، فيرسل الله - على الأقل - ملكاً يرافقه ويعينه.

ثمّ تنازلوا عن هذا أيضاً، فقالوا: لنفرض أنّ رسول الله بشر، فينبغي أن يُلقى إليه كنز من السماء، ليكون دليلاً على أنّه موضع اهتمام الله.

وقالوا في نهاية المطاف: لنفرض أنّه لم يكن له أيٌّ من تلك الميزات، فينبغي على الأقل ألا يكون إنساناً فقيراً، فليكن كأي مزارع مرفه، له بستان يضمن منه معيشته. لكنّه فاقد لكلّ هذا مع الأسف، ويقول إنّني نبيّ!؟

واستنتجوا في الختام، أنّ ادعاءه الكبير هذا، في مثل هذه الشرائط، دليلٌ على أن ليس له عقل سليم.

الآية التالية تبيّن جواب جميع هذه الإشكالات في عبارة موجزة: ﴿أَنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

هذه العبارة الموجزة أداء بليغ عن هذه الحقيقة، فهم من خلال مجموعة من الأقوال الواهية التي لا أساس لها وقفوا أمام دعوة الحق والقرآن - الذي محتواه شاهد ناطق على ارتباطه بالله - ليخفوا وجه الحقيقة.

حقّاً، إن مثلهم كمثل من يريد أن يقف أمام استدلالاتنا المنطقية من خلال حفنة من الحجج، الواهية فنقول من دون الإجابة عليها بالتفصيل: انظر بأية ادّعاءات واهية يريدون أن يقفوا معها أمام الدليل المنطقي.

وهكذا كانت أقوالهم في جميع مواردها، لأن:

أوّلاً: لماذا يجب أن يكون الرّسول من جنس الملائكة؟ بل ينبغي أن يكون قائد البشر منهم، كما يحكم به العقل والعلم، حتى يدرك جميع آلام ورغبات وحاجات ومشكلات ومسائل حياة الإنسان تماماً، ليكون قدوة عملية له على كل المستويات، وحتى يستلهم الناس منه في جميع المناهج، ومن المسلّم أنّ تأمين هذه الأهداف لم يكن ليتحقق لو كان من الملائكة، ولقال الناس إذا حدثهم عن الزهد وعدم الاهتمام بالدنيا: إنّه ملك، وليست له حاجات مادية تجرّه إلى الدنيا وإذا دعا إلى الطهارة والعفة لقال الناس: إنّه لا يدري ما عاصفة الغريزة الجنسية، وعشرات (إذا) مثل تلك.

ثانياً: ما ضرورة أن ينزل ملك ليرافق بشراً من أجل تصديقه؟ أفليست المعجزات كافية لإدراك هذه الحقيقة، وخاصّة معجزة عظيمة كالقرآن!

ثالثاً: أكل الطعام كسائر الناس، والمشي في الأسواق يكون سبباً للاندماج بالناس أكثر، والغوص في أعماق حياتهم، ليؤدّي رسالته بشكل أفضل.

رابعاً: عظمة الرّسول وشخصيته مردهما ليس إلى الكنز والنفائس ولا بساتين النخيل والفواكه الطازجة، هذا نمط تفكير الكفار الذي يعتبر أنّ المكانة - وحتى القرب من الله - في الأثرياء خاصّة، في حال أنّ الأنبياء جاؤوا ليقولوا: أيّها الإنسان، إنّ قيمة وجودك ليست بهذه الأشياء، إنّها بالعلم والتقوى والإيمان.

خامساً: بأي مقياس كانوا يعتبرونه «مسحوراً» أو «مجنوناً»؟ الشخص الذي كان عقله

معجزاً بشهادة تأريخ حياته وانقلابه العظيم وتأسيسه الحضارة الإسلامية، كيف يمكن اتهامه بهذه التهمة المضحكة؟ أيصح أن نقول إن تحطيم الأصنام ورفض الاتباع الأعمى للأجداد دليل على الجنون؟!

اتضح بناءً على ما قلناه أنّ ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ هنا، خاصّة مع القرائن الموجودة في الآية، بمعنى الأقوال الفارغة الواهية، ولعل التعبير عنها بـ ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ بسبب أنّهم يلبسونها لباس الحق فكأنّها مثله، وأقوالهم مثل الأدلة المنطقية، في حال أنّها ليست كذلك واقعاً[(١)].

وينبغي أيضاً الالتفات إلى هذه النكتة، وهي أنّ أعداء النّبي ﷺ كانوا يتهمونه - بـ «الساحر» وأحياناً بـ «المسحور» وإن كان بعض المفسّرين قد احتمل أن «المسحور» بمعنى «الساحر» (لأن اسم المفعول يأتي بمعنى اسم الفاعل أحياناً) ولكن الظاهر أن بينهما فرقاً.

عندما يقال عنه بأنّه ساحر، فلأن كلامه كان ذا نفوذ خارق في القلوب، ولأنّهم ما كانوا يريدون الإقرار بهذه الحقيقة، فقد لجأوا إلى اتهامه بـ «الساحر».

أمّا «المسحور» فمعناه أن السحرة تدخّلوا في عقله وتصرفوا به، وعملوا على اختلال حواسه، هذا الاتّهام نشأ من أنّ الرّسول كان محطماً لسنّتهم، ومخالفاً لعاداتهم وأعرافهم الخرافية، وقد وقف في وجه مصالحهم الفردية.

أمّا جواب جميع هذه الاتهامات فقد اتضح من الكلام أعلاه.

وهنا يأتي هذا السؤال، وهو أنّه لماذا قال تعالى: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

الجواب هو أنّ الإنسان يستطيع أن يكتشف الطريق إلى الحق بصورة ما، إذا كان مريداً للحق باحثاً عنه، أمّا من يتخذ موقفه - ابتداءً - على أساس أحكام مسبّقة خاطئة ومضلّة، نابعة من الجهل والتزمت والعناد، فمضافاً إلى أنّه لا يعثر على الحق، فإنّه سيتخذ موقعه ضد الحق دائماً.

الآية الأخيرة مورد البحث - كالآية التي قبلها - توجّه خطابها إلى النّبي ﷺ على

---

(١) كثير من المفسّرين اعتبروا ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ هنا بمعنى (التشبيهات) لكنّهم لم يوضحوا هنا ما هي التشبيهات التي قدمها المشركون، وبعض آخر اعتبر ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ هنا بمعنى (الصفات)، لأن أحد معاني (المثل) - طبقاً لما قاله الراغب في المفردات هو (الصفة)، فالمقصود هنا هي الصفة الواهية التي لا أساس لها، ذلك لأن ما في صدر وذيل الآية القرآنية أعلاه يدل على هذا المعنى، فمن جانب يقول بعنوان التعجب: انظر آية أمثال ضربوا؟ ومن جانب آخر يقول: الاوصاف التي تؤدّي إلى ضلالهم الذي لا هداية بعده.

سبيل تحقير مقولات أُولئك، وأنّها لا تستحق الإجابة عليها، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

وإلاّ، فهل أحدٌ غير الله أعطى الآخرين القصور والبساتين؟ من غير الله خلق جميع هذه النعم والجمال في هذا العالم؟ تُرى أيستحيل على الله القادر المنّان أن يجعل لك أفضل من هذه القصور والبساتين؟!

لكنّه لا يريد أبداً أن يعتقد الناس أنّ مكانتك مردُّها المال والثروة والقصور، ويكونون غافلين عن القيم الواقعية، إنّه يريد أن تكون حياتك كالأفراد العاديين والمستضعفين والمحرومين، حتى يمكنك أن تكون ملاذاً لجميع هؤلاء ولعموم الناس.

أمّا لماذا يقول قصوراً وبساتين أفضل ممّا أراده أُولئك؟ فلأن «الكنز» وحده ليس حلاّل المشاكل، بل ينبغي بعد مزيد عناء أن يستبدل بالقصور والبساتين، مضافاً إلى أنّهم كانوا يقولون: ليكن لك بستان يؤمن معيشتك، أمّا القرآن فيقول: إنّ الله قادر على أن يجعل لك قصوراً وبساتين، لكن الهدف من بعثتك ورسالتك شيء آخر.

ورد في «الخطبة القاصعة» من «نهج البلاغة» بيان معبر وبليغ: هنالك حيث يقول الإمام عليه السلام: «... ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون عليه السلام على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرطا له إنْ أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلاّ أُلقي عليهما أساورة من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه. ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذُّهبان، ومعادن العقيان، ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء، واضمحلت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحق المؤمنون ثواب المحسنين، ولالزمت الأسماء معانيها، ولكن الله سبحانه جعل رسله أُولي قوّة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنىً، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذىً.

ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا تُرام وعزّة لا تُضام، وملك تمتد نحوه أعناق الرجال، وتشدُّ إليه عُقد الرحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيّاتُ مشتركة والحسنات مقتسمة، ولكن الله سبحانه أراد أن يكون الاتباع لرسله والتصديق بكتبه

والخشوع لوجهه والاستكانة لأمره والاستسلام لطاعته، أموراً له خاصّة لا تشوبها من غيرها شائبة. وكلما كانت البلوى والاختبار أعظم كانت المثوبة والجزاء أجزل»(١).

والجدير بالذكر أنّ البعض يرى بأنّ المراد بالجنّة والقصور، جنّة الآخرة قصورها، لكن هذا التّفسير لا ينسجم مع ظاهر الآية بأي وجه(٢).

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾﴾

التّفسير

مقارنة بين الجنّة والنار

في هذه الآيات - على أثر البحث في الآيات السابقة حول انحراف الكفّار في مسألة التوحيد والنّبوة - يتناول القرآن الكريم قسماً آخر من انحرافاتهم في مسألة المعاد، ويتّضح مع بيان هذا القسم أنّهم كانوا أسارى التزلزل والانحراف في تمام أصول الدين، في التوحيد، وفي النبوة، وفي المعاد، حيث ورد القسمان الأولان منه في الآيات السابقة، ونقرأ الآن القسم الثالث:

يقول تعالى أوّلاً: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾.

وبما أنّ كلمة ﴿بَلْ﴾ تستعمل لأجل «الإضراب» فيكون المعنى: أن ما يقوله أُولئك الكفار على صعيد نفي التوحيد والنبوة، إنّما ينبع في الحقيقة من إنكارهم المعاد، ذلك أنّه إذا آمن الإنسان بهكذا محكمة عظمى وبالجزاء الإلهي، فلن يتلقى الحقائق بمثل هذا

(١) «الخطبة القاصعة»، الخطبة ١٩٢ نهج البلاغة.

(٢) وكذلك الذين قالوا: إنّ المقصود هو جنات الدنيا وقصور الآخرة، فالفعلان الماضي والمضارع (جعل ويجعل) اللذان في الآية، ينبغي ألا يكونا باعثاً على هكذا وهم أيضاً، لأنّنا نعلم طبقاً لقواعد الأدب العربي، أن الأفعال في الجملة الشرطية تفقد مفهومها الزماني (جوامع الجامع، ج٢، ص٢٦).

الاستهزاء واللامبالاة، ولن يتذرع بالحجج الواهية ضد دعوة النّبي وبراهينه الظاهرة، ولن يتذلل أمام الأصنام التي صنعها وزينّها بيده.

لكن القرآن هنا لم يتقدم برد استدلالي، ذلك لأنّ هذه الفئة لم تكن من أهل الاستدلال والمنطق، بل واجههم بتهديد مخيف وجسد أمام أعينهم مستقبلهم المشؤوم والأليم، فهذا الأسلوب قد يكون أقوى تأثيراً لمثل هؤلاء الأفراد يقول أوّلاً: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾(١).

ثمّ وصف هذه النار المحرقة وصفاً عجيباً، فيقول تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾.

في هذه الآية، تعبيرات بليغة متعددة، تخبر عن شدّة هذا العذاب الإلهي:

١ - إنّه لا يقول: إنّهم يرون نار جهنم من بعيد، بل يقول: إنّ النار هي التي تراهم - كأن لها عيناً وأُذناً - فسمّرت عينها على الطريق بانتظار هؤلاء المجرمين.

٢ - إنّها لا تحتاج إلى أن يقترب أولئك المجرمون منها، حتى تهيج، بل إنّها تزفر من مسافة بعيدة.. من مسافة مسيرة عام، طبقاً لبعض الروايات.

٣ - وصفت هذه النار المحرقة بـ «التغيظ» وذلك عبارة عن الحالة التي يعبّر بها الإنسان عن غضبه بالصراخ والعويل.

٤ - إن لجهنم «زفيراً» يعني كما ينفث الإنسان النفس من الصدر بقوّة، وهذا عادة في الحالة التي يكون الإنسان مغضباً جدّاً.

مجموع هذه الحالات يدل على أنّ نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمين كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير بالله».

هذه حال جهنم حينما تراهم من بعيد، أمّا حالهم في نار جهنم فيصفها تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾(٢).

هذا ليس لأنّ جهنم صغيرة، فإنّه طبقاً للآية ٣٠ من سورة ق ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ

---

(١) «سعير» من «سَعْر» على وزن «قعر» بمعنى التهاب النار، وعلى هذا يقال للسعير: النار المشتعلة والمحيطة والمحرقة.

(٢) ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ من «قرن» بمعنى قرب واجتماع شيئين أو أكثر مع بعضهما، ويقولون للحبل الذي يربطون به الأشياء «قرن»، ويقولون أيضاً لمن تقيد يده ورجله مع بعضهما بالغل والسلاسل «مقرّن» (من أجل توضيح أكثر في المسألة راجع آخر الآية (٤٩) من سورة إبراهيم).

﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ فهي مكان واسع، لكن أُولئك يُحصَرون مكاناً ضيقاً في هذا المكان الواسع، فهم «يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط»(١).

كما أنّ كلمة «ثبور» في الأصل بمعنى «الهلاك والفساد»، فحينما يجد الإنسان نفسه أمام شيء مخيف ومهلك، فإنّه يصرخ عالياً «واثبورا» التي مفهومها ليقع الموت عليّ.

لكنّهم يجابون عاجلاً ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

على أية حال، فلن تنفعكم استغاثتكم في شيء، ولن يكون ثمّة موت أو هلاك، بل ينبغي أن تظلوا أحياء لتذوقوا العذاب الأليم.

هذه الآية في الحقيقة تشبه الآية (١٦) من سورة الطور حيث يقول تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

مَن هو المتكلم مع الكافرين ها هنا؟ القرائن تدل على أنّهم ملائكة العذاب، ذلك لأنّ حسابهم مع هؤلاء.

وأمّا لماذا يقال لهم هنا: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾؟ ربّما كان ذلك لأنّ عذابهم الأليم ليس مؤقتاً فينتهي بقول (واثبورا) واحداً، بل ينبغي أن يرددوا هذه الجملة طيلة هذه المدّة، علاوة على أنّ العقوبات الإلهيّة لهؤلاء الظالمين المجرمين متعددة الألوان، حيث يرون الموت أمام أعينهم إزاء كل مجازاة، فتعلو أصواتهم بـ(واثبورا)، فكأنّهم يموتون ثمّ يحيون وهكذا.

ثمّ يوجّه الخطاب إلى الرّسول ﷺ، ويأمره أن يدعو أُولئك إلى المقايسة، فيقول تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾.

تلك الجنّة التي ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾.

تلك الجنّة التي سيبقون فيها أبداً ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

أجل، إنّه وعد الله الذي أخذه على نفسه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾.

هذا السؤال، وطلب هذه المقايسة، ليس لأنّ أحداً لديه شك في هذا الأمر، وليس لأن تلك العذابات الأليمة المهولة تستحق الموازنة والمقايسة مع هذه النعم التي لا نظير لها، بل إنّ هذا النوع من الأسئلة والمطالبة بالمقارنة لأجل إيقاظ الضمائر الهامدة، حيث تجعلها أمام أمر بديهي واحد، وعلى مفترق طريقين:

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٦٣، ذيل الآية مورد البحث.

فإذا قالوا في الجواب: إنّ تلك النعم أفضل وأعظم (وهو ما سيقولونه حتماً) فقد حكموا على أنفسهم بأنّ أعمالهم خلاف ذلك. وإذا قالوا: إنّ العذاب أفضل من هذه النعمة، فقد وقّعوا على وثيقة جنونهم، وهذا يشبه ما إذا حذرنا شاباً ترك المدرسة والجامعة بقولنا: اعلم أنّ السجن هو مكان الذين فروا من العلم ووقعوا في أحضان الفساد، ترى السجن أفضل أم الوصول إلى المقامات الرفيعة!؟

ملاحظات:

١ - ينبغي الالتفات أوّلاً إلى هذه النكتة، وهي الآيات الكريمة وصفت الجنّة بالخلود تارةً وصفة لأهل الجنّة تارةً أُخرى، ليكون تأكيداً على هذه الحقيقة، وهي كما أنّ الجنّة خالدة، فكذلك ساكنوها.

٢ - قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ جاءت في مقابل حال الجهنميين في الآية (٤٥) من سورة سبأ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾.

٣ - التعبير بـ «مصير» بعد كلمة «جزاء» بالنسبة إلى الجنّة، كله تأكيد على ما يدخل في مفهوم الجزاء، وهو بجميعه نقطة مقابلة إزاء مكان أهل النّار، حيث ورد في الآيات السابقة أنّهم يلقون في مكان ضيق محدود مقرنين بالأصفاد.

٤ - قوله تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ إشارة إلى أنّ المؤمنين كانوا في أدعيتهم يطلبون من الله الجنّة وجميع نعمها، فهم السائلون، والله «المسؤول منه» كما نقرأ قول المؤمنين في الآية (١٩٤) من سورة آل عمران ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ...﴾، لسان حال جميع المؤمنين أيضاً، إنّهم يطلبون هذا الطلب من الله، لأنّ لسان حال كل من يطيع أمره تبارك وتعالى أن يطلب ذلك.

والملائكة كذلك يسألون الله الجنّة والخلود للمؤمنين، كما نقرأ في الآية (٨) من سورة المؤمن: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ...﴾.

ويوجد هنا تفسير آخر، وهو أنّ كلمة ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ تأكيد على هذا الوعد الإلهي، الحتمي، يعني أنّ هذا الوعد على قدر عظيم من القطع بحيث إنّ المؤمنين يستطيعون أن يطالبوا الله به، وهذا يشبه ما إذا أعطينا وعداً لأحد، وأعطيناه - في الضمن - الحقّ في أن يطالبنا به.

قطعاً لا يوجد أي مانع من أن تجتمع كل هذه المعاني في المفهوم الواسع لـ ﴿مَّسْـُٔولًا﴾.

٥ - بالالتفات إلى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ قد يطرح لدى البعض هذا السؤال: إذا أخذنا في الاعتبار المفهوم الواسع لهذه العبارة، فنتيجة هذا أنّ أهل الجنّة إذا أرادوا مثلاً مقام الأنبياء والأولياء يعطى لهم، أو إذا طلبوا نجاة أقربائهم وأصدقائهم المذنبين المستحقين لجهنم، يعطون سؤلهم، وما سوى هذه الرغبات؟!

ويتّضح الجواب مع الالتفات إلى هذه النكتة، وهو أنّ الحجب تزول عن أعين أهل الجنّة فيدركون الحقائق جيداً، ويتّضح تناسبها في نظرهم كاملاً، إنّهم لا يخطر ببالهم أبداً أن يطلبوا من الله طلبات كهذه، وهذا يشبه تماماً أن نطلب في الدنيا من طفل في الابتدائية أن يكون أُستاذاً في الجامعة، أو أن يكون لصّ مجرم قاضيَ محكمة... ترى هل تخطر مثل هذه الأُمور في فكر أي عاقل في الدنيا!؟ وفي الجنّة أيضاً كذلك، فضلاً عن هذا فإنّ كلّ إرادتهم في طول إرادة الله، وإنّ ما يريدونه هو ما يريده الله.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

المحاكمة بين المعبودين وعبدتهم الضالين

كان الكلام في الآيات السابقة حول مصير كل من المؤمنين والمشركين في القيامة وجزاء هذين الفريقين، وتواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبيّن السؤال الذي يسأل الله عنه معبودي المشركين في القيامة وجوابهم، على سبيل التحذير، فيقول تعالى: واذكر يوم يحشر الله هؤلاء المشركين وما يعبدون من دون الله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

فيسأل المعبودين: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾.

ففي الإجابة: ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

فليس فقط أنّنا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل إنّنا كنّا نعترف بولايتك وربوبيتك، ولم نقبل غيرك معبوداً لنا ولغيرنا.

وكان سبب انحراف أولئك هو: أنّ الله تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا ونعيمها فتمتعوا هم وآباؤهم وبدلاً من شكر الله تعالى غرقوا في هذه الملذات ونسوا ذكر الله: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ ولهذا هلكوا واندثروا ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

هنا يوجّه الله تبارك وتعالى الخطاب إلى المشركين فيقول: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾.

لأنّ الأمر هكذا، وكنتم أنتم قد أضللتم أنفسكم فليس لديكم القدرة على دفع العذاب عنكم: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

لا شك أنّ «الظلم» له مفهوم واسع، ومع أنّ موضوع البحث في الآية هو «الشرك» الذي هو أحد المصاديق الجلية للظلم، إلاّ أنّه لا يقدح بعمومية المفهوم.

والملفت للنظر أن «من يظلم» جاءت بصيغة الفعل المضارع، وهذا يدل على أنّ القسم الأوّل من البحث وإن كان مرتبطاً بمناقشات البعث، لكن الجملة الأخيرة خطاب لهم في الدنيا، لعل قلوب المشركين تصبح مستعدة لقبول الإيمان على أثر سماعها محاورات العابدين والمعبودين في القيامة، فيحوّل الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾(١).

مسائل مهمة

١ - من هم المقصودون بالمعبودين هنا!؟

في الإجابة على هذا السؤال، هناك تفسيران بين المفسّرين المعروفين:

أوّلاً: أن يكون المقصود بالمعبودين إنساناً (مثل المسيح) أو شيطاناً (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث إنّ كلّ واحد منها كان قد اتخذه فريق من المشركين معبوداً لهم، ولأنّهم أهل عقل وشعور وإدراك، فيمكنهم أن يكونوا موضع الاستنطاق والمحاسبة،

(١) ويحتمل أن تكون الجملة الأخيرة استمراراً لمحاورة الله مع المشركين في القيامة، ولا يضرّ كون الفعل مضارعاً، لأنّ جملة ﴿وَمَن يَظْلِم...﴾ ذكرت بصورة قانون عام (جملة شرطية)، ونعلم أنّ الأفعال في الجملة الشرطية تفقد مفهومها الزماني، وتبقى وحدة الارتباط بين الشرط وجوابه معتبرة.

ولإتمام الحجة، ولإثبات كذب المشركين الذين يقولون: إنّ هؤلاء دعونا لعبادتهم! فهم يسألون عمّا إذا كان هذا الادعاء صحيحاً؟ ولكنّهم يكذبون ادعاء المشركين بصراحة!

التّفسير الثّاني: الذي ذكره جمع من المفسّرين هو أنّ الله يمنح الأصنام في ذلك اليوم نوعاً من الحياة والإدراك والشعور، بالشكل الذي تستطيع فيه أن تكون موضع المحاسبة، لينطقوا بالجواب اللازم: إلهنا، نحن ما أضللنا هؤلاء، بل هم أنفسهم ضلوا بسبب انغماسهم في الشهوات والغرور.

وهناك الاحتمال آخر، وهو أنّ المقصود يشمل جميع المعبودين، سواء كانوا ذوو عقل وشعور يخبرون بألسنتهم عن الوقائع، أم لم يكونوا من أهل العقل والشعور، حيث يعكسون الحقيقة أيضاً، بلسان حالهم.

ولكن القرائن الموجودة في الآية تتفق أكثر مع التّفسير الأوّل، ذلك لأنّ الأفعال والضمائر تدل جميعها على أن طرف المحاورة هم أصحاب عقل وشعور، وهذا يتناسب مع معبودين كالمسيح والملائكة وأمثالهم.

إضافة إلى أنّ قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم . . .﴾ يُظهر أنّ المشركين قد ادّعوا من قبل أنّ هؤلاء المعبودين قد أضلونا ودعونا لعبادتهم، وبعيد أن يكون المشركون قد ادعوا هذا بالنسبة إلى الأصنام الحجرية والخشبية، لأنّهم - كما ورد في قصة إبراهيم - كانوا على يقين بأنّ الأصنام لا تتكلم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[1].

في حين أنّنا نقرأ مثلاً بالنسبة إلى المسيح عليه السلام في الآية (١١٦) من سورة المائدة: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؟!

ومن المسلّم أنّ ادعاء المشركين وعبدة الأصنام كان واهياً وبلا أساس، فأُولئك لم يدعوهم إلى عبادة أنفسهم.

الملفت هو أنّ المعبودين لم يقولوا في الجواب: إلهنا، ما دعوناهم إلى عبادة أنفسنا، بل يقولون: نحن ما اتّخذنا لأنفسنا غيرك معبوداً، يعني في الوقت الذي نحن نعبدك وحدك، فمن الأُولى أنّنا لم ندعهم إلى أحد غيرك، خاصّة وأنّ هذا الكلام يقترن مع ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ ومع ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ التي تكشف عن غاية أدبهم، وتأكيدهم على التوحيد.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

٢ - دافع الانحراف عن أصل التوحيد

المهم هو أنّ المعبودين يعدّون العامل الأصلي لانحراف هذا الفريق من المشركين هو (الحياة المرفهة) لهم، ويقولون، إلهنا، متّعتَ هؤلاء وآباءَهم من نعم هذه الحياة، وهذا هو بالذات كان سبب نسيانهم، فبدلا من أن يعرفوا واهب هذه النعم فيشكرونه ويطيعونه، توغلوا في دوامة الغفلة والغرور.

فالحياة المرفهة لجماعة ضيقةِ الأفق، ضعيفة الإيمان، تبعث على الغرور من جهة، ذلك لأنّهم في الوقت الذي ينالون النعم الكثيرة، ينسون أنفسهم وينسون الله، حتى أنّ فرعون كان يطبّل أحياناً ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾ .

ومن جهة أُخرى، فإنّ هؤلاء الأفراد يميلون إلى التحرر من كل القيود التي تعيقهم في ملذّاتهم من قبيل الحلال والحرام، والمشروع واللامشروع وتمنعهم من الوصول إلى أهدافهم، ولهذا فهم لا يريدون أن يخضعوا أمام القوانين والمقررات الدينية، ولا أن يقبلوا بيوم الحساب والجزاء.

وهكذا نجد أنّ أتباع دين الله وتعليمات الأنبياء قليلٌ في أوساط المرفهين دائماً ولكن المستضعفين هم الأتباع الصامدون والمحبّون الأوفياء للدين والمذهب.

إنّ هذا الكلام له استثناءات في كلا الطرفين قطعاً، ولكن أكثرية كلّ من الفريقين هم كما قلنا.

وممّا تتضمنه الآية أعلاه، أنّها لم تركز على رفاهية حياتهم فقط، بل ركزت على رفاهية حياة آبائهم أيضاً، ذلك لأنّ الإنسان حينما ينشأ على الدلال والنعمة فإنّه سوف يرى فارقاً وامتيازاً بينه وبين الآخرين، ولن يكون مستعداً لفقد المنافع المادية والحياة المرفهة بسهولة.

في حين أنّ التقيد بأمر الله، وبتعاليم الدين يحتاج إلى الإيثار، وأحياناً إلى الهجرة، ويحتاج حتى إلى الجهاد والشهادة، وأحياناً إلى التعاطي مع أنواع المحروميات، وعدم التسليم للعدو، وهذه الأُمور نادراً ما تتوافق مع مزاج المرفهين، إلاّ إذا كانت نفوسهم أرفع من حياتهم المادية، فإذا توفرت يوماً ما شكروا الله، وإلاّ فلن يتزلزلوا ولن ينزعجوا، وبعبارة أُخرى: إنّهم حاكمون على حياتهم المادية غير محكومين لها، أمراء عليها لا أسارى عندها.

ويستفاد أيضاً من التوضيح أنّ المقصود من قوله تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱلذِّكۡرَ﴾ نسيان ذكر

الله، حيث ورد مكان ذلك في الآية (١٩) من سورة الحشر ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أو نسيان يوم القيامة ومحكمة العدل الإلهي، كما جاء في الآية (٢٦) سورة ص ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أو نسيان كل منهما، وجميع التعاليم الإلهية.

٣ - كلمة «بور»

«بور» من مادة «بوار» وهي في الأصل بمعنى شدّة كساد الشيء، ولأنّ شدّة الكساد تبعث على الفساد، كما جاء في المثل العربي «كسد حتى فسد»، فهذه الكلمة بمعنى الفساد، ثمّ أُطلقت بعد هذا على الهلاك، ولهذا يقولون للأرض الخالية من الشجر والورد والنبات، والتي هي في الحقيقة فاسدة وميتة كلمة «بائر».

وعلى هذا فإنّ قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ إشارة إلى أنّ هذا الفريق على أثر انغماسهم في الحياة المادية المرفهة، ونسيانهم الله واليوم الآخر، صاروا إلى الفساد والهلكة، وصارت أراضي قلوبهم كالصحراء جافة وبائرة، وأُخليت من أزاهير ملكات القيم الإنسانية، وفواكه الفضيلة والحياة المعنوية.

مطالعة حال الأُمم الغرقى في الدلال والنعمة اليوم، الغافلة عن الله وعن الخلق، توضح عمق معنى هذه الآية في كيفية غرق هذه الأُمم في بحر الفساد الأخلاقي، وكيف اجتثت الفضائل الإنسانية من أرض وجودهم البائرة(١).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

سبب النّزول

أورد جماعة من المفسّرين وأصحاب السير كابن إسحاق في سيرته في سبب نزول هذه الآية: «أن سادات قريش «عتبة بن ربيعة» وغيره اجتمعوا معه ﷺ فقالوا: يا محمد، إن كنت تحبّ الرياسة ولّيناك علينا، وإن كنت تحبّ المال جمعنا لك من

(١) تعتبر بعض المصادر أنّ كلمة «بور» تأتي بمعنى اسم الفاعل، وتأتي واحدة في المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، وبعض يعدها جمع «بائر».

أموالنا، فلما أبى رسول الله ﷺ عن ذلك، رجعوا في باب الاحتجاج معه فقالوا: ما بالك وأنت رسول الله تأكل الطعام، وتقف بالأسواق! فعيّروه بأكل الطعام، لأنّهم أرادوا أن يكون الرّسول ملكاً، وعيّروه بالمشي في الأسواق حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك والجبابرة يترفعون عن الأسواق، وكان ﷺ يخالطهم في أسواقهم، ويأمرهم وينهاهم، فقالوا: هذا يريد أن يتملك علينا، فما له يخالف سيرة الملوك؟ فأجابهم الله بقوله، وأنزل على نبيّه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فلا تغتم ولا تحزن، فإنّها شكاة ظاهرٌ عنك عارُها»[1].

التّفسير

هكذا كان جميع الأنبياء

في عدّة آيات سابقة وردت واحدة من ذرائع المشركين بهذه الصيغة: لماذا يأكل رسول الله الطعام، ويمشي في الأسواق؟ وأجيب عليها بجواب إجمالي ومقتضب، أمّا الآية مورد البحث فتعود إلى نفس الموضوع لتعطي جواباً أكثر تفصيلاً وصراحة، فيقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فقد كانوا من البشر ويعاشرون الناس، وفي ذات الوقت ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ وامتحاناً.

وهذا الامتحان، قد يكون بسبب أنّ اختيار الأنبياء من جنس البشر ومن أوساط الجماهير المحرومة هو امتحان عظيم بذاته، لأنّ البعض يأبون أن ينقادوا لمن هو من جنسهم، خاصّة إذا كان في مستوىً واطىء من حيث الإمكانات المادية، وهم في مستوى عال مادياً، أو أن أعمارهم أكبر، أو أنّهم أكثر شهرة في المجتمع.

ويرد احتمال آخر في المراد بالفتنة، وهو أنّ الناس عموماً بعضهم لبعض فتنة، ذلك أنّ المتقاعدين والعجزة والمرضى والأيتام والمزمنين فتنة للأقوياء والأصحاء السالمين، وبالعكس، فإنّ الأفراد الأصحاء الأقوياء فتنة للضعفاء والعجزة.

---

(١) وإن كان قد جاء مضمون الرواية أعلاه في كثير من التفاسير، ولكن ما ذكرناه أعلاه مطابق للرواية التي أوردها القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ج ٧، ص ٤٧٢١.

تُرى هل أنّ الفريق الثّاني راضٍ برضا الله! أم لا؟

وهل أن الفريق الأوّل يؤدّي مسؤوليته وتعهده إزاء الفريق الثّاني، أم لا؟!

من هنا، لا تقاطع بين هذين التّفسيرين فمن الممكن أن يجتمع كلاهما في المفهوم الواسع للآية في أنّ الناس بعضهم لبعض فتنة.

وعلى أثر هذا القول، جعل الجميع موضع الخطاب فقال تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾؟

ذلك لأنّ أهم ركن للنجاح في جميع هذه الامتحانات هو الصبر والاستقامة والشجاعة... الصبر والاستقامة أمام خيالات الغرور الذي يمنع من قبول الحق... الصبر والاستقامة أمام المشكلات الناشئة من المسؤوليات وأداء الرسالات، وكذلك الجلد أمام المصائب والحوادث الأليمة التي لا تخلو منها حياة الإنسان على كل حال.

والخلاصة: أنّ من الممكن اجتياز هذا الامتحان الإلهي العظيم بقوّة الاستقامة والصبر(١).

ويقول تعالى في ختام الآية بصيغة التحذير: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ فينبغي ألا يتصور أحد أن شيئاً من تصرفاته حيال الاختبارات الإلهيّة يظل خافياً ومستوراً عن عين الله وعلمه الذي لا يخفى عليه شيء. إنّه يراها بدقة ويعلمها جميعاً.

سؤال

يرد هاهنا استفسار، وهو أن ردّ القرآن على المشركين في الآيات أعلاه قائم على أنّ جميع الأنبياء، كانوا من البشر، وهذا لا يحلّ المشكلة، بل يزيد من حدّتها، ذلك أن من الممكن أن يعمموا إشكالهم على جميع الأنبياء.

والجواب

إنّ الآيات القرآنية المختلفة تدلّ على أن إشكالهم على شخص النّبي ﷺ، وكانوا يعتقدون أنّه اتخذ لنفسه وضعاً خاصاً به، ولهذا كانوا يقولون: ما لهذا الرّسول...

يقول القرآن في جوابهم: ليس هذا منحصراً بالرّسول الأعظم ﷺ أن يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فجميع الأنبياء كانت لهم مثل هذه الأوصاف، وعلى فرض أنّهم سيعمّمون هذا الإشكال على جميع الأنبياء، فقد أعطى القرآن جوابهم أيضاً حيث

---

(١) من أجل توضيح أكثر في مسألة الاختبارات الإلهيّة، والغاية من هذه الاختبارات وسائر أبعاد ذلك، بحثنا ذلك بشكل مفصّل في ذيل الآية (١٥٥) من سورة البقرة.

يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾(١) «كي يستطيع أن يكون أسوة وأنموذجاً للناس في كل مجالات». إشارة إلى أنّ الإنسان فقط يستطيع أن يكون مرشداً للإنسان، فهو الواقف على جميع حاجاته ورغباته ومشكلاته ومسائله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ
مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

التّفسير

الادعاءات الكبيرة

قلنا إنّ المشركين يصرّون على الفرار من ثقل التعهدات والمسؤوليات التي يضعها على عواتقهم الإيمان بالله واليوم الآخر، فكانوا يقولون تارةً: لماذا يحتاج الرّسول إلى الطعام ويمشي في الأسواق؟ حيث قرأنا الإجابة عليها في الآيات السابقة.

الآيات الحالية، تطرح شكلين آخرين من ذرائعهم وتجيب عليها، فيقول تعالى أوّلاً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

فعلى فرض أنّنا سنقبل أنّ النّبي يستطيع أن يعيش الحياة العادية مثلنا، لكن أن يتنزل الوحي عليه وحده، ولا نراه نحن، فهذا ما لا يمكن القبول به، ما المانع من أن يظهر الملك فيؤكّد صحة نبوة الرّسول؟ أو أن يسمعنا بعضاً من الوحي!؟ أو أن نرى ربّنا بأعيننا حتى لا يبقى عندنا مكان لأي شك أو شبهة!؟

هذه هي الأسئلة التي تمنعنا من قبول دعوة محمد ﷺ.

المهم هو أنّ القرآن يصنف هؤلاء المتعلّلين بالذرائع تحت عنوان ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، حيث يدل على أنّ منبع هذه الأقوال الواهية هو عدم الإيمان بالآخرة، وعدم القبول بالمسؤولية أمام الله.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.

في الآية (٧) من سورة الحجر نقرأ أيضاً شبيهاً لهذا القول، حيث قالوا: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وقرأنا أيضاً في مطلع سورة الفرقان هذه أنّ المشركين كانوا يقولون: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

في حين أنّ من حق أي إنسان لإثبات قضية ما، أن يطالب بالدليل فقط. أمّا نوع الدليل، فمن المسلّم أنّه لا فرق فيه، في الوقت الذي أثبت رسول الله ﷺ - بإظهار المعجزات ومن جملتها القرآن نفسه - حقانية دعوته بوضوح، إذن فما معنى هذه الذرائع؟

وأفضل دليل على أنّهم لم يكونوا يقولون هذه الأقوال من أجل التحقيق حول نبوّة النّبي، هو أنّهم طلبوا أن يشاهدوا الخالق، وأنزلوه إلى حدّ جسم يمكن رؤيته، ذلك الطلب نفسه الذي طلبه مجرمو بني إسرائيل أيضاً، فسمعوا الجواب القاطع على ذلك، حيث ورد شرحه في سورة الأعراف الآية ١٤٣.

لذا يقول القرآن في الإجابة على هذه الطلبات في آخر الآية مورد البحث: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

«العتو» على وزن «غلو»، بمعنى الامتناع عن الطاعة، والتمرد على الأمر، مصحوباً بالعناد واللجاجة.

وتعبير ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الممكن أن يكون بمعنى: أنّ هؤلاء صاروا أسارى الغرور والتكبّر في أنفسهم. ومن الممكن أن يكون أيضاً بمعنى أنّهم أخفوا كبرهم وغرورهم في قلوبهم وأظهروا هذه المعاذير.

في عصرنا وزماننا أيضاً، يوجد أشخاص يكررون منطق المشركين الغابرين، فيقولون: ما دمنا لا نرى الله في مختبراتنا، ولا نشاهد الروح تحت مبضع الجراحة، فلن نصدّق بوجودهما! ومنبع الاثنين واحد وهو الاستكبار والعتو.

ومن حيث الأصل، فإنّ جميع الأشخاص الذين يحصرون وسائل المعرفة في الحس والتجربة فقط، يكررون نفس هذا القول بشكل ضمني، فكلّ الماديين داخلون في هذا الصنف، في حين أنّ الحواس لا تدرك إلاّ جزءاً ضئيلاً لا يذكر من مادة هذا العالم.

ثمّ يقول تعالى بصيغة التهديد: إنّ هؤلاء الذين يطلبون أن يروا الملائكة، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾(١).

---

(١) كلمة ﴿لَا﴾ ها هنا، قد تكون للنفي، كما قال كثير من المفسّرين، ويحتمل أيضاً أن تكون لإنشاء الدعاء السلبي، حيث يصبح معنى الجملة في هذه الصورة، هكذا: «في ذلك اليوم لا كانت بشرى للمجرمين».

بلى سوف لن يُسرّوا برؤية الملائكة في ذلك اليوم، لأنّهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكة، وسوف يغمرهم الرعب إلى حدّ أنّهم سيطلقون صرخات الاستغاثة التي كانوا يطلقونها في الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون: الأمان.. الأمان، اعفوا عنّا: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

ولكن لا هذه الجملة - ولا غيرها - لها أثر على مصيرهم المحتوم، ذلك لأنّ النار التي هم أوقدوها ستلتهم أطرافهم شاؤوا أم أبوا، وستتجسد أمامهم الأعمال السيئة التي ارتكبوها، فلا يملكون شيئاً لأنفسهم.

كلمة «حجر» (على وزن قشر) تقال في الأصل للمنطقة التي حجروها وجعلوها ممنوعة الورود، وعندما يقال «حجر إسماعيل» فلأن حائطاً أُنشىء حوله فحجز داخله. يقولون للعقل أيضاً «حجراً» لأنّه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفة. لذا نقرأ في الآية (٥) من سورة الفجر ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾، وأيضاً ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ الذين ورد اسمهم في القرآن (الآية ٨٠ من سورة الحجر) وهم قوم صالح الذين كانوا ينحتون لأنفسهم بيوتاً حجرية محكمة في قلوب الجبال، فكانوا يعيشون في أمانها.

هذا في ما يخص كلمة «حجر».

أمّا جملة ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ فقد كانت اصطلاحاً بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فإنّهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان.

كان هذا عرف العرب، خاصّة في الأشهر الحرم، حيث كانت الحرب ممنوعة، فحينما يواجه شخص آخر، ويحتمل خرق هذا العُرف والتعرض للأذى، فإنّه يكرر هذه الجملة، والطرف المقابل - أيضاً - مع سماعه لها كان يعطيه الأمان، فيخرجه من القلق والاضطراب والخوف.

على هذا فإنّ معنى الجملة المذكورة هو: «أريد الأمان، الأمان الذي لا رجعة فيه ولا تغيير»(١).

اتّضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ المجرمين هنا هم أصحاب هذا القول، وتناسب الأفعال الموجودة في الآية، والسير التاريخي، وسابقة هذه الجملة في أوساط العرب - أيضاً -.

يستدعي هذا، ولكن البعض احتمل أنّ الملائكة هم أصحاب هذا القول، وهدفهم منع المشركين من رحمة الله.

---

(١) ومن الناحية الأدبية فإنّ ﴿حِجْرًا﴾ مفعول لفعل مقدر و﴿مَّحْجُورًا﴾ جاءت للتوكيد، فهي في الأصل (أطلب منك منعاً لا سبيل إلى رفعه ودفعه).

وقال آخرون: إنّ أصحاب هذا القول هم المجرمون، يقولونه بعضهم لبعض، ولكن الظاهر هو المعنى الأول، حيث اختاره كثير من المفسّرين، أو ذكروه كأوّل تفسير لذلك[١].

أمّا أي يوم ذلك اليوم الذي يلتقي فيه المجرمون بالملائكة؟ فقد ذكر المفسّرون احتمالين: أحدهما: هو يوم الموت حيث يرى الإنسان ملك الموت، كما نقرأ في الآية (٩٣) من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾. والثّاني: أنّ المقصود هو يوم القيامة والنشور، حيث يكون المجرمون أمام ملائكة العذاب فيشاهدونهم.

ومع الانتباه إلى الآيات الآتية التي تتكلم عن النشور، خصوصاً جملة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ التي تشير إليه، يتبيّن أنّ التّفسير الثّاني هو الأقرب.

الآية التي بعدها تجسد مصير أعمال هؤلاء المجرمين في الآخرة، فتقول: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾.

كلمة «العمل» على ما قاله «الراغب» في المفردات بمعنى: كل فعل يكون بقصد، ولكن الفعل أعم منه، فهو يطلق على الأفعال التي تكون بقصد أو بغير قصد[٢].

جملة ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ من «القدوم» بمعنى «المجيء» أو «الذهاب على أثر شيء» وهي هنا دليل على تأكيد وجدّية المسألة، يعني مسلّماً وبشكل قاطع أنّ جميع أعمال أُولئك التي قاموا بها عن قصد وإرادة - وإن كانت أعمال خير ظاهراً - سنمحوها كما تمحى ذرات الغبار في الهواء، لشركهم وكفرهم.

آفات العمل الصالح

كلمة ﴿هَبَآءً﴾ بمعنى ذرات الغبار الصغيرة جدّاً التي لا تُرى بالعين المجرّدة وفي الحال العادية أبداً إلاّ في الوقت الذي يدخل نور الشمس إلى الغرفة المظلمة من ثقب أو كُوّة، فيكشف عن هذه الذرات ويمكن مشاهدتها.

---

(١) تفسير الميزان، تفسير الفخر الرازي، تفسير في ظلال القرآن، تفسير أبي الفتوح الرازي، ذيل آية البحث.

(٢) يذهب (الراغب) إلى هذا الفرق في مادة «عمل»، ولو أنّ له بياناً خلاف ذلك في مادة «فعل». لكن مع الالتفات إلى موارد استعمال هاتين الكلمتين يكون هذا الفرق صحيحاً، طبعاً يمكن أن يكون له استثناءات كما يقولون للثيران التي تعمل «عوامل».

هذا التعبير يدل على أن أعمال أُولئك لا قيمة لها ولا اثر إلى حدّ كأنّهم لم يعملوا شيئاً، وإن كانوا قد سعوا واجتهدوا سنين طويلة.

هذه الآية نظيرة الآية (١٨) من سورة إبراهيم التي تقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾.

الدليل المنطقي لذلك واضح أيضاً، لأنّ الشيء الذي يعطي عمل الإنسان الشكل والمحتوى، هو النّية والدافع وغاية العمل النهائية، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهي وعلى أساس أهداف مقدسة طاهرة، وخطط سليمة صحيحة، في حين أن من لا إيمان لهم، فغالباً يقعون أسارى التظاهر والرياء والغرور والعجب، فيكون سبباً في انعدام أية قيمة لأعمالهم.

على سبيل المثال، نحن نعرف مساجد من مئات السنين، لم تترك عليها القرون الماضية أدنى تأثير، وبعكسها نرى بيوتاً تظهر فيها الشروخ وعلامات الضعف مع مضي شهر واحد أو سنة واحدة، فالأُولى بنيت من كل النواحي بناءً محكماً بأفضل المواد مع توقع الحوادث المستقبلية، أمّا الثّانية فلأن الهدف من بنائها هو تهيئة المال والثروة عن طريق المظاهر والحيلة، فالعناية فيها كانت بالزخرفة فقط[(١)].

من وجهة نظر المنطق الإسلامي، فإن للأعمال الصالحة آفات، ينبغي مراقبتها بدقة، فقد يكون العمل أحياناً خراباً وفاسداً منذ البداية، كمثل العمل الذي يتخذ (رياءً).

وأحياناً أُخرى يلحقه الفساد أثناء العمل كما لو أصاب الإنسان الغرور والعجب حينه فتزول قيمة عمله بسبب ذلك.

وقد يمحى أثر العمل الصالح بعد الانتهاء منه بسبب القيام بأعمال مخالفة ومنافية، كمثل الإنفاق الذي تتبعه «منّة»، أو كالأعمال الصالحة التي يعقبها كفر وارتداد.

حتى ارتكاب الذنوب أحياناً يترك أثره على العمل الصالح بعدها - طبقاً لبعض الرّوايات الإسلامية - كما نقرأ في مسألة شارب الخمر حيث لا تقبل أعماله عند الله أربعين يوماً[(٢)].

على أية حال، فللإسلام منهج فذّ، دقيق وحساس في مسألة خصوصيات العمل الصالح. نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال:

---

(١) بحثنا في هذا الصدد بصورة أكثر تفصيلاً في (ذيل الآية ١٨ من سورة إبراهيم).

(٢) سفينة البحار، ج ١، ص ٤٢٧، مادة «خمر».

«يبعث الله عزّوجلّ يوم القيامة قوماً بين أيديهم نور كالقباطي، ثمّ يقول له: (كن هباءً منثوراً) ثمّ قال: أمّا والله - يا أبا حمزة - إنّهم كانوا يصومون ويصلّون، ولكن كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام أخذوه، وإذا ذكر لهم شيء من فضل أمير المؤمنين عليه السلام أنكروه، قال: والهباء المنثور هو الذي تراه يدخل البيت من الكوة مثل شعاع الشمس»[1].

وبما أنّ القرآن - عادة - يضع الحسن والسيّىء متقابلين حتى يتّضح وضع كلٌّ منهما بالمقايسة فإنّ الآية التي بعدها تتحدث عن أهل الجنّة فتقول: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

ليس معنى هذا الكلام أنّ وضع أهل جهنم حسن، ووضع أهل الجنّة أحسن، لأنّ صيغة «أفعل التفضيل» تأتي أحياناً حيث يكون أحد الأطراف واجداً للمفهوم، والآخر فاقداً له كلياً. مثلاً نقرأ في الآية (٤٠) من سورة فصّلت: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

«مستقر» بمعنى محل الاستقرار.

و«مقيل» بمعنى محل الاستراحة في منتصف النهار، من مادة «قيلولة»، وقد جاءت بمعنى النوم منتصف النهار.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

التّفسير

تشقق السماء بالغمام

مرّة أخرى يواصل القرآن في هذه الآيات البحث حول القيامة، ومصير المجرمين في ذلك اليوم، فيقول أوّلاً: إنّ يوم محنة وحزن المجرمين هو ذلك اليوم الذي تنشق فيه السماء بواسطة الغيوم: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾[2].

(١) تفسير علي بن إبراهيم طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٩.
(٢) جملة ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ في الواقع عطف على جملة ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ التي مرّت سابقاً، وعلى هذا=

«الغمام» من «الغم» بمعنى ستر الشيء، لذلك فالغيم الذي يغطي الشمس يقال له «الغمام»، وكذلك الحزن الذي يغطي القلب يسمّونه «الغم».

هذه الآية - في الحقيقة - ردّ على طلبات المشركين، وعلى إحدى ذرائعهم، لأنّهم كانوا يتوقعون أن يأتي الله والملائكة - طبقاً لأساطيرهم وخرافاتهم من خلال الغيم، فيدعونهم إلى الحق، وفي أساطير اليهود جاء - أيضاً - أنّ الله أحياناً يظهر ما بين الغيوم(١).

يقول القرآن في الردّ عليهم: نعم الملائكة (وليس الله) يأتون إليهم يوماً ما، لكن أي يوم؟ اليوم الذي تتحقق فيه مجازاة وعقوبة هؤلاء المجرمين، وينهي ادعاءاتهم الباطلة.

ولكن ما هو المقصود من تشقق السماء بالغمام، مع أنّنا نعلم أن لا وجود حولنا لشيء يسمى السماء، يكون قابلاً للتشقق؟

قال بعض المفسّرين مثل «العلاّمة الطباطبائي» في تفسير «الميزان»: المقصود هو تشقق سماء عالم الشهود، وزوال حجاب الجهل والغباء وظهور عالم الغيب، فيكون للإنسان إدراك ورؤية تختلف كثيراً عمّا هي عليه اليوم، فحينئذ تزول الحجب، فيرون الملائكة وهي تتنزل من العالم الأعلى.

ثمّة تفسير آخر، هو أنّ المقصود من السماء هو الأجرام السماوية التي تتلاشى على أثر انفجارات متوالية، فيملأ الغيم الحاصل من هذه الانفجارات ومن تلاشي الجبال صفحة السماوات، وبناءً على هذا فالأفلاك السماوية تتشقق مع الغيوم الحاصلة من ذلك(٢).

آيات كثيرة من القرآن المجيد، خصوصاً التي وردت في السور القصار آخر القرآن، تبيّن هذه الحقيقة، حيث تملأ جميع عوالم الوجود تغيرات عظيمة، وانقلاب وتحول عجيب، تتلاشى الجبال وتتناثر في الفضاء كذرات الغبار، الشمس تفقد نورها وكذلك النجوم، ويلتقي الشمس والقمر، وتملأ نواحي الأرض زلزلة وهزّة عجيبة.

= فإنّ ﴿يَوْمَ﴾ هنا متعلق بذلك الشيء الذي كان في الآية السابقة، يعني جملة ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾. ويعتقد جماعة أنّه متعلق بفعل مقدّر، مثل (اذكرْ) «الباء» في «الغمام» يمكن أن تكون بمعنى الملابسة، أو بمعنى «عن»، أو للسببية كما تقدم في تفسير الآيات أعلاه.

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ١٥٤ (ذيل الآية مورد البحث).

(٢) «الباء» من الناحية الأدبية في هذه الحالة للملابسة.

نعم، في مثل ذلك اليوم، زوال السماء، بمعنى الأجرام السماوية، وتلبُّسُ السماء بغيوم كثيفة، سيكون أمراً طبيعياً.

من الممكن توضيح نفس هذا التّفسير بنحو آخر:

شدّة التغيرات، وانفجارات الكواكب والسيارات يصير سبباً في تغطية السماء بغيم كثيف، ولكن توجد انشقاقات بين هذا الغيم، وعلى هذا فالسماء التي ترى بالعين في الأحوال العادية، تتشقق بواسطة هذه الغيوم الانفجارية العظيمة(١).

تفسيرات أخرى قيلت لهذه الآية أيضاً لا تتوافق مع الأصول العلمية والمنطقية، وفي نفس الوقت فالتّفسيرات الثلاثة الآنفة لا تتنافى مع بعضها، فمن الممكن أن ترتفع حجب العالم المادي عن عين الإنسان من جهة، فيشاهد عالم ما وراء الطبيعة، ومن جهة أُخرى ستتلاشى الأجرام السماوية، وتظهر الغيوم الانفجارية، فتبرز التشققات ما بينها في ذلك اليوم، يوم نهاية هذا العالم وبداية النشور، يوم أليم جدّاً للمجرمين الظالمين المعاندين الذين لا إيمان لهم.

بعد ذلك يتناول القرآن الكريم أوضح علائم ذلك اليوم فيقول: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

حتى أُولئك الذين كان لهم في هذا العالم نوع من الملك المجازي والمحدود والفاني والسريع الزوال، يخرجون أيضاً من دائرة الملك، فتكون الحاكمية من كلّ النواحي وجميع الجهات لذاته المقدسة خاصّة، وبهذا ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

نعم، في ذلك اليوم تزول القوى الكاذبة تماماً، وتكون الحاكمية لله خاصّة، فتتداعى قلاع الكافرين، وتزول قوى الجبابرة والطواغيت، وإن كانوا جميعاً في هذا العالم - أيضاً - لا شيء أمام إرادته تبارك وتعالى، وإذا كان لهم في هذه الدنيا بهرجة، فبأي ملاذ يلوذون من الجزاء الإلهي في يوم القيامة، يوم انكشاف الحقائق وزوال المجازات والخيالات والأوهام، ولهذا سيكون ذلك اليوم يوماً بالغ الصعوبة عليهم، في الوقت الذي يكون على المؤمنين سهلاً يسيراً وهيناً جدّاً.

في حديث عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ

(١) في هذه الحالة «الباء» في «بالغمام» للسببية.

﴿خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ فقلت: ما أطول هذا اليوم!؟ فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنّه ليخفف عن المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا»[١].

والتأمل الدقيق في سائر آيات القرآن يكشف عن دلائل صعوبة ذلك اليوم على الكافرين، ذلك أنّنا نقرأ من جهة ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾[٢].

ومن جهة أخرى ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾[٣].

ومن جهة ثالثة ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا﴾[٤].

حتى الشفاعة التي هي وحدها طريق النجاة، تكون للمذنبين الذين كانت لهم صلة بالله وبأولياء الله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[٥].

وأيضاً ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾[٦]، فلا يسمح لهم بالاعتذار، فما بالك بقبول الأعذار الواهية!!

﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾

سبب النّزول

«قال ابن عباس: نزل قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ في عقبة بن أبي معيط، وأُبي ابن خلف، وكانا متخالّين، وذلك أن عقبة كان لا يقدم من سفر إلاّ صنع طعاماً فدعا إليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة الرّسول، فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول الله ﷺ إلى طعامه، فلما قربوا الطعام قال رسول الله ﷺ: ما أنا بآكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وبلغ ذلك أُبي بن خلف فقال: صبئتَ يا عقبة؟ قال: لا والله ما صبأتُ، ولكن دخل عليَّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلاّ أن

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»، ج ٧، ص ٤٧٣٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٣) سورة المسد، الآية: ٢.
(٤) سورة الدخان، الآية: ٤١.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.
(٦) سورة المرسلات، الآية: ٣٦.

أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدتُ له فطعم، فقال أبي: ما كنتُ براضٍ عنك أبداً حتى تأتي فتبزق في وجهه، ففعل ذلك عقبة وارتدَّ، وأخذ رحم دابّة فألقاها بين كتفيه، فقال النّبي ﷺ: لا ألقاك خارجاً من مكّة إلاّ علوتُ رأسك بالسيف، فضرب عنقه يوم بدر صبراً، وأمّا أُبي بن خلف فقتله النّبي ﷺ يوم أُحد بيده في المبارزة».

وقال الضحاك: لما بزق عقبة في وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه في وجهه، فأحرق خديه، وكان أثر ذلك فيه حتى مات.

وقيل نزلت في كل كافر أو ظالم تبع غيره في الكفر أو الظلم وترك متابعة أمر الله تعالى[1].

نزلت الآيات أعلاه لترسم صورة مصير الرجل الذي يُبتلى بخليل ضال، ويجره إلى الضلال.

وقلنا مراراً إنّ سبب النّزول وإن يكن خاصّاً، إلاّ أنّه لا يقيد مفهوم الآيات أبداً، وعمومية المفهوم تشمل جميع المصاديق.

التّفسير

أضلني صديق السوء

يوم القيامة له مشاهد عجيبة، حيث ورد بعضٌ منها في الآيات السابقة، وفي هذه الآيات إشارة إلى قسم آخر منها، وهي مسألة حسرة الظالمين البالغة على ماضيهم، يقول تعالى أوّلاً: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾[2].

«يعضّ» من مادة «عضّ» (على وزن سدّ)، ويستخدم هذا التعبير عادة بالنسبة إلى الأشخاص المهووسين من شدّة الحسرة والأسف، كما في المثل العربي، لأن الإنسان في مثل هذه الحالات لا يعض الإصبع دائماً، بل يعض ظاهر اليد أحياناً، وكثيراً ما يقال - كما في الآية الآية مورد البحث - «يديه» يعني كلتا اليدين حيث تبيّن شدّة الأسف والحسرة بنحو أبلغ.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ١٦٦.
(٢) جملة ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ...﴾ عطف على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ التي مضت قبل عدّة آيات، بعض يعتبرها أيضاً متعلقة بجملة مقدرة «اذكر».

وهذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، ويعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الانتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب في نفوسهم والشعور بالراحة.

وينبغي حقّاً، أن يسمى ذلك اليوم ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ كما ورد هذا الوصف بالذات في القرآن ليوم القيامة أيضاً (سورة مريم الآية ٣٩)، ذلك لأنّ المجرمين يرون أنفسهم في أتعس حال بين يدي الحياة الخالدة، في الوقت الذي كانوا يستطيعون خلال أيام من الصبر والاستقامة ومجاهدة النفس والإيثار أن يستبدلوا ذلك بحياة مشرفة وسعيدة، وهو يوم أسف أيضاً حتى بالنسبة إلى المحسنين، فهم يأسفون على أنّهم: لماذا لم يحسنوا أكثر.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّ هذا الظالم المعتدي الغارق في عالم الأسف، يقول: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[1].

واضح أن المقصود بـ «فلان» هو ذلك الذي أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال، وفردٌ مثل «أُبي» لـ «عقبة» الذي ورد في سبب النّزول.

هذه الآية - والآية التي قبلها - تعرضان حالتي نفي وإثبات متقابلتين في مكان واحد، يقول تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، وهنا يقول: ﴿... لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ حيث كانت التعاسة كلها في ترك الارتباط بالنّبي ﷺ، وقبول الارتباط بهذا الخليل الضال.

ثمّ يستمر ويقول: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾.

لو كانت الفاصلة كبيرة بيني وبين الإيمان والسعادة الخالدة في الدنيا لم أكن آسف إلى هذا الحد، ولكني كنت قاب قوسين أو أدنى من السعادة الدائمة فصدّني رفيق السوء هذا عن عين ماء الحياة ظامئاً وأغرقني في دوامة التعاسة.

﴿ٱلذِّكْرِ﴾ في الجملة أعلاه، له معنىً واسع، ويشمل كل الآيات الإلهية التي نزلت في الكتب السماوية، بل يدخل في إطاره كلُّ ما يوجب يقظة ووعي الإنسان.

وفي ختام الآية يقول تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ ذلك لأنّه يجر الإنسان إلى مواقع الخطر والطرق المنحرفة، ثمّ يتركه حيران ويذهب لسبيله، وينبغي

---

(١) «خليل» تطلق بمعنى الصديق الخاص الحميم حيث يجعله الإنسان مشاوراً لنفسه، وللخليل معان أخرى أيضاً قد أوردناها في ذيل الآية (١٢٥) من سورة النساء.

الانتباه إلى أنّ ﴿خَذُولًا﴾ صيغة مبالغة، بمعنى كثير الخذلان.

وحقيقة الخذلان هي أي يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، ولكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته وإعانته تماماً في اللحظات الحساسة.

في هذه الجملة الأخيرة ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ قد تكون من مقولة الله تعالى على سبيل الإنذار لجميع الظالمين والضالين، أو تتمة لمقولة هؤلاء الأفراد المتحسرين في القيامة، ذكر المفسّرون تفسيرين، وكل منهما منسجم مع معنى الآية، غير أن كونها مقولة الله تعالى أكثر انسجاماً.

بحث

أثر الصديق في مصير الإنسان

لا شكّ في أنّ عوامل بناء شخصية الإنسان - بعد عزمه وإرادته وتصميمه - أُمور مختلفة، من أهمها الجليس والصديق والمعاشر، ذلك لأنّ الإنسان قابل للتأثر شاء أم أبى، فيأخذ قسطاً مهماً من أفكاره وصفاته الأخلاقية عن طريق أصدقائه، ولقد ثبتت هذه الحقيقة من الناحية العلمية وعن طريق التجربة والمشاهدات الحسية أيضاً.

قابلية التأثر هذه نالت اهتماماً خاصّاً لدى الإسلام إلى حدّ أنّه نقل في الرّوايات الإسلامية، عن نبيّ الله سليمان عليه السلام أنّه قال: «لا تحكموا على رجل بشيء حتى تنظروا إلى من يصاحب، فإنّما يعرف الرجل بأشكاله وأقرانه، وينسب إلى أصحابه وأخدانه»[1].

يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: «ومن اشتبه عليكم أمره ولم تعرفوا دينه، فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين الله فهو على دين الله، وإن كانوا على غير دين الله، فلا حظّ له من دين الله»[2].

حقّاً، إنّ أثر الصديق في سعادة وشقاوة إنسان ما قد يكون من أهم العوامل أحياناً، فقد يؤدّي به إلى دركات الشقاء الأبدي، وقد يرقى به أحياناً إلى غاية المجد.

الآيات الحالية وسبب نزولها، تبيّن - بوضوح - كيف أنّ الإنسان قد يقترب من السعادة، لكنّ وسوسة شيطانية واحدة من صديق سيّىء تقلبه رأساً على عقب وتقلب

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٢٧ مادة (صدق).
(٢) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٩٧.

مصيره، حيث سيعضُّ على يديه من الحسرة يوم القيامة، وستتعالى منه صرخة «ياويلتي».

في كتاب «العِشرة» وردت روايات كثيرة في نفس هذا الموضوع، تبيّن أن الإسلام شديد ودقيق وثاقب النظرة في مسألة اختيار الصديق.

نُنهي هذا البحث القصير بنقل حديثين في هذا الموضوع، ومن أراد الاطلاع أكثر في هذا الموضوع فليراجع كتاب «العشرة» من بحار الأنوار، الجزء ٧٤.

نقرأ في حديث عن التاسع من أئمة الإسلام العظام، الإمام محمد التقي الجواد عليه السلام: «إيّاك ومصاحبة الشرير، فإنه كالسيف المسلول، يحسن منظره ويقبح أثره»[(١)].

وقال الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب... ومجالسة الموتى» قيل له: يا رسول الله، وما الموتى؟ قال: «كل غني مترف»[(٢)].

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

التّفسير

إلهي، إنّ الناس قد هجروا القرآن

كما تناولت الآيات السابقة أنواعاً من ذرائع المشركين والكافرين المعاندين، تتناول الآية الأُولى في مورد البحث هنا حزن وشكاية الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بين يدي

(١) بحار الأنوار ج ٧٤ ص ١٩٨.

(٢) الخصال للصدوق، ج١، ص٢٢٨، طبقاً لنقل بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٩٥.

الله عزّ وجلّ من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾(١).

قول الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فئة عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدي الله أنّهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الذي هو رمز الحياة ووسيلة النجاة، القرآن الذي هو سبب الانتصار والحركة والترقي، القرآن الممتلىء ببرامج الحياة، هجروا هذا القرآن فمدّوا يد الاستجداء إلى الآخرين، حتى في القوانين المدنية والجزائية.

إلى الآن، لو تأملنا في وضع كثير من البلدان الإسلامية، خصوصاً أُولئك الذين يعيشون تحت هيمنة الشرق والغرب الثقافية، لوجدنا أنّ القرآن بينهم كتاب للمراسم والتشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، ويستخدمونه في زخرفة المساجد بعنوان الفن المعماري، ولافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، وشفاء مريض، وعلى الأكثر للتلاوة من أجل الثواب.

ويستدلون بالقرآن، أحياناً وغايتهم إثبات أحكامهم المسبّقة الخاطئة من خلال الاستعانة بالآيات، وبالاستفادة من المنهج المنحرف في التّفسير بالرأي.

في بعض البلدان الإسلامية، هناك مدارس في طول البلاد وعرضها بعنوان: مدارس «تحفيظ القرآن» وفريق عظيم من الأولاد والبنات مشغولون بحفظ القرآن، في الوقت الذي تؤخذ أفكارهم عن الغرب حيناً، وعن الشرق حيناً آخر، وتؤخذ قوانينهم وقراراتهم من الأجانب، أمّا القرآن فغطاء لمخالفاتهم فقط.

نعم، اليوم أيضاً يصرخ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾. مهجوراً من ناحية لبّه ومحتواه، متروكاً من ناحية الفكر والتأمل، ومهملاً من ناحية برامجه البناءة.

تقول الآية التي بعدها في مواساة النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائي للخصوم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

---

(١) الظاهر أن جملة «قال» فعل ماض، تدل على أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان قد ذكر هذا القول على سبيل الشكوى في هذه الدنيا، وأكثر المفسّرين أيضاً على هذا الاعتقاد، لكن بعضاً آخر مثل «العلامة الطباطبائي» في «الميزان» يعتقدون أن هذا القول مرتبط بيوم القيامة، والفعل الماضي هنا بمعنى المضارع. وذكر العلامة الطبرسي في مجمع البيان أيضاً هذا على سبيل الاحتمال، لكن الآية التي بعدها، والتي فيها جنبة مواساة للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم دليل على أن التّفسير المشهور هو الأصح.

لست وحدك قد واجهت هذه العداوة الشديدة لهذه الفئة، فقد مرّ جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فكانوا يناصبونهم العداء.

ولكن اعلم أنّك لست وحيداً، وبلا معين ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

فلا وساوسهم تستطيع أن تضلك، لأنّ الله هاديك، ولا مؤامراتهم تستطيع أن تحطمك، لأن الخالق معينك، الخالق الذي علمه فوق كل العلوم، وقدرته أقوى من كل القدرات.

الآية التي بعدها، تشير أيضاً إلى ذريعة أُخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

أليس القرآن جميعه من قبل الله!؟ أليس من الأفضل أن ينزل جميع محتوى هذا الكتاب دفعة واحدة حتى يقف الناس على عظمته أكثر؟ ولماذا تتنزل هذه الآيات تدريجياً وعلى فواصل زمنية مختلفة؟

وقد يأخذ هذا الإشكال في كيفية نزول القرآن مأخذه من الأفراد السطحيين، خاصّة إذا كانوا من المتمحلين للأعذار بأن هذا الكتاب السماوي العظيم الذي هو أساس ومصدر كل حياة المسلمين، ومحور كل قوانينهم السياسية والاجتماعية والحقوقية والعبادية، لماذا لم ينزل كاملاً ودفعة واحدة على نبيّ الإسلام ﷺ، حتى يقرأه أتباعه من البداية إلى النهاية فيطلعون على محتواه؟ وأساساً فقد كان الأفضل للنّبي ﷺ أيضاً أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعة واحدة، كيما يجيب الناس فوراً على كل ما يسألونه ويريدون منه.

ولكن القرآن في تتمة هذه الآية نفسها يجيبهم: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾. وقد غفل أُولئك السطحيون عن هذه الحقيقة، فلا شك أن نزول القرآن التدريجي له ارتباط وثيق بتثبيت قلب النّبي ﷺ والمؤمنين، وسيأتي بحث مفصل عن ذلك في نهاية هذه الآيات.

ثمّ للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. أي أنّهم لا يأتون بمثل أو مقولة أو بحث لإضعاف دعوتك ومقابلتها، إلاّ آتيناك بكلام حقّ يقمع كلماتهم الجوفاء وأدلتهم الخاوية بأحسن بيان وأفضل تفسير.

وبما أنّ هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا - بعد مجموعة من إشكالاتهم - أنّ

محمّداً وأصحابه مع صفاتهم هذه وكتابهم هذا وبرامجهم هذه شرُّ خلق الله (العياذ بالله)، ولأنّ ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحة وبلاغة القرآن، فإنّ الله سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول في الآية الأخيرة مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

نعم، تتضح هناك نتيجة منهاج حياة الناس، فريق لهم قامات منتصبة كشجر السرو، ووجوه منيرة كالقمر، وخطوات واسعة، يتوجهون بسرعة إلى الجنّة، في مقابل فريق طأطؤوا رؤوسهم إلى الأرض، تسحبهم ملائكة العذاب إلى جهنّم، هذا المصير المختلف يكشف عمن كان ضالاً وشقياً! ومن كان مهتدياً وسعيداً؟!

بحوث

١ - تفسير ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾

يفهم من هذه الجملة - أحياناً - أنّ الله من أجل مواساة النّبي ﷺ يقول: لست وحدك لك عدوّ، بل لقد جعلنا لكل نبي عدوّاً، ولازم هذا القول إسناد وجود أعداء الأنبياء إلى الله تعالى، الأمر الذي لا يتفق مع حكمته ولا مع أصل حرية وإرادة الإنسان. ذكر المفسّرون أجوبة متعددة على هذا السؤال. . .

قلنا مراراً إنّ جميع أعمال الإنسان منسوبة إلى الله، لأنّ جميع متعلقاتنا، قدرتنا، قوانا، عقلنا وفكرنا، وحتى حريتنا واختيارنا أيضاً من عنده، وعلى هذا فمن الممكن من هذه الناحية نسبة وجود الأعداء للأنبياء إلى الله، دون أن يستلزم ذلك الجبر وسلب الاختيار، ولا يرد خدشٌ في مسؤوليتهم إزاء أعمالهم (فتأمل)!

مضافاً إلى أن وجود هؤلاء الأعداء الأشداء ومخالفتهم للأنبياء، يكون سبباً في أن يصبح المؤمنون أقوى في عملهم، وأثبت قدماً، فيتحقق الامتحان الإلهي بالنسبة إلى الجميع.

هذه الآية في الحقيقة مثل الآية (١١٢) من سورة الأنعام حيث تقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾.

أمام الأزاهير تنمو الأشواك، وفي قبال المحسنين يوجد المسيئون، دون أن تنتفي مسؤولية أي واحد من هاتين المجموعتين.

وقال البعض: إنّ المقصود من ﴿جَعَلْنَا﴾ هي أوامر ونواهي ومناهج الأنبياء البناءة التي تجرّ بعض الضالين إلى العداوة، شاؤوا أم أبوا.

وإذا أُسند ذلك إلى الله فلأن الأوامر والنواهي من جهته عَزَّوَجَلَّ .

التّفسير الآخر: أن هنالك فئة يطبع الله على قلوبهم ويعمي أبصارهم ويصم أسماعهم بسبب الإصرار على الذنب والإفراط في التعصب واللجاجة، هذه الفئة يصبحون أعداء الأنبياء في نهاية المطاف، أمّا أسباب ذلك فهي بما قدموا لأنفسهم.

ولا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة، فمن الممكن أن تجتمع كلها في مفهوم الآية.

٢ - الآثار العميقة لنزول القرآن التدريجي

صحيح أنّه كان للقرآن نزولان، طبقاً للرّوايات (بل لظاهر بعض الآيات): أحدهما: «نزول دفعي» مرّة واحدة في ليلة القدر على قلب النّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، والآخر: «نزول تدريجي» في ثلاث وعشرين سنة، لكن بلا شك أن النّزول المعترف به الذي كان النّبي والناس يتفاعلون معه دائماً هو النّزول التدريجي للقرآن.

وهذا النّزول التدريجي بالذات صار سبباً لاستفهامات الأعداء: لماذا لم ينزل القرآن مرّة واحدة ويجعل دفعة واحدة بين أيدي الناس، حتى يكونوا أكثر اطلاعاً وتفهماً، فلا يبقى مكان للشك والريبة؟

ولكن - كما رأينا - فإنّ القرآن أجابهم جواباً قصيراً وجامعاً وبليغاً من خلال جملة ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾، فكلما تأملنا فيها أكثر تتجلى آثار النّزول التدريجي للقرآن أوضح.

١ - لا شكّ أنّ التشريعات إذا كانت تتنزل بشكل تدريجي تبعاً للحاجات، ويكون لكل مسألة شاهد ومصداق عينيّ، فستكون مؤثرة جدّاً من ناحية «تلقي الوحي» وكذلك «إبلاغ الناس».

مبادىء التربية تؤكّد أنّ الشخص أو الأشخاص المراد تربيتهم ينبغي أن يؤخذ بأيديهم خطوة خطوة، فينظم لهم لكل يوم برنامج، ويسلكون من المرحلة الأدنى التي شرعوا منها إلى المراحل الأعلى والبرامج التي تتدرج بهذه الكيفية تكون أكثر مقبولية وأعمق أثراً.

٢ - إنّ هؤلاء المعترضين غافلون أساساً عن أنّ القرآن ليس كتاباً عادياً يبحث في موضوع أو علم معين، بل هو منهج حياتي للأُمة التي تغيرت به، واستلهمت منه في جميع أبعاد الحياة ولا تزال.

كثير من آيات القرآن نزلت في مناسبات تاريخية مثل معركة، (بدر) و(أُحد) و(الأحزاب) و(حنين) وبذلك سُنّت التشريعات والاستنتاجات من هذه الحوادث، ترى هل يصح أن تكتب هذه مرّة واحدة وتعرض على الناس!؟

بعبارة أُخرى: القرآن مجموعة من أوامر ونواهي، أحكام وقوانين، تاريخ وموعظة، ومجموعة من الخطط ذات المدى الطويل أو القصير في مواجهة الأحداث التي كانت تبرز أمام مسير الأُمة الإسلامية، كتاب - كهذا - يبيّن وينفذ جميع مناهجه حتى قوانينه الكلية عن طريق الحضور في ميادين حياة الأُمة، لا يمكن أن ينظم ويُدوَّنَ دفعة واحدة.

وهذا من قبيل أن يقوم قائد عظيم بكتابه ونشر جميع بياناته وإعلاناته وأوامره ونواهيه - التي يصدرها في المناسبات المختلفة - دفعة واحدة من أجل تسيير الثورة، تُرى هل يعتبر هذا العمل عقلائياً!؟

٣ - النّزول التدريجي للقرآن كان سبب ارتباط النّبي ﷺ الدائم والمستمر بمبدأ الوحي ممّا يجعل قلبه الشريف أقوى وإرادته أشدّ، ومن غير الممكن إنكار تأثيره في المناهج التربوية.

٤ - من جهة أخرى فإنّ استمرار الوحي دليل على استمرار رسالة وسفارة النّبي ﷺ، وسوف لن يترك مجالاً لوسوسة الأعداء لكي يقولوا: لقد بعث هذا النّبي ليوم واحد! ثمّ تركه ربّه، كما نقرأ في التاريخ الإسلامي أن هذه الهمهمة ظهرت أثناء تأخر الوحي في بداية الدعوة، فأنزلت سورة (والضحى) لنفي ذلك.

٥ - لا شك أنّه إذا كان مقرراً لمناهج الإسلام أن تنزل جميعها دفعة واحدة، فقد كان من اللازم أن تطبَّقَ دفعة واحدة أيضاً، لأنّ النّزول بدون تطبيق يُفقد النّزول قيمته، ومن المعلوم أن تطبيق جميع المناهج أعم من العبادات كالزكاة والجهاد، ورعاية جميع الواجبات والامتناع عن كل المحرمات دفعة واحدة.. عمل ثقيل جداً قد يؤدّي إلى فرار فئة كبيرة من الإسلام.

وبهذا يتبيّن أن النّزول التدريجي وبالتالي التطبيق التدريجي أفضل من جهات كثيرة.

وبعبارة أُخرى: إنّ أيّ واحد من هذه التشريعات في صورة النّزول التدريجي سيتم هضمه واستيعابه بصورة جيدة، وفي حالة تعرضه لبعض الاستفهامات يمكن طرحها والإجابة عليها.

٦ - وفائدة أُخرى من فوائد النّزول التدريجي هو اتضاح عظمة وإعجاز القرآن، ذلك

لأنّ في كل واقعة تنزل عدّة آيات كريمة تكون لوحدها دليل العظمة والإعجاز، وكلما يتكرر تتجلى أكثر هذه العظمة وهذا الإعجاز، فينفذ في أعماق قلوب الناس.

٣ - معنى الترتيل في القرآن

كلمة «ترتيل» من مادة «رتل» (على وزن قمر) بمعنى انتظم واتسق، لذا فالعرب يقولون «رتل الأسنان» لمن تكون أسنانه جيدة ومنتظمة ومتسقة، وعلى هذا الأساس يطلق الترتيل بمعنى القراءة المتسقة للكلام أو الآيات بموجب نظام وحساب.

وعلى هذا فجملة ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ آيات القرآن وإن نزلت تدريجاً وفي مدة ٢٣ سنة، لكنّ هذا النّزول كان على أساس نظام وحساب ومنهج بحيث أدّى إلى رسوخه في الأفكار وغرسه في القلوب.

في تفسير كلمة «ترتيل» نقلت روايات جذابة، نشير إلى بعضها كما يأتي:

في تفسير «مجمع البيان» نقل عن النّبي ﷺ أنّه أمر ابن عباس: «إذا قرأت القرآن فرتّله ترتيلاً» قال: وما الترتيل؟ قال: «بيّنه تبييناً ولا تنثره نثر الدقل ولا تهذّه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكونن همُّ أحدكم آخر السورة»[(١)].

وهناك رواية بهذا المضمون رواها الشيخ الكليني في «أصول الكافي» عن أمير المؤمنين علي عليه السلام[(٢)].

ونقل أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام: «الترتيل أن تتمكث به وتحسن به صوتك، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فتعوّذ بالله من النار، وإذا مررت بآية فيها ذكر الجنّة فاسأل الله الجنّة»[(٣)].

٤ - تفسير ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾

أقوال كثيرة بين المفسّرين في ما هو المقصود بحشر هذه الفئة من المجرمين على وجوههم!؟

بعضهم فسّروا ذلك بنفس معناه الحقيقي، وقالوا: إنّ ملائكة العذاب يسحبونهم إلى جهنم وهم ملقَون على وجوههم إلى الأرض، وهذا علامة على مهانتهم وذلتهم، لأنّهم كانوا في الدنيا في غاية الكبر والغرور والاستهانة بخلق الله، هذا من جهة.

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ١٧٠ ذيل الآية مورد البحث.
(٢) أصول الكافي، ج٢، ص ٤٤٩ (باب ترتيل القرآن بالصوت الحسن).
(٣) تفسير مجمع البحرين مادة رتل.

ومن جهة أُخرى تجسيد لضلالتهم في هذا العالم، ذلك أن من يسحبونه بهذه الصورة لا يرى ما أمامه بأي شكل، وغافل عما حوله.

والبعض الآخر أخذوا بمعناه الكنائي، فقالوا تارة هذه الجملة كناية عن تعلق قلوب أولئك بالدنيا، فهم يسحبون إلى جهنم لأن وجوه قلوبهم لا زالت مرتبطة بالدنيا(١).

وقالوا تارةً أُخرى: إنّها كناية مستعملة في الأدب العربي حيث يقولون: فلان مرَّ على وجهه، يعني أنّه لم يكن يدري أين يذهب.

لكن الواضح أنّنا مع عدم الدليل على المعنى الكنائي، لابدّ من حملها على المعنى الأوّل، وهو المعنى الحقيقي.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

مع كل هذه الدروس والعبر، ولكن

أشار القرآن المجيد في هذه الآيات إلى تاريخ الأُمم الماضية ومصيرهم المشؤوم مؤكّداً على ست أمم بخاصّة (الفراعنة، وقوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وأصحاب الرَّس، وقوم لوط) وذلك لمواساة النّبي ﷺ من جهة، ولتهديد المشركين المعاندين الذين مرَّ أنموذج من أقوالهم في الآيات السابقة، من جهة أُخرى ويجسد دروس العبرة من مصير هذه الأقوام بشكل مختصر وبليغ تماماً.

(١) طبقاً لهذا التّفسير، فإنّ عبارة ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أخذت محل العلّة. فيكون مفهوم الجملة هكذا (يحشرون إلى جهنم لتعلق وجوه قلوبهم إلى الدنيا).

يقول أوّلاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾.

فقد ألقيت على عاتقيهما المسؤولية الثقيلة في جهاد الفراعنة، ويجب عليهما مواصلة هذا العمل الثوري بمساعدة أحدهما الآخر حتى يثمر ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنّهم قد كذبوا دلائل الله وآياته التي في الآفاق وفي الأنفس وفي كل عالم الوجود، وأصروا على طريق الشرك وعبادة الأصنام من جهة. . ومن جهة أُخرى أعرضوا عن تعاليم الأنبياء السابقين وكذبوهم.

ولكن بالرغم من جميع الجهود والمساعي التي بذلها موسى وهارون، بالرغم من رؤية كل تلك المعجزات العظيمة والبينات المتنوعة، أصروا أيضاً على طريق الكفر والإنكار، لذا ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

كلمة «تدمير» من مادة «دمار» بمعنى الإهلاك بأُسلوب يثير العجب، حيث كان هلاك قوم فرعون في أمواج النيل المتلاطمة بتلك الكيفية المعروفة من عجائب التاريخ حقاً.

وكذلك: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

الملفت للانتباه أنّه تعالى يقول: إنّ أُولئك كذبوا الرسل (لا رسولاً واحداً فقط) ذلك أنّه لا فرق بين أنبياء الله ورسله في أصل الدعوة، وتكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم، فضلاً عن أنّهم كانوا مخالفين لدعوة جميع أنبياء الله ومنكرين لجميع الأديان.

وكذلك: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾(١).

«قوم عاد» هم قوم النّبي «هود» العظيم، الذي بعث في منطقة (الأحقاف) أو (اليمن).

و«قوم ثمود» قوم نبي الله «صالح» الذي بعث في منطقة وادي القرى (بين المدينة والشام)، أمّا ما يتعلق بمسألة «أصحاب الرس» فسنبحثها في نهاية هذا البحث.

«قرون» جمع «قرن» وهي في الأصل بمعنى الجماعة الذين يعيشون معاً في زمان واحد، ثمّ أطلقت على الزمان الطويل (أربعين أو مائة سنة).

---

(١) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ عطف على ضمير «هم» في جملة «دمرناهم». واحتمل بعضهم أيضاً أنّ العطف على «هم» في «جعلناهم»، أو يكون عطفاً على محل «الظالمين» لكن الاحتمال الأوّل مناسب أكثر.

لكننا لم نجاز أولئك على غفلة أبداً، بل ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾.

أجبنا على إشكالاتهم، مثل الإجابة على الإشكالات التي يوردونها عليك، وبيّنا لهم الأحكام الإلهيّة وحقائق الدين، أخطرناهم، أنذرناهم، كررنا عليهم مصائر وقصص الماضين، لكن حين لم ينفع أيٌّ من ذلك أهلكناهم ودمّرناهم تدميراً: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾(١).

وفي نهاية المطاف - في الآية الأخيرة مورد البحث - يشير القرآن المجيد إلى خرائب مدن قوم لوط التي تقع على بداية طريق الحجازيين إلى الشام، وإلى الأثر الحي الناطق عن المصير الأليم لأولئك الملوثين والمشركين، فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾.

نعم، لقد كانوا يرون مشهد الخرائب هذه، لكنّهم لم يأخذوا منها العبرة، ذلك لأنّهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

إنّهم يعدون الموت نهاية هذه الحياة، وإذا كان لهم اعتقاد بحياة ما بعد الموت فهو اعتقاد ضعيف وبلا أساس، لا يطبع أثراً في أرواحهم ولا ينعكس في مناهج حياتهم، ولهذا فهم يأخذون جميع الأشياء مأخذ اللعب، ولا يفكرون إلاّ بأهوائهم السريعة الزوال.

بحثان

١ - من هم «أصحاب الرس»؟

كلمة «رسّ» في الأصل بمعنى الأثر القليل، فيقال مثلاً: «رسّ الحديث في نفسي» (قليل من حديثه في ذاكرتي) أو يقال: «وجد رسّاً من حمى» (يعني: وجد قليلاً من الحمّى في نفسه)(٢).

وجماعة من المفسّرين اعتقدوا بأن «الرسّ» بمعنى البئر.

على أية حال فتسمية هؤلاء القوم بهذا الاسم، إمّا لأنّ أثراً قليلاً جداً بقي منهم، أو لأنّهم كانت لهم آبار كثيرة، أو لأنّهم هلكوا وزالوا بسبب جفاف آبارهم.

---

(١) «تتبير» من مادة «تبر» (على وزن ضرر، وعلى وزن صبر) بمعنى الإهلاك التام.

(٢) مفردات الراغب.

أمّا من هم هؤلاء القوم؟ هناك أقوال كثيرة بين المؤرخين والمفسّرين:

١ - يرى كثيرون أنّ «أصحاب الرس» كانوا طائفة تعيش في «اليمامة» وبعث لهم نبي اسمه «حنظلة» كذبوه وألقوه في بئر، وذكروا أيضاً: إنّهم ملأوا هذا البئر بالرماح، وأغلقوا فم البئر بعد إلقاء النّبي فيها بالحجارة حتى استشهد ذلك النّبي[1].

٢ - البعض الآخر يرى أن «أصحاب الرسّ» إشارة إلى قوم «شعيب» الذين كانوا يعبدون الأصنام، وكانوا ذوي أغنام كثيرة وآبار ماء، و«الرسّ» كان اسماً لبئر عظيم، حيث أغاضه الله، فأهلك أهل ذلك المكان.

٣ - بعض آخر يعتقد أن «الرسّ» كانت قرية في أرض «اليمامة» حيث كان يعيش فيها جماعة من بقايا قوم ثمود، فهلكوا نتيجة طغيانهم وغرورهم.

٤ - وذهب آخرون أنّهم كانوا جماعة من العرب الماضين، يعيشون[2] بين الشام والحجاز.

٥ - بعض التفاسير تعرّف «أصحاب الرسّ» من بقايا عاد وثمود، ويعتبر ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[3]. متعلقة بهم أيضاً، وذكر أنّ موطنهم في «حضرموت» واعتقد «الثعلبي» في «عرائس البيان» أن هذا القول هو الأكثر اعتباراً.

البعض الآخر من المفسّرين طبقوا «الرس» على «أرس» (في شمال آذربيجان)!

٦ - العلامة الطبرسي في مجمع البيان، والفخر الرازي في التّفسير الكبير، والآلوسي في روح المعاني نقلوا من جملة الاحتمالات، أنّهم قوم يعيشون في أنطاكية الشام، وكان نبيّهم «حبيب النجار».

٧ - في عيون أخبار الرضا، نقل حديث طويل حول «أصحاب الرس» خلاصته: «إنّهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها (شاه درخت) كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها (روشن آب) وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له «الرسّ»، يسمين بأسماء: آبان، آذر، دي، بهمن أسفندار، فروردين، أُردي بهشت، خرداد، مرداد، تير، مهر، شهريور، ومنها اشتقّ العجم أسماء شهورهم.

وقد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبّة. أجروا عليها نهراً من العين

---

(١) أعلام القرآن، ص ١٤٩.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج ١٠، ص ٩٤.

(٣) سورة الحج، الآية: ٤٥.

التي عند الصنوبرة، وحرّموا شرب مائها على أنفسهم وأنعامهم، ومن شرب منه قتلوه، ويقولون: إنّه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها، وقد جعلوا في كل شهر من السنة يوماً - في كل قرية، عيداً، يخرجون فيه إلى الصنوبرة التي خارج القرية يقربون إليها القرابين ويذبحون الذبائح ثمّ يحرقونها في النار فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها وسطوعه في السماء ويبكون ويتضرعون، والشيطان يكلمهم من الشجرة، وكان هذا دأبهم في القرى حتى إذا كان يوم عيد قريتهم العظمى التي كان يسكنها ملكهم واسمها (أسفندار) اجتمع إليها أهل القرى جميعاً وعيّدوا اثني عشر يوماً، وجاؤوا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين والعبادات للشجرة، وكلّمهم إبليس وهو يعدهم ويمنيهم أكثر ممّا كان من الشياطين في سائر الأعياد من سائر الشجر.

ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة، بعث الله إليهم رسولاً من بني إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهة إلى عبادة الله وترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فيبست، فلما رأوا ذلك ساءهم، فقال بعضهم: إنّ هذا الرجل سحر آلهتنا، وقال آخرون: إنّ آلهتنا غضبت علينا بذلك لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه وشأنه من غير أن نغضب لآلهتنا، فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها، وسدّوا فوهتها، فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات، فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم»[1].

قرائن متعددة تؤيد مضمون هذا الحديث، لأنّ مع وجود ذكر «أصحاب الرسّ» في مقابل عاد وثمود يكون احتمال أنّهم جماعة من هاتين الأُمتين بعيد جداً.

كذلك، فإنّ وجود هؤلاء القوم في الجزيرة العربية والشامات وتلك الحدود - وهو الذي احتمله الكثيرون - بعيد أيضاً، ذلك لأنّه يجب أن يكون له انعكاس في تاريخ العرب بحسب العادة، في الوقت الذي لم نر حتى انعكاساً ضئيلاً لأصحاب الرس لديهم.

مضافاً إلى ذلك توافقه مع كثير من التفاسير الأُخرى، من جملتها: أنّ «الرس» كان اسماً لبئر (البئر التي ألقوا فيها نبيّهم) أو أنّهم كانوا أصحاب زراعة ومواشٍ وأمثال ذلك.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، طبقاً لنقل وتلخيص تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢١٩ والحديث في العيون بإسناده عن أبي الصلت الهروي عن الإمام الرضا عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام.

وما ورد في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: أنّ نساءهم كن منحرفات جنسياً ويمارسن «المساحقة» لا منافاة له مع هذا الحديث أيضاً[1]

ومن عبارة: (نهج البلاغة، الخطبة ١٨٠) يستفاد أنّه كان لهم أكثر من نبيّ واحد، لأنّه عليه السلام يقول: «أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيّين، وأطفأوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين!؟».

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام هذا لا يتنافى مع الرواية أعلاه، لأنّ من الممكن أنّ الرواية تشير إلى مقطع من تاريخهم وكان قد بعث نبي فيهم.

٢ - مجموعة من الدروس المؤثرة

ست فئات في الآيات أعلاه، ذكرت أسماؤهم: قوم فرعون قوم نوح المتعصبون، قوم عاد المتجبرون، ثمود، أصحاب الرس، وقوم لوط، حيث كان كل منهم أسير نوع من الانحراف الفكري والأخلاقي أدّى بهم إلى الهلاك والشقاء.

الفراعنة كانوا ظالمين جائرين ومستعمرين واستثماريين وأنانيين.

قوم نوح كما هو معلوم كانوا معاندين ومتكبرين ومغرورين.

قوم عاد وقوم ثمود كانوا يتكلون على قدراتهم الذاتية.

وكان أصحاب الرس في دوامة الفساد والشذوذ الجنسي وخاصّة نسائهم، وكان قوم لوط غارقين في وحل من الفحشاء، وشذوذ الرجال بخاصّة، والجميع منحرفون عن جادة التوحيد. حيرى في الضلالات.

وهنا يريد القرآن أن يُنذر مشركي عصر النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وجميع الناس على مدى التاريخ: ليكن لكم من القدرات والاستطاعة والإمكانات كل شيء ومهما كان لكم من أموال وثروات وحياة مرفّهة، فإن التلوث بالشرك والظلم والفساد سيستأصل أعماركم، وإنّ نفس أسباب تفوقكم تلك ستكون أسباب هلاككم!

قوم فرعون: وقوم نوح، أُهلكوا بالماء الذي هو أساس الحياة، قوم عاد بالعاصفة والرياح التي هي أيضاً في ظروف خاصّة أساس الحياة، قوم ثمود بالسحاب الحامل للصواعق، وقوم لوط بمطر من الحجارة نزل بعد الصاعقة، أو انفجار بركان على قول بعضهم، وأصحاب الرس طبقاً لذيل تلك الرواية أعلاه، أُبيدوا بنار تطلع من الأرض،

---

(١) الكافي، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٩.

وبشعلة مهلكة انتشرت من السحاب، ليؤوب هذا الإنسان المغرور إلى نفسه، فيتمسك بطريق الله والعدالة والتقوى.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

أضلُّ من الأنعام

الملفت للانتباه أنّ القرآن المجيد لا يورد أقوال المشركين دفعة واحدة في آيات هذه السورة، بل أورد بعضاً منها، فكان يتناولها بالردّ والموعظة والإنذار، ثمّ بعد ذلك يواصل تناول بعض آخر بهذا الترتيب.

الآيات الحالية، تتناول لوناً آخر من منطق المشركين وكيفية تعاملهم مع رسول الإسلام ﷺ ودعوته الحقّة.

يقول تعالى أولاً: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾[1].

وهكذا نجد هؤلاء الكفار يتعجبون! أيَّ ادعاء عظيم يدعي؟ أي كلام عجيب يقول!؟... إنّها مهزلة حقّاً!

لكن يجب ألا ننسى أنّ رسول الإسلام ﷺ، كان هو ذلك الشخص الذي عاش بينهم أربعين عاماً قبل الرسالة، وكان معروفاً بالأمانة والصدق والذكاء والدراية، لكنَّ رؤوسَ الكفر تناسوا صفاته هذه حينما تعرضت منافعهم إلى الخطر، وتلقوا مسألة دعوة النّبي ﷺ - بالرغم من جميع تلك الشواهد والدلائل الناطقة - بالسخرية والاستهزاء حتى لقد اتّهموه بالجنون.

(١) «هزواً» مصدر، وجاء هنا بمعنى المفعول، وهذا الاحتمال وارد أيضاً وهو أن يكون مضافاً مقداراً (محل هزو)، أيضاً فالتعبير بـ«هذا» للتحقير ولتصغير النّبي.

ثمّ يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾(١).

لكن القرآن يجيبهم من عدّة طرق، ففي البداية من خلال جملة واحدة حاسمة يرد على مقولات هذه الفئة التي ما كانت أهلاً للمنطق: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

يمكن أن يكون هذا العذاب إشارة إلى عذاب القيامة، كما قال بعض المفسّرين مثل «الطبرسي» في مجمع البيان، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكرة يوم «بدر» وأمثالها، كما قال «القرطبي» في تفسيره المعروف، ويمكن أن تكون الإشارة إليهما معاً.

الملفت للنظر أنّ هذه الفئة الضالة في مقولتها هذه، وقعت في تناقض فاضح، فمن جهة تلقت النّبي ودعوته بالسخرية، إشارة إلى أنّ ادعاءه بلا أساس ولا يستحق أن يؤخذ مأخذ الجدّ، ومن جهة أُخرى أنّه لولا تمسكهم بمذهب أجدادهم، فمن الممكن أن - يؤثر عليهم كلام النّبي ﷺ ويضلّهم عن ذلك المذهب، وهذا يدل على أنّهم كانوا يعتبرون كلامه قوياً وجدياً ومؤثراً ومحسوباً، وهذا المنطق المضطرب ليس غريباً عن هؤلاء الأفراد الحيارى اللجوجين.

وكثيراً ما يُرى أنّ منكري الحق حينما يقفون قبالة الأمواج المتلاطمة لمنطق القادة الإلهيين، فإنّهم يختارون أُسلوب الاستهزاء تكتيكاً من أجل توهينه ودفعه، في حين أنّهم يخالفون سلوكهم هذا في الباطن، بل قد يأخذوه بجدية أحياناً ويقفون ضده بجميع إمكاناتهم.

الجواب القرآني الثّاني على مقولاتهم ورد في الآية التي بعدها، موجهاً الخطاب إلى النّبي ﷺ على سبيل المواساة وتسلية الخاطر، وأيضاً على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوة النّبي من قبل أُولئك، فيقول: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فهل أنت قادر مع هذا الحال على هدايته والدفاع عنه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

يعني إذا وقف أُولئك أمام دعوتك بالاستهزاء والإنكار وأنواع المخالفات، فلم يكن ذلك لأنّ منطقك ضعيف ودلائلك غير مقنعة، وفي دينك شك أو ريبة، بل لأنّهم ليسوا أتباع العقل والمنطق، فمعبودهم أهواؤهم النفسية، تُرى أتنتظر أن يطيعك هكذا أشخاص، أو تستطيع أن تؤثر فيهم!؟

(١) كلمة (إنْ) في ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ مخففة، للتوكيد، وفي تقدير «إنّه كاد» وضميرها ضمير الشأن.

أقوال مختلفة للمفسرين الكبار في معنى جملة: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ :

قال جماعة - كما قلنا آنفاً -: إنّ المقصود أنّ لهم صنماً، ذلك هو هواهم النفسي، وكل أعمالهم تصدر من ذلك المنبع.

في حين أنّ جماعة أُخرى ترى أنّ المراد هو أنّهم لا يراعون المنطق بأي شكل في اختيارهم الأصنام، بل إنّهم متى ما كانت تقع أعينهم على قطعة حجر، أو شجرة جذابة، أو شيء آخر يثير هواهم، فإنّهم يتوهمونه «معبوداً»، فكانوا يجثون على ركبهم أمامه، ويقدمون القربان، ويسألونه حل مشكلاتهم.

وذكر في سبب نزول هذه الآية رواية مؤيدة لهذا المعنى، وهي أن إحدى السنين العجاف مرّت على قريش، فضاق عليهم العيش، فخرجوا من مكّة وتفرقوا فكان الرجل إذا رأى شجرة حسنة أو حجراً حسناً هواه فعبده، وكانوا ينحرون النعم ويلطخونها بالدم ويسمونها «سعد الصخرة»، وكان إذا أصابهم داء في إبلهم وأغنامهم جاؤوا إلى الصخرة فيمسحون بها الغنم والإبل، فجاء رجل من العرب بإبل يريدُ أن يمسح بالصخرة إبله ويتبرك بها، فنفرت إبله فتفرقت، فقال الرجل شعراً:

أتيتُ إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فما نحن من سعدِ

وما سعد إلاّ صخرة مستوية من الأرض لا تهدي لغيٍّ ولا رشدِ

ومرَّ به رجل من العرب والثعلب يبول عليه فقال شعراً:

وربّ يبول الثعلبانُ برأسه لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب(١)

التّفسيران أعلاه لا منافاة بينهما، فأصل عبادة الأصنام - التي هي وليدة الخرافات - هو اتباع الهوى، كما أنّ اختيار الأصنام المختلفة بلا أي منطق، فرع آخر عن أتباع الهوى أيضاً.

وسيأتي بحث مفصل في الملاحظات الآتية، بصدد «اتباع الهوى والشهوات» إن شاء الله.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآني الثّالث لهذه الفئة الضالة، هو قوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

يعني لا يؤذينك استهزاؤهم ومقولاتهم السيئة وغير المنطقية أبداً، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، ويستخدم عقله، فيكون مصداقاً لـ «يعقلون».

---

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٠.

أو أنّه فاقد للعلم ولكنّه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقاً لـ «يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من أُولئك ولا من هؤلاء، وعلى هذا فلا فرق بينهم وبين الأنعام، وواضح أنّه لا يتوقع من الأنعام غير الصياح والرفس والأفعال اللامنطقية، بل هم أتعس من الأنعام وأعجز، إذ إن الأنعام لا تعقل ولا فكر لها، وهؤلاء لهم عقل وفكر، وتسافلوا إلى حال كهذه.

المهم هو أنّ القرآن يعبّر بـ «أكثرهم» هنا أيضاً، فلا يعمّم هذا الحكم على الجميع، لأنّه قد يكون بينهم أفراد مخدوعون واقعاً، وحينما يواجهون الحق تنكشف عن أعينهم الحجب تدريجياً، فيتقبلون الحق، وهذا نفسه دليل على أنّ القرآن يراعي الإنصاف في المباحث القرآنية.

بحثان

١ - اتباع الهوى وعواقبه الأليمة

لا شك أنّ في كيان الإنسان غرائز وميولاً مختلفة، وجميعها ضروري لإدامة حياته، الغيظ والغضب، حب النفس، حب المال والحياة المادية، وأمثالها، ولا شك أنّ مبدع الوجود خلقها جميعاً لذلك الهدف التكاملي.

لكن المهم هو أنّها تتجاوز حدها أحياناً، وتخرج عن مجالها، وتتمرّد على كونها أداة طيعة بيد العقل، وتصرُّ على العصيان والطغيان، فتسجن العقل، وتتحكم بكل وجود الإنسان، وتأخذ زمام اختياره بيدها.

هذا هو ما يعبرون عنه بـ «اتباع الهوى» الذي هو أخطر أنواع عبادة الأصنام، بل إنّ عبادة الأصنام تنشأ عنه أيضاً، فليس عبثاً أنّ الرّسول الأكرم ﷺ اعتبر صنم «الهوى» أعظم وأسوأ الأصنام، لذا قال: «ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوىً متبع»[1].

ونقرأ في حديث آخر عن بعض أئمّة الإسلام: «أبغض إله عُبد على وجه الأرض الهوى».

وإذا تأملنا جيداً في أعماق هذا القول، نعلم جيداً لماذا كان اتباع الهوى مصدر

---

(١) تفسير الدر المنثور، في ذيل الآية مورد البحث، نقلاً عن تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٢٥٧.

الغفلة، كما يقول القرآن: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[١].

ومن جهة أُخرى فإن اتباع الهوى منبع الكفر وعدم الإيمان، كما يقول القرآن: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[٢].

ومن جهة ثالثة فإنّ اتباع الهوى أسوأ الضلال، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[٣].

ومن جهة رابعة فإن اتباع الهوى نقطة مقابلة لطلب الحق، ويخرج الإنسان عن طريق الله، كما نقرأ في القرآن: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٤].

ومن جهة خامسة فإن اتباع الهوى مانع من العدل والإنصاف كما نقرأ في القرآن: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا﴾[٥].

وأخيراً، فإنّ نظام السماء والأرض إذا دار حول محور أهواء وشهوات الناس، فإنّ الفساد سوف يعمُّ كلَّ ساحة الوجود: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[٦].

وفي الروايات الإسلامية أيضاً، نلاحظ تعبيرات مؤثرة في هذا الصدد:

نقرأ في رواية عن علي عليه السلام: «الشقي من انخدع لهواه وغروره»[٧].

وفي حديث آخر عنه عليه السلام، نقرأ أن: «الهوى عدو العقل»[٨].

نقرأ أيضاً: «الهوى أُسُّ المحن»[٩].

وعنه عليه السلام: «لا دين مع هوى»[١٠] و«لا عقل مع هوى»[١١].

والخلاصة أن اتباع الهوى ليس من الدين وليس من العقل، وليس عاقبة اتباع الهوى إلاّ التعاسة والمحن والبلاء، ولا يثمر إلاّ المسكنة والشقاء والفساد.

أحداث حياتنا والتجارب المرّة التي رأيناها في أيّام العمر بالنسبة إلينا وإلى

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٢) سورة طه، الآية: ١٦.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥٠.
(٤) سورة ص، الآية: ٢٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٣٥.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٧١.
(٧) نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.
(٨) غرر الحكم، الجملة ٢٦٥. غرر الحكم، الجملة ٨٠٨.
(٩) المصدر السابق، الجملة ١٠٤٨.
(١٠) المصدر السابق.
(١١) المصدر السابق، الجملة ١٠٥٤١.

الآخرين، شاهد حي على جميع النكات التي وردت في الآيات والرّوايات أعلاه بصدد اتباع الهوى.

نرى أفراداً يتجرعون المرارة إلى آخر أعمارهم، جزاء ساعة واحدة من اتباع الهوى.

ونعرف شباباً صاروا أسارى مصيدة الإدمان الخطير، والانحرافات الجنسية والأخلاقية، على أثر انقيادهم للهوى، بحيث تحولوا إلى موجودات ذليلة لا قيمة لها، وفقدوا كل قواهم وطاقاتهم الذاتية.

في التاريخ المعاصر والماضي، نلتقي بأسماء الذين قتلوا آلافاً وأحياناً ملايين من الناس الأبرياء، من أجل أهوائهم، بحيث إنّ الاجيال تذكر أسماءهم المخزية بالسوء إلى الأبد.

هذا الأصل لا يقبل الاستثناء، فحتى العلماء والعابدون أهل السابقة مثل (بلعم بن باعورا) سقطوا من قمة العظمة الإنسانية إلى الهاوية، نتيجة انقيادهم لهوى النفس، حيث يمثلهم القرآن بالكلب النجس الذي لا ينفك عن النباح (الآية ١٧٦ سورة الأعراف).

لهذا فلا عجب أن يقول النّبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان، اتباع الهوى وطول الأمل، أمّا اتباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة»[١].

وردت أيضاً في النقطة المقابلة - يعني ترك اتباع الهوى - آيات وروايات توضح عمق هذه المسألة من وجهة نظر الإسلام، إلى حدّ أن يُعدّ مفتاح الجنّة الخوف من الله، ومجاهدة النفس: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٢].

يقول علي عليه السلام: «أشجع الناس من غلب هواه»[٣].

وقد نقلت قصص كثيرة في حالات محبي الحق وأولياء الله، والعلماء والعظماء، حيث نالوا المقامات العالية نتيجة ترك اتباع الهوى، هذه المقامات لم تكن ممكنة بالطرق العادية.

---

(١) سفينة البحار، ج ٢، ص ٧٢٨ (ذيل مادة هوى) ونهج البلاغة، الخطبتان ٢٨ و٤٢.

(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ و ٤١.

(٣) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٧٦، ومستدرك الوسائل، ج١٢، ص ١١١.

٢ - لماذا أضلُّ من الأنعام!؟

لتجسيد أهمية الموضوع في الآيات أعلاه، يبيّن القرآن أوّلاً: أنّ الذين اتّخذوا أهواءهم آلهة يعبدونها هم كالأنعام، وبعد ذلك يضيف مشدداً: بل هم أضل!

نظير هذا التعبير ورد أيضاً في الآية (١٧٢) من سورة الأعراف في أهل النار الذين يؤولون إلى هذا المصير نتيجة عدم الاستفادة من السمع والبصر والعقل، يقول تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.

﴿أَضَلُّ﴾ وإن كانت واضحة إجمالاً، لكن المفسّرين قدموا بحوثاً جيدة في هذه المسألة، وهي - مع تحليل وإضافات:

١ - إذا لم تفهم الأنعام شيئاً، وليس لها أذن سامعة وعين باصرة، فذلك لعدم استعدادها الذاتي، لكن الأعجز منها الإنسان الذي تكمن في وجوده خميرة جميع السعادات، والذي أفاض الله عليه قدراً عظيماً من الاستعدادات ليستطيع أن يكون خليفة الله في الأرض، ولكن أفعاله الذميمة بلغت به حدّاً أسقطته عن مستوى الأنعام، وأذهبت كل لياقاته هدراً، وهوى مِن رتبة مسجود الملائكة إلى حضيض الشياطين الذليلة. وهذا هو الأضل والمؤلم حقاً.

٢ - الأنعام غير مسؤولة تقريباً، وليست مشمولة بالجزاء الإلهي، في حين أنّ البشر الضالين يجب عليهم أن يحملوا عبء كل أعمالهم على عواتقهم، ليروا جزاء أعمالهم بلا نقص أو زيادة.

٣ - تؤدّي الأنعام للإنسان خدمات كثيرة، وتنجز له أعمالاً مختلفة، أمّا طغاة البشر العصاة فلا تتأتى منهم أية منفعة، بل يسببون آلافاً من البلاءات والمصائب.

٤ - الأنعام لا خطر منها على أحد، فإذا كان ثمّة خطر منها، فخطر محدود، لكن الويل من الإنسان غير المؤمن، والمستكبر، عابد الهوى، الذي يؤجج أحياناً نار حرب يذهب ضحيتها الملايين من الناس.

٥ - إذا لم يكن للأنعام قانون ومنهج، فإنّها تتبع مساراً عيّنه الله لها على شكل غرائز، فهي تتحرك على ذلك الخط. أمّا الإنسان المتمرد، فلا يعترف بقوانين تكوينية ولا قوانين تشريعية، ويعتبر هواه وشهواته حاكماً على كل شيء.

٦ - الأنعام لا تبرير لديها لأعمالها أصلاً، فإذا خالفت فهي المخالفة، وإذا أرادت أن تمضي في طريقها حين تمضي فذلك هو الواقع، أمّا الإنسان المتكبر السفاك، عابد

الهوى فكثيراً ما يبرر جميع جرائمه بالشكل الذي يدّعي فيه أنّه يؤدّي مسؤولياته الإلهية والإنسانية.

ولهذا، فلا موجود أكبر خطراً وأشد ضرراً من إنسان متبع للهوى، عديم الايمان ومتمرد.

ولهذا وصمته الآية (٢٢) من سورة الأنفال بلقب (شرّ الدواب) وكم هو مناسب هذا اللقب؟!!

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

حركة الظلال

في هذه الآيات كلام في أقسام مهمّة من النعم الإلهية، على سبيل بيان أسرار التوحيد ومعرفة الله، الأُمور التي يزيدنا التفكر فيها معرفة بخالقنا وقرباً منه، ومع الالتفات إلى أنّ المحاورات الكثيرة في الآيات الماضية كانت مع المشركين، تتّضح صلة وارتباط هذه الآيات بالآيات السابقة.

في هذه الآيات، كلام في نعمة «الظلال» ثمّ في آثار وبركات «الليل» و«النوم والاستراحة» و«ضياء» النهار و«هبوب الرياح» و«نزول المطر» و«إحياء الأراضي الموات» و«سقاية الأنعام والناس».

يقول تعالى أولاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾.

لا شك أنّ هذا الجزء من الآية إشارة إلى أهمّية نعمة الظلال الممتدة والمتحركة.

الظّلال التي لا تثبت على حال، بل هي في حركة وانتقال.

ولكن أي ظل هو المقصود بالآية؟ ثمّة أقوال في أوساط المفسّرين:

بعضهم يقول: هذا الظل الممتد والمنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، وأهنأ الظلال والساعات هي تلك، هذا النور الشفاف، والظل المنبسط، يبدأ عند طلوع الفجر، يتلاشى عند طلوع الشمس حيث يأخذ مكانه الضياء.

ويرى البعض الآخر أنّ المقصود هو ظل الليل بأجمعه، الذي يبدأ من لحظة الغروب وينتهي عند لحظة طلوع الشمس، لأنّنا نعلم أنّ الليل في الحقيقة هو ظل نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، وهو ظل مخروطي يكون في الطرف الآخر ومنتشراً في الفضاء الواسع، وهذا الظل المخروطي في حركة دائمة ومع طلوع الشمس على منطقة يزول عنها ليتشكل في أخرى.

وقال آخرون: المقصود هو الظل الذي يظهر للأجسام بعد الظهر فينبسط شيئاً فشيئاً بالتدريج.

طبيعي، أنّه لو لم تكن الجمل الآتية، لكنّا نفهم من هذه الجملة معنىً واسعاً يشمل جميع الظلال الشاسعة، لكن سائر القرائن التي وردت على أثرها تدل على أن التّفسير الأوّل أكثر تناسباً، لأنّه تعالى يقول على أثر ذلك: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

إشارة إلى أنّ مفهوم الظل لم يكن ليتّضح لو لم تكن الشمس، فالظل من حيث الأصل يخلق بسبب ضياء الشمس، لأنّ «الظل» يطلق عادة على الظلمة الخفيفة اللون التي تظهر الأشياء فيها، وهذا في حالة ما إذا أضاء النور جسماً مانعاً لنفوذ النور، فإن الظل يبدو في الجهة المقابلة. بناءً على هذا فليس تشخيص الظل يتم بواسطة النور طبقاً لقاعدة «تعرف الأشياء بأضدادها» فقط، بل إنّ وجوده أيضاً من بركة النور.

بعد ذلك يبيّن تعالى: ثمّ إنّنا نجمعه جمعاً وئيداً ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

من المعلوم أنّ الشمس حينما تطلع فإنّ الظلال تزول تدريجياً، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماماً في بعض المناطق، لأنّ الشمس آنئذ تستقر تماماً فوق رأس كل موجود، وفي مناطق أُخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، ولهذا فالظل لا يظهر ولا يختفي دفعةً واحدةً، وهذا نفسه حكمة الخالق، ذلك لأنّ الانتقال من النور إلى الظلمة بشكل فجائي يكون ضاراً بجميع المخلوقات، لكن هذا النظام المتدرج في هذه الحالة الانتقالية له أكبر المنفعة بالنسبة إلى الموجودات، دون أن يكون له أي ضرر.

التعبير بـ«يسيراً» إشارة إلى انقباض الظل التدريجي، أو إشارة إلى أنّ نظام النور والظلمة الخاص، شيء يسير هين بالنسبة إلى قدرة الخالق، وكلمة ﴿إِلَيْنَا﴾ تأكيد على هذه القدرة أيضاً.

على أية حال، لا شك أنّ الإنسان كما يحتاج إلى أشعة «النور» في حياته، فهو كذلك يحتاج إلى «الظل» لتعديل ومنع «النور» أوقات اشتداده، فكما أنّ أشعة النور المستديمة تربك الحياة، كذلك فإنّ الظل الدائم الساكن مهلك أيضاً.

في الحالة الأُولى تحترق جميع الموجودات، وفي الحالة الثّانية تنجمد جميعاً، ولكن هذا النظام المتناوب من «النور» و«الظل» هو الذي يجعل الحياة ممكنة وسائغة للإنسان.

لذا فإنّ آيات قرآنية أُخرى تعدُّ وجود الليل والنهار، الواحد تلو الآخر، من النعم الإلهية العظيمة، ففي موضع يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾. ويضيف مباشرة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

ويستنتج من هذا القول أنّ هذا النظام من رحمة الله الذي جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا وتستريحوا فيهما، ولتستفيدوا في تحصيل المعاش من فضله، ولعلكم تشكرون ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

ولهذا يعدّ القرآن «الظل الممدود» إحدى نعم الجنّة، حيث لا نورَ مُعش مرهق، ولا ظلمة موحشة.

بعد ذكر نعمة الظلال، تناول القرآن الكريم بالشرح نعمتين أُخريين متناسبتين معها تناسباً تاماً، فيكشف جانباً آخر من أسرار نظام الوجود الدالة على وجود الله، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا﴾.

كم هو تعبير جميل ورائع ﴿جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِبَاسًا﴾ . . . هذا الحجاب الظلامي الذي لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض ويحفظها كاللباس، ويلتحفه الإنسان كالغطاء الذي يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٧١ و٧٢. (٢) سورة القصص، الآية: ٧٣.

ثمّ يشير تعالى إلى نعمة النوم ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ .

«السبات» في اللغة من «سبت» (على وزن وقت) بمعنى القطع، ثمّ جاء بمعنى تعطيل العمل للاستراحة، ولذا فإنّ أوّل أيّام الأسبوع يسمّونه في لغة العرب «يوم السبت» وهي تسمية أُخذت من طريقة اليهود، لأنّه يوم تعطيلهم.

هذا التعبير - في الحقيقة - إشارة إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانية أثناء النوم، لأنّنا نعلم أنّ قسماً مهماً من الأفعال البدنية يتوقف كلياً في حال النوم، وقسماً آخر مثل عمل القلب وجهاز التنفس يؤدّي عمله بصورة وئيدة جدّاً، ويستمر بصورة أكثر هدوءاً كيما يرتفع التعب وتتجدد القوى.

النوم في وقته وبحسب الحاجة إليه، مجدّد لجميع طاقات البدن، وباعث للنشاط والقوّة، وأفضل وسيلة لهدوء الأعصاب، بعكس الأرق خصوصاً لفترة طويلة - فهو ضارٌ جدّاً وقد يؤدّي إلى الموت أيضاً، ولهذا فإنّ قطع برنامج النوم واحد من أهم أساليب التعذيب حيث يحطم كل مقاومة الإنسان بسرعة.

وفي ختام الآية، أشار تعالى إلى نعمة «النهار» فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ .

كلمة «النشور» في الأصل من النشر بمعنى البسط، في مقابل الطي وربّما كان هذا التعبير إشارة إلى انتشار الروح في أنحاء البدن، حين اليقظة التي تشبه الحياة بعد الموت، أو إشارة إلى انتشار الناس في ساحة المجتمع، والحركة للمعاش على وجه الأرض، نقرأ في حديث عن النبّي الأكرم ﷺ أنّه كان يقول كل صباح: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»[1] .

فضياء النهار من حيث روح وجسم الإنسان باعث على الحركة حقّاً، كما أنّ الظلام باعث على النوم والهدوء.

في عالم الطبيعة أيضاً، فإنّ الحركة والنشاط تشمل جميع الموجودات الحية ويستجد انبعاثٌ فيها بمجرّد سطوع أوّل أشعة للشمس، فينطلق كل واحد منها إلى سبيله، وحتى النباتات تتنفس وتتغذى وتنمو وتنضج أمام النور، أمّا عند مغيب الشمس، فكأن الطبيعة تنفخ في صور انتهاء العمل والسكون، الطيور تؤوب إلى أوكارها، الموجودات الحية تفيء إلى الاستراحة والنوم، حتى النباتات تغطُّ في نوع من النوم.

بعد بيان هذه المواهب العظيمة - التي هي أهم ركائز الحياة الإنسانية - يتناول القرآن

---

(١) تفسير القرطبي، ج٧، ص٤٤٥٥.

الكريم موهبة أُخرى مهمّة جدّاً فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

لا يخفى أن دور الرياح هو أنّها الطلائع المتقدمة لنزول الرحمة الإلهيّة، وإلاّ فلن تنزل قطرة مطر على الأرض العطشى أبداً.

صحيح أن ضياء الشمس يبخر ماء البحار فيتصاعد في الفضاء، وتراكم هذه الأبخرة في طبقة عالية باردة يشكل الغيوم الممطرة، ولكن إذا لم تحمل الرياح هذه الغيوم المثقلة من أعالي المحيطات باتجاه الأراضي اليابسة، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر وستهطل على نفس ذلك البحر.

والخلاصة أن وجود بشائر الرحمة هذه، التي تتحرك بشكل دائم في كل أرجاء الأرض، سبب رواء الجفاف على الأرض، ونزول المطر الباعث على الحياة وتشكيل الأنهار والعيون والآبار، ونمو أنواع النباتات.

إنّ قسماً من هذه الرياح المتقدمة لقطعات الغيوم، في حركتها وامتزاجها برطوبة ملائمة، تبعث النسيم المنعش الذي تشم منه رائحة المطر، هذه الرياح مثل البشير الذي يُنبىء عن قدوم مسافر عزيز.

التعبير بـ «الرياح» بصيغة الجمع لعله إشارة إلى أنواع مختلفة منها، فبعض شمالي، وبعض جنوبي، وبعض يهب من الشرق إلى الغرب، ومنها ما يهب من الغرب إلى الشرق، فتكون سبباً في انتشار الغيوم في كل الآفاق[1].

المهم هنا هو أنّ «الماء» قد وصف بـ «الطهور» التي هي صيغة مبالغة من الطهارة والنقاء ولهذا فمفهوم الطهارة والتطهير يعني أنّ الماء طاهر بذاته، ويطهر الأشياء الملوثة... ثمّة أشياء كثيرة غير الماء طاهرة، ولكنّها لا تستطيع أن تكون مطهرة لغيرها!

وعلى أية حال، فمضافاً إلى خاصية الإحياء، فإنّ للماء خاصية كبيرة الأهميّة هي التطهير، فلولا الماء فإنّ أجسامنا ونفوسنا وحياتنا تتسخ وتتلوث في ظرف يوم واحد والماء وإن لم يكن قاتلاً للميكروب عادة، ولكنّه يستطيع إزالتها وطردها بسبب خاصيته الفذة (الإذابة)، ومن هذه الناحية فإنّه يقدم مساعدة مؤثرة جدّاً في مسألة سلامة الإنسان ومكافحة أنواع الأمراض.

---

(١) يجب الانتباه إلى أنّ «بُشْراً» - بسكون الشين مخفف - «بُشُراً» - بضم الشين - الذي هو جمع «بشور» (على وزن قبول) بمعنى مبشر وبشير.

مضافاً إلى أن تنقية الروح من التلوث بواسطة الغسل والوضوء تكون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح والجسم معاً.

لكن خاصية التطهير هذه مع ما لها من الأهميّة، اعتبرت في الدرجة الثّانية، لذا يضيف القرآن الكريم في الآية التي بعدها بأنّ الهدف من نزول المطر هو الإحياء: ﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾(١).

وأيضاً ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

ملاحظات

وهنا ملاحظات مهمّة:

١ - في هذه الآية ورد الكلام عن الأنعام والأناسي الكثيرة مع أنّ جميع الناس والحيوانات تستفيد من ماء المطر!!

هذه إشارة إلى البدو الرحل وساكني الخيام الذين ليس لديهم ماء مطلقاً سوى ماء المطر حيث يستفيدون منه مباشرة، هذه النعمة الكبيرة محسوسة لديهم أكثر فحينما تظهر السُّحب في السماء ويهطل عليهم المطر، وتمتلىء الأراضي المنخفضة من ماء المطر الزلال، فيرتوون منه ويسقون أنعامهم، ويشعرون بنشاط الحياة يدبُّ في وجودهم ووجود أنعامهم.

٢ - جملة ﴿وَنُسْقِيَهُۥ﴾ من مادة «إسقاء» وفرقها عن «سقى» كما قال الراغب في المفردات وآخرون من المفسّرين، هو أنّ الإسقاء بمعنى تهيئة الماء وجعله للسقاية، ليشرب منه الإنسان متى أراد، في حين أن مادة «سقى» بمعنى أن يُعطى من يريد الماء حتى يشرب، وبعبارة أخرى فإن الإسقاء له معنىً أوسع وأعم.

٣ - في هذه الآية، ورد الكلام أوّلاً عن الأراضي الميتة، ثمّ الأنعام ثمّ الأناسي، وهذا التعبير ربّما كان لأنّ الأراضي إذا لم تحي بالمطر، فلن يكون للأنعام طعام، وإذا لم تعش الأنعام، فلن يستطيع الإنسان أن يتغذى منها.

٤ - طرح مسألة الإحياء بالماء بعد مسألة التطهير، قد يكون إشارة إلى الارتباط الوثيق بين هاتين المسألتين (حول آثار الإحياء بالماء، ثمّة بحث مفصل في ذيل الآية ٣٠ سورة الأنبياء).

---

(١) ينبغي الالتفات إلى أن «بلدة» هنا بمعنى الصحراء، ومع أنّ هذا اللفظ مؤنث، فصفته التي هي «ميتاً» وردت بصيغة المذكر، ذلك لأنّ المراد بالمعنى «المكان» وهو مذكر.

في الآية الأخيرة - مورد البحث - يشير تعالى إلى القرآن فيقول: جعلنا هذه الآيات بينهم بصور مختلفة ومؤثرة ليتذكروا وليتعرفوا من خلاله على قدرة الخالق، لكن كثيراً من الناس لم يتخذوا موقفاً إزاء ذلك إلاّ الإنكار والكفران: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

وإن أرجع كثير من المفسّرين مثل العلاّمة الطبرسي في تفسيره، والشيخ الطوسي في تفسير التبيان، والعلامة الطباطبائي في تفسير الميزان وآخرين، الضمير في جملة ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ إلى المطر، حيث يكون مفهومها هكذا: أنزلنا المطر في جهات ومناطق مختلفة من الأرض، ووزعناه بين الناس ليتذكروا هذه النعمة العظمى.

لكن الحق أن هذا الضمير يرجع إلى القرآن وآياته، لأنّ هذا التعبير (بصيغة الفعل الماضي والمضارع) ورد في عشرة مواضع من القرآن المجيد، حيث أُرجع في تسعة مواضع إلى آيات القرآن وبياناته صراحة، وأُتبع بجملة ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أو ما يشابهها في موارد متعددة، على هذا فمن البعيد جداً أن يأخذ هذا التعبير مفهوماً آخر في هذا المورد الواحد.

ومن حيث الأصل فإنّ «تصريف» التي هي بمعنى التحويل من حال إلى حال، ليس لها تناسب كثير مع نزول المطر، في وقت هي أكثر تناسباً مع آيات القرآن التي تأتي في أنحاء مختلفة، أحياناً بصورة وعد، وأحياناً بصورة أمر، وأُخرى بصورة نهي، وأحياناً بصورة قصص الماضين.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

بحران متجاوران: عذب فرات وملح أُجاج

الآية الأُولى - مورد البحث - أشارت إلى عظمة مقام النّبي ﷺ، يقول تعالى: لو

أردنا لبعثنا نبيّاً في كل مدينة وبلد، لكنّنا لم نفعل هذا وألقينا مسؤولية هداية العالمين على عاتقك: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾.

كما أنّ الله عَزَّوَجَلَّ - طبقاً للآيات السابقة - قادر على إرسال قطرات المطر الباعث على الحياة إلى كل الأراضي الميتة، فله القدرة أيضاً على إنزال الوحي والنبوّة على قلب نبيّ في كل قرية، وأن يبعث لكل أُمة نذيراً، لكن الله يختار لعباده ما هو أصلح، لأنّ تمركز النبوّة في وجود فرد واحد يكون باعثاً على وحدة وانسجام الناس، ومانعاً من كل فرقة وتشتت.

ويحتمل أن بعض المشركين أوردوا هذا الإشكال وهو: ألم يكن من الأفضل أن يبعث الله نبيّاً في كل مدينة وقرية؟!

لكن القرآن يقول في ردّهم: لو أراد الله ذلك لفعل، لكن هذا التشتت ليس في صالح الأمم والشعوب قطعاً.

وعلى أية حال، فكما أنّ هذه الآية دليل على عظمة مقام النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فهي دليل كذلك على وجوب وحدة القائد، وعلى ثقل عبء مسؤوليته.

وبنفس هذا الدليل، يبيّن الله تبارك وتعالى في الآية التالية، أمرين إلهيين مهمين يشكلان منهجين أساسيين للأنبياء، فيوجه الخطاب أوّلاً إلى الرّسول الأعظم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ويقول: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾.

لا تخطُ أية خطوة على طريق التوافق مع انحرافاتهم، فإنّ التوافق مع المنحرفين آفة الدعوة إلى الله، قف أمامهم بقوّة، واسعَ إلى إصلاحهم، لكن كن حذراً ولا تستسلم لأهوائهم وخرافاتهم.

أمّا القانون الثّاني فهو: جاهد أُولئك بالقرآن: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

جهاداً كبيراً بعظمة رسالتك، وبعظمة جهاد كل الأنبياء الماضين، الجهاد الذي يشمل جميع الأبعاد الروحية والفكرية للناس، ويشمل كل الأصعدة المادية والمعنوية.

لا شك أنّ المقصود من الجهاد في هذا الموضع هو الجهاد الفكري والثقافي والتبليغي وليس الجهاد المسلح، ذلك لأنّ هذه السورة مكية، والأمر بالجهاد المسلح لم يكن قد نزل في مكّة. وعلى قول العلاّمة «الطبرسي» في مجمع البيان، أنّ هذه الآية دليل واضح على أنّ الجهاد الفكري والتبليغي في مواجهة وساوس المضلين وأعداء الحق من أكبر أنواع الجهاد.

وروي عن النّبي ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(١).

وربّما كان هذا الحديث إشارة إلى نفس هذا الجهاد وإلى عظمة ما يؤدّيه العلماء في التبليغ بالدين، هذا التعبير يجسد أيضاً عظمة مقام القرآن، ذلك لأنّه وسيلة هذا الجهاد الكبير وسلاحه القاطع، فإنّ قدرته البيانية واستدلاله وتأثيره العميق وجاذبيته فوق تصور وقدرة البشر.

الوسيلة المؤثرة والواضحة كوضوح الشمس وضياء النهار، والمطمئنة كطمأنينة ستائر الليل، والمحركة كحركة الرياح الخلاقة، والعظيمة بعظمة الغيوم وفيما تبثه قطرات المطر من حياة، حيث أشارت إلى ذلك الآيات السابقة.

وبعد فاصلة وجيزة، يتناول القرآن الكريم مجدداً الاستدلال على عظمة الخالق عن طريق بيان نعمه في النظام الكوني، فيشير بعد ذكر المطر في الآيات السابقة إلى عدم الاختلاط بين المياه العذبة والمالحة: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

﴿مَرَجَ﴾ من مادة «المرج» (على وزن فلج) بمعنى الخلط أو الإرسال، وهنا بمعنى المجاورة بين الماء العذب والمالح.

﴿عَذْبٌ﴾ بمعنى سائغ وطيب وبارد، و﴿فُرَاتٌ﴾ بمعنى لذيذ وهنيء.

﴿مِلْحٌ﴾ بمعى مالح، و﴿أُجَاجٌ﴾ بمعنى مُرّ وحار. (بناء على هذا فملح وأجاج نقطتان مقابلتان لعذب وفرات).

«برزخ» بمعنى حجاب وحائل بين شيئين.

وجملة ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ كما أشرنا سابقاً (ذيل الآية ٢٢ من هذه السورة) كانت جملة لأخذ الأمان بين العرب يقولونها عندما يفاجؤون بشخص يخافونه ويرهبونه، يعني (اعفُ عنا، وآمنا، وابتعد عنا).

على أية حال، فهذه الآية تصور واحداً من المظاهر المدهشة لقدرة الخالق في عالم مخلوقاته، وكيف يستقر حجاب غير مرئي، وحائل خفي بين البحر المالح والبحر العذب، فلا يسمح لهما بالاختلاط.

وقد اتّضح اليوم أن هذا الحجاب اللامرئي، هو ذلك «التفاوت بين كثافة المالح

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٧٥.

والعذب» وفي الاصطلاح «تفاوت الوزن النوعي» لهما، حيث يكون سبباً في عدم امتزاجهما إلى مدة طويلة.

ورغم أنّ جماعة من المفسّرين وقعوا في تعب من أجل اكتشاف مثل هذين البحرين في الكرة الأرضية وأين يوجد بحر عذب الماء في جوار بحر مالح الماء ولا يمتزجان!؟ لكن هذه المشكلة انحلت لنا، لأنّنا نعلم أنّ جميع أنهار الماء، العذب العظيمة التي تصب في البحار عند الساحل، تشكل بحراً من الماء العذب، فتدفع المياه المالحة إلى الخلف، ويستمر هذا الوضع إلى مدّة طويلة، وبسبب التفاوت في كثافتهما يمتنعان عن الامتزاج مع بعضهما، فكل واحد منهما يقول للآخر: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

الملفت هو أنّ سطح البحر يرتفع وينخفض بمقدار كبير بسبب المد والجزر اللذين يحصلان مرّتين في اليوم بتأثير جاذبية القمر وبذلك تغمر المياه العذبة التي شكلت بحراً اليابسة في مصبات تلك الأنهار وأطرافها، وقد استفاد الناس من هذه الحالة منذ قديم الزمان، فحفروا جداول كثيرة في أطراف ملتقى الأنهار مع البحر، وزرعوا أراض شاسعة بالأشجار، حيث تتمّ سقايتها بنفس ذلك الماء العذب الذي ينتشر في مناطق واسعة بواسطة المد والجزر.

توجد حتى الآن في جنوب العراق وإيران ملايين من أشجار النخيل، وقد شاهدنا عن قرب أنّ قسماً منها يسقى فقط بهذه الوسيلة، ويقع على بعد كبير من ساحل البحر، وأحياناً يتغلب الماء المالح حيث تقل المياه التي تصبها الأنهار الكبيرة في البحر في السنين المجدبة، فيقلق المزارعون من أهل هذه المنطقة، لأنّ ذلك يضرُّ بزراعتهم ضرراً بالغاً.

لكن العادة ليست كذلك، فهذا الماء «العذب الفرات» المستقر إلى جوار الماء «المالح والأجاج» يُعدُّ ذخيرة عظيمة لهم.

معلوم أنّ وجود العلل الطبيعية في مثل هذه المسائل لا يقلل من قيمتها أبداً، وإلاّ فما هي الطبيعة؟ ليست هي إلاّ فعل الله وإرادته ومشيئته، وهو تعالى الذي منح هذه الخواص لهذه الموجودات.

والملفت للنظر أنّ الإنسان حينما يجتاز هذه المناطق بالطائرة، يرى جيداً هذين الماءين المختلفين في اللون، غير الممتزجين، فيذكّر هذا المشهد الإنسان بهذه النكتة القرآنية.

إنّ جعل هذه الآية وسط آيات تتعلق بـ «الكفر» و«الإيمان» ربّما تكون أيضاً إشارة وتمثيلاً لهذا الأمر، ففي المجتمع الواحد أحياناً، وفي المدينة الواحدة، بل حتى في البيت الواحد أحياناً، يتواجد أفراد مؤمنون كالماء العذب والفرات، مع أفراد بلا إيمان كالماء المالح الأجاج. . . مع طرازين من الفكر، ونوعين من العقيدة، ونمطين من العمل، طاهر وغير طاهر، دون أن يمتزجا.

في الآية التالية - بمناسبة البحث في نزول المطر، وفي البحرين العذب والأجاج المتجاورين يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان من الماء، فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾.

حقاً إن النحت في الماء، وخلق صورة بديعة كهذه على الماء، دليل على عظمة قدرة الخالق، وكان الكلام في الآيات السابقة حول إحياء النباتات بواسطة المطر، والكلام - هنا عن مرحلة أعلى، يعني خلق الإنسان من الماء.

وبين المفسّرين أقوال في المراد من الماء هنا:

ذهب جماعة أنّ المقصود من «بشر» هو الإنسان الأول، يعني آدم عليه السلام، ذلك لأنّ خلقه كان من «طين» يعني عجيناً من ماء وتراب، إضافة إلى أنّ الماء كان أوّل موجود خلقه الله تعالى طبقاً للرّوايات الإسلامية، وخلق الإنسان من ذلك الماء، وتنكير «بشر» شاهد على هذا المعنى.

وذهب جماعة آخرون أنّ المقصود من «الماء» هو ماء النطفة، حيث يتكون جميع الناس منه بقدرة الخالق، ومع امتزاج نطفة الرجل «الحيمن» الذي يسبح في الماء مع «البويضة» نطفة المرأة، تتكون أول نواة لحياة الإنسان، يعني الخلية الإنسانية الحية الأُولى.

لو تدبّر الإنسان وتأمل في مراحل انعقاد النطفة من بدايتها إلى نهايتها، فسيشاهد الكثير من آيات عظمة الحق وقدرة الخالق فيها، حيث تكفي وحدها لمعرفة ذاته المقدسة تبارك وتعالى.

الشاهد على هذا التّفسير، جملة وردت في آخر الآية، وسنشرحها ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

فضلاً عن هذا، فلا شك أنّ الماء يشكل القسم الأكبر من وجود الإنسان، بالصورة التي يمكن القول أنّ المادة الأساس لوجود أي إنسان هي الماء، لهذا فإن مقاومة

الإنسان إزاء العطش قليلة جدّاً، في حين يستطيع الإنسان أن يقاوم أيّاماً وأسابيع حيال قلّة المواد الغذائية.

ويحتمل قوياً أيضاً، أنَّ جميع هذه المعاني تجتمع في مفهوم الآية، أي إنّ الإنسان الأوّل خلق من ماء، وأن تكوّن جميع أفراد البشر من ماء النطفة أيضاً، وأنّ الماء يشكل أهم مادة في بناء جسم الإنسان أيضاً... الماء الذي يعتبر من أبسط موجودات هذا العالم، كيف صار مبدأ إيجاد مثل هذا الخلق الجميل!؟ وهذا دليل بيّن على قدرته تبارك وتعالى.

بعد ذكر خلق الإنسان، يورد جلّ ذكره الكلام عن انتشار الإنسان، فيقول: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ﴾.

المقصود من «النسب» هو القرابة التي تكون بين الناس عن طريق الذرية والولد، مثل ارتباط الأب والابن، أو الإخوة بعضهم مع بعض، أمّا المقصود من «صهر» التي هي في الأصل بمعنى «الختن» هو الارتباط الذي يقام بين طائفتين عن هذا الطريق، مثل ارتباط الإنسان بأقرباء زوجته، وهذان الاثنان هما ما يعبر عنه الفقهاء في مباحث النكاح بـ«النسب» و«السبب».

في القرآن المجيد في سورة النساء، أُشير إلى المحارم النسبية في سبعة موارد (الأم، البنت، الأخت، العمة، الخالة، بنت الأخ، بنت الأخت) وإلى المحارم السببية في أربعة موارد (بنت الزوجة، أم الزوجة، زوجة الابن، زوجة الأب).

من المؤكّد أنّ هناك وجهات نظر أُخرى لدى المفسّرين في تفسير هذه الجملة، لكن ما قلناه أوضح وأقوى من جميعها.

فمن جملتها أنّ جماعة منهم اعتبروا «النسب» بمعنى أولاد الابن، «الصهر» بمعنى أولاد البنت، ذلك لأنّ الارتباط النسبي يحسب على أساس الآباء لا على أساس الأُمهات.

وكما قلنا بشكل مفصل - في ذيل الآية (٦١) من سورة آل عمران - فإنّ هذا اشتباه كبير، استمدَّ من سنن أيّام ما قبل الإسلام، حيث اعتبروا النسب عن طريق الأب فقط، وليس للأم أي أثر، في حين أنّ من المسلمات في الفقه الإسلامي وبين جميع علماء الإسلام أنّ الحرمة النسبية من ناحية الأب ومن ناحية الأُم أيضاً (ولزيادة الاطلاع، راجع التّفسير ذيل الآية (٦١) من سورة آل عمران).

والجدير بالذكر، أنّ لدينا حديثاً معروفاً، نقل في كتب الشيعة والسنة، وطبقاً لهذا الحديث فإنّ الآية أعلاه نزلت في النّبي ﷺ وعلي عليه السلام، وذلك أنّ النّبي زوّج ابنته فاطمة من علي عليه السلام، ولهذا فقد كان علي عليه السلام ابن عمّ النّبي ﷺ وزوج ابنته أيضاً، وهذا معنى «نسباً وصهراً»(١).

ولكن هذه الرّوايات تعتبر بياناً للمصاديق الواضحة، ولا تقدح بعمومية مفهوم الآية، فالآية تشمل كل ارتباط يكون عن طريق النسب والمصاهرة، وأحد مصاديقها الواضحة كان ارتباط علي عليه السلام من جهتين مع النّبي ﷺ.

في ختام الآية يقول تبارك وتعالى بصيغة التأكيد على المسائل الماضية: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

ويبيّن القرآن الكريم في نهاية المطاف في الآية الأخيرة - مورد البحث - انحراف المشركين عن أصل التوحيد، من خلال المقايسة بين قدرة الأصنام وقدرة الخالق، حيث مرّت نماذج منها في الآيات السابقة، يقول: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾.

من المسلّم أنّ وجود المنفعة والضرر لا يكون وحده معيار العبادة، لكن القرآن يبيّن من خلال هذا التعبير هذه النكتة، وهي أنّهم يفتقدون أية حجة في هذه العبادة، لأنّ الأصنام موجودات عديمة الخاصية تماماً، وفاقدة لأية قيمة، ولأي تأثير سلبي أو إيجابي.

ويضيف القرآن الكريم في ختام الآية أنّ الكفرة يعين بعضهم بعضاً في مواجهة خالقهم «في طريق الكفر» ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾.

إنّ هؤلاء ليسوا وحدهم في طريق الضلال، إنّهم يقوي بعضهم بعضاً بشكل قاطع، ويعبئون القوى ويقيمون العراقيل ضد دين الله ونبيّه والمؤمنين الحقيقيين، وإذا رأينا أنّ بعض المفسّرين يحصر «الكافر» الوارد في هذه الآية في «أبي جهل» فمن باب ذكر المصداق البارز، وإلاّ فإنّ الكافر في كل مورد له معنى واسع يشمل جميع الكفار.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٧٥، وتفسير روح المعاني، ذيل هذه الآية.

مسألتان

١ - وحدة القيادة

في الآية الأولى - مورد البحث - قرأنا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ ولكننا لم نفعل مثل هذا... ومن المسلّم أن علة ذلك لأنّ الأنبياء قادة الأُمم، ونعلم أنّ التعدد في مسألة القيادة يؤدّي إلى إضعاف كل أُمّة وشعب، خاصّة وأنّ الكلام هنا عن خاتم الأنبياء ﷺ، ويجب أن تستمر هذه القيادة حتى نهاية العالم، لذا تتّضح - أكثر - أهمية التمركز والوحدة في القيادة.

القائد الواحد يستطيع أن يوحد جميع القوى، ويمنحها الانسجام والوحدة، وفي الحقيقة فإن مسألة وحدة القيادة انعكاس لحقيقة التوحيد في المجتمع الإنساني، ويكون في النقطة المقابلة ظواهر الشرك والتفرقة والنفاق.

وما ورد في الآية (٢٤) من سورة فاطر: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ فليس ثمّة منافاة مع البحث أعلاه، لأنّ الكلام فيها عن الأُمة، لا أهل كل مدينة وكل بلد.

فلو أغمضنا النظر عن مقام الأنبياء، فإنّ هذا الأصل صحيح أيضاً حتى في أدنى مستويات القيادة، والشعوب التي صارت أسيرة التعدد في القيادة، انتهت إلى التجزئة في سائر شؤونها، فضلاً عن الضعف والعجز.

٢ - القرآن وسيلة الجهاد الكبير

«الجهاد الكبير» تعبير بليغ عن أهمّية منهج الكفاح الرّباني البنّاء.

الملفت للانتباه في الآيات أعلاه، هو أنّ هذا العنوان قد أُعطي للقرآن، أو بعبارة أخرى: للأشخاص الذين يجاهدون بالقرآن مظاهر الضلال والانحرافات والتلوثات.

هذا التعبير يبيّن المواجهات المنطقية والعقائدية من جهة، ويكشف عن عظمة مقام القرآن من جهة أُخرى.

ورد في بعض الرّوايات: أنّ أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمر بن وهب الثقفي حليف بني زهرة... خرجوا ليلة ليستمعوا إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته. فأخذ كلٌّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق،

فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً! ثمّ انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثّانية عاد كلُّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أوّل مرّة! ثمّ انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثّالثة أخذ كلُّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود! فتعاهدوا على ذلك، ثمّ تفرقوا.

فلمّا أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثمّ خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني - يا أبا حنظلة - عن رأيك فيما سمعت من محمّد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

قال: ثمّ خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟

فقال: ماذا سمعت!؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه!!.

قال: فقام عنه الأخنس وتركه[1].

نعم، جاذبية القرآن ردت هؤلاء إلى أنفسهم لبالٍ متوالية، وكانوا حتى بياض الصبح غرقى هذه الجاذبية الإلهيّة، لكن التكبر والتعصب والحرص على المصالح المادية كان مسلطاً عليهم بحيث منعهم من قبول الحق.

ولا شك أنّ هذا النّور الإلهي له هذه القدرة على أن يجذب إليه كل قلب مستعد أينما كان، ولهذا كان القرآن وسيلة «الجهاد الكبير» في الآيات مورد البحث.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ

(١) سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٣٣٧؛ وتفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ١٧٢.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

التّفسير

أجري هو هدايتكم

كان الكلام في الآيات السابقة حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التي لا تضرُّ ولا تنفع، وفي الآية الحالية الأُولى يشير القرآن إلى مهمّة النّبي ﷺ قبالة هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[١].

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أديت مهمتك في البشارة والإنذار، ودعوت القلوب المستعدة إلى الله.

هذا الخطاب، كما يشخص مهمّة النّبي ﷺ، كذلك يسلّيه، وفيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، وعدم المبالاة بهم.

ثمّ يأمر النّبي ﷺ أن يقول لهم إنني لا أُريد منكم في مقابل هذا القرآن وإبلاغكم رسالة السماء أي أجر وعوض: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ثمّ يضيف: إنّ الأجر الوحيد الذي أطلبه أن يهتدي الناس إلى طريق الله ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

يعني أجري وجزائي هو هدايتكم فقط، وبكامل الإرادة والاختيار أيضاً، فلا إكراه ولا إجبار فيه، وكم هو جميل هذا التعبير الكاشف عن غاية لطف ومحبة النّبي ﷺ لأتباعه، ذلك لأنّه عدّ[٢] أجره وجزاءَه سعادتهم.

بديهي أنّ للنّبي ﷺ أجراً معنوياً عظيماً على هداية الأمة، ذلك لأن «الدال على الخير كفاعله»[٣].

---

(١) «نذير» في اعتقاد البعض صيغة مبالغة، في حين أنّ «مبشر» اسم فاعل فقط، هذا التفاوت التعبيري يمكن أن يكون بسبب أنّ النّبي ﷺ كان في مواجهة فئة بلا إيمان وكان لها إصرار بالغ على انحرافها، فلا بد أن يبالغ في إنذارها. (روح المعاني ذيل الآية مورد البحث).

(٢) بناء على هذا فالاستثناء في الآية أعلاه «استثناء متصل» وإنْ بدا منقطعاً لأول وهلة.

(٣) وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٢٣، من طبعة آل البيت.

وذكر المفسّرون احتمالات أُخرى أيضاً في تفسير هذه الآية من جملتها:

يرى جماعة من المفسّرين أنّ معنى هذه الآية هكذا «أنا لا أريد منكم أي جزاء إلاّ ما أردتم من إنفاق الأموال على المحتاجين في سبيل الله، وذلك مرتبط برغبتكم»(١).

لكنّ التّفسير الأوّل أقرب إلى معنى الآية.

اتّضح ممّا قلناه أعلاه، أنّ الضمير في «عليه» يرجع إلى القرآن وتبليغ دين الإسلام، لأنّ الكلام كان في عدم المطالبة بالأجر والجزاء في مقابل هذه الدعوة.

هذه الجملة بالإضافة إلى أنّها تقطع حجج المشركين، فهي توضح أن قبول هذه الدعوة الإلهية سهل ويسير جدّاً لكل أحد، بلا مشقّة ولا خسارة.

وهذا بنفسه شاهد على صدق دعوة النّبي ﷺ، ونقاء فكره ومنهجه، وذلك لأنّ الأدعياء الكاذبين لابدّ أن يُدخلوا في هذا العمل رغبتهم في الأجر والجزاء بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

وتبيّن الآية التي بعدها المعتمد الأساس للنّبي ﷺ: «وتوكل على الحي الذي لا يموت».

فمع هذا المعتمد والملجأ والمولى الذي ما زال ولن يزال حياً دائماً، فلا حاجة لك بأجر وجزاء هؤلاء، ولا خوف عليك من ضررهم ومؤامراتهم.

والآن حيث الأمر على هذه الصورة فسبح الله تنزيهاً له من كل نقص، وأحمده إزاء كل هذه الكمالات ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾.

من الممكن اعتبار هذه الجملة بمنزلة التعليل للجملة السابقة، لأنّ تعالى هو المنزّه من كل عيب ونقص، وأهلٌ لكل كمال وجمال، وحقيق بالتوكل عليه.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان ومؤامرات الأعداء، لأنّ الله مطلع على ذنوب عباده وسيحاسبهم: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

الآية التالية بيان لقدرة الخالق في ساحة عالم الوجود، ووصف آخر لهذا الملاذ الأمين، يقول تعالى: ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. ثمّ ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فأخذ بتدبير العالم.

إنّ من له هذه القدرة الواسعة يستطيع أن يحفظ المتوكلين عليه من كل خطر وحادثة،

(١) الاستثناء في هذه الحالة «استثناء منقطع».

فكما أنّ خلق العالم كان بواسطة قدرته، كذلك فإنّ إدارة وقيادة وتدبير ذلك العالم بأمر ذاته المقدسة.

ضمناً، فإنّ خلق العالم بشكل تدريجي إشارة إلى أنّ الله لا يعجل في أي عمل، فإذا لم يجاز أعداءك سريعاً، فلأجل أن يمنحهم الفسحة والفرصة حتى يأخذوا بإصلاح أنفسهم، فضلاً عن أن من يعجّل هو من يخاف الفوت، وهذا غير متصور بالنسبة إلى الله القادر المتعال.

في مسألة خلق عالم الوجود في ستة أيّام، فإنّ «اليوم» في مثل هذه الموارد بمعنى «المرحلة»، أو الفترة الزمنية وهذه الفترة من الممكن أن تستغرق ملايين أو مليارات من السنين، وشواهد هذا المعنى في الأدب العربي وغيره كثيرة، بحثناه بشكل مفصل في تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف، وشرحنا هناك هذه المراحل الست.

وأيضاً فإنّ معنى «العرش» وجملة ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وردت هناك أيضاً.

وفي ختام الآية يضيف تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ من شملت رحمته العامّة جميع الموجودات، فالمطيع والعاصي والمؤمن والكافر يغترفون من خوان نعمته التي لا انقطاع فيها.

والآن، حيث ربّك الرحمن القادر المقتدر، فإذا أردت شيئاً فاطلب منه فإنّه المطلع على احتياجات جميع عباده: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾.

هذه الجملة - في الحقيقة - نتيجة لمجموع البحوث السابقة. يأمر الله النّبي ﷺ: أعلِنْ لهم أنّني لا أريد منكم أجراً، وتوكل على الله الجامع لكل الصفات، القادر، والرحمن، والخبير، والمطلع، واطلب منه أي شيء تريده.

للمفسّرين أقوال أُخرى في تفسير هذه الجملة، فقد جعلوا السؤال هنا بمعنى الاستفهام (لا الطلب)، وقالوا: إن مفهوم الجملة هو: إذا أردت أن تسأل في موضوع خلق الوجود وقدرة الخالق، فاسأله هو، فهو العالم بكل شيء.

بعض آخر، بالإضافة إلى أنّهم فسروا «السؤال» بـ«الاستفهام» قالوا: إنّ المقصود بـ«الخبير» جبرئيل، أو النّبي، يعني: اسألهما عن صفات الله.

التّفسير الأخير بعيد جدّاً بالتأكيد، وما قبله أيضاً غير متناسب كثيراً مع الآيات السابقة، والأقرب هو ما قلناه في معنى الآية من أنّ المقصود من السؤال هو الطلب من الله[1].

---

(١) طبقاً لهذا التّفسير فـ«الباء» في «به» زائدة، أمّا طبقاً للتفاسير الأُخرى، فإن «الباء» بمعنى «عن».

مسألتان

١ - أجر الرسالة

نقرأ في كثير من آيات القرآن أنّ أنبياء الله كانوا يبيّنون هذه الحقيقة بصراحة: إنّنا لا نسأل أي أجر من أي أحد، بل إنّ أجرنا على الله العظيم فقط.

الآيات ١٠٩ و١٢٧ و١٤٥ و١٦٤ و١٨٠ سورة الشعراء، وكذلك الآيتان ٢٩ و٥١ سورة هود، والآية ٧٢ سورة يونس و٤٧ سورة سبأ، تدل على هذا المعنى.

لا شك أن عدم المطالبة بالأجر هذه، تدفع كل اتهام عن الأنبياء، فضلاً عن أنّهم يستطيعون أن يواصلوا عملهم بحرية تامة، وترتفع الموانع والحواجز التي قد تحدّد من حرية ألسنتهم بسبب العلاقة المادية.

أمّا الملفت للانتباه فإنّه تلاحَظ ثلاثة تعابير مختلفة فيما يخص الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم.

١ - التعبير الذي ورد في الآيات أعلاه ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ هذا التعبير الفذّ البليغ الرائع.

٢ - التعبير الوارد في الآية (٢٣) من سورة الشورى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

٣ - التعبير الوارد في الآية (٤٧) من سورة سبأ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

من انضمام هذه التعابير الثلاثة إلى بعضها، تتحصل النتيجة التالية: فيما يخص الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، إذا عُدّت المودة في القربى أجر رسالته، فهذه المودة - من جانب - في نفع المؤمنين أنفسهم لا بنفع النّبي، ومن جانب آخر فإنّ هذه المودّة وسيلة حصول الهداية على طريق الله تبارك وتعالى.

بناء على هذا، فإنّ مجموع هذه الآيات يشير إلى أنّ المودّة في قربى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هي استمرار منهج رسالة وقيادة ذلك النّبي، وبعبارة أخرى: لمواصلة طريق النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وهدايته وقيادته يجب الارتباط بذوي قرباه، والاعتماد على قيادتهم، هذا هو الأمر الذي يدافع عنه اتباع أهل البيت في مسألة الإمامة، فإنّهم يعتقدون أن امتداد القيادة بعد النّبي سيستمر إلى الأبد، لا في شكل النبوّة، بل في شكل الإمامة.

ومن اللازم الالتفات إلى هذه النكتة أيضاً، وهي أنّ المحبّة عامل مؤثر في الاتباع، كما نقرأ في الآية (٣١) من سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى...﴾ ذلك لأنّي المبلغ بأمره.

ورابطة الحب من حيث الأصل، تأخذ الإنسان باتجاه المحبوب وإرادته، وكلما كانت رابطة الحب أكثر قوّة، كانت هذه الجاذبية قوية أكثر، خصوصاً المحبّة التي يكون دافعها كمال «المحبوب»، ويكون الإحساس بهذا الكمال سبباً في أن يسعى الإنسان ليتقرب إلى مبدأ الكمال وإلى تنفيذ إراداته(١).

٢ - على من يجب التوكل؟

في الآيات أعلاه، يأمر الله تبارك وتعالى النّبي ﷺ بالتوكل، وأن يصرف النظر عن جميع المخلوقات، وينظر إلى الله عزّوجلّ فقط.

ولذلك يعدّد الصفات لهذه الذات المقدسة، وهي في الحقيقة شرائط أساسية فيمن يستطيع أن يكون ملاذاً واقعياً وآمناً للناس:

الأولى: أن يكون حياً، وذلك أنّ موجوداً ميتاً فاقداً لخصائص الحياة - مثل الأصنام - لا يمكنه أبداً أن يكون معتمداً.

الثّانية: أن تكون حياته خالدة، بالشكل الذي لا يحدث احتمال موته تزلزلاً في فكر المتوكلين.

الثّالثة: أن يحيط بكل شيء علماً، فيكون مطلعاً على احتياجات المتوكلين، وعلى خطط ومؤامرات الأعداء أيضاً.

الرّابعة: أن يكون على كل شيء قديراً، حيث لا وجود فيه لأي شكل من العجز وعدم الاستطاعة الموجبين لضعف هذا الملجأ.

الخامسة: أن تكون الحاكمية له على جميع الأُمور، وإدارتها بيده المقتدرة.

ونحن نعلم أنّ هذه الصفات ليست إلاّ لله تبارك وتعالى، ولهذا فهو وحده الملجأ الباعث على الاطمئنان الذي لا يتزلزل أمام كل الحوادث.

---

(١) من أجل توضيح أكثر في هذا الصدد، راجع التّفسير الأمثل (ذيل الآية ٣١ سورة آل عمران).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

التّفسير

البروج السماوية

كان الكلام في الآيات الماضية عن عظمة وقدرة الله، وعن رحمته أيضاً، ويضيف الله تعالى في الآية الأُولى هنا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

نحن لا نعرف «الرحمن» أصلاً، وهذه الكلمة ليس لها مفهوم واضح عندنا، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ نحن لا نخضع لأي أحد، وسوف لن نكون اتباع أمر هذا أو ذاك ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي أنّهم يتكلمون بهذا الكلام ويزدادون ابتعاداً ونفوراً عن الحقّ.

لا شكّ أنّ أنسب اسم من أسماء الله للدعوة إلى الخضوع والسجود بين يديه، هو ذلك الاسم الممتلىء جاذبية «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامّة الواسعة، لكن أولئك بسبب عمى قلوبهم ولجاجتهم، لم يظهروا تأثراً حيال هذه الدعوة، بل تلقوها بالسخرية والاستهزاء، وقالوا على سبيل التحقير: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كما قال فرعون حيال دعوة موسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]. فهؤلاء لم يكونوا على استعداد حتى ليقولوا: «ومن الرحمن» أو «من ربّ العالمين».

ورغم أنّ بعض المفسّرين يرى أن اسم «الرحمن» لم يكن مأنوساً بين عرب الجاهلية، وحينما سمعوا هذا الوصف من النّبي صلى الله عليه وآله وسلم طرحوا هذا السؤال على سبيل التعجب واقعاً، حتى كان يقول البعض منهم: «ما نعرف الرحمن إلاّ رجلاً باليمامة» (يعنون به مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوّة كذباً، وعرفه وقومه بهذا الاسم «الرحمن»).

لكن هذا القول بعيد جدّاً، لأنّ مادة هذا الاسم وصيغته كلاهما عربيان، وكان

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٣.

النّبي ﷺ يتلو - دائماً - في بداية السور القرآنية، الآية (بسم الله الرحمن الرحيم) وعلى هذا فلم يكن هدف أُولئك إلاّ التحجج والسخرية، والعبارة التالية شاهد على هذه الحقيقة أيضاً لأنهم يقولون: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

وبما أنّ تعاليم القادة الإلهيين تؤثر في القلوب المؤهلة فقط، فإنّ عمي القلوب من المعاندين مضافاً إلى عدم انتفاعهم بها، فإنّها تزيدهم نفوراً لأنّ آيات القرآن كقطرات المطر الباعثة على الحياة تنمي الورد والخضرة في البستان، والشوك في الأرض السبخة، ولذا لا مجال للتعجب حيث يقول: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾(١).

الآية التالية إجابة على سؤالهم حيث كانوا يقولون: «وما الرحمن»، وإن كانوا يقولون هذا على سبيل السخرية، لكن القرآن يجيبهم إجابة جادة، يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾.

«البروج» جمع «برج» في الأصل بمعنى «الظهور» ولذا يسمون ذلك القسم الأعلى والأظهر من جدار أطراف المدينة أو محل تجمع الفرقة العسكرية «برج»، ولهذا أيضاً يقال حينما تظهر المرأة زينتها «تبرجت المرأة»، وهذه الكلمة تطلق أيضاً على القصور العالية.

على أية حال، فالبروج السماوية، إشارة إلى الصور الفلكية الخاصّة حيث تستقر الشمس والقمر في كل فصل وكل موضع من السنة إزاء واحد منها، يقولون مثلاً: استقرت الشمس في برج «الحمل» يعني أنّها تكون بمحاذاة «الصورة الفلكية»، «الحمل»، أو القمر في «العقرب» يعني وقفت كرة القمر أمام الصورة الفلكية «العقرب» (تطلق الصورة الفلكية على مجموعة من النجوم لها شكل خاص في نظر المشاهد).

بهذا الترتيب، أشارت الآية إلى منازل الشمس والقمر السماوية، وتضيف على أثر ذلك:

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾(٢).

---

(١) على هذا فإنّ فاعل (زاد) هو ذلك الأمر بالسجود الذي ترك أثراً معكوساً في أولئك المرضى قلوبهم، وإن نقل بعض المفسّرين أنّ النّبي ﷺ سجد بعد هذا الكلام وسجد المؤمنون أيضاً، فسبّب هذا ابتعاد أُولئك أكثر، بناء على هذا ففاعل (زاد) السجدة، لكن المعنى الأوّل أكثر صحّة.

(٢) طبقاً للتفسير أعلاه، فإنّ ضمير «فيها» يرجع إلى البروج، وينبغي أن يكون هكذا، ذلك لأنّ الموضوع المهم هو دوران الشمس والقمر ضمن نظام خاص في البروج: وليس وجود البروج في السماء فقط.

تبيّن هذه الآية النظم الدقيق لسير الشمس والقمر في السماء (وبديهي أنّ هذه التغييرات في الحقيقة ترتبط بدوران الأرض حول الشمس دائماً). والنظام الفذ الدقيق الذي يحكمهما ملايين السنين بلا زيادة أو نقصان، بالشكل الذي يستطيع الفلكيون - أحياناً - أن يتنبؤوا، قبل مئات السنين بوضع حركة الشمس والقمر في يوم معين وساعة معينة بالنسبة إلى مئات السنين الآتية، هذا النظام الحاكم على هذه الأفلاك السماوية العظيمة شاهد ناطق على وجود الخالق المدبر والمدير لعالم الوجود الكبير.

مع هذه الدلائل الواضحة، ومع هذه المنازل البديعة والدقيقة للشمس والقمر، فهل مازلتم تجهلونه وتقولون: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾!؟

أمّا لماذا سميت الشمس، «سراجاً»، وقُرِنَ القمر بصفة «منير»؟ فمن الممكن أن يكون دليله أن «السراج» بمعنى المنبع الضوئي الذي نوره مستمدٌ من ذاته وهذا ينطبق على حال الشمس، حيث إنّ من المسلمات العلمية طبقاً للتحقيقات أنّ نورها من نفسها. بخلاف القمر الذي نوره من ضياء الشمس، ولذا وصفه بـ«المنير» الذي يستمد نوره من غيره دائماً، (في التّفسير الأمثل، أوردنا القول مفصلاً في هذا الصدد، ذيل الآيتين ٥ و٦ سورة يونس).

في الآية الأخيرة، يواصل القرآن الكريم التعريف بالخالق سبحانه، ويتحدث مرّة أُخرى في قسم آخر من نظام الوجود، فيقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾.

هذا النظام البديع الحاكم على الليل والنهار، حيث يعقب أحدهما الآخر متناوبين متواصلين على هذا النظم ملايين السنين... النظم الذي لولاه لانعدمت حياة الإنسان نتيجةً لشدة النور والحرارة أو الظلمة والعتمة، وهذا دليل رائع للذين يريدون أن يعرفوا الله عزّوجلّ.

ومن المعلوم أن نشوء نظام «الليل» و«النهار» نتيجة لدوران الأرض حول الشمس، وأن تغيراتهما التدريجية والمنظمة، حيث ينقص من أحدهما ويزاد في الآخر دائماً بسبب ميل محور الأرض عن مدارها ممّا يؤدّي لوجود الفصول الأربعة.

فإذا دارت كرتنا الأرضية في حركتها الدورانية أسرع أو أبطأ من دورانها الفعلي ففي إحدى الصور تطول الليالي إلى درجة أنّها تجمد كل شيء، ويطول النهار إلى درجة أنّ الشمس تحرق كل شيء... وفي صورة أُخرى فإنّ الفاصلة القصيرة بين الليل والنهار

كانت ستبطل تأثيرهما وفائدتهما، فضلاً عن أنّ القوّة المركزية الطاردة كانت سترتفع بحيث ستقذف جميع الموجودات الأرضية بعيداً عن الكرة الأرضية.

والخلاصة أنّ التأمل في هذا النظام يوقظ فطرة معرفة الله في الإنسان من جهة (ولعل التعبير بالتذكر والتذكير إشارة إلى هذه الحقيقة)، ومن جهة أُخرى يُحيي روح الشكر فيه، وقد أُشير إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

الجدير بالذكر أنّنا نقرأ في بعض الرّوايات التي نقلت عن النّبي ﷺ أو الأئمّة المعصومين في تفسير الآية، أن تعاقب الليل والنهار من أجل أنّ الإنسان إذا أهمل أداء واجب من واجباته تجاه الله سبحانه وتعالى فإنّه بإمكانه جبرانه أو قضاءه في الوقت الآخر منهما. هذا المعنى من الممكن أن يكون تفسيراً ثانياً للآية، وممّا سبق من كون الآيات القرآنية ذات بطون، فلا منافاة بين هذا المعنى والمعنى الأوّل أيضاً.

وفي ذلك ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كلّ ما فاتك بالليل فاقضه بالنهار، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ يعني أن يقضي الرجل ما فاته بالليل بالنهار، وما فاته بالنهار بالليل»(١).

نفس هذا المعنى نقله «الفخر الرازي» عن النّبي الأكرم ﷺ.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾

التّفسير

الصفات الخاصّة لعباد الرحمن

هذه الآيات - فما بعد - تستعرض بحثاً جامعاً فذاً حول الصفات الخاصّة لعباد

(١) من لا يحضره الفقيه، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤ ذيل الآية مورد البحث.

الرحمن، إكمالاً للآيات الماضية حيث كان المشركون المعاندون حينما يذكر اسم الله «الرحمن» يقولون وملء رؤوسهم استهزاء وغرور ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ ورأينا أن القرآن يعرّف لهم «الرحمن» ضمن آيتين، وجاء الدور الآن ليعرّف «عباد الرحمن».

تبيّن هذه الآيات اثنتي عشرة صفة من صفاتهم الخاصّة، حيث يرتبط بعضها بالجوانب الاعتقادية، وبعض منها أخلاقي، ومنها ما هو اجتماعي، بعض منها يتعلق بالفرد، وبعض آخر بالجماعة، وهي أوّلاً وآخراً مجموعة من أعلى القيم الإنسانية.

يقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾(١).

إنّ أول صفة لـ: «عباد الرحمن» هو نفي الكبر والغرور والتعالي، الذي يبدو في جميع أعمال الإنسان حتى في طريقة المشي، لأنّ الملكات الأخلاقية تظهر نفسها في حنايا أعمال وأقوال وحركات الإنسان بحيث إنّ من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه - بدقّة - من أسلوب مشيته.

نعم، إنّهم متواضعون، والتواضع مفتاح الإيمان، في حين يعتبر الغرور والكبر مفتاح الكفر.

لقد رأينا بأُم أعيننا في الحياة اليومية، وقرأنا مراراً في آيات القرآن أيضاً، أنّ المتكبرين المغرورين لم يكونوا مستعدين حتى ليصغوا إلى كلام القادة الإلهيين، كانوا يتلقون الحقائق بالسخرية، ولم تكن رؤيتهم أبعد من أطراف أُنوفهم، تُرى أيمكن أن يجتمع الإيمان في هذه الحال مع الكبر؟!

نعم، هؤلاء المؤمنون، عباد ربّهم الرحمن، والعلامة الأُولى لعبوديتهم هو التواضع... التواضع الذي نفذ في جميع ذرات وجودهم، فهو ظاهر حتى في مشيتهم.

فإذا رأينا أنّ إحدى أهم القواعد التي يأمر الله بها نبيّه هي ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾(٢) فلنفس هذا السبب أيضاً، وهو أنّ التواضع روح الإيمان.

حقّاً إذا كان للإنسان أدنى معرفة بنفسه وبعالم الوجود، فسيعلم كم هو ضئيل حيال

---

(١) «هون» مصدر، وهو بمعنى الناعم والهادي المتواضع، واستعمال المصدر في معنى اسم الفاعل هنا للتوكيد، يعني أنّهم في ما هم عليه كأنّهم عين الهدوء والتواضع.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.

هذا العالم الكبير، حتى وإن كانت رقبته كالجبال، فإن أعلى جبال الأرض أمام عظمة الأرض أقل من تعرجات قشر (النارنج) بالنسبة إليها، تلكم الأرض التي هي نفسها لا شيء بالنسبة الى الأفلاك العظيمة.

ترى أليست هذه الحالة من الكبر والغرور، دليلاً على الجهل المطلق!؟

نقرأ في حديث رائع عن النّبي ﷺ، أنّه كان يعبر أحد الأزقة يوماً ما، فرأى جماعة من الناس مجتمعين، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا: مجنون شغل الناس بأعمال جنونية مضحكة، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن أخبركم من هو المجنون حقاً؟ فسكتوا وأنصتوا بكل وجودهم فقال ﷺ: «المتبختر في مشيه، الناظر في عطفيه، المحرك جنبيه بمنكبيه، الذي لا يرجى خيره ولا يؤمن شرّه، فذلك المجنون، وهذا مبتلى!»[1].

الصفة الثّانية لـ«عباد الرحمن» الحلم والصبر، كما يقول القرآن في مواصلته هذه الآية ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

السلام الذي هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، وليس الناشىء عن الضعف.

السلام دليل عدم المقابلة بالمثل حيال الجهلة الحمقى، سلام الوداع لأقوالهم غير المتروية، ليس سلام التحية الذي هو علامة المحبة ورابطة الصداقة.

والخلاصة، إنّه السلام الذي هو علامة الحلم والصبر والعظمة.

نعم، المظهر الآخر من مظاهر عظمتهم الروحية، هو التحمل وسعة الصدر اللذين بدونهما سوف لا يطوي أي إنسان طريق «العبودية لله» الصعب الممتلىء بالعقبات، خصوصاً في المجتمعات التي يكثر فيها الفاسدون و«مفسدون» وجهلة.

وتتناول الآية الثّانية، خاصيتهم الثالثة التي هي العبادة الخالصة لله، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

في عتمة الليل حيث أعين الغافلين نائمة، وحيث لا مجال للتظاهر والرياء، حرّموا على أنفسهم لذة النوم، ونهضوا إلى ما هو ألذّ من ذلك، حيث ذكرُ الله والقيام والسجود بين يدي عظمته عزّوجلّ، فيقضون شطراً من الليل في مناجاة المحبوب، فينورون قلوبهم وأرواحهم بذكره وباسمه.

ورغم أن جملة ﴿يَبِيتُونَ﴾ دليل على أنّهم يقضون الليل بالسجود والقيام إلى

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص ٢٣٣.

الصباح، لكن المعلوم أنّ المقصود هو شطر كبير من الليل، وإن كان المقصود هو كل الليل فإنّ ذلك يكون في بعض الموارد.

كما أن تقديم «السجود» على «القيام» بسبب أهميته، وإن كان القيام مقدّم على السجود عملياً في حال الصلاة[١].

الصفة الرّابعة لهم هي الخوف من العذاب الإلهي ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾. أي شديداً ومستديماً. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

ومع أنّهم مشتغلون بذكر الله وعبادته في الليالي، ويقضون النهار في إنجاز تكاليفهم، فإنّ قلوبهم أيضاً مملوءة بالخوف من المسؤوليات، ذلك الخوف الباعث على القوّة في الحركة أكثر وأفضل باتجاه أداء التكاليف، ذلك الخوف الذي يوجه الإنسان من داخله كشرطي قوي، فينجز تكاليفه على النحو الأحسن دون أن يكون له آمر ورقيب، في ذات الوقت الذي يرى نفسه مقصراً أمام الله.

كلمة «غرام» في الأصل بمعنى المصيبة، والألم الشديد الذي لا يفارق الإنسان، ويطلق «الغريم»[٢] على الشخص الدائن، لأنّه يلازم الإنسان دائماً من أجل أخذ حقّه.

ويطلق «الغرام» أيضاً على العشق والعلاقة المتوقدة التي تدفع الإنسان بإصرار باتجاه عمل أو شيء آخر، وتطلق هذه الكلمة على «جهنم» لأنّ عذابها شديد ودائم لا يزول.

ولعل الفرق بين ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ و﴿وَمُقَامًا﴾ أن جهنم مكان دائم للكافرين فهي لهم «مقام»، ومكان مؤقت للمؤمنين، أي «مستقر»، وبهذا الترتيب يكون قد أُشير إلى كلا الفريقين الذين يردان جهنم.

ومن الواضح أن جهنم محل إقامة ومستقر سيّىء، وشتان بين الراحة والنعيم وبين النيران الحارقة.

ومن المحتمل أيضاً أن تكون ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ و﴿وَمُقَامًا﴾ كلاهما لمعنىً واحد، وتأكيد على دوام عقوبات جهنم، وهو صحيح في مقابل الجنّة، حيث نقرأ عنها في آخر هذه الآيات نفسها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[٣].

في الآية الأخيرة يشير جلّ ذكره إلى الصفة الممتازة الخامسة لـ«عباد الرحمن» التي

---

(١) ينبغي الانتباه إلى أنّ «سجداً» جمع «ساجد»، «وقياماً» جمع «قائم».

(٢) تطلق «الغريم» على «الدائن» و«المدين» أيضاً. (لسان العرب مادة غرم).

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٦.

هي الاعتدال والابتعاد عن أي نوع من الإفراط والتفريط في الأفعال، خصوصاً في مسألة الإنفاق، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

الملفت للانتباه أنّه يعتبر أصل الإنفاق أمراً مسلماً لا يحتاج إلى ذكر، ذلك لأنّ الإنفاق أحد الأعمال الضرورية لكل إنسان، لذا يورد الكلام في كيفية إنفاقهم فيقول: إنّ إنفاقهم إنفاق عادل (معتدل) بعيد عن أي إسراف وبخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم وأولادهم جياعاً، ولا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم وعطاياهم.

في تفسير «الإسراف» و«الإقتار» كنقطتين متقابلتين، للمفسّرين أقوال مختلفة يرجع جميعها إلى أمر واحد، وهو أنّ «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحدّ، وفي غير حق، وبلا داع، و«الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب.

في إحدى الروايات الإسلامية، ورد تشبيه رائع للإسراف والإقتار وحد الاعتدال، تقول الرّواية: تلا أبو عبد الله عليه السلام هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾. قال: فأخذ قبضة من حصى وقبضها بيده، فقال: هذا الإقتار الذي ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه، ثمّ قبض قبضة أُخرى فأرخى كفّه كلّها، ثمّ قال: هذا الإسراف، ثمّ أخذ قبضة أخرى فأرخى بعضها وأمسك بعضها وقال: هذا القوام»[1].

كلمة «قوام» (على وزن عوام) لغة بمعنى العدل والاستقامة والحدّ والوسط بين شيئين، و«قُوام» (على وزن كتاب): الشيء الذي يكون أساس القيام والاستقرار.

مسألتان

١ - طريقة مشي المؤمنين

قرأنا في الآيات أعلاه أنّ التواضع أحد علائم «عباد الرحمن»، التواضع الذي يهيمن على أرواحهم بحيث يظهر حتى في مشيتهم، التواضع الذي يدفعهم إلى التسليم أمام الحق. لكن من الممكن أحياناً أن يتوهم البعض في التواضع ضعفاً وعجزاً وخوراً وكسلاً، وهذا النمط من التفكير خطير جدّاً.

(١) الكافي: طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٢٩.

التواضع في المشي ليس هو الضعف والخطوة الخائرة، بل إنّ الخطوات المحكمة التي تحكي عن الجدية والقدرة هي من صميم التواضع.

نقرأ في سيرة النّبي ﷺ أنّ أحد أصحابه يقول: «ما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنّما الأرض تطوى له، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنّه لغير مكترث»[1].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أنّه قال: «والرجل يمشي بسجيته التي جُبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر»[2].

وورد في حديث آخر، في حالات النّبي ﷺ: «قد كان يتكفأ في مشيه كإنّما يمشي في صبب»[3].

يعني حينما كان الرّسول الأكرم ﷺ يمشي فإنّه يخطو خطوات سريعة دونما استعجال، كأنّما يمشي في منحدر.

على أية حال فإنّ طريقة المشي ليست مقصودة بذاتها، بل هي نافذة إلى معرفة الحالة الروحية للإنسان، والآية في الحقيقة تشير إلى نفوذ روح التواضع والخشوع في أرواح وقلوب «عباد الرحمن».

٢ - البخل والإسراف

لا شك أنّ «الإسراف» واحد من الأعمال الذميمة بنظر القرآن والإسلام، وورد ذم كثير له في الآيات والرّوايات، فالإسراف كان نهجاً فرعونياً: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[4].

والمسرفون هم أصحاب جهنم والجحيم ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[5].

ومع الالتفات إلى أنّه أصبح ثابتاً اليوم أن منابع الثروات الأرضية ليست كثيرة جداً نسبة إلى زيادة الكثافة السكانية للبشرية حتى يمكن للإنسان أن يسرف، وكل إسراف سيكون سبباً في حرمان أُناس لا ذنب لهم، فضلاً عن أنّ الإسراف عادة قرين التكبر والغرور والبعد عن خلق الله.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج٦، ص١٨٢، ذيل الآية مورد البحث، وفي تفسير القرطبي ينقل رواية أُخرى في هذا الصدد أيضاً لها شبه كبير بما قلناه أعلاه.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٧٩، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) تفسير روح المعاني، ذيل الآية مورد البحث.

(٤) سورة يونس، الآية: ٨٣.

(٥) سورة غافر، الآية: ٤٣.

في تفس الوقت فإنّ التقتير والبخل أيضاً، ذميم وقبيح وغير مقبول بنفس الدرجة، فالأصل على أساس النظرة التوحيدية، أن الله تبارك وتعالى هو المالك الأصلي، ونحن جميعاً مستخلفون من قبله، وكلّ نوع من التصرف دون إجازته ورضاه فهو قبيح وغير مقبول، ونحن نعلم أن الله لم يأذن بالإسراف ولم يأذن بالبخل.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

التّفسير

بحث آخر في صفات عباد الرحمن

ميزة «عباد الرحمن» السادسة التي وردت في هذه الآيات هي التوحيد الخالص الذي يبعدهم عن كل أنواع الشرك والثنوية والتعددية في العبادة، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

فقد أنار التوحيد آفاق قلوبهم وحياتهم الفردية والاجتماعية، وانقشعت عن سماء أفكارهم وأرواحهم ظلمات الشرك.

الصفة السابعة: طهارتهم من التلوث بدم الأبرياء: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾(١).

ويستفاد جيداً من الآية أعلاه أنّ جميع الأنفس الإنسانية محترمة في الأصل، ومحرم إراقة دمائها إلاّ إذا تحققت أسباب ترفع هذا الاحترام الذاتي فتبيح إراقة الدم.

صفتهم الثّامنة: هي أنّ عفافهم لا يتلوث أبداً: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

---

(١) الاستثناء في الجملة أعلاه «استثناء مفرغ» اصطلاحاً، وكان في التقدير هكذا «لا يقتلون النفس التي حرم الله بسبب من الأسباب إلاّ بالحق».

إنّهم على مفترق طريقين: الكفر والإيمان، فينتخبون الإيمان، وعلى مفترق طريقين: الأمان واللاأمان في الأرواح، فهم يتخيرون الأمان، وعلى مفترق طريقين: الطهر والتلوث، فهم يتخيرون النقاء والطهر. إنّهم يهيئون المحيط الخالي من كل أنواع الشرك والتعدي والفساد والتلوث، بجدهم واجتهادهم.

وفي ختام هذه الآية يضيف تعالى من أجل التأكيد أكثر: ﴿وَمَن يَفعَل ذَٰلِكَ يَلقَ أَثَامًا﴾.

«الإثم» و«آثام» في الأصل بمعنى الأعمال التي تمنع من وصول الإنسان إلى المثوبة، ثمّ أطلقت على كل ذنب، لكنّها هنا بمعنى جزاء الذنب.

قال بعضهم أيضاً: إنّ «إثم» بمعنى الذنب و«آثام» بمعنى عقوبة الذنب[١] فإذا رأينا أنّ بعض المفسّرين ذكروها بمعنى صحراء أو جبل أو بئر في جهنم فهو في الواقع من قبيل بيان المصداق.

وحول فلسفة تحريم الزنا، قدمنا بحثاً مفصلاً في ذيل الآية (٣٣) سورة الإسراء.

ومن الملفت للنظر في الآية أعلاه، أنّها بحثت أولاً في مسألة الشرك، ثمّ قتل النفس، ثمّ الزنا، ويستفاد من بعض الرّوايات أنّ هذه الذنوب الثلاثة تكون من حيث الأهمّية بحسب الترتيب الذي أوردته الآية.

ينقل ابن مسعود عن النّبي الأكرم ﷺ، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» قال: قلت: ثمّ أيٌّ؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قال: قلت: ثمّ أيٌّ؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك» فأنزل الله تصديقها[٢].

وبالرغم من أن الكلام في هذا الحديث، ورد عن نوع خاص من القتل والزنا، لكن مع الانتباه إلى إطلاق مفهوم الآية يتجلى أنّ هذا الحكم يشمل جميع أنواع القتل والزنا، وما في الرّواية مصداق أوضحُ لهما.

تتكىء الآية التالية أيضاً على ما سبق، من أنّ لهذه الذنوب الثّلاثة أهمّية قصوى، فيقول تعالى: ﴿يُضَٰعَف لَهُ ٱلعَذَابُ يَومَ ٱلقِيَٰمَةِ وَيَخلُد فِيهِۦ مُهَانًا﴾.

ويتجسد هنا سؤالان:

---

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٢٤، ص١١١، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) صحيح «البخاري» و«مسلم» طبقاً لنقل مجمع البيان، ج٧، ص١٧٩، ذيل الآية مورد البحث.

الأوّل: لماذا يتضاعف عذاب هذا النوع من الأشخاص؟ ولماذا لا يجازون على قدر ذنوبهم؟ وهل ينسجم هذا مع أصول العدالة!؟

الثّاني: إنّ الكلام هنا عن الخلود في العذاب، في حين أنّ الخلود هنا مرتبط بالكفار فقط. والذنب الأوّل من هذه الذنوب الثلاثة التي ذكرت في الآية يكون كفراً، فقط، وأمّا قتل النفس والزنا فليسا سبباً للخلود في العذاب.

بحث المفسّرون كثيراً في الإجابة على السؤال الأول، وأصح ما أوردوه هو أنّ المقصود من مضاعفة العذاب أنّ كل ذنب من هذه الذنوب الثلاثة المذكورة في هذه الآية سيكون له عقاب منفصل، فتكون العقوبات بمجموعها عذاباً مضاعفاً.

فضلاً عن أنّ ذنباً ما يكون أحياناً مصدر الذنوب الأُخرى، مثل الكفر الذي يسبب ترك الواجبات وارتكاب المحرمات، وهذا نفسه موجب لمضاعفة العذاب الإلهي.

لهذا اتّخذ بعض المفسّرين هذه الآية دليلاً على هذا الأصل المعروف أنّ: «الكفّار مكلفون بالفروع كما أنّهم مكلفون بالأصول».

وأمّا في الإجابة على السؤال الثّاني: فيمكن القول أنّ بعض الذنوب عظيم إلى درجة يكون عندها سبباً في الخروج من هذه الدنيا بلا إيمان، كما قلنا في مسألة قتل النفس في ذيل الآية (٩٣) سورة النساء[1].

ومن الممكن أن يكون الأمر كذلك في مورد الزنا أيضاً، خاصّة إذا كان الزنا بمحصنة.

ومن المحتمل أيضاً أن «الخلود» في الآية أعلاه يقصد به من يرتكب هذه الذنوب الثلاثة معاً، الشرك وقتل النفس والزنا، والشاهد على هذا المعنى: الآية التالية حيث تقول: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

واعتبر بعض المفسّرين - أيضاً - أنّ «الخلود» هنا بمعنى المدة الطويلة لا الخالدة، لكن التّفسير الأوّل والثّاني أصح.

ومن الملفت للنظر هنا - فضلاً عن مسألة العقوبات العادية - عقوبة أُخرى ذكرت أيضاً هي التحقير والمهانة، أي البعد النفسي من العذاب، وقد تكون بذاتها تفسيراً لمسألة مضاعفة العذاب، ذلك لأنّهم يعذبون عذاباً جسدياً وعذاباً روحياً.

---

(١) التّفسير الأمثل، الجزء الثّالث.

لكن القرآن المجيد كما مرَّ سابقاً، لم يغلق طريق العودة أمام المجرمين في أي وقت من الأوقات، بل يدعو المذنبين إلى التوبة ويرغبهم فيها، ففي الآية التالية يقول تعالى هكذا: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

كما مرّ بنا في الآية الماضية، ففي الوقت الذي ذكرت ثلاثة ذنوب هي من أعظم الذنوب، تركت الآية باب التوبة مفتوحاً أمام هؤلاء الأشخاص، وهذا دليل على أنّ كل مذنب نادم يمكنه العودة إلى الله، بشرط أن تكون توبته حقيقية، وعلامتها ذلك العمل الصالح (المُعَوِّض) الذي ورد في الآية، وإلاّ فإن مجرّد الاستغفار باللسان أو الندم غير المستقر في القلب لا يكون دليلاً على التوبة أبداً.

المسألة المهمّة فيما يتعلق بالآية أعلاه هي: كيف يبدل الله «سيئات» أولئك «حسنات»؟

تبديل السيئات حسنات

هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعاً:

١ - حينما يتوب الإنسان ويؤمن بالله، تتحقّق تحولات عميقة في جميع وجوده، وبسبب هذا التحول والانقلاب الداخلي تتبدل سيئات أعماله في المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلاً للنفس المحترمة في الماضي، فإنّه يتبنى مكانها في المستقبل الدفاع عن المظلومين ومواجهة الظالمين. وإذا كان زانياً، فإنّه يكون بعدها عفيفاً وطاهراً، وهذا التوفيق الإلهي يناله العبد في ظل الإيمان والتوبة.

٢ - إن الله تبارك وتعالى بلطفه وكرمه وفضله وإنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبة، ويضع مكانها حسنات، نقرأ في رواية عن أبي ذر: قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا صغار ذنوبه، وتخبأ كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، وهو يقرّ ليس بمنكر، وهو مشفق من الكبائر أن تجيء، فإذا أراد الله خيراً قال: اعطوه مكان كل سيئة حسنة، فيقول: يا ربّ لي ذنوب ما رأيتها ها هنا؟» قال: ورأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، ثمّ تلا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[1].

---

(١) عوالي اللآلي، طبقاً لنقل نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٣.

٣ - التّفسير الثّالث هو أنّ المقصود من السيئات ليس نفس الأعمال التي يقوم بها الإنسان، بل آثارها السيئة التي تنطبع بها روح ونفس الإنسان، فحينما يتوب ويؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه ونفسه، وتبدل بآثار الخير، وهذا هو معنى تبديل السيئات حسنات.

ولا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة قطعاً، ومن الممكن أن تجتمع كل هذه التفاسير الثلاثة في مفهوم الآية.

الآية التالية تشرح كيفية التوبة الصحيحة، فيقول تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾(١).

يعني أنّ التوبة وترك الذنب ينبغي ألاّ تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغي - إضافة إلى ذلك - أن يكون الدافع إليها خلوص النية، والعودة إلى الله تبارك وتعالى.

لهذا فإنّ ترك شرب الخمر أو الكذب بسبب إضرارهما مثلاً، وإن كان حسناً، لكنّ القيمة الأساسية لهذا الفعل لا تتحقق إلاّ إذا استمدَّ من الدافع الربّاني.

بعض المفسّرين ذكروا تفسيراً آخر لهذه الآية، وهو أنّ هذه الجملة جواب على التعجب الذي قد تسببه الآية السابقة أحياناً في بعض الأذهان، وهو: كيف يمكن أن يبدل الله السيئات حسنات؟! فتجيب هذه الآية: حينما يؤوب الإنسان إلى ربه العظيم، فلا عجب في هذا الأمر.

تفسير ثالث ذكر لهذه الآية، وهو أنّ كلَّ من تاب من ذنبه فإنّه يعود إلى الله، ومثوبته بلا حساب.

وبالرغم من عدم وجود منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة، لكن التّفسير الأوّل أقرب، خاصّة وأنّه يتفق مع الرّواية المنقولة في تفسير علي بن إبراهيم القمي في ذيل هذه الآية.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

(١) «متاب» مصدر ميمي بمعنى التوبة، ولأنّه مفعول مطلق هنا، فهو للتوكيد.

التّفسير

جزاء «عباد الرحمن»:

في متابعة للآيات الماضية التي كررت القول في خصائص «عباد الرحمن»، تشرح هذه الآيات بقية هذه الصفات:

الصفة الرفيعة التاسعة لهم، هي احترام وحفظ حقوق الآخرين: إنّ هؤلاء لا يشهدون بالباطل مطلقاً: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾.

المفسّرون الكبار فسّروا هذه الآية على نحوين:

اعتبر بعضهم ﴿الزُّورَ﴾ بمعنى «الشهادة بالباطل» كما قلنا أعلاه، لأنّ ﴿الزُّورَ﴾ لغة بمعنى التمايل والانحراف، وحيث إنّ الكذب والباطل والظلم من الانحرافات، فإن ﴿الزُّورَ﴾ يطلق عليها.

هذه العبارة (شهادة الزور) في كتاب الشهادات في فقهنا، موجودة بنفس هذا العنوان، وقد نُهي عنها في روايات متعددة، وإن لم نر في تلك الرّوايات استدلالاً بالآية أعلاه.

التّفسير الآخر: هو أنّ المقصود من «الشهود» هو «الحضور» يعني أن عباد الرحمن لا يتواجدون في مجالس الباطل.

وفي بعض الرّوايات التي وردت عن طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فسّرت بـ«الغناء» أي تلك المجالس التي يتمّ فيها إنشاد اللهو مصحوباً بأنغام الآلات الموسيقية أو بدونها.

لا شك أنّ مراد هذا النوع من الرّوايات ليس هو تحديد مفهوم ﴿الزُّورَ﴾ الواسع بـ«الغناء»، فالغناء واحد من مصاديقه البارزة إنّه يشمل سائر مجالس اللهو واللعب وشرب الخمر والكذب والغيبة وأمثال ذلك.

ولا يستبعد أيضاً أن يجتمع كلا التّفسيرين في معنى الآية، وعلى هذا فعباد الرحمن لا يؤدون الشهادة الكاذبة، ولا يشهدون مجالس اللهو والباطل والخطيئة، ذلك لأنّ الحضور في هذه المجالس - فضلاً عن ارتكاب الذنب - فإنّه مقدمة لتلوث القلب والروح.

ثمّ يشير تعالى في آخر الآية إلى صفتهم الرفيعة العاشرة، وهي امتلاك الهدف الإيجابي في الحياة، فيقول: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

إنّهم لا يحضرون مجالس الباطل، ولا يتلوثون باللغو والبطلان. ومع الالتفات إلى أنّ «اللغو» يشمل كل عمل لا ينطوي على هدف عقلائي، فإن ذلك يدل على أنّ «عباد الرحمن» يتحرون دائماً الهدف المعقول والمفيد والبناء، وينفرون من اللاهدفية والأعمال الباطلة، فإذا اعترضهم هذا النوع من الأعمال في مسير حياتهم، مروا بمحاذاتها مرور اللامبالي، ولا مبالاتهم نفسها دليل على عدم رضاهم الداخلي عن هذه الأعمال، فهم عظماء بحيث لا تؤثر عليهم الأجواء الفاسدة ولا تغيرهم.

ولا شك أنّ عدم اعتنائهم بهذه الأمور من جهة أنّهم لا طريق لهم إلى مواجهة الفساد والنهي عن المنكر، وإلاّ فلا شكّ أنّهم سوف يقفون ويؤدون تكاليفهم حتى المرحلة الأخيرة.

الصفة الحادية عشرة لهذه النخبة امتلاك العين الباصرة والأذن السامعة حين مواجهتهم لآيات الخالق، فيقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾.

من المسلّم أنّ المقصود ليس الإشارة إلى عمل الكفار، ذلك لأنّهم لا اعتناء لهم بآيات الله أصلاً، بل إنّ المقصود: فئة المنافقين أو مسلمو الظاهر، الذين يقعون على آيات الله بأعين وآذان موصدة، دون أن يتدبّروا حقائقها ويسبروا غورها، فيعرفوا ما يريده الله ويتفكروا فيه، ويستهدوه في أعمالهم.

ولا يمكن طي طريق الله بعين وأذن موصدتين، فالأذن السامعة والعين الباصرة لازمتان لطي هذا الطريق، العين الناظرة في الباطن، المتعمقة في الأشياء، والأذن المرهفة العارفة بلطائف الحكمة.

ولو تأملنا جيداً لأدركنا أن ضرر هذه الفئة ذات الأعين والآذان الموصدة وفي ظنها أنّها تتبع الآيات الإلهية، ليس أقلّ من ضرر الأعداء الذين يطعنون بأصل شريعة الحق عن وعي وسبق إصرار، بل إنّ ضررهم أكثر بمراتب أحياناً.

التلقي الواعي عن الدين هو المعين الأساس للمقاومة والثبات والصمود، لأنّ من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، وبتحريفه يتم الانحراف عن الخط الأصيل، فيهوي بهم ذلك إلى وادي الكفر والضلالة وعدم الإيمان.

هذا النوع من الأفراد أداة بيد الأعداء، ولقمة سائغة للشياطين، المؤمنون وحدهم هم المتدبرون المبصرون السامعون كمثل الجبل الراسخ، فلا يكونون لعبة بيد هذا أو ذاك.

نقرأ في حديث عن أبي بصير، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، قال: «مستبصرين ليسوا بشكاك»(١).

الصفة الثّانية عشرة الخاصّة لهؤلاء المؤمنين الحقيقيين، هي التوجه الخاص إلى تربية أبنائهم وعوائلهم، وإيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

بديهي أنّ معنى هذا ليس أن يقبعوا في زاوية ويتضرعوا بالدعاء، بل إنّ الدعاء دليل شوقهم وعشقهم الداخلي لهذا الأمر، ورمز جدهم واجتهادهم.

من المسلَّم أنّ أفراداً كهؤلاء لا يقصرون في بذل ما لديهم من طاقة وقدرة في تربية أبنائهم وأزواجهم، وتعريفهم بأصول وفروع الإسلام، وسبل الحق والعدالة وفي ما لا تصل إليه قدرتهم وطاقتهم، فإنّهم يدعون الله، يسألونه التوفيق بلطفه.

فالدعاء الصحيح من حيث الأصل، ينبغي أن يكون هكذا: السعي بمقدار الاستطاعة، والدعاء خارج حدّ الاستطاعة.

«قرّة العين» كناية عمّن يُسرّ به، هذا التعبير أُخذ في الأصل من كلمة «قر» التي بمعنى البرد، وكما هو معروف (وقد صرح به كثير من المفسّرين) أنّ دمعة الشوق والسرور باردة، ودموع الحزن والغم حارة حارقة، لذا فـ«قرّة عين» بمعنى الشيء الذي يسبب برودة عين الإنسان، يعني أن دمعة الشوق تنسكب من عينيه، وهذه كناية جميلة عن السرور والفرح(٢).

مسألة تربية الأبناء وإرشاد الزوجات، ومسؤولية الآباء والأمهات إزاء أطفالهم من أهم المسائل التي أكد عليها القرآن، وسنفصل القول فيها إن شاء الله في ذيل الآية ٦ من سورة التحريم.

وأخيراً فالصفة الرفيعة الثّالثة عشرة لعباد الرحمن التي هي أهم هذه الصفات من وجهة نظر معينة: هي أنّهم لا يقنعون أبداً أنّهم على طريق الحق، بل إنّ همتهم عالية بحيث يريدون أن يكونوا أئمة وقدوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضاً.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج٤، ص ٤٣.

(٢) الشاهد على هذا القول، الشعر الذي نقله القرطبي في تفسيره عن أحد الشعراء العرب:

فكم سخنت بالأمسِ عينٌ قريرة   وقرتْ عيون دمعها اليوم ساكب

إنّهم ليسوا كالزهاد المنزوين في الزوايا، وليس همّهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إنّ سعيهم هو أن ينقذوا الغرقى.

لذا يقول في آخر الآية، إنّهم الذين يقولون: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

ينبغي الالتفات إلى هذه النكتة أيضاً، إنّهم لا يدعون ليكونوا في موقع العظماء جزافاً، بل إنّهم يهيئون أسباب العظمة والإمامة بحيث تجتمع فيهم الصفات اللائقة بالقدوة الحقيقية، وهذا عمل عسير جداً، وله شرائط صعبة وثقيلة.

ولا ننسى أنّ القرآن لا يذكر في هذه الآيات صفات جميع المؤمنين، بل أوصاف نخبة ممتازة من المؤمنين في الصف المتقدم بعنوان «عباد الرحمن». نعم، إنّهم عباد الرحمن، وكما أنّ رحمة الله العامّة تشمل الجميع فإنّ رحمة الله بهؤلاء العباد عامّة أيضاً من أكثر من جهة، فعلمهم وفكرهم وبيانهم وقلمهم ومالهم وقدرتهم تخدم بلا انقطاع في طريق هداية خلق الله.

أُولئك نماذج الإنسان الكامل والأسوة في المجتمع الإنساني.

أُولئك قدوات المتقين.

إنّهم أنوار الهداية في البحار والصحاري. ينادون التائهين إليهم لينقذوهم من الغرق في الدوامة، ومن السقوط في المزالق.

فكم سخنت بالأمسِ عينٌ قريرة   وقرتْ عيون دمعها اليوم ساكب

نقرأ في روايات متعددة أنّ هذه الآية نزلت في علي عليه السلام وأئمّة أهل البيت عليهم السلام.

ونقرأ في رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام: «إيانا عنى»(١).

ولا شك أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام من أوضح مصاديق هذه الآية، لكن هذا لا يمنع من اتساع مفهوم الآية، فالمؤمنون الآخرون أيضاً يكون كل منهم إماماً وقدوة للآخرين بمستويات متفاوتة.

واستنتج بعض المفسّرين من هذه الآية أن طلب الرئاسة المعنوية والروحانية ليس غير مذموم فقط، بل إنّه مطلوب ومرغوب فيه أيضاً(٢).

---

(١) أورد هذه الروايات في تفسير آخر هذه الآية «علي بن إبراهيم»، ومؤلف تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٤٣، في تفسيريهما.

(٢) يراجع تفسير «القرطبي» وتفسير «الفخر الرازي»، ج٢٤، ص١١٥.

وينبغي الالتفات ضمناً إلى أن كلمة «إمام» وإن كانت للمفرد، إلاّ أنّها تأتي بمعنى الجمع، وهكذا هي في الآية.

بعد إكمال هذه الصفات الثلاث عشرة، يشير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، وفي صورة الكوكبة الصغيرة، فيبيّن جزاءهم الإلهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

«غرفة» من مادة «غرف» (على وزن حرف): بمعنى رفع الشيء وتناوله، ويقال لما يغترف ويتناول «غرفة» (كاغتراف الإنسان الماء من العين بيده للشرب) ثمّ أُطلقت على الأقسام العليا من البناء، ومنازل الطبقات العليا، وهي هنا كناية عن أعلى منازل الجنّة.

لذلك فإنّ «عباد الرحمن» بامتلاكهم هذه الصفات، يكونون في الصف الأوّل من المؤمنين، وينبغي أن تكون درجتهم في الجنّة أعلى درجة أيضاً.

المهم أنّه يقول: إنّ هذا المقام العالي قد أُعطي لهم بسبب ما قدموا من ضريبة الصبر والاستقامة في طريق الله، ومن الممكن أن يتصور أن هذا وصف آخر من أوصافهم، لكن هذا في الحقيقة ليس وصفاً جديداً، بل هو ضمانة تطبيق جميع الصفات السابقة، وإلاّ فهل يمكن أن نتصور عبادة الخالق، ومواجهة الطغيان والشهوات، وترك شهادة الزور، والتواضع والخشوع وغيرها من الصفات بدون صبر واستقامة.

هذا البيان يُذكّر الإنسان بالحديث المعروف عن أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث يقول:

«والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد» فبقاء الجسد من بقاء الرأس، ذلك لأنّ قيادة جميع أعضاء البدن تستقر في دماغ الإنسان.

وعلى هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل والصمود أمام مشكلات طريق الحق، والجهاد والمواجهة ضد العصاة، والوقوف أمام دواعي الذنوب، تجتمع كلها في ذلك المفهوم، وإذا فسر في بعض الرّوايات بالصبر على الفقر والحرمان المالي، فمن المسلم أن ذلك من قبيل بيان المصداق.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾.

أهل الجنّة يحيي بعضهم بعضاً، وتسلم الملائكة عليهم، وأعلى من كل ذلك أنّ الله يحييهم ويُسلم عليهم، كما نقرأ في الآية (٥٨) من سورة يس ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾، ونقرأ في الآيتين ٢٣ و٢٤ من سورة الرعد ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم... ٢٤﴾.

تُرى هل لـ «التحية» و«السلام» هنا معنيان، أم معنى واحد!؟ ثمّة أقوال بين المفسّرين، لكن مع الالتفات إلى أنّ «التحية» في الأصل بمعنى الدعاء لحياة الغير، و«سلام» من مادة السلامة، وبمعنى الدعاء للغير.

على هذا نستنتج: أنّ الكلمة الأُولى بعنوان طلب الحياة، للمخاطب والكلمة الثّانية طلب اقتران هذه الحياة مع السلامة، ولو أنّ هاتين الكلمتين تأتيان بمعنى واحد أحياناً.

«التحية» في العرف لها معنى أوسع، فهي كل ما يقولونه في بيان اللقاء مع الآخرين، فيكون سبباً في سرورهم واحترامهم وإظهار المحبّة لهم.

ثمّ يقول تبارك وتعالى للتأكيد أكثر: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾

التّفسير

لولا دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة

هذه الآية التي هي الآية الأخيرة في سورة الفرقان، جاءت في الحقيقة نتيجة لكل السورة، وللأبحاث التي بصدد صفات «عباد الرحمن» في الآيات السابقة، فيقول تبارك وتعالى مخاطباً النّبي ﷺ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾.

﴿يَعْبَؤُا۟﴾ من مادة «عبء» بمعنى «الثقل»، وعلى هذا فجملة لا يعبأ يعني لايهتم، وبعبارة أُخرى لا يعتني.

ولو أن احتمالات كثيرة ذُكرت هنا في مسألة معنى الدعاء، لكن أساس جميعها يعود إلى أصل واحد.

فذهب البعض: إنّ الدعاء هو نفس ذلك المعنى المعروف للدعاء.

بعض آخر فسّره بمعنى الإيمان.

وبعض بمعنى العبادة والتوحيد.

وآخر، بمعنى الشكر.

وبعض: بمعنى التضرع إلى الله في المحن والشدائد.

لكنّ أساس جميعها هو الإيمان والتوجه إلى الله.

وبناء على هذا، يكون مفهوم الآية هكذا: إن ما يعطيكم الوزن والقيمة والقدر عند الله هو الإيمان بالله والتوجه إليه، والعبودية له.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

من الممكن التصور أن تضاداً بين بداية الآية ونهايتها، أو أنّه لا يبدو على الأقل الإرتباط والانسجام اللازم بينهما، ولكن إذا دققنا قليلاً يتّضح أنّ المقصود أساساً هو: أنّكم قد كذبتم فيما مضى بآيات الله وبأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى الله، ولم تسلكوا طريق الإيمان به والعبودية له، فلن تكون لكم أية قيمة أو مقام عنده، وستحيط بكم عقوبات تكذيبكم(١).

ومن جملة الشواهد الواضحة التي تؤيد هذا التّفسير، الحديث المنقول عن الإمام الباقر عليه السلام، أنّه سُئِلَ: «كثرة القراءة أفضل أو كثرة الدعاء»؟ فقال عليه السلام: «كثرة الدعاء أفضل وقرأ هذه الآية»(٢).

بحث

الدعاء طريق إصلاح النفس ومعرفة الله

معلوم أنّ مسألة الدعاء أعطيت أهمية كبيرة في آيات القرآن والرّوايات الإسلامية، حيث كانت الآية أعلاه أنموذجاً منها، غير أنه قد يكون القبول بهذا الأمر ابتداءً صعباً على البعض، كأن يقال: الدعاء عمل سهل جدّاً، ويمكن أن يؤدّيه الجميع أو يتوسعون أكثر فيقولون: الدعاء عمل المغلوبين على أمرهم، الأمر الذي لا أهميّة له.

---

(١) الآية أعلاه من الآيات التي هي مورد مناقشات كثيرة بين المفسّرين، وما قلناه في تفسيرها هو أوضح تفسير، لكن جماعة من المفسّرين المعروفين ذكروا لها تفسيراً آخر خلاصته هكذا:
إنّ الله لايعتني بكم، ذلك لأنّكم كذبتم بآياته، إلاّ أنّ الله يدعوكم إلى الإيمان (طبقاً لهذا التّفسير ﴿دُعَاؤُكُمْ﴾ من قبيل إضافة المصدر إلى المفعول وفاعله ضمير يعود إلى ربّي لكن طبقاً للتفسير الذي اخترناه فإن ﴿دُعَاؤُكُمْ﴾ من قبيل إضافة المصدر إلى الفاعل وظاهر إضافة المصدر إلى الضمير هي أن تكون الإضافة إلى الفاعل إلاّ أن تظهر قرينة على خلافه).
ثمّة تفسير ثالث لهذه الآية وهو أنّ الهدف بيان: إنّكم أيّها البشر، غالباً ما سلكتم طريق التكذيب، فلا وزن ولا قدر لكم عند الله، إلاّ لأجل تلك الأقلية مثل «عباد الرحمن» الذين يتوجهون إلى الله ويدعونه بإخلاص (هذا التّفسير وإن كان صحيحاً من ناحية المعنى والمضمون لكنّه لا يوافق ظاهر الآية كثيراً ذلك لأنّ الضمير في ﴿دُعَاؤُكُمْ﴾ و﴿كَذَّبْتُمْ﴾ يعود ظاهراً إلى فئة واحدة لا فئتين فتأمل).

(٢) تفسير الصافي، ذيل هذه الآية - نقلوا لهذه الرّواية أيضاً تفاسير أُخرى بتفاوت يسير، نقلت أيضاً روايات أُخرى شاهدة على التّفسير أعلاه، بعضها عن أمالي الشيخ الطوسي، وبعضها عن تفسير علي بن إبراهيم ذيل هذه الآية.

لكن الاشتباه هنا ينشأ من أنّهم ينظرون إلى الدعاء الخالي من شرائطه، في حين إذا أخذت الشرائط الخاصّة للدعاء بنظر الاعتبار، فإن هذه الحقيقة تثبت بوضوح. وهي الدعاء وسيلة مؤثرة في إصلاح النفس، والارتباط القريب بين الله والإنسان.

أوّل شرائط الدعاء، معرفة المدعو.

الشرط الثاني: تخلية القلب وإعداد الروح لدعائه تبارك وتعالى، ذلك لأنّ الإنسان حينما يذهب باتجاه أحد، ينبغي أن يملك الاستعداد للقائه.

الشرط الثّالث للدعاء: هو جلب رضاء من يدعوه الإنسان، ذلك لأنّه لا يحتمل التأثير بدون ذلك إلاّ نادراً.

وأخيراً فالشرط الرّابع لاستجابة الدعاء: هو أن يستخدم الإنسان كلّ قدرته، وقوته واستطاعته في عمله، ويؤدّيه بأعلى درجة من الجدّ والاجتهاد، ثمّ يرفع يديه ويوجه قلبه إلى بارئه بالدعاء في ما وراء ذلك.

ذلك لأنّه ورد صريحاً في الرّوايات الإسلامية، أنّ الإنسان إذا قصّر في العمل الذي يستطيع أن يؤدّيه بنفسه، ثمّ يتوسل بالدعاء فلن يستجاب دعاؤه.

من هنا، فإنّ الدعاء وسيلة لمعرفة الخالق ومعرفة صفاته الجمالية والجلالية، ووسيلة أيضاً للتوبة من الذنب، ولتطهير الروح، وسبب أيضاً لأداء الحسنات للجهاد والجدّ والاجتهاد إلى منتهى الاستطاعة.

لهذا نجد عبارات مهمّة حول الدعاء لا يمكن فهمها إلاّ على ضوء ما قلناه، مثلاً:

نقرأ في رواية عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدين، ونور السماوات والأرض»[١].

ونقرأ في حديث آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاح ومقاليد الفلاح، وخير الدعاء ما صدر عن صدر نقي، وقلب تقي»[٢].

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «الدعاء أنفذ من السنان»[٣].

فضلاً عن كل ذلك، فإن من الطبيعي أنّ حوادث تقع في حياة الإنسان، فتغرقه في اليأس من حيث الأسباب الظاهرية، فالدعاء يمكنه أن يكون شرفة على أمل الفوز، ووسيلة مؤثرة في مواجهة اليأس والقنوط.

(١-٣) أصول الكافي، ج ٢، ٤٦٨، أبواب الدعاء باب أنّ الدعاء سلاح المؤمن.

لهذا فالدعاء إزاء الحوادث الصعبة المرهقة، يمنح الإنسان قدرة وقوة وأملاً وطمأنينة، وأثراً لا يمكن إنكاره من الناحية النفسية.

وقدّمنا بحثاً مفصلاً بصدد مسألة الدعاء، وفلسفته، وشرائطه، ونتائجه، في التّفسير الأمثل ذيل الآية (١٨٦) من سورة البقرة، فتفضل بمراجعته هناك من أجل التوضيح أكثر.

اللّهمّ، اجعلنا من خاصّة عبادك، وترحم علينا بتوفيق اكتساب خصائص وصفات «عباد الرحمن».

ربّنا، افتح لنا أبواب الدعاء واجعل ذلك سبباً لتثمين وجودنا بين يديك.

اللّهمّ، تفضل علينا بتوفيقات الدعاء المطلوبة بين يديك، ولا تحرمنا من الاستجابة.

إنّك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

الأمثل

في تفسير كتاب الله المنزل

مع تهذيب جديد

تأليف

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء الثامن عشر

منشورات

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - لبنان

سُورَة الشعراء

مكيّة وعدد آياتها مائتان وسبع وعشرون

محتوى سورة الشعراء

المعروف بين المفسّرين أنّ جميع آيات هذه السورة المائتين وسبع وعشرين نزلت في مكّة عدا الآيات الأربع الأخيرة(١).

إيقاع آيات هذه السورة يتناغم أيضاً مع إيقاعات السور المكية الأُخرى، ونعلم أنّ السور المكية التي أنزلت في بداية دعوة الإسلام، تستند على بيان الأُصول الاعتقادية: التوحيد والمعاد، ودعوة أنبياء الله، وأهمّية القرآن.

وتدور جميع موضوعات سورة الشعراء حول هذه المسائل تقريباً.

ويمكن تلخيص محتوى هذه السورة في عدة أقسام:

القسم الأوّل: مطلع هذه السورة الذي يتكون من الحروف المقطعة، ثمّ يتحدث في عظمة القرآن، وتسلية النّبي ﷺ في مواجهة إصرار وحماقة المشركين، والإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، وصفات الله تبارك وتعالى.

القسم الثّاني: يحكي جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام ومواجهاتهم مع أقوامهم، وفي مكابرات وحماقات أُولئك حيال هؤلاء الأنبياء، حيث فصّل الحديث أكثر في بعض منها، كما في قصتي موسى وفرعون، واختصره في بعض آخر منها، كما في قصص إبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب.

في هذا القسم بخاصّة، أشير إلى منطق المشركين. الضعيف الممزوج بالتعصب في كل عصر وزمان في مواجهة أنبياء الله، والذي يشبه كثيراً منطق مشركي عصر النّبي ﷺ، فكان هذا سبباً في تسلية النّبي ﷺ والمؤمنين الأوائل: ، ليعلموا تاريخ هذا الصنف من الناس.

---

(١) تفسير «مجمع البيان» وتفسير «الفخر الرازي» وتفسير «القرطبي» وتفسير «التبيان»، واستثنى في تفسير «روح المعاني» خمس آيات. لكن بعض المفسّرين مثل العلاّمة الطباطبائي في «الميزان» لم يقبل استثناء هذه الآيات. وسوف يكون لنا بحث أكثر إن شاء الله في ذيل هذه الآيات.

ومنطقهم، حتى لا يتأثروا ويتراخوا، وحتى لا يفسحوا للضعف والفتور ليجد طريقاً إلى أنفسهم.

وفيه بشكل خاص أيضاً، تركيز على العذاب العظيم والابتلاءات المروعة التي حلّت بهذه الأمم، والذي هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النّبي في تلك الشرائط.

القسم الثّالث: وتغلب عليه جانب الاستنتاج من القسمين الأوليين، يتناول الحديث حول النّبي ﷺ، وعظمة القرآن، وتكذيب المشركين، والأوامر الصادرة إلى النّبي ﷺ فيما يتعلق بطريقة الدعوة، وكيفية التعامل مع المؤمنين، ويختم السورة بالبشرى للمؤمنين الصالحين، وبالتهديد الشديد للظالمين.

وبالمناسبة، فإنّ اسم هذه السورة أخذ من مجموعة الآيات الأخيرة التي تتحدّث حول الشعراء غير المؤمنين.

وهناك نكتة جديرة بالاهتمام أيضاً، وهي أنّ هذه السورة تعتبر من أكبر السور بعد سورة البقرة من حيث عدد الآيات، وإن كانت ليست كذلك من حيث عدد الكلمات، بل هي أقصر من كثير من السور.

فضيلة سورة الشعراء

ورد في الحديث الشريف عن رسول الإسلام ﷺ في بيان أهميّة تلاوة هذه السورة أنّه قال:

«من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل من صدّق بنوح وكذب به، وهود وشعيب وصالح وابراهيم، وبعدد كل من كذب بعيسى وصدق بمحمّد ﷺ (١)».

ولا يخفى أنّ كلّ هذا الأجر والثواب ليس على التلاوة بدون التفكر والعمل بها، بل إنّ القرائن المتعددة في روايات فضائل السور تحكي عن أنّ المراد من التلاوة هي ما كانت مقدمة للتفكر، ثمّ العزم والعمل، وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً.

وممّا يؤيد هذا المعنى التعبير الوارد في نفس الحديث أعلاه، لأنّ استحقاق الحسنات بعدد المصدّقين والمكذبين للأنبياء من أجل أن يكون الشخص في صف المصدّقين ويتجنّب منهج المكذبين.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٨٣، بداية سورة الشعراء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾

التّفسير

إنّهم يُعرضون عن كل جديد!

مرّةً أُخرى نواجه في بداية هذه السورة مثلاً آخر من الحروف المقطعة وهو: ﴿طسٓمٓ﴾.

وكان لنا في تفسير هذه الحروف المقطعة بحوث مُسهَبة ومستقلّة في مستهل سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الأعراف! فلا نرى حاجةً إلى التكرار والإعادة!

إلاّ أنّ ما ينبغي أن نضيفه هنا هو ما ورد من روايات متعددة عن النّبي ﷺ أو بعض أصحابه في تفسير ﴿طسٓمٓ﴾ ويدلّ جميعُها على أنّ هذه الحروف علامات «مختصرة» عن أسماء الله تعالى، أو أسماء القرآن، أو الأمكنة المقدسة، أو بعض أشجار الجنّة! . . .

وهذه الرّوايات تؤيد التّفسير الذي نقلناه في مستهلّ سورة الأعراف في هذا الصدد، كما أنّها في الوقت ذاته لا تنافي ما قلناه في مستهل سورة البقرة من أنّ المراد من هذه الحروف بيان إعجاز القرآن وعظمته، حيث إنّ هذا الكلام العظيم مؤلف من حروف بسيطة وصغيرة!

والآية التالية تبيّن عظمة القرآن بهذا النحو: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

وبالطبع فإنّ ﴿تِلْكَ﴾ في لغة العرب اسم إشارة للبعيد، ويشار بها للمؤنث «المفرد» و«الجمع»؛ كما قد يشار بها لجمع التكسير(١).

وكما بيّنا آنفاً فقد يعبّر في لغة العرب عن عظمة الشيء - وإن كان قريباً - باسم الإشارة (للبعيد) فكان الموضوع لأهميّتهِ وارتفاع «وعلوّ» مرتبته بعيد عنّا، ومكانه في السماوات العُلى!

---

(١) كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وممّا ينبغي الالتفات إليه وملاحظته أنّ هذه الآية بنصّها وردت في بداية سورة يوسف وسورة القصص - أيضاً - دون زيادة أو نقصان، كما أنّها وردت بعد الحروف المقطعة في مستهلّ السور آنفة الذكر، وهي تدل على ارتباط هذه الحروف بعظمة القرآن.

ووصفُ القرآن بـ«المبين» المشتق من «البيان»، هو إشارة إلى كونه جليّاً بيّناً عظيماً معجزاً - فكلّما أمعن الإنسان النظر في محتواه تعرّف على إعجازه أكثر فأكثر... ثمّ بعد هذا فإنّ القرآن يبيّن الحق ويميزه عن الباطل، ويوضّح سبيل السعادة والنصر والنجاة من الضلال!

وتتحرك الآية التالية لتُسرّي عن قلب النّبي وتثبته فتقول: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾.

كلمة ﴿بَـٰخِعٌ﴾ مشتقّة من (البَخْع) (على وزن الدَّمع)! ومعناه إهلاك النفس من شدة الغمّ... وهذا التعبير يدلّ على مدى تحرّق قلب النّبي وشفقته لأُمته، وأداء رسالته، وما كان عليه من إصرار في خِطته، وتجلّد في مواجهة شدته ومحنته، لأنّه يرى القلوب المتعطشة الظامئة في جوار النبع القرآني الزلال، ولكنّها لا تزال على ظمئها ولا ترتوي من معينه العذب، فكان يتحرق لذلك!

كان قلقاً - وباخعاً نفسه - أن يرى الإنسان الذي منحه الله العقل واللبّ يسير في الطريق المظالم، بالرغم من كل هذا الضياء، ويهوي في الوادي السحيق ليكون من الهالكين!

أجل، كان جميع الأنبياء على هذه الشاكلة من الإشفاق على أُممهم ولا سيما الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم الذي ورد في شأنه هذا التعبير القرآني أكثر من مرّة...

قال بعض المفسّرين: إنّ سبب نزول الآية الآنفة الذكر هو أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يدعو أهل مكّة إلى توحيد الله باستمرار، إلاّ أنّهم لم يؤمنوا، فأسف النّبي وتأثر تأثراً بالغاً حتى بدت أماراته في وجهه، فنزلت الآية آنفة الذكر لتسرّي عن قلب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم [١].

ولبيان أنّ الله على كل شيء قدير حتى أنّه يستطيع أن يسوقهم إلى الإيمان به سوقاً ويضطرّهم إلى ذلك، فإنّ الآية التالية تقول: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾.

وهي إشارة إلى أنّ الله قادر على إنزال معجزة مذهلة - من السماء - أو أن يرسل

---

(١) تفسير أبي الفتوح الرازي، ج ٨ ذيل الآية محل البحث.

عليهم عذاباً شديداً فيذعنوا له، ويطأطئوا برؤوسهم خضوعاً له، ويستسلموا لأمره وحكمه، إلاّ أنّ الإيمان بإكراه لا قيمة له. فالمهم أن يخضعوا للحق عن إرادة ووعي وإدراك وتفكر.

ومن الواضح أنّ المراد بخضوع الأعناق خضوع أصحابها... فاللغة العربية تذكر الرقبة أو العنق كناية عن الإنسان لأنّها جزء مهمٌ منه، ويقال مثلاً كناية عن البغاة القساة: غلاظ الرقاب، وعن المضطهدين والضعفاء: الرقاب الذليلة!

وبالطبع فهناك احتمالات أُخرَ لتفسير «أعناقهم» من جملتها أنّ الأعناق تعني الرؤساء، كما أنّ من التفاسير أنّ الأعناق تعني طوائف من الناس، وجميع هذه الاحتمالات ضعيفة.

ثمّ يتحدث القرآن عن مواقف المشركين والكفّار من آيات القرآن فيقول: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

والتعبير بـ«ذكر» هو إشارة إلى أنّ القرآن موقظ ومنبّه، وهذا الأمر متحقّق في جميع آياته وسوره! إلاّ أنّ هذه الجماعة معرضة عن ذكره وتنبيهه، فهي تفرّ عن كل ذلك!...

والتعبير بـ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى أنّ نزول هذه الآيات من قبل الله إنّما هو من رحمته العامّة، إذ تدعو جميع الناس دون استثناء إلى السعادة والكمال!

كما أنّ هذا التعبير - أيضاً - ربّما كان لتحريك الإحساس بالشكر لله، فهذا الذكر من الله الذي عمّت نعمه وجودكم من القرن إلى القدم، فكيف يمكن الإعراض عن ولي النعمة؟! وإذا كان سبحانه لا يتعجل بإنزال العذاب عليكم، فذلك من رحمته أيضاً...

والتعبير بـ﴿مُحْدَثٍ﴾ - أي جديد - إشارة إلى أنّ آيات القرآن تنزل واحدةً تلو الأُخرى، وكلٌّ منها ذو محتوى جديد، ولكن ما جدوى ذلك، فهم مع كل هذه الحقائق الجديدة - معرضون... فكأنّهم اتّفقوا على خرافات السلف وتعلّقوا بها - فهم لا يرضون أن يودّعوا ضلالهم وجهلهم وخرافاتهم!! فأساساً مهما كان الجديد موجباً للهداية، فإنّ الجهلة والمتعصبين يخالفون الحق ولا يذعنون له...

ونقرأ في سورة «المؤمنون» الآية ٦٨ منه إذ تقول: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فبذريعة ما لم يأت آباؤهم تجدهم متعصبين مخالفين!

ثمّ يضيف القرآن: إنّ هؤلاء لا يقفون عند حدود الإعراض، بل يتجاوزون إلى مرحلة

التكذيب، بل إلى أشدّ منه ليصلوا إلى الاستهزاء به، فيقول: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

«الأنباء»: جمع «أنبأ»، أي الخبر المهمّ، والمراد من هذه الكلمة ما سيصيبهم من العقاب الشديد الدنيوي والأخروي. على أنّ بعض المفسّرين كالشيخ الطوسي في «التبيان»، قال بأن هذا العقاب منحصر بالعقاب الأُخروي. إلاّ أنّ أغلب المفسّرين يعتقدون بشموله لعقاب الدارين، وهو - في الواقع - كذلك! لأنّ الآية مُطْلَقَةٌ.

وبغض النظر عن كل ذلك فإنّ للكفر والإنكار انعكاسات واسعة وشاملة في جميع حياة الإنسان. . . فكيف يمكن السكوت عنها!

والتحقيق في هذه الآية والآية السابقة يكشف أنّ الإنسان حين ينحرف عن الجادة المستقيمة فإنّه يفصل نفسه عن الحق - بشكل مستمر -.

ففي المرحلة الأُولى يعرض عن الحق ويصرف بوجهه عنه. . . ثمّ بالتدريج يبلغ مرحلة الإنكار والتكذيب. . ثمّ يتجاوز هذه المرحلة إلى السخرية والاستهزاء. . . ونتيجةً لذلك ينال عقاب الله وجزاءه «وقد ورد نظير هذا التعبير في الآيتين ٤ و٥ من سورة الأنعام».

ملاحظتان

١ - ورد في بعض خُطب أمير المؤمنين «في نهج البلاغة» المعروفة بالخطبة القاصعة إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الله أرسل الأنبياء على شاكلة يستطيع معها أن يؤمن الناس بدعوتهم إلى الله دون إكراه، بحيث لو لم يكونوا كذلك لكان الإيمان إجبارياً، إذ يقول: «ولو أراد الله سبحانه لأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرضين لفعل. . . ولو فعل لسقط البلاءُ وبطل الجزاء. . . »[(١)].

وورد في كتاب الكافي ذيل الآية محل البحث «لو أنزل الله من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين. ولو فعل لسقط البلوى عن الناس أجمعين»[(٢)].

وممّا يسترعي النظر أنّه ورد في بعض الكتب المعروفة كالإرشاد للشيخ المفيد،

(١) راجع نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، رقم ١٩٢ «تواضع الأنبياء».
(٢) أُصول الكافي حسب نقل تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٤٦ ذيل الآية مورد البحث.

وروضة الكافي، وكمال الدين للشيخ الصدوق، وتفسير القمي، أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال في تفسير الآية: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً...﴾ قال: «تخضع رقابهم - يعني بني أمية - وهي الصيحة في السماء باسم صاحب الأمر - صلوات الله عليه -»(١).

وواضح أنّ المراد من هذه الرّوايات هو بيان مصداق من هذا المفهوم الواسع للآية، إذ ستخضع أخيراً جميع الحكومات الباغية والمتجبرة والظالمة التي تواصل السير على منهج حكومة بني أمية، وذلك عندما يظهر المصلح المهدي عليه السلام إمامُ الحكومة العالمية، فتستسلم إذعاناً لقدرته وحماية الله له وتنحني له إجلالاً.

٢ - أحد البحوث التي كثر الكلام فيها والتعليق عليها في القرون الأُولى - أو الصدر الأوّل - للإسلام هو البحث أو الكلام عن كون كلام الله قديماً أو حادثاً؟! وقد انجرّ هذا الكلام إلى كتب التّفسير أيضاً، وقد استدل جماعة من المفسّرين بالتعبير الوارد في الآية آنفاً ﴿مُحْدَثٍ﴾ على كون القرآن حادثاً.

إلاّ أنّه - كما أشرنا من قبل أيضاً - فإنّ أساس هذا البحث لا يمكن أن يكون منطقيّاً بأيِّ وجه، ويبدو أنّ ذوي السلطة أو أولي الأمر في ذلك الزمان من بني أمية وبني العباس، كان لهم الأثر الكبير في هذه البحوث المضلة ليحرفوا أفكار المسلمين عن المسائل المهمّة والجديّة، وليشغلوا علماء المسلمين بهذه المسائل حفاظاً على حكومتهم وسلطتهم.

لأنّه إذا كان المراد من كلام الله هو محتوى القرآن، فهو من الأزل في علم الله والله خبير بكل ما فيه، وإذا كان المراد منه نزول الوحي وكلمات القرآن وحروفه، فذلك حادث قطعاً ولا خلاف فيه.

فبناءً على ذلك فالقرآن تارة هو قديم بذلك النحو، وأُخرى هو حادث قطعاً بهذه الصورة، فعلى المجتمع الإسلامي أن يكون فطناً ولا سيما العلماء، فلا يُبتلوا بالبحوث المضلة الانحرافية المبتدعة من قِبَلِ الجبابرة وأعداء الإسلام.

---

(١) تفسير الميزان، وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص٤٧، ذيل الآيات مورد البحث.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾

التّفسير

الزوجية في النباتات

كان الكلام في الآيات المتقدمة عن إعراض الكفار عن الآيات التشريعية (أي القرآن المجيد)، أمّا في الآيات محل البحث فالكلام عن الآيات التكوينية ودلائل الله في خلقِه وما أوجده سبحانه، فالكفّار لم يَصمّوا آذانهم ويوصدوا أبواب قلوبهم بوجه أحاديث النّبي وكلماته فحسب، بل كانوا يحرمون أعينهم رؤية دلائل الحق المنتشرة حولهم.

فتقول الآية الأولى من هذه الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾(١).

والتعبير بـ﴿زَوْجٍ﴾ في شأن النباتات يستحق الدقّة... فبالرغم من أنّ أغلب المفسّرين قالوا بأنّ الزوج يعني النوع أو الصنف، وأنّ الأزواج معناها الأصناف والأنواع، إلاّ أنّه ما يمنع أن نفسر معنى الزوج بما يتبادر إلى الذهن من المعنى المعروف وهو الإشارة إلى الزوجيّة في النباتات؟!

كان الناس فيما مضى يدركون أنّ بعض النباتات لها جنسان (ذكر وأُنثى) وكانوا يستعينون بتلقيح النباتات لتثمر... وكانت هذه المسألة معروفة وواضحة تماماً في النخيل...

إلاّ أنّ العالم السويدي والخبير بعلم النبات «لينه» وُفّق لأول مرّة في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي لاكتشاف هذه الحقيقة، وهي أنّ الزوجية في عالم النباتات قانون عام تقريباً، والنباتات كسائر الحيوانات تحمل عن طريق تلقيح الذكر لأُنثاه ثمّ تقذف بالثمار...

غير أنّ القرآن المجيد أشارَ إلى هذه الظاهرة «الزوجية في النبات» في آيات مختلفة

---

(١) يتعدي الفعل «يرى» عادة إلى المفعول بدون حرف الجر (إلى) وقد تتعدى إلى المفعولين، وإنّما تعدت هنا بحرف الجر (إلى) لأنّ المراد منها النظر العميق الدقيق لا الرؤية السطحية...

مراراً قبل هذا العالم السويدي بقرون، كما هي الحال في الآيات محل البحث. وفي الآية الرّابعة من سورة الرعد، والآية العاشرة من سورة لقمان، والآية السابعة من سورة ق. وهذه الإشارة بنفسها إحدى معاجز القرآن العلمية!

وكلمة «كريم» في الأصل تعني كل شيء قيّم وثمين، فقد تستعمل في الإنسان، وقد تستعمل في النبات، وقد تستعمل في الكتاب [أي الرسالة المعهودة بين المتراسلين] أيضاً... كما هي الحال في شأن حديث ملكة سبأ عن كتاب سليمان إليها إذا قالت: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾(١).

والمراد من ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ هو النباتات المهمّة ذوات الفائدة، وطبعاً ما من نبات إلاّ وله فائدة أو فوائد جمّة، ومع تقدم العلم تتجلى هذه الحقيقة يوماً بعد يوم.

وتأتي الآية التالية لتقول مؤكّدةً بصراحة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾.

أجل إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ هذا التراب الذي لا قيمة له ظاهراً، بما فيه من تركيب معين هو مبدأ ظهور أنواع الأزهار الجميلة، والأشجار المثمرة الظليلة، والفواكه ذات الألوان الزاهية، وما فيها من خواص مختلفة. وهو - أي التراب - يبيّن منتهى قدرة الله، إلاّ أنّ أُولئك الذين طُبع على قلوبهم في غفلة وجهل إلى درجة يرون معها آيات الله بأعينهم، ومع ذلك يجحدونها ويكفرون بها، ويترسخ في قلوبهم العناد والجدل!

لذلك فإنّ الآية هذه تعقّبُ قائلة: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

أي إنّ عدم الإيمان لدى أُولئك أمسى كالصفة الراسخة فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات، لأنّ قابليّة المحل من شرائط التأثير الأصيلة أيضاً كما نقرأ قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾(٢).

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يرد الخطاب في تعبير يدلُّ على التهديد والترهيب والتشويق والترغيب، فيقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾...

﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ معناه المقتدر الذي لا يغلب ولا يُقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمى، كما أنّه قادر على إهلاك المكذبين وتدميرهم.. إلاّ أنّه مع كل ذلك رحيم،

---

(١) سورة النمل، الآية: ٢٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: الآية ٢.

ورحمته وسعت كل شيء، ويكفي الرجوع بإخلاص إليه في لحظة قصيرة! لتشمل رحمته من أناب إليه وتاب، فيعفو عنه بلطفه ورحمته!

ولعل تقديم كلمة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لأنّه لو تقدمت كلمة ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ لأشعرت الإحساس بالضعف، إلاّ أنّه قدم سبحانه الوصف بالعزيز ليُعلم أنّه وهو في منتهى قدرته ذو رحمة واسعة!

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾

التّفسير

بداية رسالة موسى

قلنا إنّ في هذه السورة بياناً لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامّة المسلمين، ولا سيما المسلمين الأوائل في عصر النبي ﷺ. . .

فأوّل قصّة تتناولها هذه السورة هي قصة موسى عليه السلام، وتشرح جوانب مختلفة من حياته ومواجهته لفرعون وأتباعه حتى هلاكهم بالغرق في النيل!

وقد جاء الكلام عن بني إسرائيل وموسى وفرعون وقومه حتى الآن في سور شتى «كالبقرة والمائدة والأعراف ويونس والإسراء وطه» كما ورد الكلام في هذا الشأن أيضاً في بعض السور التالية! . . .

وهذه البحوث وإن تكررت - بحسب الظاهر - إلاّ أنّ الإمعان أو التدقيق فيها يكشف عن أن كلّ بحث منها يتناول جانباً خاصّاً من هذه القصّة ذات المحتوى الغزير، ويعوّل على هدف معين! . . .

مثلاً . . حين نزلت الآيات - محل البحث - كان المسلمون قلّةً ضعافاً وكان أعداؤهم كثرةً أولي قوّة وبأس شديد، بحيث لا يمكن الموازنة بين الفرقتين، فكان ينبغي أن يبيّن الله قصص الأُمم السابقة المشابهة لحال هؤلاء، ليعلم المسلمون أنّ هذه القوّة التي يمتلكها

الأعداء وهذا الضعف الظاهري الذي يكتنف المسلمين لن يؤدّي أيٌّ منهما بنفسه إلى انحدار المسلمين، ولتزداد معنويات المسلمين وتثبت استقامتهم ومقاومتهم...

وممّا يلفتُ النظر تكرار عبارة: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ بعد تمام الحديث عن كل نبي... وهو التعبير ذاته الوارد في بداية هذه السورة في شأن النّبي محمّد ﷺ.. وهذا الاتساق في التعبير شاهد حيّ على أنّ ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنّما هو للظروف المتشابهة التي اكتنفت المسلمين من حيث الحالة النفسية والاجتماعية كما كان عليها الأنبياء السابقون...

فتقول الآيتان الأُوليان من الآيات محل البحث ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾. ويتركون ظلمهم وفسادهم وعنادهم للحق.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الصفة الوحيدة المذكورة عن قوم فرعون هنا هي الظلم، ومن الواضح أنّ الظلم له معنى جامعٌ واسع ومن مصاديقه الشرك كما تقول الآية (١٣) من سورة لقمان ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾...

كما أنَّ استعباد بني إسرائيل واستثمارهم وما قارنهما من زجر وتعذيب من المصاديق الأُخرى أيضاً، ثمّ بعد هذا كله فإنّ قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفة، وهكذا يمكن تلخيص أهداف دعوة الأنبياء جميعهم بمبارزة الظلم بجميع أبعاده!...

ويحكي القرآن مقالة موسى الكليم لربّ العزة وما طلبه منه من مزيد القوة والعون لحمل الرسالة العظمى، فيقول في الآية التالية: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ وأخشى أن أُطرد قبل أن أكمل أداء رسالتي بما أُلاقيه من صخب وتكذيب فلا يتحقق الهدف المنشود...

وكان لموسى الحق في كلامه هذا تماماً، لأنّ فرعون وأتباعه وحاشيته كانوا مهيمنين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم ولو برأيه، وإذا أحسّوا بأدنى نغمة مخالفة لأي شخص بادروا إلى الإجهاز عليه فوراً..

وإضافة إلى ذلك فإنّ صدري لا يتّسع لاستيعاب هذه الرسالة الإلهية: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾.

ثمّ بعد هذا كله فلساني قد يعجز عن بيانها: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾...

فلذلك فإني أطلب أن تشدّ أزري بأخي ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾(١).

---

(١) في هذه الجملة حذفٌ وتقديره: فأرسل جبرئيل إلى هارون.

لنؤدّي رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا في مواجهة الظالمين والمستكبرين.

وبغض النظر عن كلّ ذلك فإنّ قوم فرعون يطاردونني ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾ كما يعتقدون لأنّي قتلت واحداً منهم - حين كان يتنازع مع إسرائيلي مظلوم - بضربة حاسمة! وأنا قلق من ذلك ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

وفي الحقيقة إنّ موسى عليه السلام كان يرى أربع مشاكل كبرى في طريقه، فكان يطلب من الله حلّها لأداء رسالته وهذه المشاكل هي...

مشكلة التكذيب.

مشكلة ضيق الصدر.

مشكلة عدم الفصاحة الكافية.

ومشكلة القصاص!

ويتّضح ضمناً أنّ موسى لم يكن خائفاً على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف والمقصد للأسباب آنفة الذكر، لذلك فقد كان يطلب من الله سبحانه مزيد القوّة لهذه المواجهة!...

طلبات موسى عليه السلام من الله في هذا الصدد خير شاهد على هذه الحقيقة، إذ طلب أن يشرح صدره ويحلّ عقدة لسانه وأن يرسل إلى هارون للمعاضدة في التبليغ كما جاء ذلك في سورة طه بصورة أكثر تفصيلاً إذ قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[1].

فاستجاب الله طلب موسى ودعوة الصادقة و﴿قَالَ كَلَّا﴾ فلن يستطيعوا قتلك، أو كلاّ لن يضيق صدرك وينعقد لسانك، وقد أجبنا دعوتك أيضاً في شأن أخيك، فهو مأمور معك في هذه المهمّة: ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ لتدعوا فرعون وقومه إلى توحيد الله.

ولا تظنّا بأنّ الله بعيد عنكم أو لا يسمع ما تقولان ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾...

فإنا معكما ولن أترككما أبداً، وسأنصركما في الحوادث الصعبة، فاذهبا مطمئني الخاطر، وامضيا في هذا السبيل بأقدام ثابتة وعزيمة راسخة!...

وهكذا فإنّ الله سبحانه أعطى لموسى الاطمئنان الكافي في جمل ثلاث وحقّق له

---

(١) سورة طه، الآيات: ٢٥ - ٣٤.

طلبه... إذ طمأنه بقوله: ﴿كَلَّا﴾ على أنّ قوم فرعون لن يقتلوه ولن يستطيعوا ذلك... ولن تحدث له مشكلة بسبب ضيق صدره أو التلكؤ في لسانهِ وبقوله: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ أرسل أخاه ليعينه على أمره. وبقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ وعدهما أنّهما سيكونان أبداً تحت ظل خيمته وحمايته!...

وممّا ينبغي الالتفات إليه ورود الضمير في آخر الجملة بصيغة الجمع في قوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ولعل ذلك إشارة إلى أنّ الله حاضر مع موسى وهارون ومن يواجهانهما من الطغاة والفراعنة في جميع المحاورات، ويسمع ما يدور بينهم جميعاً، فينصر موسى وأخاه هارون على أولئك الطغاة!...

وما ذهب إليه بعض المفسّرين من أنّ كلمة «مع» دالة على النصرة والحماية فلا تشمل قوم فرعون، غير سديد، بل إنّ «مع» تعني حُضور الخالق الدائم في جميع الميادين والمحاورات، حتى مع المذنبين، وحتى مع الموجودات التي لا روح فيها، فهو في كل مكان ولا يخلو منه مكان.

والتعبير بـ ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾، أي الإصغاء المقرون بالتوجه هو تأكيد على هذه الحقيقة أيضاً.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾

التّفسير

مواجهة فرعون مواجهة منطقية وقاطعة

انتهت في الآيات المتقدمة المرحلة الأُولى لمأمورية «موسى عليه السلام»: «وهي موضوع الوحي «والرسالة» وطلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير!...

وتعقيباً على المرحلة الآنفة تأتي الآيات - محل البحث - لتمثل المرحلة الثّانية، أي مواجهة موسى وهارون لفرعون، والكلام المصيري الذي جرى بينهم!

تقول الآية الأُولى من هذه الآيات مقدمةً لهذه المرحلة: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وجملة ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ تكشف عن أنّهما ينبغي أن يواجها فرعون نفسه بأيّة قيمة أو أيّ ثمن كان. . .

والتعبير بـ﴿رَسُولُ﴾ بصيغة الإفراد مع أنّهما «موسى وهارون» نبيّان مرسلان، يشير إلى وحدة دعوتهما، فكأنّهما روحان في بدن واحد لهما خِطّة واحدة وهدف واحد(١).

وضمن دعوتكما لفرعون بأنّكما رسولا ربّ العالمين اطلبا منه أن يُرسل بني إسرائيل ويرفع يده عنهم: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وبديهي أنّ المراد من الآية أن يرفع فرعون عن بني إسرائيل نير العبوديّة والقهر والاستعباد، ليتحرروا ويأتوا مع موسى وهارون، وليس المراد هو إرسال بني إسرائيل معهما فحسب.

وهنا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسة وممزوجة بالخبث والشيطنة لينفي الرسالة ويقول لموسى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا. . .﴾.

إذْ التقطناك من أمواج النيل الهادرة فأنقذناك من الهلاك، وهيّأنا لك مرضعة، وعفونا عن الحكم الصادر في قتل أبناء بني إسرائيل الذي كنت مشمولاً به، فتربّيت في محيط هادىء آمن منعّماً. . . وبعد أن تربيت في بيتنا عشت زماناً ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

ثمّ توجه إلى موسى وذكرّه بموضوع قتل القبطي فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾.

إشارةً إلى أنّه كيف يمكنك أن تكون نبيّاً ولديك مثل هذه السابقة؟!

ثمّ بعد هذا كله: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾! (أي بنعمة فرعون) فلطالما جلست على مائدتنا وتناولت من زادنا فكيف تكون نبيّاً وأنت كافر بنعمتي؟!

وفي الحقيقة؛ كان فرعون يريد أن يجعل موسى محكوماً بهذه التهم المواجهة إليه، وبهذا المنطق الاستدراجي.

---

(١) يقول الراغب في «المفردات»: «الرّسول» من الكلمات التي تطلق على المفرد والجمع، وإن جمعت أحياناً على «الرسُل» فمنهم من يرى أنّها مصدر أيضاً ومعناها الرسالة، ونعرف أنّه لا تثنية ولا جمع في المصدر، وقد ورد في لسان العرب أن الرّسول بمعنى الرسالة، إلاّ أنّ هذه الكلمة تحمل المعنى الوصفي حتماً، وكثيراً ما تجمع أو تثنى وقد ورد في سورة طه عن هذه القصة وقصة موسى وهارون: «إنّا رسولا ربك»!

والمراد من قصّة القتل المذكورة هنا هو ما جاء في سورة القصص «الآية ١٥ منها» حيث جاء فيها أنّ موسى وجد رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه، فاستغاثه الذي هو من شيعته على الذي من عدوّه فوكزه موسى فقضى عليه انتصاراً لشيعته! . . .

وعندما سمع موسى كلمات فرعون الممزوجة بالخبث والشيطنة أجاب على إشكالات فرعون الثلاثة، إلاّ أنّه قدّم الإجابة على الإشكال الثّاني نظراً لأهمّيته. (أو أنه أساساً لم يجد الإشكال الأوّل يستحق الإجابة لأنّ تربية الشخص لا تكون دليلاً على عدم جواز هداية مربّيه إن كان المربي ضالاً ليسلك سبيل الرشاد)

وعلى كل حال أجابه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وهنا كلام طويل بين المفسّرين على المراد من كلمة ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ الواردة في تعبير موسى عليه السلام . . . لأنّه كما نعلم لا مجال لأن تكون للنبيّ سابقةُ سوء حتى قبل مرحلة النبوّة. . لأنّها تزلزل موقعه في أفكار عامّة الناس، ويبقى الهدف من بعثته ناقصاً غيرِ تام، ولذلك فإنّ العصمة في الأنبياء لازمة حتى قبل زمان نبوتهم! هذا من جهة. . .

ومن جهة أُخرى ينبغي أن يكون هذا الكلام جواباً مسكتاً لفرعون! لذلك فإن كثيراً من المفسّرين يعتقدون أنّ المراد من «الضال» هنا هو كونُه أخطأ في الموضوع، أي أنّ موسى كانت ضربته للرجل القبطي لا بقصد القتل، بل لكي يحمي المظلوم ويدافع عنه، ولم يدر أنّها ستؤول إلى الإجهاز عليه وقتله، فبناءً على ذلك فإنّ الضالّ هنا معناه «الغافل» والمراد منه الغافل عن العاقبة التي أدّى عمله إليها.

وقال بعض المفسّرين: إنّ المراد من ذلك أنّه لم يكن أيّ خطأ في قتل القبطي الظالم لأنّه كان مستحقاً، بل إنّ موسى عليه السلام يريد أن يقول: إنّه لم يدر أن عاقبة عمله ستكون على هذا الوجه، وإنّه لا يستطيع البقاء في مصر وعليه أن يخرج بعيداً عن وطنه، وأن يتأخر منهجه «في أداء رسالته».

ولكن الظاهر أنّ هذا لا يعدّ جواباً لفرعون، بل هو موضوع كان لموسى أن يبيّنه لأتباعه ومن حوله من محبّيه! لا أنّه ردّ على إشكال فرعون! . . .

والتّفسير الثّالث الذي من المحتمل أن يكون مناسباً أكثر لمقام موسى عليه السلام - من جهات متعددة - ويتلاءم وعظمة كيانه، أنّ موسى عليه السلام استخدم التورية في تعبيره جواباً على كلام فرعون، فقال كلاماً ظاهره أنّه لم يعرف طريق الحق في ذلك الزمان. . . لكنّ الله عرّفه إياه بعدئذ، ووهب له حكماً - فجعله من المرسلين، إلاّ أنّه كان يقصد في

الباطن أنّه لم يدر أن عمله حينئذ سيؤدّي إلى هذه النتيجة! من الجهد والعناء واضطراب البال - مع أنّ أصل عمله كان حقاً ومطابقاً لقانون العدالة «أو أنه يوم كانت هذه الحادثة قد وقعت كان موسى عليه السلام قد ضلّ طريقه فصادف أمامه هذه القضيّة». . .

ونحن نعرف أنّ «التورية» هي أن يقول الإنسان كلاماً باطنه حق، إلاّ أنّ الطرف الآخر يفهمُ من ظاهره شيئاً آخر، وهذا الأمر يقع في موارد خاصّة يُبتلى الإنسان فيها بالحرج أو الضيق، ولا يريد أن يكذب، وهو في الوقت ذاته على ظاهر كلامه. . (١).

ثمّ يضيف موسى قائلاً: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾!

وهناك اختلاف بين كلمات المفسّرين في المراد من «الحكم» في هذه الآية، أهو مقام النبوة، أم مقام العلم، أم سواهما؟! لكن مع ملاحظة ذيل الآية نفسها المذكور فيها مقام الرسالة بإزاء الحكم يتّضح أنّه غير الرسالة والنبوّة!

والشاهد الآخر على هذا الموضوع الآية (٧٩) من سورة آل عمران إذ قال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ. . .﴾.

إن كلمة «الحكم» تعني في اللغة: المنع من أجل الإصلاح، هذا هو الأصل في ما وضعت له، ولذا سمّوا لجام الحيوان «حَكَمةً» على وزن (صَدَقَة) ثمّ أطلقت هذه الكلمة على ما يطابق الحكمة، ومن هنا سمي العقل والعلم حكماً أيضاً لهذا التناسب، وقد يقال: إنّه يستفاد من الآية (١٤) من سورة القصص أنّ موسى عليه السلام كان قد بلغ مقام الحكم والعلم قبل هذه القضية إذ تقول: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

فنجيب على ذلك أنّ للعلم والحكمة مراحل مختلفة، فكان موسى عليه السلام قد بلغ مرحلة منهما من قبل، وحين بلغ مقام النبوّة أدرك المرحلة الأكمل! . . .

ثمّ يردّ موسى عليه السلام على كلام فرعون الذي يمنُّ به عليه في أنّه ربّاه وتعهده منذ طفولته وصباهُ، معترضاً عليه بلحن قاطع فيقول: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

صحيح أنّ يد الحوادث ساقتني - وأنا طفل رضيع - إلى قصرك، لأتربّى في كنفك، وكان في ذلك بيان لقدرة الله، لكن ترى كيف جئت إليك؟ ولِمَ لا تربيتُ في أحضان والديّ وفي بيتهما؟!

---

(١) هذا الكلام يوافق مضمون الحديث الوارد عن الإمام الرضا عليه السلام في تفسير الآية، راجع كتاب عيون أخبار الرضا، ج ٤، ص ٤٨ نقلاً عن «نور الثقلين».

ألم يكن ذلك لأنّك عبّدت بني إسرائيل وصفّدت أيديهم بنير الأسر! حتى أمرت أن يُقتل الأطفال الذكور وتستحيا النساء للخدمة؟!

فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سبباً لأن تضعني أُمي في الصندوق حفاظاً عليّ، وتلقيني في أمواج النيل، وكانت مشيئة الله أن تسوق الأمواج «زورقي» الصغير حتى توصله إلى قصرك... أجل إن ظلمك الفاحش هو الذي جعلني رهين منّتك وحرمني من بيت أبي الكريم، وصيرني في قصرك الملوّث!...

وبهذا التّفسير يتّضح ارتباط جواب موسى بسؤال فرعون تماماً.

كما يحتمل في تفسير هذه الآية أنّ مراد موسى عليه السلام هو الاعتراض على فرعون بأنّه لو كانت تربيتي عندك نعمةً من قبلك، فهي إزاء ظلمك لبني إسرائيل بمثابة القطرة في مقابل البحر، فأية نعمةَ لك عليّ مع ما عندك من الظلم والجور على الناس؟!

والتّفسير الثّالث لجواب موسى لفرعون، هو أنّه: لو تربيت في قصرك وتمتعت بنعمك المختلفة، فلا تنس بُناة قصرك الأوائل فهم أرقّاء من قومي، والموجدون لجميع تلك النعم هم أسراؤك من بني إسرائيل، فكيف تمنّ عليّ بجهود قومي وأتعابهم؟!

وهذه التفاسير الثلاثة لا تتنافى جميعاً، وإن كان التّفسير الأوّل من بعض الجهات أكثر وضوحاً!

ويستفاد من عبارة: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ضمناً بأنّني لست الوحيد المرسل من قبل الله، فمن قبلي جاء رُسُل عدّة، وأنا واحدٌ منهم، إلاّ أنّ فرعون نسيَهم أو تناساهم!!

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

التّفسير

الاتهام بالجنون والتهديد بالسجنِ

حين واجه موسى عليه السلام فرعون بلهجة شديدة وأجابه بضرس قاطع، وأفحم فرعون

في ردّه، غيّر فرعون مجرى كلامه، وسأل موسى عن معنى كلامه أنّه رسول ربّ العالمين، و﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . .

ومن المستبعد جدّاً أن يكون فرعون قد سأل موسى عليه السلام هذا السؤال لفهم الحقيقة ومعرفة الموضوع، بل يبدو أنّه سأله متجاهلاً ومستهزئاً.

إلاّ أنّ موسى - على كل حال - لم يجد بُداً كسائر الباحثين الواعين اليقظين، أن يجيب على فرعون بجدّ. . . وحيث إنّ ذات الله سبحانه بعيدة عن متناول أفكار الناس، فإنّهُ أخذ يحدثه عن آيات الله في الآفاق وآثاره الحيّة إذْ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

فالسماوات بما فيهن من عظمة، والأرض على سعتها. . . والموجودات المتعددة بألوانها بحيث لا تساوي أنت وقصرك بإزائها إلاّ ذرّة في مقابل المجرّة! كلّها من خلق ربّي، فمثل هذا الخالق المدبّر لهذا العالم جدير بالعبادة، لا الموجود الضعيف التافه مثلك! . . .

وينبغي الالتفات إلى أن عبدة الأوثان كانوا يعتقدون أنّ لكلّ موجود في هذا العالم ربّاً، وكانوا يعدّون العالم تركيباً من نُظُم متفرقة، إلاّ أنّ كلام موسى عليه السلام يشير إلى أنّ هذا النظام الواحد المتحكم على هذه المجموعة في عالم الوجود دليل على أن له ربّاً واحداً. . .

وجملة ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ لعلها إشارةً إلى أنّ موسى عليه السلام يريد أن يفهم فرعون ومن حوله - ولو تلويحاً - أنه يعرف أنّ الهدف من هذا السؤال ليس إدراك الحقيقة. . . لأنّه لو أراد إدراك الحقيقة والبحث عنها لكان استدلاله كافياً. . فكأنّه يقول لهم: افتحوا أعينكم قليلاً وتفكروا ساعة في السماوات والأرض بما فيهما من الآثار وعجائب المخلوقات. . . لتطلعوا على معالمها وتصححوا نظرتكم نحو الكون!

إلاّ أنّ فرعون لم يتيقظ من نومة الغافلين بهذا البيان المتين المحكم لهذا المعلم الكبير الرّباني السماوي. . . فعاد لمواصلة الاستهزاء والسخرية، واتبع طريقة المستكبرين القديمة بغرور، و﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾.

ومعلوم من هم الذين حول فرعون؟ فهم أشخاص من نسيجه وجماعة من أصحاب القوّة والظلم والقهر والمال.

يقول ابن عباس: كان الذين حول فرعون هناك خمسمائة نفر، وهم يعدّون من خواص قومه[١].

وكان الهدف من كلام فرعون أن لا يترك كلام موسى المنطقي يؤثر في القلوب المظلمة لأُولئك الرهط... فعدّه كلاماً بلا محتوى وغير مفهوم.

إلاّ أنّ موسى عليه السلام عاد مرّةً أُخرى إلى كلامه المنطقي دون أي خوف ولا وهن ولا ايهام، فواصل كلامه و﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

إن موسى عليه السلام بدأ في المرحلة الأُولى بـ«الآيات الآفاقية»، وفي المرحلة الثّانية أشار إلى «الآيات الأنفسية»، وأشار إلى أسرار الخلق في وجود الناس أنفسهم وآثار ربوبية الله في أرواح البشر وأجسامهم، ليفكر هؤلاء المغرورون على الأقلّ في أنفسهم ويحاولوا التعرّف عليها وبالتالي معرفة من خلقها.

إلاّ أنّ فرعون تمادى في حماقته، وتجاوز مرحلة الاستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، فـ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾...

وذلك ما اعتاده الجبابرة والمستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الرّبانيين!...

وممّا يستجلب النظر أنّ هذا الضالّ المغرور لم يكن مستعداً حتى لأنّ يقول: «إنّ رسولنا الذي أرسل إلينا»، بل قال: «إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم»، لأنّ التعبير برسولكم - أيضاً - له طابع الاستهزاء المقترن بالنظرة الاستعلائية... يعني: إنني أكبر من أن يدعوني رسول... وكان الهدف من اتهامه موسى بالجنون هو إحباط وإفشال منطقه القويّ المتين لئلا يترك أثراً في أفكار الحاضرين.

إلاّ أنّ هذه التهمة لم تؤثر في روح موسى عليه السلام ومعنوياته العالية، وواصل بيان آثار الله في عالم الإيجاد في الآفاق والأنفس، مبيناً خط التوحيد الأصيل فـ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

فإذا كنت - يا فرعون - تحكم حكما ظاهرياً في أرض محدودة تدعى مصر، فإنّ حكومة ربّي الواقعية تسع المشرق والمغرب وما بينهما جميعاً، وآثاره تشرق في وجوه الموجودات!... وأساساً فإنّ هذه الشمس في شروقها وغروبها وما يتحكم فيها من

(١) راجع تفسير أبي الفتوح الرازي ذيل الآية مورد البحث.

نظام، كل ذلك بنفسه آية له ودليل على عظمته. . . إلاّ أنّ العيب كامن فيكم، لأنّكم لا تعقلون، ولم تعتادوا التفكير (وينبغي الالتفات إلى أنّ جملة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ هي إشارة إلى أنّه لو كنتم تتفكرون وتستعملون العقل في ماضي حياتكم وحاضرها لتوصلتم إلى إدراك هذه المسألة).

وفي الواقع إن موسى عليه السلام أجاب على اتهامهم إياه بالجنون بأسلوب بليغ بأنّه ليس مجنوناً، وأنّ المجنون هو من لا يرى كل هذه الآثار ودلائل وجود الخالق، والعجيب أنّه مع وجود الآثار على باب الدار والجدار، فإنه يوجد من لا يفكر في هذه الآثار!

وصحيح أنّ موسى عليه السلام أشار بادىء الأمر إلى تدبير أمر السماوات والأرض، إلاّ أنّه حيث إنّ السماء عالية جداً، وإنّ الأرض ذات أسرار غريبة، فقد وضع موسى عليه السلام أخيراً إصبعه على نقطة لا يمكن لأحد إنكارها؛ ويواجهها الإنسان كلّ يوم، وهي نظام طلوع الشمس وغروبها وما فيها من منهج دقيق. . . وليس لأحد من البشر أن يدعي أنّ بيده نظامها أبداً. . .

والتعبير بـ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ إشارة إلى الوحدة والارتباط في ما بين المشرق والمغرب، وهكذا كان التعبير في شأن السماوات والأرض. ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾.

ويبيّن التعبير ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أيضاً ارتباط النسل والوحدة فيه. . .

غير أنّ هذا المنطق المتين الذي لا يتزعزع غاظ فرعون بشدة، فالتجأ إلى استعمال «حربة» يفزع إليها المستكبرون عند الاندحار، فجابه موسى و﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾.

فأنا لا أعرف كلماتك، إنّما أعرف وجود إله ومعبود كبير وهو أنا. . . ومن قال بغيره فهو محكوم بالإعدام أو السجن!. . .

ويعتقد بعض المفسّرين أنّ الألف واللام في ﴿مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ هما للعهد، وهي إشارة إلى سجن خاص من ألقي فيه يبقى سجيناً حتى تخرج جنازته[1].

وفي الواقع كان فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الإرهابي، لأنّ مواصلة موسى عليه السلام بمثل هذه الكلمات ستكون سبباً في إيقاظ الناس، وليس أخطر على الجبابرة من شيء كإيقاظ الناس!. . .

(١) راجع تفسير الميزان، والفخر الرازي، وروح المعاني ذيل الآية مورد البحث.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ
﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ
﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم
بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

بلادكم في خطر

رأينا في الآيات المتقدمة كيف حافظ موسى عليه السلام على تفوّقه - من حيث المنطق - على فرعون، وبيّن للحاضرين إلى أيّة درجة يعوّل مبدؤه على منطقه وعقله، وأنّ ادعاء فرعون واهٍ وضعيف، فتارة يسخر من موسى، وتارةً يرميه بالجنون، وأخيراً يلجأ إلى التهديد بالسجن والإعدام!...

وهنا يقلب موسى عليه السلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقةً أُخرى يخذل فيها فرعون ويعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوّة أيضاً، القوّة الإلهية التي تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدّياً و﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾...

وهنا وجد فرعون نفسه في طريق مغلق مسدود... لأنّ موسى عليه السلام أشارَ إلى خطّة جديدة! ولفت أنظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتدّ بكلامه، لاعترض عليه الجميع ولقالوا: دعه ليرينا عمله المهم، فلو كان قادراً على ذلك فلنر، ونعلم حينئذ أنّه لا يمكن الوقوف أمامه، وإلاّ فستنكشف مهزلته!! وعلى كل حال ليس من اليسير تجاوز كلام موسى ببساطة...

فاضطر فرعون إلى الاستجابة لاقتراح موسى عليه السلام و﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ «بأمر الله».

ثمّ أظهر إعجازاً آخر حيث أدخل يده في جيبه (أعلى الثوب) وأخرجها فاذا هي بيضاء منيرة: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾.

في الحقيقة إن هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، والأُخرى مظهر الأمل، فالأُولى تناسب مقام الإنذار، والثّانية للبشارة! والأُولى تبيّن عذاب الله، والأُخرى نورٌ وآية رحمة! لأنّ المعجزة ينبغي أن تكون منسجمةً مع دعوة النّبي عليه السلام.

«الثعبان» معناه الحية العظيمة، ويحتمل الراغب في مفرداته أنّ «الثعبان» من مادة (ثعب) المأخوذ معناه من جريان الماء، لأنّ حركة هذا الحيوان تشبه الأنهار المتحركة!

والتعبير بـ «المبين» لعله إشارة إلى هذه الحقيقة! وهي أنّ عصا موسى عليه السلام تبدلت إلى ثعبان عظيم فعلاً، ولم يكن في الأمر من إيهام أو سحر.

ولا بأس بذكر هذه اللطيفة الدقيقة هنا، وهي أنّ الآية محل البحث عبرت [عن تبدل العصا] بـ «ثعبان». أمّا الآية العاشرة من سورة النمل، والآية الحادية والثلاثون من سورة القصص، فقد عبرت عنها بـ «جان» «ما تجنّه[1] الأرض وما يمشي عليها من الأفاعي الصغار بسرعة وقفز». أمّا الآية العشرون من سورة طه فقد عبّرت عنها بأنّها «حية» «المشتقّة من الحياة».

وهذا التفاوت أو الاختلاف في التعابير مثير للسؤال في بدو النظر، إلاّ أنّ الاختلاف أو التفاوت إنّما هو لبيان واحد من أمرين:

١ - لعله إشارة إلى حالات ذلك الثعبان المتباينة، ففي البداية تبدلت العصا إلى جانّ أو حية صغيرة، ثمّ بدأت تكبر حتى صارت ثعباناً مبيناً!...

٢ - أو أنّ هذه الألفاظ الثلاثة «الثعبان، والجان، والحية» كلٌّ منها يرمز إلى بعض الخصائص الموجودة في تلك العصا المتبدلة إلى حالة جديدة! فالثعبان إشارة إلى عظمتها، والجان إشارة إلى سرعتها، والحية إشارة إلى حياتها!

غير أن فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول وغرق في وحشة عميقة ولكي يحافظ على قدرته الشيطانية التي أحدق بها الخطر بظهور موسى عليه السلام، وكذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه والملأ من حوله في توجيه معاجز موسى ولفت نظرهم عنها، فقد ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾.

ذلك الإنسان الذي كان يدعوه مجنوناً إلى لحظات آنفة، وإذا هو الآن يعبر عنه بالعليم، وهكذا هي طريقة الجبابرة وأسلوبهم، حيث تتبدل كلماتهم في مجلس واحد

---

(١) جنّ يجن «من الأضداد في اللغة» والضدّ في الألفاظ ما يحمل معنيين متضادين، مثل الجون يطلق على الأسود والأبيض، وجنّ بمعنى ستره وأظهره.

عدّة مرّات، ويحاولون التشبث بأي شيء للوصول إلى هدفهم.

وكان فرعون يعتقد أن اتهام موسى بالسحر ألصق به وأكثر قبولاً عند السامعين، لأنّ ذلك العصر كان عصر السحر، فإذا أظهر موسى عليه السلام معاجزه فمن اليسير توجيهها بالسحر.

ومن أجل أن يعبّىء الملأ ويُثيرَ حفيظتهم ضد موسى عليه السلام، قال لهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

والغريب في الأمر أنّ فرعون الذي قال هذا الكلام هو الذي كان يقول من قبل: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾(1)؟!

والآن حيث يرى عرشه متزعزعاً ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، ويعدّها ملكَ الناس، فيقول لهم: أرضكم في خطر، إنّ موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم، ففكروا في حيلة!...

فرعون هذا لم يكن قبل ساعة مستعداً لأن يصغي لأحد، كان الآمر بلا منازع، أمّا الآن فهو في حرج شديد يقول لمن حوله: «ماذا تأمرون»؟! إنّها استشارة عاجزة ومن موقف الضعف فحسب!...

ويستفاد من الآية (١١٠) من سورة الأعراف أنّ أتباع فرعون ومن حوله ائتمروا فيما بينهم وتشاوروا في الأمر، وكانوا في حالة من الاضطراب النفسي بحيث كان كلٌّ منهم يسأل الآخر قائلاً: وأنت ما تقول؟ وماذا تأمرون؟!

أجل هذه سُنّةُ الجبابرة في كل عصر وزمان... فحين يسيطرون على الأوضاع يزعمون أنّ كل شيء لهم، ويعدون الجميع عبيدهم، ولا يفهمون شيئاً سوى منطق الاستبداد. إلاّ أنّهم حين تهتزّ عروشهم الظالمة ويرون حكوماتهم في خطر، ينزلون مؤقتاً عن استبدادهم ويلجأون إلى الناس ويتحدثون باسم الناس، فالأرض أرض الشعب، والحكومة تمثل الشعب ويحترمون آراء الشعب، ولكن حين يستقر الطوفان ويهدأ التيار، فاذا هم أصحاب الأمس و«عادت حليمة إلى عادتها القديمة».

ورأينا في عصرنا بقايا السلاطين القدامى كيف يحسبون أنّ الدولة ملكهم المطلق حين تُقبل الدنيا عليهم، ويأمرون من يرفض اتباعهم بالخروج عن تلك البلاد قائلين له:

---

(1) سورة الزخرف، الآية: ٥١.

اذهب في أرض الله العريضة الواسعة، ففي هذا البلد لابدّ من تنفيذ ما نقول لا غير. ورأينا هذه الحالة عندما بدأت تهبّ رياح الثورة الإسلامية كيف أنّ الطواغيت أخذوا باحترام الشعب وتعظيمه، وحتى أنّهم أقروا بذنوبهم وطلبوا العفو، ولكن الناس الذين عرفوا سجيّتهم طوال سنين مديدة لم ينخدعوا بذلك.

وبعد المشاورة فيما بينهم التفت الملأ من قوم فرعون إليه و﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾[1]. أي أمهلهما وابعث رسلك إلى جميع المناطق والأمصار.

﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾.

وفي الواقع إن رهط فرعون إمّا أنّهم غفلوا، وإمّا أنّهم قبلوا اتهامه لموسى واعين للأمر. فهيأوا خطةً على أنّه ساحر، ولابدّ من مواجهته بسحرة أعظم منه وأكثر مهارة!...

وقالوا: لحسن الحظّ إنّ في بلادنا العريضة سحرةً كثيرين، فلابدّ من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السلام.

وكلمة ﴿حَٰشِرِينَ﴾ مأخوذه من مادة (الحشر) ومعناه التعبئة والسوق لميدان الحرب وأمثال ذلك، وهكذا فينبغي على المأمورين أن يعبئوا السحرة لمواجهة موسى عليه السلام بأيّ ثمن كان!...

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾

التّفسير

اجتماع السحرة من كلّ مكان

في هذه الآيات يُعرض مشهد آخر من هذه القصّة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع السحرة والبحث عنهم، وكان الوعد المحدد ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾.

---

(١) (أرجه) مشتقّة من «الإرجاء»، ومعناها التأخير وعدم الاستعجال في القضاء، والضمير في (أرجه) يعود على موسى، وأصل الكلمة كان (أرجئه) وحذفت الهمزة للتخفيف!

وبتعبير آخر: إنّهم هيأوهم من قبل لمثل هذا اليوم، كي تجتمعوا في الوعد المقرر في «ميدان العرض»...

والمراد من «اليوم المعلوم» كما يستفاد من بعض الآيات في سورة الأعراف، أنّه بعض أعياد أهل مصر، وقد اختاره موسى عليه السلام للمواجهة ومنازلة السحرة... وكان هدفه أن يجد الناس فرصة أوسع للاجتماع، لأنّه كان مطمئناً بأنّه سينتصر، وكان يريد أن يظهر آيات الله وضعف فرعون والملأ من حوله للجميع، وليشرق نور الإيمان في قلوب جماعة كثيرين!...

وطُلب من الناس الحضور في هذا المشهد: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ﴾ وهذا التعبير يدلّ على أنّ المأمورين من قِبَلِ فرعون بذلوا قصارى جهودهم في هذا الصدد... وكانوا يعلمون أنّهم لو أجبروا الناس على الحضور لكان ردّ الفعل سلبياً، لأنّ الإنسان يكره الإجبار ويعرض عنه بالفطرة! لذلك قالوا: هل ترغبون في الحضور؟ وهل أنتم مجتمعون؟ ومن البديهي أنّ هذا الأسلوب جرّ الكثير إلى حضور ذلك المشهد.

وقيل للناس: إنّ الهدف من هذا الحضور والاجتماع هو أنّ السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الآلهة وينبغي علينا اتباعهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ فلابدّ من تهييج الساحة للمساعدة في هزيمة عدو الآلهة إلى الأبد.

وواضح أنّ وجود المتفرجين كلّما كان أكثر شدّ من أزر الطرف المبارز، وكان مدعاةً لأن يبذل أقصى جهده، كما أنّه يزيد من معنوياته وعندما ينتصر الطرف المبارز يستطيع أن يثير الصخب والضجيج إلى درجةٍ يتوارى بها خصمه، كما أنّ وجود المتفرجين الموالين بإمكانه أن يضعف من روحيّة الطرف المواجه «الخصم» فلا يدعه ينتصر!

أجل إن أتباع فرعون بهذه الآمال كانوا يرغبون أن يحضر الناس، كما أنّ موسى عليه السلام كان يطلب - من الله - أن يحضر مثل هذا الجمع الحاشد الهائل! ليبيّن هدفه بأحسنِ وجه.

كل هذا من جهة، ومن جهة أُخرى كان السحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾...

وكان فرعون قلقاً مضطرب البال، لأنّه في طريق مسدود، وكان مستعداً لأن يمنح السحرة أقصى الامتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

أي إنّ فرعون قال لهم: ما الذي تريدون وتبتغون؟! المال أم الجاه، فكلاهما تحت يديّ!...

وهذا التعبير يدلُّ على أنّ التقرب من فرعون في ذلك المحيط كان مهمّاً إلى درجة قصوى! بحيث يذكره فرعون للسحرة ويعدّه أجراً عظيماً، وفي الحقيقة لا أجر أعظم من أن يصل الإنسان إلى مقربة من القدرة المطلوبة!...

فإذا كان الضالّون يعدّون التقرب من فرعون أعظم أجر، فإنّ عباد الله لا يرون أجراً أعظم من التقرب إلى الله تعالى حتى الجنّة بما فيها من النعيم المقيم لا تقاس بنظرة من وجهه الكريم لهم!...

ولذلك فإنّ الشهداء في سبيل الله الذين ينبغي أن ينالوا أعظم الأجر لإيثارهم الكبير، ينالون التقرب من الله بشهادة القرآن! والتعبير القرآني ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ شاهد بليغ على هذه الحقيقة!...

وكذلك فإنّ المؤمن السليم القلب حين يؤدّي العبادة لله، يؤدّيها بهدف «قربة إلى الله»...

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾

التّفسير

نور الإيمان في قلوب السَّحَرَة

حين اتفق السحرة مع فرعون ووعدهم بالأجر والقرب منه، وشدّ من عزمهم، فإنّهم بدأوا بتهيئة المقدمات ووفروا خلال ما سنحت لهم الفرصة عصيّهم وحبالهم، ويظهر

أنّهم صيّروها جوفاء وطلوها بمادة كيميائية كالزئبق - مثلاً - بحيث تتحرك وتلمع عند شروق الشمس عليها!

وأخيراً كان اليوم الموعود والميقات المعلوم، وانثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخيّة، ففرعون وقومه من جانب، والسحرة من جانب آخر، وموسى وأخوه هارون من جانب ثالث، كلهم حضروا هناك!

وكعادة القرآن في حذف المقدمات المفهومة من خلال الآيات المذكورة، والشروع بذكر أصل الموضوع، فيتحدّث عن مواجهة موسى للسحرة حيث التفت إليهم و: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

ويستفاد من الآية (١١٥) من سورة الأعراف، أنّ موسى عليه السلام قال ذلك عندما سأله السحرة: هل تلقي أنت أوّلاً أم نلقي نحن أوّلاً؟

وهذا الاقتراح من قبل موسى عليه السلام يدلّ أنّه كان مطمئناً لانتصاره، ودليلاً على هدوئه وسكينته أمام ذلك الحشد الهائل من الأعداء وأتباع فرعون... كان هذا الاقتراح يُعدّ أوّل «ضربة» يدمغ بها السحرة، ويبيّن فيها أنّه يتمتع بالهدوء النفسي الخاص، وأنّه مرتبط بمكان آخر ومتصل به.

وأمّا السحرة الغارقون بغرورهم، والذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم في هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين ومؤمّلين لأن يغلبوا موسى عليه السلام: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[(1)].

أجل، لقد استندوا إلى عزّة فرعون كسائر المتملقين، وبدأوا باسمه وقدرته الواهية!

وهنا - كما يبيّن القرآن في مكان آخر من سوره وآياته - تحركت العصيُّ كأنّها الأفاعي والثعابين و﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[(2)].

وقد انتخب السحرة العصي كوسائل لسحرهم، لتتغلّب حسب تصوّرهم على عصا موسى، وأضافوا عليها الحبال ليثبتوا علوّهم وفضلهم عليه...

فتهللت أسارير وجوه الناس ووجه فرعون فرحاً، وأشرق الأمل في عيني فرعون وأتباعه، وسُرّوا سروراً لم يكن ليخفى على أحد، وسرت فيهم نشوة اللّذة من هذا المشهد!

---

(١) «الحبال» جمع «حبل» على وزن (طبل) ومعناها واضح، والعصي جمع العصا.

(٢) سورة طه، الآية: ٦٦.

إلاّ أنّ موسى عليه السلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد ويدوم هذا الفصل المثير، فتقدم ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ فتحولت إلى ثعبان عظيم وبدأت بالتهام وسائل وأدوات السحرة بسرعة بالغة ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾(١).

وهنا طاف صمت مهيب على وجوه الحاضرين وغشّاهم الوجوم وفغرت الأفواه من الدهشة والعجب، وجمدت العيون، ولكن سرعان ما انفجر المشهد بصراخ المتفرجين المذعورين ففر جماعة من مكانهم وبقي آخرون يترقبون نهاية المشهد، وأفواه السحرة فاغرة من الدهشة. . .

وتبدّل كل شيء، وثاب السحرة إلى رشدهم بعد أن كانوا - إلى تلك اللحظة - مع فرعون غارقين في الشيطنة، ولأنّهم كانوا عارفين بقضايا السحر ودقائقه، فإنّهم تيقنوا أن عصا موسى لم تكن سحراً، بل هي معجزة إلهية كبرى ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾.

الطريف أنّ القرآن يعبر عن خضوع السحرة بـ«ألقي» وهذا التعبير إشارة إلى منتهى التأثير وجاذبية معجزة موسى لهم، حتى كأنّهم سقطوا على الأرض وسجدوا دون اختيارهم. . .

واقترن هذا العمل العبادي - وهو السجود - بالقول بلسانهم فـ ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولئلا يبقى مجالٌ للإبهام والغموض والتردد، ولئلا يفسر فرعون ذلك تفسيراً آخر فإنّهم قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

وهذا التعبير يدّل على أنّه وإن كان موسى عليه السلام متكفلاً لأمر المبارزة وإلقاء العصا ومحاججة السحرة، إلاّ أنّ أخاه هارون كان يعاضده في الأمر، وكان مستعداً لتقديم أي عون لأخيه.

وهذا التبدل والتغيّر المفاجىء العجيب في نفوس السحرة بحيث خطوا في لحظة واحدة من الظلمة المطلقة إلى النور المبين. ولم يكتفوا بذلك حتى أقحموا أنفسهم في خطر القتل، وأعرضوا عن مغريات فرعون ومصالحهم المادية. . . كلّ ذلك لما كان عندهم من «علم» استطاعوا من خلاله أن يتركوا الباطل ويتمسكوا بالحقّ!

---

(١) ﴿تَلْقَفُ﴾ مشتق من (اللقف) على زنة (السقف) ومعناه إمساك الشيء بسرعة، سواء كان ذلك باليد أم الفم، ومعلوم أنّ المراد هنا الإمساك بالفم والابتلاع، و﴿يَأْفِكُونَ﴾ مشتق من (الإفك) ومعناه الكذب، وهي إشارة إلى وسائلهم الباطلة.

إنّهم لم يجوبوا باقي الطريق بخطى العقل فحسب، بل ركبوا خيول العِشْقِ، وقد سكروا من عطر أزهاره، حتى كأنّهم لم يفيقوا من سكرتهم، وسنرى أنّهم لِهذا السبب استقاموا بشجاعة أمام تهديدات فرعون الرهيبة. . .

نقرأُ حديثاً عن الرّسول ﷺ أنّه قال: «ما من قلب إلاّ بين إصبعين من أصابع الرحمان، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاغه»(١) (وبديهي أن مشيئة الله في هاتين المرحلتين تتعلق باستعداد الإنسان وهذا التوفيق أو سلب التوفيق إنّما هو لأجل قابلية القلوب المختلفة وليس اعتباطاً).

أمّا فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوماً معنوياً ويرى من جانب آخر أنّ وجوده وسلطانه في خطر، وخاصّة أنه كان يعرف أيّ تأثير عميق لإيمان السحرة في قلوب سائر الناس، ومن الممكن أن يسجد جماعة آخرون كما سجد السحرة، فقد تذرع بوسيلة جديدة وابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾(٢).

لقد تربع على عرش الاستبداد سنين طوالاً، ولم يكن يترقب من الناس أن لا يسجدوا أو يقوموا بعمل دون إذنه فحسب، بل كان ترقُّبه أن تكون قلوب الناس وأفكارهم مرهونةً به وبأمره، فليس لهم أن يفكّروا دون إذنه!! وهكذا هي سنة الجبابرة والمستكبرين!.

هذا المغرور الطائش لم يكن مستعدّاً لأن يذكر اسم الله ولا اسم موسى، بل اكتفى بالقول ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾! والمراد من هذا التعبير هو التحقير!!

إلاّ أنّ فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين أُخريين ليُثّبت موقعه كما يتصوّر أوّلاً، وليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلةً نياماً.

فاتّهم السحرة أوّلاً بأنّهم تآمروا مع موسى عليه السلام على أهل مصر جميعاً، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

وقد اتفقتم مع موسى من قبل أن تردوا هذه الساحة، فتضلوا أهل مصر وتجرّوهم إلى الخضوع تحت سيطرة حكومتكم؛ وتريدون أن تطردوا أصحاب هذا البلد وتخرجوهم من ديارهم وتُحلّوا العبيد محلهم. . .

---

(١) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٢٠٨.

(٢) جاء التعبير في هذه الآية والآية (٧١) من سورة طه بـ ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ وجاء التعبير في الآية (١٢٣) من سورة الأعراف ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ قال بعض أرباب اللغة: اذا تعدى الايمان باللام يعطى معنى الخضوع، وإن تعدى بالباء فيعطى معنى التصديق.

إلاّ أنني لا أدعكم تنتصرون في هذه المؤامرة، وسأخنق المؤامرة في مهدها ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: لا أكتفي بإعدامكم فحسب، بل أقتلكم قتلاً بالتعذيب والزجر بين الملأ العام، وعلى جذوع النخل، (لأن قطع الأيدي والأرجل من خلاف يؤدّي إلى الموت البطيء فيذوق معه الإنسان التعذيب أكثر).

وهذه هي طريقة الجبابرة والحكّام الظلمة في كل عصر وزمان، ففي البدء يتهمون الرجال المصلحين بالتآمر ضد الناس، وبعد الاستفادة من حربة التهمة يعملون السيف في الرقاب ليضعف موقع المطالبين بالحق ولا يجدون معاضداً لهم، فيزيحوهم من طريقهم.

إلاّ أنّ فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأنّ السحرة قبل لحظة - والمؤمنين في هذه اللحظة - قد غمر قلوبهم الإيمان، وأضرمهم عشق الله؛ بحيث لم يهزّهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرس قاطع وأحبطوا خطته و﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾.

فأنت بهذا العمل لا تنقص منّا شيئاً، بل توصلنا إلى معشوقنا الحقيقي والمعبود الواقعي، فيوم كانت هذه التهديدات تؤثر فينا لم نعرف أنفسنا ولم نعرف ربّنا، وكنّا ضالين مضلين، إلاّ أنّنا عثرنا اليوم على ضالتنا ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾!

ثمّ أضافوا بأنّهم واجهوا النّبي موسى عليه السلام من قبل بالتكذيب وأذنبوا كثيراً، ولكن مع ذلك فـ ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾...

إنّنا لا نستوحش اليوم من أي شيء، لا من تهديداتك، ولا من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ولا من الصلب على جذوع النخل.

وإذا كنّا نخاف من شيء، فإنّما نخاف من ذنوبنا الماضية، ونرجو أن تمحى في ظل الإيمان وبفضل الله ولُطْفِهِ!

أية طاقة وقوّة هذه التي إن وُجدت في الإنسان صغرت عندها أعظم القوى، وهانت عنده أشد الأمور، وكرمت نفسه بسخاء في موقف التضحية والإيثار؟!

إنّها قوّة الإيمان.

إنّها شعلة العشق النيرة، التي تجعل الشهادة في سبيل الله أحلى من الشهد والعسل، وتصيّر الوصال إلى المحبوب أسمى الأهداف!

هذه هي القوّة التي استعان بها النّبي صلى الله عليه وآله وسلم وربّى المسلمين الأوائل عليها، وأوصل

أمة جهلاءَ متأخرة إلى أوج الفخر بسرعة مذهلة، فكانت الأُمة المسلمة التي أذهلت الدنيا!

إلاّ أنّ هذا المشهد - على كل حال - كان غالياً وصعباً على فرعون وقومه، بالرغم من أنّه طبّق تهديداته - طبقاً لبعض الروايات - فاستشهد على يديه السحرة المؤمنون - إلاّ أنّ ذلك لم يطفىء عواطف الناس تجاه موسى فحسب، بل أثارها أكثر فأكثر!...

ففي كل مكان كانت أصداء النّبي الجديد... وفي كل حدب وصوب حديث عن أوائل الشهداء المؤمنين، وهكذا آمن جماعة بهذا النحو، حتى أن جماعة من قوم فرعون وأصحابه المقربين حتى زوجته، آمنوا بموسى أيضاً.

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: كيف عبر السحرة التائبون المؤمنون عن أنفسهم بأنّهم أوّل المؤمنين...

هل كان مرادهم أنّهم أوّل المؤمنين في ذلك المشهد؟!

أو كان مرادهم أنّهم أوّل المؤمنين من حماة فرعون؟!

أو أنّهم أوّل المؤمنين الذين وردوا «الشهادة».

كل هذه الأُمور محتملة، ولا تتنافى في ما بينها.

وهذه التفاسير إنّما تصحّ في صورة ما لو قلنا بأنّ جماعة من بني إسرائيل أو من غيرهم آمنوا بموسى قبل ذلك، أما لو قلنا بأنّهم أمروا بعد البعثة أن يتصلوا بفرعون مباشرةً وأن يوردوا الضربة الأُولى عليه، فلا يبعد أن يكونوا أول المؤمنين، ولا حاجة عندئذ إلى تفسير آخر.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

التّفسير

مصير الفراعنة

عدم إيمان فرعون وقومه إلاّ أنّ هذه القضية كان لها عدة آثار مهمّة، يعدُّ كلٌّ منها انتصاراً مهمّاً:

١ - آمن بنو إسرائيل بنبيّهم «موسى عليه السلام» والتفّوا حوله بقلوب موحّدة... لأنّهم بعد سنوات طوال من القهر والتعسف والجور يرون نبيّاً سماوياً في أوساطهم يضمن هدايتهم وعلى استعداد لأن يقود ثورتهم نحو الحرية وتحقيق النصر على فرعون..

٢ - لقد شقّ موسى عليه السلام طريقه وسط أهل مصر من الأقباط وغيرهم... ومال إليه جمع منهم، أو على الأقل خافوا من مخالفته، وطافت أصداء دعوة موسى في أرجاء مصر جمعاء!

٣ - وأهمّ من كل ذلك أنّ فرعون لم ير في نفسه القدرة - لا من جهة أفكار عامّة الناس، ولا من جهة الخوف على مقامه - على مواجهة رجل له عَصًا كهذه العصا، ولسان مؤثر كلسان موسى.

هذه الأُمور هيأت أرضية ملائمة لأن ينشر موسى عليه السلام دعوته بين الناس، ويتمّ الحجة عليهم!

ومرّت سنون طوال على هذا المنوال، وموسى عليه السلام يظهر المعاجز تلو المعاجز - كما أشارت إليها سورة الأعراف وبينّاها في ذيل الآيات ١٣٠ - ١٣٥ منها - إلى جانب منطقه المتين، حتى ابتلى الله أهل مصر بالقحط والجدب لسنوات لعلهم يتّقون «لمزيد الإيضاح لا بأس بمراجعة تفسير الآيات آنفة الذكر»...

ولمّا أتمّ موسى على أهل مصر الحجة البالغة، وامتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحيُ على موسى أن يخرج بقومه من مصر، والآيات التالية تجسد هذا المشهد فتقول أوّلاً: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

وهذه خطة إلهية على موسى عليه السلام أن يمتثلها ويسري بقومه ليلاً، وأنّ على فرعون وقومه أن يعلموا ذلك فيتبعوهم ليحدث ما يحدث بأمر الله.

والتعبير بـ«عبادي» بضمير الإفراد، مع أنّ الفعل ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ في الجملة ذاتها مسند إلى ضمير الجمع، إنّما هو لبيان منتهى محبة الله لعباده المؤمنين...

وفعلاً امتثل موسى عليه السلام لهذا الأمر، وعبأ بني إسرائيل بعيداً عن أعين أعدائهم، وأمرهم بالتحرك، واختار الليل خاصّة لتنفيذ أمر الله لتكون خطته نافذة.

إلاّ أنّ من البديهي أن حركة جماعة بهذا الشكل ليس هيناً يسيراً يمكن إخفاؤه لزمان

طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، وكما يحدثنا القرآن عن ذلك أنّ فرعون أرسل رسله وأعوانه إلى المدن لجمع القوات: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

بالطبع فإنّ في تلك الظروف، وصول إبلاغ فرعون إلى المدائن، وجميع مناطق مصر، يحتاج إلى زمان معتنى به لكن من الطبيعي أن يصل هذا البلاغ المدن القريبة بسرعة وتتحرك القوى المعدّة فوراً، وتؤدّي مقدمة الجيش مهمّتها، وتتبعها بقية الأفواج بالتدريج...

ولتعبئة الناس - ضمناً - وتهيئة الأرضية لإثارتهم ضد موسى وقومه، أمر فرعون أن يُعلَن ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾.

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليلة حتماً.

و«الشرذمة» في الأصل تعني القلة من الجماعة، كما تعني ما تبقى من الشيء، ويطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناءً على هذا يكون المعنى أنّ هؤلاء «أي موسى وقومه» بالإضافة إلى أنّهم قليلون فهم متفرقون، فكأن فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسد عدم انسجام بني إسرائيل من حيث إعداد الجيش فيهم...

ثمّ تضيف الآية الأُخرى حاكية عن لسان فرعون ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ فمن يسقي مزارعنا غداً، ومن يبني لنا القصور؟ ومن يخدم في البيوت والقصور غيرهم؟!

ثمّ إنّا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ ومستعدون جميعاً لمواجهتهم.

وقد فسّر بعضهم ﴿حَٰذِرُونَ﴾ على أنها من الحذَر، بمعنى الخوف والخشية من التآمر، وفسّر بعضهم ﴿حَٰذِرُونَ﴾ على أنّها من الحذِر، بمعنى الفطنة والتهيؤ من حيث السلاح والقوّة. إلاّ أنّ هذين التّفسيرين لا منافاة بينهما، فربّما كان فرعون وقومه قلقين من موسى ومستعدين لمواجهته أيضاً.

ثمّ يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبة فرعون وقومه وزوال حكومته، وقيام حكومة بني إسرائيل، فيقول: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أجل ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وهناك اختلاف بين المفسّرين في المراد من كلمة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، فقال بعضهم بأنّها القصور المجللة والمساكن المظللة...

وقال بعضهم بأنّها المجالس المنعقدة بالحبور والسرور والنشاط.

وقال بعضهم: المراد مقام الحكام والأمراء، الذين يجلسون على كراسيهم ومن حولهم أتباعهم وجنودهم يمتثلون أوامرهم...

وقال بعضهم: بل يعني المنابر التي كان يصعدها الخطباء «المنابر التي كانت لصالح فرعون وحكومته وجهازه فهي بمثابة أبواق إعلام له».

وبالطبع فإن المعنى الأوّل أنسب من الجميع كما يبدو، رغم أنّ هذه المعاني غير متباينة ومن الممكن أن تجتمع هذه المعاني جميعاً في مفهوم الآية... فالمستكبرون ﴿فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ أخرجوا من قصورهم وحكومتهم وموقعهم وقدرتهم، كما أخرجوا من مجالسهم المنعقدة بالحبور والسرور.

بحثان

١ - هَلْ حكمَ بنُو إسرائيلَ في مصرَ؟!

على أساس تعبير الآيات المتقدمة ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾... فإنّ جمعاً من المفسّرين يعتقدون أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر وسيطروا على الحكم، ومكثوا في مصر حاكمين مدّة(١). وظاهر الآيات المتقدمة يناسب هذا التّفسير.

في حين أنّ بعض المفسّرين يعتقد أنّ بني إسرائيل تحركوا نحو بيت المقدس بعد هلاك فرعون وأتباعه، إلاّ أنّهم بعد مدّة مديدة رجعوا إلى مصر وشكلوا فيها حكومتهم(٢).

وتتطابق فصول التوراة الحالية المتعلقة بهذا القسم مع هذا التّفسير.

ويعتقد بعض آخر من المفسّرين أنّ بني إسرائيل صاروا جماعتين أو فئتين، فجماعة منهم بقيت في مصر وحكمت فيها، وتحركت جماعة منهم مع موسى نحو بيت المقدس.

وذكر احتمال آخر، وهو أنّ بني إسرائيل حكموا مصر بعد موسى عليه السلام وفي زمان النّبي سليمان بن داود، والآية ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ناظرة إلى هذا المعنى!

إلاّ أنّه مع ملاحظة أنّ موسى عليه السلام نبي ثائر كبير، فمن البعيد جدّاً أن يترك هذه

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٩١، وتفسير القرطبي: ذيل الآيات مورد البحث، كما أنّ الألوسي فسّر هذا الموضوع في روح المعاني تفسيراً يستحق النظر!

(٢) تفسير روح المعاني ذيل الآيات مورد البحث.

الأرض التي تهاوت أركان حكومتها وقد أصبحت مقاليد أُمورها بيده فيذرها كلياً دون أن يخطط لها خطة ويتجه نحو فلسطين وبيت المقدس والصحاري الشاسعة، ولا سيما أنّ بني إسرائيل قد سكنوا مصر لسنين طوال، وتعوّدوا على محيطها، فبناءً على هذا لا يخرج الأمر من أحد حالين. . . إمّا أن نقول: إنّ بني إسرائيل عادوا جميعاً إلى مصر وحكموا فيها، أو أن نقول: إنّ قسماً منهم بقوا في مصر بأمر موسى عليه السلام واستولوا على العرش وحكموا في مصر!. . . وفي غير هاتين الحالين لايتجلّى مفهوم لإخراج الفراعنة منها ووراثة بني إسرائيل لها. . .

٢ - ترتيب الآيات

يشرح القرآن فيما يأتي من الآيات كيفية غرق فرعون وأتباعه، وهذا الأمر يدعو إلى التساؤل: كيف يذكر القرآن إخراج فرعون وقومه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم وإيراثه «ذلك» بني إسرائيل! ثمّ يذكر كيفية غرق فرعون وقومه؟ مع أن الترتيب الطبيعي للآيات ليس كذلك. . .

هذا الأمر ربّما يكون من قبيل بيان الإجمال ثمّ التفصيل، أي أن القرآن ذكر الموضوع أوّلاً بصورة مجملة، ثمّ وضحه في الآيات الأُخر!

كما يمكن أن يكون من قبيل ذكر النتيجة، ثمّ شرح المقدمات «فتدبّر».

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

التّفسير

عاقبة فرعون وأتباعه الوخيمة

في هذه الآيات يبرز المشهد الأخير من قصّة موسى وفرعون، وهو كيفية هلاك فرعون وقومه، ونجاة بني إسرائيل وانتصارهم!

وكما قرأنا في الآيات المتقدمة فإنّ فرعون أرسل المدائن حاشرين، وهيأ مقداراً كافياً من «القوّة» والجيش، قال بعض المفسّرين: كان ما أرسله فرعون على أنّه مقدمة الجيش ستمائة ألف مقاتل، وتبعهم بنفسه بألف ألف مقاتل «أي مليون»(١).

تحركوا في جوف الليل ليدركوهم بسرعة، فبلغوهم صباحاً كما تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾(٢) ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فأمامنا بحر خضم متلاطم بالأمواج، ومن ورائنا بحر من الجيوش المتعطشة للدماء بتجهيزاتها الكاملة... هؤلاء الغاضبون علينا وهم الذين قتلوا أطفالنا الأبرياء سنين طوالاً... وفرعون نفسه رجل دموي جبار... فعلى هذا سيحاصروننا بسرعة، ويقتلوننا جميعاً بحدّ السيوف، أو سيأسروننا ويعذبوننا، والقرائن جميعها تدل على ذلك.

وهنا مرّت لحظات عسيرة على بني إسرائيل... لحظات مُرّة لايمكن وصف مرارتها... ولعل جماعة منهم تزلزل إيمانهم وفقدوا معنوياتهم وروحياتهم.

إلاّ أنّ موسى عليه السلام كان مطمئناً هادىء البال، وكان يعرف أن وعد الله في هلاك فرعون وقومه ونجاة بني إسرائيل لايتخلف أبداً ولن يخلف الله وعده رسله!...

لذلك التفت إلى بني إسرائيل الفزعين بكمال الاطمئنان والثقة و﴿قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

ولعلّ هذا التعبير يشير إلى وعد الله لموسى وأخيه هارون حين أمرهما بإنذار قومهما، إذ قال لهما: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(٣).

إذ كان موسى يعلم أنّ الله معه في كل مكان، وخاصّة تعويله في كلامه على كلمة ﴿رَبِّى﴾ أي الله المالك والمربّي هذا يدل على أنّ موسى عليه السلام كان يدري أنه لا يطوي هذا الطريق بخطاه، بل بلطف الله القادر الرحيم...

---

(١) كلمة مليون وأخواتها (مليار، بليون الخ) من مصطلحات العصر وهي غير عربية، وكان العرب يقولون ألف ألف.

(٢) قال بعض المفسّرين: المراد من ﴿مُّشْرِقِينَ﴾، أنّ بني إسرائيل ساروا نحو الشرق، وأتباع فرعون وقومه بالاتجاه نفسه، لأنّ بيت المقدس يقع شرق مصر!

(٣) سورة طه، الآية: ٤٦.

وفي هذه الحال التي قد يكون البعض سمعوا كلامه دون أن يصدقوه، وكانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر الله كما يقول القرآن: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ...﴾.

تلك العصا التي هي في يوم آية إنذار، وفي يوم آخر آية رحمة ونجاة!

فامتثل موسى عليه السلام أمر ربّه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بني إسرائيل، إذا انشقَّ البحر ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾!

و«انفلق» مأخوذ من «الفَلَق» ومعناه الانشقاق و«فَرَقَ» من مادة «فرْق» على زنة «حلق» ومعناه الانفصال!

وبتعبير آخر، كما يقول الراغب في مفرداته: إنّ الفرق بين (فلق) و(فرق) هو أنّ الأوّل يشير إلى الانشقاق (أو الانشطار) والثّاني يشير إلى الانفصال، ولذا تطلق الفرقة والفِرَق على القطعة أو الجماعة التي انفصلت عن البقيّة!...

«الطود» معناه الجبل العظيم، ووصف الطود بالعظمة في الآية تأكيد آخر على معناه.

وعلى كل حال، فإنّ الله الذي ينفذ أمره في كل شيء، وبأمره تموج البحار وتتصرف الرياح وتتحرك العواصف وكل شيء في عالم الوجود من رشحات فضله وقدرته أصدر أمره إلى البحر، وأمواجه، فالتحمت الأمواج وتراكمت بعضها إلى بعض، وظهرت ما بينها طُرُق سالكة، فمرّتْ كل فرقة من بني إسرائيل في إحدى الطرق!

إلاّ أنّ فرعون وأتباعه بالرغم من مشاهدتهم هذه المعجزة الكبرى الواضحة لم يذعنوا للحق، ولم ينزلوا عن مَركبِ غرورهم، فاتبعوا موسى ورهطه ليبلغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن في هذا الشأن: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾...

وهكذا ورد فرعون وقومه البحر أيضاً، واتبعوا عبيدهم القدماء الذين استرقّوهم بطغيانهم، وهم غافلون عن أن لحظات عمرهم تقترب من النهاية، وأنّ عذاب الله سينزل فيهم!

وتقول الآية التالية: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾.

وحين خرج آخر من كان من بني إسرائيل من البحر، ودخل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صدر أمر الله فعادت الأمواج إلى حالتها الأُولى فانهالت عليهم فجأةً، فهلك فرعون وقومه في البحر، وصار كل منهم كالقشّة في وسط الأمواج المتلاطمة.

ويبيّن القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متينة فيقول: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾...

وهكذا انتهى كل شيء في لحظة واحدة. . . فالأرقاء أصبحوا أحراراً، وهلك الجبابرة، وانطوت صفحة من صفحات التاريخ، وانتهت تلك الحضارة المشيدة على دماء المستضعفين، وورث الحكومة والمُلكَ المستضعفون بعدهم.

أجل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فكأنّ في أعينهم عمىً، وفي آذانهم وقراً، وعلى قلوب أقفالاً.

فحيثُ لا يؤمن فرعون وقومه مع ما رأوا من المشاهد العجيبة، فلا تعجب إذاً ألاّ يؤمن بك المشركون - يا محمد - ولا تحزن عليهم لعدم إيمانهم، فالتاريخ - يحمل بين طياته وثناياه كثيراً من هذه المشاهد!

والتعبير بـ﴿أَكْثَرُهُم﴾ إشارة إلى أنّ جماعة من قوم فرعون آمنوا بموسى والتحقوا بأصحابه، لا آسيةُ امرأة فرعون فحسب، ولا رفيق موسى المخلص المذكور في القرآن على أنّه مؤمن من آل فرعون، بل آخرون أيضاً كالسحرة التائبين مثلاً.

أمّا آخر آية من هذه الآيات فتشير في عبارة موجزة وذات معنى غزير إلى قدرة الله ورحمته المطلقة واللامتناهية، فتقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

فمن عزته أنّه متى شاء أن يهلك الأمم المسرفة الباغية أصدر أمره فأهلكها، ولا يحتاج أن يرسل جنوداً من ملائكة السماء لإهلاك أُمة جبّارة. . . فيكفي أن يهلكها بما هو سبب حياتها، كما أهلك فرعون وقومه بالنيل الذي كان أساس حياتهم وثروتهم وقدرتهم، فإذا هو يقبرهم فيه!!

ومن رحمته أنّه لا يعجل في الأمر أبداً، بل يمهل سنين طوالاً، ويرسل معاجزه إتماماً للحجة، ومن رحمته أن يخلص هؤلاء المستعبدين من قبضة الجبابرة الظالمين.

مسائل مهمّة

١ - معبر بني إسرائيل!

ورد التعبير في القرآن مراراً عن موسى أنّه عبر بقومه «البحر»(١) كما جاء في بعض الآيات لفظ «اليمّ» بدلاً من البحر(٢).

والآن ينبغي أن نعرف ما المراد من «البحر» و«اليم» هنا، أهو إشارة إلى النهر الكبير

(١) اقرأ في سورة «يونس: الآية ٩٠ - وطه الآية ٧٧ - والشعراء الآية ٦٣، والآية مورد البحث أيضاً.
(٢) اقرأ في سورة طه الآية ٧٨ - والقصص الآية ٤٠ - والذاريات الآية ٤٠.

الواسع في مصر، النيل الذي يروي جميع أراضيها؟ أم هو إشارة إلى البحر الأحمر «المعروف ببحر القلزم في بعض المصطلحات»؟

يستفاد من التوراة الحالية - وكذلك من كلمات بعض المفسّرين - أنّه إشارة إلى البحر الأحمر. . . إلاّ أنّ القرائن الموجودة والمتوفرة تدل على أنّ المراد منه هو نهر النيل، لأنّ «البحر» كما يقول الراغب في مفرداته يعني في اللغة الماء الكثير الواسع، واليم بهذا المعنى أيضاً. فلا مانع إذاً من إطلاق الكلمتين على نهر النيل.

وأمّا القرائن المؤيدة لهذا الرأي فهي:

١ - إنّ منطقة سكن الفراعنة التي كانت مركزاً لمدن مصر العامرة كانت نقطة قريبةً من النيل حتماً. . . وإذا أخذنا بنظر الاعتبار معيار محلهم الفعلي «الأهرام» أو ما حولها، فإنّ بني إسرائيل لابدّ لهم أن يعبروا نهر النيل ليصلوا إلى الأرض المقدسة، لأنّ هذه المنطقة تقع غرب النيل ولابدّ لهم من أن يتجهوا نحو الشرق للوصول إلى الأرض المقدسة! «فلاحظوا بدقّة»!

٢ - إنّ الفاصلة بين المناطق العامرة[1] من مصر والتي هي قريبة من النيل بالطبع، بعيدة عن البحر الأحمر بحيث لا يمكن أن تُطوى المسافة بينها وبين البحر بليلة أو نصف ليلة. . .

ويستفاد من الآيات المتقدمة بوضوح أنّ بني إسرائيل غادروا أرض الفراعنة ليلاً، وطبيعي أن تكون المغادرة في الليل. أمّا فرعون وجيشه فقد اتبعوهم حتى بلغوهم مشرقين «عند الصباح».

٣ - لم تكن حاجة ليعبر بنو إسرائيل البحر الأحمر حتى يصلوا الأرض المقدسة، إذ كانت هناك منطقة يابسة ضيقة قبل حفر ترعة السويس «أو ما يصطلح عليها بقناة السويس». . . إلاّ أنّ نفترض أنّ البحر الأحمر كان متصلاً بالبحر الأبيض المتوسط في الزمن السابق، ولم تكن هناك منطقة يابسة، وهذا الفرض غير ثابت بأيّ وجه!. . .

٤ - يُعبّر القرآن عن قصة موسى بإلقائه في «اليم» «من قِبَلِ أُمه» في الآية ٣٩ من سورة طه، كما يعبر عن غرق فرعون وأتباعه بقوله: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ في الآية ٧٨ من السورة ذاتها. وكلتا القضيتين في قصة واحدة وسورة واحدة أيضاً ﴿طه﴾ وكون اللفظين

(١) العامرة هنا اسم فاعل بمعنى المفعول أي المعمورة.

مطلقين - (اليم) في الآية السابقة و(اليم) في الآية اللاحقة - يُشعر بأنّهما واحد. . . ومع ملاحظة أنّ أمّ موسى لم تلق موسى في البحر الأحمر قطعاً، بل ألقته في النيل طبقاً لما تذكره التواريخ، فيعلم أن غرق فرعون وقومه كان في النيل «فلاحظوا بدقّة».

٢ - كيفية نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه

هناك بعض المفسّرين ممن لا يميل إلى كون نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه معجزةً، بل حادثة طبيعية، كما يصرّون على ذلك، فوجّهوا ذلك كله بأسباب طبيعية،.

لذلك قالوا: إنّ هذا الموضوع يمكن تطبيقه بواسطة الجسور المتحركة المستعملة في العصر الحديث(١).

وقال بعضهم: إنّ موسى عليه السلام كان مطلعاً على طرق خاصّة، وكان يمكنه العبور من البرازخ (أو الطرق الموجودة في بحر سوف) أي خليج السويس، إلى جزيرة سيناء، وانفلاق البحر - في الآيات محل البحث - إشارة إلى هذا المعنى(٢). . .

وقال بعضهم: من المحتمل جدّاً أن يكون وصول موسى وقومه البحر عند منتهى جزره، فاستطاع أن يعبر بهم من النقاط اليابسة ويجتازها بسرعة، ولكن عندما ورد فرعون وقومه البحر شرع المدّ فوراً فأُغرقوا بالنيل حينئذ وهلكوا. . .

ولكن الحق أن أيّاً من هذه الاحتمالات لا ينسجم وظاهر الآيات - إن لم نقل وصريح الآيات - ومع قبول معاجز الأنبياء الوارد بيانها مراراً في سور القرآن، وخاصّة معجزة عصا موسى نفسها، فلا حاجة لمثل هذه التوجيهات. . .

فما يمنع أن تتراكم أمواج النيل بعد ضربها من قِبَل موسى بالعصا بأمر الله الحاكم على قانون العَليّة في عالم الوجود، وتنجذب متأثرة بما فيها من سرّ غامض، لتترك طريقاً يَبساً بيّناً (يمرّ في وسط البحر) ثمّ تتلاشى هذه الجاذبيّة بعد مدة، ويعود البحر إلى حالته الطبيعية وإلى أمواجه المتلاطمة!. . . وليس هذا استثناءً في قانون العليّة، بل هو اعتراف بتأثير علل غير معتادة، لا نعرفها لقصور علمنا أو لقلّة معلوماتنا!

٣ - الله عزيز رحيم

ينبغي ملاحظة هذه اللطيفة، إذ جاءت الآية الأخيرة - من الآيات محل البحث - بمثابة استنتاج لما جرى من أمر موسى وفرعون وقومهما، وانتصار جيش الحق وانهزام

(١-٢) أعلام القرآن، ص ٦٢٢.

الباطل! إذ تصف هذه الآية «الله» سبحانه بالعزيز الرحيم. . . فالوصف الأوّل إشارة إلى أنّ قدرته لا تضعف ولا تُقهر، والوصف الثّاني إشارة إلى أنّه يوصل رحمته لعباده جميعاً، وخاصّة بتقديم وصف ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لئلا يُتوهّم أنّ رحمته من منطلق الضعف، بل هو مع قدرته رحيم! . . .

وبالطبع فإنّ من المفسّرين مَنْ يرى أن وصفه بالعزيز إشارة إلى اندحار أعدائه، ووصفه بالرحيم إشارة إلى انتصار أوليائه، إلاّ أنّه لا مانع أبداً أن يشمل الوصفان الطائفتين معاً. . . لأنّ الجميع ينعمون برحمته حتى المسيئون. . . والجميع يخافون من سطوته حتى الصالحون. . .

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ
نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ
يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم
مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ
أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

التّفسير

أعبدُ ربّاً... هذه صفاته

كما ذكرنا في بداية هذه السورة، فإنّ الله يبيّن حال سبعة من الأنبياء العظام، ومواجهاتهم أقوامهم لهدايتهم، لتكون «مدعاة» تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين القلّة معه في عصره، وفي الوقت ذاته إنذار لجميع الأعداء والمستكبرين أيضاً. . .

لذلك تعقّب هذه الآيات على قصّة موسى وفرعون المليئة بالدروس لتبيّن قصة إبراهيم ومواجهاته المشركين، وتبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر[1] فتقول:

(١) بيّنا مراراً أنّ لفظ «الأب» يطلق في لغة العرب والقرآن على الوالد كما يطلق على العم، وهنا استعمل هذا اللفظ بمعناه الثاني.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

ومن بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبيّ العظيم يركّز القرآن الكريم على هذا القِسْمِ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾؟

ومن المسلّم به أنّ إبراهيم كان يعلم أيّ شيء يعبدون، لكن كان هدفه أن يستدرجهم ليعترفوا بما يعبدون، والتعبير بـ﴿مَا﴾ مبيّنٌ ضمناً نوعاً من التحقير!

فأجابوه مباشرةً ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾! وهذا التعبير يدلّ على أنّهم يحسّون بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافياً أن يجيبوه: نعبد أصناماً، إلاّ أنّهم أضافوا هذه العبارة: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾!

التعبير بـ«نظلّ» يُطلق عادة على الأعمال التي تؤدّى خلال اليوم، وذكره بصيغة الفعل المضارع إشارة إلى الاستمرار والدوام.

كلمة ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مأخوذة من «العكوف»، ومعناه التوجه نحو الشيء وملازمته باحترام، وهي تأكيد لما سبق من التعبير.

«الأصنام» جمع الصنم، وهو الهيكل أو التمثال المصنوع من الذهب أو الخشب أو ما شاكلهما للعبادة، وكانوا يتصورون أنّها مظهر للتقديس...

وعلى كل حال، فإنّ إبراهيم لما سمع كلامَهم رشقهم بنبال الإشكال والاعتراض بشدّة، وقمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم في طريق مغلق، فـ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾؟!

إنّ أقلّ ما ينبغي توفره في المعبود هو أنْ يسمعَ نداء عابده، وأن ينصره في البلاء، أو يضره عند مخالفة أمره!...

إلاّ أنّ هذه الأصنام ليس فيها ما يدلُّ على أن لَها أقلّ إحساس أو شعور أو أدنى تأثير في عواقب الناس، فهي أحجار أو فلزات أو معادن أو خشب لا قيمة لها! وإنّما أعطتها الخرافات هذه الهالة وهذه القيمة الكاذبة!...

إلاّ أنّ عبدة الأصنام الجهلة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القديم الذي يكررونه دائماً، فـ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وهذا الجواب الذي يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذي استطاعوا أن يردّوا به على إبراهيم عليه السلام، وهو جواب دليلُ بطلانه كامنٌ فيه، وليس أي عاقل يجيز لنفسه أن يقفو أثرَ غيره ويصم أُذنيه ويغمضُ عينيه، ولا سيما

أن تجارب الخلف أكثر من السلف عادة، ولا يوجد دليل على تقليدهم الأعمى!...

والتعبير بـ ﴿كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيد أكثر على تقليدهم، أي نفعل كما كانوا يفعلون، سواءً عبدوا الأصنام أم سواها.

فالتفت إبراهيم مُوبّخاً لهم ومبيناً موقفه منهم و﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أجلْ... إنّهم جميعاً أعدائي وأنا معاديهم، ولا أسالمهم أبداً...

وممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام يقول: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ وإن كان لازم هذا التعبير أنّه عدوّ لهم أيضاً، إلاّ أنّ هذا التعبير لعله ناشىء من أنّ عبادة الأصنام أساس الشقاء والضلال وعذاب الدنيا والآخرة «للإنسان»، وهذه الأُمور في حكم عداوتها للإنسان، أضف إلى ذلك أنّه يستفاد من آيات متعددة من القرآن أنّ الأصنام تبرأ من عبدتها يوم القيامة وتعاديهم، وتحاججهم بأمر الله وتنفر منهم[1].

واستثناء ربّ العالمين مع أنّه لم يكن من معبوداتهم، وكما يصطلح عليه استثناء منقطع، إنّما هو للتأكيد على التوحيد الخالص.

كما يَرِدُ هذا الاحتمال وهو أن من بين عبدة الأصنام من كان يعبدُ الله إضافة إلى عبادة الأصنام، فاستثنى إبراهيم «ربّ العالمين» من الأصنام، رعايةً لهذا الموضوع...

وذكر الضمير «هم» الذي يستعمل عادةً للجمع «في العاقلين» وقد ورد في شأن الأصنام، لما ذكرناه من بيان آنفاً...

ثمّ يصف إبراهيم الخليل ربّ العالمين ويذكر نعمه المعنوية والماديّة، ويقايسها بالأصنام التي لا تسمع الدعاء ولا تنفع ولا تضرّ، ليتّضح الأمر جليّاً...

فيبدأ بذكر نعمة الخلق والهداية فيقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ فقد هداني في عالم التكوين، ووفر لي وسائل الحياة المادية والمعنوية، كما هداني في عالم التشريع فأوحى إليّ وأرسل إليّ الكتاب السماوي...

وذكر «الفاء» بعد نعمة الخلق، هو إشارة إلى أنّ الهداية لا تنفصل عن الخلق أبداً، وجملة ﴿يَهْدِينِ﴾ الواردة بصيغة الفعل المضارع، دليل واضح على استمرار هدايته، وحاجة الإنسان إليه في جميع مراحل عمره!

---

(١) لمزيد الإيضاح في هذا الصدد يراجع تفسير الآية (٨٢) من سورة مريم.

فكأن أبراهيم في كلامه هذا يريد أن يبيّن هذه الحقيقة، وهي إنّني كنت مع الله منذ أن خلقني، ومعه في جميع الأحوال، وأشعر بحضوره في حياتي، فهو وليي حيث ما كنت ويقلبني حيثما شاء! . . .

وبعد بيان أولى مراحل الربوبية، وهي الهداية بعد الخلق، يذكر إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ النعم المادية فيقول: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.

أجلْ، إنّني أرى النعم جميعاً من لطفه، فلحمي وجلدي وطعامي وشرابي، كل ذلك من بركاته! . . .

ولست مشمولاً بنعمة في حال الصحةِ فقط، بل في كل حال ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

ومع أنّ المرض أيضاً قد يكون من الله، إلاّ أنّ إبراهيم نسبه إلى نفسه رعاية للأدب في الكلام. . .

ثمّ يتجاوز مرحلة الحياة الدنيا إلى مرحلة أوسع منها. . . إلى الحياة الدائمة في الدار الآخرة، ليكشف أنّه على مائدة الله حيثما كان، لا في الدنيا فحسب، بل في الآخرة أيضاً. فيقول: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾.

أجل، إنّ موتي بيده وعودتي إلى الحياة مرّة أُخرى منه أيضاً. .

وحين أرِدُ عرصات يوم القيامة أعلّق حبل رجائي على كرمه: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

وممّا لا شك فيه أنّ الأنبياء معصومون من الذنب، وليس عليهم وزر كي يُغفر لهم. . . إلاّ أنّه - كما قلنا سابقاً - قد تعدّ حسنات الأبرار سيئات المقرّبين أحياناً، وقد يستغفرون أحياناً من عمل صالح لأنّهم تركوا خيراً منه. . . فيقال عندئذ في حق أحدهم: تَركَ الأولى.

فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يعوّل على أعماله الصالحة، فهي لا شيء بإزاء كرم الله، ولا تُقاس بنعم الله المتواترة، بل يعوّل على لطف الله فحسب، وهذه هي آخر مرحلة من مراحل الانقطاع إلى الله! . . .

وملخّص الكلام أنّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أجلِ أن يبيّن المعبود الحقيقي يمضي نحو خالقيّة الله أولاً، ثمّ يبيّن بجلاء مقام ربوبيته في جميع المراحل:

فالمرحلة الأُولى مرحلة الهداية.

ثمّ مرحلة النعم الماديّة، وهي أعمّ من إيجاد المقتضي والظروف الملائمة أو دفع الموانع...

والمرحلة الأخيرة هي مرحلة الحياة الدائمة في الدار الأُخرى، فهناك يتجلّى وجه الرب بالهبات والصفح عن الذنوب ومغفرتها!...

وهكذا يبطل إبراهيم الخرافات التي كانت في قومه، من تعدد الآلهة والأرباب وينحني خضوعاً للخالق العظيم.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

التّفسير

دُعاء إبراهيم عليه السلام

من هنا تبدأ أدعية إبراهيم الخليل وسؤالاته من الله، فكأنّه بعد أن دعا قومه الضالين نحو الله، وبيّن آثار الربوبية المتجليّة في عالم الوجود... يتجه بوجهه نحو الله ويعرض عنهم، فكل ما يحتاجه فإنه يطلبه من الله، ليكشف للناس ولعبدة الأصنام أنّه مهما أرادوه من شؤون الدنيا والآخرة، فعليهم أن يسألوه من الله، وهو تأكيد آخر - ضمنيّ - على ربوبيته المطلقة.

فأوّل ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسة هو ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

فالمقام الأوّل هنا الذي يريده إبراهيم لنفسه من الله هو الحكم، ثمّ الإلحاق بالصالحين...

و«الحكم» و«الحكمة» كلاهما من جذر واحد... و«الحكمة» كما يقول عنها الراغب في مفرداته: هي الوصول إلى الحق عن طريق العلم ومعرفة الموجودات والأفعال الصالحة، وبتعبير آخر: هي معرفة القيم والمعايير التي يستطيع الإنسان بها أن يعرف الحق حيثما كان، ويميز الباطل في أي ثوب كان، وهو ما يُعبّر عنه عند الفلاسفة بـ«كمال القوّة النظرية».

وهي الحقيقة التي تلقّاها لقمان من ربّه ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾(١). وعُبّر عنها بالخير الكثير في الآية (٢٦٩) من سورة البقرة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

ويبدو أنّ للحكم مفهوماً أسمى من الحكمة. . . أي إنّه العلم المقترن بالاستعداد للتنفيذ والعمل، وبتعبير آخر: إنّ الحكم هو القدرة على القضاء الصحيح الخالي من الهوى والخطأ!

أجلْ، إنّ إبراهيم عليه السلام يطلب من الله قبل كل شيء المعرفة العميقة الصحيحة المقرونة بالحاكميّة، لأنّ أي منهج لا يتحقق دون هذا الأساس!

وبعد هذا الطلب يسأل من الله إلحاقه بالصالحين، وهو إشارة إلى الجوانب العملية، أو كما يصطلح عليها بـ«الحكمة العملية» في مقابل الطلب السابق وهو «الحكمة النظرية»! . . .

ولا شك أنّ إبراهيم عليه السلام كان يتمتع بمقام «الحكم» وكان في زمرة الصالحين أيضاً. . . فلِمَ سأل الله ذلك؟!

الجواب على هذا السؤال هو أنّه ليس للحكمة حدّ معين، ولا لصلاح الإنسان حدّ، فهو يطلب ذلك ليبلغ المراتب العليا من العلم والعمل يوماً بعد يوم، حتى وهو في موقع النبوة، وأنّه من أولي العزم. . لا يكتفي بهذه العناوين. . .

ثمّ - إضافة إلى ذلك - فإنّ إبراهيم عليه السلام يعلم أن كل ذلك من الله سبحانه، ومن الممكن في أي لحظة أن تسلب هذه المواهب أو تزل به القدم، لذا فهو يطلب دوامها من الله إضافة إلى التكامل، كما أننا نخطو ونسير إن شاء الله في الصراط المستقيم، ومع ذلك فكلّ يوم نسأل ربّنا في الصلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، ونطلب منه التكامل ومواصلة هذا الطريق!

وبعد هذين الطّلَبينِ. . . يطلبُ موضوعاً مهماً آخر بهذه العبارة: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

أيْ اجعلني بحال تذكرني الأجيال الآتية بخير، واجعل منهجي مستمراً بينهم فيتخذوني أُسوةً وقدوة لهم فيتحركون ويسيرون في منهاجك المستقيم وسبيلك القويم. . .

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٢.

فاستجاب الله دعاء إبراهيم كما يقول سبحانه في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(١).

ولا يبعد أن يكون هذا الطلب شاملاً لما سأله إبراهيمُ الخليل ربّه بعد بناء الكعبة، فقال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(٢).

ونعرف أنّ هذا الدعاء تحقق بظهور نبيّ الإسلام، وذُكر إبراهيم الخليل بالخير في هذه الأُمة عن هذا الطريق، وبقي هذا الذكر الجميل مستمراً...

ثمّ ينظر إبراهيم إلى أفق أبعد من أفق الدنيا، ويتوجه إلى الدار الآخرة، فيدعو بدعاء رابع فيقول: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾.

﴿جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ التي تتماوج فيها النعم المعنوية والمادية، النعم التي لا زوال لها ولا اضمحلال... النعم التي لا يمكن أن نتصورها نحنُ - سجناءَ الدنيا - فهي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت!...

وقلنا سابقاً: إنّ التعبير بالإرث في شأن الجنّة إمّا لأنّ معنى الإرث الحصول على الشيء دون مشقّة وعناء، ومن المسلّم أنّ تلك النعم التي في الجنّة تقاس بطاعاتنا، فطاعاتنا بالنسبة لا تمثل شيئاً إليها!... أو أنّ ذلك - طبقاً لما ورد في بعض الرّوايات - لأنّ كل إنسان له بيت في الجنّة وآخر في النار، فإذا دخل النّار ورث الآخرون بيته في الجنّة...

وفي خامس أدعيته يتوجه نظره إلى عمّه الضالّ، وكما وعده أنّه سيستغفر له، فإنّه يقول في هذا الدعاء: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

وهذا الوعد هو ما صرحت به الآية (١١٤) من سورة التوبة إذ تحكي عنه ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾! وعده من قبل، وكان هدفه أن ينفذ إلى قلبه عن هذا الطريق، وأن يجرّه إلى طريق الإيمان، لذلك قال له مثل هذا القول وعمل به أيضاً... وطبقاً لرواية عن ابن عباس أنّ إبراهيم عليه السلام استغفر لعمّه آزر مراراً، إلاّ أنّه حين غادر آزر الدنيا كافراً وثبت عداؤه للدين الحق، قطع إبراهيم الاستغفار عن عمه، كما نرى في ذيل الآية النص التالي: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(٣).

---

(١) سورة مريم، الآية: ٥٠. (٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٣) لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية ١١٤ سورة التوبة.

وأخيراً فإنّ دعاءه السادس من ربّه في شأن يوم التغابن، يوم القيامة، بهذه الصورة ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾، مأخوذ من مادة (خزي) على زنة (حزب) وكما يقول الراغب في مفرداته، معناه الذل والانكسار الروحي الذي يظهر على وجه الإنسان من الحياء المفرط، أو من جهة الآخرين حين يحرجونه ويخجلونه!

وهذا التعبير من إبراهيم، بالإضافة إلى أنّه درس للآخرين، هو دليل على منتهى الإحساس بالمسؤولية والاعتماد على لطف الله العظيم.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن
دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن
شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

التّفسير

الخصام بين المشركين ومعبوداتهم

أُشير في آخر آية من البحث السابق إلى يوم القيامة ومسألة المعاد... أمّا في هذه الآيات فنلحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما نلاحظ فيها أهم المتاع «في تلك السُّوق»، وعاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين والضالين وجنود إبليس، ويدلُّ ظاهر الآيات أنّ هذا الوصف وهذا التصوير هو من كلام إبراهيم الخليل، وأنّه ختام دعائه ربّه، وهكذا يعتقد - أيضاً - أغلب المفسّرين... وإن كان هناك مَنْ يحتمل أنّه هو من كلام الله، وأنّ الآيات محل البحث هي منه سبحانه جاءت مكملةً لكلام إبراهيم عليه السلام وموضحة له، إلاّ أنّ هذا الاحتمال يبدو ضعيفاً!...

وعلى كل حال، فأوّل ما تبدأ به هذه الآيات هو ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾.

وفي الحقيقة إنّ هاتين الدعامتين المهمتين في الحياة الدنيا «المال والبنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة، وكل ما كان دون هاتين الدعامتين رتبةً من الأُمور الدنيوية - من باب أولى - لا نفع فيه، ولا فائدة من ورائه!

وبديهي أنّ المراد من المال والبنين هنا ليس هو ما يكون - من المال والبنين - في مرضاة الله، بل المراد منه الاستناد إلى الأُمور الماديّة، فالمراد إذاً هو أنّ هذه الدعامات المادية لا تحلُّ معضلاً في ذلك اليوم... أمّا لو كان أيٌّ من البنين والمال في مرضاة الله فلن يكون ذلك ماديّاً... إذ يصطبغ بصيغة الله ويُعدّ من «الباقيات الصالحات»!...

ثمّ يضيف القرآن في ختام الآية، على سبيل الاستثناء ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وهكذا يتّضح أنّ أفضل ما ينجي يوم القيامة هو القلب السليم، ويا له من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسد فيه الإيمان والنية الخالصة، كما يحتوي على كل ما يكون من عمل صالح! ولم لا يكون لمثل هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح؟!

وبتعبير آخر: كما أنّ قلب الإنسان وروحه يؤثران في أعماله، فإنّ أعماله لها أثر واسع في القلب أيضاً، سواءً كانت أعمالاً رحمانية أم شيطانية!...

ثمّ يبيّن القرآن الجنّة والنار بالنحو التالي فيقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾(١). أي الضالين

وهذا الأمر - في الحقيقة - قبل ورود كلٍّ من أهل الجنّة والنار إليهما! فكلّ طائفة ترى مكانها من قريب. فيفرح المؤمنون ويستولي الرعب على الغاوين، وهذا أوّلَ جزائهما هناك!

الطريف هنا أنّ القرآن لا يقول: اقترب المتقون أو أزلف المتقون إلى الجنّة، بل يقول: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا يدل على مقامهم الكريم وعِظَمِ شأنِهم!...

كما ينبغي الإشارة إلى هذه اللطيفة، وهي أنّ التعبير بالغاوين هو التعبير ذاته الوارد في قصة الشيطان، إذ طرده الله عن ساحته المقدسة فقال له: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾(٢).

ثمّ يتحدث القرآن عن ملامةِ هؤلاء الضالين، وما يُقالُ لهم من كلمات التوبيخ أو العتاب، فيقول: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴿٩٣﴾﴾ فهل يستطيعون

(١) أُزلفتْ: فعل مشتق من (الزلفى) على وزن (كبرى) ومعنى الفعل «قربت».
(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

معونتكم في هذه الشدة التي أنتم فيها، أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر والمعونة ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾[1]...

إلاّ أنّهم لا يملكون جواباً لهذا السؤال! كما لا يتوقع أحد منهم ذلك!... ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾.

كما يقول بعض المفسّرين: إن كلاً منهم سيُلقى على الآخر يوم القيامة! ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

وفي الحقيقة أن هذه الفرق الثلاث، الأصنام والعابدين لها وجنود إبليس الدالين على هذا الانحراف، يساقون جميعاً إلى النار... ولكن بهذه الكيفية... وهي أن تلقى الفرق فرقةً بعد أخرى في النار. لأن «كُبكِبوا» في الأصل مأخوذة من (كبّ)، و(الكبّ) معناه إلقاء الشيء بوجهه في الحفرة وما أشبهها، وتكراره «كبكب» يؤدّي هذا المعنى من السقوط، وهذا يدلّ أنّهم حين يُلقون في النار مثلهم كمثل الصخرة إذ تهوي من أعلى الجبل أو تلقى من قمة الجبل، فهي تصل أولا نقطةً ما في الوادي ثمّ تتدحرج إلى نقاط أُخر حتى تستقرّ في القعر!.

إلاّ أنّ الكلام لا يقف عند هذا الحدّ، بل يقع النزاع والجدال بين هذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصمتهم هنا، فيقول: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾.

أجل... إنّ العبدَة الضالين الغاوين يقسمون بالله فيقولون: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ[2] ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ[3] ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

المجرمون الذين كانوا سادة مجتمعاتنا ورؤساءنا وكبراءنا، فأضلونا حفظاً لمنافعهم، وجرّونا إلى طريق الشقوة والغواية... كما يحتمل أن يكون المراد من المجرمين هم الشياطين أو الأسلاف الضالين الذين جرّوهم إلى هذه العاقبة الوخيمة.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

والخلاصة أنّ الأصنام لا تشفع لنا كما كنّا نتصور ذلك في الدنيا، ولا يتأتى لأي صديق أن يعيننا هنالك...

---

(١) قد يكون المراد من ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ هو أن يطلبوا العون والنصر لأنفسهم أو لغيرهم... أو مجموعهما، لأننا سنلاحظ في الآيات المقبلة أن العَبدَةَ ومعبوديهم يساقون إلى النار.

(٢) (إن كنا) مخففة من (إنّا كنا)...

(٣) يُحتمل أن تكون (إذ) هنا للظرفية، كما يحتمل أن تكون تعليلية...

وممّا ينبغي الالتفات إليه، أنّ كلمة ﴿شَٰفِعِينَ﴾ جاءت في الآية السابقة بصيغة الجمع كما ترى، إلاّ أنّ كلمة (صديق) جاءت بصيغة الإفراد، ولعلّ منشأ هذا التفاوت والاختلاف، هو أنّ هؤلاء الضالين يرون بأُمّ أعينهم المؤمنين الجانحين يشفع لهم الأنبياء والأوصياء أو الملائكة وبعض الأصدقاء الصالحين، فأُولئك الضالون يتمنون الشافعين أيضاً، وأن يكون عندهم صديق هنالك!...

إضافةً إلى ذلك فإن كلمتي (الصديق) و(العدو) كما يقول بعض المفسّرين، تطلقان على المفرد والجمع أيضاً...

إلاّ أنّهم ما أسرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المرّ، إذْ لا جدوى هناك للحسرة ولا مجال للعمل في تلك الدار لجبران ما فات في دنياهم، فيتمنون العودة إلى دار الدنيا... ويقولون: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ...

وصحيح أنّهم في ذلك اليوم وفي عرصات القيامة يؤمنون بربّهم، إلاّ أنّ هذا الإيمان نوع من الإيمان الاضطراري غير المؤثر، وليس كالإيمان الاختياري، وفي هذه الدنيا حيث يكون أساساً للهداية والعمل الصالح.

ولكن لا يحقق هذا التمني شيئاً، ولا يحلُّ مُعْضلاً، ولن تسمح سنّة الله بذلك، وهم يدركون تلك الحقيقة، لأنّهم يتفوّهون بكلمة «لو»[1]...

وأخيراً بعد الانتهاء من هذا القِسمِ من قصة إبراهيم، وكلماته مع قومه الضالين، ودعائه ربَّه، ووصفه ليوم القيامة، يكرر الله آيتين مثيرتين بمثابة النتيجة لعباده جميعاً، وهاتان الآيتان وردتا في ختام قصة موسى وفرعون، كما وردتا في قصص الأنبياء الآخرين من السورة ذاتها فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

وتكرار هاتين الآيتين، هو للتسرية عن قلب النّبي ﷺ وتسليته ومن معه من الصحابة القلة وكذلك المؤمنين في كل عصر ومصر لئلا يستوحشوا في الطريق من قلة أهله وكثرة الأعداء... وليطمئنوا إلى رحمة الله وعزته، كما أنّ هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين، وإشارة إلى أنّه لو وجدوا الفرصة في حياتهم وأمهلهم الله إمهالاً فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته وكرمه!

---

(١) تعدّ (لو) من حروف الشرط - وعادةً - تستعمل حينما يكون الشرط محالاً...

ملاحظات:

١ - القلب السليم - وحده - وسيلة النجاة

في أثناء كلام إبراهيم الخليل عليه السلام قرأنا ضمن ما ساقته الآيات المتقدمة من تعابير في وصف القيامة، أنّه لا ينفع في ذلك اليوم شيء ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

(السليم) مأخوذ من السلامة، وله مفهوم واضح، وهو السالم والبعيد من أيّ انحراف أخلاقي وعقائدي، أو أيّ مرض آخر!...

تُرى... ألمْ يقل الله في القرآن في شأن المنافقين ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾[1].

ونلاحظ تعاريف للقلب السليم في عدد من الأحاديث الغزيرة المعنى.

١ - ففيّ حديث عن الإمام الصادق عليه السلام - ذيل الآية محل البحث[2] - يقول فيه: «وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط».

٢ - ونعلم من جهة أُخرى أن العلائق المادية الشديدة وحب الدنيا... كل ذلك يجرّ الإنسان إلى كل انحراف وخطيئة، لأن «حبّ الدنيا رأس كل خطيئة»[3].

ولذلك فالقلب السليم هو القلب الخالي من حبّ الدنيا، كما ورد هذا المضمون في حديث للإمام الصادق عليه السلام - ذيل محل البحث - إذ يقول: «هو القلب الذي سلم من حبّ الدنيا»[4].

ومع الالتفات إلى الآية (١٩٧) من سورة البقرة إذ تقول: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾... يتّضح أن القلب السليم هو القلب الذي يكون محلاً لتقوى الله.

٣ - وآخر ما نقوله - هنا - أنّ القلب السليم هو القلب الذي ليس فيه سوى الله، كما يجيب الإمام الصادق عليه السلام على سؤال في هذا الشأن فيقول: «القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه»[5].

ولا يخفى أنّ المراد من القلب في مثل هذه الموارد هو روح الإنسان ونفسُه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.

(٢) راجع مجمع البيان ذيل الآيات مورد البحث. تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٥٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٣٩.

(٤) تفسير الصافي في ذيل الآية مورد البحث.

(٥) أصول الكافي، ج٢، ص١٦، طبقاً لما جاء في تفسير الصافي، - ذيل الآية مورد البحث.

وهناك مسائل كثيرة وردت في الروايات الإسلامية تتحدث حول سلامة القلب والآفات التي تصيبه، وطريق مبارزتها ومكافحتها، ويستفاد من مجموع هذا المفهوم الإسلامي المتين أنّ الإسلام يهتم قبل كلّ شيء بالأساس الفكري والعقائدي والأخلاقي، لأنّ جميع المناهج التطبيقية والعملية للإنسان هي انعكاسات لذلك الأساس وآثاره!...

فكما أنّ سلامة القلب الظاهرية سبب لسلامة الجسم، وأنّ مرضه سبب لمرض أعضائه جميعاً، لأنّ تغذية الخلايا في البدن تتمّ بواسطة الدم الذي يتوزع ويُرسل إلى جميع الأعضاء بإعانةِ القلب على هذه المهمّة... فكذلك هي الحال بالنسبة لسلامة مناهج حياة الإنسان وفسادها، كل ذلك انعكاس عن سلامة العقيدة والأخلاق أو فسادهما...

ونختتم هذا البحث بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام إذ قال: «إنّ القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس، وقلب مطبوع، وقلب أزهرُ أجرد؛ «أجرد من غير الله» إلى أن قال عليه السلام : وأمّا الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر. وأمّا المنكوس فقلب المشرك ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فإنّ القلب الذي فيه إيمان ونفاق، فهم قوم كانوا بالطائف، فإن أدرك أحدُهم أجله على نفاقه هلك، وإن أدركه على إيمانه نجا»(١).

٢ - وجاء في الروايات المتعددة عن الإمامين الصادقين أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام في تفسير ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ قولهما: «هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثمّ خالفوه إلى غيره»(٢).

وهذا الحديث يدل على أنّ القول بلا عمل قبيح ومذموم جدّاً، إذ يلقي أصحابه في النار، فأولئك قوم ضالون مضلّون، وكلامهم يهدي، الناس إلى الحق، بينما عملهم يجرّهم إلى الباطل، بل إنّ عملهم كاشف عن عدم إيمانهم بأقوالهم!

وينبغي الالتفات - ضمناً - إلى أنّ كلمة «غاوون» المأخوذة من «الغيّ» لا تعني الضلال مطلقاً، بل كما يقول الراغب في المفردات: هو نوع من الجهل والضلال الناشىء عن فساد العقيدة.

---

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٤٢٢ ط - الرّابعة، باب في ظلمة قلب المنافق.

(٢) نقل هذه الرواية مؤلف تفسير نور الثقلين عن أصول الكافي، وتفسير علي بن إبراهيم، والمحاسن للبرقي.

٣ - وردت في ذيل الآيتين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ روايات متعددة، وبعضها صريحة في أنّ: «الشافعين الأئمّة والصديق من المؤمنين»(١).

وجاء في حديث آخر عن جابر بن عبد الله الأنصاري أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الرجل يقول في الجنّة: ما فعل صديقي فلان؟ وصديقه في الجحيم، فيقول الله: أخرجوا له صديقه إلى الجنّة، فيقول من بقي في النار: فما لنا من شافعين ولا صديق حميم»(٢).

وبديهي أنّه لا الشفاعة بدون معيار وملاك، ولا السؤال في شأن الصديق دون حساب، فلا بدّ من وجود ارتباط أو علاقة بين الشفيع والمشفوع له ليتحقق هذا الهدف... «بينّا تفصيل هذا الموضوع في بحث الشفاعة، في تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة - فليُراجع في محله».

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا
عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ
ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

التّفسير

يا نوحُ، لِمَ يحفُّ بك الأرذلون؟!

يتحدّث القرآن الكريم بعد الانتهاء ممّا جرى لإبراهيم وقومه الضّالين، عن قوم نوح عليه السلام حديثاً للعبرة والاتعاظ... فيذكر عنادهم وشدّتهم في موقفهم من نوح عليه السلام وعدم حيائهم وعاقبتهم الأليمة ضمن عدّة آيات... فيقول أوّلاً: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٣).

---

(١) تفسير المحاسن للبرقي، نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج٤، ص٦١، ذيل الآية مورد البحث.

(٢) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٩٥، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) تأنيث لفظ (كذبت) لأنّ (قوم) في معنى الجماعة، والجماعة فيها تأنيث لفظي... وقال بعضهم: إنّ=

وواضح أنّ قوم نوح إنّما كذبوا نوحاً فحسب. . . ولكنْ لمّا كانت دعوة المرسلين واحدة من حيث الأصول، فقد عدّ تكذيب نوح تكذيباً للمرسلين جميعاً. . . ولذا قال القرآن: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

كما ويحتمل أنّ قوم نوح أساساً كانوا منكرين لجميع الأديان والمذاهب، سواءً قبل ظهور نوح أو بعده. . .

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى هذا الجانب من حياة نوح ﷺ، الذي سبق أن أشار إليه في كلامه حول إبراهيم وموسى ﷺ، فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾. . .

والتعبير بكلمة «أخ» تعبير يبيّن منتهى المحبّة والعلاقة الحميمة على أساس المساواة. . . أي أنّ نوحاً دون أن يطلب التفوق والاستعلاء عليهم، كان يدعوهم إلى تقوى الله في منتهى الصفاء.

والتعبير بالأُخوّة لم يَردْ في شأن نوح في القرآن فحسب، بل جاء في شأن كثير من الأنبياء، كهود وصالح ولوط، وهو يلهم جميع القادة والأدلاء على طريق الحق أن يراعوا في دعواتهم منتهى المحبّة المقرونة بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق، ولا يستثقله الناس!. . .

وبعد دعوة نوح قومه إلى التقوى التي هي أساس كل أنواع الهداية والنجاة، يضيف القرآن فيقول على لسان نوح وهو يخاطب قومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ فإن إطاعتي من إطاعة الله سبحانه. . .

وهذا التعبير يدلّ على أنّ نوحاً ﷺ كانت له صفة ممتدة من الأمانة بين قومه، وكانوا يعرفونه بهذه الصفة السامية، فهو يقول لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ولهذا فإنّي أمين أيضاً في أداء الرسالة الإلهية، ولن تجدوا خيانةً منّي أبداً. . .

وتقديم التقوى على الإطاعة، لأنّه ما لم يكن هناك إيمان واعتقاد بالله وخشية منه، فلن تتحقق الإطاعة لنبيّه. . .

ومرّة أُخرى يتمسك نوح ﷺ بحقانية دعوته، ويأتي بدليل آخر يقطع به لسان

= كلمة (قوم) بذاتها مؤنثة، لأنّهم قالوا في تصغيرها «قويمة» نقل الوجه الأوّل الطبرسي في مجمع البيان، ونقل الوجه الثّاني الفخر الرازي في تفسيره. . . إلاّ أنّ «الآلوسي» قال في روح المعاني: إنّ لفظ «قوم» يستعمل في المذكر والمؤنث على السواء. . .

المتذرعين بالحجج الواهية، فيقول: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ومعلوم أنّ الدوافع الإلهية - عادةً - دليل على صدق مدعي النبوّة، في حين أنّ الدوافع المادّية تدل بوضوح على أنّ الهدف من ورائها هو طلب المنفعة، ولاسيما أنّ العرب في ذلك العصر كانوا يعرفون هذه المسألة في شأن الكهنة وأضرابهم. . .

ثمّ يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذي جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته وأمانته، إذ يقول: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. . .

إلاّ أنّ المشركين الحمقى، حين رأوا سُبُلَ ما تذرّعوا به من الحجج الواهية موصدة، تمسكوا بهذه المسألة، فـ ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾.

إنّ قيمة الزعيم ينبغي أن تعرف ممن حوله من الأتباع، وبعبارة أُخرى «إنّ الولي يعرف من زوّاره - كما يقال» فحين نلاحظ قومك يا نوح، نجدهم حفنةً من الأراذل والفقراء والحفاة والكسبة الضعاف، قد داروا حولك، فكيف تتوقع أن يتبعك الأثرياء الأغنياء الشرفاء والوجهاء ويخضعوا لك؟!

وصحيح أنّهم كانوا صادقين ومصيبين في أنّ الزعيم يُعرف عن طريق أتباعه، إلاّ أنّ خطأهم الكبير هو عدم معرفتهم مفهوم الشخصية ومعيارها. . . إذ كانوا يرون معيار القِيَم في المال والثروة والألبسة والبيوت والمراكب الغالية والجميلة، وكانوا غافلين عن النقاء والصفاء والتقوى والطهارة وطلب الحق، والصفات العليا للإنسانية الموجودة في الطبقات الفقيرة والقلّة من الأشراف.

إنّ روح الطبقية كانت حاكمة على أفكارهم في أسوأ أشكالها، ولذلك كانوا يسمّون الفقراء الحفاة بالأراذل.

و«الأراذل» جمع (أرذل) كما أنّه جمع (للرذل) ومعناه الحقير. . . ولو كانوا يتحررون من قيود المجتمع الطبقي، لأدركوا جيداً أنّ إيمان هذه الطائفة نفسها دليل على حقانية دعوة النّبي وأصالتها!

إلاّ أنّ نوحاً عليه السلام جابههم وردّهم بتعبير متين، وجرّدهم من سلاحهم و﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

فما مضى منهم مضى، والمهم هو أنّهم اليوم استجابوا لدعوة النّبي، وقالوا له: لبّيك، وتوجهوا لبناء شخصياتهم، ومكنوا الحقّ من أن ينفذ إلى قلوبهم!. . .

وإذا كانوا في ما مضى من الزمن قد عملوا صالحاً أو طالحاً، فلست مُحاسباً ولا مسؤولا عنهم آنئذ ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾.

ويستفاد من هذا الكلام - ضمناً - أنّهم كانوا يريدون أن يتهموا هؤلاء الطائفة من المؤمنين، بالإضافة إلى خلوّ أيديهم، بسوء سابقتهم الأخلاقية والعملية، مع أنّ الفساد والانحراف الخلقي عادةً في المجتمعات المرفهة أكثر من سواها بدرجات... فهم الذين تتوفر لديهم كل وسائل الفساد، وهم سكارى المقام والمال، وقلّ أن يكونوا من الصالحين.

إلاّ أنّ نوحاً عليه السلام - دون أن يصطدم بهم في مثل هذه الأُمور - يقول: ما علمي بهم وبما كانوا يعملون، فإذا كان الأمر كما تزعمون فإنّما حسابهم على ربي لو تشعرون!

وإنّما عليّ أن أبسط جناحي لجميع طلاّب الحق ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذه العبارة في الحقيقة جواب ضمني لطلب هؤلاء المثرين الأغنياء المغرورين، الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفة الفقراء من حوله، ليتقربوا منه ويكونوا من أتباعه بعد طرد أُولئك الفقراء...

ولكن المسؤولية الملقاة على عاتقي هي أن أنذر الناس فحسب ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

فمن سمع إنذاري وعاد إلى الصراط المستقيم بعد ضلاله، فهو من أتباعي كائناً من كان، وفي أي مستوى طبقي ومقام اجتماعي أو مادي!

وممّا ينبغي الالتفات إليه أن هذا الإيراد لم يتعرّضْ له نوحُ النّبي الذي هو أول الرسل من أولي العزم فحسب، بل ووُجهَ إلى النّبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وسائر الأنبياء به، فالأغنياء كانوا ينظرون بنظاراتهم الفكرية السوداء شخصيات هؤلاء الفقراء البيضاء، فيرونها سوداء، فيطلبون طردهم دائماً. ولم يقبلوا بربّ ولا نبي يتبعه مثل هؤلاء العباد الفقراء!...

إلاّ أنّه ما أعذب وأحلى تعبير القرآن عنهم في سورة الكهف، إذ يقول: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[١].

وهذا الإيراد أو الإشكال يوردونه حتى على قادةِ الحق والأدلاّء على الهدى في كل عصر وزمان، وهو أنّ معظم أتباعكم المستضعفون! أو الحفاة الجائعون.

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

إنّهم يريدون أن يعيبوا بكلامهم هذا الرسالة والمذهب، مع أنّهم من حيث لا يشعرون، يمدحون ويطرون ذلك المذهب ويوقّعون على أصالته.

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

التّفسير

نجاةُ نوح وغرقُ المشركين

كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين في مواجهة نبيّهم نوح عليه السلام، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ وهو الاعتماد على القوّة والتهديد بالموت والفناء: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾.

والتعبير بـ﴿مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ يدلُ على أنّ الرجمَ بالحجارة بينهم كان جارياً في شأن المخالفين... وفي الحقيقة إنّهم يقولون لنوح: إذا قررت أن تواصل دعوتك للتوحيد... والاستمرار على عقيدتك ودينك، فستنال ما يناله المخالفون - عامّة - وهو الرجم بالحجارة، الذي يعدّ واحداً من أسوأ أنواع القتل(١).

ولما رأى نوح أنّ دعوته المستمرة الطويلة بما فيها من منطق بيّن... وبما يقترن بها من اصطبار، لم تؤثر إلاّ في جماعة قلة آمنوا به... شكا إلى ربّه أخيراً، وضمن بيان حاله، سأل ربّه أن ينجيّه من قبضة الظالمين، وأن يُبعده عنهم... إذ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾.

وصحيح أنّ الله مطّلع على كل شيء، إلاّ أنّه لبيان الشكوى وتمهيداً للسؤال التالي، يذكر نوح مثل هذا الكلام.

---

(١) «الرجم» مأخوذ من (رجام) على وزن (كتاب) وهو جمع (رجمة) على وزن (لقمة) ومعناها القطعة من الحجر التي توضع على القبر، أو ما يطوف حوله عبدة الأوثان، كما يعني الرجم القذف بالحجارة حتى القتل، كما يأتي أحياناً بمعنى القتل بأيّ شكل كان، لأنّ القتل كان بالحجر سابقاً.

وممّا يلفت النظر أنّ نوحاً لم يشتكِ من المصائب التي ابتلي بها، بل اشتكى من تكذيب قومه إيّاه فحسب، إذ لم يصدقوه ولم يقبلوا رسالته الإلهيّة لهدايتهم. . .

ثمّ يلتفت إلى ربّه فيقول: والآن حيث لم يبق طريق لهداية هؤلاء القوم فاقض بيننا وافصل بيني وبينهم: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾.

«الفتح» معناه واضح، وهو ما يقابل الغلق ويضاده، وله استعمالان. . . فتارة يستعمل في القضايا المادية كفتح الباب مثلاً، وتارة يستعمل في القضايا المعنوية كفتح الهمّ ورفع الغم، وكفتح المستغلق من العلوم، وفتح القضية، أي بيان الحكم حسم النزاع!

ثمّ يضيف فيقول: ﴿وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهنا يعبر القرآن عن إدراك رحمة الله نوحاً، وإهلاك المكذبين بعاقبة وخيمة مفجعة، إذ يقول: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي المليء بالناس وأنواع الحيوانات ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ . . .

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ مأخوذ من مادة (شحن) على وزن (صحن) ومعناه الملءُ، وقد يستعمل بمعنى التجهيز. . . و«الشحناء» تطلق على العداوة التي تستوعب جميع جوانب الإنسان، والمراد من ﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ هنا هو أنّ ذلك الفلك [أي السفينة] كان مملوءاً من البشر وجميع الوسائل. . . ولم يكن فيه أي نقص. . . أي إنّ الله بعدما جهز السفينة وأعدّها للحركة، أرسل الطوفان لئلا يُبتلى نوح وجميع من في الفلك بأي نوع من أنواع الأذى. . . وهذا بنفسه إحدى نعم الله عليهم!

وفي ختام هذه القصة القصيرة، يقول القرآن ما قاله في ختام قصتي موسى وإبراهيم عليهما السلام، فيكرر قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي في ما جرى لنوح عليه السلام ودعوته المستمرة وصبره ونجاته وغرق مخالفيه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ولهذا فلا تحزن يا رسول الله من إعراض المشركين وعنادهم، واستقم كما أُمرت. . . فإنّ عاقبتك وعاقبة أصحابك عاقبة نوح وأصحابه، وعاقبة الضالين من قومك كعاقبة الضالين من قوم نوح.

(و) اعلم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فرحمته تقتضي أن يمهلهم ويتمّ عليهم الحجة بإعطاء الفرصة الكافية، وعزته تستلزم أن ينصرك عليهم، وتكون عاقبة أمرهم خُسراً! . . .

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ
﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

التّفسير

جنايات عاد وأعمالهم العدوانية

والآن يأتي الكلام عن «عاد» قوم «هود» إذ يعرض القرآن جانباً من حياتهم وعاقبتهم، وما فيها من دروس العبر، ضمن ثماني عشرة آيةً من آياته! . . .

﴿عَادٌ﴾ - كما قلنا من قبل - جماعة كانوا يقطنون في «الأحقاف»، وهي منطقة في حضرموت تابعة لليمن، تقع جنوب الجزيرة العربية. . .

فيقول القرآن: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(١).

بالرغم من أنّهم كذبوا هوداً فحسب، إلاّ أنّه لمّا كانت دعوة هود هي دعوة الأنبياء جميعاً، فكأنّهم كذبوا الأنبياء جميعاً. . .

وبعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدّث القرآن عنهم فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

لقد دعاهم إلى التوحيد والتقوى في منتهى الشفقة والعطف والحرص عليهم، لذلك عبّر عنه القرآن بكلمة ﴿أَخُوهُمْ﴾. . .

ثمّ أضاف قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وما سبق من حياتي بين ظهرانيكم يدل على هذه الحقيقة، فإنّي لم أخنكم أبداً. . . ولم تجدوا منّي غير الصدق والحق! . . .

---

(١) لما كانت «عاد» قبيلةً، وتتألف من جماعة من الناس أُنث الفعل كما يُرى، فجاء ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ لأنّ لفظي القبيلة والجماعة مؤنثان. . .

ثمّ يضيف مؤكّداً: لما كنتم تعرفونني جيداً ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ . . . لأنّ إطاعتكم إيّاي إطاعة لله سبحانه. . . ولا تتصوروا بأنّي أدعوكم لأنتفع من وراء دعوتي إيّاكم في حياتي الدنيا وأنال المال والجاه، فلست كذلك ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . . . فجميع النِّعَم والبركات من عنده سبحانه، وإذا أردتُ شيئاً طلبته منه، فهو ربّ العالمين جميعاً. . .

والقرآن الكريم يستند في هذا القسم من سيرة «هود» في قومه إلى أربعة أُمور على الترتيب. . .

فالأمر الأوّل: هو محتوى دعوة «هود» الذي يدور حول توحيد الله وتقواه، وقرأنا ذلك بجلاء في ما مضى من الآي. . .

أمّا الأُمور الثلاثة الأُخر فيذكرها القرآن حاكياً عن لسان هود في ثوب الاستفهام الإنكاري، فيقول: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾.

«الريع» في الأصل يُطلقُ على المكان المرتفع، أمّا كلمة ﴿تَعْبَثُونَ﴾ فمأخوذ من «العبث»، ومعناه العمل بلا هدف صحيح، ومع ملاحظة كلمة ﴿آيَةً﴾ التي تدل على العلامة يتّضح معنى العبارة بجلاء. . . وهو أنّ هؤلاء القوم المثرين، كانوا يبنون على قمم الجبال والمرتفعات الأُخر مبانيَ عالية للظهور والتفاخر على الآخرين، وهذه المباني [كالأبراج وما شاكلها] لم يكن من ورائها أي هدف سوى لفت أنظار الآخرين، وإظهار قدرتهم وقوّتهم - من خلالها -!!

وما قاله بعض المفسّرين من أنّ المراد من هذا التعبير هو المباني والمنازل التي كانت تُبنى على المرتفعات، وكانت مركزاً للهو واللعب، كما هو جار في عصرنا بين الطغاة. . . فيبدو بعيداً، لأنّ هذا التعبير لا ينسجم مع كلمتي (الآية) و(العبث).

كما أنّ هناك احتمالاً ثالثاً ذكره بعض المفسّرين، وهو أنّ عاداً كانت تبني هذه البنايات للأشراف على الشوارع العامّة، ليستهزئوا منها بالمارة، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل يبدو أكثر صحة من سواه. . .

وأمّا الأمر الثّالث الذي ذكره القرآن حاكياً على لسان هود منتقداً به قومه، فهو قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾.

«المصانع» جمع «مصنع» ومعناه المكان أو البناء المجلّل المحكم، والنّبي هود لا يعترض عليهم لأنّ لديهم هذه البنايات المريحة الملائِمة، بل يريد أن يقول لهم: إنّكم

غارقون في أمواج الدنيا، ومنهمكون بعبادة الزينة والجمال والعمل في القصور حتى نسيتم الدار الآخرة!... فلم تتخذوا الدنيا على أنّها دار ممر، بل اتخذتموها دار مقر دائم لكم...

أجل، إنّ مثل هذه المباني التي تُذهل أهلها، وتجعلهم غافلين عن اليوم الآخر، هي لا شك مذمومة!

وفي بعض الرّوايات عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ خرج فرأى قبة فقال: ما هذه؟ فقال له أصحابه: هذا الرجل من الأنصار، فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه وصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب به وبالإعراض عنه، فشكا ذلك إلى أصحابه وقال: والله إنّي لأنكر رسول الله ﷺ ما أدرى ما حدث فيّ وما صنعت؟

قالوا: خرج رسول الله فرأى قبّتك فقال: لمن هذه؟ فأخبرناه، فرجع إلى قبّته فسواها بالأرض، فخرج رسول الله ﷺ ذات يوم فلم ير القبة فقال: ما فعلت القبة التي كانت ها هنا؟ قالوا: شكا إلينا صاحبها إعرافك عنه فأخبرناه فهدمها فقال ﷺ: «إن كلّ ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة، إلاّ ما لابُدّ منه»(١).

ويعرف من هذه الرّواية وما شابهها من الرّوايات نظر الإسلام بجلاء، فكل بناء «طاغوتي» مشيد بالإسراف والبذخ ومستوجب للغفلة... يمقته الإسلام، ويكره للمسلمين أن يبنوا مثل هذه الأبنية التي يبنيها المستكبرون المغرورون الغافلون عن الله، ولا سيما في محيط يسكن فيه المحرومون والمستضعفون...

إلاّ أنّ ما ينبغي التنويه به، أنّ النّبي ﷺ لم يستعمل القوة للوصول إلى هذا الهدف الإنساني أبداً، ولم يأمر بتخريب البناء، بل استطاع أن يحقق هدفه برد فعل لطيف كالإعراض وعدم الاهتمام بالبناء مثلاً!...

ثمّ ينتقد النّبي «هود» قومه على قسوتهم وبطشهم عند النزاع والجدال فيقول: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾.

فمن الممكن أن يعمل الإنسان عملاً يستوجب العقوبة، إلاّ أنّه لا يصح تجاوز الحدّ والإنحراف عن جادة الحق والعدل عند محاسبته ومعاقبته، وأن يعامل ذو الجرم الصغير

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص١٩٨، ذيل الآية مورد البحث، وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٣.

معاملة ذي الجرم الكبير. . . وأن تسفك الدماء عند الغضب ويقع التماصع بالسيف[١]، فذلك ما كان يلجأ إليه الجبابرة والظلمة والطغاة آنئذ. . .

ويرى الراغب في المفردات أن «البطش» على زنة (نقش) هو أخذ الشيء بقوّة وقسْوة واستعلاء. . .

وفي الحقيقة إنّ هوداً يوبّخ عبدة الدنيا عن طرق ثلاثة:

الأوّل: علاماتهم التي كانت مظهراً لحبّ الاستعلاء وحب الذات، والتي كانت تبنى على المرتفعات العالية ليفخروا بها على سواهم.

ثمّ يوبخهم على مصانعهم وقصورهم المحكمة، التي تجرّهم إلى الغفلة عن الله، وإن الدنيا دار ممر لا مقر.

وأخيراً فإنّه ينتقدهم في تجاوزهم الحدّ والبطش عند الانتقام. . .

والقدر الجامع بين هذه الأُمور الثلاثة هو الإحساس بالاستعلاء وحبّ البقاء. ويدلّ هذا الأمر على أن عشق الدنيا كان قد هيمن عليهم، وأغفلهم عن ذكر الله حتى ادعوا الألوهية. . . فهم بأعمالهم هذه يؤكّدون هذه الحقيقة، وهي أن «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[٢].

والقسم الثّالث من حديث هود ممّا بيّنه لقومه، هو ذكر نعم الله على عباده ليحرك فيهم - عن هذا الطريق - الإحساس بالشكر لعلهم يرجعون نحو الله. . .

وفي هذا الصدد يتبع النّبي هود أسلوبي الإجمال والتفصيل، وهما مؤثران في كثير من الأبحاث، فيلتفت نحوهم أولاً فيقول: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

وبعد هذا التعبير المجمل يذكر تفصيل نعم الله عليهم، فيقول: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ . . .

فمن جهة وفّر لكم الأُمور المادية، وكان القسم المهم منها - خاصّة في ذلك العصر - الأنعام والمطايا من النياق وغيرها. ومن جهة أُخرى وفرّ لكم القوّة الكافية وهي «الأبناء» للحفاظ على الأنعام وتدجينها. . .

---

(١) التماصع، التطاحن والقتال (المصحح).

(٢) تفسير الفخر الرازي، ج٢٤، ص١٥٧، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) (أمدّ) مأخوذ من «الإمداد»، ويطلق في الأصل على أمور توضع بعضها بعد بعض بشكل منظم، وحيث إنّ الله يرسل نعمه بشكل منظم إلى عباده استعملت هذه الكلمة هنا أيضاً. . .

وهذا التعبير تكرر في آيات مختلفة، فعند عدّ النعم المادية تذكر الأموال أولاً ثمّ الأبناء ثانياً، وهم الحفظة للأموال ومنمّوها، ويبدو أنّ هذا ترتيب طبيعي، لا أنّ الأموال أهم من الأبناء... إذ نقرأ في الآية ٦ من سورة الإسراء... ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾...

ثمّ يضيف بعد ذلك: ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾.

وهكذا فقد وفر الله لكم سبل الحياة جميعاً، من حيث الأبناء أو القوّة الإنسانية، والزراعة والتدجين ووسائل الحمل والنقل، بشكل لا يحس الإنسان معه بأي نقص أو قلق في حياته!.

لكن ما الذي حدث حتى نسيتم واهب هذه النعم جميعاً، وأنتم تجلسون على مائدته ليل نهار، ولا تعرفون قدره؟!

وأخيراً، فإنّ هوداً في آخر مقطع من حديثه مع قومه ينذرهم ويهددهم بسوء الحساب وعقاب الله لهم، فيقول: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾...

ذلك اليوم الذي ترون فيه نتائج أعمالكم وظلمكم وغروركم واستكباركم، وحب الذات وترك عبادة الله... ترون كل ذلك بأم أعينكم.

وعادة - يستعمل لفظ (اليوم العظيم) في القرآن، ويراد منه يوم القيامة العظيم من كل وجه... إلاّ أنّه قد يستعمل في القرآن في اليوم الصعب الموحش المؤلم على الأُمم...

كما نقرأ في هذه السورة في قصة «شعيب»، أن قومه بعد أن جحدوه ولم يؤمنوا به وعاندوه واستهزؤوا به، أرسل الله عليهم صاعقة «وكانت قطعة من الغيم» فعاقبهم بها، فسّمي ذلك اليوم باليوم العظيم، كما تقول الآية: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(١).

فبناءً على هذا قد يكون التعبير بـ ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الآية محل البحث، إشارة إلى اليوم الذي ابتلي به المعاندون من قوم هود (عاد) بالعذاب الأليم وهو الإعصار المدمر، وسيتجلى الشاهد على هذا المعنى في الآيات المقبلة...

كما يمكن أن يكون إشارة إلى يوم القيامة وعذابه... أو إلى العذابين معاً، فيوم الإعصار يوم عظيم، ويوم القيامة يوم عظيم أيضاً...

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٨٩.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

التّفسير

لا تتعب نفسك في نصحنا

رأينا في الآيات المتقدمة أحاديث النّبي هود المحترق القلب شفقةً على قومه المعاندين «عاد» وما حملته هذه الأحاديث من معان غزيرة سامية. . . والآن ينبغي أن نعرف جواب قومه الجارح وغير المنطقي ولا المعقول، يقول القرآن في هذا الصدد ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ فلن يؤثر ذلك فينا، فلا تتعب نفسك.

أمّا اعتراضك علينا بهذه الأُمور فلا محل له من الإعراب ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وليس الأمر كما تقول، فإنّه لا شيء بعد الموت ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ لا في هذا العالم، ولا في العالم الآخر.

و«الخُلقُ» - بضم الخاء واللام - معناه العادة والسلوك والأخلاق لأنّ هذه الكلمة جاءت بصيغة الإفراد بمعنى الطبع والسجيّة والعادة الأخلاقية. . . وهي هنا إشارة إلى الأعمال التي كانت تصدر منهم كعبادة الأصنام، وبناء القصور العالية الجميلة، وحب الذات، والتفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعة، وكذلك البطش عند الانتقام أو الجزاء. . . أي إنّ ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض والانتقاد!. . .

وفسّر «الخلقُ» بعضهم بالكذب، أي إنّ ما تقوله في شأن الله والقيامة كلام باطل قيل من قبل (إلاّ أنّ هذا التّفسير إنّما يُقبل إذا قرىء النص: إن هذا إلاّ خَلْقُ الأولين. فيكون الخلق فيه على وزن (الحلق) إلاّ أنّ القراءة المشهورة ليست كذلك!).

ويبيّن القرآن عاقبة قوم هود الوبيلة فيقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾.

وفي ختام هذه الأحداث يذكر القرآن تلكما الجملتين المعبّرتين، اللتين تكررتا في نهاية قصص نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام . . . فيقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ على قدرة

الله، واستقامة الأنبياء وعاقبة المستكبرين السيئة، ولكن مع ذلك ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

فيمهلُ إمهالاً كافياً، ويمنح الفرصة، ويبيّن الدلائل الواضحة للمضلينَ ليهتدوا... إلاّ أنّه عند المجازاة والعقاب، وبعد إتمام الحجة يأخذ أخذاً عسيراً لا مفرّ لأحد منه أبداً...

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

التّفسير

لا تطيعوا المسرفين المفسدين

القسم الخامس من قصص الأنبياء في هذه السورة، هو قصّة «ثمود» الموجزة القصيرة، ونبيّهم «صالح» الذين كانوا يقطنون في «وادي القُرى» بين المدينة والشام، وكانت حياتهم مترفة مرفهة... إلاّ أنّهم لطغيانهم وعنادهم أُبيدوا وأُبيروا حتى لم يبق منهم ديّار ولم تترك لهم آثار...

وبداية القصّة هذه مشابهة لبداية قصة عاد «قوم هود» وبداية قصة نوح وقومه، وهي تكشف كيف يتكرر التاريخ، فتقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾...

لأنّ دعوة المرسلين جميعاً دعوة واحدة، فتكذيب ثمود نبيّهم صالحاً تكذيب للمرسلين أيضاً...

وبعد ذكر هذا الإجمال يفصّل القرآن ما كان بين صلاح وقومه، فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾...

لقد كان النّبي صالح هادياً ودليلاً لقومه مشفقاً عليهم، فهو بمثابة «الأخ» لهم، ولم

يكن لديه نظرة استعلائية ولا منافع ماديّة، ولذلك فقد عبّر القرآن عنه بكلمة ﴿أَخُوهُمْ﴾. . . وقد بدأ دعوته إيّاهم كسائر الأنبياء بتقوى الله والإحساس بالمسؤولية! . . .

ثمّ يقول لهم معرفاً نفسه: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ وسوابقي معكم شاهد مبين على هذا الأمر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ إذ لا أريد إلاّ رضا الله والخير والسعادة لكم. . .

ولذلك فأنا لا أطلب عوضاً منكم في تبليغي إيّاكم. . . ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فأنا أدعوكم له، وأرجو الثواب منه سبحانه. . .

كان هذا أوّل قسم من سيرة صالح التي تلخصت في دعوته قومه وبيان رسالته إليهم. . .

ثمّ يضع «صالح» إصبعه على نقاط حساسة من حياتهم، فيتناولها بالنقد ويحاكمهم محاكمة وجدانية، فيقول: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾.

وتتصورون أنّ هذه الحياة المادية التي تستغفل الإنسان دائمة له وهو خالد فيها! فلذلك تأمنون من الجزاء، وأنّ يد الموت لا تنوشكم؟!

وبالأسلوب المتين، أُسلوب الإجمال والتفصيل. . . يشرح النّبي صالح لقومه تلك الجملة المغلقة والمجملة بقوله: وتحسبون أنّكم مخلّدون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾(١).

ثمّ ينتقدهم على بيوتهم المرفهة المُحكمة فيقول: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾.

«الفارِهُ» مشتق من (فره على وزن فَرِح) ومعناه في الأصل السرور المقرون باللامبالاة وعبادة الهوى. . . كما يستعمل في المهارة عند العمل أحياناً. . . ومع أنّ المعنيين ينسجمان مع الآية، إلاّ أنّه مع ملاحظة توبيخ نبيّهم صالح إيّاهم وملامته لهم فيبدو أنّ المعنى الأوّل أنسب. . .

---

(١) «الطلع» مأخوذ من مادة «الطلوع» ويستعمل في ما يكون منه الرطب بعدئذ، وهو معروف وشكله جميل منضوم نضيد، له غلاف ينشقّ عنه العِذقُ أول الربيع. ثمّ يُلقح بيد الإنسان أو بالرياح ليكون الثمر. . . وقد يستعمل الطلع في الثمرة الأُولى للنخل! «الهضيم» من مادة «هضم»، وله معان مختلفة، فتارة يراد منه الثمرة الناضجة، وتارة يطلق على الثمر اللين القابل للهضم، وتارة يطلق على المهضوم، وقد يستعمل بمعنى المنضوم المنضد، فإذا كان الطلع في الآية مورد البحث بمعنى العذق أوّل طلوعه، فالهضيم معناه المنضود، وإذا كان الطلع أول الثمر فالهضيم معناه الناضج اللين اللطيف. . .

ومن مجموع هذه الآيات وبمقايستها مع ما تقدم من الآيات في شأن عاد، يستفاد أنّ عاداً «قوم هود» كان أكثر اهتمامهم في حب الذات والمقام والمفاخرة على سواهم... في حين أنّ ثمود «قوم صالح» كانوا أسرى بطونهم والحياة المرفهة... ويهتمون أكبر اهتمامهم بالتنعم، إلاّ أنّ عاقبة الجماعتين كانت واحدة، لأنّهم جعلوا دعوة الأنبياء التي تحررهم من سجن عبادة الذات للوصول إلى عبادة الله، جعلوها تحت أقدامهم، فنال كلٌّ منهم عقابه الصارم الوبيل...

وبعد ذكر هذه الانتقادات يتحدث النّبي صالح عليه السلام في القسم الثّالث من كلامه مع قومه، فيقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

ملاحظة:

العلاقة بين الإسرافِ والفساد في الأرض!

نعرف أن «الإسراف» هو التجاوز عن حدّ قانون التكوين وقانون التشريع... وواضح أيضاً أنّ أيّ تجاوز عن الحدّ موجب للفساد والاختلال وبتعبير آخر: إنّ مصدر الفساد هو الإسراف، ونتيجة الإسراف هي الفساد أيضاً.

وينبغي الالتفات إلى أنّ الإسراف له معنى واسع، فقد يطلق على المسائل المادية كالأكل والشرب، كما في الآية (٣١) من سورة الأعراف ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾.

وقد يَرِدُ في الانتقام والقصاص - عند تجاوز الحدّ - كما في الآية (٣٣) من سورة الإسراء... ﴿فَلَا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾.

وقد يستعمل في الإنفاق والبذل عند التبذير وعدم التدبير، كما في الآية (٦٧) من سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾.

وقد يأتي في الحكم أو القضاء الذي يجرّ إلى الكذب، كما في الآية (٢٨) من سورة غافر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾!

وقد يستعمل في الاعتقاد المنتهي إلى الشك والتردد والارتياب كما في الآية (٣٤) من سورة غافر إذ تقول: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

وقد يأتي بمعنى الاستعلاء والاستكبار والاستثمار كما جاء في الآية (٣١) من سورة الدخان في شأن فرعون ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

وأخيراً فقد يأتي بمعنى مطلق الذنوب كما هو في الآية (٥٣) من سورة الزمر ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾.

وبملاحظة كل ما بيّناه آنفاً، تتّضح العلاقة بين الإسراف والفساد بجلاء...

يقول العلاّمة الطباطبائي في الميزان: «إن الكون على ما بين أجزائه من التضاد والتزاحم، مؤلف تأليفاً خاصاً يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض في النتائج والآثار... فالكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة، وهو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلاً خاصّاً يسير فيها بأعمال خاصّة، من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين أو يسار أو ينحرف بإفراط أو تفريط، فإنّ في الميل والانحراف إفساداً للنظام المرسوم ويتبعه إفساد غايته وغاية الكل... ومن الضروري أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له، وإفساد النظم المفروض له ولغيره، يستعقب منازعة بقية الأجزاء له، فإن استطاعت أن تقيمه وترده إلى وسط الاعتدال فهو وإلاّ أفنته وعفت آثاره، حفظاً لصلاح الكون واستبقاءً لقوامه والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكلية، فإن جرى على ما يهديه إليه الفطرة فاز بالسعادة المقدرة له، وإن تعدّى حدود فطرته وأفسد في الأرض، أخذه الله سبحانه بالسنين والمثلات وأنواع النكال والنقمة، لعله يرجع إلى الصلاح والسداد، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

وإن أقاموا مع ذلك على الفساد - لرسوخه في نفوسهم - أخذهم الله بعذاب الاستئصال وطهّر الأرض من قذارة فسادهم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[2] [3].

ومن هنا يتّضح بجلاء، لِمَ ذكر الله سبحانه في الآيات المتقدمة الإسراف والفساد في الأرض وعدم الإصلاح، في سياق واحد ومنسجم.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٣) راجع تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾
فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

التّفسير

عناد قوم صالح ولجاجتهم

لقد استمعتم إلى منطق صالح المتين والمحب للخير، مع قومه المضلين - في الآيات المتقدمة - والآن لنستمع إلى جواب قومه في هذه الآيات.

إنّهم واجهوه بكلام خشن و﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ فلذلك فقدت عقلك وتتكلم بكلمات غير موزونة ولا معقولة.

ثمّ بعد هذا كله ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ وكل عاقل لا يبيح لنفسه أن يطيع إنساناً مثله ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ لكي نؤمن بك ونتبعك.

كلمة (المسحّر) مشتقّة من ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ ومعناها المسحور، أي المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أنّ السحرة كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل، وهذا القول لم يُتّهم به النبيّ صالحاً فحسب، بل اتّهم به كثير من الأنبياء، حتى أنّ المشركين اتّهموا نبيّنا محمّداً ﷺ به فقالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾(١). أجلْ، إنّهم كانوا يرون بمعيار العقل أن يكون الإنسان متوافقاً مع البيئة والمحيط، فيأكل الخبز - مثلاً - بسعر يومه، ويطبّق نفسه على جميع المفاسد... فلو أنّ رجلاً مصلحاً إلهيّاً دعا الناس للقيام والنهوض بوجه العقائد الفاسدة وإصلاحها، عَدُّوهُ - بحسب منطقهم - مجنوناً «مسحّراً».

وهناك احتمالات أُخر في معنى «المسحّرين»، صرفنا النظر عنها لعدم مناسبتها...

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٨.

وعلى كل حال فإنّ هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزةً لا من أجل معرفة الحق، بل تذرعاً بالحُجة الواهية، وعلى نبيّهم أن يُتم الحجة عليهم، فاستجاب لهم - وبأمر الله - قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

و«الناقة» معروفة عند العرب، وهي أنثى الجمَلِ، والقرآن لم يذكر خصائص هذه الناقة التي كان لها حالة إعجازية، إلاّ أنّه ذكرها بنحو الإجمال... لكننا نعرف أنّها لم تكن ناقة كسائر النياق الطبيعية، فكما يقول جماعة من المفسّرين: كانت هذه الناقة بحالة من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل. ومن خصائصها أنّها كانت تشرب ماء الحيّ في يوم، واليوم الآخر لأهل الحي «أو القرية» وهكذا دواليك... كما أشارت الآية آنفة الذكر إلى هذا المعنى، ووردت الإشارة إلى هذا المعنى في الآية (٢٨) من سورة القمر أيضاً.

وقد ذكر المفسّرون لها خصائص أُخر(١).

وعلى كل حال، كان على صالح عليه السلام أن يُعلمَهُم أنّ هذه الناقة ناقة عجيبة وخارقة للعادة، وهي آية من آيات عظمة الله المطلقة فعليهم أن يَدَعوها على حالها، وقال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾...

وبديهي أنّ المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظة الناس ستؤدّي إلى الإضرار بمنافعهم الشخصية فتآمروا على نحر الناقة: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾(٢) لأنّهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الإلهي.

ولما تجاوز طغيانهم الحدّ، وأثبتوا بأعمالهم أنّهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادة الله ومشيئته أنّ يطهر الأرض من وجودهم الملوّث ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

وكما نقرأ في الآية (٧٨) من سورة الأعراف، والآية (٦٧) من سورة هود، ما جاء عن عذاب الله لهم إجمالاً... أنّ الأرض زُلزلت من تحتهم ليلاً، فانتبهوا من نومهم وجثوا على الركب فما أمهلهم العذاب وأخذتهم الرجفة والصيحة، فاهتزت حيطانهم وهوت عليهم فأماتتهم جاثمين على حالهم ففارقوا الدنيا بحال موحشة رهيبة!...

ويقول القرآن في ختام هذه الحادثة ما قاله في ختام حوادث قوم هود وقوم صالح وقوم نوح وقوم إبراهيم عليه السلام، فيعبّر تعبيراً بليغاً موجزاً يحمل بين ثناياه عاقبة أولئك

---

(١) لمزيد الإيضاح في هذا الصدد يراجع تفسير الآية (٦١) من سورة هود.

الظالمين: إنّ في قصة قوم صالح، وفي صبره وتحمله واستقامته ومنطقه القويم من جهة، وعناد قومه وغرورهم وانكارهم للمعجزة البيّنة، والمصير الأسود الذي آلو إليه دروس وعبر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أجلْ، ليس لأحد أن يغلب ربّه؛ فما فوق قوته من قوّة!! وهذه القوّة وهذه القدرة العظيمة لا تمنع أن يرحم أولياءه، بل أعداءه أيضاً: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾(١).

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

التّفسير

السفلة المعتدون

سادس نبيّ - ورد جانبٌ من حياته وحياة قومه المنحرفين في هذه السورة - هو «لوط» عليه السلام، ومع أنّه كان يعيش في عصر إبراهيم الخليل، إلاّ أنّ قصته لم تأت بعد قصّة إبراهيم عليه السلام، لأنّ القرآن لم يكن كتاباً تاريخياً ليبيّن الحوادث بترتيب وقوعها... بل يلفت النظر إلى جوانبه التربوية البناءة، والتي تقتضي تناسباً آخر... وقصّة لوط وما جرى لقومه تنسجم في حياة الأنبياء الآخرين الذين ورد ذكرهم في ما بعد...

يقول القرآن أوّلاً في هذا الصدد: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وورود ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ بصيغة الجمع، إمّا لأنّ دعوة الأنبياء عليهم السلام واحدة، فتكذيب الواحد منهم تكذيب للجميع، أو أنّ قوم لوط لم يؤمنوا بأيّ نبي قبل لوط واقعاً وحقيقة...

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى دعوة لوط التي تنسجم مع دعوة الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

---

(١) كلمة ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ مأخوذة من مادة (عُقر) على زنة (قُفل) ومعناها في الأصل أساس الشيء وجذوره، وقد تأتي بمعنى حز الرأس، وتأتي بمعنى قطع الأرجل من الحيوان، وما إلى ذلك.

ولحن كلماته وقلبه المتحرق لهم، العميق في تودّه إليهم، يدل على أنّه بمثابة «الأخ» لهم.

ثمّ أضاف لوط قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فلم تعرفوا عنّي خيانة حتى الآن... وسأرعى الأمانة في إيصال رسالة الله إليكم أبداً... ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فأنا زعيمكم إلى السعادة والنجاة.

ولا تتصوروا أنّ هذه الدعوة وسيلة اتخذها للحياة والعيش، وأنّ وراءها هدفاً مادّياً، كلاّ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثمّ يتناول بالنقد أعمالهم القبيحة، وقسماً من انحرافاتهم الأخلاقية... وحيث إنّ أهم نقطة في انحرافاتهم... هي مسألة الانحراف الجنسي، لذلك فإنّه ركّز عليها وقال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. فتختارون الذكور من بين الناس لإشباع شهواتكم!!

أي، إنّكم على الرغم ممّا خلق الله لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشاً طاهراً هادئاً، إلاّ أنّكم تركتم نعمة الله هذه وراءكم، ولوّثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزي...

كما ويحتمل في تفسير هذه الآية أن «من العالمين» جاء قيداً لقوم لوط أنفسهم، أي إنّكم من دون العالمين وحدكم المنحرفون بهذا الانحراف والمبتلون به... كما أنّ هذا الاحتمال ينسجم مع بعض التواريخ إذ يقال إن أوّل أمّة ارتكبت الانحراف الجنسي «اللواط» بشكل واسع هي قوم لوط[1]، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل مع الآية التالية - أكثر انسجاماً.

ثمّ أضاف قائلاً: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

فالحاجة والغريزة الطبيعية، سواءً كانت روحية أم جسمية لم تجرّكم إلى هذا العمل الانحرافي الشنيع أبداً، وإنّما جرّكم الطغيان والتجاوز، فتلوثتم وخزيتم به...

إنّ ما تقومون به يشبه من يترك الثمر الطيب والنافع والسالم، ويمضي نحو الغذاء

(١) تقول الروايات إنّ الذي قتل ناقة صالح كان واحداً لا غير... إلاّ أنّ القرآن يعبر عن هذا الفعل بصيغة الجمع ﴿فَعَقَرُوهَا﴾. وهذا التعبير لأنّ الآخرين كانوا راضين بعمله ويضمون أصواتهم إلى صوته، ويعتقدون بمعتقده... وتنفتح نافذة من هنا على أصل إسلامي، وهو أنّ العلائق الفكرية والمذهبيّة تجعل المنتمين إليها في صف واحد، وتكون عاقبتهم واحدة. لمزيد الإيضاح تراجع الآية (٦٥) من سورة هود.

المسموم الملوّث المميت. . . فهذا الفعل ليس حاجة طبيعية. . . بل هو التجاوز والطغيان!

بحثان

١ - الانحراف الجنسي انحراف مخجل

أشار القرآن في سور متعددة منه - كالأعراف وهود والحِجر والأنبياء والنمل والعنكبوت، إلى ما كان عليه قوم لوط من الوزر الشنيع. . . إلاّ أنّ تعابيره - في السور المذكورة آنفاً - يختلف بعضها عن بعض. . . وفي الحقيقة إن كل تعبير من هذه التعابير يشير إلى بُعد من أبعاد عملهم الشنيع:

ففي «الأعراف» نقرأ مخاطبة لوط إيّاهم ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[(١)].

وفي الآية (٧٤) سورة الأنبياء يتحدث القرآن عن لوط فيقول: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾.

أمّا في الآية - محل البحث - فقد قرأنا مخاطبة لوط إياهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

وجاء في الآية (٥٥) من سورة النمل قوله لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

كما جاء في الآية (٢٩) من سورة العنكبوت على لسان لوط مخاطباً إيّاهم ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾[(٢)].

وهكذا فقد ذُكر هذا العمل القبيح بعناوين «إسراف»، «خبيث»، «فسق»، «تجاوز»، «جهل»، و«قطع السبيل».

«الإسراف» من جهة أنّهم نسوا نظام الخلق في هذا الأمر، وتجاوزوا عن الحد، و«التعديّ» ذكر أيضاً لهذا السبب.

و«الخبيث» هو ما ينفر منه طبع الإنسان السليم، وأيّ عمل أقبح من هذا العمل الذي يُنفرُ منه؟!

«الفسق» معناه الخروج عن الطاعة - طاعة الله - والتعري عن الشخصيّة الإنسانية، وهو من لوازم هذا العمل حتماً.

---

(١) في شأن انحراف هؤلاء القوم، يذكر التاريخ قصة يمكن مراجعتها في تفسير الآية (٨١) من سورة هود.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨١.

و«الجهل» لعدم معرفتهم بعواقب هذا الفعل الوخيمة على الفرد والمجتمع! . . .

وأخيراً فإنّ «قطع السبيل» هو النتيجة السيئة لهذا الفعل، لأنّه سيؤدي إلى انقطاع النسل عند اتساع هذا الفعل، لأنّ العلاقة نحو الجنس المشابه ستحل محل العلاقة نحو الجنس المخالف بالتدريج (كما هي الحال بالنسبة للواط والسحاق).

٢ - العواقب الوخيمة للإنحراف الجنسي

بالرغم من بحثنا لهذا الموضوع في ذيل الآيات ٨١ - ٨٣ بحثاً مفصّلاً في أضرار هذا العمل القبيح، إلاّ أنّه - نظراً لأهميّته - نرى هنا من اللازم أن نذكر مطالب أُخَر مضافاً إلى ما سبق!

في الحديث عن النبيّ محمّد ﷺ أنّه قال: «لا يجد ريح الجنّة زنوق وهو المخنث»[١].

وفي حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «اللواط هو الكفر»[٢].

وفي حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا في فلسفة تحريم اللواط والسحاق أنّه قال: «علة تحريم الذكران للذكران، والإناث للإناث، لما رُكب في الإناث وماطبع عليه الذكران، ولما في إتيان الذكران الذكران، والإناث للإناث من انقطاع النسل، وفساد التدبير، وخراب الدنيا»[٣].

وهذه المسألة قبيحة جدّاً في نظر الإسلام بحيث جعل - في أبواب الحدود - حدّه القتل دون شك. . . حتى الذين يقومون بعمل أدنى من اللواط والسحاق جعل لهم عقاباً صارماً. . .

ففي حديث عن النّبي ﷺ أنّه قال: «من قبّل غلاماً من شهوة، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٤].

وعقوبة من يفعل مثل هذا الفعل تتراوح من ثلاثين سوطاً إلى تسعة وتسعين سوطاً. . .

---

(١) قيل أنّ المراد من ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي تقطعون سبيل الفطرة وتداوم النسل، وفسّره آخرون بأنّ المراد هو أنّ قوم لوط كانوا قطّاع طرق وسرّاقاً!

(١-٢) بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، ج ٧٣، ص ٦٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٤. (٤) المصدر السابق، ص ٧٢.

وعلى كل حال، فلا شك أنّ الانحراف الجنسي من أخطر الانحرافات الاجتماعية. . . لأنّه يلقي بظله المشؤوم على جميع المسائل الأخلاقية، ويجر الإنسان إلى الانحراف العاطفي.

«وكان لنا بحث مفصل في هذا الصدد في ذيل الآية ٨١ من سورة هود».

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

التّفسير

عاقبة قوم لوط

إنّ قوم لوط الغارقين بالغرور والمتمادية بهم رياح الشهوة، بدلاً من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهي، فتدخل مواعظه في قلوبهم ويخلصوا من تلك الأمواج الرهيبة، فإنّهم نهضوا لمواجهتهِ و﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾. . .

إنّ كلامك يُبلبل أفكارنا، ويسلب اطمئناننا وهدوءنا، فنحن غير مستعدين حتى للإصغاء إلى كلامك. . . وإذا واصلت هذا الأُسلوب ولم تنته منه، فإنّ أقل ما تجزى به هو الإبعاد والإخراج من هذه الأرض. . .

ونقرأ في مكان آخر من القرآن أن قوم لوط سعوا لتنفيذ تهديدهم، وأمروا بإخراج لوط وأهله، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[1].

إنّ فعل هؤلاء الضالّين - بلغ بهم أن يعدوا التقوى والتطهر بينهم أكبر عيب، وأن يفخروا بالرجس وعدم الطهارة، وهذه هي العاقبة المشؤومة للمجتمع المسرع نحو الفساد!

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٢.

ويستفاد من عبارة ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أنّ هذه الجماعة الفاسدة كانوا قد أخرجوا أُناساً طاهرين من حيّهم فهدّدوا لوطاً بهذا الأمر أيضاً، وهو أنّه إذا لم تنته فستنال ما ناله سواك من الإبعاد والإخراج...

وقد صُرّح في بعض التفاسير أنّهم كانوا يُخرجون المتطهرين من القرية بأسوأ الحال[1]...

إلاّ أنّ لوطاً لم يكترث بتهديدهم، وواصل نصحه لهم و﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾.

إنّه يريد أن يقول: سأواصل انتقادي إيّاكم... فافعلوا ما شئتم... فأنا لا أترك مواجهة هذه الأعمال القبيحة بالاعتراض والنقد!...

والتعبير بـ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ يدلُّ أيضاً على أنّ جماعة كانوا مثل النّبي لوط يرفضون هذه الأعمال ويعترضون عليها... رغم أنّ المنحرفين أخرجوهم من قريتهم آخر الأمر.

كلمة ﴿ٱلْقَالِينَ﴾ جمع «قال» من مادة (قَلَى) أو (قَلِيَ) «على وزنيْ حَلَقَ وشَرِكَ» ومعناها العداوة الشديدة التي تترك أثرها في قلب الإنسان، وهذا التعبير يكشف عن شدّة تنفّر لوط من أعمالهم...

والذي يسترعي النظر أنّ لوطاً يقول: إنّي لعملكم من القالين. أي إنّني لا أعاديكم بأشخاصكم، بل أعادي أعمالكم المخزية، فلو ابتعدتم عن هذا العمل الشنيع فأنا محبّ لكم وغير قال لكم.

وأخيراً لم تؤثر مواعظ لوط ونصائحه في قومه، فبدّل الفساد مجتمعهم كلّه إلى مستنقع عفن... وتمّت الحجة عليهم بمقدار كاف، وبلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية... فعليه أن يغادر هذه المنطقة العفنة، وأن ينجّي من معه ممن استجاب دعوته، لينزل عذاب الله على القوم الفاسقين فيهلكهم، فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

وبالرغم من أنّ بعضهم احتمل أن يكون المراد من الأهل من الآية جميع من آمن به... إلاّ أنّ الآية (٣٦) من سورة الذاريات تقول: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

ولكن كما أشرنا من قبل - فإنّ بعض التعابير الواردة في الآيات محل البحث، تشير إلى أنّ جماعة من المؤمنين به كانوا قد أُبعدوا وأُخرجوا من القرية...

---

(١) تفسير روح المعاني، والتفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٤، ص٢٠٠، ذيل الآيات مورد البحث.

ويستفاد ممّا قيل - ضمناً - أنّ دعاء لوط لأهله لم يكن بسبب العلاقة العاطفية والارتباط النسبي القرابتي، بل لإيمانهم به. . .

فاستجاب الله دعاؤه كما تقول الآية التالية: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٧١﴾[1].

وهذه العجوز لم تكن سوى زوج النّبي لوط التي كانت منسجمة مع أفكار قومه الضالين وعقيدتهم، ولم تؤمن بلوط أبداً، ولذلك ابتليت بما ابتلي به قومه من العذاب والهلاك.

وقد بيّنا تفصيل هذا الموضوع في ذيل الآيات «٨١ - ٨٣ من سورة هود».

أجَلْ، لقد نجّى الله لوطاً والمؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلاً من تلك المدينة - أو القرية - فترك قومه الغارقين بالفسق والفجور على حالهم، فنزل عذاب الله في الغداة، فتزلزلت بهم الأرض وانهارت عليهم الأبنية والقصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها وهلكوا جميعاً في ديارهم، وقد عبّر القرآن عن كان ذلك بعبارة موجزة بليغة، فقال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ ولم يكف ذلك بل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وأيّ مطر! إنّه وابل من أحجار نزل على تلك الخرائب ليمحو أثرها من الانظار. ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾! . . .

والأمطار عادة تمنح الحياة، إلاّ أنّ هذا المطر كان موحشاً مهلكاً مخرّباً. . .

ويستفاد من الآية (٨٢) من سورة هود أن قرى قوم لوط ومدنهم قُلب عاليها سافلها أوّلاً، ثمّ أمطرت بالحجر النضيد المتراكم، ولعله كان إمطارهم بالحجارة لمحو آثارهم، فلم يبق منها غير تلٍّ كبير من الأحجار والتراب بدل تلك المدن العامرة. . .

تُرى هل كانت هذه الأحجار قد حملت من الصحارى على أثر إعصار عظيم وسقطت على رؤوسهم؟ أو هي أحجار نزلت من السماء بأمر من الله عليهم؟!

أو كما يقول بعض المفسّرين كان هناك بركان أو جبل نار قد خمد لفترة، ثمّ انفجر بأمر الله فأمطرهم بالحجارة، ليس ذلك معلوماً على نحو الدقّة! إلاّ أنّ من المسلّم به أنّ هذه الأحجار - أو هذا المطر المهلك - لم يترك للحياة في تلك الأرض من أثر!

---

(١) «الغابر» من مادة (الغبور) ومعناه الباقي، ومتى ما تحركتْ جماعة وبقي شخص في المكان فإنّه يدعى (غابراً) ولهذا السبب سمي التراب الباقي غباراً. . . والغبرة: الباقي من اللبن في ثدي الحيوان.

«وتفصيل هذا الموضوع ذكرناه في ذيل الآيات ٨١ - ٨٣ من سورة هود، كما ذكرناه في الجزء الثامن مع «لطائف» مختلفة فلا بأس بمراجعتها» . . .

ومرّة أُخرى نواجه في نهاية هذه القصّة الجملتين اللتين تكررتا في القصص المشابهة لها في هذه السورة، في شأن خمسة أنبياء كرام آخرين، إذ يقول القرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

وأيّة آية أجلى من هذه الآية التي تعرفكم على هذه المسائل المهمّة والبناءة، دون أن تحتاجوا إلى تجربة شخصية! أجل إنّ تاريخ الماضين عبرة وآية للآتين، وليس تجربة، لأنّ التجربة ينبغي على الإنسان أن يتحمل فيها خسائر ليحصل على نتائجها . . . إلاّ أننا هنا نحصل على النتائج من خسائر الآخرين!.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وأية رحمة أعظم من أنّه لا يعاقب أقواماً فاسقين كقوم لوط فوراً، بل يمهلهم إمهالاً كافياً لعلهم يهتدون، ويجددوا نظرهم في أعمالهم! . . .

وأية رحمة أعظم من أن لا يخلط عقابه «الأخضر باليابس» بل لو كان في ألفِ ألفِ[1] أُسرة غير صالحة أسرة واحدة صالحة، فإنّه ينجيها منها وينزل العذاب على أُولئك!

وأية عزّة أعظم من أن ترى بطرفة عين واحدة ديار الفاسقين قد دُمرت تدميراً ولم يبق منها أي أثر!

فالأرض التي كانت مهاداً لأمنهم أمرت بإقبارهم، والمطر الذي تحيا به الأرض والناس يكون مميتاً لهم!

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾

(١) ذكرنا آنفاً أنّ مصطلح ألف ألف هو التعبير العربي الصحيح وأنّ كلمة مليون ليست عربيّة بل هي غربية فتأمل.

التفسير

شعيب وأصحابُ الأيكة

هذه هي القصّة السابعة، والحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء الواردة في هذه السورة... وهي قصة «شعيب» عليه السلام وقومه المعاندين.

كان هذا النّبي يقطن في «مدين»، «وهي مدينة تقع جنوب الشامات».

و«أيكة» على وزن (ليلة) «قرية أو أرض معمورة على مقربة من مدين».

والآية (٧٩) من سورة الحجر تدل على أن «أيكة» كانت تقع في طريق أهل الحجاز إلى الشام.

تقول الآية الأُولى من الآيات محل البحث: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

إنّهم لم يكذبوا نبيّهم شعيباً فحسب، بل كذبوا جميع الأنبياء، لأنّ دعوتهم واحدة... أو لأنّهم لم يصدقوا ويقبلوا بأيّ رسالة سماوية أبداً...

والأيكة معناها في الأصل محل مكتظ بالأشجار، وهي هنا إشارة إلى منطقة تقع على مقربة من «مدين»، سمّيت بذلك لأنّ فيها أشجاراً كثيرة وماءً وظلالاً!... والقرائن تشير إلى أنّهم كانوا منعّمين مترفين ذوي حياة مرفهة وثروة كثيرة، وربّما كانوا لهذه الأُمور غرقى الغرور والغفلة!...

ثمّ يتحدث القرآن إجمالاً عن شعيب عليه السلام وعنهم فيقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وفي الحقيقة فإن دعوة شعيب عليه السلام انطلقت من النقطة التي ابتدأها سائر الأنبياء، وهي التقوى ومخافة الله التي تعدُّ أساس المناهج الإصلاحية والتغييرات الأخلاقية والاجتماعية جمعاء...

والجدير بالذكر أنّ تعبير ﴿أَخُوهُمْ﴾ الوارد في قصص صالح وهود ونوح ولوط عليهم السلام، لم يُلاحظ هنا، ولعل منشأ ذلك يعود إلى أنّ «شعيباً» كان من أهل مدين أصلاً - وتربطه بأهلها روابط نسبية، وليس كذلك مع أصحاب الأيكة... ولذلك نرى في سورة هود حين يشير القرآن إلى إرسال «شعيب» إلى قومه من أهل مدين يقول: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1] إلاّ أنّ الآية محل البحث لما كانت تتحدث عن أصحاب الأيكة،

---
(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

وشعيب عليه السلام لا تربطه رابطة نسبية بهم لم تذكر التعبير «أخاهم». . .

ثمّ أضاف شعيب قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ فطاعتكم لي طاعة لله.

واعلموا أنّي أبتغي ثوابه ووجهه ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذه التعابير هي التعابير ذاتها التي دعا بها سائر الأنبياء أُممهم، فهي متحدة المآل ومدروسة، إذ تدعو إلى التقوى، وتؤكّد على سابقة أمانة النّبي بين قومه، كما أنّها تؤكّد على أنّ الهدف من الدعوة إلى الله معنوي فحسب، وليس وراءها هدف مادي، ولا يطمع أيّ من الأنبياء بما في يد الآخرين، ليكون مثاراً للشكوك وذريعةً للمتذرعين!

و«شعيب» كسائر الأنبياء الذين ورد جانب من تأريخ حياتهم في هذه السورة، فهو يدعو قومه بعد الدعوة العامّة للتقوى وطاعة الله، إلى إصلاح انحرافاتهم الأخلاقية والاجتماعية وينتقدهم على هذه الانحرافات، وحيث إنّ أهم انحراف عند قومه كان الاضطراب الاقتصادي، والاستثمار والظلم الفاحش في الأثمان والسلع، والتطفيف في الكيل، لذلك فقد اهتم بهذه المسائل أكثر من غيرها، وقال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ[1] الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

وفي هذه الآيات الأخيرة الثلاث يأمر شعيب هؤلاء القوم الضالين بخمسة أوامر في عبارات موجزة، ويتصور بعض المفسّرين أنّ هذه العبارات بعضها يؤكّد بعضاً، إلاّ أنّ التدقيق فيها يدلّ على أنّ هذه الأوامر الخمسة في الواقع تشير إلى خمسة مطالب أساسية ومختلفة، أو بتعبير آخر: هي أربعة أوامر ونتيجة كليّة!. . .

ولكي يتّضح هذه الاختلاف أو التفاوت، فإنّه يلزم الالتفات إلى هذه الحقيقة. . . وهي أنّ قوم شعيب (أهل مدين وأصحاب الأيكة) كانوا مستقرين في منطقة حساسة تجارية، وهي على طريق القوافل القادمة من الحجاز إلى الشام، أو العائدة من الشام إلى الحجاز، ومن مناطق أُخر.

(١) «القسطاس»، «على وزن نِسناس» معناه «ميزان». . . قال بعضهم: أصل هذه الكلمة روميّة، وقال بعضهم. بل هي عربية، ويعتقد بعضهم أنّ القسطاس ميزان كبير، أما الميزان نفسه المستعمل في لغة العرب فهو الصغير، وقالوا: إنّ للقسطاس مؤشراً ولساناً فهو لذلك دقيق الوزن!

ونحن نعرف أنّ هذه القوافل تحتاج في اثناء الطريق إلى أُمور كثيرة. . . وطالما يسيءُ أهل المنطقة الاستفادة من هذه الحالة، فهم يستغلونها فيشترون بضائعهم بأبخس ثمن. . . ويبيعون عليهم المستلزمات بأعلى ثمن «وينبغي الالتفات إلى أن أكثر المعاملات في ذلك الحين كانت قائمة على أساس المعاوضة سلعة بسلعة». . .

وربما تذرعوا عند شراء البضاعة بأنّ فيها عدّة عيوب، وإذا أرادوا أن يبيعوا عليهم عرّفوها بأحسن التعاريف، وعندما يزنون لأنفسهم يستوفون الوزن، وإذا كالوا الآخرين أو وزنوا لهم لا يهتمون بالميزان الصحيح والاستيفاء السليم، وحيث إنّ الطرف المقابل محتاج إلى هذه الأُمور على كل حال ومضطر إليها، فلابدّ له من أن يقبلها ويسكت عليها! . . .

وبغضّ النظر عن القوافل التي تمرّ عليهم، فإنّ أهل المنطقة نفسها المضطرين إلى التعامل ببضائعهم مع هؤلاء المطففين، ليسوا بأحسن حظاً من أصحاب القوافل أيضاً.

فقيمة المتاع سواءً كان الجنس يراد بيعهُ أو شراؤه تتعين بحسب رغبة الكسبة هؤلاء، والوزن والمكيال على كل حال بأيديهم، فهذا المسكين المستضعف عليه أن يستسلم لهم كالميت بيد غاسله!

ومع ملاحظة ما ذكرناه آنفاً، نعود الآن إلى تعابير الآيات المختلفة. . . فتارة يقول شعيب لقومه: أوفوا الكيل، وفي مكان آخر يقول: زنوا بالقسطاس المستقيم، ونعرف أن تقويم الأجناس والبضائع يتم عن طريق الكيل أو الوزن، فهو يشير إلى كل واحد منهما ويهتم به اهتماماً خاصاً. . . لمزيد التأكيد على أن لا يبخسوا الناس أشياءهم. . .

ثمّ إنّ التطفيف أن بخس الناس له طرق شتى، فتارةً يكون الميزان صحيحاً إلاّ صاحبه لا يؤدّي حقّه، وتارة يكون اللعب أو العيب في الميزان. . . فهو يغش صاحبه بما فيه من عيب، وقد جاءت الإشارات في الآيات الآنفة إلى جميع هذه الأُمور.

وبعد اتضاح هذين التعبيرين ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ. . . ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴿١٨٢﴾﴾ نأتي الى معنى ﴿وَلَا تَبْخَسُوا﴾ المأخوذة من «البخس»، وهو في الأصل النقص ظلماً من حقوق الناس. . . وقد يأتي أحياناً بمعنى الغش أو التلاعب المنتهي إلى تضييع حقوق الآخرين. . . فبناءً على ما تقدم، فإن الجملة الآنفة ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لها معنى واسع يشمل جميع أنواع الغش والتزوير والتضليل، والتلاعب في المعاملات، وغمط حقوق الآخرين!

وأمّا جملة ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ فمع ملاحظة أن «المخسر» هو من يوقع الآخر أو الشيء في الخسران. . . فمعناه واسع أيضاً، إذ يشمل بالإضافة إلى البخس والتطفيف كل ما من شأنه أن يكون سبباً للخسارة وإيذاء الطرف الآخر في المعاملة!

وهكذا فإنّ جميع ما ذُكر من الاستغلال وسوء الاستفادة والظلم، والمخالفة في المعاملة والغش والإخسار، سواءً كان ذلك في الكمية أو الكيفية، كله داخل في التعليمات آنفة الذكر. . .

وحيث إنّ الاضطراب الاقتصادي، أو الأزمة الاقتصادية، أساس لاضطراب المجتمع، فإنّ شعيباً يختتم هذه التعليمات بعنوان جامع فيقول: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. فتجرّوا المجتمع إلى هاوية الفساد والانحطاط، فعليكم أن تضعوا حدّاً لأي نوع من الاستثمار والعدوان وتضييع حقوق الآخرين.

وهذه التعليمات ليست بناءة للمجتمع الثري الظالم في عصر شعيب فحسب، بل هي بناءة ونافعة لكل عصر وزمان، وداعية إلى العدالة الاقتصادية!. . .

ثمّ إن «شعيباً» في آخر تعليماته - في هذا القسم - يدعوهم مرة أُخرى إلى تقوى الله فيقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فلستم أول قوم أو جماعة خُلقوا على هذه الأرض، فآباؤكم والأُمم الأُخرى جاؤوا وذهبوا، فلا تنسوا ماضيهم وما تقبلون عليه. . .

﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ مأخوذة من (الجبل) وهو معروف «ما ارتفع من الأرض كثيراً» ويسمى الطود أحياناً. . . فالجبلة تطلق على الجماعة الكثيرة التي هي كالجبل في العظمة. . .

قال بعضهم: الجبلة مقدار عددها عشرة آلاف!

كما تطلق الجبلة على الطبيعة والفطرة الإنسانية، لأنّها لا تتغير، كما أنّ الجبل لا يتغيّر عادةً. . .

والتعبير المتقدم لعله إشارة إلى أنّ شعيباً يقول: إنّما أدعوكم إلى ترك الظلم والفساد، وأداء حقوق الناس ورعاية العدل، لأنّ ذلك موجود في داخل الفطرة الإنسانية منذ الخلق الأوّل، وأنا جئتكم لإحياء هذه الفطرة. . .

إلاّ أنّه - وللأسف - لم تؤثر كلمات هذا النّبي المشفق، فأجابوه بمنطق «مُرّ وفظ» سنقرؤه في الآيات المقبلة. . .

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

التّفسير

عاقبة الحمقى

لما رأى قوم شعيب الظالمون - أنّهم لا يملكون دليلاً ليواجهوا به منطقه المتين. . . ومن أجل أن يسيروا على نهجهم ويواصلوا طريقهم، رشقوه بسيل من التُّهم والأكاذيب.

فالتهمة الأُولى هي ما يلصقها الجبابرة دائماً والمجرمون بالأنبياء، وهي السحر فاتّهموه بها و﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾[1] ولايُرى في كلامك ما هو منطقي!! وتظن أنّك بهذا الكلام تستطيع تقييد حريتنا في التصرف في أموالنا كما نشاء!!

ثمّ ما الفارق بينك وبيننا لنتّبعك؟! ولا مزيّة لك علينا ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وبعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارةً يدعونه (من الكاذبين) ورجلاً انتهازياً، وتارةً يدعونه مجنوناً أو من المسحّرين، وكان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبيّاً ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ حيث كنت تهددنا دائماً بهذا اللون من العذاب.

و«كِسَف» على وزن (فِرَق) جمع (كِسْفَة) على وزن (قطعة) ومعناها قطعة أيضاً والمراد من هذه «القطع من السماء» هي قطع الأحجار التي تهوي من السماء. . .

---

(١) «المسحّر» كما أشرنا من قبل إليه، هو المسحور. . . أو الذي يقع عليه السحر من قبل السَّحَرة، لينفذوا في عَقلِه ويبطلوا عمله!!

وهكذا يبلغ بهم صلفهم ووقاحتهم وعدم حيائهم إلى هذه الدرجة، وأظهروا كفرهم وتكذيبهم في أسوأ الصور.

إلاّ أنّ شعيباً عليه السلام، وهو يواجه هذه التعبيرات غير الموزونة والكلمات القبيحة وطلبهم عذاب الله، كان جوابه الوحيد لهم أن ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ . . .

ويشير إلى أنّ الأمر خارج عن يدي، وأن إنزال العذاب وإسقاط الكسف من السماء غيرُ مخول بها ليطلب كل ذلك منّي . . . فالله يعرف أعمالكم ويعلم بها، وما أنتم أهل له، فإذا لم تنفع المواعظ وتمّت الحجّة اللازمة، فإنّ عذابه لا مرد له وسيقطع دابركم لا محالة! . . .

وهذا التعبير وأمثاله ممّا يردُ على لسان الأنبياء، وما نلاحظهُ في آيات القرآن يدل على أنّهم كانوا يوكلون جميع الأُمور إلى الله، وإنّها بإذنه وأمره، ولم يدّعوا أنّهم قادرون على كل شيء، أو أنّهم يفعلون ما يشاؤون!.

وعلى كل حال فإنّ عذاب الله أزف موعده - وكما يعبر القرآن عنه في الآية التالية قائلاً: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿ٱلظُّلَّةِ﴾ في الأصل معناها القطعة من السحاب المظلّل: أي ذي الظل . . .

يقول أغلب المفسّرين في ذيل هذه الآية: إنّ حرّاً شديداً محرقاً حلّ في أرضهم سبعة أيّام، ولم يهب نسيم بارد مطلقاً، فإذا قطعة من السحاب تظهر في السماء - بعد السبعة أيّام - وتحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، واستظلّوا تحت السحاب من شدّة الحرّ.

وفجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميتة بصوتها المذهل، وأحرقتهم بنارها وزلزلت الأرض وهلكوا جميعاً.

ونعرف أن الصاعقة تنتج عن تلاقح القوى أو «الطاقة» الموجبة والسالبة، أو ما يعبر عنها بالشحنات الكهربائية وحين تتلاقح هذه الشحنات بين السحاب والأرض ينتج عنها صوت مرعب وشعلة موحشة، وقد تهتز الأرض عند وقوعها فيتزلزل محل سقوطها. . .

وهكذا يتّضح أن اختلاف التعابير في آيات القرآن الواردة عن عذاب قوم شعيب، يعود إلى حقيقة واحدة! ففي سورة الأعراف جاء التعبير بالرجفة (الآية ٩١) وفي سورة هود جاء التعبير بالصيحة (الآية ٩٤) أمّا في الآيات محل البحث فقد جاء التعبير بـ ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ . . .

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين «كالقرطبي والفخر الرازي وغيرهم» يحتمل أنّ

أصحاب الأيكة وأهل مدين كانوا جماعتين أو طائفتين، وكل طائفة نزل عليهم عذاب خاص، إلاّ أنّه مع ملاحظة هذه الآيات المتعلقة بهذا القسم - بدقة - يتجلّى أن هذا الاحتمال غير وارد!. . .

وتُختتم القصّة هذه بما خُتمت القصص الست السابقة عن أنبياء الله الكرام، إذ يقول القرآن: إنّ في حكاية أصحاب الأيكة ودعوة نبيّهم شعيب وعنادهم وتكذيبهم، وبالتالي نزول العذاب على هؤلاء المتكبرين درس وعبرة لمن اعتبر ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ومع ذلك كله فإنّ الله رحيم ودود يمهلهم لعلهم يرجعون ويصلحون أنفسهم، فإذا تمادُوا في الغي واستوجبوا عذاب الله، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

بحوث

١ - الانسجام التام في دَعوات الأنبياء

في ختام قصص هؤلاء الأنبياء السبعة نجد أن هذه القصص تشكّلُ حلقة كاملة من حيث الدروس التربوية. . . وينبغي أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة»(١) وهي أنّ قصص هؤلاء الأنبياء جميعاً جاءت في سور أُخَر من القرآن أيضاً. إلاّ أنّها لم تُعرَض بهذا العرض بحيث نجد أن بداية دعوتهم منسجمة، كما أنّ نهاياتها منسجمة أيضاً.

ولوحظ في خمسة أقسام من هذه القِصص أن محتوى الدعوة هو تقوى الله، ثمّ الإشارة إلى أمانة النّبي، وعدم مطالبته قومه بالأجر على تبليغه إيّاهم. . . وبعد هذه المسائل تعالج المسائل الاجتماعية، والانحرافات الأخلاقية، من قبل الأنبياء بلغة تنمّ عن الإشفاق والمحبة. . .

ثمّ يبيّن القرآن ردّ فعل الأُمم المنحرفة تجاه أنبيائهم، وأخيراً عاقبتهم الوخيمة، ويذكر عذاب كل منهم وكيفيته. . .

ثمّ يؤكّد القرآن أيضاً في نهاية كل قصّة منها على قدرة الله (وعزته) ورحمته.

---

(١) اللطيفة، ممّا لطف ودقّ وهي الشيء الخفي الذي يحتاج إلى دقّة لإدراكه. (المصحح) وفي نهاية كل من هذه القصص السبع يشير القرآن إلى أن في ذلك آية وأنّ أكثرهم لا يؤمنون. . .

وهذا الانسجام - قبل كل شيء - يدلُّ على تجلي مفهوم وحدة دعوات الأنبياء، بحيث كانوا ذوي منهج واحد وبداية واحدة ونهاية واحدة... وجميعهم كانوا معلمي مدارس الإنسانية... وبالرغم من أنّ محتوى هذه المدارس كان ينبغي أن يتغيّر بتقدم الزمن والمجتمع الإنساني، إلاّ أنّ الأصول والنتائج تبقى على حالها.

ثمّ بعد هذا كله، فإن هذه القصص كانت تسرّي عن قلب النّبي والمؤمنين القلّة في ذلك العصر (والمؤمنون في كل عصر) وتسلّي خاطرهم، لئلا يحزنوا وييأسوا من كثرة المشركين والأعداء الضالين، وأن يثقوا ويتوقعوا العاقبة لهم... وأن يكون أملهم بذلك كبيراً...

كما أنّ ذلك إنذار للجبابرة والمستكبرين والضالين - في كل عصر وزمان - لئلا يتصوروا بأنّ عذاب الله بعيد عنهم... العذاب بأنواعه كالزلزلة والصاعقة، والطوفان والبركان... وانشقاق الأرض والخسف، والأمطار الغزيرة التي تعقبها السيول المدمّرة، والإنسان المعاصر ضعيف أمامها كضعف الإنسان الغابر... لأنّ الإنسان المعاصر - بالرغم من جميع قواه وتقدمه الصناعي عاجز أمام الطوفان والصاعقة والزلزلة... ويبقى ضعيفاً لا حول له ولا طول!...

كل ذلك من أجل أنّ الهدف من قصص القرآن هو تكامل الناس وبلوغهم الرشد، والهدف تنوير القلوب ومعالجة الهوى بالتعقّل... وأخيراً فإنّ الهدف هو مواجهة الظلم والانحراف...

٢ - التقوى، بداية دعوة الأنبياء جميعاً

ممّا يلفت النظر أن قسماً مهماً من قصص هؤلاء الأنبياء - الوارد ذكرهم في سورة الشعراء - ذكر في سورة هود والأعراف، إلاّ أنّ في بداية ذكرهم وبيان سيرتهم في أقوامهم الدعوة إلى وحدانية الله - عادةً - ويُبتدأ في تلك السور عند ذكرهم. بجملة ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾!

إلاّ أنّه في هذه السورة (الشعراء) - كما لاحظنا - كانت بداية دعوتهم قومهم ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾... والحق أنّهما تعودان إلى نتيجة واحدة... لأنّه إذا لم تُوجد في الإنسان أدنى مراتب التقوى، وهي طلب الحق، فإنه لا يؤثر فيه شيء، لا الدعوة إلى التوحيد ولا غيرها... لذا فإنّنا نقرأ في بداية سورة البقرة قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

وبالطبع فإنّ التقوى لها مراحل - أو مراتب - وكل مرتبة هي درجة للرقي إلى المرحلة التالية أو المرتبة الأُخرى. . .

كما نلاحظ اختلافاً آخر بين هذه السورة وسورتي الأعراف وهود، ففي سورتي الأعراف وهود كانت دعوة الأنبياء تتركز على نبذ الأصنام، أمّا المسائل الأُخَر فكانت تحت الشعاع، إلاّ أنّه في سورة الشعراء هذه تتركز الدعوة على مكافحة الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية، كالمفاخرة وطلب الاستعلاء، والإسراف، والانحراف الجنسي، والاستثمار والتطفيف. إلخ. . . وهذا الأمر يكشف بأن تكرار هذه القصص في القرآن له حساب خاص، ولكلٍّ هدف معين يعرف من السياق!

٣ - الانحرافات الأخلاقية

ممّا يلفت النظر أنّ الأقوام المذكورين في هذه السورة، بالإضافة إلى انحرافهم عن أصل التوحيد نحو الشرك وعبادة الأوثان، الذي يعدّ أصلاً مشتركاً بينهم، فإنّهم كانوا متورطين بانحرافات أخلاقية واجتماعية خاصّة «وكل قوم لهم انحرافات خاصّة». . .

فبعضهم كانوا أهل مفاخرة وتكبر. . . كقوم هود عليه السلام.

وبعضهم كانوا أهل إسراف وترف كقوم صالح عليه السلام.

وبعضهم كانوا مبتلين بالانحراف الجنسي كقوم لوط عليه السلام.

وبعضهم كانوا عبدة المال بحيث كانوا يتلاعبون بالمعاملات كقوم شعيب عليه السلام.

وبعضهم كانوا مغرورين بالثروة كقوم نوح عليه السلام.

إلاّ أنّ عقابهم كان متشابهاً إلى حدٍّ ما، وكانت نهايتهم الهلاك. . .

فبعضهم أهلكوا بالصاعقة والزلزلة كقوم شعيب وقوم لوط وقوم صالح وقوم هود.

وبعضهم أهلكوا بالطوفان كقوم نوح عليه السلام.

وفي الحقيقة، فإنّ الأرض التي هي مهد للدعة والاطمئنان، وكانوا يمرحون عليها، أُمرت بإهلاكهم! . . .

والماء والهواء اللذين هما سببا حياتهم نفذا الأمر بإماتتهم!

وما أعجب أن تكون حياة الإنسان في قلب الموت، وموته في قلب الحياة، وهو مع كل ذلك غافل مغرور!

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾

التّفسير

عظمة القرآن في كُتُبِ «السابقين»(١)

بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، والعبر الكامنة في تأريخ حياتهم، يعود القرآن مرّة أُخرى إلى البحث الذي شرعت به السورة، بحث عظمة القرآن وحقانية هذا الكلام الإلهي المبين، إذ يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وأساساً فإنّ بيان جوانب مختلفة عن سير الأنبياء السابقين بهذه الدقة والظرافة، والخلو من أي نوع من الخرافات والأساطير الكاذبة، وفي محيط مليء بالأساطير والخرافات، ومن قِبَلِ إنسان لا يعرف القراءة والكتابة، أو لم يسبق له أن تعلمهما... كل ذلك بنفسه دليل على أن هذا الكتاب تنزيل من ربّ العالمين، وهذا نفسه دليل على إعجاز القرآن!!

لذلك تضيف الآية التالية قائلةً: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾.

ولو كان القرآن لم يُنزله ملك الوحي «الروح الأمين من قِبَلِ الله» لم يكن بهذا الإشراق والصفاء والخلو من الخرافات والأساطير والأباطيل...

وممّا يلفت النظر أن ملك الوحي وصف بوصفين في الآية: الأوّل أنّه الروح، والوصف الثّاني أنّه الأمين...

فالروح هي أساس الحياة، والأمانة، هي شرط أصيل في الهداية والقيادة!...

أجل، إنّ هذا الروح الأمين نزل بالقرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾(٢).

---

(١) كلمة «السابقين» نعت ومنعوته محذوف وتقديره الأنبياء (المصحح).

(٢) واضح - هنا - أنّ المراد من القلب هو روح النبي ﷺ، لا القلب الذي يعدّ مضغّة للدم... وانتخاب هذا التعبير إشارة إلى أنّك يا رسول الله استوعبت القرآن بروحك وقلبك، وهذه المعجزة السماوية مقرّها قلبك.

فالهدف هو أن تنذر الناس، وأن تحذرهم من مغبة الانحراف عن التوحيد، ليحذروا من سوء العاقبة... إنّ الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرّد شرفٍ فكري ولملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤولية واليقظة، والهدف هو التربية وبناء شخصية الإنسان!...

ولئلا تبقى حجّة لأحد ولا عذر، فإنّ القرآن أُنزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾...

فهذا القرآن نازل بلسان عربي فصيح، خال من الإبهام، للإنذار والإيقاظ، ولا سيما أنّه نزل في محيط يتذرع أهله بالحجج الواهية، نزل بليغاً واضحاً...

هذا اللسان العربي هو أكمل الألسنة واللغات وأغناها أدباً ومقاماً...

والجدير بالذكر أنّ أحد معاني «عربي» هو ذو الفصاحة والبلاغة - بقطع النظر عن كيفية اللسان، وكما يقول الراغب في المفردات: العربي: الفصيح البيّن من الكلام...

وفي هذه الصورة فإنه ليس المعوّل على لسان العرب، بل الأساس صراحة القرآن ووضوح مفاهيمه، والآيات التالية تؤيّد هذا المعنى، كما جاء في الآية (٤٤) من سورة فصلت ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾.

فالمراد من الأعجمي هنا هو الكلام غير الفصيح!...

والآية التالية تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانية القرآن فتقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

وخاصّة أنّ أوصاف هذا النّبي العظيم وأوصاف هذا الكتاب السماوي الخالد، جاءت في توراة موسى عليه السلام بحيث إن علماء بني إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك، حتى قيل إن إيمان قبيلتي الأوس والخزرج بالنّبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان على أثر ما كان يتوقعه علماء اليهود عن ظهور هذا النّبي العظيم، ونزول هذا الكتاب السماوي الكريم..

لذا فإنّ القرآن يضيف هنا قائلاً: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وواضح أنّه مع وجود أُولئك العلماء من بني إسرائيل في ذلك المحيط المليء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافاً» واعتباطاً..

لأنّه كان سيردّ عليه من كل حدب وصوب بالإنكار، وهذا بنفسه دليل على أنّ هذا الموضوع كان جليّاً في ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات - محل البحث -.

---

(١) «الزبر» جمع: زبور ومعناه الكتاب، وهو في الأصل من مادة (زبر) على وزن (أسر) أي كتابة.

ونقرأ في الآية (٨٩) من سورة البقرة أيضاً: ﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

وكل هذا شاهد جليّ على صدق آيات القرآن وحقانية دعوته!...

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

التّفسير

لو نزّل القرآن على الأعاجم

في هذه الآيات يتكلم القرآن على واحدة من الذرائع الاحتمالية من قبل الكفار وموقفه منها، ويستكمل البحث السابق في نزول القرآن بلسان عربي مبين، فيقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

قلنا سابقاً إن كلمة «عربي» قد يراد منها من ينتمي إلى العرب، وقد تطلق على الكلام الفصيح أيضاً، و«عجمي» في مقابل العربي كذلك له معنيان، فقد يُراد منه من ينتمي إلى غير العرب، وقد يراد منه الكلام غير الفصيح، وكلا المعنيين في الآية الآنفة محتمل، إلاّ أنّ الاحتمال الأكثر هو أن المقصود غير العرب، كما يبدو.

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقية ويعبد القومية كانوا متعصبين إلى درجة بحيث لو نزل القرآن على غير العرب لما آمن به ورغم أنّ القرآن نزل على عربي شريف من أسرة كريمة، في بيان رائع رائق بليغ وقد بشرت به الكتب السماوية السابقة... وشهد بذلك علماء بني إسرائيل، ومع ذلك كلّه لم يؤمن به الكثير من العرب، فكيف إذا كان نبيّهم ليس فيه أية صفة من الصفات المذكورة!...

ثمّ تضيف الآية لمزيد التأكيد: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾.

في بيان بليغ وبلسان رجل من بينهم، وهم يعرفونه ويعرفون سيرته وأخلاقه... وبمحتوى بشرت به الكتب السماوية السابقة... والخلاصة... إننا نسلكه بجميع هذه

الأوصاف في قلوب المجرمين ليكون مقبولاً سهلاً مطبوعاً إلاّ أن هذه القلوب المرضى تمتنع عن قبوله. . . فمثله كمثل الطعام الطيب النافع الذي تلفظه المعدة السقيمة.

إن تعبير ﴿سَلَكْنَـٰهُ﴾ من مادة (سلوك) ومعناه العبور من الطريق، فيرد فيه من طرف ويخرج من آخر).

ولذلك تقول الآية: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي إن هؤلاء المجرمين المعاندين، يظلون على حالهم حتى نزول العذاب. . .

واحتمل بعض المفسّرين في تفسير الآية أن المراد من ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هو أننا أدخلنا العناد واللجاجة والعصبية وعدم التأثير في قلوب المجرمين، بسبب ذنوبهم وجرمهم.

وطبقاً لهذا المعنى فالآية محل البحث تشبه الآية ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[(١)].

إلاّ أن التّفسير الأوّل أكثر انسجاماً مع الآيات السابقة واللاحقة، لذلك فقد اختاره أغلب المفسّرين[(٢)].

أجل، إنّهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[(٣)].

لا شك أنّ المراد من هذا العذاب الذي يأخذهم بغتةً، هو عذاب الدنيا والبلاء المهلك وعقاب الاستئصال! . . .

لذا فإنّ القرآن يحكي عن حالهم فيقول: إنّهم في هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، ويندمون على أفعالهم، ويتملكهم الخوف من المصير المرعب، ويودون بأن يعطوا فرصة لجبران ما فات والايمان بالرسالة الإلهية: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ . . .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.

(٢) في عدد من الآيات المتقدمة وردت خمسة ضمائر مفردة في الجمل التالية: «نزلناه»، «قرأه»، «ما كانوا به»، «سلكناه»، «لا يؤمنون به»، وهي تعود على القرآن طبقاً للتفسير الأوّل، وطبقاً للتفسير الثّاني فإن بعضها يعود على القرآن، وبعضها على العناد من قبل المشركين، وهذا الأمر مع عدم وجود القرينة مشكل!

(٣) ينبغي الالتفات إلى أنّ جملة ﴿فَيَأْتِيَهُم﴾ منصوبة ومعطوفة على «حتى يروا»، وينبغي بيان معناها بهذه العلاقة.

بحوث

١ - العصبية القومية والقبلية الشديدة!

لا شك أنّ كل إنسان يرتبط بأرض أو قبيلة أو قومية فإنّه يعشقها، وهذه العلاقة بالأرض أو القبيلة، ليست غير معيبة فحسب، بل هي عامل بنّاء لأبناء المجتمع، إلاّ أنّ لهذا الأمر حدوداً، فلو تجاوز الحدود فإنه سينقلب إلى عامل مخرب، وربّما إلى عامل مفجع.

والمراد من التعصب أو العصبية القومية أو القبلية المذمومة والسلبية، هو الإفراط في التعصب أو العصبية...

«التعصب» و«العصبية» في الأصل من مادة (عصب) ومعناه واضح، وهو الغضروف الذي يربط المفاصل، ثمّ أطلق التعصب والعصبية على كل ارتباط... إلاّ أنّ هذا اللفظ أو هذين اللفظين يستعملان عادة في المفهوم الإفراطي المذموم.

إنّ الدفاع المفرط عن القوم أو القبيلة أو الأرض والوطن، كان مصدراً لكثير من الحروب على طول التاريخ، وعاملاً على انتقال الخرافات والتقاليد السيئة على أنها آداب وسنن في قبيلة ما أو أُمّة ما! إلى أمم أُخَر!

هذا الدفاع أو الانتماء المتطرف، قد يبلغ حداً بحيث يرى أسوأ أفراد قبيلته في نظره جميلاً، وأحسن أفراد القبيلة الأُخرى في نظره سيئاً... وكذلك الحال بالنسبة إلى السنن والآداب السيئة والحسنة... وبتعبير آخر: إنّ التعصب القومي يلقي ستاراً من الجهل والأنانية على أفكار الإنسان وعقله، ويلغي التقييم الصحيح!

هذه الحالة من العصبية كانت لها صورة أكثر حدة بين بعض الأُمم، ومنهم العرب المعروفون بالتعصب.

وقد قرأنا في الآيات الآنفة أنّه لو أنزل الله القرآن على غير العرب لما كانوا به مؤمنين.

وقد ورد في الرّوايات الإسلامية التحذير من التعصب، على أنّه خُلق مذموم، حتى أنّنا نقرأ حديثاً عن رسول ﷺ يقول فيه: «من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبية، بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»[1].

---

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص٢٣٢، (باب العصبية ص ٣٢).

ونقرأ حديثاً آخر عن الإمام الصادق عليه السلام يقول فيه: «من تعصب أو تُعصب له فقد خلع ربقة الإيمان من عنقه»[١].

ويستفاد من الرّوايات الإسلامية أيضاً، أنّ إبليس أوّل من تعصب...

يقول الإمام علي عليه السلام في بعض خطبه - المعروفة بالقاصعة - في مجال التعصب كلاماً بليغاً مؤثراً، ننقل جانباً منه هنا: «أمّا إبليس فتعصب على آدم لأصله، وطعن عليه في خلقته، فقال: أنا ناري وأنت طيني»[٢].

ثمّ يضيف الإمام علي في خطبته هذه قائلاً: «فإن كان لا بدّ من العصبية، فليكن تعصبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأُمور»[٣].

ويتّضح من هذا الحديث - بجلاء أن التعصب والدفاع المستميت عن بعض الحقائق والإيجابيات ليس غير مذموماً فحسب، بل بإمكانه أن يسدّ فراغاً روحياً قد ينشأ من ترك بعض العادات الجاهلية المقيتة.

لذلك نقرأ عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام حين سئل عن التعصب قوله: «العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»[٤].

والتعبير الآخر عن العصبية الوارد في بعض الروايات أو الآيات هو الحمية ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

وبالرغم من أن الأحاديث في هذا المجال كثيرة، إلاّ أننا نختم بحثنا بحديثين منها:

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام «إنّ الله يعذب ستةً بست - العرب بالعصبية، والدهاقنة بالكبر، والأمراء بالجور، والفقهاء بالحسد، والتجار بالخيانة، وأهل الرستاق بالجهل»[٥].

وكان رسول الله يتعوذ في كل يوم من ست «من الشكّ والشرك والحميّة والغضب والبغي والحسد»[٦].

---

(١) أُصول الكافي، ج ٢، ص٢٣٢، (باب العصبية ص ٣٢).
(٢-٣) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة، رقمها ١٩٢.
(٤) أُصول الكافي، ج ٢، باب العصبية، ص ٢٣٣.
(٥-٦) بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٨٩.

٢ - طلب الرجوع إلى الدنيا

من لحظة الموت تبدأ حسرات المجرمين وآهاتهم، وتشتعل في قلوبهم رغبة الرجوع إلى الدنيا، ويصرخون ويدعون ولات حين مناص...

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة في هذا الصدد، أكثرها بساطة هذه الآية محل البحث ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾.

أمّا في الآية (٢٧) من سورة الأنعام فنقرأ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾.

وفي الآية (٦٦) من سورة الأحزاب فنقرأ: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

ونقرأ في الآيتين ٩٩ - ١٠٠ من سورة المؤمنون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وهذه الحالة تستمر حتى في صورة وقوف المجرمين على حافة النار، كما في الآية ٢٧ من سورة الأنعام، إذ تقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

إلاّ أنّ هذه العودة لن تتحقق، لأنّها سنة الله سبحانه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً، فلو قطعت ثمرة غير ناضجة من الشجرة ثمّ عادت، ولو سقط الجنين من بطن أُمّه قبل اكتماله، ثمّ عاد إلى الرحم... لأمكن أن يعود هؤلاء...

فبناءً على ذلك فإنّ الطريق الوحيد المعقول، هو التوقّي من حسرة ما بعد الموت بالتوبة من الذنب، والأعمال الصالحة، ما دامت الفرصة سانحة وإلاّ فلا ينفع الندم بعد فوات الأوان!...

٣ - فضل العجم

جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادق ذيل الآيات محل البحث أنّه قال: «لو نزل القرآن على العجم ما آمنت به العرب... وقد نزل على العرب فآمنت به العجم، فهذه فضيلة العجم»(١).

«وفي هذا الصدد كانت لنا إشارات ذيل الآية ٥٤ من سورة المائدة».

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٥.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

التّفسير

تهمة أُخرى للقرآن

حيث إنّ الآيات المتقدمة ختمت بجملة ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ التي يقولُها المجرمون عندما يأتيهم العذاب بغتة وهم على أبواب الهلاك، طالبين الإمهال والرجوع للتعويض عما فاتهم من الأعمال. فالآيات محل البحث تردُّ عليهم عن طريقين:

الأوّل قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

إشارة إلى أنّه طالما استهزأتم أيّها المجرمون، وسخرتم من أنبيائكم، وطلبتم منهم نزول العذاب بسرعة... لكن حين أصبحتم في قبضة العذاب تطلبون الإمهال لتعوضوا عمّا فات من الأعمال، وكنتم ترون الأمر لهواً ولعباً في يوم، لكن في اليوم الآخر وجدتموه جديّاً.

وعلى كل حال فإنّ سنة الله أن لا يعذب قوماً حتى يُتمّ عليهم الحجّة البالغة... لكن إذا تمّت الحجة، وفسح لهم المجال، ولم يثوبوا إلى رشدهم أنزل عذابه فلا ينفع الإبتهال، والرجوع نحو ساحة ذي الجلال.

والآخر أنّه ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

فعلى فرض أنّهم أُمهلوا ثانية (ولن يُمهلوا بعد إتمام الحجة عليهم) وعلى فرض أن يُعمَّروا سنين طوالاً في هذه الدنيا ويغرقوا في بحر الغفلة والغرور، ألا يكون عملهم التمتع والتلذذ بالمواهب الماديّة فحسب. وهل يعوّضون عما فاتهم؟! كلاّ أبداً.. فمن المسلّم أنّهم لا يعوضون عمّا فاتهم. وهل تغني المواهب المادية عنهم شيئاً عند نزول العذاب؟ وهل تحلّ مشكلتهم أو تحدث تغييراً في عاقبتهم؟!

كما يَرِدُ هذا الاحتمال في تفسير الآيات الآنفة، وهو أنّهم لا يطلبون الإمهال للرجوع نحو الحق والتعويض عما فات، بل يطلبون الإمهال لمزيد التمتع من النعم الزائلة في هذه الدنيا، إلاّ أنّ هذا التمتع لا يغني عنهم شيئاً، ولا بد أن يرحلوا - إن عاجلاً وإن آجلاً - من هذه الدار الفانية إلى تلك الدار الباقية، وأن يواجهوا أعمالهم هناك. . .

وهنا يثار سؤالٌ - وهو أنّه مع الالتفات إلى أنّ الله عالم بمستقبل كل قوم وجماعة، فما الحاجة إلى الإمهال؟

ثمّ إنّ الأُمم السالفة كذبت أنبياءها واحداً بعد الآخر، وبمقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الوارد في نهاية تلك القصص أنّ أكثرهم لم يؤمنوا، فعلام يأتي الأنبياء منذرين ومبشرين؟!

فالقرآن يجيب على هذا السؤال بأنّ ذلك سنة الله ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ فنرسل الأنبياء لهم لإتمام الحجّة وتقديم النصح والموعظة ليتذكروا ويستيقظوا من غفلتهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾[1].

ولو كنا نأخذهم بدون إتمام الحجة، وذلك بإرسال المنذرين والمبشرين - من قِبَلِ الله - لكان ظلماً منّا ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾.

فمن الظلم أن نُهلك غير الظالمين، أو نهلك الظالمين دون إتمام الحجّة عليهم. . .

وما ورد في هذه الآيات هو في الحقيقة بيان للقاعدة العقلية المعروفة بـ«قاعدة قبح العقاب بلا بيان» وشبيه لهذه الآية ما جاء في الآية (١٥) من سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

أجل. . . إنّ العقاب بدون البيان الكافي قبيح، كما أنّه ظلم، والله العادل الحكيم محال أن يفعل ذلك أبداً، وهذا ما يعبر عنه في علم الأصول بـ(أصل البراءة) ومعناه أن كل حكم لم يقم عليه الدليل، فإنّه يُنفى بواسطة هذا الأصل «لمزيد التوضيح يراجع تفسير الآية ٥٧ من سورة الإسراء». .

---

(١) للمفسرين في مورد (ذكرى) من الإعراب أربعة احتمالات. . . الأوّل: أنّه مفعول لأجله والعامل «منذرون» والتّفسير المذكور آنفاً في المتن هو على هذا الأساس.
الثّاني: أنّه مفعول مطلق لكلمة «منذرون» لأنّ معناهما واحد أو هما متقاربان في المعنى.
الثّالث: أنّه حال من الضمير في منذرون.
الرّابع: أنّها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذه ذكرى).

ثمّ يردّ القرآن على إحدى الذرائع أو التُّهم الباطلة من قِبَلِ اعداء القرآن وهي أنّ النّبي مرتبط ببعض الجن، وهو يعلمه هذه الآيات، والحال أنّ القرآن يؤكّد أنّ هذه الآيات هي من «تنزيل ربّ العالمين».

فيضيف هنا قائلاً: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ﴾.

ثمّ يبيّن جواب هذه التهمة الواهية التي اختلقها الأعداء فيقول: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾.

أي أنّ محتوى هذا الكتاب العظيم الذي يدعو إلى الحق والطهارة والعدل والتقوى، ونفي كل أنواع الشرك، يدلّ دلالة واضحة على أنّه لا شباهة له بأفكار الشياطين وما يلقونه. فالشياطين لا يصدر منهم إلاّ الشر والفساد، وهذا كتاب خير وصلاح، فالدقّة في محتواه تكشف عن أصالته.

ثمّ إنّ الشياطين ليست لهم القدرة على ذلك ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

فإذا كانت لهم القدرة فينبغي على سائر من كان في محيط نزول القرآن كالكهنة المرتبطين بالشياطين (أو على الأقل كان المشركون يدّعون بأنّهم مرتبطون بالشياطين) أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله، وهذا العجز أثبت أن القرآن فوق قدرتهم ومستوى بلاغتهم وأفكارهم!. . .

ومضافاً إلى كل ذلك، فإن الكهنة أنفسهم كانوا يعترفون أنّهم بعد ولادة النّبي ﷺ انقطعت علاقتهم بالشياطين الذين كانوا يأتونهم بأخبار السماء ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

ويستفاد من سائر آيات القرآن أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع من الملائكة، فينقلون ما يدور بين الملائكة من مطالب إلى أوليائهم، إلاّ أنّه بظهور نبيّ الإسلام ﷺ وولادته انقطع استراق السمع تماماً، وزال الارتباط الخبري بين الشياطين وأوليائهم. . .

وهذا الأمر كان يعلم به المشركون أنفسهم، وعلى فرض أن المشركين كانوا لا يعلمون، فإن القرآن أخبرهم بذلك[1].

ولذا فقد جعله القرآن دليلاً في الآيات الآنفة لدحض ما يتقوله الأعداء. . .

---

(١) لمزيد الإيضاح في منع الشياطين عن استراق السمع يراجع الجزء الأوّل من سيرة ابن هشام، ص ٢١٧ فما بعد.

وهكذا فقد أجاب القرآن على هذا الاتهام من ثلاثة طرق:

١ - عدم التناسب بين محتوى القرآن وإلقاء الشياطين.

٢ - عدم قدرة الشياطين على ذلك.

٣ - منع الشياطين من استراق السمع.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾

التفسير

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾

تعقيباً على الأبحاث الواردة في الآيات السابقة في شأن مواقف المشركين من الإسلام والقرآن... فإن الله سبحانه يبيّن لنبيّهِ - في الآيات محل البحث - منهجه وخطّته في خمسة أوامر، في مواجهة المشركين...

وقبل كل شيء فإن الله يدعو النبي ﷺ إلى الاعتقاد التام بالتوحيد؛ التوحيد الذي هو أساس دعوات الأنبياء جميعاً... يقول سبحانه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾...

ومع أنّ النبيّ ﷺ كان من المقطوع به أنّه ينادي إلى التوحيد ولا يمكن أن يُتصور انحرافه عن هذا الأصل... إلاّ أنّ أهمية هذه المسألة كانت بحيث أن يكون شخص النّبي ﷺ - قبل كل شيء - مخاطباً بها. ليعرف الآخرون موقفهم... ثمّ إنّ بناء الآخرين يبدأ من بناء شخصية الإنسان نفسهِ...

ثمّ يأمره الله في مرحلة أُخرى أن ينطلق إلى مدى أرحب في دعوته قائلاً: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾(١).

(١) العشيرة مشتقّة من «العشرة» العدد المعروف [١٠] وحيث إنّ العشرة تعتبر في نفسها عدداً كاملاً، فقد سمي أقرباء الرجل الذين يكمل بهم عشيرة، ولعل المعاشرة مأخوذة من هذا المعنى، لأنّها تجعل الناس بصورة مجموعة كاملة.

ولا شكّ أنّه للوصول إلى منهج تغييري ثوري واسع، لابدّ من الابتداء من الحلقات الأدنى والأصغر، فما أحسن أن يبدأ النّبي دعوته من أقربائه وأرحامه، لأنّهم يعرفون سوابقه النزيهة أكثر من سواهم كما أنّ علائق القربى والمودّة تستدعي الاصغاء إلى كلامه أكثر من غيرهم، وأن يكونوا أبعد من سواهم من حيثُ الحسد والحقد والمخاصمة!

إضافة إلى ذلك فإنّ هذا الأمر يدلّ على أنّ النّبي ﷺ ليس لديه أية مداهنة ولا مساومة مع أحد، ليستثني أقرباءه المشركين عن دعوته إلى التوحيد والحق والعدل! . . .

وعندما نزلت هذه الآية، قام النّبي بما ينبغي عليه من أجل تنفيذ هذا الأمر الإلهي، وسيأتي تفصيل ذلك كله في حقل البحوث بإذن الله. . .

أمّا المرحلة الثّالثة، فإنّ الله يوصي النّبي في دائرة أوسع فيقول: عليك أن تعامل أتباعك باللطف والمحبة: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

وهذا التعبير الجميل الرائع كناية عن التواضع المشفوع بالمحبة واللطف، كما أنّ الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبّة منها لها، وتجعلها تحت أجنحتها لتكون مصانةً من الحوادث المحتملة، ولتحفظها من التشتت والتفرّق! فكذلك الأمر بالنسبة للنّبي إذ أُمِرَ أن يخفض جناحه للمؤمنين الصادقين.

وهذا التعبير الرائع ذو المعنى الغزير يبيّن دقائق مختلفة في شأن محبة المؤمنين، ويمكن إدراكها بأدنى التفاتة! . . .

وذكر هذه الجملة - ضمناً - بعد مسألة الإنذار يكشف عن هذه الحقيقة، وهي إذا كان التعويل على الخشونة في بعض الموارد بمقتضى الضرورات التربوية، فإنّه وبلا فاصلة يأتي التعويل على المحبّة والعاطفة ليتوفر منهما نمط مناسب. . .

ثمّ تأتي المرحلة الرّابعة وهي أنّ الأعداء لم يقبلوا دعوتك وعصوا أوامرك. فلا تبتئس ولا تحزن: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾. . . ليعرفوا موقفك منهم!

والظاهر أنّ الضمير في عصوك - يعود على عشيرة النّبي ﷺ الأقربين. . . أي إذا لم يذعنوا بعد دعوتك إياهم للحق، وواصلوا شركهم وعنادهم، فعليك أن تبيّن موقفك منهم، وهذا التوقع الذي احتمله القرآن حدث فعلاً، كما سنذكر ذلك في البحوث القادمة، إذ امتنع الجميع عن قبول دعوة النّبي ما عدا علياً عليه السلام. . . فبعضهم لاذ بالصمت، وبعضهم أبدى مخالفته عن طريق الاستهزاء والسخرية. . .

وأخيراً فالأمر الإلهي الخامس للنّبي لإكمال مناهجه السابقة، هو: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

فلا تدع لعنادهم مجالاً للتأثير على عزيمتك... ولا لقلّة الأعوان والأنصار طريقاً لتوهين إرادتك، فلست وحدك... وسندك وملاذك هو الله القادر العزيز الذي لا يقهر، والرحيم الذي لاحدّ لرحمته...

الله الذي سمعت وصفه في ختام قصص الأنبياء بالعزيز الرحيم!...

الله الذي بقدرته أحبط ظلم فرعون وغرور نمرود، وتمرّد قوم نوح، وأنانية قوم هود، واتّباع الشهوات لقوم لوط، وكذلك انقذ أنبياءه ورسله الذين كانوا قلّة، وشملهم برحمته الواسعة.

ذلك الله ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾.

أجل ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾...

وهكذا تذكر الآيات ثلاث صفات لله بعد وصفه بالعزيز الرحيم وكلّ منها يمنح الأمل ويشدّ من عزم النّبي على مواصلة طريقةِ، إذ إن الله يرى جهوده وأتعابه وحركاته وسكناتهِ، وقيامه وسجوده وركعاته!...

ذلك الله الذي يسمع صوته.

الله الذي يعلم حاجاته وطلباته حاجته...

أجل، فعلى هذا الإله توكل، واركن إليه أبداً.

بحثان

١ - تفسير ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

بين المفسّرين أقوال مختلفة في معنى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾.

وظاهر الآية هو ما ذكرناه آنفاً، أنّ الله يرى قيامك وانتقالك وحركتك بين الساجدين.

وهذا القيام يمكن أن يكون قياماً للصلاة، أو القيام للعبادة من النوم، أو القيام للصلاة فرادى، وفي مقام تقلبك في الساجدين... الذي يشير إلى صلاة الجماعة.

«التقلب» معناه الحركة والانتقال من حال إلى حال، وهذا التعبير لعله إشارة إلى سجود النبيّ بين الساجدين في أثناء الصلاة، أو إلى حركة النّبي وتنقله بين أصحابه وهم مشغولون بالعبادة، وكان يتابع أحوالهم ويسأل عنهم. . .

وفي المجموع فإنّ هذا التعبير إشارة إلى أن الله سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من حالاتك وسعيك، سواءً كانت شخصيّة فردية، أم كانت مع المؤمنين في صورة جماعية، لتدبير أُمور العباد ولنشر مبدأ الحق مع الالتفات إلى أنّ الأفعال الواردة في الآية مضارعة وفيها معنى الحال والاستقبال».

وهنا تفسيران آخران ذكرا في معنى الآية، إلاّ أنّهما لا ينسجمان مع ظاهرها، ولعلهما من بطون الآية:

الأوّل: أنّ المراد من الآية رؤية النّبي ونظره إلى المصلين والساجدين خلفه، لأنّه كما يرى من أمامه يرى من خلفه كما ورد في الحديث: «لا ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي، فإنّي أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي»(١) ثمّ تلا النّبي ﷺ الآية آنفة الذكر.

الثّاني: أنّ المراد منه أنّ الانتقال في أصلاب النبيّين من لدن آدم حتى أبيه عبد الله، كلّه تحت نظر الله سبحانه، أي حين تنتقل نطفتك المباركة من نبيّ موحد ساجد إلى ساجد آخر فإن الله عليم بذلك. . .

وقد جاء في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ما يشير إلى هذا المعنى، قال عليه السلام: «في أصلاب النبيين صلوات الله عليهم»(٢).

وفي تفسير مجمع البيان في توضيح هذه الجملة جاء عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ما يلي: «في أصلاب النبيين نبيّ بعد نبيّ، حتى أخرجه من صلب أبيه، عن نكاح غير سفاح من لدن آدم»(٣).

وبالطبع فإنّه بقطع النظر عن الآيات آنفة الذكر وتفسيراتها، فإنّ الدلائل المتوفرة تدلّ على أن والد النّبي وأجداده لم يكونوا مشركين أبداً، وولدوا في محيط منزّه عن الشرك

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٢٠٧، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٦٩.
(٣) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٢٠٧، ذيل الآيات مورد البحث.

والدنس» لمزيد الإيضاح يراجع تفسير الآية، ٧٤ من سورة الأنعام» إلاّ أنّ التفاسير الآنفة هي من بطون الآية. . .

٢ - إنذار الأقربين «حديث يوم الدار»

وفقاً لما ورد في التواريخ الإسلامية، أُمر النّبي في السنة الثّالثة بدعوته الأقربين من عشيرته، لأنّ دعوته حتى ذلك الحين كانت مخفية «سريّة»، وكان الذين دخلوا في الإسلام عدداً قليلاً، لذلك حين نزلت الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ والآية ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١) أمر النّبي أن يجعل دعوته علنية، وبدأ ذلك بدعوة أهله وأقربائه(٢).

وأمّا كيفية إبلاغه وإنذاره إيّاهم، فهو بإجمال أنّه دعا النبيّ «عشيرته» إلى بيت عمّه أبي طالب، وكانوا في ذلك اليوم حوالي أربعين رجلاً، وكان ممن حضر هذه الدعوة بعض أعمام النّبي ﷺ كأبي طالب والحمزة وأبو لهب والعباس، وبعد أن تناولوا الطعام، وأراد النّبي أن يؤدّي ما عليه، تكلم أبو لهب كلمات أحبط بها خطة النّبي ﷺ، لذا فقد دعاهم النّبي في اليوم التالي أيضاً.

وبعد أن تناولوا الطعام، قال ﷺ: «يا بني عبد المطلب، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم بخير الدنيا والآخرة. . . وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على أمري هذا، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟» فأحجم القوم عنه غير علي، وكان أصغرهم ﴿سِنًّا﴾، فقال: «يا نبيّ الله، أنا أكون وزيرك عليه»، فأخذ رسول الله برقبته، وقال: «إنّ هذا وصييّ وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا» فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع(٣).

وقد نقل هذا الحديث كثير من أهل السنة كابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والثعلبي، كما نقله «ابن الأثير» في الجزء الثّاني من كتابه «الكامل»، وأبو الفداء في الجزء الأوّل من تأريخه، وجماعة آخرون(٤).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٩٤. (٢) راجع سيرة ابن هشام، ج ١، ص ٢٨٠.
(٣) المراجعات، ص ١٣٠.
(٤) لمزيد الإيضاح يراجع كتاب المراجعات، ص ١٣٠ فما بعد وكتاب إحقاق الحق، ج ٤، ص ٦٢.

وهذا الحديث يوضح لنا كيف كان النّبي وحيداً حينذاك، وكيف ردّوا عليه دعوته بالسخرية والاستهزاء، وكيف وقف علي عليه السلام إلى جانب النّبي في وحدته ناصراً ومعيناً. . .

وفي حديث آخر أنّ النّبي دعا قريشاً واحداً واحداً وحذّرهم من النار فقال: «يا بني كعب انقذوا أنفسكم من النار».

وكان يدعو أحياناً بهذا الخطاب بني عبد شمس، وبني عبد مناف، وبني عبد المطلب، وبني هاشم فيقول: «انقذوا أنفسكم من النار»[1]. فلست قادراً على الدفاع عنكم في حال كفركم.

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

التّفسير

النّبي ليس شاعراً

هذه الآيات - محل البحث - هي آخر الآيات من سورة الشعراء، تعود ثانية لتردّ على الاتهام السابق - من قبل الأعداء - بأنّ القرآن من إلقاء الشياطين، تردهم ببيان أخاذ بليغ مفحم، فتقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي الكاذب المذنب، حيث يلقون إليهم ما يسمعونه مع إضافة أكاذيب كثيرة عليه ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾[2].

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٨٥٩ ذيل الآيات مورد البحث مع شيء من الاختصار.

(٢) «أفاك» من: «الإفك». والإفك هو الكذب الكبير. فمعنى الأفاك من يكذب كثيراً أكاذيب كبيرة. . . و«أثيم» من مادة «إثم» على وزن (اسم) ومعناه في الأصل: العمل الذي يؤخر صاحبه عن الثواب، ويطلق عادة على الذنب، فالأثيم هو المذنب. . .

وملخص الكلام أن ما تلقيه الشياطين له علائم واضحة، ويمكن معرفته بعلائمه أيضاً. فالشيطان موجود مؤذ ومخرب، وما يلقيه يجري في مسير الفساد والتخريب، وأتباعه هم الكذابون المجرمون، وليس شيء من هذه الأمور ينطبق على القرآن، ولا على مبلّغه، وليس فيها أي شبه بهما.

والناس في ذلك العصر - وذلك المحيط - كانوا يعرفون النّبي محمّداً ﷺ وأُسلوبه وطريقته، في صدقه وأمانته وصلاحه في جميع المجالات... ومحتوى القرآن ليس فيه سوى العدل والحق والإصلاح، فكيف يمكن أن تتهموه بأنّه من إلقاء الشياطين؟!

والمراد من ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هو الكاهن المرتبط بالشياطين فتارةً يقوم الشياطين باستراق السمع لأحاديث الملائكة، ثمّ بعد مزجه بأباطيل كثيرة ينقلونه إلى الكهنة. وهم بدورهم يضيفون عليه عشرات الأكاذيب وينقلونها إلى الناس...

وبعد نزول الوحي خاصّة، ومنع الشياطين من الصعود إلى السماء واستراق السمع، كان ما يلقيه الشياطين إلى الكهنة حفنَةً من الأكاذيب والأراجيف...

فمع هذه الحال كيف يمكن أن يقاس محتوى القرآن بما تلقيه الشياطين... وأن يقاس النّبي الصادق الأمين بحفنة من الكهنة الأفاكين الكاذبين!؟...

وهناك تفاسير مختلفة لجملة ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾:

فمنها: أن الضمير في ﴿يُلْقُونَ﴾ عائد على الشياطين و«السمع» المراد منه المسموعات، أي أنّ الشياطين يلقون مسموعاتهم إلى أوليائهم وأكثرهم كاذبون «ويضيفون على ما يلقيه الشياطين أكاذيب كثيرة!»...

ومنها: إنّ الضمير في الفعل يعود على الأفاكين، إذ إنّهم كانوا يلقون - ما يسمعون من الشياطين - إلى عامّة الناس، إلاّ أنّ التّفسير الأوّل أصح ظاهراً(١)!

وفي الآية الرّابعة - من الآيات محل البحث - يردّ القرآن على اتهام آخر كان الكفّار يرمون به النّبي فيدعونه شاعراً، كما في الآية (٥) من سورة الأنبياء ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وربما دعوه بالشاعر المجنون، كما جاء في الآية (٣٦) من سورة الصافات ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾.

---

(١) لأنّ ﴿يُلْقُونَ﴾ في مثل هذه الموارد معناها نقل الأخبار والمطالب، كما جاء في الآية (٥٣) من سورة الحج ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ وجملة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ تتناسب مع الشياطين، لأنّ الأفاكين كلهم كاذبون لا أكثرهم (فلاحظوا بدقة).

فالقرآن يردهم هنا ببيان بليغ منطقي، بأنّ منهج النّبي يختلف عن منهج الشعراء. فالشعراء يتحركون في عالم من الخيال، وهو يتحرك على أرض الواقع والواقعيات، لتنظيم العالم الإنساني...

والشعراء يبحثون عن العيش واللذة والغزل (كما هي الحال بالنسبة لشعراء ذلك العصر في الحجاز خاصّة حيث يظهر ذلك من أشعارهم بوضوح).

ولذا فإن أتباعهم هم الضالون: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾.

ثمّ يضيف القرآن على الجملة آنفة الذكر معقّباً ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾[(١)].

فهم غارقون في أخيلتهم وتشبيهاتهم الشعرية، حتى أنّ القوافي تجرهم إلى هذا الاتجاه أو ذاك، ويهيمون معها في كل واد...

وهم غالباً ليسوا أصحاب منطق واستدلال، وأشعارهم تنبع ممّا تهيج به عواطفهم وقرائحهم... وهذه العواطف تسوقهم في كل آن من وادٍ لآخر!...

فحين يرضون عن أحد يمدحونه ويرفعونه إلى أوج السماء، وإن كان حقه أن يكون في أسفل السافلين، ويُلبسونه ثوب الملاك الجميل وإن كان شيطاناً لعيناً...

ومتى سخطوا على أحد هجوه هجواً مرّاً وأنزلوه في شعرهم إلى أسفل السافلين، وإن كان موجوداً سماوّياً.

تُرى هل يُشبه محتوى القرآن الدقيق المنطلقات الشعرية أو الفكرية للشعراء وخاصّة شعراء ذلك العصر، الذين لم تكن منطلقاتهم إلاّ وصف الخمر والجمال والعشق والمدح لقبائلهم وهجو أعدائهم...

ثمّ إن الشعراء عادةً هم رجال خطابة وجماهير لا أبطال قتال، وكذلك أصحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإنّ الآية التالية تضيف فتقول عنهم: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

غير أنّ النّبي الكريم ﷺ رجل عمل من قرنه إلى قدمه، وقد اعترف بعزمه الراسخ واستقامته العجيبة حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النّبي ﷺ؟!

وممّا تقدم من الأوصاف التي ذكرها القرآن عن الشعراء، يمكن أن يقال بأنّ القرآن وصفهم بثلاث علامات:

الأولى: أنّهم يتبعهم الغاوون الضالون، ويفرّون من الواقع، ويلجأون إلى الخيال.

---

(١) «يهيمون» فعل مضارع من «الهيام»، ومعناه المشي بلا هدف...

والثّانية: أنّهم رجال لا هدف لهم، ومتقلّبون فكرياً، وواقعون تحت تأثير العواطف!

والثّالثة: أنّهم يقولون ما لا يفعلون... وحتى في المجال الواقعي لا يطبقون كلامهم على أنفسهم...

إلاّ أنّه لا شيء من هذه الأوصاف يصدق على النّبي، فهو في الطرف المقابل لها تماماً!

ولمّا كان بين الشعراء أناس مخلصون هادفون وأهل أعمال لا أقوال، ودعاة نحو الحق والصدق «وإن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلاً يومئذ». فالقرآن من أجل أن لايضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون في شعرهم أهدافاً إلهية وإنسانية، ولا يغرقون في الأشعار فيغفلون عن ذكر الله، بل كما يقول القرآن: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وأشعارهم تذكر الناس بالله أيضاً... وإذا ما ظُلموا كان شعرهم انتصاراً للحق ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

فإذا هجوا جماعة هجوهم من أجل الحق ودفاعاً عن الحق الذي يهجوه أُولئك فيذبون عنه...

وهكذا فقد بيّن القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، وهي الإيمان، والعمل الصالح، وذكر الله كثيراً، والانتصار للحق من بعد ما ظلموا، مستعينين بشعرهم في الذب عنه...

وحيث إنّ معظم آيات هذه السورة هو للتسلية عن قلب النّبي، والتسرية عنه، وعن المؤمنين القلّة في ذلك اليوم في قبال كثرة الأعداء، وحيث إنّ كثيراً من آيات هذه السورة في مقام الدفاع عن النّبي ﷺ ضد التُّهم الموجهة إليه من قبل أعدائه، وغير اللائقة به - فإنّ السورة تُختتم بجملة ذات معنى غزير، وفيها تهديد لأولئك الأعداء الألدّاء، إذ تقول: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين أرادوا أن يحصروا هذا الانقلاب والعاقبة المرة للظالمين بنار جهنمَّ... إلاّ أنّه لا دليل على تقييد ذلك وتحديده بها... بل لعله إشارة إلى هزائمهم المتتابعة والمتلاحقة في المعارك الإسلامية، كمعركة بدر وغيرها، وما

أصابهم من ضعف وذلة في دنياهم، فمفهوم هذه الآية عام، بالإضافة إلى ذلك عذابهم وانقلابهم إلى النار في آخر المطاف.

بحوث

١ - لِمَ كانوا يتهمون النّبي بالشعر؟

إنّ واحدةً من التهم التي كانت توجه للنّبي ﷺ هي الشعر، وأنّه شاعر، فالآيات - آنفة الذكر - كانت رداً على هذا الاتهام أيضاً...

لقد كانوا يعرفون جيداً أنّ القرآن ليس له أقل شَبَه بالشعر، لا من حيث الشكل والظاهر ولا من حيث المحتوى، فالشعر فيه وزن وقافية وأبيات مشطرة، وليس كذلك القرآن. والشعر فيه تخيّل وتشبيهات كثيرة وغزل ممّا ليس في القرآن أيضاً.

إلاّ أنّهم حيث كانوا يرون أثر القرآن الكبير في جذب أفكار الناس وإيقاعه الخاص في قلوبهم، فلإلقاء الستار على هذا النور الإلهي، سموه «سحراً» تارةً، لأنّه كان ذا نفوذ وتأثير «خفي» في الأفكار، ودعوه «شعراً» تارة أُخرى لأنّه كان يهزّ القلوب ويأخذها معه!

لقد أرادوا أن يذموا القرآن فمدحوه بهذا الكلام، وكان كلامهم سنداً ودليلاً حياً على نفوذ القرآن الخارق للعادة في أفكار الناس وفي قلوبهم.

يقول القرآن في تنزيه النّبي عن الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾(١).

٢ - الشعر والشاعرية في الإسلام

لا شك أن الذوق الشعري والفن الشاعري كسائر رؤوس الأموال، له قيمته في صورة ما لو استعمل استعمالاً صحيحاً وله أثر إيجابي... إلاّ أنّه إذا صار وسيلة تخريب وهدم للبناء العقائدي والأخلاقي في المجتمع، فلا قيمة له، بل يعتبر وسيلة ضارة عندئذ...

فالشعر ينبغي أن يؤدّي دورة في وجود الإنسان ليكون ذا قيمة كبرى، وأن لا يسوق الناس نحو الخيال أو الضياع أو الإشغال دون جدوى، لأنّه سيكون وسيلة للضرر والإضرار.

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٦٩، ٧٠.

ويتّضح بهذا الجواب على السؤال التالي:

ماذا يفهم من الآيات المتقدمة، هل الشاعريّة أمرٌ حسن أو غير حسن، وهل يوافق الإسلام الشعر أو يخالفه؟!

فالجواب على ذلك أن تقويم[(١)] الإسلام في هذا المجال قائم على الأهداف والوجوه والنتائج... وكما قال الإمام علي عليه السلام حين كان بعض أصحابه يتكلمون على مائدة الإفطار في إحدى ليالي شهر رمضان، وجرى كلامهم في الشعر والشعراء، فخاطبهم أمير المؤمنين علي عليه السلام قائلاً: «اعلموا أن ملاك أمركم الدين، وعصمتكم التقوى، وزينتكم الأدب وحصون أعراضكم الحلم»[(٢)].

فكلام الإمام علي عليه السلام إشارة إلى أنّ الشعر وسيلة... ومعيار تقويمه الهدف الذي قيل من أجله!...

إلاّ أنّه - وللأسف - استغلّ الشعر على امتداد تاريخ آداب الأُمم والملل لأغراض سيئة، وتلوّث هذا الذوق الإلهي اللطيف، فسقط في الوحل بسبب البيئة الفاسدة، وبلغ الشعر أحياناً درجة من الانحطاط بحيث صار من أهم عوامل الفساد والتخريب، ولا سيما في العصر الجاهلي الذي كان عصر انحطاط الفكر العربي وأخلاقِه! فكان الشعر والشراب والغارات بعضها إلى جنب بعض ممّا مميزات ذلك العصر!

ولكن من يستطيع أن ينكر هذه الحقيقة، وهي أنّ الأشعار البنّاءة والهادفة على امتداد التاريخ، خلقت طاقات كثيرة وحماسة قصوى، وربّما عبأت أُمة مغلوبة بوجه أعدائها، فشدتها على العدوّ فهزمته وانتصرت «بهذه الأشعار».

وفي فترة نضوج الثورة الإسلامية رأينا بأمِّ أعيننا كيف أثرت الأشعار الحماسية في نفوس الناس، فحركتهم وأثارتهم حتى جرت دماء الثورة في مفاصلهم، وجعلتهم صفاً واحداً وزلزلت قصور الأعداء وهزمتهم...

كما نسأل: من يستطيع أن ينكر أن شعراً أخلاقياً ينفذ في أعماق الإنسان ويغيّر محتواه لدرجةٍ لا يبلغها كتاب علمي غزيز المحتوى...

---

(١) «التقويم» له معان متعددة منها تقويم الأود أي إقامة الاعوجاج، وتقويم الشيء إعطاء قيمته أو معرفتها، وهو هنا بهذا المعنى. وما يجري على ألسنة الكتاب وأقلامهم بلفظ (تقييم) خطأ مشهور وغير صحيح (المصحح).

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ج ٢٠، ص ٤٦١.

أجل، إنّ الشعر كما قال عنه النّبي ﷺ «إنّ من الشعر لحكمة وإنّ من البيان لسحراً»[(١)].

وللكلمات الموزونة وإيقاعها - أحياناً - مضاء السيف ونفوذ السهم في قلب العدو...

ففي بعض أحاديث الرّسول ﷺ - في مثل هذه الأشعار - أنّه قال: «... والذي نفس محمد بيده فكأنّما تنضحونهم بالنبل»[(٢)].

أجل... قال النّبي ذلك حين كان العدو يهجو المسلمين ليضعف معنوياتهم وروحيّاتهم، فأمر النّبي شعراء المسلمين أن يردّوا عليهم بالهجاء المقذع، لتقبيح أعمالهم وتقوية روحيّة المسلمين.

وقال ﷺ في شأن أحد الشعراء المدافعين عن الإسلام: «اهجُهُمْ فإنّ جبرئيل مَعَكَ»[(٣)].

وخاصّة حين سأل كعب بن مالك «الشاعر المؤمن» الذي كان ينشد قصائد في تقوية الإسلام - وكانت الآيات قد نزلت في ذم الشعراء - فقال يا رسول الله: ما أصنع؟! فقال ﷺ: «إنّ المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه»[(٤)].

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ثناء كثير للشعر والشعراء الهادفين والدعاء لهم وإيصال الجوائز إليهم، بحيث يطول الكلام في ذلك «إن أردنا نقل الروايات عنهم».

إلاّ أنّه من المؤسف أنه على طول التاريخ أسقط جماعة هذه المنحة الإلهية والذوق اللطيف، الذي هو من أجمل مظاهر الخلق، فأنزلوه من الذروة إلى الحضيض، وكذبوا فيه كثيراً حتى قيل في المثل المعروف: «أعذبه أكذبه».

وربّما سخّروه في خدمة الجبابرة والظالمين وتملّقوا لهم، رجاء صلة محتقرة رخيصة...

أو أنّهم أفرطوا في وصف الشراب والفجور والفسق أحياناً، إلى درجة يخجل القلم عن ذكرها!

---

(١) نقل حديث الرّسول هذا جماعة كثيرة من علماء الشيعة والسنة في كتبهم «يراجع كتاب الغدير، ج ٢، ص٩».

(٢) مسند أحمد، ج ٣، ص ٤٦٠.

(٣) مسند أحمد، ج ٤، ص ٢٩٩.

(٤) تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٨٦٩.

وربّما أشعلوا الحروب بنيران أشعارهم، وجروا الناس إلى القتل والغارات، ولطّخوا الأرض بدماء الأبرياء.

إلاّ أنّ في الطرف الآخر - وفي قبالهم - الشعراء الذين آمنوا بمبدئهم، واشتدت همتهم، فسخّروا هذه القريحة الملكوتية في سبيل حرية الناس والتقوى، ومواجهة اللصوص والمستكبرين والجبابرة، فبلغوا أوج الفخر!

وربّما دافعوا عن الحق فاشتروا بكل بيت من أبيات شعرهم بيتاً في الجنّة[1].

وربّما وقفوا في وجوه حكام الظلم والجور كبني أمية وبني العباس الذين كانوا يحبسون الأنفاس في الصدور، فتُجلى القلوب بقصيدة كقصيدة دعبل «مدارس آيات خلت من تلاوة» وأماطوا عن الحقّ لثام الباطل، فكأنّما كان يجري على لسانهم روح القدس[2].

وربّما أنشدوا الأشعار لإنهاض المضطهدين الذين كانوا يحسّون في أنفسهم الاحتقار والازدراء من قبل الظلمة... فهاجوهم وأثاروهم بتلك الأشعار...

والقرآن يقول في شأن هؤلاء: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

ممّا يلفت النظر أن هؤلاء الشعراء قد يتركون شعراً خالداً مؤثراً بليغاً... حتى أنّ أئمّة الإسلام الكرام - كما تقول بعض الرّوايات - أوصوا شيعتهم وأصحابهم بحفظ أشعارهم كما ورد ذلك في شأن «أشعار العبدي». إذ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «يا معشر الشيعة، علموا أولادكم شعر العبدي، فإنّه على دين الله»[3].

ونختتم هذا البحث بقصيدة للعبدي، وهي من قصائده المعروفة، في شأن خلافة الإمام علي عليه السلام وصيّ النّبي صلى الله عليه وآله إذ قال:

وقالوا رسول الله ما اختار بعده ... إماماً ولكنّا لأنفسنا اخترنا
أقمنا إماماً إن أقام على الهدى ... أطعنا وإن ضل الهداية قوّمنا

(١) جاء عن الإمام الصادق أنّه قال: «من قال فينا بيتَ شعر بنى الله له بيتاً في الجنّة»، «الغدير، ج ٢، ص٣».

(٢) في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما قال فينا قائل بيت شعر حتى يؤيد بروح القدس» «عيون أخبار الرضا»...

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧١.

فقلنا إذا أنتم إمام إمامكم ... بحمد من الرحمن تهتم ولا تهنا
ولكننا اخترنا الذي اختار ربّنا ... لنا يوم خم ما اعتدينا ولا حلنا
ونحن على نور من الله واضح ... فيا ربّ زدنا منك نوراً وثبتنا(١)

٣ - ذِكْرُ الله

قرأنا في الآيات - آنفة الذكر - أنّ من خصائص الشعراء الهادفين هو أنّهم يذكرون الله كثيراً. . .

ونقرأ في بعض الأحاديث المرويّة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه يقول: قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ما هذا الذكر الكثير؟ قال: «من سبّح تسبيح فاطمة الزهراء عليها السلام فقد ذكر الله الذكر الكثير»(٢).

كما جاء عنه عليه السلام أنّه قال: من أشدّ ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً. . . ثمّ قال عليه السلام: «لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، وإن كان منه، ولكن ذكر الله عِنْدَما أحلّ وحرّم! فإن كان طاعةً عمل بها، وإن كان معصيةً تركها!»(٣).

ربّنا، املأ قلوبنا بذكرك، لنختار ما يرضيك، ونترك ما يسخطك. . .

ربّنا، اجعل ألسنتنا بليغة، وأقلامنا سيّالة، وقلوبنا مليئة بالإخلاص، لنستعمل ذلك في سبيلك وابتغاء رضوانك، آمين ربّ العالمين.

---

(١) الكنى والألقاب، ج ٢، ص ٤٥٥.
(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٣، نقلاً عن أُصول الكافي، ج٢، ص٨٠.
(٣) المصدر السابق.

سُورَةُ النَّمل ٢٧

مكيّة وعدد آياتها ثلاث وتسعون

محتوى سورة النّمل

هذه السورة نزلت بمكّة - كما ذكرنا آنفاً - والمعروف أنّها نزلت بعد سورة الشعراء.

ومحتوى هذه السورة - بصورة عامّة - كمحتوى سائر السور المكّية، فأكثر اهتمامها - من الوجهة الاعتقادية - ينصبّ على المبدأ والمعاد... وتتحدث عن الوحي والقرآن وآيات الله في عالم الإيجاد والخلق، وكيفية المعاد والقيامة؟

وأمّا من ناحية المسائل العملية والأخلاقية، فالقسم الكبير منها يتحدث عن قصص خمسة أنبياء كرام ومواجهاتهم لأُممهم المنحرفة، لتكون هذه السورة تسلية للمؤمنين القلّة بمكّة في ذلك اليوم، وفي الوقت ذاته تكون إنذاراً للمشركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم في صفحات تاريخ الظلمة الماضين، فلعلهم يحذرون ويرجعون إلى الرشد.

وأحد خصائص هذه السورة هي بيان قسم مهم من قصّة النّبي سليمان عليه السلام وملكة سبأ، وكيفية إيمانها بالتوحيد، وكلام الطير - كالهدهد، والحشرات كالنمل - مع سليمان عليه السلام.

وهذه السورة سُمّيت سورة «النمل» لورود ذكر النمل فيها، والعجيب أنّها سمّيت بسورة «سليمان» كما في بعض الرّوايات «والنمل أُخرى» وسليمان أحياناً، وكما سنلاحظ... فإنّ هذه التسميات للسور ليست اعتباطاً، بل هي مدروسة ودقيقة في تسميتها، فهي من تعليمات النّبي صلى الله عليه وآله، وتكشف عن حقيقة مهمّة يغفل عنها الناس في الظروف الاعتيادية!.

وتتحدث هذه السورة ضمناً عن علم الله غير المحدود، وهيمنته وسلطانه على كل شيء في عالم الوجود، وحاكميته على عباده... والالتفات إلى ذلك له أثره الكبير في المسائل التربوية للإنسان.

وتبدأ هذه السورة بالبشرى وتنتهي بالتهديد، فالبشرى للمؤمنين، والتهديد للناس بأنّ الله غير غافل عن أعمالكم.

فضيلة سورة النّمل

جاء في بعض أحاديث النّبي ﷺ أنّه قال: «من قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق سليمان وكذّب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادي لا إله إلاّ الله»(١).

وبالرغم من أنّ هذه السورة تتحدث عن موسى وسليمان وداود وصالح ولوط، وليس فيها كلام عن هود وشعيب وإبراهيم، إلاّ أنّه حيث إنّ جميع الأنبياء سواءٌ في دعوتهم إلى الله - فلا مجال لأن نعجب من هذا التعبير.

وورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سور الطواسين الثلاث «يعني سور الشعراء والنمل والقصص» في ليلة جمعة كان من أولياء الله وفي جواره وكنفه، ولم يصبه في الدنيا بؤس أبداً، وأعطي في الآخرة من الجنّة حتى يرضى وفوق رضاه، وزوجه الله مائة زوجة من الحور العين»(٢).

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ (١) هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)﴾

التّفسير

القرآن مُنزَل من لدن حكيم عليم

نواجه مرّة أُخرى - في بداية هذه السورة - الحروف المقطّعة من القرآن (طس).

وبملاحظة أنّ ما بعدها مباشرة هو الكلام عن عظمة القرآن، فيبدو أنّ واحداً من أسرار هذه الحروف هو أنّ هذا الكتاب العظيم والآيات البيّنات منه، كل ذلك يتألف من

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٢٠٩، ذيل الآيات وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص ٧٤.
(٢) «ثواب الأعمال» نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٤.

حروف بسيطة. . . وإنّ الجدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجد لهذا الأثر البديع من حروف بسيطة كهذه الحروف.

وكان لنا في هذا الشأن بحوث مفصّلة في بداية سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الأعراف.

ثمّ يضيف القرآن قائلاً: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ والإشارة للبعيد بلفظ (تلك) لبيان عظمة هذه الآيات السماوية، والتعبير بـ(المبين) تأكيد على أنّ القرآن واضح بنفسه وموضح للحقائق أيضاً(١).

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين احتمل أنّ التعبير بـ﴿ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ إشارة إلى معنيين مستقلين، وأنّ «الكتاب المبين» يراد منه اللوح المحفوظ. . . . إلاّ أنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ كلاهما لبيان حقيقة واحدة، فالأوّل في ثوب الألفاظ والتلاوة، والثّاني في ثوب الكتابة والرسم.

وفي الآية التالية وصفان آخران للقرآن إذ تقول: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

وهكذا فإنّ اعتقاد المؤمنين راسخ في شأن المبدأ والمعاد، وارتباط متين بالله وخلقه أيضاً. . . فالأوصاف المتقدمة تشير إلى اعتقادهم الكامل ومنهجهم العملي الجامع!.

وهنا ينقدح سؤال وهو: إذا كان هؤلاء المؤمنون قد اختاروا الطريق السوي، من حيث المباني الاعتقادية والعملية، فما الحاجة لأن يأتي القرآن لهدايتهم؟!

ويتّضح الجواب بملاحظة أنّ الهداية لها مراحل مختلفة، وكل مرحلة مقدمة لما بعدها، .

ثمّ إنّ استمرار الهداية مسألة مهمّة، وهي ما نسألُها الله سبحانه ليل نهار بقولنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ليثبتنا في هذا المسير، ويجعلنا مستمرين فيه بلطفه، فلولا لطفه لما كان ذلك ممكناً لنا. . .

وبعد هذا كلّه، فالإفادة من آيات القرآن والكتاب المبين هي نصيب أُولئك الذين فيهم القابلية على معرفة الحق وطلب الحق، وإن لم يبلغوا مرحلة الهداية الكاملة. . . وإذا ما

(١) «المبين» مشتق من (الإبانة) وكما يقول بعض المفسّرين «كالآلوسي في روح المعاني»: إنّ هذه المادة قد يأتي فعلها لازماً، وقد يأتي متعدياً ففي الصورة الأُولى يكون مفهوم المبين هو الواضح والبيّن، وفي الصورة الثّانية يكون مفهومه الموضح!

وجدنا التعبير في بعض آيات القرآن بأنّه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ «كما في الآية ٢ من سورة البقرة» وفي مكان آخر (للمسلمين) «كما في الآية ١٠٢ من سورة النحل» وهنا ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنّ ذلك ناشىء من أنّه إذا لم يكن في قلب الإنسان أدنى مرحلة من التقوى والتسليم والإيمان بالواقع، فإنّه لا يتجه نحو الحق، ولا يبحث عنه، ولايفيد من نور هذا الكتاب المبين. . . لأنّ قابلية المحل شرط أيضاً.

ثمّ بعد ذلك فإنّ الهدى والبشرى مقترنين معاً. . وهما للمؤمنين فحسب، وليس للآخرين مثل هذه المزية. . .

ومن هنا يتّضح مجيء التعبير بالهداية بشكل واسع لعموم الناس ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾[1] فإنّ المراد منه أُولئك الذين تتوفر فيهم الأرضيّة المناسبة لقبول الحق، وإلاّ فإنّ المعاندين الألداء، عُماة القلوب، لو أشرقت عليهم آلاف الشموس بدل شمسنا هذه ليهتدوا، لما اهتدوا أبداً.

وتتحدّث الآية التالية عن الأشخاص في المقابلة للمؤمنين، وتصف واحدة من أخطر حالاتهم فتقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾. أي حيارى في حياتهم.

فهم يرون الملوّث نقيّاً، والقبيح حسناً، والعيب فخراً، والشقاء سعادةً وانتصاراً!.

أجل، هذا حال من يسلك الطريق المنحرف ويتوغل فيها. . . فواضح أنّ الإنسان حين يقوم بعمل قبيح، فإنّ قبحه يخف تدريجاً، ويعتاد عليه، وعندما يتطبع عليه يوجههُ ويبرّره، حتى يبدو له حسناً ويعدّه من وظائفه! وما أكثر الذين تلوثت أيديهم بالأعمال الإجرامية. . . وهم يفتخرون بتلك الأعمال ويعدّونها أعمالاً إيجابيّة.

وهذا التغير في القِيم، أو اضطراب المعايير في نظر الإنسان، يؤدّي إلى الحيرة في متاهات الحياة. . . وهو من أسوأ الحالات التي تصيب الإنسان.

والذى يلفت النظر أنّ «التزيين» في الآية محل البحث - وفي آية أُخرى من القرآن، وهي الآية (١٠٨) من سورة الأنعام، نسب إلى الله سبحانه، مع أنّه نُسب في ثمانية مواطن إلى الشيطان، وفي عشرة أُخر جاء بصيغ الفعل المجهول (زُيّنَ) ولو فكرنا بإمعان - وأمعنّا النظر، لوجدنا جميع هذه الصور كاشفة عن حقيقة واحدة!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

فأمّا نسبة التزيين إلى الله، فلأنّه «مسبب الأسباب» في عالم الإيجاد، وما من موجود مؤثر إلاّ ويعود تأثيره إلى الله.

أجل، إنّ هذه الخاصية أوجدها الله في تكرار العمل ليتطبّع عليه الإنسان. . . ويتغير حسُّ التشخيص فيه دون أن تسلب المسؤولية عنه، أو أن تكون نقصاً في خلقة الله أو إيراداً عليه (لاحظوا بدقّة).

وأمّا نسبة التزيين إلى الشيطان (أو هوى النفس) فلأن كلّاً منهما عامل قريب وبغير واسطة للتزيين.

وأمّا مجيء التزيين بصورة الفعل المبني للمجهول، فهو إشارة إلى أنّ طبيعة العمل يقتضي أن يوجد - على أثر التكرار - حالة وملكة وعلاقة وعشقاً!!

ثمّ تبيّن الآية التالية نتيجة «تزيين الأعمال» وعاقبة أُولئك الذين شغفوا بها فتقول: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

فهم في الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، وسينالون العقاب الصارم في الآخرة ﴿وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

والدليل على أنّهم في الآخرة هم الأخسرون، ما جاء في الآيتين (١٠٣) و(١٠٤) من سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾.

فأية خسارة أعظم من أن يرى الإنسان عمله القبيح حسناً!! وأن يهدر جميع طاقاته من أجله، ظنّاً منه بأنّه عمل «إيجابي» مثبت، إلاّ أنّه يراه في عاقبة أمره شقاءً وذلة وعذاباً.

وأمّا الآية الأخيرة - من الآيات محل البحث - فهي بمثابة إكمال البيانات السابقة في صدد عظمة محتوى القرآن، ومقدمة لقصص الأنبياء التي تبدأ بعدها مباشرة فتقول: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى[1] ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

وبالرغم من أنّ الحكيم والعليم كلاهما إشارة إلى علم الله سبحانه، إلاّ أنّ الحكمة

---

(١) «تلقى» فعل مضارع مبني للمفعول، وهو من باب التفعيل، والفعل الثلاثي المجرّد من هذه المادة (لقي) وهو يتعدى إلى مفعول واحد، أمّا المزيد فيتعدى إلى مفعولين. وفي الآية مورد البحث (الله) هو الفاعل وملقي القرآن، والنبي (مفعول به أول)، والقرآن مفعول ثان، وحيث إنّ الفعل بُني للمجهول يقوم المفعول الأوّل مقام الفاعل فرفع، وأمّا المفعول الثّاني فعلى حاله.

تبيّن الجوانب العملية، والعلم يبيّن الجوانب النظرية. . . وبتعبير آخر: إنّ العليم يخبر عن علم الله الواسع، والحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم وإنزال القرآن على قلب النّبي (محمّد ﷺ).

ومثل هذا القرآن النازل من قبل الله ينبغي أن يكن مبيناً . . . وهدى وبشرى للمؤمنين، وأن تكون قصصه خالية من أي نوع من أنواع الخرافات والتضليل والأباطيل والتحريف.

الواقعية والإيمان

المسألة المهمّة في حياة الإنسان هي أن يدرك الواقعيّات بما هي عليه، وأن يكون موقفه منها صريحاً. . . فلا تمنعه من فهمها وإدراكها تصوراته وأحكامه المسبقة ورغباته الانحرافية وحبّه وبغضه، ولذلك فإنّ أهم تعريف للفلسفة هو: إدراك الحقائق كما هي!.

ولذلك فقد كان من دعاء المعصومين عليهم السلام: (اللّهم أرني الأشياء كما هي) أي لأعرف قيمتها وأؤدي حقّها.

وهذه الحالة لا تتحقق بغير الإيمان! لأنّ الهوى والهوس والانحرافات أو الرغبات النفسية، تكون حجاباً وسدّاً كبيراً في هذا الطريق، ولا يمكن رفع هذا الحجاب أو السد إلاّ بالتقوى وضبط هوى النفس!.

لذلك فقد قرأنا في الآيات آنفة الذكر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

والمثل الواضح والجلي لهذا المعنى نراه في حياة كثير من عبدة الدنيا في زماننا بشكل بيّن، فهم يفتخرون ببعض المسائل ويرونها حضارة، إلاّ أنّها في الواقع ليست إلاّ الفضيحة والعار والذل.

فالتفسخ والحماقة عندهم دليل «الحرية».

والتعري والسفور من قبل النساء دليل «التمدن».

التكالب على بهارج الدنيا وزخارفها دليل على «الشخصيّة».

الغرق في ألوان الفساد دليل «التحرر».

القتل والإجرام دليل على «القوّة».

التخريب وغصب رؤوس الأموال دليل على الاستعمار، أي البناء والعمران[1]!!
استخدام أجهزة الإعلام العامة كالراديو والتلفزيون لتوكيد المفاهيم!!
سحق حقوق المحرومين دليل على احترام حقوق البشر.
الأسر في قبضة المخدرات والفضائح وما إلى ذلك من أشكال الحرية!.
والتزوير والغش واقتناء الأموال من أي طريق كان وكيف كان، دليل على الجدارة والذكاء.
رعاية أصول العدل واحترام حقوق الآخرين دليل على الضعف وعدم اللياقة!.
الكذب والدجل ونقض العهود وما إلى ذلك دليل على السياسة.
والخلاصة: إنّ الأعمال السيئة والقبيحة تتزين في نظر هؤلاء إلى درجة أنّهم لا يشعرون في أنفسهم بالخجل منها. بل ويفتخرون ويتباهون بها!!
وواضح إلى أين يتّجه مثل هذا العالم وماذا سيكون مصيره!!

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾

التّفسير

موسى يقتبس النّور

يجري الكلام في هذه السورة - كما أشرنا من قبلُ - بعد بيان أهمّية القرآن، عن

(١) المفهوم اللغوي للاستعمار مفهوم جميل، يعني الإعمار كما جاء في القرآن ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ إلاّ أنّ المفهوم السياسي للاستعمار هو التسلط من قبل الأجنبي واستثماره لخيرات الشعوب (المصحح).

قصص خمسة أنبياء عظام، وذكر أممهم، والوعد بانتصار المؤمنين وعقاب الكافرين.

فأوّل نبيّ تتحدث عنه هذه السورة، هو موسى عليه السلام أحد الأنبياء «أولي العزم» وتبدأ مباشرةً بأهم نقطة من حياته وأكثرها «حسّاسية» وهي لحظة نزول الوحي على قلبه وإشراقه فيه، وتكليم الله إيّاه إذ تقول الآية: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[1] أي رأيت ناراً من بعيد، فامكثوا هنيئة ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[2].

في تلك الليلة الظلماء، كان موسى عليه السلام يسير بزوجته بنت النبيّ شعيب عليه السلام في طريق مصر - وفي الصحراء - فهبت ريح باردة، وكانت زوجته (أهله) مُقرّباً، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النّار لتصطلي المرأة بها، لكن لم يكن في الصحراء أيّ شيء، فلمّا لاحت له النّار من بعيد سُرّ كثيراً، وعلم أنّها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضي وآتيكم منها بخبر أو شعلة للتدفئة.

ممّا يلفت النظر أنّ موسى عليه السلام يقول لأهله: سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس «بضمير الجمع لا الإفراد» ولعل هذا التعبير هو أنّ موسى عليه السلام كان معه بالإضافة إلى زوجته أطفال أيضاً... لأنّه كان قد مضى على زواجه عشر حجج (عشر سنين) في مدين... أو أنّ الخطاب بصيغة الجمع ﴿ءَاتِيكُم﴾ يوحي بالاطمئنان في هذه الصحراء الموحشة!.

وهكذا فقد ترك موسى أهله في ذلك المكان واتّجه نحو «النّار» التي آنسها ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وهناك احتمالات مختلفة عند المفسّرين في المراد من قوله تعالى: ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾!... فما المقصود من هذا التعبير؟!

ويبدو أنّ المراد مِن ﴿مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ هو موسى نفسه، حيث كان قريباً منها ومن الشجرة الخضراء التي عندها، فكأنّ موسى كان في النّار نفسها، وأنّ المراد مِن ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾

---

(١) «آنستُ» فعل ماض مأخوذ من (الإيناس) وهو الرؤية المقرونة بالراحة النفسية والسكينة وإنّما يطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

(٢) «الشهاب» هو النور الذي ينبثق من النّار كالعمود، وكل نور له عمود يدعى شهاباً، وفي الأصل يطلق الشهاب على واحد النيازك التي تهوي من السماء بسرعة مذهلة فتحرق بسبب اصطدامها بالغلاف الجوي فيكون لها عمود من نار، «والقبس» شعلة من النّار تنفصل عنها. «وتصطلون» من الاصطلاء وهو الدفء (بالنّار)..

هم الملائكة المقرّبون من ساحة القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدّسة في ذلك الوقت.

أو أنّ المراد - على عكس ما ذكرنا آنفاً - فمن في النّار: هم الملائكة المقرّبون، ومن حولها هو موسى عليه السلام.

وعلى كلّ حال فقد جاء في بعض الرّوايات أنّ موسى عليه السلام لما وصل النّار ونظر بدقّة، رأى النّار تشتعل من غصن أخضر! وتتسع الشعلة لحظة بعد أُخرى، والشجرة تزداد اخضراراً وجمالاً... فلا حرارة النّار تحرق الشجرة، ولا رطوبة الشجرة تطفىء لهب النّار، فتعجب من هذا المشهد الرائع... وانحنى ليقتبس من هذه النّار ويشعل الغصن اليابس «الحطب» الذي كان معه، فأتته النّار فارتاع ورجع... فمرّة يأتي موسى إلى النّار، ومرّة تأتي النّار إلى موسى، وبينما هو على هذه الحالة، إذا بالنداء يقرع سمعه مبشراً إيّاه بالوحي.

فالمراد أنّ موسى عليه السلام اقترب من النّار إلى درجة عُبّر عنه بأنّه «في النّار».

والتّفسير الثّالث لهذه الجملة، هو أنّ المراد من ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هو نور الله الذي تجلّى في تلك الشعلة، والمراد من ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ هو موسى الذي كان قريباً منها، وعلى كل حال فمن أجل أن لا يتوهم أحد من هذه العبارة مفهوم «التجسيم» فقد خُتمت الآية بـ ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنزيهاً له عن كلّ عيب ونقص وجسميّة وما يعترض الجسم من عوارض!.

ومرّة أُخرى نودي موسى بالقول: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

وذلك يزول عن موسى عليه السلام كل شك وتردّد، وليعلم أنّ الّذي يكلمه هو ربّ العالمين، لا شعلة النّار ولا الشجرة، الربّ القوي العزيز الذي لا يغلب ولا يُقهر، والحكيم ذو التدبير في جميع الأُمور!.

وهذا التعبير في الحقيقة مقدّمة لبيان المعجزة التي سيأتي بيانها في الآية التالية لأنّ الإعجاز آت من هاتين الصفتين «قدرة الله» و«حكمته»، ولكن قبل أن نصل إلى الآية التالية... ينقدح هذا السؤال وهو: من أين تيقّن موسى عليه السلام أنّ هذا النداء هو نداء الله وليس سواه؟!

يمكن أن يجاب على هذا السؤال بأنّ هذا النداء - أو الصوت المقرون بمعجزة جليّة، وهي إشراق النّار من الغصن الأخضر «في الشجرة الخضراء» - دليل حي على أنّ هذا أمر إلهي!.

ثمّ إنّه - كما سنرى في الآية التالية - بعد هذا النداء أمر موسى عليه السلام بإلقاء العصا وإظهار اليد البيضاء، على نحو الإعجاز، وهما شاهدان صادقان آخران على هذه الحقيقة.

ثمّ بعد هذا كله (فعلى القاعدة) فإن نداء الله له خصوصية تميزه عن كلّ نداء آخر، وحين يسمعه الإنسان يؤثر في روحه وقلبه تأثيراً لا يخالطه الشك أو التردد بأنّ هذا النداء هو نداء الله سبحانه.

وحيث إنّ الصدع بالرسالة والبلاغ (وأية رسالة وبلاغ... رسالة إلى جبار مستكبر ظالم كفرعون)، لابدّ له من قوّة ظاهرية وباطنية وسند على حقانيّته... فلذا أمر موسى بأن يلقي عصاه: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾.

فألقى موسى عصاه، فتبدلت ثعباناً عظيماً، فلمّا رآه موسى يتحرك بسرعة كما تتحرك الحيّات الصغار خاف وولّى هارباً ولم يلتفت إلى الوراء: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾(١).

ويحتمل أنّ عصا موسى تبدلت باديء الأمر إلى حيّة صغيرة، ثمّ تحولت إلى أفعى كبيرة في المراحل الأُخر!

وهنا خوطب موسى مرّة أُخرى أن ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

فهنا مقام القرب، وحرم أمن الله القادر المتعال.

وهنا لا معنى للخوف والوحشة، ومعنى الآية: أن يا موسى إنّك بين يدي خالق الوجود العظيم، والحضور عنده ملازم للأمن المطلق!.

ونقرأ نظير هذا التعبير في الآية (٣١) من سورة القصص: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

إلاّ أنّ في الآية التالية استثناءً للجملة السابقة، حيث ذكره القرآن فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾!.

وهناك رأيان مختلفان لدى المفسّرين في علاقة الاستثناء بالجملة:

فالرأي الأوّل: أنّ هناك حذفاً ذيل الآية آنفة الذكر وتقديره: إنّك من الآمنين وغير

---

(١) يعتقد بعض المفسّرين أنّ «الجان» مأخوذ من الجن، وهو الموجود غير المرئي، لأنّ الحيّات الصغيرة تتحرك بين العشب في الأرض وتخفي نفسها..

الأنبياء ليس آمناً، ثمّ استثنى سبحانه من ذلك «بإلاّ» من ظلم ثمّ بدل حسناً، فهو من الآمنين أيضاً لأنّ الله غفور رحيم.

والثّاني: أنّ الاستثناء من ضمن الجملة، والظلم إشارة إلى ترك الأُولى الذي قد يقع من الأنبياء، وهو لا ينافي مقام العصمة، ومعنى الآية على هذا الرأي: أنّ الأنبياء في حال ترك الأولى غير آمنين أيضاً، وأنّ الله يحاسبهم حساباً عسيراً، كما جاء في آيات القرآن عن قصّة آدم وقصّة يونس عليه السلام!.

إلاّ أُولئك الذين التفتوا إلى ترك الأولى، وانعطفوا نحو الله الرحيم، فبدلوا حسناً وعملاً صالحاً بعد ذلك، كما جاء في شأن موسى عليه السلام نفسه في قصّة قتله الرجل القبطي، إذ اعترف موسى بتركه الأولى، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[1].

أمّا المعجزة الثّانية التي أمر موسى أن يظهرها، فهي اليد البيضاء، إذ تقول الآية: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.

والقيد ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ إشارة إلى أنّ بياض اليد ليس من برص ونحوه، بل هو بياضٌ نوراني يلفت النظر، وهو بنفسه كاشف عن إعجاز وأمر خارق للعادة.

ومن أجل أن يظهر الله تعالى عنايته ولطفه لموسى أكثر، وكذلك منح الفرصة للمنحرفين للهداية أكثر، قال لموسى بأنّ معاجزه ليست منحصرة بالمعجزتين الآنفتين، بل ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[2].

ويستفاد من ظاهر الآية أنّ هاتين المعجزتين من مجموع تسع معاجز «آيات» موسى المعروفة، وقد استنتجنا ذلك من الآية (١٠١) من سورة الإسراء، وإن المعاجز السبع الأُخر هي: ١ - الطوفان، ٢ - الجراد، ٣ - كثرة الضفادع، ٤ - تبدل لون نهر النيل كلون الدم، ٥ - الآفات في النباتات، وكل واحدة من هذه المعاجز الخمس تعدّ إنذاراً لفرعون وقومه، فكانوا عند البلاء يلجأون إلى موسى ليرفع عنهم ذلك.

أمّا المعجزتان الأُخريان فهما: ٦ - القحط «السنين»، ٧ - ونقص الثمرات، إذ أشارت إليهما الآية (١٣٠) من سورة الأعراف فقالت: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٦.

(٢) الجار والمجرور «في تسع آيات» إمّا متعلقان بجملة (اذهب) أو بأحد أفعال العموم المقدرة.. وقد تكون (في) بمعنى (مع) و(إلى فرعون) متعلق بالجملة ذاتها، أو بجملة أنت مرسل بها المفهومة من السياق تقديراً.

وَنَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ . . . «ولمزيد الإيضاح يراجع الجزء التاسع من التّفسير الأمثل ذيل الآية (١٠١) من سورة الإسراء».

وأخيراً تعبّأ موسى بأقوى سلاح - من المعاجز - فجاء إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الحق، كما يصرح القرآن بذلك في آيته التالية ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ومعلوم أنّ هذا الاتّهام «بالسحر» لم يكن خاصّاً بموسى عليه السلام، بل اتّخذه المعاندون ذريعة بوجه الأنبياء، ليجعلوه سدّاً في طريق الآخرين، والاتّهام بنفسه دليل واضح على عظمة ما يصدر من الأنبياء خارقاً للعادة، بحيث اتّهموه بالسحر.

مع أنّنا نعرف أنّ الأنبياء كانوا رجالاً صالحين صادقين طلاّب حق مخلصين، أمّا السحرة فهم منحرفون ماديّون تتوفر فيهم جميع صفات المدلّسين «أصحاب التزوير».

وإضافة إلى ذلك فإنّ السحرة كانت لديهم قدرة محدودة على الأعمال الخارقة، إلّا أنّ الأنبياء فقد كان محتوى دعوتهم ومنهاجهم وسلوكهم يكشف عن حقانيتهم، وكانوا يقومون بأعمال غير محدودة، بحيث كان ما يقومون به معجزاً لا يشبه سحر السحرة أبداً.

وممّا يلفت النظر أنّ القرآن يضيف في آخر الآية - محل البحث - قائلاً: إنّ هذا الاتهام لم يكن لأنّهم كانوا في شك من أمرهم ومترددين فعلاً، بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقانيتها ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

ويستفاد من هذا التعبير أنّ الإيمان له حقيقة وواقعية غير العلم واليقين، ويمكن أن يقع الكفر جحوداً وإنكاراً بالرغم من العلم بالشيء!.

وبعبارة أُخرى: إنّ حقيقة الإيمان هي الإذعان والتسليم - في الباطن والظاهر - للحقّ، فبناءً على ذلك إذا كان الإنسان مستيقناً بشيء ما، إلاّ أنّه لا يذعن له في الباطن أو الظاهر فليس له إيمان، بل هو ذو كفر جحودي، وهذا موضوع مفصل، ونكتفي هنا بهذه الإشارة.

لذلك فإنّنا نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يذكر فيه ضمن عدّه أقسام الكفر الخمسة «كفر الجحود» ويبيّن بعض شعبه بالتعبير التالي (هو أنّ يجحد الجاحد وهو يعلم أنه حق قد استقرّ عنده)[1].

---

(١) أصول الكافي، ج ٢، باب وجوه الكفر، ص ٢٨٧.

وممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ القرآن يعدّ الباعث على إنكار فرعون وقومه أمرين: الأوّل الظلم، والثّاني العلوّ: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

ولعل «الظلم» إشارة إلى غصب حقوق الآخرين، و«العلوّ» إشارة إلى طلب التفوّق على بني إسرائيل.

أيّ إنّهم كانوا يرون أنّهم إذا أذعنوا لموسى عليه السلام وآمنوا به وبآياته، فإنّ منافعهم غير المشروعة ستكون في خطر، كما أنّهم سيكونون مع رقيقهم «بني إسرائيل» جنباً إلى جنب، ولا يمكنهم تحمل أيّ من هذين الأمرين.

أو أنّ المراد من الظلم هو ظلم النفس أو الظلم بالآيات، وأنّ المراد من العلوّ هو الظلم للآخرين، كما جاء في الآية (٩) من سورة الأعراف ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

وعلى كلّ حال، فإنّ القرآن يذكر عاقبة فرعون وقومه على أنّه درس من دروس العبرة، في جملة موجزة ذات معنى كبير، مشيراً إلى هلاكهم وغرقهم فيقول: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾.

والقرآن هنا لا يرفع الستار عن هذه العاقبة، لأنّ قصّة هؤلاء الكفرة ونهايتهم الوخيمة ذكرها في آيات أُخرى واكتفى هنا بالإشارة إلى تلك الآيات ليفهم من يفهم.

والقرآن يعوّل - ضمناً على كلمة (مفسد) مكان ذكر جميع صفاتهم السيئة، لأنّ الإفساد له مفهوم جامع يشمل الإفساد في العقيدة، والإفساد في الأقوال والأعمال، والإفساد على المستوى الفردي، والمستوى الجماعي، فجمع كلّ أعمالهم في كلمة ﴿الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)﴾

التّفسير

حكومة داود وسُليمان عليهما السلام

بعد الكلام عن جانب من قصّة موسى عليه السلام في هذه السورة، يتحدّث القرآن الكريم

عن نبيّين آخرين من الأنبياء العظام، وهما «داود» و«سليمان». . . والكلام على داود لا يتجاوز الإشارة العابرة، إلاّ أنّ الكلام على سليمان أكثر استيعاباً.

وذكر هذا المقطع من قصّة هذين النبيّين بعد قصّة موسى عليه السلام، لأنّهما كانا من أنبياء بني إسرائيل أيضاً، وما نجده من اختلاف بين تاريخهما وتاريخ الأنبياء الآخرين، هو أنّهما - ونتيجة للاستعداد الفكري وملاءمة المحيط الاجتماعي في عهدهما - قد وفّقا إلى تأسيس حكومة عظيمة، وأن ينشرا بالاستعانة والإفادة من حكومتهما دين الله، لذلك لا نجد هنا أثراً أو خبراً عمّا عهدناه من أسلوب في تلك الآيات التي كانت تتكلم عن الأنبياء الآخرين، وهم يواجهون قومهم المعاندين، وربّما نالوا منهم الأذى والطرد والإخراج من مدنهم وقراهم. . فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماماً.

ويدلّ هذا بوضوح أنّه لو كان المصلحون والدعاة إلى الله يوفقون إلى تشكيل حكومة لما بقيت معضلة ولغدا طريقهم معبداً سالكاً.

وعلى كل حال، فالكلام هنا عن العلم والقدرة والعظمة، وعن طاعة الآخرين حتى الجن والشياطين لحكومة الله وعن تسليم الطير في الهواء والموجودات الأُخر لحكومة الله!.

وأخيراً، فإنّ الكلام عن مكافحة عبادة الأصنام عن طريق الدعوة المنطقية، ثمّ الإفادة من قدرة الحكومة!.

وهذه الأُمور هي التي ميّزت قصّة هذين النبيّين عن الأنبياء الآخرين.

الطريف، أنّ القرآن يبدأ من مسألة «موهبة العلم» التي هي أساس الحكومة الصالحة القوية، فيقول: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾.

وبالرغم من أنّ كثيراً من المفسّرين أجهدوا أنفسهم وأتعبوها ليعرفوا هذا العلم الذي أوتيه سليمانُ وداودُ، لأنّه جاء في الآية بصورة مغلقة. . فقال بعضهم: هو علم القضاء، بقرينة الآية (٢٠) من سورة ص: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ والآية (٧٩) من سورة الأنبياء ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وقال بعضهم: إنّ هذا العلم هو معرفة منطق الطير بقرينة الآية ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾.

وقال بعضهم: إنّ المراد من هذا العلم هو صنعة الدروع، بقرينة ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾.

إلاّ أنّ من الواضح أنّ العلم هنا له مفهوم واسع، بحيث يحمل في نفسه علم التوحيد

والاعتقادات المذهبية والقوانين الدينية، وكذلك علم القضاء، وجميع العلوم التي ينبغي توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القوية. . . لأنّ تأسيس حكومة إلهيّة على أساس العدل. . . وحضارة عامرة حرّة. . . دون الإفادة من علم واسع غير ممكن. . . وهكذا فإنّ القرآن يعدُّ مقام العلم لتشكيل حكومة صالحة أوّل حجر أساس لها!.

وبعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود وسليمان من ثناء لله: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

والذي يجلب النظر هو أنّه بعد بيان هذه الموهبة الكبيرة «العلم» يجري الكلام عن «الشكر» مباشرة. . . ليكون واضحاً أنّ كل نعمة لابدّ لها من شكر، وحقيقة الشكر هو أن يستفاد من النعمة في طريقها الذي خلقت من أجله.

وهذان النبيّان العظيمان عليهما السلام استفادا من نعمة علمهما الاستفادة القصوى في تنظيم حكومة إلهيّة.

وقد جعل داود وسليمان معيار تفضيلهما على الآخرين «العلم» لا القدرة ولا الحكومة، وعدّا الشكر للعلم لا لغيره من المواهب، لأنّ كلّ قيمة هي من أجل العلم، وكلّ قدرة تعتمد أساساً على العلم.

والجدير بالذكر أنّهما يشكران الله ويحمدانه لتفضيلهما ولحكومتهما على أُمّة مؤمنة. . لأنّ الحكومة على أُمّة فاسدة غير مؤمنة ليست مدعاة للفخر!

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: لم قال داود وسليمان ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يقولا على عباده المؤمنين جميعاً، مع أنّهما كانا نبيّين، وهما أفضل أهل عصرهما؟

ولعلّ هذا التعبير رعاية لأصول الأدب والتواضع، إذ على الإنسان أن لا يرى نفسه أفضل من الجميع في أي مقام كان!

أو لأنّهما كانا ينظران إلى جميع الأزمنة، ولم ينظرا إلى مقطع زمنيّ خاص، ونعرف أنّ على مدى التاريخ يوجد أنبياء كانوا أفضل منهما.

والآية التالية تتكلم على إرث سليمان أباه داود أولا، فتقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾.

وهناك كلام بين المفسّرين في المراد من الإرث هنا، ما هو؟

فقال بعضهم: هو ميراث العلم فحسب. . . لأنّ في تصورهم أنّ الأنبياء لا يورثون.

وقال بعضهم: هو ميراث المال والحكومة، لأنّ هذا المفهوم يتداعى إلى الذهن قبل أي مفهوم آخر.

وقال بعضهم: هو منطق الطير.

ولكن مع الالتفات إلى أنّ الآية مطلقة، وقد جاء في الجمل التالية الكلام على العلم وعن جميع المواهب ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ فلا دليل على حصر مفهوم الآية وجعله محدوداً، فبناءً على ذلك فإنّ سليمان ورث كل شيء عن أبيه.

وفي الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام أنّهم كانوا يستدلون بهذه الآية على عدم صحة ما نسب إلى النّبي صلى الله عليه وآله من حديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة» وأنّه ساقط من الاعتبار لمخالفته كتاب الله.

وفي بعض الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام أنّه لما أجمع أبو بكر على أخذ فدك من فاطمة عليها السلام، محتجّاً بالحديث آنف الذكر، جاءته فاطمة عليها السلام فقالت: يا أبا بكر، أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟! لقد جئت شيئاً فريّاً، فعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[1].

ثمّ تضيف الآية حاكيةً عن لسان سليمان ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

وبالرغم من ادّعاء بعضهم أنّ تعبير النطق والكلام في شأن غير الناس لا يمكن إلاّ على نحو المجاز... إلاّ أنّه إذا أظهر غير الإنسان أصواتاً من فمه كاشفاً عن مطلب ما، فلا دليل على عدم تسميته نطقاً، لأنّ النطق كل لفظ مبين للحقيقة والمفهوم[2].

ولا نريد أن نقول إنّ ما يظهر من أصوات الحيوانات عند الغضب أو الرضا أو الألم أو إظهار الشوق لأطفالها هو نطق، كلاّ فهي أصوات تقترن بحالات الحيوان... إلاّ أننا - كما سيأتي في الآيات التالية - سنرى بالتفصيل أنّ سليمان تكلم مع الهدهد في مسائل وحمّله رسالة... وطلب منه أن يتحرّى جوابها.

وهذا الأمر يدلّ على أنّ الحيوانات بالإضافة إلى أصواتها الكاشفة عن حالاتها الخاصة... لها القدرة على النطق في ظروف خاصة بأمر الله، كما سيأتي الكلام في شأن تكلم النمل في الآيات المقبلة إن شاء الله.

---

(١) راجع كتاب الاحتجاج للطبرسي طبقاً لما جاء في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٥.

(٢) يقول ابن منظور في لسان العرب: «النطق» هو التكلم، ثمّ يضيف «وكلام كل شيء منطقه. ومنه قوله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ ثمّ ينقل عن بعض علماء العرب - وهو ابن سيده - أنّه «خلافاً لما قال بعضهم: إنّ النطق خاص بالإنسان. فقد يستعمل النطق في غير الإنسان». وينبغي الالتفات إلى أنّ الفلاسفة وعلماء المنطق أطلقوا النطق على القدرة على التفكير الذي يعطي الإنسان التمكن من الكلام.

وبالطبع فإنّ النطق استعمل في القرآن بمعناه الوسيع، حيث يبيّن حقيقة النطق ونتيجته، وهو بيان ما في الضمير، سواءً كان ذلك عن طريق الألفاظ أو عن طريق الحالات الأُخر، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾[1]. إلاّ أنّه لا حاجة إلى تفسير كلام سليمان ومنطق الطير بهذا المعنى... بل طبقاً لظاهر الآيات، فإنّ سليمان كان بإمكانه أن يعرف ألفاظ الطير الخاصة الدالة على مسائل معيّنة فيشخّصها، أو أنه كان يتكلم معها فعلاً...

وسنتكلم في هذا الشأن في البحوث إن شاء الله تعالى.

أمّا جملة ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ﴾ فهي على خلاف ما حدّده جماعة من المفسّرين، لها مفهوم واسع شامل... فهي تشمل جميع الأسباب اللازمة لإقامة حكومة الله في ذلك الحين... وأساساً فإنّ الكلام سيقع ناقصاً بدونها، ولا يكون له ارتباط واضح بما سبق.

وهنا يثير الفخر الرازي سؤالاً فيقول: أليس التعبير بـ﴿عُلِّمۡنَا﴾ و﴿وَأُوتِينَا﴾ من قبيل كلام المتكبرين؟!

ثمّ يجيب على سؤاله هذا بالقول: إنّ المراد من ضمير الجمع هنا هو سليمان وأبوه، أو هو ومعاونوه في الحكومة.. وهذا التعبير مستعمل حين يكون الشخص في رأس هيئة ما، أن يتكلم عن نفسه بضمير الجمع!.

بحوث

١ - علاقةُ الدين بالسيّاسة

خلافاً لما يتصوره أصحاب النظرة الضيقة من أنّ الدين مجموعة من النصائح والمواعظ، أو المسائل الخاصة بالحياة الشخصيّة للإنسان.. بل هو مجموعة من القوانين والمناهج الحيوية التي تستوعب جميع مسائل حياة الإنسان وخاصة المسائل الاجتماعية.

فقد بُعث الأنبياء لإقامة القسط والعدل كما في الآية (٢٥) من سورة الحديد، إذ يقول سبحانه: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

وليضع الأنبياء عن الناس: ﴿إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ فيتمتعوا بالحرية كما أشارت إلى ذلك الآية (١٥٧) من سورة الأعراف.

والدين رحمة ومنجاة للمستضعفين وتخليصهم من نير المتكبرين الظالمين.

والدين - أخيراً - مجموعة من التعاليم والتربية في مسير تزكية الإنسان والرقي به نحو الكمال (كما أشارت إليه الآية ٢ من سورة الجمعة).

وبديهي أنّ هذه الأهداف الكبرى لا يمكن أن تتحق دون إقامة الحكومة! فمن ذا يستطيع أن يقيم القسط بين الناس بمجرّد التوصيات الأخلاقيّة؟.. أو أن يقطع أيدي الظالمين عن المستضعفين، ويضع الإصر والأغلال عن يدي الإنسان ورجليه دون الاستناد إلى قدرة شاملة!!

ومن يستطيع أن ينشر الثقافة الصحيحة والمسائل التربوية في مجتمع يشرف عليه المفسدون، فيمنح القلوب الملكات الأخلاقيّة؟

وهذا هو ما نقوله بأنّ الدين لا ينفصل عن السياسة، فإذا انفصل الدين عن السياسة فقد فَقَد عضده وشُلت يده، وإذا انفصلت السياسة عن الدين تبدّلت إلى عنصر مخرب يستغله أصحاب المنافع الشخصيّة!

إنّ النّبي ﷺ إنّما وفق لنشر هذا الدين القويم السماوي في أرجاء العالم بسرعة، لأنّه أسس حكومته في أوّل فرصة واتته، وتابع أهدافه الإلهية عن طريق الحكومة الإسلامية.

وهناك بعض الأنبياء ممن نال مثل هذا التوفيق فنشروا دعوتهم إلى الله في الأرض أفضل بشكل... أمّا من لم تسمح لهم الفرصة بإقامة حكومة إلهيّة، فإنّهم لم يحالفهم التوفيق كثيراً في نشر رسالتهم الإلهية...

٢ - آيات الحكومة الإلهيّة

ممّا يلفت النظر أنّنا نجد في قصّة سليمان وداود - بصورة واضحة - أنّهما استطاعا أن يقلعا جذور الشرك وآثاره بسرعة، وأن يقيما نظاماً إلهياً عادلاً.. نظاماً يقوم على أسس وأركان - طبقاً لما في الآيات محل البحث - العلم والمعرفة والاطلاع في المجالات المختلفة.

نظاماً يتوّج منهجه اسم الله، فهو على رأس لوحته.

نظاماً استعمل كل قواه حتى الطائر، من أجل الوصول إلى أهدافه.

نظاماً جعل الشياطين مغلولةً، والظالمين أذلاء لا يتجاوزون حدودهم.

وأخيراً فإنّ هذا النظام كانت لديه القدرة النظامية «العسكرية» الكافية، وجهاز التجسس «الأمني»، والأفراد المتخصصون في المجالات الاقتصادية والإنتاجيّة والعلمية المختلفة، وكل ذلك كان تحت خيمة «الإيمان» ومظلّة «التوحيد».

٣ - منطق الطير

في الآيات المتقدمة والآيات التالية بعدها التي تذكر قصّة سليمان والهدهد، إشارة صريحة إلى منطق الطير، وبعض ما يتمتع به الحيوان من شؤون.

وممّا لا شك فيه أنَّ الطيور كسائر الحيوانات تظهر أصواتاً في حالاتها المختلفة، بحيث يمكن معرفتها بدقّة، أنّ أيَّ صوت يعبّر عن الجوع؟ وأيّ صوت يعبر عن الغضب؟ وأي صوت يعبر عن الرضا؟ وأيّ صوت يعبّر عن التمني؟ وأيّ صوت يدعوا الأفراخ إليه؟ وأيّ صوت يعبر عن القلق والاستيحاش والرعب؟.

فهذه الأصوات من أصوات الطيور، لا مجال للشك والتردد فيها، وكلّنا نعرفها مع اختلاف في كثرة الاطلاع أو قلّته! إلاّ أنّ آيات هذه السورة - بحسب الظاهر - تبيّن موضوعاً أوسع ممّا ذكرناه آنفاً... فالبحث هنا عن نطقها بنحو «معمّى خفيّ» بحيث ينطوي على مسائل دقيقة، والبحث عن تكلمّها وتفاهمها مع الإنسان... وبالرغم من أنّ هذا الأمر مدعاة لتعجب بعضهم، إلاّ أنّه مع الالتفات إلى المسائل المختلفة التي كتبها العلماء ومشاهداتهم الشخصية في شأن الطيور، لا يكون الموضوع عجيباً.

فنحن نعرف عن ذكاء الطيور مسائل أعجب من هذا.

فبعضها لديها المهارة في صنع أعشاشها وبيوتها بشكل أنيق، قد يفوق عمل مهندسينا أحياناً.

وبعض الطيور تعرف عن وضع أفراخها في المستقبل، وحاجاتها، وتعمل لها عملاً دقيقاً، بحيث تكون مثار إعجابنا جميعاً.

وتوقعها لما سيكون عليه الجوّ حتى بالنسبة لعدّة أشهر تالية، ومعرفتها بوقوع الزلازل قبل أن تقع، وقبل أن تسجلها مقاييس الزلازل المعروفة!.

والتعليمات التي تصدر إلى الحيوانات في «السيرك» ونشاطاتها وأعمالها الخارقة للعادة الحاكية عن ذكائها العجيب...

أعمال النمل وحركاته العجيبة وتمدنه المثير.

عجائب حياة النحل، وما تقوم به من أعمال محيرة.

معرفة الطيور المهاجرة بالطرق الجويّة، وقد تقطع المسافة بين القطبين الشمالي والجنوبي!

خبرة الأسماك في مهاجرتها الجماعية في أعماق البحار.

كل ذلك من المسائل العلمية المسلّم بها، كما أنّها دليل على وجود مرحلة مهمّة من الإدراك أو الغريزة - أو ما شئت فسمّه - في هذه الحيوانات!.

وجود الحواس غير الطبيعية في الحيوانات - كالرادار للخفاش، وحاسة الشم القوية في بعض الحشرات، والنظر الحاد عند بعض الطيور، وأمثالها، دليل آخر على أنها ليست متخلفة عنّا في كل شيء!

فمع الأخذ بنظر الاعتبار جميع ما بيّناه، لا يبقى مجال للعجب من أنّ لهذه الحيوانات تكلماً ونطقاً خاصاً، وأنّها تستطيع أن تتكلم مع الإنسان الذي يعرف، «ألف باءها»... وقد وردت الإشارة في آيات القرآن إلى هذا المعنى، ومنها الآية (٣٨) من سورة الأنعام ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾(١).

وفي الرّوايات الإسلامية أُمور كثيرة أيضاً، تكشف عن نطق الحيوانات وخاصة الطيور... وحتى أنّه نقل لكلّ «منطق» هو بمثابة الشعار، بحيث يطول المقام بنا لو تعرضنا له بالتفصيل(٢).

ففي رواية عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: قال أمير المؤمنين علي عليه السلام لابن عباس: «إنّ الله علّمنا منطق الطير كما علّم سليمان بن داود ومنطق كل دابة في برّ أو بحر»(٣).

٤ - رواية «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»...

نقل أهل السنة في كتبهم المختلفة حديثاً عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم مضمونه أنّه قال: «نحن

(١) كان لنا بحث آخر ذيل الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) لمزيد الاطلاع يراجع تفسير القرطبي ذيل الآيات مورد البحث وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٧٧، فما بعد.

(٣) المصدر السابق، ص ٨١.

معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة». . وربّما نقل الحديث في بعض الكتب بحذف الجملة الأولى والاكتفاء بعبارة: «ما تركناه صدقة».

وسند هذا الحديث ينتهي في كتب أهل السنة المشهورة إلى «أبي بكر» - غالباً - إذ تولّى بعد النّبي ﷺ زمام أُمور المسلمين، وحين طلبت منه سيدة النساء فاطمة عليها السلام أو بعض أزواج النّبيّ ميراثها منه امتنع عن دفع ميراث النّبي ﷺ إليها استناداً إلى الحديث آنف الذكر.

وقد نقل هذا الحديث «مسلم» في صحيحه، الجزء ٣ - كتاب الجهاد والسير ص ١٣٧٩، و«البخاري» في الجزء الثامن من كتاب الفرائض ص ١٨٥، وجماعة آخرون في كتبهم.

ممّا يلفت النظر أنّ «البخاري» نقل في صحيحه حديثاً عن «عائشة» أنّها قالت: «إنّ فاطمة والعباس عليهما السلام أتيا أبا بكر يلتمسان ميراثهما من رسول الله، وهما حينئذ يطلبان أرضيهما من فدك وسهمهما من خيبر، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا نورّث. . . ما تركناه صدقة، إنّما يأكل آل محمّد من هذا المال. . . قال أبو بكر: والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه فيه إلاّ صنعته «قال» فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت[1]!

وبالطبع فإنّ هذا الحديث فيه مجال للنقد والطعن من جهات متعددة، إلاّ أنّنا نقتصر في هذا التّفسير على ذكر ما يلي:

١ - إنّ هذا الحديث لا ينسجم مع نصّ القرآن. . . ووفقاً للقواعد الأصولية التي عندنا، أنّ كلّ حديث لا يوافق كتاب الله ساقط عن الاعتبار، ولا يمكن التعويل على أنّه حديث شريف من أحاديث النّبي أو المعصومين عليهم السلام.

ففي الآيات آنفة الذكر، ورد ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ وظاهر الآية مطلق يشمل حتى الأموال. . ونقرأ في شأن يحيى وزكريا ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾[2]. ولا سيما في ما يخصّ زكريا، فإن كثيراً من المفسّرين أكّدوا على الأُمور المالية!

إضافة إلى ذلك فإنّ ظاهر آيات الإرث في القرآن المجيد عام ويشمل جميع الموارد.

وربّما كان لهذا السبب أن يفسّر «القرطبي» - مضطراً - الحديث على أنّه غالباً ما

(١) صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٨٥. (٢) سورة مريم، الآية: ٦.

يكون كذلك، لا أنّه عام، وقال: هذا مثل قولهم: إنّا - معشَر العربِ - أقرى الناس للضيف، مع أن هذا الحكم غيرُ عام(١).

إلاّ أنّ من الواضح أنّ هذا الكلام ينفي «قيمة هذا الحديث. . .» لأنّنا إذا توسّلنا بهذا العذر في شأن سليمان ويحيى، فإنّ شموله للموارد الأُخرى غير قطعي أيضاً.

٢ - إنّ الرّواية المتقدمة تعارض رواية أُخرى تدلّ على أنّ أبا بكر صمّم على إعادة فدك إلى فاطمة عليها السلام، إلاّ أنّ الآخرين منعوه، كما نقرأ في سيرة الحلبي: إنّ فاطمة قالت له: من يرثُك؟! قال: أهلي وولدي! فقالت: فما لي لا أرث أبي؟ وفي كلام سبط ابن الجوزي: إنّه كتب لها بفدك ودخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها. فقال: فماذا تنفق على المسلمين، وقد حاربتك العرب كما ترى؟ ثمّ أخذ عمر الكتاب فشقّه(٢).

ترى كيف يمنع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم موضوع الإرث وينهى عنه بصراحة، ويجرؤ أبو بكر على مخالفته؟! ولِمَ استند عمر إلى المسائل العسكرية وحاجة المعارك، ولم يستند إلى الرواية؟!

إنّ التحقيق الدقيق - في الروايات الآنفة - يدل على أنّ الموضوع لم يكن موضوع نهي النّبي عن الإرث، كما أثاره أبو بكر، بل المهم هنا المسائل السياسية آنئذ، وهذه المسائل هي ما تدعونا إلى أن نتذكر مقالة ابن أبي الحديد المعتزلي إذ يقول: سألت أستاذي «علي ابن الفارقي»: أكانت فاطمة، صادقةً؟ فقال: نعم. قلتُ: فلِمَ لم يدفع إليها أبو بكر فدك وهي عنده صادقة؟ يقول المعتزلي: فتبسم أستاذي، ثمّ قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته وقلّة دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها، لجاءت إليه غداً وادعت لزوجها الخلافة ولم يمكنه الاعتذار بشيء لأنّه يكون قد سجّل على نفسه أنّها صادقة فيما تدعي كائناً ما كان من غير حاجة إلى بيّنة ولا شهود(٣).

٣ - الرواية المعروفة عن النّبي الواردة في كثير من كتب أهل السنّة والشيعة: «العلماء ورثة الأنبياء»(٤).

---

(١) تفسير القرطبي، ج ٧، ذيل الآيات مورد البحث، ص ٤٨٨٠.

(٢) سيرة الحلبي، ج ٣، ص ٤٨٨.

(٣) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج١٦، ص٢٨٤.

(٤) صحيح الترمذي، باب العلم، الحديث ١٩، وسنن ابن ماجة مقدمة الحديث ١٧.

وما نقل عنه ﷺ أيضاً: «إنّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً»(١).

يُستفاد من مجموع هذين الحديثين أنّ الهدف الأساس للأنبياء نشر العلم، وهم يفخرون به، وأهم ما يتركونه هو الهداية. ومن يحصل على الحظ الكبير من العلم والمعرفة فهو وارثهم الأصيل... بصرف النظر عن الأموال التي يرثها عنهم، ثمّ إنّ هذا الحديث منقول في المعنى، وعُبّر عنه تعبيراً سيئاً ويحتمل أن يكون (ما تركناه صدقة) المستنبط من بعض الرّوايات مضافاً عليه.

ولكي لا يطول بنا الكلام ننهي كلامنا ببحث للمفسّر المعروف من أهل السنّة «الفخر الرازي» الذي أورده ذيل الآية (١١) من سورة النساء إذ يقول: من تخصيصات هذه الآية «آية الإرث» ما هو مذهب أكثر المجتهدين، أنّ الأنبياء عليهم السلام لا يورّثون، والشيعة خالفوا فيه... رُوي أنّ فاطمة عليها السلام لما طلبت الميراث ومنعوها منه احتجوا بقوله عليه السلام: «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث.. ما تركناه صدقة».. فعند هذا احتجت فاطمة عليها السلام بعموم قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ وكأنّها أشارت إلى أنّ عموم القرآن لا يجوز تخصيصه بخبر الواحد.

ثمّ يضيف الفخر الرازي قائلاً: إنّ الشيعة قالوا: بتقدير أن يجوز تخصيص عموم القرآن بخبر الواحد، إلاّ أنّه غير جائز هنا وبيانه من ثلاثة أوجه:

«**أحدها**»: أنّه على خلاف قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ ... وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ قالوا: ولا يمكن حمل ذلك على وراثة العلم والدين، لأنّ ذلك لا يكون وراثة في الحقيقة، بل يكون كسباً جديداً مبتدأً، إنّما التوريث لا يتحقق إلاّ في المال على سبيل الحقيقة.

«**وثانيها**»: أنّ المحتاج إلى معرفة هذه المسألة ما كان إلاّ فاطمة وعلي والعباس، وهؤلاء كانوا من أكابر الزهاد والعلماء وأهل الدين، وأمّا أبو بكر فإنّه ما كان محتاجاً إلى معرفة هذه المسألة البتة، لأنّه ما كان يخطر بباله أن يرث من الرّسول ﷺ، فكيف يليق بالرّسول ﷺ أن يبلغ هذه المسألة إلى من لا حاجة به إليها؟ ولا يبلغها إلى من له إلى معرفتها أشدّ الحاجة؟!

---

(١) أصول الكافي، ج ١، باب صفة العلم، الحديث ٢.

«وثالثها»: يحتمل أن قوله: «ما تركناه صدقة» صلة «لا نورث» والتقدير (الذي تركناه صدقة) فذلك الشيء (لا يُورَّث).

فإن قيل: لايبقى للرّسول خاصية في ذلك!

قلنا: بل تبقى الخاصية، لاحتمال أنّ الأنبياء إذا عزموا على التصدّق بشيء فبمجرّد العزم يخرج ذلك عن ملكهم ولا يرثه وارث عنهم، وهذا المعنى مفقود في حق غيرهم!

والجواب: أنّ فاطمة رضيت بقول أبي بكر بعد هذه المناظرة، وانعقد الإجماع على صحة ما ذهب إليه أبو بكر! الخ[١].

إلاّ أنّ من الواضح أنّ جواب الفخر الرازي لا يناسب الاستدلالات السابقة، لأنّه كما ذكرنا آنفاً ونقلناه عن المصادر المعتبرة عند أهل السنّة... فإنّ فاطمة لا أنّها لم ترض بكلام أبي بكر فحسب، بل ظلّت واجدةً و«غاضبة» عليه، فلم تكلمه حتى آخر عمرها سلام الله عليها!

ثمّ بعد هذا كلّه كيف يمكن أن يدّعي الإجماع في هذه المسألة، مع أنّ عليّاً وفاطمة عليهما السلام والعباس وأضرابهم الذين تربّوا في مهبط الوحي ومركزه، كانوا مخالفين لهذا الرأي؟!

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

التّفسير

سُليمانُ في وادي النَّمْلِ

يستفاد من آيات هذه السورة، وآيات سورة سبأ أنّ «حكومة سليمان» لم تكن حكومةً

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٩، ص ٢١٠.

مألوفة، بل حكومة مقرونة بما يخرق العادات والمعاجز المختلفة، التي ورد قسم منها في هذه السورة، والقسم الآخر ورد في سورة «سبأ» أمّا ما ورد في هذه السورة من الأمور الخارقة للعادة «حكومة سليمان على الجن، والطير، وإدراكه كلام النمل، وكلامه مع الهدهد».

وفي الحقيقة فإنّ الله أظهر قدرته في هذه الحكومة وما سخّر لها من قوى، ونحن نعرف أنّ هذه الأمور عند الله - في نظر الإنسان الموحّد - يسيرة وسهلة!.

وأوّل ما تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾.

وكانت جنوده من الكثرة بحيث كانوا عند التحرك والمسير، ومن أجل المحافظة على النظم، يؤمرون بتوقف مقدمة الجيش لتلحق بها مؤخرتها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

﴿يُوزَعُونَ﴾ من مادة (وزع) على وزن (جمع) ومعناه الحبس والإيقاف، وهذا التعبير متى أُطلق على الجند أو الجيش فيعني إيقاف أوّل الجيش ليلحق به آخره، لكي يحفظ من التشتت والتفرق.

وكلمة «وزع» معناها الحرص والعلاقة الشديدة بالشيء، بحيث تمنع الإنسان عن الأُمور الأُخرى.

ويستفاد من هذا التعبير أنّ جنود سليمان كانوا كثيرين، كما كانوا يخضعون للنظم والانضباط.

«وَحشر» فعل ماض من ﴿الْحَشْرُ﴾ على وزن (نشر) ومعناه إخراج الجمع من المقرّ، والتحرك نحو الميدان للقتال، وما أشبه ذلك.

ويستفاد من هذا التعبير - والتعبير التالي في الآية الأُخرى أنّ سليمان عليه السلام كان قد جمع جنوده وحرّكهم نحو نقطة ما، لكن هذه النقطة أية نقطة هي؟ وأين كان يتّجه سليمان؟ ليس ذلك معلوماً على وجه الدقّة.

واستفاد بعضهم من الآية التالية التي تتحدث عن وصول سليمان إلى وادي النمل، أنّها منطقة على مقربة من الطائف، وقال بعضهم: بل هي منطقة على مقربة من «الشام».

وحيث إنّ هذا الموضوع لا تأثير له في الأُمور الأخلاقية والتربوية «للآية» لذلك لم تتطرق له الآية الكريمة.

وهناك - ضمناً - جدلٌ بين كثير من المفسّرين في أنّ الإنسان والجن والطير، هل كانوا

جميعاً من جنود سليمان؟ فتكون ﴿مِنَ﴾ في الآية بيانية، أو أنّ قسماً منهم كان يؤلف جيشه وجنوده فتكون ﴿مِنَ﴾ تبعيضية. . ويبدو أنّ هذا بحث لا طائل تحته. . . لأنّ سليمان - دون أدنى شك - لم يكن حاكماً على وجه البسيطة كلها، بل كانت منطقة نفوذه وحكومته منطقة الشام وبيت المقدس، وقد يدخل بعض ما حولهما تحت سلطته وحكومته!.

كما يستفاد من الآيات التالية أنّه لم تكن له بعدُ سلطة على اليمن أيضاً. . وإنّما صارت اليمن تحت نفوذه بعد قصّة الهدهد و«تسليم ملكة سبأ» وإذعانها له.

وجملة ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ في الآيات التالية، تدلّ على أنّ هُدهداً واحداً كان ضمن الطير التي كانت تحت أمر سليمان، بحيث إنّه لما افتقده سأل عنه، فلو كانت الطيور جميعها تحت أمره وفيها آلاف الهداهد، لكان هذا التعبير غير صحيح «فتأمّلوا بدقة».

وعلى كل حال، فإنّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ تحرك بهذا الجيش العظيم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾.

فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذرة، كما تقول الآية: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[1].

ولنا كلام سيأتي - إن شاء الله - في كيفية اطّلاع النملة ومعرفتها بحضور سليمان وجنوده في تلك المنطقة، وكيف أوصلت صوتها إلى بقية النمل؟

ويستفاد ضمناً من جملة ﴿لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنّ عدل سليمان كان ظاهراً وواضحاً حتى عند النمل، لأنّ مفهوم الجملة أنّ سليمان وجنوده لو شعروا والتفتوا إلى النملة الضعيفة لما وطأوها بالأقدام، وإذا وطأوها فإنّما ذلك لعدم توجههم والتفاتهم: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾.

هناك كلمات مختلفة عند المفسّرين في الشيء الذي أضحك سليمان، والظاهر أنّ القضية ذاتها كانت عجيبة عند سليمان، بحيث تُحذّر نملة صويحباتها من النمل. . . تحذرهنّ من تحطيم سليمان وجنوده إياهن وهم لا يشعرون، فضحك من أجلها!

وقال بعضهم: كان ضحك سليمان سروراً منه بأن عرف أنّ النمل تعترف بتقواه وعدالته وتقوى جنوده وعدالتهم.

وقال بعضهم: كان ضحكه وتبسمه لأنّ الله أعطاه هذه القدرة، وهي أنّه برغم جلجلة

---

(١) قال بعض المفسّرين: إن (التاء) في النملة للوحدة، وتأنيث الفعل مراعاة لظاهر الكلمة!. .

جيشه ولجبه فإنّه التفت إلى صوت النملة مخاطبة بقية النمل فلم يغفل عنها.

وعلى كل حال، فإن سليمان توجه نحو الله.. داعياً وشاكراً مستزيداً فضله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾(١).

أي، لتكون لي القدرة أن أستعمل هذه النعم جميعها في ما أمرتني به وما يرضيك، ولا أنحرف عن طريق الحقّ، فإن أداء شكر هذه النعم لا يكون إلاّ بتوفيقك وإعانتك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ وهو يشير إلى أنّ بقاء هذا الجيش وحكومته وتشكيلاتها الواسعة غير مهم بالنسبة إليه، بل المهم أن يؤدّي عملاً صالحاً يرضي به ربّه، وحيث إنّ ﴿أَعْمَلَ﴾ فعل مضارع فهو دليل على طلب استمرار التوفيق من قبل الله له.

والطلب الثّالث الذي طلبه سليمان من ربّه، كما حكته الآية، هو أن يجعله في زمرة الصالحين، إذ قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾..

بحوث

١ - معرفة سليمان بلغة الحيوانات ومنطقها

ليس لنا كثيرُ معرفة بعالم الحيوانات... وما يزال الغموض أو الإبهام يكتنف هذا العالم ويلقي عليه ظلاله، بالرغم من التقدم العلمي في هذا المجال.

إنّنا نرى آثار ذكاء الحيوانات ومهارتها في كثير من أعمالها.. فبناء خلايا النحل بشكلها المنظّم الدقيق، ودقة النمل في جميع ما يحتاج للشتاء، وكيفية ذخيرته ومذخره! ودفاع الحيوانات عن نفسها عند مواجهتها العدوّ، وحتى معرفتها بكثير من الأمراض، والعثور على بيوتها وأوكارها من الأماكن البعيدة، وقطع المسافات الطويلة للوصول إلى هدفها... وتوقّعها عن حوادث المستقبل وأمثالها.

كل هذه الأُمور تدل على أنّ في دنيا الحيوانات كثيراً من الأُمور الغامضة التي لا نعرف حلّها!.

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ كثيراً من الحيوانات تقوم بأعمال مذهلة نتيجة للتعلم والتربية... يعجز عنها حتى الإنسان.

---

(١) ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ من مادة (إيزاع) ومعناه «الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق والتعلق، إلاّ أنّ أغلب المفسّرين اختاروا المعنى الأوّل.

إلاّ أنّه ليس من الواضح أنّ هذه الحيوانات إلى أية درجة هي خبيرة بدنيا الناس!. . . ترى هل تعلم الحيوانات واقعاً: من نحن؟! وما نعمل؟ وقد لا نعهد في هذه الحيوانات ذكاءً بهذا المستوى، إلاّ أنّ هذا لا يعني نفيه وسلبه عنها.

فعلى هذا الحساب إذا كنّا قرأنا في القصّة السابقة. . . أنّ النمل علم بمجيء سليمان وجنوده، وحذر من البقاء، وأنّه يجب التوجه نحو مساكنه لئلا يحطمه سليمان وجنوده. . . وسليمان عرف هذا الموضوع تماماً. . . فلا مجال للعجب.

ثمّ بعد هذا فإنّ حكومة سليمان - كما قلنا آنفاً - كانت خارقة للعادات مقرونة بالمعاجز، فعلى هذا الأساس أبدى بعض المفسّرين اعتقادهم بأنّ هذا المستوى من الاطلاع والمعرفة - من قبل فئة من الحيوانات في عصر سليمان، هو بنفسه إعجاز خارق للعادة، ولا يمنع أن لا نرى ذلك عينه في سائر العصور والقرون.

والغرض أنّه لا دليل عندنا على حمل قصّة سليمان والنمل، أو سليمان والهدهد، على الكناية أو لسان الحال، مع إمكان حفظ الظاهر وحمله على المعنى الحقيقي[1]!

٢ - سليمان وإلهامه الشكر لله

إنّ واحدةً من أفضل العلامات لمعرفة الحكام الإلهيين وتمييزهم عن الحكام الجبابرة، هي أنّ الجبابرة حين يصلون إلى القدرة يغرقون في الغرور والغفلة، وينسون القيم الإنسانية كلّها. . . ويندكّون بشدّة في أنانيتهم!

إلاّ أنّ الحكام الإلهيين حين ينالون القدرة يحسّون بأعباء المسؤولية. . فيتوجهون نحو الله أكثر من أي وقت مضى، ويسألونه العون والقدرة على أداء رسالتهم. . . كما أنّ «سليمان» بعد أن وصل إلى تلك القدرة، كان أهم شيء عنده أن يسأل الله الشكر على نعمه، والإفادة من هذه المواهب في مسير رضاه وسعادة عباده!.

وممّا يلفت النظر أن يبدأ طلبه بعبارة: ﴿أَوْزِعْنِيٓ﴾ ومفهومه الإلهام الوجداني وإعداد القوى الباطنية كلها لأداء هذا الهدف الكبير، ومعناها: اللّهم تفضل عليَّ بقدرة وطاقة تجعلني أعبىءُ كل قواي الداخلية لأداء شكرك، وأداء ما عليَّ من مسؤولية. . ودلّني على السبيل إليك، لأنّ الطريق طويل صعب محفوف بالمخاوف والمخاطر. . طريق أداء حقوق جميع الناس في مثل هذه الحكومة الواسعة.

---

(١) تحدثنا في تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام عن هذا الشأن أيضاً. .

إنّه لا يطلب الإيزاع على شكر نعم الله عليه فحسب، بل يطلب في الوقت ذاته أن يؤدّي الشكر على المواهب والنعم التي أنعمها الله على والديه... لأنّ كثيراً من مواهب وجود الإنسان يرثها عن والديه... وممّا لا شك فيه أنّ الإمكانات التي يمنحها الله للوالدين تعين الأبناء كثيراً في سبيل الوصول لأهدافهم.

٣ - سليمان والعمل الصالح

ممّا يلفت النظر أنّ سليمان رغم حكومته وسلطنته التي لا نظير لها، وتلك القدرة الواسعة، إلاّ أنّه يطلب من الله أن يوفقه للعمل الصالح باستمرار، وأهم من ذلك وأسمى أن يكون في زمرة عباده الصالحين.

ويستفاد من هذا التعبير:

أوّلاً: أنّ الهدف النهائي من نيل القدرة هو أداء العمل الصالح، العمل الجدير القيّم... وكل ما سواه يعدّ مقدمة له!.

والعمل الصالح مقدمة - أيضاً - لنيل رضا الله - الذي هو الهدف النهائي وغاية الغايات.

ثانياً: أنّ الدخول في زمرة «الصالحين» مرحلة أسمى من مرحلة أداء العمل الصالح، لأنّ الأوّل يعني صلاح الذات، والثّاني صلاح العمل «لاحظوا بدقّة».

وبتعبير آخر: قد يقوم الإنسان بعمل صالح، إلاّ أنّ هذا المعنى لا يعدّ جزءاً من ذاته وروحه ونسيج وجوده، فسليمان عليه السلام يطلب من الله أن يشمله بعنايته إلى درجة يتجاوز بها مرحلة كونه يعمل صالحاً، لينفذ الصلاح إلى أعماق وجوده وروحه، ولا يمكن تحقق هذا إلاّ برحمة الله.

فكم هو عزيز وغال أن يكون الإنسان عبداً صالحاً لله، بحيث يطلب سليمان من ربّه أن يدخله في عباده الصالحين، على الرغم من جاهه وحشمته وجلاله الذي لا يشك فيها أحد، وأن يحفظه الله من العثرات والزلات في كل آن، وخاصّة ما قد يصدر من الإنسان وهو على رأس هيئة عظيمة وتشكيلات واسعة!

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ

غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى
وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾
وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ
فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾

التّفسير

قصّة الهُدهد وملكة سبأ

يشير القرآن في هذا القسم من الآيات إلى جانب آخر من حياة سليمان عليه السلام المدهشة، وما جرى له مع الهدهد وملكة سبأ.

فيقول أوّلاً: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾.

وهذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، وهي أنّه كان يراقب وضع البلاد بدقّة، وكان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شيء، حتى لو كان طائراً واحداً.

ومما لا شك فيه أنّ المراد من الطير هنا هو الهُدهد، لأنّ القرآن يضيف استمراراً للكلام ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾.

وهناك كلام بين المفسّرين في كيفية التفات سليمان إلى عدم حضور الهدهد.

فقال بعضهم: كان سليمان عليه السلام عندما يتحرك تظلل الطير بأنواعها فوق رأسه فتكون مثل الخيمة، وقد عرف غياب الهدهد من وجود ثغرة في هذا الظل!.

وقال بعضهم: كان الهدهد مأموراً من قبل سليمان بالتقصيّ عن الماء كلما دعت الحاجة إليه... وعندما دعت الحاجة إلى الماء في هذه المرّة لم يجد الهدهد فعرف غيابه.

وعلى كل حال، فهذا التعبير ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ ثمّ قوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ لعله إشارة إلى أنّ غياب الهدهد هل كان لعذر مقبول أو لغير عذر؟

وعلى أيّة حال، فإنّ حكومة منظمة ومقتدرة يجب أن تجعل كل شيء يجري داخل

إطار الدولة تحت نظرها ونفوذها. . . حتى وجود طائر واحد وغيابه، لابدّ أن لا يخفى عن علمها ونظرها. . . وهذا درس كبير لمن أراد التدبير.

ومن أجل أن لا يكون حكم سليمان غيابياً، وأن لا يؤثر غياب الهُدهد على بقية الطيور، فضلاً عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلاً: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

والمراد من «السلطان» هنا هو الدليل الذي يتسلط به الإنسان من أجل إثبات قصده، وتأكيد هذا اللفظ بـ ﴿مُّبِينٍ﴾ هو أنّه لابدّ لهذا الفرد المتخلف من إقامة دليل واضح وعذر مقبول لتخلفه!

وفي الحقيقة فإنّ سليمان قبل أن يقضي غيابياً ذكر تهديده اللازم في صورة ثبوت التخلّف. . . وحتى هذا التهديد جعله في مرحلتين تناسبان الذنب. . . مرحلة العقاب بما دون الإعدام، ومرحلة العقاب بالإعدام.

وقد برهن «سليمان» ضمناً أنّه - حتى بالنسبة للطائر الضعيف - يستند في حكمه إلى المنطق والدليل، ولا يعوّل على القوّة والقدرة أبداً.

ولكن غيبة الهدهد لم تطل ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ عاد الهدهد وتوجه نحو سليمان: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

وكأنّ الهدهد قد رأى آثار الغضب في وجه سليمان، ومن أجل أن يزيل ذلك التهجم، أخبره أوّلاً بخبر مقتضب مهم إلى درجة أنّ سليمان نفسه كان غير مطّلع عليه، برغم ما عنده من علم، ولما سكن الغضب عن وجه سليمان، فصّلَ الهدهد له الخبر، وسيأتي بيانه في الآيات المقبلة.

وممّا ينبغي الالتفات إليه أنّ جنود سليمان - حتى الطيور الممتثلة لأوامره - كانت عدالة سليمان قد أعطتهم الحرية والأمن والدعة بحيث يكلمه الهدهد دون خوف وبصراحة لا ستار عليها فيقول: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾.

فتعامل الهدهد «وعلاقته» مع سليمان لم يكن كتعامل الملأ المتملقين للجبابرة الطغاة. . إذ يتملقون في البدء مدة طويلة، ثمّ يتضرّعون ويعدّون أنفسهم كالذرّة أمام الطود، ثمّ يهوون على أقدام الجبابرة ويبدون حاجتهم في حالة من التضرع والتملق، ولا يستطيعون أن يصرّحوا في كلامهم أبداً، بل يكنّون كنايةً أرق من الورد لئلا يخدش قلب السلطان غبار كلامهم!!.

أجل، إنّ الهُدهد قال بصراحة: غيابي لم يكن اعتباطاً وعبثاً... بل جئتك بخبر يقين «مهم» لم تحط به!

وهذا التعبير درس كبير للجميع، إذ يمكن أن يكون موجود صغير كالهدهد يعرف موضوعاً لا يعرفه أعلم من في عصره، لئلا يكون الإنسان مغروراً بعلمه... حتى لو كان ذلك سليمان مع ما عنده من علم النبوّة الواسع.

وعلى كل حال، فإنّ الهدهد أخذ يفصّل لسليمان ما حدث فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾.

لقد بيّن الهُدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريباً، وأسلوب حكومته!

فقال أوّلاً: إنّه بلد عامر فيه جميع المواهب والإمكانات، والآخر: إنّني وجدت امرأة في قصر مجلل تملكهم، والثّالث: لها عرش عظيم - ولعله أعظم من عرش سليمان - لأنّ الهدهد كان رأى عرش سليمان حتماً، ومع ذلك يصف عرش هذه الملكة بأنّه عظيم.

وقد أفهم الهدهد بكلامه هذا سليمان أنّه لا ينبغي أن تتصور أن جميع العالم تحت «نفوذ أمرك وحكومتك»! وأنّ عرشك هو وحده العرش العظيم...

ولما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد غرق في تفكيره، إلاّ أنّ الهُدهد لم يمهله طويلاً فأخبره بخبر جديد... خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس وبذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

وقد غرقوا في عبادة الأصنام حتى أنّي لا أتصور أنّهم يثوبون إلى رشدهم ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وهكذا فقد بيّن الهدهد ما هم عليه من حالة دينية ومعنوية أيضاً، إذ هم غارقون في الشرك والوثنية والحكومة تروّج عبادة الشمس... والناس على دين ملوكهم.

معابدهم وأوضاعهم الأُخرى تدل على أنّهم سادرون في التيه، ويتباهون بهذا الضلال والانحراف، وفي مثل هذه الظروف التي يرى فيها الناس والحكومة على خط واحد، فمن البعيد إمكان هدايتهم.

ثمّ أضاف الهُدهد قائلاً: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾(١).

وكلمة «خَبء» على وزن ﴿صَبَرَ﴾ معناها كل شيء خفي مستور، وهي هنا إشارة إلى إحاطة علم الله بغيب السماوات والأرض، أي: لِمَ لا يسجدون لله الذي يعلمُ غيب السماوات والأرض وما فيهما من أسرار؟!

وما فسّره بعضهم بأن الخبء في السماوات هو الغيث، والخبء في الأرض هو النبات، فهو - في الحقيقة - من قبيل المصداق البارز.

والطريف في الآية أنّها تتكلم أوّلاً عما خفي في السماوات والأرض، ثمّ تتكلم عن أسرار القلوب!.

إلاّ أنّه لِمَ استند الهدهد من بين جميع صفات الله إلى علمه بغيب العالم وشهوده كبيره وصغيره؟!

لعل ذلك لمناسبة أنّ سليمان - بالرغم من جميع قدرته - كان يجهل خصائص بلد سبأ، فالهدهد يقول: ينبغي الاعتماد على الله الذي لا يخفى عليه شيء في السماوات والأرض.

أو لمناسبة أنّه - طبقاً لما هو معروف - للهدهد حس خاص يدرك به وجود الماء في داخل الأرض. . . لذلك يتكلم عن علم الله الذي يعلم بكل خافية في عالم الوجود.

وأخيراً يختتم الهدهد كلامه هكذا ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩﴾.

وهكذا يختتم الهدهد كلامه مستنداً إلى «توحيد العبادة» و«توحيد الرّبوبية» لله تعالى، مؤكداً نفي كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

ملاحظتان

أ - الدروس التعليميّة

ما قرأناه في هذا القسم من الآيات، فيه لطائف كثيرة ومسائل دقيقة، يمكن أن يكون لها كبير الأثر في حياة الناس وسياسة الحكومات جميعاً.

---

(١) كلمة «ألاّ» مركبة من (أن ولا) كما يذهب إلى ذلك كثير من المفسّرين، وهي متعلقة بجملة ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ أو ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ وقدروا لها اللام فتكون الجملة على هذا النحو من التقدير «صدّهم عن السبيل لئلا يسجدوا لله» إلاّ أنّ الظاهر أن (ألاّ) حرف تحضيض ومعناه (هلاّ) وكما قلنا في المتن فإنّ هذه الجملة من كلام الهدهد تعقيباً على ما سبق، وإن كان هناك من يقول بأنّها استئنافية وإنّها من كلام الله. .

١ - فرئيس الحكومة أو المدير العام، ينبغي عليه أن يكون دقيقاً في دائرته أو تشكيلاته التنظيمية، بحيث يتابع حتى غياب الفرد الواحد ويتفقده!

٢ - أن يراقب تخلف الفرد، وأن يتخذ الحكم الصارم، لكيلا يؤثر غيابه على الآخرين.

٣ - لا ينبغي أن يُصدر حكماً غيابياً أبداً دون أن يمنح المتخلف الفرصة للدفاع عن نفسه، مع الإمكان.

٤ - ينبغي أن يجعل لكل جريمة عقاباً مناسباً... وأن يكون العقاب بمقدار الذنب، وأن يراعي سلسلة مراتبه.

٥ - أنّ على أي شخص - حتى لو كان أكبر الناس، أو بيده أعظم المسؤوليات والقدرة الاجتماعية - أن يذعن للمنطق والدليل حتى ولو صدر من فم أضعف الخلق!.

٦ - ينبغي أن تحكم الصراحة في محيط المجتمع، وأن يتمتع أفراده بالحرية بحيث يستطيع الواحد منهم عند اللزوم أن يقول لرئيس الحكومة: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾!

٧ - من الممكن أن يكون أقل الأفراد على اطلاع ومعرفة، في حين أنّ أكبر العلماء وأصحاب النفوذ غير مطلعين، لكيلا يغتر أيّ إنسان بعلمه!

٨ - في المجتمع البشري حاجات وضرورات متبادلة، بحيث قد يحتاج أكبر شخص فيه - كسليمان مثلاً - إلى مساعدة أدنى شخص حتى ولو كان مثل الهدهد!

٩ - بالرغم من أنّ في النساء قابليات كثيرة! وقصّة سليمان نفسها حاكية عن أنّ ملكة سبأ كانت تتمتع بدراية كبيرة وفهم عال، إلاّ أنّ قيادة الحكومة لا تتلاءم مع حالة المرأة وروحها وجسمها، بحيث يتعجب الهدهد من هذه المسألة ويقول: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾!

١٠ - أغلب الناس على دين ملوكهم... لذلك نقرأ في هذه القصّة أنّ الهدهد يقول في شأن الملكة وقومها: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

يتحدث الهدهد أولاً عن سجودها ثمّ عن سجود قومها.

ب - الجواب على بعض الأسئلة

للمفسّرين هنا بعض الأسئلة، ومنها: كيف لم يُحط سليمان عليه السلام بمثل هذه البلدة مع ما لديه من علم وإمكانات وفيرة في حكومته؟.

ثمّ كيف طوى الهدهد هذه المسافة بين اليمن ومركز حكومة سليمان الّذي كان في الشام «على ما يظهر»؟

وهل كان الهدهد قد ضل الطريق ثمّ اهتدى إلى ذلك المكان، أو كان له غرض آخر؟!

أمّا في ما يخص السؤال الأوّل فيمكن أن يُجاب عنه بأنّ سليمان عليه السلام كان ذا علم بوجود هذه البلدة، إلاّ أنّه لم يعرف خصائصها، ثمّ إنّ صحراء الحجاز كانت تفصل بين اليمن والشام، ولم تكن وسائل المواصلات بين البلدان يومئذ كما هي عليه في يومنا هذا «وبالطبع فإنّ علمه عن طريق الغيب والإلهام الإلهي موضوع آخر».

وأمّا قطع المسافة من قبل الهدهد، فإنّها لم يكن عسيرة عليه. . . لأنّنا نعرف بعض الطيور التي تقطع المسافة بين القطبين. . والفاصلة بين الشام واليمن إزاء تلك المسافة لا تعدّ شيئاً.

وأمّا مجيء الهدهد إلى سبأ فكان - كما تقول بعض التواريخ - أنّ سليمان عزم على زيارة بيت الله الحرام، فتوجه من الشام ليؤدّي مناسك إبراهيم عليه السلام «أي الحج»، وفي مسيره رغب في السير نحو الجنوب، فواصل منطقةً لا تبعد عن اليمن كثيراً. . . فاغتنم الهدهد الفرصة عندما استراح سليمان في تلك المنطقة وجاء إلى قصر ملكة سبأ فرأى ما رأى من المشهد المثير العجيب[١].

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟

(١) لا بأس بمراجعة دائرة المعارف لمحمّد فريد وجدي، ج ١٠، ص ٤٧٠ مادة «الهدهد» بالرغم من أنّ الرّواية المذكورة هناك لم تخل من المبالغات! . .

أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

التّفسير

الملوكُ مفسدون مخربون

لقد أصغى سليمان عليه السلام إلى كلام الهُدهد بكل اهتمام.. وفكّر ملياً، ولعل سليمان كان يظنُّ أنّ كلام الهدهد صحيح، ولا دليل على كذب بهذا الحجم.. لكن حيث إنّ هذه المسألة لم تكن مسألة «ساذجةً» بسيطة، ولها أثر كبير في مصير بلد كامل وأمّة كبيرة!.. فينبغي أن لا يكتفي بمخبر واحد، بل ينبغي التحقيق أكثر في هذا المجال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

وهذا الكلام يثبت بصورة جيدة أنّه يجب الاهتمام في المسائل المصيرية المهمّة، حتى لو أخبر بها «فردٌ» صغير، وأن يُعجّل في التحقيقات اللازمة «كما تقتضيه السين» في جملة ﴿سَنَنظُرُ﴾!

سليمان عليه السلام لم يتّهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب.. ولم يُصدّق كلامه دون أيّ دليل... بل جعله أساساً للتحقيق!

وعلى كل حال، فقد كتب كتاباً وجيزاً ذا مغزى عميق، وسلّمه إلى الهدهد وقال له: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾(١).

يستفاد من تعبير (ألقه إليهم) أن يلقي الكتاب عندما تكون ملكة سبأ حاضرة بين قومها، لئلا تعبث به يد النسيان أو الكتمان.، ومن هنا يتّضح أنّ ما ذهب إليه بعض المفسّرين بأنّ الهدهد ذهب إلى قصر ملكة سبأ ودخل مخدعها وألقى الكتاب على صدرها أو حنجرتها - لا يقوم عليه دليل - وإن كان متناسباً مع الجملة التي وردت في الآية التالية ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾.

ففتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، واطّلعت على مضمونه، وحيث إنّها كانت من قبل

---

(١) قال بعض المفسّرين: إنّ جملة ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مؤخرة معنىً، وإن تقدمت في العبارة، وأصلها هكذا: فانظر ماذا يرجعون ثمّ تولّ عنهم... وإنّما قدروا ذلك لأنّ تولّ عنهم معناه العودة والرجوع، مع أنّ ظاهر الآية أنّه الق الكتاب واعرض عنهم وانتظر في مكان مشرف لترى رد فعلهم!..

قد سمعت بأخبار سليمان واسمه، ومحتوى الكتاب يدلّ على إقدامه وعزمه الشديد في شأن بلدة «سبأ»، لذلك فكّرت مليّاً، ولما كانت في مثل هذه المسائل المهمّة تستشير من حولها، لذلك فقد دعتهم وتوجهت إليهم و﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾.

ترى، حقّاً أنّ ملكة سبأ لم تكن رأت «حامل الكتاب»، إلاّ أنّها أحست بأصالة الكتاب من القرائن الموجودة فيه؟ ولم تحتمل أن يكون الكتاب مفتعلاً ومفترى أبداً..؟!

أم أنّها رأت الرّسول بأُم عينيها، ورأت كيفية وصول الكتاب المدهشة التي هي بنفسها دليل على أنّ المسألة واقعية ومهمّة، ومهما كان الأمر فإنّها عوّلت على الكتاب بكل اطمئنان؟.

وقول الملكة: ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ «أي قيم» لعله لمحتواه العميق، أو لأنّه بُدىء باسم الله أو لأنّه ختم بإمضاء صحيح(١). أو لأنّ مرسله رجل عظيم، وقد احتمل كل مفسّر وجهاً منها - أو جميعها - لأنّه لا منافاة بينها جميعاً. وقد تجتمع جميعها في هذا المفهوم الجامع!.

صحيح أنّهم (قوم سبأ) كانوا يعبدون الشمس، إلاّ أننا نعرف أنّ كثيراً من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بالله - أيضاً - ويسمونه ربّ الأرباب ويعظمونه ويحترمونه.

ثمّ إنّ «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾(٢).

ومن البعيد - كما يبدو - أن يكون سليمان كتب كتابه إلى ملكة سبأ بهذه العبارات «وهذه الألفاظ العربيّة». إذاً فالجمل الآنفة يمكن أن تكون منقولة بالمعنى، أو أنّها خلاصة ما كان كتبه سليمان، وقد أدّتها ملكة سبأ بهذه الوجازة والاقتضاب إلى قومها.

الطريف أنّ مضمون هذا الكتاب لم يتجاوَز في الواقع ثلاث جمل:

---

(١) ورد في الحديث أن كون الكتاب كريماً هو بخاتمه «تفسير مجمع البيان والميزان والقرطبي». وجاء في حديث آخر أنّ الرّسول ﷺ أراد أن يكتب رسالة للعجم، فقيل له: إنّهم لا يقبلونها إلاّ بالخاتم، فأمر النّبي أن يصنع له خاتماً ونقشه «لا اله إلاّ الله محمّد رسول الله» وختم الرسالة أو الكتاب بذلك الخاتم «القرطبي ذيل الآيات مورد البحث».

(٢) جملة ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَىَّ﴾ يمكن أن تكون بمجموعها بدلاً من (كتاب) وبيان لمحتواه. كما يمكن أن تكون (أن) تفسيرية فهي هنا بمعنى (أي) - كما يحتمل أن (أن) تكون متعلقة بمحذوف وتقديره: أوصيكم ألا تعلوا الخ..

الأولى: ذكر «اسم الله» وبيان رحمانيّته ورحمته.

الثّانية: الأمر بترك الاستعلاء والغرور. لأنّ الاستعلاء مصدر المفاسد الفرديّة والاجتماعيّة.

والثّالثة: التسليم والإذعان للحق.

وإذا أمعنا النظر لم نجد شيئاً آخر لابدّ من ذكره.

وبعد أن ذكرت ملكة سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها... التفتت إليهم و﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

لقد أرادت الملكة بهذه الاستشارة تقوية مركزها في قومها، وأن تلفت أنظارهم إليها، كما أرادت ضمناً أن تعرف مدى انسجامهم وميزان استجابتهم لما تُقدم عليه من تصميم.

كلمة ﴿أَفْتُونِى﴾ مشتقّة من (الفتوى) معناها في الأصل الحكم الدقيق والصحيح في المسائل الغامضة والصعبة... فملكة سبأ أرادت بهذا التعبير أن تشعرهم بصعوبة المسألة أوّلاً، وأن يدققوا النظر ويجمعوا الرأي فيها ليتجنبوا الخطأ ثانياً.

﴿تَشْهَدُونِ﴾ مأخوذ من مادة «الشهود»، ومعناه الحضور... الحضور المقرون بالتعاون والمشورة!.

فالتفت إليها أشراف قومها وأجابوها على استشارتها فـ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

وهكذا فقد أظهروا لها تسليمهم وإذعانهم لأوامرها... كما أبدوا رغبتهم في الاعتماد على القوّة والحضور في ميدان الحرب.

ولمّا رأت الملكة رغبتهم في الحرب خلافاً لميلها الباطني، ومن أجل إطفاء هذا الظمأ وأن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾.

فيقتلون جماعةً منهم ويأسرون آخرين ويطردون طائفة ثالثة ويخرجونهم من ديارهم ويخربون حيّهم وينهبون ثرواتهم وأموالهم...

ولمزيد التأكيد أردفت قائلةً: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وفي الحقيقة... إنّ ملكة سبأ التي كانت بنفسها ملكةً، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، وأنّ سيرتهم تتلخص في شيئين:

١ - الإفساد والتخريب.

٢ - وإذلال الأعزة. . .

لأنّهم يفكرون في مصالحهم الشخصية، ولا يكترثون بمصالح الأُمّة وعزتها. . . وهما على طرفي نقيض دائماً.

ثمّ أضافت الملكة قائلةً: علينا أن نختبر سليمان وأصحابه، لنعرف من هم وما يريدون؟ وهل سليمان نبيّ حقاً أو ملك؟ وهل هو مصلح أو مفسد؟ وهل يذلّ الناس أم يحترمهم ويعزّهم؟

فينبغي أن نرسل شيئاً إليه ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

فالملوك لهم علاقة شديدة بالهدايا، ونقطة الضعف كامنة في هذا الأمر، فيمكن أن يذعنوا للهدايا الغالية. . . فإذا أذعن سليمان بهذه الهدية فهو ملك، وينبغي أن نواجهه بالقوّة فنحن أقوياء. . . وإذا ألح على كلامه ولم يكترث بنا فهو نبيّ، وفي هذه الصورة ينبغي التعامل معه بالحكمة والتعقل!

ولم يذكر القرآن أية هدية أرسلتها الملكة إلى سليمان، لكنّه بتنكيرها بيّن عظمتها، إلاّ أنّ المفسّرين ذكروا مسائل كثيرة لا يخلو بعضها من الإغراق:

قال بعضهم: أرسلت إليه خمسمائة غلام وخمسمائة جارية ممتازة، وقد ألبست الرجال ثياب النساء والنساء ثياب الرجال، وجعلت الأقراط في آذان الرجال والأسورة في أيديهم، وألبست الجواري تيجاناً. . . وكتبت في رسالتها إلى سليمان: لو كنت نبيّاً فميّز الرجال من النساء!.

وبعثت أُولئك على مراكب ثمينة، ومعهم جواهر وأحجار كريمة، وأوصت رسولها - في الضمن - أن انظر كيف يواجهك سليمان عند وردك عليه، فإن واجهك بالغضب فاعلم بأنّه سيرة الملوك، وإن واجهك بالمحبة واللطف فاعلم أنّه نبيّ.

بحوث

١ - آداب كتابة الرسائل

ما ورد في الآيات آنفة الذكر في شأن كتاب «سليمان» إلى أهل سبأ، هو قدوة لكتابة الرسائل و«الكتب» وقد تكون من المسائل المهمّة والمصيرية. . . إذ تبدأ بـ(بسم الله الرحمن الرحيم) وتبيّن روح الكلام في جملتين مدروستين.

ويظهر من التاريخ الإسلامي والرّوايات - بشكل واضح - أنّ أئمتنا الكرام عليهم الصلاة والسلام، كانوا يُعنون بالاختصار والاقتضاب في إرسال الكتاب خالياً من الحشو والزوائد، وهو مدروس أيضاً.

فأمير المؤمنين عليه السلام يكتب إلى عماله وممثليه في بعض كتبه: «أدقّوا أقلامكم، وقاربوا بين سطوركم، واحذفوا عنّي فضولكم، واقصدوا قصد المعاني، وإيّاكم والإكثار، فإن أموال المسلمين لا تحتمل الإضرار»(١).

إنّ بري لسان القلم يجعل الكلمات أصغر، وتقارب السطور وحذف الفضول، لايؤدّي إلى الاقتصاد في الأموال العامة أو الشخصية فحسب - بل يقتصد في وقت الكاتب والقارىء أيضاً... وقد يضيع الفضول والتشريفات الواردة في أثناء جمل الكتاب الهدف من كتابته، فلا يصل الكاتب والقارىء إلى الهدف المنشود!

وفي هذه الأيّام أصبح من المألوف الإكثار في كتابة العناوين البراقة والألقاب الفخمة وزيادة المقدمات والحواشي والإضافات على خلاف ما كان في صدر الإسلام ممّا يهدر الكثير من الطاقات والأوقات والثروات.

وخاصة ينبغي الالتفات إلى أنّ الكتاب «الرسالة» في ذلك العصر كان يتطلب زماناً طويلاً لإيصاله وبذل المال لحامل الكتاب، ومع ذلك كانت الكتب موجزة مقتضبة، ويمكن ملاحظة أمثلة منها في كتب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خسرو درويز وقيصر الروم وأمثالهما.

وأساساً فإنّ رسالة الإنسان وكتابه دليل على شخصيته، كما أنّ حامل الكتاب والرّسول دليل على شخصية المرسل أيضاً.

يقول الإمام علي عليه السلام في نهج البلاغة: «رسولك ترجمان عقلك، وكتابك أبلغ من ينطق عنك»(٢).

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «يستدل بكتاب الرجل على عقله وموضع بصيرته، وبرسوله على فهمه وفطنته»(٣).

---

(١) الخصال - للصدوق، طبقاً لما جاء في البحار، ج ٧٦، ص ٤٩.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار - الجملة ٣٠١.
(٣) بحار الأنوار، ج ٧٦، ص ٥٠.

والجدير بالذكر أنّه يستفاد من الرّوايات الإسلامية أنّ ردّ الكتاب واجب كردّ السلام، إذ نقرأ عن الإمام الصادق أنّه قال: «ردّ جواب الكتاب واجب كوجوب ردّ السلام»[١].

وحيث إنّ كل رسالة أو كتاب مشفوع عادة بالتحية، فلا يبعد أن يكون مشمولاً بالآية الكريمة: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[٢].

٢ - هل دعا سليمان إلى التقليد؟!

بعض المفسّرين استفادوا من كتاب سليمان أنّه دعا أهل سبأ إليه دون دليل!

ثمّ أجابوا بأن مجيء الهدهد بتلك الصورة «المعجزة» بنفسه دليل على حقانية دعوته[٣].

إلاّ أنّنا نعتقد أنّه لا حاجة إلى مثل هذه الردود والإجابات، فوظيفة النّبي هي الدعوة. ووظيفة الآخرين التحقيق في أمره، وبتعبير آخر: إنّ الدعوة هي الباعث على التحقيق. . . كما قامت بذلك ملكة سبأ، فاختبرت سليمان وتحققت عنه، أهو ملك أم نبيّ؟!

٣ - مداليل عميقة في قصّة سليمان عليه السلام

نلاحظ في هذا القسم من قصّة سليمان عليه السلام إشارات قصيرة إلى مسائل مهمّة أيضاً:

أ - تتلخص «روح» دعوة الأنبياء في نفي الاستعلاء الذي يعني نفي كل نوع من أنواع الاستثمار والاستعمار، والتسليم للحق والقانون الصحيح.

ب - بالرغم من أنّ أصحاب ملكة سبأ أعلنوا استعدادهم لخوض المعركة، إلاّ أنّ الطبع النسائي الشفاف في الملكة لم يكن موافقاً على ذلك، ولذلك عطفت أنظارهم إلى مسائل أُخرى.

ج - ولو أنّ الملكة أذعنت لرأيهم في الحرب لكانت بعيدة عن الحقيقة والصواب، وسنرى أنّ إقدامها على إرسال الهدية كان مثمراً، وكانت نتيجة طيبة لها ولقومها، وكان سبباً لأن يهتدوا إلى طريق الحق والعدل، ويبتعدوا عن سفك الدماء!

د - ويستفاد من هذه القضية ضمناً أنّ المناهج التشاورية لا تنتهي إلى الحق دائماً. . إذ كانت عقيدة الأكثرية هنا أن يلجأوا إلى القوّة والقتال في حين أنّ ملكة سبأ كانت ترى خلاف نظرتهم، وسنرى أنّ الحق كان معها في نهاية القصّة!

---

(١) وسائل الشيعة، ج٨، ص٤٢٧ «كتاب الحج أبواب العشرة باب ٣٢».

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٦. (٣) تفسير الرازي، ذيل الآية مورد البحث.

هـ - ويمكن أن يقال: إنّ هذا النوع من التشاور أو المشورة غير ما هو جار بيننا اليوم من التشاور... فنحن نأخذ برأي الأكثرية على أنّه هو المعيار، ونعطيهم حق التصويت والتصويب، في حين أنّ التشاور محل البحث هو مجرّد إبداء النظر من قبل الأكثرية، والرأي الحاسم لقائد تلك الجماعة.. ولعل الآية: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[1] تشير إلى هذا القسم الثّاني من التشاور. أمّا الآية الكريمة ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2] فناظرة إلى القسم الأوّل[3].

و - قال أصحاب ملكة سبأ لها: ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ ولعل هذا الاختلاف بين «القوة» و«البأس» في التعبير، هو أنّ «القوة» إشارة إلى الكمية العظيمة من الجيش... و«البأس الشديد» إشارة إلى كيفية العمل وروح الشجاعة والشهامة في الجيش، أي إنّ مرادهم أنّهم مستعدون للقتال من الناحية «الكمية» ومن حيث «الكيفية» لمواجهة العدو أيضاً.

٤ - علامات الملوك

يستفاد من هذه الآيات - بصورة جيدة - أنّ الحكومة الاستبدادية والسلطنة في كل مكان مدعاة للفساد وإذلال الأعزة... لأنّ الملوك يبعدون عنهم الشخصيات الفذة، ويدنون المتملقين، ويبحثون في كل شيء عن مصالحهم ومنافعهم الذاتية، وهم أهل رشوة وذهب ومال، وبالطبع فإنّ الأمراء والأعوان القادرون على هذه الأُمور أحبّ عندهم من غيرهم.

وبينما نرى تفكير الملوك ورغباتهم تتلخص في نيل الهدايا والجاه والمقام والذهب والمال... نجد أنّ الأنبياء لا يفكرون إلاّ بإصلاح أممهم!.

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُمۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ (٣٧)﴾

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩. (٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨.

(٣) لمزيد الإيضاح في موضوع الشورى يراجع تفسير الآية (١٥٩) من سورة آل عمران.

التفسير

لا تخدعوني بالمال

خرج رسل ملكة سبأ بقافلة الهدايا وتركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سليمان «في الشام» ظنّاً منهم أنّ سليمان سيكون مسروراً بمشاهدته هذه الهدايا ويرحب بهم.

لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان... فإنّ سليمان عليه السلام - مضافاً إلى عدم استقباله واكتراثه بتلك الهدايا ﴿قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

فما قيمة المال، إزاء مقام النبوّة والعلم والهداية والتقوى ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾؟

أجلْ، أنتم الذين تفرحون بمثل هذه الزخارف، فيهدي بعضكم لبعض فيشرق وجه تلمع عيناه! إلاّ أنّ هذه الأُمور لا قيمة لها عندي ولا أكترث بها.

وهكذا فقد حقّر سليمان عليه السلام معيار القيم عندهم، وأوضح لهم أنّ هناك معياراً آخر للقيمة تضمحلّ عنده معايير عبدة الدنيا ولا تساوي شيئاً.

ومن أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق والباطل، قال لرسول ملكة سبأ الخاص: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾.

و﴿أَذِلَّةً﴾ في الحقيقة حال أولى و﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ حال ثانية، وهما إشارة إلى أنّ أُولئك لا يُخرجون من أرضهم فحسب، بل بالإذلال والإحقار والصغار بشكل يتركون جميع ممتلكاتهم من قصور وأموال وجاه وجلال... لأنّهم لم يذعنوا - ويُسلموا - للحق... وإنّما قصدوا الخداع والمكر!

وطبيعي أنّ هذا التهديد كان تهديداً جديّاً جديراً بأن يؤخذ بنظر الاعتبار بالنسبة لرسل ملكة سبأ الذين كانوا عند سليمان!.

ومع ملاحظة ما قرأناه في الآيات السابقة من أنّ سليمان طلب من أُولئك شيئين: ترك الاستعلاء، والتسليم للحق ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ وكان عدم إجابتهم لهذين وتوسلهم بالهديّة دليلاً على امتناعهم من قبول الحقّ وترك الاستعلاء، ولذلك هدّدهم باستخدام القوة العسكرية.

ولو أنّ ملكة سبأ وقومها طلبوا من سليمان الدليل والمعجزة (على أنّه نبيّ مطاع)

لأعطاهم الحق أن يتحروا ويفحصوا أكثر . . . إلاّ أنّ إرسال الهدية ظاهره أنّهم في مقام الإنكار .

واتضح كذلك أنّ أهمّ خبر مزعج أخبر به الهدهد عن هذه الجماعة «ملكة سبأ وقومها» أنّهم كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله الذي له ما في السماوات والأرض فكان سليمان عليه السلام قلقاً من هذا الأمر . . . ومن المعلوم أنّ عبادة الأصنام ليست أمراً هيّناً تسكت عنه الأديان السماوية ، أو أن تتحمل عبدة الأصنام على أنّهم أقليّة دينية . بل تستخدم القوّة إذا لزم الأمر وتحطم الأصنام ويطوى الشرك ومريدوه من الوجود! .

وممّا بيّناه من توضيحات آنفاً يظهر أنّه لا تنافي بين تهديدات سليمان والأصل الأساس ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[1] لأنّ عبادة الأصنام ليست ديناً ، بل هي خرافة وانحراف .

ملاحظات

١ - ممّا ينبغي الالتفات إليه أن الزهد في الأديان السماوية لا يعني أن لا يتمتع الإنسان بماله وثرواته وإمكاناته الدنيوية ، بل حقيقة الزهد هي أن لا يكون أسير هذه الأمور . . بل أميراً عليها . . وقد بيّن سليمان هذا النبيّ العظيم بردّه الهدايا الثمينة على ملكة سبأ أنّه أميرَها لا أسيرها .

ونقرأ حديثاً للإمام الصادق عليه السلام يقول فيه : «الدنيا أصغر قدراً عند الله وعند أنبيائه وأوليائه من أن يفرحوا بشيء منها ، أو يحزنوا عليه ، فلا ينبغي لعالم ولا لعاقل أن يفرح بعرض الدنيا»[2] .

٢ - ومرّة أُخرى نجد في هذا القسم من قصّة سليمان دروساً جديرة بالنظر ، خافية في تعابير الآيات الكريمة :

ألف : إنّ الهدف من تعبئة الجيش ليس قتل الناس ، بل أن يرى العدوّ نفسه ضعيفاً قبالها ، ولا يرى نفسه قادراً على مواجهة الطرف الآخر : (جنود لا قبل لهم بها) .

وهذا التعبير نظير ما أُمر به المسلمون ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ . . . تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ﴾[3] .

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٢) تفسير روح البيان ذيل الآية مورد البحث.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

ب - إنّ سليمان عليه السلام لا يهدد مخالفيه بالقتل، بل يهدّدهم بالإخراج من القصور أذلة صاغرين، وهذا الأمر جدير بالملاحظة.

ج - إنّ سليمان لا يستغفل مخالفيه، بل يحذرهم بصراحة قبل الهجوم.

د - إنّ سليمان لا يطمع في أموال الآخرين، بل يقول: «ما آتاني الله خير» فهو لا يرى مواهب الله منحصرة بالقدرة المادية والمالية، بل يفتخر بالعلم والإيمان والمواهب المعنوية!.

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

التّفسير

حضور العرش في طرفة عين

وأخيراً عاد رُسُل ملكة سبأ بعد أن جمعوا هداياهم وأمتعتهم إلى بلدهم، وأخبروا ملكة سبأ بما شاهدوه من عظمة مُلك سليمان عليه السلام المعجز وجهازه الحكومي، وكل واحد من هذه الأُمور دليل على أنّه لم يكن كسائر الأفراد ولا ملكاً كسائر الملوك، بل هو مُرسل من قبل الله حقّاً، وحكومته حكومة إلهيّة.

وهنا اتّضح لأُولئك جميعاً أنّهم غير قادرين على مواجهته عسكرياً، بل إذا استطاعوا - فرضاً - فهم على احتمال قوي في مواجهة نبيّ عظيم ذي سلطة واسعة!.

لذلك قررت الملكة أن تأتي بنفسها مع أشراف قومها إلى سليمان، ويتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر - عن أيّ طريق كان - إلى سمع سليمان عليه السلام ، فعزم على إظهار قدرته العجيبة - والملكة وأصحابها في الطريق إليه - ليعرفهم قبل كل شيء على إعجازه، ليذعنوا له ويسلّموا لدعوته... لذلك التفت إلى من حوله و﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾.

وبالرغم من أنّ المفسّرين أتعبوا أنفسهم للوقوف على علّة إحضار عرش الملكة، وربّما ذكروا وجوهاً لا تنسجم مع مفاد الآيات ولا تتناسب وإيّاها! إلاّ أنّ من الواضح أنّ هدف سليمان عليه السلام من هذه الخطة أنّه كان يريد أن يظهر أمراً مهماً للغاية خارقاً للعادة ليذعنوا له دون قيد، ويؤمنوا بقُدرة الله من دون حاجة إلى سفك الدماء والمواجهة في ساحات القتال.

كان يريد أن ينفذ الإيمان إلى أعماق قلب ملكة سبأ وأشراف قومها، ليستجيب الباقون لدعوته والتسليم لأمره!.

وهنا أظهر شخصان استعدادهما لامتثال طلب سليمان عليه السلام، وكان أمر أحدهما عجيباً والآخر أعجب! إذ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾(١). فهذا الأمر عليَّ يسير، ولا أجد فيه مشقّة، كما أنّي لا أخونك أبداً، لأنّي قادر على ذلك ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾.

و«العفريت». . . معناه المارد الخبيث.

وجملة ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ المشفوعة بالتأكيدات من عدّة جهات «إنّ والجملة الإسميّة، ولام التوكيد» تشير إلى احتمال خيانة هذا العفريت. . . لذلك فقد أظهر الدفاع عن نفسه بأنه أمين وفيّ.

وعلى كل حال فإنّ قصّة «سليمان» مملوءة بالعجائب الخارقة للعادات فلا عجب أن يُرى عفريت بهذه الحالة مُبدياً استعداده للقيام بهذه المهمّة خلال سويعات. . وسليمان يقضي بين الناس، أو يتابع أُمور مملكته، أو يقدم نصحه وإرشاده للآخرين.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلاً صالحاً له علم ببعض ما في الكتاب، ويتحدث عنه القرآن فيقول: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

فلمّا وافق سليمان عليه السلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفة عين بالاستعانة بقوته المعنوية ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

ثمّ أضاف قائلاً: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

وهناك اختلاف بين المفسّرين وكلام طويل في أنّ هذا الشخص الذي جاء بعرش

---

(١) كلمة «آتيك» ربّما كانت اسم فاعل مضافاً إلى (الكاف) ويمكن أن تكون فعلاً مضارعاً من (أتى) إلاّ أنّ الاحتمال الأوّل يبدو أقرب للنظر!

الملكة، من كان؟! ومن أين له هذه القدرة العجيبة؟! وما المراد ﴿عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾؟

إلاّ أنّ الظاهر أنّ هذا الشخص هو أحد أقارب سليمان المؤمنين وأوليائه الخاصين، وقد جاء اسمه في التواريخ بأنّه (آصف بن برخيا) وزير سليمان وابن أخته[١].

وأمّا «علم الكتاب» فالمراد منه معرفة ما في الكتب السماوية... المعرفة العميقة التي تمكّنه من القيام بهذا العمل الخارق للعادة!

وقال بعضهم: يُحتمل أن يكون المراد من ﴿عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ هو اللوح المحفوظ الذي علم الله بعضه ذلك الرجل «آصف» ولذلك استطاع أن يأتي بعرش ملكة سبأ بطرفة عين، ويحضره عند سليمان!.

وقال كثير من المفسّرين: إنّ هذا الرجل المؤمن كان عارفاً بالاسم الأعظم، ذلك الاسم الذي يخضع له كل شيء، ويمنح الإنسان قدرة خارقة للعادة!.

وينبغي القول أنّ «الاسم الأعظم» ليس كما يتصوره الكثير بأنّ مفهومه أن يتلفظ الإنسان بكلمة فيكون وراءها الأثر العجيب، بل المراد منه التخلق بذلك الاسم والوصف، أي على الإنسان أن يستوعب «الاسم» في نفسه وروحه، وأن يتكامل علمه وخلقه وتقواه وإيمانه إلى درجة يكون بها مظهراً من مظاهر ذلك الاسم الأعظم، فهذا التكامل المعنوي والروحاني (بواسطة الاسم الأعظم) يوجد في الإنسان مثل هذه القدرة الخارقة للعادة[٢].

كما أنّ للمفسّرين في جملة ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ لكن بملاحظة الآيات الأُخر من القرآن يمكن معرفة حقيقتها... ففي الآية (٤٣) من سورة إبراهيم نقرأ: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

ونحن نعرف أنّ الإنسان عندما يستوحش ويذهل، تبقى عيناه مفتوحتين على وتيرة واحدة كأنّهما عينا ميت لا تتحركان.

فبناءً على ذلك فالمراد منه أنّني سأحضر عرش ملكة بلقيس قبل أن يتحرك جفناك[٣].

---

(١) وما قاله بعضهم بأنّه سليمان أو جبرئيل فلا دليل عليه... وكونه سليمان نفسه (فهو) مخالف لظاهر الآيات قطعاً!

(٢) كان لنا في ذيل الآية (١٨٠) من سورة الأعراف بحث في شأن الاسم الأعظم، فلا بأس بمراجعته.

(٣) ما يقوله بعضهم: إنّ المراد من ﴿يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ هو إلقاء النظرة على شيء ما وعودة النظرة للإنسان لا دليل عليه، كما أنّ هذا التعبير لا يكون شاهداً على النظرية القائلة بخروج الشعاع من العين الواردة في الفلسفة - القديمة.

مسائل مهمة

١ - الجواب على بعض الأسئلة

من الأسئلة - التي تثار حول الآيات آنفة الذكر - هذا السؤال: لِمَ لَم يقدم سليمان بنفسه على هذا العمل الخارق للعادة؟ فهو نبيّ كريم من قبل الله وذو معاجز! فلم حوّل هذا الأمر إلى «آصف بن برخيا»؟!

لعل الوجه في ذلك أنّ آصف كان وصيّه، وكان سليمان يريد أن يبيّن موقعه في هذه اللحظة الحساسة للجميع[1].

إضافة إلى ذلك فإنّ من المهم أن يختبر الأستاذ تلاميذه في الموارد اللازمة ويعرف جدارتهم، وأساساً فإنّ جدارة التلاميذ دليل كبير على جدارة الأستاذ، السؤال الآخر هو: كيف جاء سليمان بعرش ملكة سبأ وأحضره عنده دون إذنها؟.

فيقال: لعل ذلك لبيان هدف أسمى، كمسألة الهداية وبيان معجزة كبيرة، ثمّ بعد هذا كله فإننا نعرف أنّ الملوك ليس لهم مال من أنفسهم، بل أموالهم في الغالب مغصوبة من الآخرين!.

السؤال الآخر: كيف تكون لعفريت من الجن القدرة على أمر خارق للعادة كهذه الحادثة؟!

وقد بيّنا الجواب على هذا السؤال في الأبحاث المتعلقة بالإعجاز، فقلنا: إنّ من الناس حتى غير المؤمنين من تكون له قدرة على بعض الأُمور الخارقة للعادة (وذلك للرياضة المجهدة ومجاهدة النفس) إلاّ أنّ الفرق بين ما يقومون به ممّا يخرق العادة وبين المعجزة هو أنّه لما كانت أعمالهم مستندة إلى قدرة بشرية محدودة... فهي «أعمالهم الخارقة للعادة» محدودة دائماً، في حين أنّ المعاجز تستند إلى قدرة الله التي لا نهاية لها، وقدرته كسائر صفاته غير محدودة!.

لذلك نرى أنّ العفريت من الجن يحدّد قدرته - على فترة بقاء سليمان في مجلس القضاء والتحقيق في أُمور البلد، ليأتيه بعرش ملكة سبأ، في حين أنّ آصف بن برخيا لم يحدد قدرته، وتحديدها بارتداد الطرف هو في الحقيقة إشارة إلى أدنى فترة زمنية ممكنة... ومن المسلم به أنّ سليمان عليه السلام يشجع الأعمال التي تبيّن للناس الأشخاص

---

(١) هذا الجواب نفسه أجاب به الإمام الهادي عليه السلام يحيى بن أكثم كما جاء في رواية عن تفسير العياشي ذيل الآية مورد البحث، وتفسير نور الثقلين، ج٤، ص ٩١.

الصالحين، ويباركها، لا عمل العفريت الذي قد يوقع العوام والبساط في الوهم، فيعدونه دليلاً على تقواه وطهارته!.

وبديهي أنّ أيّ إنسان يقوم بعمل مهم في المجتمع ويكون عمله مقبولاً فإنّ أفكاره ومعتقداته ستتجذّر وتتحدّد في المجتمع بذلك «العمل» فلا ينبغي أن يأخذ العفاريت زمام المبادرة في حكومة سليمان الإلهيّة، بل ينبغي أن يقوم به من عندهم علم من الكتاب ليؤثروا على أفكار الناس وعواطفهم.

٢ - القوة والأمانة شرطان مهمان

جاء في الآيات المتقدمة - والآية (٢٦) من سورة القصص - أنّ أهم شرط للعامل أو الموظف شيئان: الأوّل القوة، والثّاني الأمانة!.

وبالطبع فإنّ المباني الفكرية والأخلاقية قد تقتضي أن يكون الإنسان حاوياً على هاتين الصفتين «كما هي الحال في شأن موسى الوارد ذكره في سورة القصص» وقد يقتضي نظام المجتمع والحكومة الصالحة أن يتصف بهاتين الصفتين حتى العفريت من الجن إلزاماً.. ولكن - على كل حال - فليس من الممكن القيام بأي عمل كبير أو صغير في المجتمع دون توفر هاتين الصفتين... سواءً كان مصدرهما «التقوى» أو «النظام القانوني».. «فتأمّلوا بدقة».

٣ - الفرق بين «علم من الكتاب» و«علم الكتاب»

جاء التعبير في الآيات - محل البحث - عن الذي أتى بعرش ملكة سبأ في أدنى مدّة «وبطرفة عين» بـ ﴿عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بينما جاء في الآية (٤٣) من سورة الرعد في شأن النّبي ﷺ ومن يشهد على حقانيته ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

في حديث عن أبي سعيد الخدري أنّه قال: سألت رسول الله ﷺ عن ﴿ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الوارد في قصّة سليمان، فقال ﷺ: هو وصي أخي سليمان بن داود، فقلت: والآية ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عمن تتحدث؟ فقال ﷺ: ذاك أخي علي بن أبي طالب عليه السلام[1].

(١) نقل هذا الحديث جماعة من المفسّرين وعلماء السنة بالعبارة ذاتها أو ما يقرب منها، ولمزيد الإيضاح يراجع الجزء الثّالث من إحقاق الحق، ص ٢٨٠ و٢٨١.

والالتفات إلى الفرق بين «علم من الكتاب» الذي يعني «العلم الجزئي» (علم الكتاب) الذي يعني «العلم الكلي»، يكشف البون الشاسع بين آصف وعلي عليه السلام.

لذلك نقرأ في روايات كثيرة أنّ الاسم الأعظم ثلاثة وسبعون حرفاً إنّما كان عند آصف منها حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس حتى تناول السرير بيده، ثمّ عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين - كان «حرف» واحد منه عند «آصف بن برخيا» وقام بمثل هذا العمل الخارق للعادة - وعندنا نحن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام - اثنان وسبعون حرفاً، وحرف واحد عند الله تبارك وتعالى استأثر به في علم الغيب عنده[1].

٤ - هذا من فضل ربّي

إنّ عبدة الدنيا وطُلاّبها المغرورين حين ينالون «القوّة» والاقتدار ينسون كل شيء إلاّ أنفسهم.. وكل ما يقع في أيديهم يحسبونه من عند أنفسهم لا من غيرهم، كما كان قارون يقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾، في حين أنّ عباد الله وخاصّته كلما نالوا شيئاً قالوا: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾.

الطريف أنّ سليمان عليه السلام لم يقل هذا الكلام عندما شاهد عرش ملكة سبأ عنده فحسب، بل أضاف قائلاً: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

وقرأنا في هذه السورة - من قبل - أنّ سليمان عليه السلام كان يرى جميع النعم التي يتمتع بها من نعم الله عليه، وكان يدعو ربّه خاضعاً فيقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾!

أجل.. هذا هو معيار معرفة الموحدين المخلصين من عبدة الدنيا المغرورين.. وهذه سيرة الرجال العظماء في قبال غيرهم من الأنانيين!.

وبالرغم من أنّه اعتيد كتابة هذه العبارة المهمّة ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ من قبل المتظاهرين بالشكر على أبواب قصورهم «الطاغوتية» دون أن يعتقدوا بذلك أو يكون أدنى أثر من هذه العبارة في عملهم.. إلاّ أنّ المهم هو أن تكتب على الباب وعلى جبين حياة الإنسان وفي قبله... أيضاً، وأن يكشف عمله أنّ كل ذلك من فضل الله.. وأن

(١) راجع أصول الكافي وتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٩٠.

يشكره عليه، لا شكراً باللسان فحسب، بل شكراً مقروناً بالعمل وفي جميع وجوده[(١)].

٥ - كيف أحضر «آصف» عرش الملكة؟!

لم يكن هذا ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ أوّل خارق للعادة نراه في قصّة سليمان عليه السلام، أو في حياة الأنبياء بشكل عام، وعلى من يحمل هذه التعبيرات على الكناية والمجاز، ولا يؤخذ بظاهرها، أن يبيّنوا موقفهم من معاجز الأنبياء.

ترى هل يرون الأعمال الخارقة للعادة للأنبياء وخلفائهم محالاً، وينكرونها كليّاً؟! فهذا ما لا ينسجم مع أصل التوحيد، ولا مع قدرة الله الحاكمة على قوانين الوجود، ولا ينسجم مع صريح القرآن في آيات كثيرة أيضاً.

أمّا إذا قبلوا بإمكان المعاجز، فلا ينبغي أن يفرقوا بين أن يكون البحث عن إحياء الموتى وإبراء العمي من قبل «عيسى ابن مريم» عليه السلام، أو عن إحضار عرش ملكة سبأ من قبل آصف بن برخيا.

ولا شك أنّ هنا علائق مجهولة وعللاً لا نعرفها في هذا الأمر، إذ نجهل ذلك بعلمنا «المحدود»، لكننا نعرف أنّ هذا الأمر غير محال.

فهل استطاع «آصف» بقدرته المعنوية أن يبدل عرش بلقيس إلى أمواج من نور، وبلحظة أحضرها عند سليمان عليه السلام ثمّ أرجعها إلى مادتها الأصليّة مرّة أُخرى؟... هذا الأمر عندنا يلفّه الغموض.

وما نعرف أنّ الإنسان يقوم اليوم بأعمال بواسطة الطرق العلمية المتداولة، كانت قبل مئتي عام تعدّ في دائرة المحال!.

فمثلاً لو كان يقال لشخص ما قبل عدّة قرون: سيأتي زمان على الناس يتكلم الرجل في المشرق فيسمعه الآخرون ويرونه في المغرب في اللحظة ذاتها.. لكان يعدّ هذا المقال ضرباً من الهذيان أو الحلم!

وليس هذا إلاّ لأنّ الإنسان يريد أن يقوّم كل شيء بعلمه المحدود وقدرته القاصرة! مع أنّ ما وراء علمه وقدرته أسراراً خفية كثيرة!

---

(١) كان لنا بحث مُفصّل في أهميّة الشكر، وتأثيره على زيادة النعمة، وأقسام الشكر «التكويني والتشريعي» في ذيل الآية السابقة من سورة إبراهيم.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

التّفسير

نور الإيمان في قلب الملكة

نواجه في هذه الآيات مشهداً آخر، ممّا جرى بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ فسليمان من أجل أن يختبر عقل ملكة سبأ ودرايتها، ويهيّىء الجوّ لإيمانها بالله، أمر أن يغيروا عرشها وينكّروه فـ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

وبالرغم من أنّ المجيء بعرشها من سبأ إلى الشام كان كافياً لأن لا تعرفه ببساطة.. ولكن مع ذلك فإنّ سليمان أمر أن يوجدوا تغييرات فيه، من قبيل تبديل بعض علاماته، أو تغيير ألوانه ومواضع مجوهراته، ولكن هذا السؤال: ما الهدف الذي كان سليمان عليه السلام يتوخّاه من اختبار عقل (ودراية) ملكة سبأ وذكائها؟

لعل هذا الاختبار كان لمعرفة أي منطق يواجهها به؟ وكيف يأتي لها بدليل لإثبات المباني العقائدية؟

أو كان يفكر أن يتزوجها، وكان يريد أن يعرف هل هي جديرة بأن تكون زوجة له، أم لا؟... أو أراد - واقعاً - أن يعهد لها بمسؤولية بعد إيمانها... فلابدّ من معرفة مقدار استعدادها لقبول المسؤولية!

وهناك تفسيران لجملة ﴿أَتَهْتَدِي﴾ فقال بعضهم: المراد منها معرفة عرشها، وقال بعضهم: المراد من هذه الجملة أنّها هل تهتدي إلى الله برؤية المعجزة، أو لا؟!

إلاّ أنّ الظاهر هو المعنى الأوّل، وإن كان المعنى الأوّل بنفسه مقدمة للمعنى الثّاني.

وعلى كل حال... فلمّا جاءت ﴿قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ والظاهر أنّ القائل لها لم يكن

سليمان نفسه، وإلاّ فلا يناسب التعبير بـ«قيل»، لأنّ اسم سليمان ورد قبل هذه الجملة وبعدها، وعُبّر عن كلامه بـ«قال».

أضف إلى ذلك أنّه لا يناسب مقام سليمان عليه السلام أن يبادرها بمثل هذا الكلام.

وعلى أي حال. فإنّ ملكة سبأ أجابت جواباً دقيقاً و﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾.

فلو قالت: يشبه، لأخطأت... ولو قالت: هو نفسه، لخالفت الاحتياط، لأنّ مجيء عرشها إلى أرض سليمان لم يكن مسألة ممكنة بالطرق الاعتيادية، إلاّ أن تكون معجزةً.

وقد جاء في التواريخ أنّ ملكة سبأ كانت قد أودعت عرشها الثمين في مكان محفوظ، وفي قصر مخصوص فيه غرفة عليها حرس كثير!

ومع كل ذلك فإنّ ملكة سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له من تغييرات... فقالت مباشرة: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

أي، إذا كان مراد سليمان عليه السلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا على معجزته لكي نؤمن به، فإنّنا كنّا نعرف حقانيته بعلائم أخر... كنّا مؤمنين به حتى قبل رؤية هذا الأمر الخارق للعادة فلم تكن حاجة إلى هذا الأمر.

وهكذا فإنّ سليمان عليه السلام منعها ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] بالرغم من ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾.

أجل، إنّها ودعت ماضيها الأسود برؤية هذه العلائم المنيرة، وخَطت نحو مرحلة جديدة من الحياة المملوءة بنور الإيمان واليقين.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث يجري الكلام عن مشهد آخر من هذه القصّة، وهو دخول ملكة سبأ قصر سليمان الخاص.

وكان سليمان عليه السلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، وأن يجري الماء من تحتها.

---

(١) للمفسّرين أقوال مختلفة في فاعل (صدّ) وأنّ (ما) هل هي موصولة أو مصدرية، فقال جماعة من المفسّرين. إنّ الفاعل هو سليمان كما بيّناه في المتن، وبعضهم قال: بل هو الله، والنتيجة تكاد تكون واحدة وطبقاً لهذين التّفسيرين تكون «ها» مفعولاً أوّلاً و﴿مَا كَانَت﴾ مكان المفعول الثّاني، وإن كان أصلها جاراً ومجروراً، أي وصدها سليمان أو الله عما كانت تعبد من دون الله. إلاّ أنّ جماعة ذهبوا إلى أنّ فاعل صدّ، هو ﴿مَا كَانَت﴾، لكن حيث إنّ الكلام عن إيمانها لا كفرها فالتّفسير الأوّل أنسب.. وأمّا كلمة (ما) فقد تكون موصولة.. أو مصدرية.

فلمّا وصلت مَلكة سبأ إلى ذلك المكان ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾(١) فلما رأته ظنته نهراً جارياً فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء وهي متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجاري، وكما يقول القرآن: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾(٢).

إلاّ أنّ سليمان عليه السلام التفت إليها وقال: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾(٣). فلاحاجة إلى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

وهنا ينقدح سؤال هام، وهو أنّ سليمان نبيّ كبير، فلِمَ كان لديه هذا البناء الفائق والتزيّن الرائق... والصرح الممرد والبساط الممهّد!.. وصحيح أنّه كان حاكماً مبسوط اليد، إلاّ أنّ الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلاّ أنّه، ما يمنع أن يُري سليمان مَلكة سبأ التي كانت ترى قدرتها وعظمتها بالعرش والتاج والقصر العظيم والزينة.. يريها هذا المشهد لتذعن لأمره، ولتحتقر ما عندها؟! وهذه نقطة انعطاف في حياتها لتعيد النظر في ميزان القيم ومعيار الشخصية!

ما يمنعه - بدلاً من أن يغير على مدينتها بجيش عظيم فيسفك الدماء - أن يجعل فكر ملكة سبأ حائراً مبهوتاً بحيث لم تكن تتوقع ذلك أصلاً... خاصة أنّها كانت امرأة تهتم بهذه الأُمور والتشريفات!.

ولا سيما أنّ أغلب المفسّرين صرحوا بأنّ سليمان أمر أن يبنى مثل هذا الصرح والقصر قبل أن تصل ملكة سبأ إلى الشام، وكان هدفه أن يُريها قدرته لتذعن لأمره وتسلم له... وهذا الأمر يدلّ على أنّ سليمان عليه السلام كان يتمتع في سلطانه بقدرة عظيمة من حيث القوّة الظاهرية وُفق بها للقيام بمثل هذا العمل!.

وبتعبير آخر: إنّ هذه النفقات المالية إزاء أمن منطقة واسعة، وقبول دين الحق، والوقاية عن الإنفاق المفرط للحرب - لم تكن أمراً مسرفاً.

ولذلك حين رأت مَلكة سبأ هذا المشهد الرائع ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) «صَرْحٌ» معناه الفضاء الواسع، وقد يأتي بمعنى البناء العالي والقصر وفي الآية المشار إليها آنفاً معناه ساحة القصر أي فضاؤه الواسع ظاهراً.

(٢) «اللّجة» في الأصل مأخوذة من اللجاج، ومعناه الشدّة، ثمّ أطلق على ذهاب الصوت وإيابه في الحنجرة تعبير (لجة) على وزن (ضجة)، أمّا الأمواج المتلاطمة في البحر فتسمى (لُجة) على وزن (جُبة) وهي هنا في الآية بهذا المعنى الأخير.

(٣) «الممرد» معناه الصافي... و(القوارير) جمع قارورة وهي الزجاجة.

لقد كنت في ما مضى أسجد للشمس وأعبد الأصنام، وكنت غارقة في الزينة والتجميل، وكنت أتصور أنّي أعلى الناس في الدنيا.

أمّا الآن فإنّني أفهم أنّني ضعيفة جدّاً وهذه الزخارف والزبارج لا تروي ظمأ الإنسان ولا تبلّ غليل روحه!.

ربّاه... أتيت إليك مسلمة مع سليمان نادمة عن سالف عمري، خاضعة عنقي إليك، الطريف هنا أنّها تقول: أسلمت مع سليمان، فتستعمل كلمة ﴿مَعَ﴾ ليتجلّى أنّ الجميع إخوة في السبيل إلى الله! لا كما يعتاده الجبابرة إذ يتسلط بعضهم على رقاب بعض، وترى جماعة أسيرة في قبضة آخر.

فهنا لا يوجد غالب ومغلوب، بل الجميع - بعد قبول الحق - في صف واحد!.

صحيح أنّ ملكة سبأ كانت قد أعلنت إيمانها قبل ذلك أيضاً، لأنّنا سمعنا عن لسانها في الآيات آنفة الذكر ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

إلاّ أنّ إسلام الملكة هنا وصل إلى أوجه، لذلك أكّدت إسلامها مرّة أُخرى.

إنها رأت دلائل متعددة على حقانية دعوة سليمان.

فمجيء الهدهد بتلك الحالة الخاصّة!

وعدم قبول سليمان الهدية الثمينة المرسلة من قبلها.

وإحضار عرشها في فترة قصيرة من مدى بعيد.

وأخيراً مشاهدة قدرة سليمان الاعجازية، وما لمسته فيه من أخلاق دمثة لا تشبه أخلاق الملوك!

بحثان

١ - عاقبة أمر ملكة سبأ

كان هذا كل ما ورد في القرآن المجيد عن ملكة سبأ إذ آمنت أخيراً ولحقت بالصالحين...

لكن هل عادت إلى وطنها بعد إيمانها، وواصلت حكمها من قبل سليمان، أو بقيت عند سليمان وتزوجت منه؟! أو تزوجت من أحد ملوك اليمن المشهورين باسم «تُبّع»؟

هذه الأُمور لم يشر إليها القرآن الكريم، لأنّها لا علاقة لها بالهدف الأصلي الذي

يبتغيه القرآن من المسائل التربوية!. . . إلاّ أنّ المؤرّخين والمفسّرين كلاً منهم اختار رأياً، ولا نجد ضرورة في الخوض في ذلك، وإن كان المشهور - طبقاً لما قاله أغلب المفسّرين - أنّها تزوّجت من سليمان نفسه(١).

إلاّ أنّه ينبغي أن نذكّر بهذا الأمر المهم، وهو أنّه وردت أساطير كثيرة حول سليمان وجنوده وحكومته وخصوصيات ملكة سبأ، وجزئيات حياتها أيضاً، ممّا يصعب على عامة الناس تمييزها من الحقائق التاريخية، وربّما يُغشّي هذه الحقائق التاريخية، ظلٌّ مظلم من الخرافات يشوه وجهها الناصع. . وهذه هي نتيجة الخرافات المتداخلة في الحقائق التي ينبغي أن تُراقب مراقبة تامّة!.

٢ - خلاصة عامة عن حياة سليمان

ما ورد عن سيرة سليمان وحالاته في الثلاثين آية آنفة الذكر، يكشف عن مسائل كثيرة، قرأنا قسماً منها في أثناء البحث، ونشير إلى القسم الآخر إشارة عابرة:

١ - إنّ هذه القصّة تبدأ بالحديث عن موهبة (العلم الوافر) التي وهبها الله لسليمان بن داود، وتنتهي بالتسليم لأمر الله، وذلك التوحيد أساسه العلم أيضاً.

٢ - هذه القصّة تدل على أنّ غياب طائر أحياناً (في تحليقة استثنائية) قد يغير مسير تأريخ أُمّة، ويجرها من الفساد إلى الصلاح، ومن الشرك إلى الإيمان. . . وهذا مثل عن بيان قدرة الله، ومثل من حكومة الحق!.

٣ - إنّ هذه القصّة تكشف عن أنّ نور التوحيد يشرق في جميع القلوب، حتى الطائر الذي يبدو ظاهراً أنّه صامت، فإنّه يخبر عن أسرار التوحيد العميقة!.

٤ - ينبغي من أجل لفت نظر الإنسان إلى القيمة الواقعية له وهدايته نحو الله، أن يُدمّر غروره وكبرياؤه أولاً. . ليُماط عن وجه ستار الظلام، كما فعل سليمان، فدمر غرور مَلكة سبأ وذلك بإحضار عرشها، وإدخالها الصرح الممرد الذي حسبته لجةً.

٥ - إنّ الهدف النهائي في حكومة الأنبياء ليس التوسع في رقعة الأرض، بل الهدف هو ما قرأناه في آخر آية من الآيات محل البحث، وهو أن يعترف الظالم بذنبه، وأن يسلم لربّ العالمين، ولذلك فإن القرآن ختم بهذه «اللطيفة» القصّة المذكورة.

---

(١) الآلوسي في تفسير روح المعاني.

٦ - إنّ روح الإيمان هي التسليم، لذلك فقد أكّد سليمان عليه في كتابه إلى مَلكة سبأ.

٧ - قد يكون بعض الناس مع ما لديه من قدرة عظيمة لا ترقى إليه قدرة الآخرين، محتاجاً إلى موجود ضعيف كالطائر مثلاً، لا إلى علمه فحسب، بل قد يستعين بعلمه أيضاً، وقد تحقّره نملة بما هي عليه من ضعف!

٨ - إنّ نزول هذه الآيات في مكّة حيث كان المسلمون تحت نير العدو، وكانت الأبواب موصدة بوجوههم، هذا النّزول كان له مفهومه الخاص. وهو تقوية معنويات المسلمين وتسلية قلوبهم، وإحياء أملهم بلطف الله ورحمته والانتصارات المقبلة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

التّفسير

صالح في ثمود

بعد ذكر جانب من قصص موسى وداود وسليمان عليهم السلام فإنّ هذه الآيات تتحدث عن قصّة رابع نبيّ - وتبيّن جانباً من حياته مع قومه - في هذه السورة، وهي ما جاء عن صالح عليه السلام وقومه «ثمود»!

إذ يقول القرآن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[1].

وكما قيل من قبل: إنّ التعبير بـ﴿أَخَاهُمْ﴾ الوارد في قصص كثير من الأنبياء، هو إشارة إلى منتهى المحبّة والإشفاق من قبل الأنبياء لأممهم، كما أنّ في بعض المواطن إشارة إلى علاقة القربى «الروابط العائلية للأنبياء بأقوامهم».

وعلى كل حال، فإنّ جميع دعوة هذا النّبي العظيم تلخصت في جملة ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾. أجل، إنّ عبادة الله هي عصارة كل تعليمات رسل الله تعالى.

(١) جملة ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ مجرورة بحرف جر مقدر وأصلها: ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً بعبادة الله.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾[1]، المؤمنون من جهة والمنكرون المعاندون من جهة أُخرى.

وقد عبّر في الآيتين ٧٥ و٧٦ من سورة الأعراف عن الفريقين، بالمستكبرين والمستضعفين: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

وبالطبع فإنّ هذه المواجهة بين الفريقين «الكفار والمؤمنين» تصدق في شأن كثير من الأنبياء، بالرغم من أنّ بعض الأنبياء بقوا محرومين حتى من هذا المقدار القليل من الأنصار حيث وقف كل أفراد قومهم ضدهم.

فأخذ صالح عليه السلام ينذرهم ويحذرهم من عذاب الله الأليم... إلاّ أنّ أُولئك لم يستجيبوا له وتمسكوا بعنادهم وطلبوا منه بإصرار أن إذا كنت نبيّاً فليحل بنا عذاب الله «وقد صرحت الآية ٧٧ من سورة الأعراف بأنّهم سألوا نبيّهم نزول العذاب» ﴿وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

إلاّ أنّ صالحاً أجابهم محذراً و﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

فلِمَ تفكرون بعذاب الله دائماً وتستعجلونه؟ ألا تعلمون أنّ عذاب الله إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم ولا يبقى مجال للإيمان؟

تعالوا واختبروا صدق دعوتي في البعد الإيجابي والأمل في رحمة الله في ظل الإيمان به ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾!.

علام تسألون عن نزول العذاب وتصرون على السيئات؟! ولِمَ هذا العناد وهذه الحماقة؟!

لم يكن قوم صالح - وحدهم - قد طلبوا العذاب بعد إنكارهم دعوة نبيّهم، فقد ورد في القرآن المجيد هذا الأمر مراراً في شأن الأُمم الآخرين، ومنهم قوم هود «كما في الآية ٧٠ من سورة الأعراف».

ونقرأ في شأن النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وما واجهه به بعض المشركين المعاندين، إذ قالوا:

---

(١) كلمة ﴿فَرِيقَانِ﴾ تثنية، وفعلها مسند إلى ضمير الجميع، وذلك لأنّ كل فريق يتألف من جماعة... فأخذ الجمع بنظر الاعتبار.

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

وهذا أمر عجيب حقّاً أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيّه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة! مع أنّهم يعلمون يقيناً احتمال صدق دعوة هؤلاء الأنبياء «يعلمون ذلك في قلوبهم وإن أنكروه بلسانهم».

وهذا الأمر يشبه حالة ما لو ادعى رجل بأنّه طبيب، فيقول: هذا ا لدواء ناجع شاف، وذلك الدواء ضار مهلك. ونحن من أجل أن نختبر صدقه نستعمل الدواء المهلك!!

فهذا منتهى الجهل والتعصب... ولمرض الجهل الكثير من هذه الإفرازات.

وعلى كل حال، فإنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلاً من أن يصغوا لنصيحة نبيّهم ويستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية وكلمات باطلة!... منها أنّهم ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ ولعل تلك السنة كانت سنة قحط وجدب، فقالوا: إنّ هذا البلاء والمشاكل والعقبات كلّها بسبب قدوم هذا النّبي وأصحابه... فهم مشؤومون جلبوا الشقاء لمجتمعنا!!

فكانوا يحاولون مواجهة دعوة نبيّهم صالح ومنطقه المتين بحربة التطير، التي هي حربة المعاندين الخرافيين.

لكنّه ردّ عليهم و﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ فهو الذي يبتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التي أدّت إلى هذه العقوبات.

في الحقيقة إنّ ذلك اختبار وامتحان إلهي كبير لكم، أجل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

هذه امتحانات وفتن إلهية... هذه إنذارات وتنبيهات لينتبه - من فيهم اللياقة من غفلتهم، ويصلحوا انحرافهم ويتجهوا نحو الله!.

بحث

«التطيّر والتفاؤل»

«التطيّر» مأخوذ من مادة «طير» وهو معروف، إذ يعني ما يطير بجناحين في الجوّ، ولما كان العرب يتشاءمون غالباً من بعض الطيور، سمي الفأل غير المحبوب تطيّراً، وهو في قبال «التفأل» ومعناه الفأل الحسن المحبوب.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.

وقد وردت في القرآن الإشارة إلى هذا المعنى مراراً وهي أنّ المشركين الخرافيّين كانوا يواجهون أنبياءهم بحربة التطير، كما نقرأ ذلك في قصّة موسى وأصحابه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾(١).

وفي الآيات - محل البحث - أظهر قوم «ثمود» المشركون رد فعلهم في مقابل نبيّهم «صالح» بالتطير أيضاً.

وأساساً، ونقرأ في سورة «يس» أنّ المشركين تطيّروا من مجيء رسل المسيح عليه السلام إلى «انطاكية» (يس - ١٨).

فإنّ الإنسان لا يمكن أن يقف أمام الحوادث على حال واحدة، فلابدّ أن يفسّر آخر الأمر لكل حادثة علةً. . . فإذا كان الإنسان مؤمناً موحداً لله، فإنّه يرجع العلل إلى ذاته المقدسة تعالى طبقاً لحكمته، فكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. ولو استند إلى العلم في تحليل العلة والمعلول الطبيعيين، فستُحل مشكلته أيضاً، وإلاّ فإنّه سينتج أوهاماً وخرافات لا أساس لها. . أوهاماً لا حدّ لها. . وأحدها «التطير» والفأل السيّىء!

مثلاً كان عرب الجاهلية إذا رأوا الطائر يتحرك من اليمين نحو الشمال عدوّه فألاً حسناً، وإذا رأوه يتحرك من الشمال نحو «اليسار» نحو اليمين عدّوه فألاً سيئاً، ودليلاً على الخسران أو الهزيمة! وغيرها من الخرافات الكثيرة عندهم(٢).

واليوم يوجد - من قبيل هذه الخرافات والأوهام - الكثير في مجتمعات لا تؤمن بالله، وإن حققت نصراً من حيث العلم والمعرفة، بحيث لو سقطت «مملحة» على الأرض أقلقتهم إلى حدٍّ كبير!. . . ويستوحشون من الدار أو البيت أو الكرسي المرقم بـ١٣، وما زالت سوق المنجمين وأصحاب الفأل رائجة غير كاسدة! فهناك مشترون كثر «للطالع والبخت»!.

إلاّ أنّ القرآن جمع كل هذه الأُمور فجعلها في جملة موجزة قصيرة فقال:
﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.
(٢) يشير الكميت الأسدي إلى بعض هذه الخرافات في قصيدته البائية فيقول:

ولا أنا ممن يزجر الطير همّهُ ... أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشيةً ... أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضبُ

(المصحح)

أجل، فطائركم وطالعكم وانتصاركم وهزيمتكم وتوفيقكم وفشلكم كله عند الله، الله الحكيم الذي يهب عطاياه لمن كانت عنده اللياقة، واللياقة بدورها انعكاس تنعكس عن الإيمان والأعمال الصالحة أو الطالحة!.

وهكذا فإنّ الإسلام يدعو أتباعه ليخرجهم من وادي الخرافة إلى الحقيقة، ومن المفازة[1] إلى الصراط المستقيم.

«كان لنا بحث مفصل في مجال التطير والتفاؤل ذيل الآية ١٣١ من سورة الأعراف».

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾

التّفسير

تآمر تسعة رهط في وادي القُرى

نقرأ هنا قسماً آخر من قصّة «صالح» وقومه، حيث يكمل القسم السابق ويأتي على نهايته، وهو ما يتعلق بالتآمر على قتل «صالح» من قِبل تسعة «رهط»[2] من المنافقين والكفّار، وفشل هذا التآمر! في وادي القرى منطقة «النّبي صالح وقومه».

يقول القرآن في هذا الشأن: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾.

ومع ملاحظة أنّ «الرّهط» يعني في اللغة الجماعة التي تقلُّ عن العشرة أو تقلّ عن

(١) المفازاة تأتي بمعنى الفوز، وتأتي بمعنى الهلاك... فهي من الأضداد في اللغة - وهنا معناها الصحراء المهلكة (المصحح).

(٢) «الرهط» من الناس ما لا يقل عن الثلاثة ولا يزيد عن العشرة، وهو اسم جنس لا مفرد له من نوعه ويجمع على أراهط وأرهاط - ولا يكون في الرهط امرأة (المصحح).

الأربعين، فإنّه يتّضح أنّ كلاً من المجموعات الصغيرة التسع كان لها منهج خاص، وقد اجتمعوا على أمر واحد، وهو الإفساد في الأرض والإخلال بالمجتمع (ونظامه الاجتماعي) ومبادىء العقيدة والأخلاق فيه.

وجملة ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ تأكيد على هذا الأمر، لأنّ الإنسان قد يفسدُ في بعض الحالات ثمّ يندم ويتوجه نحو الإصلاح... إنّ المفسدين الواقعيين ليسوا كذلك، فهم يواصلون الفساد والإفساد ولا يفكرون بالإصلاح!.

وخاصّة أنّ الفعل في الجملة ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ فعل مضارع، وهو يدل على الاستمرار، فمعناه أن إفسادهم كان مستمراً... وكلّ رهط من هؤلاء التسعة كان له زعيم وقائد... ويحتمل أن كلاً ينتسب إلى قبيلة!.

ولا ريب أن ظهور «صالح» بمبادئه السامية قد ضيّق الخناق عليهم، ولذلك تقول الآية التالية في حقّهم: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾.

﴿تَقَاسَمُواْ﴾ فعل أمر، أيّ اشتركوا جميعاً في اليمين، وتعهّدوا على هذه المؤامرة الكبرى تعهداً لا عودة فيه ولا انعطاف!.

الطريف أنّ أُولئك كانوا يقسمون بالله، ويعني هذا أنّهم كانوا يعتقدون بالله، مع أنّهم يعبدون الأصنام، وكانوا يبدأون باسمه في المسائل المهمّة.. كما يدل هذا الأمر على أنّهم كانوا في منتهى الغرور و«السكر» بحيث يقومون بهذه الجناية الكبرى على اسم الله وذكره!! فكأنّهم يريدون أن يقوموا بعبادة أو خدمة مقبولة... إلاّ أنّ هذا نهج الغافلين المغرورين الذين لا يعرفون الله والضالين عن الحق.

وكلمة «النبيتنّه» مأخوذة من - «التبييت»، ومعناه الهجوم ليلاً، وهذا التعبير يدلّ على أنّهم كانوا يخافون من جماعة صالح وأتباعه، ويستوحشون من قومه.. لذلك ومن أجل أن يحققوا هدفهم ولا يكونون في الوقت ذاته مثار غضب أتباع صالح، اضطروا إلى أن يبيتوا الأمر، واتفقوا أن لو سألوهم عن مهلك النّبي - لأنّهم كانوا معروفين بمخالفته من قبل - حلفوا بأنّ لا علاقة لهم بذلك الأمر، ولم يشهدوا الحادثة أبداً.

جاء في التواريخ أنّ المؤامرة كانت بهذه الصورة، وهي أنّ جبلاً كان في طرف المدينة وكان فيه غار يتعبّد فيه صالح، وكان يأتيه ليلاً بعض الأحيان يعبد الله فيه ويتضرع إليه، فصمّموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه في الليل، ويحملوا

على بيته بعد استشهاده ثمّ يعودوا إلى بيوتهم، وإذا سئلوا أظهروا جهلهم وعدم معرفتهم بالحادث.

فلمّا كمنوا في زاوية واختبأوا في ناحية من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوي إلى الأرض، فهوت عليهم صخرة عظيمة فأهلكتهم في الحال!

لذلك يقول القرآن في الآية التالية: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وكلمة (مكر) - كما بيّناها سابقاً - تستعملها العرب في كل حيلة وتفكير للتخلص أو الاهتداء إلى أمر ما.. ولا تختص بالأمور التي تجلب الضرر، بل تستعمل بما يضر وما ينفع.. فيصح وصف المكر بالخير إذا كان لما ينفع، ووصفه بالسوء إذا كان لما يضرّ.. قال سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾! «فتأملوا بدقّة»

يقول الراغب في المفردات.. المكر صرف الغير عما يقصده.. فبناءً على هذا إذا نسبت هذه الكلمة إلى الله فإنّها تعني إحباط المؤامرات الضارة من قبل الآخرين، وإذا نسبت إلى المفسدين فهي تعني الوقوف بوجه المناهج الإصلاحية، والحيلولة دونها.

ثمّ يعبّر القرآن عن كيفية هلاكهم وعاقبة أمرهم فيقول: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾.

فلا صوتَ يُسمع منها ولا حركة تتردد ولا أثر من تلك الزخارف والزبارج والنعم والمجالس الموبوءة بالذنوب والخطايا.

أجل، لقد أذهبهم ريح عتوّهم وظلمهم، واحترقوا بنار ذنوبهم فهلكوا جميعاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

إلاّ أنّ الأخضر لم يحترق باليابس، والأبرياء لم يؤخذوا بجرم الأشقياء... بل سلم المتقون ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

ملاحظات

١ - عقوبة ثمود

تختلف تعابير آيات القرآن في موضوع هلاك قوم صالح «ثمود».

فتارةً يأتي التعبير عن هلاكهم بالزلزلة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾(١).

وتارة يقول: «عنهم» القرآن: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾(٢).

وتارة يقول: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾(٣).

إلاّ أنّه لا منافاة بين هذه التعابير الثلاثة أبداً... لأنّ «الصاعقة» هي الشعلة الكبيرة بين السحاب والأرض المقرونة بصيحة عظيمة واهتزاز شديد في الأرض «ذكرنا تفصيلاً عن الصيحة السماوية في ذيل الآية ٦٧».

٢ - روى بعض المفسّرين أنّ أصحاب صالح الذين نجوا معه كانوا أربعة آلاف رجل، وقد خرجوا بأمر الله من المنطقة الموبوءة بالفساد إلى حضرموت(٤).

٣ - ﴿خَاوِيَةً﴾ من (الخواء) على وزن (الهواء) معناه السقوط والهويّ والانهدام، وقد يأتي الخواء بمعنى الخلو... وهذا التعبير ورد في سقوط النجم وهويه، إذا قالوا «خوى النجم» أي هوى.

ويرى الراغب في المفردات أنّ الأصل في «خوى» هو الخلو... ويُرِد هذا التعبير في البطون الغرثى، والجوز الخالي، والنجوم التي لا تعقب الغيث، كان عرب الجاهلية يعتقدون أن كل نجم يظهر في الأفق يصحبه الغيث! «المطر».

٤ - روي عن ابن عباس أنّه قال: استفدت من القرآن أنّ الظلم يخرب البيوت ويهدمها، ثمّ استدل بالآية الكريمة ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾(٥).

وفي الحقيقة فإن تأثير الظلم في تخريب البيوت والمدن والمجتمعات لا يقاس بأي شيء، فالظلم يأتي بالصاعقة المهلكة، والظلم يزلزل ويدمر... والظلم له أثر كأثر الصيحة - في السماء - المهلكة المميتة، وقد أكد التاريخ مراراً هذه الحقيقة وأثبتها، وهي أنّ الدنيا قد تدوم مع الكفر، إلاّ أنّها لا تدوم مع الظلم أبداً.

٥ - ما لا شك فيه أن عقاب ثمود «قوم صالح» كان بعد أن عقروا الناقة «قتلوها» وكما يقول القرآن في الآيات (٦٥) - (٦٧) من سورة هود: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٧٨.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٤٤.
(٣) سورة هود، الآية: ٦٧.
(٤ - ٥) راجع الطبرسي في مجمع البيان، والآلوسي في روح المعاني، والقرطبي في تفسيره المعروف، ذيل الآيات مورد البحث.

مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

فبناءً على هذه الآيات لم ينزل العذاب مباشرة بعد المؤامرة على قتل صالح، بل الاحتمال القوي أن الجماعة الذين تآمروا على قتله أهلكوا فحسب، ثمّ أمهل الله الباقين، فلمّا قتلوا الناقة أهلك الله جميع الظالمين والآثمين الكافرين.

وهذه هي نتيجة الجمع بين آيات هذه السورة، والآيات الواردة في هذا الشأن في سورتي الأعراف وهود.

وبتعبير آخر: في الآيات محل البحث جاء بيان إهلاكهم بعد مؤامرتهم على قتل نبيّهم صالح، أمّا في سورتي الأعراف وهود فبيان هلاكهم بعد عقرهم الناقة، ونتيجة الأمرين أنّهم حاولوا قتل نبيّهم، فلمّا لم يفلحوا أقدموا على قتل الناقة (وعقرها) التي كانت معجزته الكبرى. . . ونزل عليهم العذاب بعد أن أمهلوا ثلاثة أيام.

ويحتمل أيضاً أنّهم أقدموا على قتل الناقة أولاً، فلما هدّدهم نبيّهم صالح بنزول العذاب بعد ثلاثة أيّام حاولوا قتله، فأهلكوا دون أن يفلحوا في قتله[1].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

التّفسير

انحراف قوم لوط!

بعد ذكر جوانب من حياة موسى وداود وسليمان وصالح عليهم السلام مع أممهم وأقوامهم، فإنّ النّبي الخامس الذي وردت الإشارة إليه في هذه السورة: نبيّ الله العظيم «لوط».

وليست هذه أوّل مرّة يشير القرآن إلى هذا الموضوع، بل تكررت الإشارة إليه عدّة مرّات، كما في سورة الحجر، وسورة هود، وسورة الشعراء، وسورة الأعراف.

وهذا التكرار والتشابه، لأنّ القرآن ليس كتاباً تاريخياً كي يتحدث عن الموضوع مرّة ولا يعود إليه. . بل هو كتاب تربوي إنساني. . ونعرف أنّ المسائل التربوية قد تقتضي

(١) تفسير روح البيان ذيل الآية مورد البحث.

الظروف أحياناً أن تُكرر الحادثة ويذكر بها مراراً، وأن يُنظر إليها من زوايا مختلفة، ويُستنتج من جهاتها المتعددة.

وعلى كل حال فإنّ حياة قوم لوط المشهورون بالانحراف الجنسي والعادات السيئة المخزية الأُخرى، كما أنّ عاقبة حياتهم الوخيمة يمكن أن تكون لوحة بليغةً لأُولئك السادرين في شهواتهم... وإن سعة هذا التلوث بين الناس تقتضي أن يُكرر ما جرى على قوم لوط مراراً.

يقول القرآن في الآيتين محل البحث أوّلاً: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[1].

«الفاحشة» كما أشرنا إليها من قبل، تعني الأعمال السيئة القبيحة، والمراد منها الانحراف الجنسي وعمل اللواط المخزي.

وجملة ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ إشارة إلى أنّكم - يعني قوم لوط - ترون بأم أعينكم قبح هذا العمل وآثاره الوخيمة، وكيف تلوّث مجتمعكم من قرنه إلى قدمه به... وحتى الأطفال في غير مأمن من هذا العمل القبيح، فعلام تبصرون ولا تتنبهون!

وأمّا ما يحتمله بعضهم من أنّ جملة ﴿تُبْصِرُونَ﴾ إشارة إلى أنّهم كانوا يشهدون فعل اللواط «بين الفاعل والمفعول» فهذا المعنى لا ينسجم وظاهر التعبير، لأنّ لوطاً يريد أن يحرّك «وجدانهم» وضمائرهم، وأن يوصل نداء فطرتهم إلى آذانهم... فكلام لوط نابع من البصيرة ورؤية العواقب الوخيمة لهذا العمل والتنبه منه.

ثمّ يضيف القرآن قائلاً: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

وقد ورد التعبير عن هذا العمل القبيح بالفاحشة، ثمّ وضحه أكثر لئلا يبقى أي إبهام في الكلام، وهذا اللون من الكلام واحد من فنون البلاغة لبيان المسائل المهمة.

ولكي يتّضح بأنّ الدافع على هذا العمل هو الجهل، فالقرآن يضيف قائلاً: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

تجهلون بالله... وتجهلون هدف الخلق ونواميسه.. وتجهلون آثار هذا الذنب وعواقبه الوخيمة، ولو فكرتم في أنفسكم لرأيتم أنّ هذا العمل قبيح جدّاً، وقد جاءت

(١) يحتمل أن «ولوطاً» منصوب بالفعل (أرسلنا) الذي سبق ذكره في الآيات المتقدمة، ويحتمل أن يكون منصوباً بفعل محذوف تقديره (اذكر) وحيث جاء بعد الكلمة (إذ قال) فالاحتمال الثّاني أنسب.

الجملة بصيغة الاستفهام ليكون الجواب نابعاً من أعماقهم ووجدانهم، فيكون أكثر تأثيراً.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾

التّفسير

عندما تُعدُّ الطهارة عيباً كبيراً!

لاحظنا - في ما سبق من البحوث - منطق نبي الله العظيم «لوط»، ذلك المنطق المتين أمام المنحرفين الملوثين، وبيانه الاستدلالي الذي كان يعنّفهم على عملهم القبيح، ويكشف لهم نتيجة جهلهم وعدم معرفتهم بقانون الخلق وبجميع القيم الإنسانية.

والآن، لنستمع إلى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطق «لوط»؟!

يقول القرآن: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكري والسقوط الأخلاقي البعيد!.

أجل... إنّ الطهارة تعدّ عيباً ونقصاً في المحيط الموبوء، وينبغي أن يلقى أمثال يوسف المتعفف في السجن، وأن يطرد آل لوط نبيّ الله العظيم ويبعدوا - لأنّهم يتطهرون - خارج المدينة، وأن يبقى أمثال «زليخا» أحراراً أولي مقام... كما ينبغي أن يتمتع قوم لوط في مدينتهم دون حرج!.

وهذا هو المصداق الجلي لكلام القرآن في الضالين، إذ يقول: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ﴾[1] بسبب أعمالهم السيئة المخزية.

ويحتمل في جملة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أنّ قوم لوط لانحرافهم وغرقهم في

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.

الفساد، وتطبعهم وتعودهم على التلوّث، كانوا يقولون مثل هذا الكلام من باب السخرية والاستهزاء.. أي إنّهم يتصورون أنّ أعمالنا قبيحة وغير طاهرة! وأنّ تقواهم من التطهر، فما أعجب هذا الكلام! إنّه لمهزلة!.

وليس هذا غريباً أن يتبدل إحساس الإنسان - نتيجة تطبعه بعمل قبيح - فيتغير سلوكه ونظرته... فقد سمعنا بقصّة الدباغ المعروفة، إذ ورد أنّ رجلاً كان يدبغ الجلود المتعفنة دائماً، وتطبعت «شامّته» برائحة الجلود «العفنة» فمرّ ذات يوم في سوق العطارين، فاضطرب حاله وأغمي عليه، لأنّ العطور لا تناسب «شامّته» فأمر رجل حكيم أن يؤخذ إلى سوق الدباغين لإنقاذه من الموت... فهذا مثال حسيّ طريف لهذا الموضوع المنطقي.

جاء في الرّوايات أنّ لوطاً كان يبلغ قومه حوالي ثلاثين عاماً وينصحهم، إلاّ أنّه لم يؤمن به إلاّ أسرته وأهله باستثناء زوجته فإنّها كانت من المشركين وعلى عقيدتهم[(١)].

بديهي أن مثل هؤلاء القوم لا أمل في إصلاحهم في عالم الدنيا، فينبغي أن يطوى «طومار» حياتهم، لذلك تقول الآية التالية في هذا الشأن ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾[(٢)].

وبعد أن خرج آل لوط في الموعد المعين «سحر ليلة كانت المدينة غارقة فيها بالفساد» فلمّا أصبح الصباح نزلت عليهم الحجارة من السماء، وتزلزلت الأرض بهم، فدفنوا جميعاً تحت الحجارة والأنقاض، وإلى هذا تشير الآية الكريمة التالية ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

وكان لنا بحث مفصل في قوم لوط وعاقبتهم الوخيمة وآثار الانحراف الجنسي، في ذيل الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة هود، ولا حاجة إلى تكراره.

إنّ قانون الخلق عيّن لنا مسيراً لو سلكناه لكان ذلك مدعاة لتكاملنا وحياتنا، ولو انحرفنا عنه لكان باعثاً على سقوطنا وهلاكنا.

فقانون الخلق جعل الجاذبية الجنسية بين الجنسين المتخالفين عاملاً لبقاء نسل الإنسان واطمئنان روحه، وتغيير المسير نحو الانحراف الجنسي «اللواط أو السحاق» يذهب بالاطمئنان الروحي... والنظام الاجتماعي.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٣٨٢.

(٢) «الغابرين» جمع الغابر ومعناه هنا الباقي من الذاهبين من المكان.

وحيث إنّ لهذه القوانين الاجتماعية جذراً في الفطرة، فالتخلف «أو الانحراف» يسبب الاضطراب وعدم الانسجام في نظام وجود الإنسان!.

فلوط نبيّ الله العظيم نبّه قومه المنحرفين إلى هذا الأساس «الفطري» فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟! فالجهل وعدم معرفتكم بقانون الحياة والسفاهة هو الذي يقودكم إلى الضلال والتيه!

فلا عجب أن تتغير سائر قوانين الخلق في شأن هؤلاء القوم الضالين، فبدلاً من أن يغاثوا بماء من السماء يهب الحياة يمطرون بالحجارة.. وبدلاً من أن تكون الأرض مهاداً وثيراً لهم تضطرب وتتزلزل ويُقلب عاليها سافلها، لئلا يقتصر الحال على هلاكهم فحسب، بل لتمحى آثارهم!

وفي آخر آية من الآيات محل البحث، وبعد بيان ما جرى على لوط وقومه المنحرفين، يتوجه الخطاب إلى النّبي الكريم «محمّد» ﷺ ليستنتج ممّا سبق، فيقول له: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

الحمد والثناء الخاص لله، لأنّه أهلك أُمماً مفسدين كقوم لوط، لئلا تتلوث الأرض من وجودهم!.

الحمد لله الذي أبار قوم صالح «ثمود»، وفرعون وقومه المفسدين، وجعل آثارهم عبرة للمعتبرين.

وأخيراً فالحمد لله الذي أنعم وتفضل على عباده المؤمنين... كداود وسليمان وأمثالهما، وأولاهم القوّة والقدرة، وهدى القوم الضالين كقوم سبأ.

ثمّ يضيف قائلاً: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾.

سلام على موسى وصالح ولوط وسليمان وداود، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين وعباد الله الصالحين، ومن والاهم بإحسان.

ثمّ يقول: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(١)!!

رأينا في قصص هؤلاء الأنبياء أنّ الأصنام لم تستطع عند نزول البلاء أن تسعف أتباعها، أو تقوم بأدنى مساعدة لهم! غير أنّ الله سبحانه لم يترك عباده وحدهم في هذه الخطوب، بل أعانهم بلطفه الذي لا ينفد!

---

(١) (آلله) أصلها (أألله) فانقلبت إحدى الهمزتين ألفاً ثمّ صارت مدّة كما هي عليه الآن.. وجملة ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أصلها (أم ما يشركون) إذ أُدغمت (أم) المعادلة الاستفهامية بما الموصولة فصارت (أمّا).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ
يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ
وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾
أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن
يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾

التّفسير

أمع كلّ هذه الأدلة ما تزالون مشركين؟!

في آخر آية من آيات البحث السابق، وبعد ذكر جوانب مثيرة من حياة خمسة أنبياء عظام، أُلقي هذا السؤال الوجيز المتين ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؟!

أمّا في الآيات محل البحث فتفصّل السؤال.. وتوجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشركين وتحاكمهم، وتكشف دلائل التوحيد في الآيات الخمس في اثني عشر مثلاً!

فالآية الأُولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات والأرض، ونزول الماء من السماء والبركات الناشئة عنه، فتقول: هل أن معبوداتكم أفضل ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ(١) بَهْجَةٍ﴾(٢).

(١) كلمة ﴿ذَاتَ﴾ في «ذات بهجة» جاءت مفردة، مع أنّ حدائق جمع وهي موصوفها، وذلك لأنّ الحدائق جمع تكسير، وجمع التكسير قد يأتي أحياناً بمعنى الجماعة، وهي - أي لفظة الجماعة - مفرد وصفتها مفردة أيضاً..

(٢) هذه الآية في الحقيقة فيها حذف وتقديره: ما يشركون خير أم من خلق السماوات والأرض؟ وفي الحقيقة إنّ السؤال في الآية السابقة كان هكذا: الله خير أم الشركاء؟ وهنا يبدأ السؤال بالعكس: ما يشركون خير أم من خلق السماوات والأرض.

«الحدائق» جمع «الحديقة»، وهي كما يقول كثير من المفسرين: البستان الذي يحيطه الجدار أو الحائط، ومحفوظ من جميع الجهات، ومنها سمّيت حدقة العين حدقة لأنّها محفوظة بين الجفنين والهدب، أمّا الراغب فيقول في المفردات: إنّ الحديقة تطلق في الأصل على الأرض المجتمع فيها الماء، كما أنّ حدقة العين فيها الماء دائماً.

ويستفاد من مجموع هذين الرأيين أنّ الحديقة بستان له جدار وماء كاف.

و«البهجة» على وزن (لهجة) معناها الجمال وحسن الظاهر الذي يسر الناظرين.

ويتوجه الخطاب نحو العباد في ختام الآية فيقول: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾.

فأنتم تستطيعون أن تنثروا البذور وتسقوا الأرض، لكن الذي جعل الحياة في قلب البذرة، وأمر الشمس أن تشرق على الأرض، والماء ينزل من السماء حتى تنبت البذرة فتكون شجراً، هو الله فحسب.

فهذه حقائق لا يمكن إنكارها، ولا أن تنسب لغير الله... فهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي أنزل الغيث من السماء، وهو مبدأ هذه البهجة والحسن والجمال في عالم الحياة!.

إنّ مجرّد التأمل في لون الزهرة الجميلة، وأوراقها اللطيفة المنظمة التي تشكل حلقةً رائعة.. كاف أن يجعل الإنسان عارفاً بعظمة الخالق وقدرته وحكمته.. فهذه الأُمور تهز قلب الإنسان وتدعوه إلى الله.

وبتعبير آخر فإنّ التوحيد في الخلق يؤدّي إلى «توحيد الخالق»، والتوحيد في الربوبيّة «توحيد مدبّر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة»!.

ولذلك فالقرآن يقول في نهاية الآية: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ولكن هؤلاء جهلة عدلوا عن الله وعبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(١).

والسؤال الثّاني بحث عن موهبة استقرار الأرض وثباتها، وأنّها مقر الإنسان في هذا

(١) قد يكون ﴿يَعْدِلُونَ﴾ من مادة (العدول) أي الانحراف والرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنّه مادة (عِدْل) على وزن (قِشر) ومعناه المعادل والنظير.. ففي الصورة الأُولى مفهوم الآية أنّهم ينحرفون عن الله الواحد إلى غيره، وفي الصورة الثّانية مفهومها أنّهم يجعلون له عديلاً.

العالم، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ﴾(١) كما تحافظ على القشرة الأرضية من الزلازل، كما ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ ومانعاً من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

وهكذا فقد ورد في هذه الآية ذكر أربع نعم عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض! فتقول:

إنّ استقرار الأرض في الوقت الذي تتحرك بسرعة وتدور حول نفسها وحول الشمس، وتتحرك في المنظومة الشمسية وحركة هادئة وفي وتيرة واحدة، إلى درجة أنّ سكّانها لا يحسّون بحركتها أبداً. . . فكأنّها أوتدت في مكان واحد! وبقيت ثابتة فلا يُرى فيها أقلّ حركة.

والنعمة الأُخرى وجود الجبال، التي قلنا عنها سابقاً أنّها تُحيط بالأرض، وجذورها متصلة بعضها ببعض كالحاجز القوي الذي يقاوم الضغوط الداخلية للأرض، وحركات الجزر والمدّ اللذين يحصلان بسبب جاذبية القمر، كما أنّها تعتبر مانعاً أمام الأعاصير والسيول من أن تدمّر الأرض بطغيانها!

والنعمة الأُخرى الحجاب الحاجز بين البحرين، والحائل الطبيعي الذي يحول بين الماء المالح والماء العذب، وهذا الحجاب - غير المرئي - هو الاختلاف في درجة الغلظة بين الماء العذب والماء المالح، أو كما يصطلح عليه اختلاف «الوزن النوعي» الخاص الذي يسبب عدم انحلال مياه الأنهار العظيمة العذبة التي تنصب في البحار المالحة لمدّة طويلة، وعند حالة «المدّ» تتمدد هذه المياه العذبة على السواحل الصالحة للزراعة فتسقيها (وقد بيّنا تفصيل هذا الموضوع ذيل الآية ٥٣ من سورة الفرقان).

وفي الوقت ذاته جعل الله خلال أجزاء الأرض المختلفة أنهاراً تسقي المزارع والأحياء. . . فتخضرّ البساتين وتثمّر الأشجار وبعض مصادر هذه المياه تكمن في قمم الجبال. . . وبعضها بين الطبقات الأرضيّة!.

ترى هل يمكن أن يكونَ هذا النظام قد وُلد عن طريق الصدفة العمياء الصمّاء، والمبدأ الفاقد للعقل والحكمة؟! وهل للأصنام تأثير في هذا النظام البديع المثير للدهشة؟!

(١) «الخلال» في الأصل معناه الشق بين الشيئين. و«الرواسي» جمع «راسية»، وهي الثابتة.

حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الادعاء! لذلك يكرر القرآن في ختام الآية هذا السؤال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟! حاش لله ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

السؤال الثالث من هذه الأسئلة الخمسة التي تحكي عن محاورة ومحاكمة المعنوية يتحدث عن حلّ المشكلات، وفتح الطرق الموصدة، وإجابة الدعاء، إذ تقول الآية التالية: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.

أَجَلْ... عندما تُغلق جميع أبواب عالَم الأسباب بوجه الإنسان، ويبلغ النصل إلى العظم، ويغدو مضطراً حيران لا حيلة له، فإنّ الذي يحلّ المعضلة، ويفتح الأقفال، ويزيل السدود عن الطرق، وينشر في القلوب نور الأمل، ويفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو الله لا غير!.

وحيث إنّ الناس يدركون هذه الحقيقة بالفطرة في أعماق نفوسهم جميعاً، فإنّ المشركين حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمة ينسون جميع معبوديهم ويتوجهون نحو لطف الله، كما يقول القرآن: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

لذلك تضيف الآية قائلة: إنّه لا ينقذكم من هذه المآزق والشدائد فحسب، بل: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ ولكنكم لا تتعضون بهذه الدلائل.. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وحول مفهوم المضطر، ومسألة استجابه الدعاء وشروطها، بحوث ستأتي في نهاية هذه الآيات!

والمراد من ﴿خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ لعله بمعنى «سكنة الأرض» وأصحابها.. لأنّ الله جعل الإنسان حاكماً على هذه الأرض، مبسوط اليد فيها بما أولاه من النعم وأسباب الرفاه والدعة والاطمئنان!

ولا سيما حين يقع الإنسان في شدّة، فيغدو مضطراً ويتجه نحو خالقه الكريم - فيرفع بكرمه البلايا والموانع - فتستحكم أسس هذه الخلافة وهنا تتجلى العلاقة بين شطري الآية.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٥.

(٢) (ما) في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ زائدة ظاهراً، ونعرف أنّ الحروف الزائدة في كثير من المواطن للتأكيد، و﴿قَلِيلًا﴾ صفة لمصدر محذوف وتقديره: تتذكرون تذكراً قليلاً.

كما قد يكون المراد بهذا المعنى، وهو أنّ الله جعل ناموس الحياة أن يخلفَ قوم قوماً على الدوام، بحيث لو لم يكن هذا التناوب لم تغدُ الصورة متكاملة[1]!.

ويثير القرآن في السؤال الرّابع مسألة الهداية فيقول: هل أنّ الأصنام أفضل، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ بواسطة النجوم ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؟!!

فالرياح التي تدل على نزول الغيث، وكأنّها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث، إنّها في الحقيقة تهدي الناس إلى الغيث أيضاً.

والتعبير بـ ﴿بُشْرًا﴾ في شأن الرياح، والتعبير بـ ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ في شأن الغيث، كلاهما تعبيران طريفان لأنّ الرياح هي التي تحمل الرطوبة في الجو وتنقل أبخرة الماء من على وجه المحيطات بشكل قطعات من السحب على متونها، إلى النقاط اليابسة، وتخبر عن قدوم الغيث!

وكذلك الغيث الذي ينشد نغمة الحياة على وجه البسيطة، وحيثما نزل حلت البركة والرحمة[2].

(ذكرنا شرحاً مفصلاً في تأثير الرياح في نزول الغيث في ذيل الآية ٥٧ من سورة الأعراف).

ويخاطب القرآن في ختام الآية المشركين مرّة أُخرى فيقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!

ثمّ يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلاً: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أمّا في آخر آية من الآيات محل البحث، فيثير القرآن السؤال الخامس في شأن المبدأ والمعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أنّ أصنامكم أفضل، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.. فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير الله ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟!

وفي الواقع فإنّ الآيات المتقدمة كلها كانت تتكلم على المبدأ، وآيات عظمة الله في عالم الخلق والوجود، ومواهبه ونعمه، إلاّ أنّه في الآية الأخيرة ينتقل البحث من معبر

---

(١) فبناءً على هذا المعنى يكون (خلفاء الأرض) بمعنى: خلفاء في الأرض.

(٢) «بُشر» على وزن «عشر» - كما ذكرنا آنفاً - مخفف بُشر على وزن «كتب»، وهي جمع «بشور» على وزن «قبول» ومعناه المبشر.

ظريف إلى مسألة المعاد، لأنّ بداية الخلق نفسها دليل على تحققها، والقدرة على بداية الخلق تعد دليلاً واضحاً على المعاد.

ومن هنا يتّضح الجواب على السؤال الذي يثيره كثير من المفسّرين، وهو أنّ المشركين المخاطبين بهذه الآيات أغلبهم لم يعتقدوا بالمعاد «المعاد الجسماني» فكيف يمكن أن يوجه إليهم هذا السؤال مع هذه الحال ويطلب منهم الإقرار.

فالجواب عليه أنّ هذا السؤال مقرون بدليل يسوق الطرف الآخر للإقرار، لأنّه باعترافهم أن بداية الخلق من الله، وهذه المواهب والنعم كلّها منه، لكي تقبل عقولهم إمكان المعاد والرجوع إلى الحياة في يوم القيامة مرّة أُخرى.

والمراد من (الرزق السماوي) هو الغيث ونور الشمس وأمثال ذلك، أمّا (الرزق الأرضي) فالنباتات والمواد الغذائية المختلفة التي تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام والمعادن والمواد المختلفة التي يتمتع بها الإنسان في حياته!.

بحوث

١ - مَن المضطر الذي يجاب إذا دعاه؟

مع أنّ الله - يجيب دعاء الجميع عند تحقق شروط الدعاء، إلاّ أنّ في الآيات آنفة الذكر اهتماماً بالمضطر، وذلك لأنّ من شروط إجابة الدعاء أن يغمض الإنسان عينيه عن عالم الأسباب كليّاً، وأن يجعل قلبه وروحه بين يدي رحمة الله، وأن يرى كل شيء منه وله! وأن حل كل معضلة بيده، وهذه النظرة وهذا الإدراك إنّما يتحققان في حال الاضطرار.

وصحيح أنّ العالم هو عالم الأسباب والمسببات، والمؤمن يبذل منتهى سعيه وجهده في هذا الشأن... إلاّ أنّه لا يضيع في عالم الأسباب أبداً... ويرى كل شيء من بركات ذاته المقدسة، ويرى من وراء الحجاب ببصره النافذ «مسبب الأسباب» فيطلب منه ما شاء!.

أجل، إذا وصل الإنسان إلى هذه المرحلة، فإنه يوفّر لنفسه أهم شرط لإجابة الدعاء.

الطريف أنّه قد ورد في بعض الرّوايات تفسير هذه الآية بقيام المهدي صلوات الله وسلامه عليه!

ففي رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «والله لكأنّي أنظر إلى القائم وقد أسند

ظهره إلى الحجر ثمّ ينشد الله حقّه. . . قال والله هو المضطر في كتاب الله في قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾»[1]!

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «نزلت في القائم من آل محمّد عليهم السلام هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا الله عزّ وجلّ فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض»[2].

ولا شك أنّ هذا التّفسير - كما رأينا نظائره الكثيرة - لا يحصر المراد من هذه الآية بالمهدي عليه السلام، بل مفهوم الآية واسع، والمهدي عليه السلام واحد من مصاديقها الجليّة. . . إذ الأبواب في زمانه موصدة، والفساد عمّ البسيطة، والبشرية في طريق مسدود، وحالة الاضطرار ظاهرة في جميع العالم. . فعندئذ يظهر الإمام في أقدس بقعة. . فيطلب كشف السوء، فيلبي الله دعوته، ويجعله بداية «الظهور» المبارك في العالم، ويستخلفه في الأرض هو وأصحابه، فيكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾.

«كان لنا بحث في شروط إجابة الدعاء وأهمّيته، وفي سبب عدم الإجابة، فصّلناه في ذيل الآية ١٨٦ من سورة البقرة».

٢ - الاستدلال المنطقي في كلّ مكان

نقرأ في آيات القرآن - مراراً - أنّه يطالب المخالفين بالدليل، وخاصة بقوله: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ وقد جاء هذا النص في أربعة مواضع البقرة: الآية ١١٥، الأنبياء: الآية ٢٤، النمل: الآية ٦٤، والقصص: الآية ٧٥ كما أنّه أكّد في مواضع أُخرى على البرهان خاصة «والمراد من البرهان: أصدق دليل».

وهذا المنطق (المطالبة بالبرهان) للإسلام يحكي عن محتواه الغني والقوي، لأنّه يسعى لأن يواجه مخالفيه مواجهة منطقية، فكيف يطالب الآخرين بالبرهان وهو لا يكترث به؟! فآيات القرآن المجيد مملوءة بالاستدلالات المنطقية. . . والبراهين العلمية في المسائل المتعددة!.

وهذا الأمر على خلاف ما حرفته المسيحية اليوم - وعوّلت عليه، وترى أنّ الدين هو ما يوحيه القلب!! وتفصل العقل عنه إذ تراه أجنبياً عنه. . . حتى أنّها تؤمن بالتناقضات العقلية كالتوحيد في التثليث، ومن هنا فقد سمحت للخرافات أن تدخل في الدين، مع

(١-٢) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ٩٤.

أنّ الدين لو خلا من العقل والاستدلال العقلي فسوف لا يقوم دليل عليه، ويكون ذلك الدين وما يضادّه سواء!.

وتبرز عظمة هذا المنهج (وهو الاهتمام بالبرهان ودعوة المخالفين إلى الاستدلال المنطقي) حين نلتفت إلى أنّ الإسلام ظهر في محيط يعيش الخرافات التي لا أساس لها والمسائل غير المنطقية في جميع مفاصل منظومته الفكرية والمعرفية!!

٣ - خلاصة عامّة ومرور على الآيات السابقة

في الآيات السابقة كان اهتمام القرآن منصباً لإثبات «توحيد المعبود» على «توحيد الخالق»، و«توحيد الرب» أي (توحيد الخلق وتوحيد التدبير) وتحدّث عن اثنتي عشرة آية وعلامة لله العظيم في عالم الوجود:

١ - السماء والأرض.

٢ - نزول الغيث.

٣ - بركاته في الحياة.

٤ - قرار الأرض.

٥ - الأنهار.

٦ - الجبال الرواسي.

٧ - الحاجز بين البحرين (العذب والمالح).

٨ - إجابة دعوة العباد.

٩ - هدايتهم في ظلمات البر والبحر.

١٠ - إرسال الرياح بشراً بين يدي رحمته.

١١ - بدء الخلق وإعادته.

١٢ - رزق الإنسان «وسائر الخلق» من السماء والأرض.

هذه المواهب «والنعم» الاثنتا عشرة بيّنتْ في خمس آيات وضمن خمسة أسئلة! وكانت تعالج الأُمور الخمسة التالية على التوالي:

١ - الخلق.

٢ - والاستقرار.

٣ - كشف الضرّ.

٤ - الهداية.

٥ - إعادة الحياة ﴿بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾.

وقد عقّب ذيل كل واحد من الأسئلة الخمسة، بقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!

وقد أوضح القرآن في نهاية كل سؤال أموراً، فأشار في نهاية الآية الأُولى إلى انحراف المخالفين عن الحق.

وأشار في الآية الثّانية إلى جهلهم.

وأشار في الآية الثّالثة إلى عدم تفكيرهم!

وأشار في الآية الرابعة إلى انحطاط أفكارهم.

وطالبهم في نهاية الآية الخامسة بالاستدلال!

وقد أبدى القرآن بشكل عام مجموعة من الأسئلة الجامعة والمنسجمة بعضها مع بعض.

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

التّفسير

لـمّا كان البحث في آخر الآيات السابقة عن القيامة والبعث، فإنّ الآيات - محل البحث - تعالج هذه المسألة من جوانب شتى، فتجيب أولاً على السؤال الذي يثيره المشركون دائماً، وهو قولهم: متى تقوم القيامة؟ و«متى هذا الوعد»؟! فتقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾!

لا شك أنّ علم الغيب - ومنه تاريخ وقوع القيامة - خاص بالله، إلاّ أنّه لا منافاة في أن يجعل الله بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده، كما نقرأ في الآيتين (٢٦) و(٢٧) من سورة الجن: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

وبتعبير آخر فإنّ علم الغيب بالذات، وبصورته المستقلة والمطلقة غير المحدودة،

خاصّ بالله سبحانه، وكل علوم الآخرين مُسترفدة من علمه تعالى، ولكن مسألة تاريخ وقوع القيامة مستثناة من هذا الأمر أيضاً، ولا يعلم بها أحد «إلاّ الله»[1].

ثمّ يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامة وشكهم وجهلهم، فيقول: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

«ادّارك» في الأصل «تدارك» ومعناه التتابع أو لحوق الآخر بالأوّل، فمفهوم جملة: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أنّهم لم يصلوا إلى شيء بالرغم ممّا بذلوه من تفكير، وجمعوا المعلومات في هذا الشأن، لذلك فإنّ القرآن يضيف مباشرة بعد هذه الجملة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾. لأنّ دلائل الآخرة ظاهرة في هذه الدنيا، فعودة الأرض الميتة إلى الحياة في فصل الربيع، وإزهار الأشجار وإثمارها مع أنّها كانت في فصل الشتاء جرداء!... ومشاهدة عظمة قدرة الخالق في مجموعة الخلق والوجود، كلها دلائل على إمكان الحياة بعد الموت، إلاّ أنّهم كالعُمي الذين لا يبصرون كل شيء!

وبالطبع فإنّ هناك تفاسير أُخر للجملة أعلاه، منها أنّ المراد من ﴿ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أنّ أسباب التوصل للعلم في شأن الآخرة متوافرة ومتتابعة، إلاّ أنّهم عمي عنها.

وقال بعضهم: إنّ المراد منها أنّهم عندما تُكشف الحجب في يوم الآخرة، فإنّهم سيعرفون حقائق الآخرة بشكل كاف.

إلاّ أنّ الأنسب من بين هذه التفاسير الثلاثة هو التّفسير الأوّل حيث يناسب بقية الجمل في الآية، والبحوث الواردة في الآيات الأُخر!

وهكذا فقد ذكرت ثلاث مراحل لجهل المنكرين (للآخرة).

الأولى: أنّ إنكارهم وإشكالهم هو لأنّهم يجهلون خصوصيّات الآخرة «وحيث إنّهم لم يروها فهم يظنون الحقيقة خيالاً».

الثّانية: أنّهم في شك من الآخرة أساساً، وسؤالهم عن زمان تحققها ناشىء من أنّهم في شك منها!

الثالثة: أنّ جهلهم وشكهم ليس منشؤهما أنّهم لا يملكون دليلاً أو دلائل كافية على الآخرة، بل الأدلة متوفرة إلاّ أنّ أعينهم عميٌ عنها!

---

(١) كان لنا بحوث مفصلة في علم الغيب في الأجزاء السابقة في هذا التّفسير.

والآية التالية: توجز منطق منكري القيامة والبعث في جملة واحدة، فتقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾؟!

فهم مقتنعون بهذا المقدار، أنّ هذه المسألة بعيدة (أن يتحول الإنسان إلى تراب ثمّ يعود إلى الحياة)! مع أنّهم كانوا أوّل الأمر تراباً وخلقوا من التراب، فما يمنع أن يعودوا إلى التراب، ثمّ يرجعون أحياءً بعد أن كانوا تراباً!

الطريف أنّنا نواجه مثل هذا الاستبعاد في ثمانية مواضع من القرآن، فهم يشكون في مسألة القيامة في المواضع آنفة الذكر بمجرّد استبعاد عودتهم إلى الحياة من «التراب» ثانية!

ثمّ يحكي القرآن عمّا يضيفه المشركون من قول: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ﴾ ولكن لم نجد أثراً لهذا الوعد ولن يوجد ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، فما هي سوى خرافات وخزعبلات القدماء.

فبناءً على هذا فإنّهم يبدأون من الاستبعاد ثمّ يجعلونه أساساً للإنكار المطلق... فكأنّهم كانوا ينتظرون أن تتحقق القيامة عاجلا، وحيث إنّهم لم يشهدوا ذلك في حياتهم فهم ينكرونه.

وعلى كل حال، فهذه التعبيرات جميعها تدل على غفلتهم وغرورهم!

ويستفاد - ضمناً من هذا التعبير - أنّهم أرادوا أن يسخروا من كلام النّبي في شأن يوم القيامة، ويطعنوا عليه، فيقولون: إنّ هذه الوعود الباطلة سبقت لأسلافنا، فلا جديد فيها يستحق بذل التفكير والمراجعة!

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٦٩) وَلَا تَحۡزَنۡ
عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ (٧٠) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن
كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٧١) قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ (٧٢)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا
فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ (٧٥)﴾

التّفسير

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم

كان الكلام في الآيات السابقة عن إنكار المعاندين الكفار للمعاد، واستهزائهم وتكذيبهم باليوم الآخر.

ولما كان البحث المنطقي غير مُجد لهؤلاء القوم المعاندين والأعداء الألدّاء، بالإضافة إلى ما أقامتهُ الآيات الأُخر من الدلائل الوافرة على المعاد ممّا يُرى كلّ يوم في عالم النباتات وفي عالم الأجنّة، وما إلى ذلك، فإنّ الآيات محل البحث بدلاً من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب الله الّذي شمل من سبقهم من الكفّار، وأنذرتهم بعقابه المخزي... فوجهت الخطاب للنبي ﷺ قائلةً: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

فأنتم تعترفون أنّ هذه الوعود تلقّاها أسلافكم، فلم يكترثوا بها، ولم يروا ضرراً.. فهلاّ سرتم في الأرض قليلاً، لتشهدوا آثار هؤلاء المجرمين المنكرين للتوحيد والمعاد، وخاصة الآثار في المناطق القريبة من الحجاز... لتنظروا أنّ الأمر ليس كما تزعمون.

ولكن سيحين موعدكم فلا تعجلوا... فأنتم كأُولئك ستواجهون المصير المحتوم والعاقبة المخزية إذا لم تصلحوا أنفسكم!.

والقرآن دعا مراراً إلى السير في الأرض، ومشاهدة آثار الماضين، والمدن الخاوية الخربة التي حاق بأهلها سوء العذاب، وقصور الظالمين المتداعية، والقبور الدارسة والعظام النخرة، والأموال التي خلفها أصحابها المغرورون!!

إنّ مطالعة تلك الآثار التي تعبّر عن التاريخ الحيّ لأُولئك الماضين، توقظ القلوب الغافلة! وتبصّرها بالحق... والواقع كذلك، فإنّ مشاهدة واحد من هذه الآثار يترك في القلب أثراً لا تتركه مطالعة عدّة كتب تأريخية!.

(كان لنا بحث مفصل في هذا المجال ذيل الآية ١٣٧ من سورة آل عمران).

ممّا ينبغي ملاحظته أنّه جاء في هذه الآية التعبير بـ«المجرمين» بدلاً من «المكذبين»... وهو إشارة إلى أن تكذيبهم لم يكن لأنّهم أخطأوا في التحقيق، بل أساسه العناد واللجاجة. وتلوثهم بأنواع الجرائم!

وحيث إنّ الرّسول ﷺ كان يشفق عليهم لإنكارهم، ويحزن لعنادهم، ويحترق قلبه

من أجلهم، إذ كان حريصاً على هدايتهم، وكان يواجه مؤامراتهم أيضاً.. فإنّ الآية التالية تسري عن قلب النّبي فتقول له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ولا تقلق من مؤآمراتهم ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

إلاّ أنّ هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلاً من أن يأخذوا إنذار النّبي المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظون بوعظه ويسترشدون بنصحه، أخذوا يسخرون منه ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ومع أنّ المخاطب هو النّبي ﷺ، إلاّ أنّ الموضوع ذكر بصيغة الجمع ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأنّ المؤمنين الصادقين كانوا قد ضموا صوتهم إلى صوت النّبي ﷺ أيضاً... فهم مخاطبون بما خوطب به كذلك!

وهنا يردُّ القرآن على استهزائهم وسخريتهم بلهجة موضوعية، فيقول مخاطباً نبيّه: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

فعلام تستعجلون؟! وعلام تستصغرون عقاب الله؟! أفلا ترحمون أنفسكم؟! ترى، هل عذاب الله ضرب من الهزل أو المزاح؟ فعسى أن يأخذكم الله بعذابه لكلامكم هذا فيهلككم... فلم هذا العناد واللجاجة؟!

«ردف» فعل مشتق من (ردف) على وزن (حرف) ومعناه كون الشيء خلف الشيء الآخر، ولذا يطلق على من يركب الفرس خلف صاحبه (رديف) كما يطلق الرديف على الأشخاص أو الأشياء التي تقف صفاً واحداً بعضها خلف بعض.

وهناك كلام عن المراد من العذاب الذي كانوا يستعجلون به، فقيل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمة كبرى، إذ صرع من عتاتهم سبعون رجلاً وأسر سبعون رجلاً!

كما ويحتمل أنّ المراد منه العقاب العام الذي دفع أخيراً، ببركة وجود النّبي إذ كان رحمة للعالمين، والآية (٣٣) من سورة الأنفال شاهدة عليه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾.

والتعبير بـ«عسى» لعله على لسان النّبيّ ﷺ. وحتى لو كان من قِبَلِ الله سبحانه - فعلى خلاف ما يتصوّره بعضهم، فإنّه ليس فيه أي إشكال... إذ هو إشارة إلى وجود مقدمات الشيء ومقتضياته، مع إمكان أن تقترن هذه المقدمات بالمانع، فلا تصل إلى النتيجة النهائية (فلاحظوا بدقّة)!.

ثمّ يتحدث القرآن في الآية التالية عن هذه الحقيقة: وهي أنّ الله إذا لم يعجل في

عقابكم، فذلك بفضله وبرحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافي لإصلاح أنفسهم، فيقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وإذا كانوا يتصورون أن تأخير العقاب لعدم علم الله سبحانه لما يدور في خلدهم من نيات سيئة وأفكار ضالة، فهم في غاية الخطأ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(١).

فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم وما يعلنون، والغيب والشهادة عنده سيّان.

فهذه المفاهيم هي من نتاج علمنا المحدود، وإلاّ فهي في مقابل غير المحدود تفقد معانيها وتتلاشى حدودها.

وهنا ذكر «علم الله بما تكنّ القلوب» مقدماً على علمه بالأفعال الخارجية، ولعل ذلك هو بسبب أهمّية النيات والإرادة! كما يمكن أن يكون التقديم لأنّ الأفعال الخارجية ناشئة عن النيات الداخلية، والعلم بالعلة مقدم على العلم بالمعلول!.

ثمّ يضيف القرآن قائلاً: إنّه ليس علم الله منحصراً بما تكنّ القلوب وما تعلن، بل علمه واسع مطلق! ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

وواضح أنّ «الغائبة» لها معنى واسع، فهي تحمل في مفهومها كلّ ما خفي عن حسّنا وغاب... وتشمل أعمال العباد الخفية والنيات الباطنية، وأسرار السماوات والأرض وقيام الناس للحساب يوم القيامة، زمان نزول العذاب، وأمثال ذلك، ولا دليل على أن نفسّر «الغائبة» هنا بواحد من هذه الأُمور المذكورة آنفاً - كما ذهب إليه بعض المفسّرين -.

والمراد بـ«الكتاب المبين» هو اللوح المحفوظ، وعلم الله الذي لا نهاية له، وقد بحثنا هذا الموضوع في ذيل الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

---

(١) «تكنّ» مأخوذ من كَنّ على وزن جَنّ، وهذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء وتحفظ، وهنا كناية عن ما يخطر في قلوب الكفّار من خواطر وأفكار عدوانية!..

(٢) «الغائبة» اسم فاعل مشتق يدل على الوصف، وكما يعتقد بعضهم «التاء» ليست في هذه الكلمة للتأنيث، بل هي إشارة للأشياء المخفية، فهي للمبالغة في الخفاء... إلا أنّه لا مانع من أن نحتمل أن التاء للتأنيث، وأنّ موصوفها محذوف، وتقديره: وما من خصلة غائبة. أو أشياء غائبة، والله العالم.

ملاحظات

التحقيق في الآيات المتقدمة يدل على أن منكري المعاد من أجل أن يتنصّلوا من عبء الإيمان بالقيامة والمسؤوليات الناشئة عنه، كانوا يتوسلون بثلاثة طرق:

١ - استبعاد العودة للحياة بعد أن يغدو الإنسان تراباً، لاعتقادهم أنّ التراب لا يمكن أن يكون أساساً للحياة!

٢ - قدم هذه العقيدة وعدم الجدة فيها.

٣ - عدم نزول العذاب على منكري المعاد... لأنّه لو كان حقّاً أن يبتلى المنكرون بالعذاب فلم لا ينزل عليهم!

وقد ترك القرآن الجواب على الإشكالين الأوّل والثاني، لأنّنا نرى بأم أعيننا أنّ التراب مصدر الحياة وأساسها، وكنا في البداية تراباً ثمّ صرنا أحياءً!

وكون الشيء قديماً لا ينقص من أهميّته أيضاً... لأنّ قوانين هذا العالم الأصيلة ثابتة ومستقرة من الأزل حتى الأبد... وفي الأصول الفلسفية والمسائل الرياضيّة والعلوم الأُخَر أصول كثيرة ثابتة... فَهَل كون امتناع اجتماع النقيضين قديماً، أو جدول ضرب فيثاغورس قديماً، دليلاً على ضعفه؟! وإذا رأينا العدل حسناً والظلم سيئاً منذ القِدَم، ولا يزال كذلك، فهل هو دليل على بطلانه... فكثيراً ما يتفق أن القِدَم دليل على الأصالة.

وأمّا في شأن الإشكال الثالث، فيجيب القرآن: ألاّ تعجلوا.. فعدم نزول العذاب من لطف الله، فهو يمهلكم ولا يعذبكم عاجلاً، لكن إذا جاء عذابه فلا مفرّ منه.

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾
وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ
ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن
ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

التّفسير

عميُ القلوب لا يقبلون دعوتك!

كان الكلام في الآيات السابقة عن المبدأ والمعاد... أمّا في الآيات - محل البحث - فيقع الكلام على مسألة النبوّة، وحقّانيّة القرآن، ليكتمل بهما هذا البحث!.

ومن جهة أُخرى فقد كان الكلام في الآيات السابقة عن علم الله الواسع غير المحدود، وفي الآيات محل البحث مزيد تفصيل في هذا الشأن.

أضف إلى ذلك أنّ الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجهاً للمشركين، وهنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود واختلافاتهم!.

فتقول الآيات أوّلاً: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم في مسائل كثيرة! فقد اختلفوا في شأن مريم وعيسى عليه السلام. وفي شأن النّبي الذي بشّرت به «التّوراة» من هو؟

كما أنّهم اختلفوا في ما بينهم في كثير من المسائل الدينية والأحكام الشرعية... فجاء القرآن موضحاً هذه الأُمور بجلاء، وقال: إنّ المسيح عليه السلام عرف نفسه بصراحة ف ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾(١).

وقال أيضاً: إنّ المسيح ولد من دون أب، وليس أمره محالاً و﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾(٢).

وأمّا النّبي الذي بشرت به التّوراة فتنطبق أوصافه على نبي الإسلام محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تنطبق على أحد سواه!.

وعلى كل حال فإنّ واحدة من مهامّ القرآن هي مواجهة الاختلافات المتولّدة من اختلاط الخرافات وحقائق التعليمات التي جاء بها الأنبياء... وكل نبي مسؤول أن يحسم الاختلافات الناشئة من التحريف والخلط بين الحقّ والباطل... وحيث إنّ هذا العبء لا يمكن أن ينهض به رجل أمي لم يسبق له أن يقرأ، وفي محيط جاهلي، فيتّضح أنّه مرسل من قبل الله!

ولما كانت مواجهة الاختلافات والوقوف بوجهها مدعاة للهدى والرحمة، فإنّ الآية التالية تشير إلى هذا «الأصل الكلي» وتقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.

أجل، إنّه هدى ورحمة من حيث حسم الخلافات ومبارزة الخرافات،

هدى ورحمة لأنّ دليل حقانيته كامن في عظمة محتواه!

هدى ورحمة لأنّه يهدي إلى سبيل الحق ويدل عليه!.

وذكر «المؤمنين» هنا خاصّة.. هو لما ذكرناه آنفاً من أنّه ما لم تتوفر مرحلة من الإيمان في الإنسان، وهي مرحلة الاستعداد لقبول الحق والتسليم لله، فإنّه لا يستطيع الاستفادة من هذا المصدر الإلهي الفيّاض.

وحيث إنّ جماعة من بني إسرائيل وقفت بوجه القرآن والحقائق الواردة فيه، لأوامر الله، فإنّ الآية التالية تقول في شأنهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وبالرغم من أنّ هذه الآية لم تصرّح بأن قضاء الله بينهم سيكون يوم القيامة... إلاّ أنّه بقرينة آيتين أخريين تتحدثان عن اختلافات بني إسرائيل، وأنّ الله يقضي بينهم يوم القيامة، يتّضح أنّ مراد الآية محل البحث هو هذا المعنى ذاته.

ففي الآية (١٧) من سورة الجاثية يقول سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

كما ورد في ذيل الآية (٩٣) من سورة يونس، هذا النص المتقدم نفسه.

ووصف الله «بالعزيز» و«العليم» إشارة إلى ما ينبغي توفره في القاضي من هاتين الصفتين، «العلم» بصورة كافية و«القدرة» على إجراء الحكم، والله سبحانه أعلم من الجميع وأعزّهم.

وهذا الكلام إضافة إلى أنّه يبيّن عظمة القرآن، وهو تهديد لبني إسرائيل، فهو في الوقت ذاته تسلية عن قلب النّبي وتسرية عنه، لذا فالآية التالية تقول: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ﴾.

توكل على الله العزيز الذي لا يغلب، والعليم بكل شيء.. توكل على الله الذي أنزل القرآن على عظمته فجعله عندك، فتوكل عليه ولا تقلق من المشركين والمعاندين، لأنّه يرعاك و﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: إذا كان القرآن حقّاً مبيناً فلماذا خالفوه؟ فالآيات التالية تجيب على هذا السؤال، فتقول: إذا كان أُولئك لا يذعنون للحق المبين، ولا يؤثر في قلوبهم هذا الكلام المتين، فلا مجال للعجب. لـ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1].

---

(١) قال جماعة من المفسّرين: إنّ هذه الجملة والجمل الأُخر التي تليها بمثابة الدليل على لزوم توكل النّبي على الله وعدم يأسه... مع أنّ الظاهر أنّها جواب على سؤال يثار في شأن القرآن وكونه هو «الحق المبين».

بل تسمع الأحياء الذين يبحثون عن الحق وأرواحهم توّاقة إليه، أمّا إحياء الموتى - أو موتى الأحياء - لتعصبهم وعنادهم واستمرارهم على الذنب، فلاترهق فكرك ونفسك من أجلهم وحتى لو كانوا أحياء فإنّهم صمّ لا يسمعون فلايمكنهم أن يسمعوا صوتك، وخاصة إذا أداروا إليك ظهورهم وابتعدوا عنك ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾.

ولعلهم لو كانوا عندك وكنت تصرخ فيهم لبلغت بعض أمواج صوتك إلى مسامعهم، إلاّ أنّهم مع صممهم يبتعدون عنك.

كما أنّهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لاهتدوا إلى الصراط المستقيم، ولو ببعض العلامات، إلاّ أنّهم عميٌ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

وهكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجوههم، فقلوبهم ميتة، وآذانهم صمٌّ موقرة، وأعينهم عميٌ!

فأنت يا رسول الله ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ ويشعرون في أنفسهم بالإذعان للحق.

وفي الحقيقة إنّ الآيتين - آنفتي الذكر - تتحدثان عن مجموعة واضحة من عوامل المعرفة وارتباط الإنسان بالعالم الخارجي وهي:

«حس التشخيص»، والعقل اليقظ، في مقابل القلب الميت.

«الأذن الصاغية» لاكتساب الكلام الحق، عن طريق السمع.

«والعين الباصرة» لرؤية وجه الحق ووجه الباطل، عن طريق البصر.

إلاّ أنّ العناد واللجاجة والتقليد الأعمى والذنب... كلها تعمي العين التي بها يرى الإنسان الحقيقة، وتوقر سمعه، وتميت قلبه.

ومثل هؤلاء المعاندين المذنبين، لو جاء جميع الأنبياء والأولياء والملائكة لهدايتهم، لما أثّروا فيهم شيئاً، لأنّ ارتباطهم بالعالم الخارجي مقطوع، وهم غارقون في «مستنقع ذواتهم» فحسب!.

ونظير هذا التعبير ورد في سورة البقرة وسورة الروم وسور أخر من القرآن وكان لنا بحث آخر في نعمة «وسائل المعرفة» في تفسير سورة النحل ذيل الآية ٧٨.

ومرّة أُخرى نذكّر بهذه اللطيفة وهي أنّ المراد من الإيمان والتسليم ليس معناه أنّهم قبلوا حقائق الدين من قبل، فيكون من باب تحصيل الحاصل، بل الهدف من ذلك أنّ الإنسان إذا لم يكن فيه شوق للحق وخضوع لأمر الله، فإنّه لا يصغي إلى كلام النّبي أبداً.

بحثان

١ - أسباب التوكل

«التوكل» مأخوذ من «الوكالة»، وهو في منطق القرآن يعني الاعتماد على الله وجعله وليّاً وكيلاً، وعدم القلق والخوف من كثرة المشاكل والموانع وعظم حجمها، بسبب التوكل على الله!

وهذا الأمر واحد من دلائل الإيمان المهمّة ومدعاة للنصر والتوفيق!.

والطريف أنّ الآيات المتقدمة عدّت التوكل في شيئين:

أحدهما: القدرة والعلم لمن يتوكل عليه الإنسان.

والآخر: وضوح الطريق الذي اختاره الإنسان!.

وفي الحقيقة فإنّ القرآن يقول: لا مدعاة للضعف والخوف والوحشة، فأنت تعوّل على الله العزيز الذي لا يقهر، والعليم الخبير بكل شيء هذا من جهة.. ثمّ إنّك على الطريق الواضح والحق اللائح من جهة أُخرى.. فالمدافع عن الحق المبين علام يخاف؟!

وإذا ما رأيت جماعة خالفتك فلا تحزن أبداً... فهي لا تملك عيوناً باصرة، ولا آذاناً صاغية، ولا قلوباً حيّة!... وهي خارجة أساساً عن طريق الهداية والتبليغ... وإنّما يلتفّ حولك طلاب الحق وعشاق الله، والعطاشى إلى العدل حيث يخفّون نحو منبع القرآن الزلال، ليرتووا من نميره العذب.

٢ - الموت والحياة في منطق القرآن!

هناك كثير من الألفاظ لها مداليل ومعان شتّى بحسب النظرات المختلفة، ومن هذه الألفاظ، لفظا الحياة والموت. «فالحياة» بالنظرة المادية تعني الحياة الطبيعية «الفيزيائية» فحسب، أي متى كان القلب ينبض، والدم يجري في العروق إلى أعضاء الجسم كافة، وكانت الحركة وعملية الجذب والدفع في البدن، كان البدن حياً... أمّا إذا سكنت هذه الحركة، فتدل على «الموت» القطعي الذي يعرف بالاختبار الدقيق خلال عدّة لحظات!.

إلاّ أنّ النظرة القرآنية تختلف عن النظرة المادية، فكثير من الناس يعدون أحياءً

بحسب النظرة المادية - إلاّ أنّهم أموات بحسب النظرة القرآنية. . . كأُولئك الذين أشارت اليهم الآيات المتقدمة. . . وعلى العكس منهم الشهداء، فهم بحسب الظاهر أموات، لكنّهم بالمنطق القرآني أحياء خالدون!

والسبب في هذا الاختلاف بين النظرتين، هو أنّ الإسلام بالإضافة إلى أنّه يعدّ معيار الحياة الإنسانية وشخصية الإنسان في القيم الروحانية، فهو يرى في إيصال النفع إلى الآخرين وعدمه معياراً لوجود الحياة وعدمها في الإنسان.

فالإنسان الذي يرى بحسب الظاهر حيّاً، إلاّ أنّه غارق في الشهوات، فلا يسمع صرخة لمظلوم، ولا صوتاً لمنادي الحق، ولا ينظر بعين بصيرة فيرى آثار الله في خلقه، ولا يفكر ولو لحظة واحدة في مستقبله وماضيه. . . فمثل هذا الإنسان ميّت في منطق القرآن، أمّا الذين ما تزال آثارهم تملأ الدنيا بعد موتهم، وأفكارهم أسوة وقدوة للآخرين، فهؤلاء أحياء خالدون[(١)].

وبغض النظر عن هذه الأُمور كلّها. . . فالإسلام - حسب ما لدينا من المدارك - يؤمن بالحياة البرزخية للناس. . . والعجب أنّ بعض الوهابيين الجهلة يصرون على نفي أي نوع من أنواع الحياة والعلم بعد الوفاة، حتى للنبي ﷺ ويمنعون التوسل به، لأنّه بزعمهم ميّت ولا أثر للميت، والأعجب من ذلك أنّهم يستندون إلى الآيات - محل البحث - لتأييد دعواهم!!

في حين أنّ بعضهم الآخر يصرّح على أنّ للنبيّ نوعاً من الحياة البرزخية، حياةً أشرف من حياة الشهداء المصرّح بها في القرآن، وقال: إنّه يسمع سلام المسلّم عليه[(٢)].

والرّوايات في هذا الشأن كثيرة وافرة عن الفريقين الشيعة والسنة، أنّ النّبي ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام يسمعون من يسلّم عليهم من بعيد أو قريب، ويردّون عليه سلامهم، كما أنّ أعمال الأُمّة تعرض عليهم[(٣)].

ونقرأ في حديث ورد في صحيح البخاري في قصّة معركة بدر أنّ النّبي ﷺ مع بعض أصحابه وقف على «القليب» وقد ألقيت فيه أجساد قتلى المشركين، فناداهم بأسمائهم، وقال: هلاّ أطعتم الله ورسوله، لقد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً، فهل وجدتم

(١) كان لنا بحث مفصل «في الموت والحياة الروحيين» في ذيل الآية (٢٤) من سورة الأنفال.
(٢) الرسالة الثّانية من الهديّة السنية لمحمّد بن عبدالوهاب، ص ٤١.
(٣) لمزيد من الإيضاح يراجع كتاب كشف الارتياب ص ١٠٩ للسيد محسن الأمين العاملي.

ما وعد ربّكم حقاً. . فقال عمر: يا رسول الله، تكلم أجساداً لا روح فيها. . . فقال ﷺ: «والذي نفس محمّد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»(١).

ونقرأ في قصّة الجمل عن الأصبغ بن نباتة، أنّه لما انهزم أصحاب الجمل ركب علي عليه السلام بغلة رسول الله الشهباء وسار في القتلى يستعرضهم فمرّ بـ«كعب بن سور» قاضي البصرة وهو قتيل، فقال: أجلسوه، فأجلس. فقال: وَيلُمّك يا كعب بن سور، لقد كان لك علم لو نفعك. . ولكن الشيطان أضلك فأزلّك فعجلك إلى النّار(٢).

ونقرأ في نهج البلاغة - أيضاً - أنّه عليه السلام بعد رجوعه من صفين بلغ مقبرةً كانت خلف سور الكوفة، فخاطب الموتى فقال كلاماً في تقلب الدنيا ثمّ قال: «هذا ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ ثمّ أضاف عليه السلام أمّا لو أذن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى»(٣).

وهذا بنفسه دليل على أنّهم يسمعون إلاّ أنّهم لا يسمح لهم بالردّ. . ولو أُذن لهم لأجابوا!.

فجميع هذه التعبيرات «إشارة» إلى حياة الإنسان البرزخية.

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾

التّفسير

لمّا كانت الآية السابقة تتحدث عن استعجال الكفّار بالعذاب ونزوله، أو تحقق القيامة وانتظارهم بفارغ الصبر ووقوع ذلك، وكانوا يقولون للنّبي ﷺ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ومتى يوم القيامة؟! فإنّ الآيات - محل البحث - تشير إلى بعض

(١) صحيح البخاري، ج ٥، ص ٩٧، باب قتل أبي جهل.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١، ص ٢٤٨.
(٣) نهج البلاغة - الكلمات القصار، الكلمة رقم ١٣٠.

الحوادث التي تقع بين يدي القيامة، وتجسد عاقبة المنكرين الوخيمة، فتقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

والمراد من قوله تعالى: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ هو صدور أمر الله وما وعدهم من العقاب والجزاء... أو وقوع يوم القيامة وحضور علائمها، العلائم التي يخضع لها كل من يراها، ويستسلم لأمر الله، ويحصل عنده اليقين بأنّ وعد الله حق، وأنّ القيامة قد اقتربت.. وحينئذ توصد أبواب التوبة... لأنّ الإيمان في مثل هذه الظروف يقع اضطراراً.

وبالطبع فإنّ هذين المعنيين متلازمان لأنّ اقتراب القيامة يقترن بنزول العذاب ومجازاة الكافرين.

ولكن ما هي «دابة الأرض»؟ وما مصداقها؟ وأية مهمّة تحملها؟.. فالقرآن يجمل ولا يفصل، وكأنّه يريد أن يترك الموضوع مجملاً غامضاً، ليكون الكلام فيه أكثر تأثيراً وباعثاً على التهويل.

فيقول مختصراً: يُخرج الله موجوداً يتحرك «أو دابّة من الأرض» بين يدي القيامة، فيتكلم مع الناس ويقول: «إنّ الناس كانوا لا يؤمنون بآيات الله».

وبتعبير آخر: إنّ مهمّة هذه الدابة هي تفريق الصفوف وتمييز المنافقين والمنكرين من المؤمنين.

وبديهي أنّ المنكرين يرجعون إلى أنفسهم عند مشاهدة هذه الآيات، ويندمون على ما سلف منهم وعلى أيّامهم المظلمة، ولكن ما عسى أن ينفعهم الندم وأبواب التوبة موصدة؟!

وهناك مسائل كثيرة ومطالب وفيرة في خصوصيات «دابة الأرض» وجزئياتها وصفاتها في الرّوايات الإسلامية الواردة في كتب الفريقين، الشيعة وأهل السنّة، وسنتعرض إليها في ذيل هذه الآيات في باب البحوث إن شاء الله.

ثمّ تشير الآيات إلى علامة أُخرى من علامات القيامة، فتقول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

«والحشر» معناه إخراج جماعة ما من مقرّها والسير بها نحو ميدان الحرب أو غيره! و«الفوج»، كما يقول الراغب في المفردات: الجماعة التي تتحرك بسرعة.

وأمّا ﴿يُوزَعُونَ﴾ فمعناه حبس الجماعة وإيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأوّل..

وهذا التعبير يطلق - عادة - على الجماعات الكثيرة، نظير ما قرأنا في شأن جنود سليمان في هذه السورة ذاتها.

فبناءً على هذا يستفاد من مجموع الآية أنّ يوماً سوف سيأتي يحشر الله فيه من كل أُمّة جماعة، ويهيئهم للحساب والجزاء على أعمالهم!.

والكثير من الأعاظم يعتقدون بأنّ هذه الآية تشير إلى مسألة الرجعة وعودة جماعة من الصالحين وجماعة من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة.. لأنّ التعبير لو كان عن القيامة لم يكن قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ صحيحاً.. إذ في القيامة يكون الحشر عاماً للجميع، كما جاء في الآية (٤٧) من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

والشاهد الآخر على أنّ الآيات هذه تتحدث عمّا يقع قبيل القيامة، هو أنّ الآيات التي قبلها كانت تتحدث عن الحوادث التي تقع قبل القيامة، والآيات التي تلي الآيات محل البحث تتحدث عن الحوادث التي تقع قبيل القيامة أيضاً... فمن البعيد أن تتحدث الآيات السابقة واللاحقة عن ما يقع قبل القيامة، وهذه الآيات محل البحث - فقط - تتحدث عن ما يقع في يوم القيامة.

وهناك روايات كثيرة في هذا الصدد عن مسألة الرجعة سنتناولها في البحوث القادمة إن شاء الله، إلاّ أنّ المفسّرين من أهل السنة يعتقدون أنّ الآية ناظرة إلى يوم القيامة، وقالوا: إنّ المراد بالفوج هو إشارة إلى رؤساء الجماعات وأئمتهم! وأمّا عدم الانسجام بين الآيات الذي يُحدثه هذا التّفسير، فقالوا: إنّ الآيات بحكم التأخير والتقديم، فكأن الآية (٨٣) حقّها أن تقع بعد الآية (٨٥).

إلاّ أنّنا نعلم أن تفسير الفوج بالمعنى الآنف الذكر خلاف الظاهر، وكذلك عدم انسجام الآيات بأنّها في حكم التأخير والتقديم هو خلاف الظاهر أيضاً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١).

وقائل هذا الكلام هو الله سبحانه، والمراد من «الآيات» هي المعاجز التي يأتي بها الأنبياء، أو أوامر الله، أو الجميع!.

والمراد من جملة ﴿وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ هو أنّكم بدون أن تتحققوا وتطّلعوا على

---

(١) جملة ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جملة استفهاميّة و(أما) مركبة من (أم) التي هي حرف عطف وتأتي بعد همزة الاستفهام عادة، وتسمّى بالمعادلة، و(ما) الاستفهامية. ومعنى الآية: أو أيّ شيء كنتم تعملون.

حقيقة الأمر، كذبتم الآيات، وهذا منتهى الجهل وعدم المعرفة أن ينكر الإنسان شيئاً دون أن يتحقق منه!.

وفي الحقيقة فإنّهم يسألون عن شيئين:

الأوّل: تكذيبهم دون أن يفحصوا عن الحق.

والآخر: عن أعمالهم التي كانوا يقومون بها.

وإذا كانت الآية - آنفة الذكر - تتحدث عن القيامة، فمفهومها واضح. وأمّا إذا كانت تشير إلى مسألة الرّجعة - كما يقتضيه انسجام الآيات - فهي إشارة إلى أنّه عندما يرجع إلى هذه الدنيا طائفة من المجرمين... فولي الأمر الذي يمثل الله، وهو خليفته في الأرض، يتحقق منهم ويسألهم عمّا فعلوه في حياتهم، ثمّ يجازيهم حسب ما يستحقون من الجزاء الدنيوي، ولا يمنع هذا من عذاب الآخرة، كما أنّ كثيراً من المجرمين ينالون الحدّ الشرعي في هذه الدنيا، ويستوفون جزاءهم، فإذا لم يتوبوا فإنّ ما يستحقون من العقاب ينتظرهم في الآخرة.

وبديهي أنّ هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابة على أيّ من هذين السؤالين، لذلك فإنّ الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تضيف قائلة: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

وهذا القول أو العذاب دنيوي، إذا فسّرنا الآية بالرجعة، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآية بيوم القيامة.

بحوث

١ - ما هي دابة الأرض؟!

«الدّابة» معناها ما يدب ويتحرك، و«الأرض» معناها واضح.. وخلافاً لما يتصوّره بعضهم بأنّ الدّابة تطلق على غير الإنسان... بل الحق أنّها ذات مفهوم واسع يشمل الإنسان أيضاً، كما نقرأ في الآية (٦) من سورة هود ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾، وفي الآية (٦١) من سورة النحل ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

وفي الآية (٢٢) من سورة الأنفال ﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

إلاّ أنّه - كما ذكرنا في تفسير الآية آنفاً - فإنّ القرآن لا يفصّل في بيان هذه الكلمة وإنّما يذكرها على إجمالها، فكأنّ البناء كان على الإجمال والإبهام، والوصف الوحيد المذكور لها بأنّها تكلم الناس وتميز المؤمن من غير المؤمن. . . إلاّ أنّ هناك كلاماً طويلاً في الرّوايات الإسلامية وأقوال المفسّرين في الشأن، ويمكن تلخيص مجموعها في تفسيرين:

١ - فطائفة تعتقد بأنّ هذه «الدابة» حيوان غير مألوف ومن غير جنس الإنسان له شكل عجيب، ونقلوا له عجائب شبيهة بما يخرق العادات والمعاجز!.

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان، وتتحدث عن الإيمان والكفر، وتفضح المنافقين وتسمهم بميسمها!

٢ - وطائفة تعتقد - حسب الرّوايات الإسلامية الواردة في هذا الشأن - أنّها إنسان فوق العادة - إنسان متحرك فعّال! وواحد من أفعاله الأصلية تمييز المؤمنين عن المنافقين ووسمهم. . حتى أنّه يستفاد من بعض الرّوايات أنّ معه عصا موسى عليه السلام وخاتم سلميان. . ونحن نعرف أن عصا موسى رمز للقدرة والإعجاز، وخاتم سليمان رمز للحكومة والسلطة الإلهية! فإذاً هذا الإنسان رجل قويّ ذو سلطة وهيمنة!

وقد جاء في حديث عن «حذيفة بن اليمان» عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وصف هذه الدابة قوله: «لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب، فتسم المؤمن بين عينيه ويُكتب بين عينيه مؤمن، وتسم الكافر بين عينيه ويكتب بين عينيه كافر، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان»[(١)].

وقد طبق هذا المفهوم في روايات كثيرة على «أمير المؤمنين» عليه السلام ففي تفسير علي ابن إبراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ رجلاً قال لعمار بن ياسر: في القرآن آية شغلت بالي وجعلتني في شك قال عمار: أيّةُ آية هي؟ قال: آية ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ فيقول عمار: والله لا أجلس على الأرض ولا آكل طعاماً ولا أشرب ماءً حتى أريكها، ثمّ يأخذه عمار إلى الإمام علي، وهو يأكل طعاماً فلما بصر به الإمام علي ناداه فجاء عمار عنده وأكل معه!.

فتعجب الرجل ولم يصدق هذا المشهد، إذ كان عمار قد حلف ووعده أن لا يجلس على الأرض ولا يأكل ولا يشرب حتى يريه دابة الأرض، فكأنّه نسي وعده!.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٢٣٤، ذيل الآية مورد البحث.

فلمّا قام عمار وودّع عليّاً.. قال له الرجل: عجيب منك أن تقسم بالله أن لا تأكل ولا تشرب ولا تجلس على الأرض، حتى تريني دابة الأرض!... فقال له عمار: أريتكها لو كنت تعقل[١].

ونظير هذا المعنى في تفسير العياشي، إلاّ أنّه ورد اسم «أبي ذر» مكان عمار[٢].

وينقل العلاّمة المجلسي رحمه الله في بحار أنواره بسند معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه، فحرّكه برجله، ثمّ قال: قم يا دابة الله، فقال رجل من أصحابه: يا رسول الله أنسمّي بعضنا بعضاً بهذا الاسم؟

فقال لهم: «لا والله ما هو إلاّ له خاصّة وهو الدابة التي ذكر الله في كتابه ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ثمّ قال: يا علي إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة، ومعك ميسم تسم به أعداءك»[٣].

وبناءً على هذه الرّواية، فالآية تنطبق على الرجعة وتنسجم هي والآية التي تليها في الرجعة!.

ويقول المرحوم «أبو الفتوح الرازي» في تفسيره في ذيل الآية: طبقاً للأخبار التي جاءتنا عن طريق أصحابنا، فإن دابة الأرض كناية عن المهدي «صاحب الزمان عليه السلام»[٤].

ومع الأخذ بنظر الاعتبار لهذا الحديث والأحاديث المتقدمة، يمكن أن يستفاد من دابة الأرض مفهوم واسع، ينطبق على أي إمام عظيم يخرج في آخر الزمان ويميز الحق عن الباطل.

وهذا التعبير الوارد في الرّوايات الإسلامية بأنّ معه عصا موسى عليه السلام التي هي رمز القوة والانتصار، وخاتم سليمان عليه السلام الذي يرمز للحكومة الإلهيّة، قرينة على أنّ دابة الأرض إنسان نشط فعال فوق العادة!.

كما أنّ ما ورد في الرّوايات الإسلامية من أنّها تسم المؤمن بين عينيه فيُكتب مؤمناً، وتسم الكافر فيُكتب كافراً ينسجم والقول بأنّها إنسان!.

(١-٢) تفسير مجمع البيان، ج٧، ص٢٣٤، ذيل الآية مورد البحث.

(٣) بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٥٢. (٤) تفسير الرازي، ج ٨ ص ٤٢٣.

إضافة إلى ذلك فالتصريح في القرآن بأنّها تكلم الناس يساعد على هذا المعنى!.

ومن مجموع ما مرّ نصل هنا إلى أنّ الدّابة تطلق في الأغلب على غير الناس، وقد استعملها القرآن في الأعم من الإنسان وغيره أو في خصوص الإنسان، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فالقرائن المتعددة الموجودة في الآية ذاتها، والرّوايات الكثيرة في تفسير الآية، تدل على أنّ المراد من «دابّة الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذكرنا له من خصائص آنفاً، فهو يميز الحق من الباطل والمؤمن من المنافق والكافر.

إنسان يخرج في آخر الزمان قبيل يوم القيامة، وهو بنفسه آية من آيات عظمة الخالق!.

٢ - الرجعة في الكتاب والسنة!

من المسائل التي تجدر بالملاحظة، في الآيات - محل البحث - ظهور بعض من هذه الآيات في مسألة الرجعة!.

و«الرجعة» من عقائد الشيعة المعروفة، وتفسيرها في عبارة موجزة بهذا النحو: «بعد ظهور المهدي عليه السلام وبين يدي القيامة، يعود طائفة من المؤمنين الخلّص، وطائفة من الكفار الأشرار، إلى هذه الدنيا.. فالطائفة الأُولى تصعد في مدارج الكمال... والطائفة الثّانية تنال عقابها الشديد!».

يقول «الشريف المرتضى» الذي هو من أعاظم الشيعة: إنّ الذي تذهب الشيعة الإمامية إليه، أنّ الله تعالى يعيد عند ظهور الإمام المهدي عليه السلام أقواماً ممن كان قد تقدم موته من شيعته ليفوز بثواب نصرته ومعونته ومشاهدة دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم، فيلتذوا بما يشاهدون من ظهور الحق وعلوّ كلمة أهله!

ثمّ يضيف السيد المرتضى قائلاً: والدلالة على صحة هذا المذهب أنّ الذي ذهبوا إليه ممّا لا شبهة على عاقل في أنّه مقدور لله تعالى غير مستحيل في نفسه، فإنا نرى كثيراً من مخالفينا ينكرون الرجعة إنكار من يراها مستحيلة غير مقدورة، وإذا ثبت جواز الرجعة ودخولها تحت المقدور، فالدليل إلى إثباتها إجماع الإمامية على وقوعها(١).

ويظهر بالطبع - من كلمات بعض قدماء علماء الشيعة وكذلك من كلام العلامة «الطبرسي» في مجمع البيان - أن «الأقليّة» القليلة من الشيعة لا تؤمن بهذه العقيدة، أي

(١) سفينة البحار، ج ١، ص ٥١١، مادة رجع.

«الرجعة» وفسّروها بعودة حكومة أهل البيت عليهم السلام، لا رجوع الأشخاص وحياتهم بعد موتهم في هذه الدنيا، إلاّ أنّ مخالفة هذه القلة لا تؤثر في الإجماع.

وعلى كل حال، فهنا مطالب كثيرة، ومن أجل ألاّ نخرج عن أسلوب بحثنا نشير إليها بإيجاز في ما يلي:

١ - لا ريب أنّ إحياء جماعة من الموتى في هذه الدنيا ليس محالاً!... كما أن إحياء جميع البشر في يوم القيامة ممكن، والتعجب من هذه المسألة كتعجب المشركين «من أهل الجاهلية» من مسألة المعاد، والسخرية منها كالسخرية من المعاد!... لأنّ العقل لا يحكم على مثل هذا الأمر بالاستحالة... وقدرة الله واسعة بحيث إنّ هذه الأُمور عندها سهلة يسيرة هيّنة!.

٢ - جاء ذكر الرجعة في القرآن المجيد إجمالاً، ووقوعها في خمسة مواطن في شأن الأُمم السالفة.

ألف: في ما يتعلق بالنّبي الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وعظام أهلها نخرة متفرقة هنا وهناك. فتساءل في نفسه وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأماته الله مئة عام ثمّ أحياه فقال له: كم لبثت؟! قال: لبثت يوماً أو بعض يوم قال: بل لبثت مئة عام «مؤدّى الآية ٢٥٩ - من سورة البقرة».

وسواءً كان هذا النّبي عزيراً أم سواه، فلا فرق في ذلك، المهم أنّ القرآن صرح بحياته بعد موته في هذه الدنيا فأماته الله مئة عام ثمّ بعثه!.

ب - يتحدث القرآن - في الآية (٢٤٣) من سورة البقرة ذاتها - عن جماعة أُخرى خرجت من ديارها خوفاً من الموت، وامتنعت من الذهاب إلى سوح القتال بحجّة مرض الطاعون، فأماتها الله ثمّ أحياها ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

وبالرغم من أنّ بعض المفسّرين لم يتحملوا وقوع مثل هذه الحادثة غير المألوفة، وعدوها مثالاً فحسب، إلاّ أنّ من الواضح أنّ مثل هذه التأويلات إزاء ظهور الآية - بل صراحتها - لا يمكن المساعدة عليه!.

ج - وفي الآيتين ٥٥ و٥٦ من سورة البقرة أيضاً، يتحدث القرآن عن بني إسرائيل

فيقول: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

د - ونقرأ في الآية (١١٠) ضمن معاجز عيسى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾.

ويدل هذا التعبير على أنّ المسيح عليه السلام أحيا الموتى فعلاً، بل التعبير بالفعل المضارع (تخرج) يدلّ على أنّه أحيا الموتى مراراً، وهذا الأمر بنفسه يعد نوعاً من الرجعة لبعضهم!

هـ - وأخيراً ففي الآيتين (٧٢) و(٧٣) من سورة البقرة، إشارة إلى مقتل رجل من بني إسرائيل ووقوع الجدال والنزاع في شأن قاتله، وما أمرهم الله أن يفعلوه بضرب القتيل ببعض البقرة - الواردة خصائصها في الآية ٧٢ - إذ يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

وبالإضافة إلى هذه المواطن الخمسة التي أشرنا إليها، فهناك مواطن أُخر في القرآن، منها قصّة أصحاب الكهف، وهي قصّة تشبه الرجعة، وقصّة الأربعة من الطير التي أمر إبراهيم أن يذبحها فأتينه سعياً بعد ذبحهن وتفريقهن على رأس كل جبل جزءاً منهنّ، ليتّضح له إمكان المعاد للناس ويكون مجسداً برجوع هذه الطيور إلى الدنيا.

وعلى كل حال! كيف يمكن أن يؤمن الشخص بالقرآن وأنّه كتاب سماوي، ثمّ ينكر هذه الآيات الواضحة في الرجعة؟ وهل الرجعة - أساساً - إلاّ العودة للحياة بعد الموت؟!

أوليست الرجعة مثلاً مصغراً من القيامة في هذه الدنيا.

فمن يؤمن بالقيامة بمقياسها الواسع، كيف يمكنه أن يعترض على مسألة الرجعة وأن يسخر منها؟! وأن يقول قائل كأحمد أمين المصري في كتابه «فجر الاسلام» اليهودية ظهرت بالتشيع بالقول بالرجعة[1]!!

وأي فرق بين كلام أحمد أمين هذا، وإنكار عرب الجاهلية لمسألة المعاد الجسماني؟!

---

(١) انظر عقائد الإمامية - للشيخ محمّد رضا المظفر ص ٧١.

٣ - ما ذكرناه - إلى هنا - يثبت إمكان الرجعة، وأمّا ما يؤيد وقوعها فروايات كثيرة نقلها الثقات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وحيث لا يسع بحثنا نقلها والتحقيق فيها، فيكفي أن نذكر ما عدّه المرحوم العلاّمة المجلسي في بحار أنواره وما جمعه منها، إذ يقول: وكيف يشك مؤمن بحقيّة الأئمة الأطهار عليهم السلام فيما تواتر عنهم في قريب من مائتي حديث صريح[١]، رواها نيّفٌ وأربعون من الثقات العظام والعلماء الأعلام، في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم.. فإذا لم يكن مثل هذا متواتراً ففي أيّ شيء يمكن دعوى التواتر[٢]؟!

٤ - فلسفة الرجعة!

إنّ أهم سؤال يثار في هذا الصدد، هو: ما الهدف من الرجعة قبل يوم القيامة؟!

ومع ملاحظة ما يستفاد من الرّوايات الإسلامية من أنّ هذا الموضوع ليس عامّاً بل يختصّ بالمؤمنين الخلّص الذين هم في مرحلة عالية من الإيمان، والكفار والطغاة الظلمة الذين هم في مرحلة منحطة من الكفر والظلم.. فيبدو أنّ الرجعة لهاتين الطائفتين للدنيا ثانيةً هي من أجل إكمال الطائفة الأُولى حلقتها التكاملية، وأن تذوق الطائفة الثّانية جزاءها الدنيوي.

وبتعبير آخر: إنّ الطائفة المؤمنة «خالصة الإيمان» الذين واجهوا الموانع والعوائق في مسير تكاملهم المعنوي في حياتهم ولم يتكاملوا الكمال اللائق باستعدادهم، فإنّ حكمة الله تقتضي أن يتكاملوا عن طريق الرجعة لهذه الدنيا وأن يكونوا شهداء الحكومة العالميّة للحقّ والعدل، وأن يساهموا في بناء هذه الحكومة، لأنّ المساهمة في بناء مثل هذه الحكومة من أعظم الفخر!.

وعلى عكس الطائفة الآنفة الذكر، هناك طائفة من المنافقين والجبابرة المعاندين، ينبغي أن ينالوا جزاءهم الدنيوي بالإضافة إلى جزائهم الأخروي، كما ذاق - قوم فرعون وثمود وعاد وقوم لوط جزاءهم - ولا طريق لأن يذوقوا عذاب الدنيا إلاّ بالرجعة!.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في بعض أحاديثه: «إنّ الرجعة ليست بعامة، وهي خاصّة، لا يرجع الاّ من محض الإيمان محضاً، أو محض الشرك محضاً»[٣].

---

(١) يعني «بالرجعة». (٢) بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ١٢٢.
(٣) بحار الأنوار، ج ٥٣، ص ٣٩.

ولعل الآية (٩٥) من سورة الأنبياء ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ تشير إلى هذا المعنى أيضاً، لأنّها تتحدث عن عدم رجوع أُولئك الذين ذاقوا عذابهم الشديد في هذه الدنيا، فيتّضح منها أن أُولئك الذين لم يذوقوا مثل هذا الجزاء ينبغي أن يرجعوا، فيذوقوا عذابهم «فلاحظوا بدقّة».

كما يرد هذا الاحتمال أيضاً، وهو أنّ رجعة «الطائفتين هاتين» في ذلك المقطع الخاص من الزمان هي بمثابة درسين كبيرين وآيتين مهمتين من آيات عظمة الله - ومسألة القيامة و«المبدأ والمعاد» - للناس، ليبلغوا أسمى درجات الكمال المعنوي بمشاهدتهما ويزداد إيمانهم. . . ولا يكونون مفتقرين إلى شيء أبداً.

٥ - ويتصور بعضهم أنّ الاعتقاد بالرجعة لا ينسجم وأصل حرية الإرادة والاختيار عند البشر!.

وممّا بيّناه آنفاً يتّضح أنّ هذا اشتباه محض، لأنّ رجوع من يرجع إلى هذه الدنيا سيكون في ظروف طبيعية، ويتمتع بحرية كاملة.

وما يقوله بعضهم بأنّه من الممكن أن يتوب الجبابرة والكفار المعاندون بعد الرجعة ويعودوا إلى الحق، فجوابه أنّ هؤلاء الأفراد غارقون في الظلم والفساد والكفر بحيث إنّ هذه الأُمور مندمجة مع روحهم ونسيجهم ولا يتصور توبتهم!.

كما أنّ القرآن يحكي في ردّه على طلب أهل النّار يوم القيامة الرجوع إلى الدنيا، ليقضوا ما فاتهم ولا يعملوا السيئات. . . فيقول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[1].

كما يتّضح الجواب على إشكال بعضهم من أنّ الرجعة لا تنسجم مع الآية (١٠٠) من سورة المؤمنون لأنّه طبقاً لهذه الآية فإن المشركين يطلبون الرجوع إلى هذه الدنيا ليعملوا صالحاً، ويقول كل منهم: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴿١٠٠﴾﴾ فيرد عليه بالقول: ﴿كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

فالجواب على هذا الإشكال، أن هذه الآية عامة والرجعة خاصة «فلاحظوا بدقة».

٦ - وآخر الكلام هنا أنّ الشيعة مع اعتقادهم بالرجعة التي أخذوها عن أهل البيت عليهم السلام فإنّهم لا يحكمون على منكري الرجعة بالكفر، لأنّ الرجعة من ضروريّات المذهب الشيعي لا من ضروريات الإسلام.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

فبناءً على ذلك فإنّ هذه المسألة لا تقطع وشائج الأخوة الإسلامية مع الآخرين. . . إلاّ أنّ الشيعة تواصل دفاعها المنطقي عن عقيدتها هذه.

وينبغي الالتفات إلى أنّ هناك خرافات تمتزج أحياناً بالرجعة فتشوّه وجهها في نظر البعض، فينبغي أن نعول على الأحاديث الإسلامية الصحيحة في الشأن، وأن نتجنب الأحاديث المطعون فيها أو المشكوكة.

وما ذكرناه هنا خلاصة موجزة عمّا يتعلق بالرجعة، وينبغي مراجعة الكتب التي تتحدث عن هذا الشأن لمن أراد أن يستزيد ويعرف خصائص أُخر للرجعة أو جزئياتها.

ومع ملاحظة هذا المقدار الذي بيّناه يتّضح الجواب على الحملات المسعورة من قبل أُولئك الذين لم يطّلعوا على هذا الموضوع من إخواننا أهل السنة «كما فعل «الآلوسي» في تفسيره روح المعاني ذيل الآيات محل البحث» وأن إشكالهم على مسألة الرجعة ناشىء من عدم تعقلهم لها حتى عدّوها أسطورة!.

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾

التّفسير

حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلميّة

مرّة أُخرى تتحدث هذه الآيات عن مسألتي المبدأ والمعاد، وآثار عظمة الله، ودلائل قدرته في عالم الوجود، وحوادث القيامة، فتقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وفي ذلك علائم ودلائل واضحة على قدرة الله وحكمته لمن كان مستعداً للإيمان ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذه ليست أوّل مرّة يتحدث فيها القرآن عن الليل والنهار الحيويّة، ونظامي النور والظلمة، كما أنّها ليست آخر مرّة أيضاً. . وذلك لأنّ القرآن كتاب تعليم وتربية، وهو يهدف إلى بناء الشخصية الإنسانية. . . ونحن نعرف أنّ أصول التعليم والتربية تقتضي

أحياناً أن يتكرر الموضوع في «فواصل» مختلفة، وأن يذكّر الناس به ليبقى في الذهن كما يقال.

فالسكن أو الهدوء الذي يحصل من ظلمة الليل، مسألة علمية وحقيقة مسلّم بها، فسُدل الليل ليست أسباباً إجبارية لتعطيل النشاطات اليومية فحسب، بل لها أثر عميق على سلسلة الأعصاب في الإنسان وسائر الحيوانات، ويجرها إلى الراحة والنوم العميق، أو كما يعبر القرآن عنه بالسكون!.

وكذلك العلاقة بين ضوء النهار والسعي والحركة التي هي من خصائص النور من الناحية العلمية - أيضاً - ولا مجال للتردد فيها. فنور الشمس لا يضيء محيط الحياة ليبصر الإنسان به مأربه فحسب، بل يوقظ جميع ذرات وجود الإنسان ويوجهه إلى الحركة والنشاط!.

فهذه الآية توضح جانباً من التوحيد الرّبوبي، ولما كان المعبود الواقعي هو ربّ «عالم الوجود» ومدبّره، فهي تشطب بالبطلان على وجوه الأوثان!... وتدعو المشركين إلى إعادة النظر في عبادتهم.

وينبغي الالتفات إلى هذه اللطيفة، وهي أنّ على الإنسان أن يجعل نفسه منسجماً مع هذا النظام، فيستريح في الليل ويسعى في النهار، ليبقى نشطاً صحيحاً دائماً... لا كالمنقاد لهواه الذي يطوي الليل يقظاً ساهراً وينام النهار حتى الظهر!.

والطريف أن كلمة «مبصر» نسبت إلى النهار ووصف بها، مع أنّها وصف للإنسان في النهار، وهذا نوع من التأكيد الجميل للاهتمام بالنشاط في النهار، كما يوصف الليل أحياناً بأنه «ليل نائم»[(١)].

وهذا التفاوت في التعبير في الآية، هو لبيان فائدة الليل والنهار، إذ جاء في شأن الليل ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وعبر عن النهار بـ(مبصر) فلعل هذا الاختلاف في التعبير إشارة إلى أنّ الهدف الأصلي من وجود الليل هو السكون والهدوء، والهدف من الضوء والنهار ليس النظر فحسب، بل رؤية الوسائل الموصلة إلى مواهب الحياة والاستمتاع بها «فلاحظوا بدقة».

---

(١) هذا النوع من التعبير يسمّى عند البلاغيين بـ«المجاز العقلي»، ويراد منه إسناد الفعل أو ما في معناه «كاسم الفاعل واسم المفعول» لغير ما وضع له لعلاقة، منها العلاقة الزمانية، فيقال مثلاً: نهار الزاهد صائم وليله قائم. (المصحح).

وعلى كل حال، فهذه الآية وإن كانت تتكلم مباشرةً عن التوحيد وتدبير عالم الوجود، إلاّ أنّها ربّما كانت إشارة لطيفة إلى مسألة المعاد، لأنّ النوم بمثابة الموت، واليقظة بمثابة الحياة بعد الموت!.

والآية التالية تتحدث عن مشاهد القيامة ومقدماتها، فتقول: (و) اذكر ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أي خاضعين.

ويستفاد من مجموع آيات القرآن أنّ النفخ في الصور يقع مرّتين أو ثلاث مرات.

فالمرّة الأُولى يقع النفخ في الصور عند نهاية الدنيا وبين يدي القيامة! وبها يفزع من في السماوات والأرض إلاّ من شاء الله!

والثّانية «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحة، ولعل هاتين النفختين واحدة.

والمرّة الثّالثة ينفخ في الصور عند البعث وقيام القيامة.. إذ يحيا الموتى جميعاً بهذه النفخة، وتبدأ الحياة الجديدة معها.

وهناك كلام بين المفسّرين إلى أنّ الآية محل البحث هل تشير إلى النفخة الأُولى أم الثّانية أم الثّالثة؟!.. القرائن الموجودة في الآية وما بعدها من الآيات تنطبق على النفختين، وقيل: بل هي تشمل الجميع.

إلاّ أنّ الظاهر من الآية يدل على أنّ النفخة هنا إشارة إلى النفخة الأُولى التي تقع في نهاية الدنيا، لأنّ التعبير بـ﴿فَزِعَ﴾ وهو يعني الخوف أو الاستيحاش الذي يستوعب جميع القلوب، يعدّ من آثار هذه النفخة... ونعلم أنّ الفزع في يوم القيامة هو بسبب الأعمال لا من أثر النفخة!.

وبتعبير آخر: إنّ ظاهر «فاء» التفريع في «ففزع» أنّ الفزع ناشىء من النفخة في الصور، وهذا خاص بالنفخة الأولى، لأنّ النفخة الأخيرة ليست لا تثير الفزع فحسب، بل هي مدعاة للحياة والحركة، وإذا حصلت حالة فهي من أعمال الإنسان نفسه!.

وأمّا ما المراد بالنفخ في الصور،؟ هناك كلام طويل بين المفسّرين سنتناوله في ذيل الآية (٦٨) من سورة «الزمر» بإذن الله!.

وأمّا جملة ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ المذكورة للاستثناء من الفزع العام، فهي إشارة للمؤمنين الصالحين سواءً كانوا من الملائكة أو سائر المؤمنين في السماوات والأرض، فهم في اطمئنان خاص! لا تفزعهم النفخة في الصور الأُولى ولا الأُخرى.. إذ نقرأ في الآيات التي تلي هذه الآيات قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

وأمّا جملة ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ فظاهرها عامٌ وليس فيه أي استثناء، حتى الأنبياء والأولياء يخضعون لله ويذعنون لمشيئته، وإذا ما لاحظنا قوله تعالى في الآيتين (١٢٧) و (١٢٨) من سورة الصافات: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾، فلا منافاة بينها وبين عموم الآية محل البحث، فالآية محل البحث إشارة إلى أصل الحضور في المحشر، وأمّا الثّانية فهي إشارة إلى الحضور للمحاسبة ومشاهدة الأعمال!.

والآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة الله في هذا العالم الواسع، فتقول: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(١).

فمن يكون قادراً على كل هذا النظم والإبداع في الخلق، لا ريب في علمه و﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

يعتقد كثير من المفسّرين أنّ هذه الآية تشير إلى الحوادث التي تقع بين يدي القيامة، لأننا نعرف أنّ في نهاية هذه الدنيا تقع زلازل وانفجارات هائلة، وتتلاشى الجبال وتنفصل بعضها عن بعض، وقد أُشير إلى هذه الحقيقة في السور الأخيرة من القرآن كراراً.

ووقوع الآية في سياق آيات القيامة دليل وشاهد على هذا التّفسير.

إلاّ أنّ قرائن كثيرة في الآية تؤيد تفسيراً آخر، وهو أنّ الآية آنفة الذكر من قبيل آيات التوحيد ودلائل عظمة الله في هذه الدنيا، وتشير إلى حركة الأرض التي لا نحس بها.

وتوضيح ذلك:

١ - إنّ الآية تقول: تحسب الجبال ساكنة وجامدة مع أنّها تمرّ مرّ السحاب.. وهذا التعبير واضح أنّه لا ينسجم مع الحوادث التي تقع بين يدي القيامة.. لأنّ هذه الحوادث من الوضوح بمكان بحيث يعبر عنها القرآن ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾(٢).

٢ - تشبيه حركة الجبال بحركة السحاب يتناسب مع الحركات المتناسقة الهادئة، ولا يتناسب والانفجارات العظيمة التي تصطك منها المسامع!.

٣ - التعبير الآنف الذكر يدلّ على أنّه في الوقت الذي ترى الجبال بحسب الظاهر

---

(١) «صنع الله» منصوب بفعل محذوف تقدير (أنذر صنع الله) أو ما شاكله.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢.

جامدة، إلاّ أنّها في الواقع تتحرك بسرعة «على حالتها التي ترى فيها جامدة» أي أنّ الحالتين تبينان شيئاً واحداً.

٤ - والتعبير بـ «الإتقان» الذي يعني الإحكام والتنظيم، يتناسب زمان استقرار نظام العالم، ولا يتناسب وزمان انهياره وتلاشيه.

٥ - جملة ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ مع ملاحظة أنّ ﴿تَفۡعَلُونَ﴾ فعل مضارع، تدل على أنّها تتعلق بهذه الدنيا، لأنّها تقول: إنّ الله خبير بأعمالكم التي تصدر في الحال والمستقبل، ولو كانت ترتبط بانتهاء العالم، لكان ينبغي أن يقال: إنّه خبير بما فعلتم. «فتأملوا بدقّة».

ويستفاد من مجموع هذه القرائن أنّ هذه الآية تكشف عن إحدى عجائب الخلق، وهي في الواقع تشبه ما جاء في الآيتين آنفتي الذكر: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾.

وبناءً على ذلك فالآيات محل البحث قسم منها في التوحيد، وقسم منها في المعاد!

وما نستنتجه من هذا التّفسير، هو أنّ هذه الجبال التي نتصورها ساكنة «جامدة» هي في سرعة مطّردة في حركتها... ومن المقطوع به أنّه لا معنى لحركة الجبال من دون حركة الأرض المتصلة بها، فيتّضح من الآية أنّ الأرض تتحرك كما يتحرك السحاب!.

ووفقاً لحسابات علماء اليوم فإنّ سرعة حركة الأرض حول نفسها تقرب من (٣٠) كيلومتر في كل دقيقة، وسرعة سيرها في حركتها الانتقالية حول الشمس أكثر من هذا المقدار...

لكن علام عُني بالجبال دون غيرها؟ لعل ذلك إنّما هو لأنّ الجبال يضرب بها المثل لثقلها وقرارها، وتعدّ مثلاً حسناً لبيان قدرة الله سبحانه، فحيث إنّ هذه الجبال على عظمتها وما فيها من ثقل، تتحرك كالسحاب بأمر الله «مع الأرض» فقدرته على كل شيء «بينة، وثابتة»!

وعلى كل حال، فالآية آنفة الذكر تعدّ من معاجز القرآن العلمية... لأننا نعلم أنّ أوّل العلماء الذين اكتشفوا حركة كرة الأرض هو «غاليو» الإيطالي و«كبرنيك» اللذين أظهرا هذه الحقيقة للملأ في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر! بالرغم من أنّ رجال الكنيسة حكموا عليهما حكماً صارماً، وتعرضا لمضايقات كثيرة..

إلاّ أنّ القرآن كشف الستار عن وجه هذه الحقيقة قبل ذلك بألف عام تقريباً وبيّن حركة الأرض بالأسلوب الآنف الذكر على أنّها بعض أدلة التوحيد!

ويرى بعض فلاسفة الإسلام، في الوقت الذي يقبلون فيه التّفسير الثاني، وهو الإشارة إلى حركة الجبال في هذا العالم، أنّ الآية ناظرة إلى «الحركة الجوهرية» في الأشياء، واعتقدوا أنّ الآية منسجمة والنظرية المعروفة بالحركة الجوهرية ومؤيدة لها(١).

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

التّفسير

آخر ما أمر به النّبي!

كان الكلام في الآيات السابقة عن أعمال العباد وعلم الله بها.. أمّا الآيات محل البحث فيقع الكلام في مستهلّها عن جزائهم وثواب أعمالهم وأمنهم من فزع يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

وهناك اختلاف بين تعبيرات المفسّرين في المراد من «الحسنة» في هذه الآية:

ففسّرها بعضهم بكلمة التوحيد «لا إله إلاّ الله» والإيمان بالله.

وفسّرها بعضهم بولاية أمير المؤمنين عليه السلام والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، وقد ورد

(١) المراد من «الحركة الجوهرية» هو أنّ أشياء عالم المادة بالإضافة إلى ما يحصل فيها من تغييرات مختلفة في الكيفية والكمية والمكان وما أشبه ذلك! فيها حركة في داخلها «وجوهرها» أي إنّها وجود سيال ومتحرك، والتغييرات الظاهرية هي انعكاس عن التغييرات الداخلية لها.. وبتعبير آخر: إنّ لدينا وجودين مختلفين ذاتاً.. الوجود الثابت «الوجود ما وراء المادي»، ووجود سيال ومتحرك «الوجود المادي» وأهم دليل على إثبات هذه النظرية مسألة وجود الزمان للموجودات المادية وعدم انفصال التغييرات الظاهرية عن التغييرات الباطنية، ويطول بنا البحث في هذا الصدد وهو خارج عن موضوعنا هنا.

التأكيد على هذا المعنى في الرّوايات المتعددة عن أهل البيت، ومن جملتها ما جاء في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنه دخل أبو عبد الله الجدلي على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أبا عبد الله ألا أخبرك بقول الله عزّ وجلّ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾ قال: بلى يا أمير المؤمنين جعلت فداك، فقال: «الحسنة معرفة الولاية حبّنا أهل البيت، والسيئة إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت ثمّ قرأ عليه السلام الآية»[(١)].

وبالطبع فإنّ معنى الآية واسع - وقد أشرنا إلى ذلك مراراً - كما أنّ الحسنة هنا معناها واسع أيضاً... فهي تشمل الصالحات والأعمال الخالصة، ومن ضمنها الإيمان بالله وبرسوله وولاية الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، التي تعدّ في طليعة الأعمال الحسنة، ولا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحة أُخرى تشملها الآية.

أمّا ما أورده بعضهم بأنّه: على فرض العموم في «الحسنة» فسوف تشمل الإيمان بالله وهل هناك خير من الإيمان حتى يقول سبحانه: من جاء بالحسنة فله خير منها؟

فالجواب على هذا الإشكال واضح... لأنّ رضا الله خير من الإيمان، وبتعبير آخر: جميع هذه الأُمور مقدمة له... وذو المقدمة خير من المقدمة!.

وهناك سؤال آخر يثار هنا، وهو أنّ ظاهر بعض الآيات - كالآية ٢ من سورة الحج - أنّ الفزع يعمّ الجميع في يوم القيامة، فكيف أستثني أصحاب الحسنات منه؟.

فالآية (١٠٣) من سورة الأنبياء توضح الجواب على هذا السؤال فتقول: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

و«الفزع الأكبر» - هو كما نعلم - فزع يوم القيامة، وفزع الدخول في نار جهنّم - أعاذنا الله منها - لا الفزع الحاصل من النفخة في الصور «فلاحظوا بدقّة».

ثمّ يتحدث القرآن عن الطائفة الأُخرى التي تقابل أصحاب الحسنات فتقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾.

وليس لهذه الطائفة أيّ توقع غيرها ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

و«كُبّت» مأخوذ من «كبّ» على وزن «جدّ» ومعناه في الأصل إلقاء الشيء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإنّ ذكر ﴿وُجُوهُهُمْ﴾ في الآية هو من باب التوكيد!.

(١) أُصول الكافي، ج١، ص١٨٥، وفقاً لماجاء في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٠٤.

وإلقاء هذه الطائفة على وجوهها في النّار من أسوأ أنواع العذاب، إضافة إلى ذلك، فإنّ أُولئك حين كانوا يواجهون الحقّ يُلوون وجوههم ورؤوسهم، وكانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين. . . فالآن لابدّ أن - يبتلوا بمثل هذا العذاب.

وجملة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لعلها جواب على سؤال يلقى هنا، وهو ما لو قيل: إنّ هذا الجزاء «العقاب» شديد، فيجاب: بأنّ هذا الجزاء إن هو إلاّ عملك في الدنيا، فهل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون «فلاحظوا بدقّة».

ثمّ يوجه الخطاب للنّبي ﷺ في الآيات الثلاث من آخر هذه السورة، ويؤكّد له هذه الحقيقة وهي أن يخبر أُولئك المشركين بأنّ عليه أن يؤدّي رسالته ووظيفته. . . سواءً آمنتم أم لم تؤمنوا؟!

فتقول الآية الأُولى من هذه الآيات: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾.

هذه البلدة المقدسة التي يتلخّص كل وجودكم وشرفكم بها. . . البلدة المقدسة التي كرمها الله وكرّمكم بما أنزل فيها من البركات. . إلاّ أنّكم بدل أن تشكروا نعمة الله كفرتم بها!

البلدة المقدسة التي هي حرم أمن الله، وأشرف بقعة على وجه الأرض، وأقدم معبد للتوحيد!

أجل. . . أعبد ربّ هذه البلدة المقدسة ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ وجعل لها خصائص وأحكاماً وحرمةً، وأموراً أُخر لا تتمتع بها أية بلدة أُخرى في الأرض!.

لكن لا تتصوروا أنّ هذه البلدة وحدها لله، بل له كل شي في عالم الوجود ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾.

والأمر الثّاني الذي أمرت به هو أن أسلم وجهي له ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وهكذا فإنّ الآية بيّنت وظيفتين أساسيتين على النّبي وهما (عبادة الواحد الأحد والتسليم المطلق لأمره).

والآية التالية تبيّن أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أتلوه فأستضيء بنوره، وأنتهل من عذب معينه الذي يهب الحياة! وأن أعول في جميع مناهجي على هديه، أجل. . . فالقرآن وسيلتي للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، والمواجهة لكل أنواع الشرك والانحراف والضلال ومكافحتها،

ثمّ تعقب الآية لتحكي عن لسان الرسول وهو يخاطب قومه: لا تتصوروا أنّكم إذا

آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسي، كما أنّ الله غني عنكم، بل ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾.

وكل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية، كانت أم أُخروية فهي عائدة للمهتدي نفسه والعكس صحيح ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

وعواقبه الوخيمة لا تصيبُني. . . فوظيفتي البلاغ والإنذار وإراءة سبيل الحق، والإصرار على أن تسلكوا سبيل الحق، إلاّ أنّ من أراد أن يبقى في طريق الضلال، فإنّما يشقى وحده، فيكون من الخاسرين.

الطريف أنّ القرآن يقول في شأن الهداية: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ ولكنّه لا يقول في شأن الضلال: ومن ضل فضرره عليه، بل يقول: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾.

وهذا الاختلاف في التعبير لعله إشارة إلى أنّ النّبي عليه السلام يقول: إنّي لا أسكت بوجه الضالين أبداً، ولا أتركهم على حالهم، بل أظلّ أنذرهم وأواصل الإنذار ولا أعيا عن ذلك، لأنني من المنذرين (بالطبع هناك آيات وردت في القرآن في شأن الهداية والضلالة وفيها التعبير لنفسه وعليها للموضوعين كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ﴾ لكننا نعلم أنّ هذا الاختلاف في التعبيرات منسجم مع اختلاف المقامات، وربّما جاء لإلقاء المعاني المختلفة والمتفاوتة)!

والجدير بالذكر أنّ هذه السورة شرعت ببيان أهمّية القرآن، وانتهت بالأمر بتلاوته، فبدايتها ونهايتها عن القرآن.

والأمر الأخير - في آخر آية من هذه السورة - مُوجه للنبيّ أن يحمد الله على هذه النعم الكبرى، ولا سيما نعمة الهداية فيقول: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

هذا الحمد أو الثناء يعود لنعمة القرآن، كما يعود للهداية أيضاً، ويمكن أن يكون مقدمة للجملة التالية ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

وهذا التعبير إشارة إلى أنّه مع مرور الزمان وتقدم العلم والمعرفة، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، ويرفع ستار جديد عنها. . وستعرفون نعم الله وعظمة قدرته وعمق حكمته يوماً بعد يوم. . وإراءة الآيات هذه مستمرّة دائماً ولا تنقطع مدى عمر البشر.

إلاّ أنّكم إذا واصلتم طريق الخلاف والانحراف، فلن يترككم الله سدى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ولا تتصوروا بأنّ الله إذا أخر عقابكم بلطفه، فهو غير مطلع على أعمالكم، وأنّها لا تسجل في اللوح المحفوظ.

وجملة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ الواردة بنفسها أو مع شيء من التفاوت اليسير في تسع آيات من القرآن جملة موجزة، وهي تهديد ذو معنى عميق، وإنذار لجميع الناس.

سُورَةُ القَصَصِ

مكيّة وعدد آياتـها ثمان وثمانون

محتوى سورة القصص

المعروف أنّ هذه السورة نزلت بمكّة، وبإمكاننا ملاحظة أنّ محتواها الكلي وخطوطها العامّة الأساسيّة على شاكلة السور المكّية[1] غير أنّ بعض المفسّرين استثنوا الآية ٨٥، أو الآيات ٥١ - ٥٥ من هذه السورة معتقدين أنّ الآية الأُولى «٨٥» نزلت بالجحفة - وهي منطقة بين مكّة والمدينة - وأمّا الآيات الأربع الأُخرى فيقولون: إنّها نزلت بالمدينة. ولا يوجد دليل واضح على كلامهم..

ولعل محتوى الآيات الخمس التي تتحدث عن أهل الكتاب. (وكان أكثر أهل الكتاب يقطنون في المدينة). كان سبباً لمثل هذا التصور، في حين أن نزول الآيات القرآنية في مكّة لا يعني أنّها لابدّ أن تتحد عن المشركين في مكّة فحسب، وخاصّة أنّ أهالي مكّة والمدينة كانت لهم رحلات متقابلة وعلاقات وروابط قبلية وتجارية. وبالطبع فإن المفسّرين ذكروا سبباً آخر لنزول الآيات ٥٢ - ٥٥ يتناسب مع كونها مدنية، وسنتحدث؛ عن ذلك في محله إن شاء الله..

أمّا الآية (٨٥) التي تتحدث عن عودة النّبي إلى موطنه الأصلي، أي «مكّة» فلا مانع من أن تكون نزلت حين خروجه وهجرته من مكّة على مقربة من هذه الأرض المقدسة... لأنّ النّبي كان في غاية الشوق والحنين لمكّة بلد الله الحرام الآمن، والله سبحانه يبشره في هذه الآية بأنّه سيردّه إلى معاده «مكّة المكرمة».

فعلى هذا الأساس يمكن أن تكون هذه الآية - المشار إليها آنفاً - مكيّة، ولو فرضنا أنّها نزلت «بالجحفة» فهي إلى مكّة أقرب منها إلى المدينة.

وعلى هذا الأساس - أيضاً - لا يمكن - في تقسيم الآيات إلى مكّية ومدنية - إلاّ أنّ نعد هذه الآية ٨٥ مكّية!...

---

(١) يراجع في هذا الشأن «تاريخ القرآن» لأبي عبد الله الزنجاني و«الفهرست» لابن النديم، وكتب التفسير الأُخرى..

أجلْ. . . هذه السورة نزلت في مكّة. . . وفي ظروف كان المؤمنون في قبضة الأعداء الأقوياء وبين مخالبهم. . . الأعداء الذين كانوا أكثر عدداً وأشدّ قدرةً وقوّةً ونفيراً. . .

فهؤلاء الأقلية من المؤمنين والمسلمين كانوا يرزحون تحت وطأة هذا التصور بحيث كان جماعة من المسلمين قلقين على مستقبل الإسلام وخائفين من أجله، وبما أنّ هذه الحالة كانت كثيرة الشبه بالحالة التي كان عليها بنو إسرائيل وهم بين مخالب الفراعنة، فإنّ قسماً من محتوى هذه السورة يتحدث عن قصّة بني إسرائيل وموسى عليه السلام والفراعنة. . .

ولعل هذا القسم يستوعب نصف هذه السورة تقريباً. . . خاصة أنّها تتحدث عن فترة كان موسى طفلاً ضعيفاً رضيعاً في قبضة الفراعنة. . . ولكنّ تلك القدرة التي تستوعب عالم الوجود كلّه - ولا تقف أية قوّة أمامها - تكفّلت هذا الطفل الضعيف ورعته وهو في أحضان أعدائه الأقوياء، حتى منحته قدرة وقوّة قصوى قهرت سلطان الفراعنة ونكّست تيجانهم وقلبت قصورهم!!.

هكذا تتحدث هذه السورة ليطمئن المسلمون إلى لطف الله وقدرته، ولا يرهبوا كثرة الأعداء وقوّتهم، ولا يخافوا من الطريق ذاته!. . .

أجل. . القسم الأوّل من هذه السورة يتضمن هذا التاريخ المليء بالدروس والعبر ويبشر المستضعفين في بداية السورة بحكومة الحق والعدل لهم وكسر شوكة الظالمين، بشرى تمنحهم الاطمئنان والقدرة.

تتحدث هذه السورة عن أن بني إسرائيل كانوا مصفدين بأغلال أعدائهم ما داموا بعيدين عن خيمة الإيمان والتوحيد، وفاقدين لأي نوع من أنواع الحركة والنهوض والسعي الذي يتحدَّون به أعداءهم، لكن ما إن وجدوا قائدهم ونوّروا قلوبهم بنور العلم والتوحيد حتى أغاروا على الفراعنة وسيطروا على الحكم وحرروا أنفسهم من نير الفراعنة.

و«القسم الآخر» من هذه السورة يتحدّث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثري الذي كان يعتمد على علمه وثروته. . . حتى لقي أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود!

أحدهما غريق في الماء والآخر دفين في الأرض. . وذلك معتمد على سلطانه وجيشه في حكمه، وهذا معتمد على ماله وثروته! ليتّضح أنّه لا يمكن لتجار مكّة وأثريائهم ولا لأقويائهم من المشركين، ولا سياسييّهم في ذلك المحيط، أن يقاوموا إرادة الله في انتصار المستضعفين على المستكبرين.

وهذا القسم جاء في أواخر السورة.

وبين هذين القسمين دروس حيّة وقيّمة من التوحيد والمعاد وأهميّة القرآن، وبيان حال المشركين في يوم القيامة، ومسألة الهداية والضلالة، والإجابة على حجج الأفراد الضعاف، وهي في الحقيقة «نتيجة» الأوّل و«مقدمة» للقسم الثاني.

فضيلة تلاوة سورة القصص

نقرأ في بعض الأحاديث الواردة عن الرّسول الأعظم ﷺ أنّه قال: «من قرأ طسم القصص أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسى وكذب به، ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلاّ شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً»(١).

كما ورد في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من قرأ سورة الطواسين الثلاث في ليلة الجمعة كان من أولياء الله، وفي جواره وكنفه، لم يصبه في الدنيا بؤس أبداً، وأُعطي في الآخرة حتى يرضى وفوق رضاه، وزوّجه الله مائة زوجة من الحور العين»(٢).

وبديهي أنّ كلّ هذا الأجر والثواب هو لأُولئك الذين يقفون جنباً إلى جنب مع أصحاب موسى عليه السلام والمؤمنين الصادقين - عند قراءة هذه السورة - ليبارزوا فراعنة عصرهم وقارون زمانهم، ولا يقبعون في الأجحار أو يطاطئون رؤوسهم، عند مواجهتهم الأخطار والمشاكل والأعداء، ولا يضيّعون مواهبهم ليستغلّها الآخرون...

هذا الأجر خاص لمن يقرأون ويتفكرون، وعلى ضوء هذه السورة يخططون لحياتهم وعملهم...

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ

(١) تفسير مجمع البيان في بداية سورة القصص.
(٢) ثواب الأعمال طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، ج٤، ص١٠٦، في بداية سورة القصص.

كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

التّفسير

المشيئة الإلهيّة تقتضي الانتصار

هذه هي المرّة الرابعة عشرة التي نواجه بها بدايات السورة «بالحروف المقطعة» في القرآن، وقد تكررت فيها ﴿طسٓمٓ﴾ ثلاث مرات، وهي هنا - أي «طسم» - ثالث المرات وآخرها . . .

وقد بيّنا مراراً وتكراراً أنّ للحروف المقطعة من القرآن تفاسير متعددة ومختلفة، وقد ذكرناها وبحثناها بحثاً وافياً في بدايات سوَر «البقرة» و«آل عمران» و«الأعراف».

وعلاوة على ذلك كلّه فإنّه يظهر من كثير من الرّوايات في شأن ﴿طسٓمٓ﴾ أنّ هذه الحروف إشارات موجزة عن صفات الله سبحانه وتعالى، أو أنّها أماكن مقدسّة. . ولكنّها في الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التّفسير المعروف الذي أكّدنا عليه مراراً، وهو أنّ الله تعالى يريد أن يوضح هذه الحقيقة للجميع، وهي أنّ هذا الكتاب السماوي العظيم الذي هو أساس التغيير الكبير في تأريخ البشرية وحامل المنهج المتكامل للحياة الكريمة للإنسانيّة يتشكّل من أُمور بسيطة كهذه الحروف «ألف باء. . .» التي يستطيع أن يتلفظ بها كل صبّي.

ومن هنا تتجلى عظمة القرآن وأهمّيته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطة التي هي في اختيار الجميع.

ولعل هذا السبب كان داعياً لأن يكون الحديث بعد «الحروف المقطّعة» مباشرةً عن عظمة القرآن، إذ يقول: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾، وبالرغم من أنّ ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ جاء بمعنى اللوح المحفوظ كما قد ورد في الآية (٦١) من سورة يونس ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ والآية السادسة من سورة هود ﴿كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ولكنّه جاء بمعنى القرآن في الآية محل البحث بقرينة ذكر «الآيات» وكذلك جملة ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ الواردة في الآية التي بعدها . .

وقد وصف القرآن هنا بكونه «مبين» وكما يستفاد من اللغة فإنّ كلمة «مبين» تستعمل في المعنيين «اللازم والمتعدي»، فهو واضح في نفسه وموضّح لغيره، والقرآن المجيد بمحتواه المشرق يميّز الحق عن الباطل، ويبيّن الطريق اللاحب من الطريق المعوّج(١).

والقرآن بعد ذكر هذه المقدّمة القصيرة يحكي قصّة «فرعون» و«موسى» فيقول: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

التعبير بـ«من» التي هي للتبعيض إشارة إلى هذه اللطيفة الدقيقة، وهي أن ما ورد - هنا في القرآن - من هذه القصّة ذات الأحداث الكبيرة يتناسب وما تقتضيه الضرورة فحسب..

والتعبير ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إشارة إلى أنّ ما ورد هنا خالٍ من كل خرافة وأُسطورة، وبعيد عن الأباطيل والأكاذيب.. فهي إذن تلاوة مقترنة بالحق والواقعية..

والتعبير بـ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هو تأكيد على هذه الحقيقة، وهي أنّ مؤمني ذلك العصر الذين كانوا يرزحون تحت ضغوط المشركين والأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، وهي أنّ الأعداء مهما تعاظمت قواهم وتزايدوا عَدداً وَعُدداً، وأن المؤمنين مهما قلّوا وكانوا تحت ضغط أعدائهم وكانوا ضعافاً بحسب الظاهر، فلا ينبغي أن يهنوا وينكصوا عن طريق الحق، فكل شيء عند الله سهل يسير!..

الله الذي ربّى «موسى» في أحضان «فرعون» لإبادته وتدميره.. الله الذي أوصل العبيد والمستضعفين إلى أن يكونوا حاكمين في الأرض، وأذل الجبابرة والمستكبرين وأبادهم.

الله الذي رعى الطفل الرضيع بين أمواج النيل فحفظه ونجاه وأغرق آلاف الفراعنة الأقوياء في تلك الأمواج.. هو قادر على أن ينجيكم «أيّها المؤمنون».

أجل، إنّ الهدف الأصل من هذه الآيات هم المؤمنون وهذه التلاوة لأجلهم، والمؤمنون الذين يستلهمون من معاني هذه الآيات ويشقّون طريقهم - وسط زحام المشاكل والأخطار - باطمئنان.

كان ذلك في الحقيقة بياناً إجمالياً، ثمّ يفصّل القرآن ما أجمله بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) ونذكر ضمناً أنّ التعبير بـ«تلك» المستعملة للإشارة للبعيد - كما بيّنا سابقاً - لبيان عظمة هذه الآيات أيضاً..

فقد كان عبداً ضعيفاً، وعلى أثر جهله وعدم معرفته أضاع شخصيته ووصل إلى مرحلة من الطغيان حتى أنّه ادّعى الرّبوبية. . . والتعبير بـ «الأرض» إشارة إلى أرض مصر وما حولها. . . وحيث إنّ القسم المهم العامر من الأرض في ذلك العصر كان «مصراً» فقد جاء التعبير بالأرض بصورة مطلقة.

ويحتمل أيضاً أنّ الألف واللام للعهد أي «أرض مصر».

وعلى كل حال فإنّ فرعون - من أجل تقوية قواعده الاستكبارية - قد أقدم على عدّة جرائم كبرى!. .

فالجريمة الأولى، أنّه فرّق بين أهل مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ وهي سياسة معروفة ومتبعة على امتداد التاريخ، وعليها يستند المستكبرون في حكمهم، فلا يمكن أن تحكم الأقلية - التي لا تُعدّ شيئاً - على الأكثرية إلاّ بالخطة المعروفة «فرّق تَسُدْ» فهم مستوحشون من «كلمة التوحيد» و«توحيد الكلمة» ويخافون منهما أبداً -.

ويخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض، ولذلك يلجأون إلى الطبقية في الحكم، فهذه الطريقة وحدها تتكفل بقاءهم في الحكم، كما صنعه فرعون في أهل مصر، ويصنعه الفراعنة في كل عصر ومصر.

أجل، إنّ فرعون قسّم أهل مصر إلى طائفتي «الأقباط» و«الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه والراحة، وكانت في أيديهم القصور ودوائر الدولة والحكومة.

و«الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بني إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد والخدم «في قبضة الأقباط»! وكانوا محاطين بالفقر والحرمان، ويحملون أشدّ الأعباء دون أن ينالوا من وراء ذلك نفعاً [والتعبير بالأهل في شأن الطائفتين الأقباط والأسباط هو لأنّ بني إسرائيل كانوا قد سكنوا مصر مدّة طويلة فكانوا يُعدّون من أهلها حقيقة!].

وحين نسمع أنّ بعض الفراعنة يستعمل مائة ألف مملوك من العبيد لتشييد مقبرة خلال عشرين سنة (كما هي الحال بالنسبة إلى هرم خوفو المعروف الكائن بمقربة من القاهرة عاصمة مصر) ويموت في سبيل ذلك آلاف العبيد والمماليك على أثر الضرب بالأسواط وتحت ضغط العمل الشاق، ندرك جيداً الحالة الإرهابية السائدة في ذلك المجتمع. . .

والجريمة الثّانية هي استضعافه لجماعة من أهل مصر بشكل دموي سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

فقد كان أصدر أمراً بأن يراقبوا الأطفال الذين يولدون من بني إسرائيل، فإن كانوا ذكوراً فإنّ حظهم الذبح، وإن كانوا إناثاً فيتركن للخدمة في المستقبل في بيوت الأقباط.

وترى ماذا كان يهدف فرعون من وراء عمله هذا؟!

المعروف أنّه رأى في منامه أنّ شعلة من النّار توهّجت من بيت المقدس وأحرقت جميع بيوت مصر، ولم تترك بيتاً لأحد من الأقباط إلاّ أحرقته، ولكنّها لم تمسّ بيوت بني إسرائيل بسوء، فسأل الكهنة والمعبرين للرؤيا عن تأويل ذلك، فقالوا له: يخرج رجل من بيت المقدس يكون على يديه هلاكك وزوال حكومة الفراعنة[(١)].

وأخيراً كان هذا الأمر سبباً في عزم فرعون على قتل الرضّع من الأطفال الذكور من بني إسرائيل[(٢)].

كما يحتمل - أيضاً - أنّ الأنبياء السابقين بشّروا بظهور موسى عليه السلام وخصائصه، وقد أحزن الفراعنة خبره، فلمّا اطّلعوا على هذا الأمر أقدموا على التصدي له[(٣)].

ولكون ورود جملة ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ بعد جملة ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ فإنّ مسألة أُخرى تتجلّى أمامنا، وهي أنّ الفراعنة اتّخذوا خطة لاستضعاف بني إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنو إسرائيل أن يواجهوا الفراعنة ويحاربوهم، وكانوا يتركون النساء اللاتي لا طاقة لهن على القتال والحرب، ليكبرن ثمّ يخدمن في بيوتهم.

والشاهد الآخر هو الآية (٢٥) في سورة المؤمن، إذ يستفاد منها - بصورة جيدة - أنّ خطة قتل الأبناء واستحياء النساء كانت موجودة حتى بعد ظهور موسى عليه السلام [ومجيئه إلى الفراعنة]. إذ تقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

وجملة ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ يظهر منها أنّهم كانوا يصرّون على إبقاء البنات والنساء، إمّا لكي يخدمن في بيوت الأقباط، أو للاستمتاع الجنسي، أو لكلا الأمرين جميعاً.

---

(١) راجع في ذلك تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٣٩، والتّفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٤، ص٢٢٥. ذيل الآيات.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٤، ص٢٢٥، ذيل الآية مورد البحث.

وفي آخر جملة تأتي الآية بتعبير جامع، وفيه بيان العلة أيضاً فتقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

وباختصار فإنّ عمل فرعون يتلخص في الفساد في الأرض، فاستعلاؤه كان فساداً، وإيجاد الحياة الطبقية في مصر فساد آخر، وتعذيب بني إسرائيل واستضعافهم وذبح أبنائهم واستحياء نسائهم ليخدمن في بيوت الأقباط فساد ثالث، وسوى هذه المفاسد كانت لديه مفاسد كثيرةٌ أُخرى أيضاً.

والتعبير بـ «يُذبح» المشتق من مادة «المذبح» تدل على معاملة الفراعنة لبني إسرائيل كمعاملة القصابين للأغنام والأنعام الأُخرى، إذ كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء ويحتزون رؤوسهم![1].

وفي هذه الخطة الإجرامية من قبل الفراعنة ضد الحوامل قصص مذكورة، إذ قال بعضهم: إنّ فرعون كان قد أمر برقابة مشددة على النساء الحوامل من بني إسرائيل، وأن لا يلي إيلادهن إلاّ قابلة من القبطيّات والفرعونيّات، فإذا كان المولود ذكراً فإنّ جلاوزة القصر الفرعوني يأتون ليتسلموا «قربانهم»[2].

ولا يعرف بدقّة كم بلغ عدد «ضحايا الحوامل» من أطفال بني إسرائيل على أثر هذه الخطة الإجرامية؟ قال بعضهم: كان الضحايا من الأطفال المواليد تسعين ألفاً، وأوصلها بعضهم إلى مئات الآلاف!..

لقد كانوا يظنون أنّهم سيقفون بوجه إرادة الله الحتمية بهذه الجرائم الوحشية، فلا ينهض بنو إسرائيل ضدهم ولا يزول سلطانهم.

ثمّ تأتي الآية الأُخرى لتقول: إنّ إرادتنا ومشيئتنا اقتضت احتواء المستضعفين بلطفنا وكرمنا ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وأن تشملهم رعايتنا ومواهبنا تكون بيد الحكومة ومقاليد الأمور: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

ويكونون أُولي قوّة وقدرة في الأرض ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

---

(١) ممّا يلفت النظر أنّ مادة (ذبح) في الفعل الثلاثي مجرّدة، وفعلها متعدٍّ بنفسه، ولكنّها هنا استعملت بصيغة التفعيل لتدلّ على الكثرة، كما تستفاد من صيغة المضارع الاستمرار على هذه الجناية [فلاحظوا بدقّة].

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٤، ذيل الآيات مورد البحث.

ما أبلغ هاتان الآيتان، وما أعظم ما فيهما من رجاء وأمل! . . إذ جاءتا بصورة الفعل المضارع والاستمرار، لئلا يتصور أنّهما مختصتان بالمستضعفين من بني إسرائيل وحكومة الفراعنة، إذ تبدآن بالقول: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ . . .﴾.

أي إنّ فرعون أراد أن يجعل بني إسرائيل شذراً مذراً ويكسر شوكتهم ويبير قواهم وقدرتهم، ولكننا أردنا - ونريد - أن ينتصروا ويكونوا أقوياء!

فرعون يريد أن تكون الحكومة بيد المستكبرين إلى الأبد، ولكنّا أردنا أن تكون بيد المستضعفين، فكان كما أردنا.

والتعبير بـ ﴿نَّمُنَّ﴾ كما أشرنا إلى ذلك من قبل، معناه منح الهبات والنعم، وهو يختلف تمام الاختلاف مع «المنّ» المراد به عدّ النعم لتحقير الطرف المقابل، وهو مذموم قطعاً.

ويكشف الله في هاتين الآيتين الستار عن إرادته ومشيئته بشأن المستضعفين، ويذكر في هذا المجال خمسة أُمور بعضها مرتبط ببعض ومتقاربة أيضاً:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ . . .﴾ لنشملهم بالمواهب والنعم. . الخ.

الثّاني: قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾.

الثّالث: قوله: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ أي المستخلفين بعد الفراعنة والجبابرة.

الرّابع: قوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي نجعلهم يحكمون في الأرض وتكون السلطة والقدرة وغيرهما لهم وتحت تصرفهم. .

والخامس: إنّ ما كان يحذره الأعداء منهم وما عبأوه لمواجهتهم يذهب أدراج الرياح، وتكون العاقبة لهم ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

هكذا لطف الله وعنايته في شأن المستضعفين، أمّا من هم أُولئك المستضعفون؟! وما هي أوصافهم؟! فستتحدث عن كل ذلك بعد قليل بإذن الله.

وكان «هامان» وزير فرعون المعروف يتمتع بنفوذ وسلطة إلى درجة أنّ الآية المتقدمة إذ تتحدث عن جنود مصر فإنّها تعزوهم إلى فرعون وهامان معاً (وسيأتي مزيد إيضاح وشرح عن حال هامان بإذن الله في ذيل الآية (٣٨) من هذه السورة ذاتها).

بحوث

١ - حكومة المستضعفين العالمية

قلنا: إنّ الآيات المتقدمة لا تتحدث عن فترة خاصة أو معينة، ولا تختص ببني

إسرائيل فحسب، بل توضح قانوناً كلياً لجميع العصور والقرون ولجميع الأمم والأقوام، إذ تقول: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

فهي بشارةٌ في صدد انتصار الحق على الباطل والإيمان على الكفر.

وهي بشارةٌ لجميع الأحرار الذين يريدون العدالة وحكومة العدل وانطواء بساط الظلم والجور.

وحكومة بني إسرائيل وزوال حكومة الفراعنة ما هي إلاّ نموذج لتحقق هذه المشيئة الإلهية والمثل الأكمل هو حكومة نبيّ الإسلام ﷺ وأصحابه بعد ظهور الإسلام... حكومة الحفاة العفاة والمؤمنين المظلومين الذين كانوا موضع تحقير فراعنة زمانهم واستهزائهم ويرزخون تحت تأثير الضغوط «الظالمة» لأئمّة الكفر والشرك.

وكانت العاقبة أن الله فتح على أيدي هؤلاء المستضعفين أبواب قصور الأكاسرة والقياصرة، وأنزل أُولئك من أسرّةِ الحكم والقدرة وأرغم أنوفهم بالتراب.

والمثل الأكبر والأوسع هو ظهور حكومة الحق والعدالة على جميع وجه البسيطة - والكرة الأرضية - على يد «المهديّ» أرواحنا له الفداء.

فهذه الآيات هي من جملة الآيات التي تبشّر - بجلاء - بظهور مثل هذه الحكومة، ونقرأ عن أهل البيت عليهم السلام في تفسير هذه الآية أنّها إشارة إلى هذا الظهور العظيم.

فقد ورد في نهج البلاغة عن علي عليه السلام قوله: «لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسها عطف الضروس على ولدها، وتلا عقيب ذلك: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾»(١).

وفي حديث آخر نقرأ عنه عليه السلام في تفسير الآية المتقدمة قوله: «هم آل محمّد ﷺ يبعث الله مهديّهم بعد جهدهم فيعزّهم ويذل عدوّهم»(٢).

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام قوله: «والذي بعث محمّداً بالحقّ بشيراً ونذيراً، إنّ الأبرياء منّا أهل البيت وشيعتهم بمنزلة موسى

(١) نهج البلاغة - الكلمات القصار الكلمة رقم ٢٠٩.

(٢) الغيبة للشيخ الطوسي، ص١٨٤، حسب نقل تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١١٠.

وشيعته، وإن عدونا وأشياعهم بمنزلة فرعون وأشياعه»[1] (أي سننتصر أخيراً وينهزم أعداؤنا وتعود حكومة العدل والحق لنا).

ومن الطبيعي أنّ حكومة المهدي عليه السلام العالميّة في آخر الأمر لا تمنع من وجود حكومات إسلامية في معايير محدودة قبلها من قبل المستضعفين ضد المستكبرين، ومتى ما تمّت الظروف والشروط لمثل هذه المحكومات الإسلامية فإنَّ وعد الله المحتوم والمشيئة الإلهية سيتحققان في شأنها، ولابدّ أن يكون النصر حليفها بإذن الله.

٢ - من هم المستضعفون ومن هم المستكبرون؟!

كلمة «المستضعف» مشتقّة من مادة «ضعف»، ولكنّها لما استعملت في باب «الاستفعال» دلت على من يكبّل بالقيد والغلّ ويجرّ إلى الضعف.

وبتعبير آخر: ليس المستضعف هو الضعيف والفاقد للقدرة والقوّة.. بل المستضعف من لديه قوى بالفعل وبالقوة، ولكنّه واقع تحت ضغوط الظلمة والجبابرة، وبرغم أنّه مكبل بالأغلال في يديه ورجليه فإنّه غير ساكت ولا يستسلم، ويسعى دائماً لتحيطم الأغلال ونيل الحرية، والتصدي للجبابرة والمستكبرين، ونصرة مبدأ العدل والحق.

فالله سبحانه وعد أمثال هؤلاء بالمنّ وبالحكومة على الأرض، لا الأفراد الجبناء الذين لا يجرؤون على أدنى اعتراض فكيف إذا حمي الوطيس وحان أوان التضحية والفداء؟!

فبنو إسرائيل استطاعوا أن يأخذوا الحكومة ويرثوها من الفراعنة لأنّهم التفوا حول موسى عليه السلام وعبؤوا قواهم وشكّلوا صفاً واحداً، واستكملوا بقايا إيمانهم الذي ورثوه عن جدّهم إبراهيم الخليل، ونفضوا الخرافات عن أفكارهم ونهضوا مع موسى عليه السلام.

وبالطبع فإنّ المستضعفين أنواع، فهناك مستضعف فكريٌّ، وهناك مستضعف ثقافيٌّ، وهناك مستضعف اقتصادي، وآخر مستضعف سياسي، أو أخلاقي، وأكثر ما أكّد عليه القرآن هو الاستضعاف السياسي والأخلاقي!.

وما من شك أنّ المستكبرين الجبابرة يسعون أبداً لأن يجرّوا قرابينهم إلى الاستضعاف الفكري والثقافي، ثمّ إلى الاستضعاف الاقتصادي، لئلا تبقى لهم قوّةٌ ولا قدرة، ولئلا يفكروا بالنهوض وتولي زمام الحكومة.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

وفي القرآن المجيد ورد الكلام عن المستضعفين في خمسة موارد، وعلى العموم فإنّ هذا الكلام يدور حول المؤمنين الذين يرزخون تحت ضغوط الجبابرة.

ففي مكان من القرآن الكريم يدعو إلى الجهاد والمقاتلة في سبيل الله والمستضعفين إذ يقول: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[1].

وفي مكان واحد فقط ورد الكلام عن الذين أعانوا الكفار وظلموا أنفسهم، وادعوا أنّهم مستضعفون، ولم يهاجروا في سبيل الله، فالقرآن ينفي عنهم هذا الاستضعاف فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[2].

وعلى كل حال فإنّه القرآن في كل مكان منه يدافع عن المستضعفين ويذكرهم بخير، ويعبّر عنهم بالمؤمنين الذين يرزخون تحت ضغوط المستكبرين. . . المؤمنون المجاهدون والساعون بجدّهم المشمولون بعناية الله ولطفه.

٣ - أسلوب المستكبرين على مدى التاريخ

لم يكن فرعون وحده يذبح أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم لإذلالهم، فعلى مدى التاريخ نجد أسلوب الجبابرة على هذه الشاكلة، حيث يسعون لتعطيل القدرات والقوى بأية وسيلة كانت، فحيث لم يستطيعوا قتل «الرجال» يلجؤون إلى قتل «الرجولة»، ويذوّبون روح الشهامة بنشر الفساد والمخدّرات والفحشاء والمنكر والانحراف الجنسي وكثرة الشراب والقمار، ليستطيعوا براحة بال واطمئنان خاطر أن يواصلوا حكمهم وحكومتهم.

ولكنّ أنبياء الله، وخاصّة نبيّ الإسلام ﷺ كانوا يسعون لإيقاظ قوى الفتوة النائمة ويشحنوا قدرات الشباب الهائلة، ويحرروهم من أسر الذلة، وكانوا يعلمون حتى النساء دروساً من الشجاعة والشهامة، ليقفن في صفوف الرجال ضد المستكبرين.

والشواهد على هذين المنهجين في البلاد الإسلامية في التاريخ المعاصر والتاريخ القديم كثيرة وواضحة جدّاً، فلا حاجة لسردها وذكرها بالتفصيل.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٥. (٢) سورة النساء، الآية: ٩٧.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۝٨ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

التفسير

في قصر فرعون!

من أجل رسم مثل حيّ لانتصار المستضعفين على المستكبرين، يدخل القرآن المجيد في سرد قصّة موسى وفرعون، ويتحدث بالخصوص عن مراحل يكون فيها موسى في أشدّ حالات الضعف، أمّا فرعون فهو في أقوى الحالات وأكثرها هيمنة... ليتجسّد انتصار مشيئة الله على إرادة الجبابرة في أعلى الصور وأحسن الوجوه...

يقول القرآن: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وهذه الآية على إيجازها تشتمل على أمرين ونهيين وبشارتين، وهي خلاصة قصّة كبيرة وذات أحداث ومجريات ننقلها بصورة مضغوطة:

كانت سُلطة فرعون وحكومته الجائرة قد خططت تخطيطاً واسعاً لذبح «الأطفال» من بني إسرائيل حتى أنّ القوابل [من آل فرعون] كن يراقبن النساء الحوامل [من بني إسرائيل].

ومن بين هؤلاء القوابل كانت قابلة لها علاقة مودّة مع أمّ موسى عليه السلام «وكان الحمل خفياً لم يظهر أثره على أم موسى» وحين أحسّت أم موسى بأنّها مقربة وعلى أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة وأخبرتها بالواقع، وأنّها تحمل جنيناً في بطنها وتوشك أن تضعه، فهي بحاجة - هذا اليوم - إليها.

وحين ولد موسى عليه السلام سطع نور بهيّ من عينيه فاهتزّت القابلة لهذا النور وطُبع حُبّه في قلبها، وأنار جميع زوايا قلبها.

فالتفتت القابلة إلى أم موسى وقالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعوني بهذا الوليد ليأتي الجلاوزة فيقتلوه «وأنال بذلك جائزتي» ولكن ما عسى أن أفعل وقد وقع حبّه الشديد في قلبي، وأنا غير مستعدة لأن تنقص ولو شعرة واحدة من رأسه، فاهتمي بالمحافظة عليه، وأظنّ أن عدوّنا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيراً.

ثمّ خرجت القابلة من بيت أمّ موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزة فرعون وصمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى أمّها وأخبرتها بأن تتهيأ للأمر، فارتبكت ولم تدر ماذا تصنع؟! وفي هذه الحالة من الارتباك وهي ذاهلة لفت وليدها «موسى» بخرقة وألقته في التنور فإذا بالمأمورين والجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئاً إلاّ التنور المشتعل ناراً.. فسألوا أم موسى عن سبب دخول القابلة عليها فقالت: إنّها صديقتي وقد جاءت زائرة فحسب، فخرجوا آيسين.

ثمّ عادت أمّ موسى إلى رشدها وصوابها وسألت «أخت موسى» عن أخيها فأظهرت عدم معرفتها بمكانه، وإذا البكاء يعلو من داخل التنور، فركضت إلى التنور فرأت موسى مسالماً وقد جعل الله النّار عليه برداً وسلاماً «الله الذي نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالماً من التنور.

لكن الأمّ لم تهدأ إذ إنّ الجواسيس يمضون هنا وهناك ويفتشون البيوت يمنة ويسرة، وكان الخطر سيقع لو سمعوا صوت هذا الطفل الرضيع.

وفي هذه الحال اهتدت أم موسى بإلهام جديد، إلهام ظاهره أنّه مدعاة للخطر، ولكن مع ذلك أحسّت بالاطمئنان أيضاً.

كان ذلك من الله ولابدّ أن يتحقق، فلبست ثياب عملها وصممت على أن تلقي وليدها في النيل.

فجاءت إلى نجّار مصري «وكان النجار من الأقباط والفراعنة أيضاً» فطلبت منه أن يصنع صندوقاً صغيراً.

فسألها النجار قائلاً: ما تصنعين بهذا الصندوق مع هذه الأوصاف؟ ولكن الأُمّ لما كانت غير متعودة على الكذب لم تستطع دون أن تقول الحق والواقع، وأنّها من بني إسرائيل ولديها طفل تريد إخفاءه في الصندوق.

فلمّا سمع النجّار القبطي هذا الخبر صمّم على أن يخبر الجلاوزة والجلاّدين، فمضى نحوهم لكن الرعب سيطر على قلبه فارتج على لسانه وكلّما حاول أن يفهمهم ولو كلمة

واحدة لم يستطع، فأخذ يشير إليهم إشارات مبهمة، فظن أُولئك أنّه يستهزىء بهم فضربوه وطردوه، ولما عاد إلى محله عاد عليه وضعه الطبيعي، فرجع ثانية إليهم ليخبرهم فعادت عليه الحالة الأُولى من الارتجاج والعيّ، وأخيراً فقد فهم أنّ هذا أمر إلهي وسرّ خفي، فصنع الصندوق وأعطاه لأم موسى.

ولعلّ الوقت كان فجراً والناس - بعد - نيام، وفي هذه الحال خرجت أم موسى وفي يديها الصندوق الذي أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل وأرضعت موسى حتى ارتوى، ثمّ ألقت الصندوق في النيل فتلقفته الأمواج وأخذت تسير به مبتعدة عن الساحل، وكانت أم موسى تشاهد هذا المنظر وهي على الساحل.. وفي لحظة أحسّت أن قلبها انفصل عنها ومضى مع الأمواج، فلولا لطف الله الذي شملها وربط على قلبها لصرخت ولانكشف الأمر واتضح كل شيء.

ولا أحد يستطيع أن يصور - في تلك اللحظات الحساسة - قلب الأُم بدقّة.

لا يستطيع أيّ أحد أن يصور حال أُم موسى وما أصابها من الهلع والفزع ساعة ألقت طفلها في النيل، ولكنّ هذه الأبيات المترجمة عن الشاعرة «پروين اعتصامي» - بتصرف - تحكي صورة «تقريبية» عن ذلك الموقف:

أمّ موسى حين ألقت طفلها	للذي رب السما أوحى لها
نظرت للنيل يمضي مسرعاً	آه لو تعرف حقاً حالها
ودوي الموج فيه صاخب	وفتاها شاغل بلبالها

❁ ❁ ❁

وتناغيه بصمت: ولدي	كيف يمضي بك هذا الزورق
دون ربان، وإن ينسك من	هو ذو لطف فمن ذا يشفق
فأتاها الوحي: مهلاً، ودعي	باطل الفكر ووهماً يزهق
إن موسى قد مضى للمنزل	فاتق الله ولا تستعجلي
قد تلقينا الذي ألقيته	بيد ترعى الفتى لا تجهلي
وخرير الماء أضحى مهده	في اهتزاز مؤنس إن تسألي

❁ ❁ ❁

ولـه الـمـوج رؤومـاً حـدبـا فـاق مـن يـحـدب أمّـا وأبـا
كـل نـهـر لـيـس يـطـغـى عـبـثـاً إن أمـر الله كـان الـسـبـبـا

❁ ❁ ❁

يـأمـر الـبـحـر فـيـغـدو هـائـجـا ولـه الـطـوفـان طـوعـاً مـائـجـا
عـالـم الإيـجـاد مـن آثـاره كـل شـيء لـعـلاه عـارجـا

❁ ❁ ❁

أيـن تـمـضـيـن دعـيـه فـلـه خـيـر ربّ يـرتـضـيـه لا هـجـا

كل هذا من جهة!. . .

ولكن تعالوا لنرى ما يجري في قصر فرعون؟!

ورد في الأخبار أنّ فرعون كانت له بنت مريضة، ولم يكن له من الأبناء سواها، وكانت هذه البنت تعاني من آلام شديدة لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: نتكهّنُ ونتوقع أنّ إنساناً يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها، وكان فرعون وزوجه «آسية» في انتظار هذا «الحادث» وفي يوم من الأيّام. . فجأة لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عمّاله أن يأتوا به ليعرفوا ما به؟!

ومثّل الصندوق «المجهول» الخفيّ أمام فرعون، ولم يتمكن أحد أن يفتحه.

بلى كان على فرعون أن يفتحه لينجو موسى على يد فرعون نفسه، وفتح الصندوق على يده فعلاً!.

فلمّا وقعت عين آسية عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، ودخل حبّه في قلوب الجميع، ولا سيما قلب امرأة فرعون «آسية». . وحين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبّته أكثر فأكثر(١).

ولنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصة القصّة من لسانه! يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

---

(١) ورد هذا القسم من الرّواية عن ابن عباس في تفسير الفخر الرازي كما هناك روايات آخرها في تفسير «أبي الفتوح» و«مجمع البيان».

كلمة «التقط» مأخوذة من مادة «التقاط» ومعناها في الأصل الوصول إلى الشيء دون جهد وسعي، وإنّما سميت الأشياء التي يعثر عليها «لقطة» للسبب نفسه أيضاً. .

وبديهي أنّ الفراعنة لم يجلبوا الصندوق الذي فيه الطفل الرضيع من الماء ليربوه في أحضانهم فيكون لهم عدواً لدوداً، بل أرادوه - كما قالت امرأة فرعون - قرة عين لهم.

ولكن النتيجة والعاقبة. . كان ما كان وحدث ما حدث. . وكما يقول علماء الأدب: إنّ اللام في الآية هنا ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ. . .﴾ هي «لام العاقبة» ليست «لام العلة» ولطافة التعبير كامنة في أنّ الله سبحانه يريد أن يبيّن قدرته، وكيف أن هذه الجماعة «الفراعنة» عبّأت جميع قواها لقتل بني إسرائيل، وإذا الذي أرادوا قتله - وكانت كل هذه المقدمات من أجله - يتربى في أحضانهم كأعزّ أبنائهم.

والتعبير - ضمناً - بآل فرعون يدل على أنّ الملتقط لم يكن واحداً، بل اشترك في التقاط الصندوق جماعة من آل فرعون، وهذا بنفسه شاهد على أنّهم كانوا ينتظرون مثل هذا الحدث!.

ثمّ تختتم الآية بالقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

كانوا خاطئين في كل شيء، وأي خطأ أعظم من أن يحيدوا عن طريق العدل والحقّ، وأن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم والجور والشرك!.

وأي خطأ أعظم أن يذبحوا آلاف الأطفال ليقتلوا موسى عليه السلام، ولكن الله سبحانه أودعه في أيديهم وقال لهم: خذوا عدوّكم هذا وربّوه ليكبر عندكم؟![1]

ويستفاد من الآية التالية أنّ شجاراً حدث ما بين فرعون وامرأته، ويحتمل أنّ بعض أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأنّ القرآن الكريم يقول في هذا الصدد: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا. . .﴾.

ويلوح للنظر أنّ فرعون وجد في مخايل الطفل والعلائم الأُخرى ومن جملتها إيداعه في التابوت «الصندوق» وإلقاءه بين أمواج النيل، وما إلى ذلك - أنّ هذا الطفل من بني

---

(١) يقول الراغب في مفرداته: إن الفرق بين «الخاطىء» «والمخطىء» هو أنّ الخاطىء هو من يقدم على عمل لا يخرج من عهدته ويطوي طريق الخطأ بنفسه، أما المخطي فيقال في من يقدم على عمل ويخرج من عهدته إلّا أنّه يخطىء في الأثناء صدفة، فيتلف العمل.

إسرائيل، وأن زوال ملكه على يده، فجثم كابوسٌ ثقيل على صدره من الهم وألقى على روحه ظلّة، فأراد أن يجري قانون إجرامه عليه.

فأيده أطرافه وأتباعه المتملّقون على هذه الخطة، وقالوا: ينبغي أن يذبح هذا الطفل، ولا دليل على أن لا يجري هذا القانون عليه.

ولكن آسية امرأة فرعون التي لم ترزق ولداً ذكراً، ولم يكن قلبها منسوجاً من قماش عمال قصر فرعون، وقفت بوجه فرعون وأعوانه ومنعتهم من قتله.

وإذا أضفنا قصّة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى - على ما قدمناه - فسيكون دليلاً آخر يوضح كيفية انتصار آسية في هذه الأزمة.

ولكن القرآن - بجملة مقتضبة وذات مغزى كبير - ختم الآية قائلاً: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أجل، إنّهم لم يشعروا أنّ أمر الله النافذ ومشيئته التي لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل في أهم المراكز خطراً... ولا أحد يستطيع أن يردّ هذه المشيئة، ولا يمكن مخالفتها أبداً..

ملاحظة:

تخطيط الله العجيب...

إظهار القدرة... ليس معناه أنّ الله إذا أراد أن يهلك قوماً جبارين، يرسل عليهم جنود السماوات والأرض، فيهلكهم ويدمرهم تدميراً.

إظهار القدرة هو أن يجعل الجبابرة والمستكبرين يدمرون أنفسهم بأيديهم، يلهم قلوبهم بإلقاء أنفسهم في البئر التي حفروها لغيرهم، وأن يصنعوا لأنفسهم سجناً يموتون فيه! وأن يرفعوا أعواد المشانق ليعدموا عليها!...

وفي قضية الفراعنة الجبابرة المعاندين حدث مثل هذا، وتمّت تربية موسى ونجاته في جميع المراحل على أيديهم.

فالقابلة التي أولدت موسى كانت من الأقباط.

والنجار الذي صنع الصندوق الذي أخفي فيه موسى كان قبطياً.

والذين التقطوا الصندوق كانوا من آل فرعون!.

والذي فتح باب الصندوق كان فرعون بنفسه أو امرأته آسية.

وأخيراً فإن المكان الآمن والهادىء الذي تربّى فيه موسى - البطل الذي قهر فرعون - هو قصر فرعون ذاته.

وبهذا الشكل يظهر الله تعالى قدرته.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

التّفسير

عودة موسى إلى حضن أمّه

في هذه الآيات تتجسدُ مشاهد جديدة.. فأمُّ موسى التي قلنا عنها: إنّها ألقت ولدها في أمواج النيل، بحسب ما فصّلنا آنفاً.. اقتحم قلبها طوفان شديدٌ من الهمّ على فراق ولدها، فقد أصبح مكان ولدها الذي كان يملأ قلبها خالياً وفارغاً منه.

فأوشكت أن تصرخ من أعماقها وتذيع جميع أسرارها، لكن لطف الله تداركها، وكما يعبّر القرآن الكريم ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

«الفارغ» معناه الخالي، والمقصود به هنا أنّ قلب أم موسى أصبح خالياً من كل شيء إلاّ من ذكر موسى... وإن كان بعض المفسّرين يرون أنّ المقصود به هو خلوّ القلب من الهمّ والغمّ، أو أنّه خال من الإلهام والبشائر التي بشرت بها أُم موسى من قبل، ولكن مع الالتفات لهذه الجمل والتدقيق فيها يبدو هذا التّفسير غير صحيح.

وطبيعيّ تماماً أنّ أمّاً تفارق ولدها بهذه الصورة يمكن أن تنسى كل شيء إلاّ ولدها الرضيع، ويبلغ بها الذهول درجةً لا تلتفت معها إلى ما سيصيبها وولدها من الخطر لو صرخت من أعماقها وأذاعت أسرارها.

ولكن الله الذي حمّل أم موسى هذا العبء الثقيل ربط على قلبها لتؤمن بوعد الله، ولتعلم أنّه بعين الله، وأنّه سيعود إليها وسيكون نبيّاً.

كلمة ﴿رَبَطْنَا﴾ من مادة «ربط» ومعناها في الأصل شدّ وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظاً في مكانه، ولذلك يدعى هذا المحلّ الذي تربط فيه الحيوانات بـ«الرباط» ثمّ توسعوا في اللغة فصار معنى الربط: الحفظ والتقوية والاستحكام، والمقصود من «ربط القلب» هنا تقويته.. أي تثبيت قلب أم موسى، لتؤمن بوعد الله وتتحمل هذا الحادث الكبير.

وعلى أثر لطف الله أحست أُم موسى بالاطمئنان، ولكنّها أحبت أن تعرف مصير ولدها، ولذلك أمرت أخته أن تتبع أثره وتعرف خبره ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾.

كلمة ﴿قُصِّيهِۖ﴾ مأخوذة من مادة «قصّ» على زنة «نصَّ» ومعناها البحث عن آثار الشيء، وإنّما سميّت القصّة قصّةً لأنّها تحمل في طياتها أخباراً مختلفة يتبع بعضها بعضاً.

فاستجابت «أُخت موسى» لأمر أمّها، وأخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيد، ورأت صندوقه الذي كان في الماء يتلقفه آل فرعون.. ويقول القرآن في هذا الصدد: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾.

ولكن أُولئك لم يلتفتوا إلى أن أخته تتعقبه ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال البعض: إن خدم فرعون كانوا قد خرجوا بالطفل من القصر بحثاً عن مرضعة له، فرأتهم أُخت موسى.

ويبدو أنّ التّفسير الأوّل أقرب للنظر، فعلى هذا بعد رجوع أُم موسى إلى بيتها أرسلت أخته للبحث عنه، فرأت - من فاصلة بعيدة - كيف استخرجه آل فرعون من النيل لينجو من الخطر المحدق.

هناك تفاسير أُخرى لجملة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أيضاً.

فالعلامة «الطبرسي» لا يستبعد أن يكون تكرار هذه الجملة في الآية السابقة والآيات اللاحقة إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن فرعون جاهل بالأُمور إلى هذه الدرجة فكيف يدعي الرّبوبية؟ وكيف يريد أن يحارب مشيئة الله التي لا تُقهر!؟.

وعلى كل حال، فقد اقتضت مشيئة الله أن يعود هذا الطفل إلى أمّه عاجلاً ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾(١).

---

(١) «المراضع» جمع «مُرضِع» على زنة «مُخبر» ومعناها المرأة التي تسقي الطفل لبنها من ثديها، وقال البعض: (المراضع) جمع (مَرضَع) على زنة (مكتب) أي مكان الإرضاع، أي، «الأثداء» وقال البعض: =

وطبيعيٌ أن الطفل الرضيع حين تمر عليه عدة ساعات فإنه يجوع ويبكي ولا يطيق تحمل الجوع، فيجب البحث عن مرضع له، ولا سيما أن ملكة مصر «امرأة فرعون» تعلق قلبها به بشدّة، وأحبّته كروحها العزيزة.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثاً عن مرضع له، والعجيب في الأمر أنّه كان يأبى أثداء المرضعات.

لعل ذلك آت من استيحاشه من وجوه المرضعات، أو أنّه لم يكن يتذوق ألبانهن، إذ يبدو لبن كلٍّ منهن مرّاً في فمه، فكأنّه يريد أن يقفز من أحضان المراضع، وهذا هو التحريم التكويني من قبل الله تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعاً.

ولم يزل الطفل لحظة بعد أُخرى يجوع أكثر فأكثر وهو يبكي وعمال فرعون يدورون به بحثاً عن مرضع بعد أن ملأ قصر فرعون بكاءً وضجيجاً، وما زال العمال في مثل هذه الحال حتى صادفوا بنتاً أظهرت نفسها بأنّها لا تعرف الطفل، فقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

إنّني أعرف امرأة من بني إسرائيل لها ثديان مملوءان لبناً، وقلب طافح بالمحبّة، وقد فقدت وليدها، وهي مستعدة أن تتعهد الطفل الذي عندكم برعايتها.

فسرّ بها هؤلاء وجاؤوا بأمّ موسى إلى قصر فرعون، فلمّا شمّ الطفل رائحة أُمّه التقم ثديها بشغف كبير، وأشرقت عيناه سروراً، كما أن عمّال القصر سرّوا كذلك لأنّ البحث عن مربية له أعياهم، وامرأة فرعون هي الأُخرى لم تكتم سرورها للحصول على هذه المرضع أيضاً.

ولعلهم قالوا للمرضع: أين كنت حتى الآن، إذ نحن نبحث عن مثلك منذ مدّةً.. فليتك جئت قبل الآن، فمرحباً بك وبلبنك الذي حلّ هذه المشكلة.

تقول بعض الرّوايات: حين استقبل موسى ثدي أُمّه، قال هامان وزير فرعون لأم موسى: لعلك أُمّه الحقيقية، إذ كيف أبى جميع هذه المراضع ورضي بك، فقالت: أيّها الملك، لأنّي امرأة ذات عطر طيب ولبني عذب، لم يأت طفل رضيع إلاّ قبل بي، فصدّقها الحاضرون وقدموا لها هدايا ثمينة[1].

= يحتمل أن تكون الكلمة جمعاً للمصدر الميمي «مرضع» بمعنى الرضاع، ولكن المعنى الأوّل أنسب كما يبدو..

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٤، ص ٢٣١.

ونقرأ في هذا الصدد حديثاً قال الراوي: فقلت للإمام الباقر عليه السلام: فكم مكث موسى غائباً من أُمّه حتى ردّه الله؟ قال: «ثلاثة أيام»[١].

وقال بعضهم: هذا التحريم التكويني لأنّ الله لم يرد لموسى أن يرتضع من الألبان الملوثة بالحرام.. الملوّثة بأموال السرقة، أو الملوّثة بالإجرام والرشوة وغصب حقوق الآخرين، وإنّما أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن أُمّه ليستطيع أن ينهض بوجه الأرجاس ويحارب الآثمين.

وتم كل شيء بأمر الله ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

هنا ينقدح سؤال مهم وهو: هل أودع آل فرعون الطفل «موسى» عند أُمّه لترضعه وتأتي به كل حين - أو كل يوم - إلى قصر فرعون لتراه امرأة فرعون؟!

أم أنّهم أودعوا موسى في القصر وطلبوا من المرضع «أم موسى» أن تأتي بين فترات متناسبة إلى القصر لترضعه؟!

لا يوجد دليلٌ قوي لأيٍّ من الاحتمالين، إلاّ أن الاحتمال الأوّل أقرب للنظر كما يبدو!

وهناك سؤال آخر أيضاً، وهو: هل انتقل موسى إلى قصر فرعون بعد إكماله فترة الرضاعة، أم أنّه حافظ على علاقته بأُمّه وعائلته وكان يتردد ما بين القصر وبيته؟!

قال بعضهم: أودع موسى بعد فترة الرضاعة عند فرعون وامرأته، وتربى موسى عندهما، تنقل في هذا الصدد قصص عريضة حول موسى وفرعون، ولكن هذه العبارة التي قالها فرعون لموسى عليه السلام بعد بعثته ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾[٣]، تدل بوضوح على أن موسى عاش في قصر فرعون مدّة، بل مكث هناك سنين طويلة.

ويستفاد من تفسير علي بن إبراهيم أن موسى عليه السلام بقي مع كمال الاحترام في قصر فرعون حتى مرحلة البلوغ، إلاّ أنّ كلامه عن توحيد الله أزعج فرعون بشدّة إلى درجة أنّه

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١١٦.
(٢) تحدثنا عن الجذر اللغوي لمادة «تقرّ عينها» في ذيل الآية «٧٤» من سورة الفرقان - فيراجع هناك.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

صمّم على قتله، فترك موسى القصر ودخل المدينة فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من الأقباط والآخر من الأسباط، فواجه النزاع بنفسه «وسيأتي تفصيل ذلك في شرح الآيات المقبلة إن شاء الله»(١).

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾
وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ
بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

التّفسير

موسى عليه السلام وحماية المظلومين

في هذه الآيات نواجه المرحلة الثّالثة من قصّة موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون، وفيها مسائل تتعلق ببلوغه، وبعض الأحداث التي شاهدها وهو في مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثمّ سبب هجرته إلى مدين.

تقول الآيات في البداية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

كلمة «أشدّ» مشتقّة من مادة «الشدّة» وهي القوّة.

وكلمة «استوى» مشتقة من «الاستواء» ومعناها كمال الخلقة واعتدالها.

وهناك كلام بين المفسّرين في الفرق بين المعنيين:

فقال بعض المفسّرين: المقصود من بلوغ الأشد هو أن يصل الإنسان الكمال من حيث القوى الجسمانية، وغالباً ما يكون في السنة الثامنة عشرة من العمر. أمّا الاستواء فهو الاستقرار والاعتدال في أمر الحياة، وغالباً ما يحصل ذلك بعد الكمال الجسماني.

---

(١) لاحظ تفسير علي بن إبراهيم، ج٢، ص١٣٧، طبقاً لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١١٧.

وقال بعضهم: إنّ المقصود من بلوغ الأشد هو الكمال الجسماني، وأمّا الاستواء فهو الكمال العقلي والفكري.

ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب معاني الأخبار قال: فلمّا بلغ أشدّه واستوى قال: «أشدّه ثماني عشرة سنة واستوى، التحى»[١].

وليس بين هذه التعابير فرق كبير، ومن مجموعها - مع ملاحظة المعنى اللغوي للكلمتين «الأشدّ والاستواء» - يستفاد منهما أنّهما يدلان على التكامل في القوى الجسمية والعقلية والروحية.

ولعل الفرق بين «الحكم» و«العلم» هو أنّ الحكم يراد منه العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح، والعلم يراد به العرفان الذي لا يصحبه الجهل.

أمّا التعبير ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيدل بصورة جليّة على أنّ موسى عليه السلام كان جديراً بهذه المنزلة، نظراً لتقواه وطهارته وأعماله الصالحة، إذ جازاه الله «بالعلم والحكم» وواضح أنّ المراد بالحكم والعلم هنا ليس النبوّة والوحي وما إليهما.. لأنّ موسى عليه السلام يومئذ لم يبعث بعد، وبقي مدّة بعد ذلك حتى بعث نبيّاً.

بل المقصود والمراد من الحكم والعلم هما المعرفة والنظرة الثاقبة والقدرة على القضاء الصحيح وما شابه ذلك، وقد منح الله هذه الأُمور لموسى عليه السلام لطهارته وصدقه وأعماله الصالحة كما ذكرنا آنفاً.

ويفهم من هذا التعبير - إجمالاً - أنّ موسى عليه السلام لم يتأثر بلون المحيط الذي عاشه في قصر فرعون، وكان يسعى إلى تحقيق العدل والحق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.. رغم أنّ جزئيات تلك الأعوام غير واضحة.

وعلى كل حال فإنّ موسى ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾.

فما هي المدينة المذكورة في الآية المتقدمة؟ لا نعرفها على وجه التحقيق.. لكن الاحتمال القوي أنّها عاصمة مصر.. وكما يقول بعض المفسّرين فإنّ موسى عليه السلام على أثر المشاجرات بينه وبين فرعون، ومخالفاته له ولسلطته التي كانت تشتدّ يوماً بعد يوم حتى بلغت أوجها، حُكم عليه بالتبعيد عن العاصمة.. لكنّه برغم ذلك فقد سنحت له فرصة خاصّة والناس غافلون عنه أن يعود إلى المدينة ويدخلها.

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١١٧.

ويحتمل أيضاً، أنّ المقصود دخوله المدينة من جهة قصر فرعون.. لأنّ القصور يومئذ كانت تشاد على أطراف المدينة ليعرف الداخل إليها والخارج منها.

والمقصود من جملة ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ هو الزمن الذي يستريح الناس فيه من أعمالهم، ولا تُراقب المدينة في ذلك الحين بدقّة، ولكن أي حين وأي زمن هو؟!

قال بعضهم: هو أوّل الليل، لأنّ الناس يتركون أعمالهم ويعطلون دكاكينهم ومحلاتهم ابتغاء الراحة والنوم، وجماعة يذهبون للتنزه، وآخرون لأماكن أُخرى.. هذه الساعة هي المعبر عنها بساعة الغفلة في بعض الرّوايات الإسلامية.

وهناك حديث شريف عن النّبي ﷺ في هذا الشأن يقول: «تنفّلوا في ساعة الغفلة ولو بركعتين خفيفتين».

وقد ورد في ذيل هذا الحديث الشريف هذه العبارة «وساعة الغفلة ما بين المغرب والعشاء»[(١)].

والحق أنّ هذه الساعة ساعة غفلة وكثيراً ما تحدث الجنايات والفساد والانحرافات الأخلاقية في مثل هذه الساعة من أوّل الليل.. فلا الناس مشغولون بالكسب والعمل، ولا هم نائمون، بل هي حالة غفلة عمومية تغشى المدينة عادةً، وتنشط مراكز الفساد أيضاً في هذه الساعة.

واحتمل البعض أنّ ساعة الغفلة هي ما بعد نصف النهار، حيث يستريح الناس من أعمالهم استراحة مؤقتة، ولكن التّفسير الأوّل أقرب للنظر كما يبدو.

وعلى كل حال، موسى دخل المدينة، وهنالك واجه مشادّة ونزاعاً، فاقترب من منطقة النزاع ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

والتعبير بـ«شيعته» يدل على أنّ موسى قبل أن يبعث كان له أتباع وأنصار وشيعة من بني إسرائيل، وربّما كان قد اختارهم لمواجهة فرعون وحكومته كنواة أساسية.

فلمّا بصر الإسرائيلي بموسى استصرخه ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

فجاءه موسى عليه السلام لاستنصاره وتخليصه من عدوّه الظالم.. الذي يقال عنه أنّه كان طباخاً في قصر فرعون، وكان يريد من الإسرائيلي أن يحمل معه الحطب إلى القصر،

---

(١) وسائل الشيعة، ج ٥، ص ٢٤٩ [باب ٢٠ من أبواب الصلوات المندوبة].

فضرب موسى هذا العدوّ بقبضة يده القوية على صدره، فهوى إلى الأرض ميتاً في الحال تقول الآية: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾(١).

وممّا لا شك فيه، فإنّ موسى لم يقصد أن يقتل الفرعوني، ويتّضح ذلك من خلال الآيات التالية أيضاً. . ولا يعني ذلك أنّ الفراعنة لم يكونوا يستحقون القتل، ولكن لاحتمال وقوع المشاكل والتبعات المستقبلية على موسى وجماعته.

لذلك فإنّ موسى عليه السلام أسف على هذا الأمر ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

وبتعبير آخر: فإنّ موسى عليه السلام كان يريد أن يبعد الفرعوني عن الرجل الإسرائيلي، وإن كان الفرعونيون يستحقون أكثر من ذلك، لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل، وكما سنرى فإنّ ذلك الأمر دعا موسى عليه السلام إلى أن يخرج من مصر إلى أرض مدين وحرمه من البقاء في مصر.

ثمّ يتحدث القرآن عن موسى عليه السلام فيقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

ومن المسلم به أنّ موسى عليه السلام لم يصدر منه ذنب هنا، بل ترك الأولى، فكان ينبغي عليه أن يحتاط لئلا يقع في مشكلة، ولذلك فإنّه استغفر ربّه وطلب منه العون، فشمله اللطيف الخبير بلطفه.

لذلك فإنّ موسى عليه السلام حين نجا بلطف الله من هذا المأزق ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ من عفوك عني وإنقاذي من يد الأعداء وجميع ما أنعمت علي منذ بداية حياتي لحدّ الآن ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، ومعيناً للظالمين.

بل سأنصر المؤمنين المظلومين، ويريد موسى عليه السلام أن يقول: إنّه لا يكون بعد هذا مع فرعون وجماعته أبداً. . بل سيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين. . ».

واحتمل بعضهم أن يكون المقصود بـ «المجرمين» هو هذا الإسرائيلي الذي نصره موسى، إلاّ أنّ هذا الاحتمال بعيد جدّاً، حسب الظاهر.

---

(١) «وكز» مأخوذ من «الوكز» على زنة «رمز» ومعناه الضرب بقبضة اليد، وهناك معان أُخرى لا تناسب المقام.

بحثان

١ - ألم يكن عمل موسى هذا مخالفاً للعصمة؟

للمفسّرين أبحاث مُذيّلة وطويلة في شأن المشاجرة التي حدثت بين القبطي والإسرائيلي وقتل موسى للقبطي.

وبالطبع فإنّ أصل هذا العمل ليس مسألة مهمّة.. لأنّ الظلمة الأقباط والفراعنة المفسدين الذين قتلوا آلاف الأطفال من بني إسرائيل ولم يحجموا عن أية جريمة ضد بني إسرائيل، لم تكن لهم حرمة عند بني إسرائيل.

إنّما المهم عند علماء التّفسير هو تعبيرات موسى عليه السلام التي ولّدت إشكالات عندهم.

فهو تارة يقول: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

وفي مكان آخر يقول: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فكيف تنسجم أمثال هذه التعابير مع عصمة الأنبياء حتى قبل بعثتهم ورسالتهم.

ولكن هذه الإشكالات تزول بالتوضيح المتقدم في تفسير الآية الآنفة، وهو أنّ ما صدر من موسى عليه السلام هو من قبيل «ترك الأولى» لا أكثر، إذ كان عليه أن يحتاط قبل أن يضرب القبطي، فلم يحتط، فأوقع نفسه في مشاكل جانبية، لأنّ قتل القبطي لم يكن أمراً هيناً حتى يعفو عنه الفراعنة.

ونعرف أن ترك الأُولى لا يعني أنّه عمل حرام ذاتاً، بل يؤدّي إلى ترك عمل أهم وأفضل، دون أن يصدر منه عمل مخالف ومناف لذلك العمل!.

ونظير هذه التعابير ما ورد في بعض قصص الأنبياء من جملتهم أبو البشر آدم عليه السلام التي تقدم شرحه في ذيل الآية (١٩) من سورة الأعراف.

ونقرأ في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في تفسير الآيات المتقدمة: «قال هذا من عمل الشيطان» يعني الاقتتال الذي وقع بين الرجل لا ما فعله موسى عليه السلام من قتله «إنّه» يعني الشيطان «عدوّ مضل مبين» - وأمّا المراد من جملة - ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ يعني أنّ موسى يريد أن يقول وضعت نفسي غير موضعها بدخول هذه المدينة ﴿فَٱغْفِرْ لِي﴾ أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني...»[1]

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج١، ص١٩٨، طبقاً لما ورد في تفسير نور الثقلين، ج٤، ص١١٩.

٢ - دعم المجرمين وإسنادهم من أعظم الآثام

هناك باب مفصل في الفقه الإسلامي فيه أحاديث وافرة تتحدث حول «الإعانة على الإثم» و«معاونة الظلمة» وتدل على أنّ واحداً من أسوأ الآثام إعانة الظالمين والمجرمين، وتكون سبباً لأن يشترك المعين في مصيرهم الأسود.

وأساساً فإنّ الظلمة والمجرمين - أمثال فرعون - في المجتمع أيّاً كان هم أفراد معدودون، وإذا لم يساعد المجتمع هؤلاء لم يكونوا فراعنة، فهؤلاء القلّة المتفرعنون.. إنّما يعتمدون على الناس الضعاف أو الانتهازيين وعبدة الدنيا، الذين يلتفّون حولهم ويكونون لهم أجنحة وأذرعاً، أو على الأقل يكثّرون السواد ليوفروا لهم القدرة الشيطانية.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى هذا الأصل الإسلامي، فنحن نقرأ في الآية الثّانية من سورة المائدة قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

كما أنّ القرآن يصرّح في بعض آياته بالقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾(١).

وسواء كان «الرّكون» هنا بمعنى الميل القلبي، أو بمعنى الإعانة الظاهرية، أو إظهار الرضا والمحبّة، أو طلب الخير لهم.. هذه المعاني التي ذكرها المفسّرون «للركون» يجمعها مفهوم جامع لها، وهو الاتكاء والاعتماد والتعلق وما إلى ذلك، وهذا المفهوم شاهد حي على مقصودنا.

ونقرأ في هذا الصدد حديثاً للإمام علي بن الحسين عليه السلام مع «محمّد بن مسلم الزهري» الذي كان رجلاً عالماً، إلاّ أنّه كان يتعاطف ويتعاون مع الجهاز الأموي ولا سيما مع هشام بن عبد الملك، يحذّره الإمام في حديثه هذا من إعانة الظالمين والركون إليهم، وهو حديث مثير جدّاً.. وقد جاء فيه: «أو ليس بدعائهم إيّاك حين دعوك جعلوك قطباً أداروا بك رحى مظالمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلاياهم، سلّماً إلى ضلالتهم، داعياً إلى غيّهم سالكاً سبيلهم، يدخلون بك الشك على العلماء ويقتادون

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

بك قلوب الجهال إليهم، فما أقل ما أعطوك في قدر ما أخذوا منك، وما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك! فانظر لنفسك فإنّه لا ينظر إليها غيرك، وحاسبها حساب رجل مسؤول»(١).

والحقّ أنّ هذا المنطق البليغ المؤثر للإمام عليه السلام لكل عالم من وعّاظ السلاطين مرتبط بالظالمين راكن إليهم، يمكن أن يبصّره بمصيره المشؤوم عاقبته المخزية.

ويذكر ابن عباس أنّ آية ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ من جملة الآيات التي تؤكّد على أنّ الركون للمجرمين ذنب عظيم، وإعانة المؤمنين إطاعة لأمر الله سبحانه.

قالوا لبعض العلماء: إنّ فلاناً أصبح كاتباً للظالم الفلاني، ولا يكتب له إلاّ الدخل والخرج. وحياته وحياة عائلته مرهونة بما يحصل عليه من مال لقاء هذا العمل، وإلاّ فسيقع هو وأسرته في فقر مدقع.

فكان جواب هذا العالم: أمّا سمع قول العبد الصالح «موسى» ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾(٢).

﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾

(١) تحف العقول، ص ٢٧٥.
(٢) كان لنا بحثان مستوفيان في مجال إعانة الظالمين في ذيل الآية (٢) من سورة المائدة وذيل الآية (١١٣) من سورة هود، فلا بأس بمراجعتهما.

التفسير

موسى يتوجّه إلى مدين خُفيةً

نواجه في هذه الآيات المقطع الرّابع من هذه القصّة ذات المحتوى الكبير.

حيث إنّ مقتل الفرعوني في مصر انتشر بسرعة، والقرائن المتعددة تدلّ على أنّ القاتل من بني إسرائيل، ولعل اسم موسى عليه السلام كان مذكوراً من بين بني إسرائيل المشتبه فيهم.

وبالطبع فإنّ هذا القتل لم يكن قتلاً عادياً، بل كان يعدّ شرارة لانفجار ثورة مقدمة للثورة.. ولا شك أنّ جهاز الحكومة لا يستطيع تجاوز هذه الحالة ببساطة ليعرّض أرواح الفرعونيين للقتل على أيدي عبيدهم من بني إسرائيل.

لذلك يقول القرآن في بداية هذا المقطع: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[(١)].

وهو على حال من الترقب والحذر، فوجىء في اليوم التالي بالرجل الإسرائيلي الذي آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبطي آخر وطلب من موسى أن ينصره ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾[(٢)].

ولكن موسى تعجب منه واستنكر فعله و﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ إذ تحدث كل يوم نزاعات ومشادات مع الآخرين، وتخلق مشاكل ليس أوانها الآن، إذ نحن نتوقع أن تصيبنا تبعات ما جرى بالأمس، وأنت اليوم في صراع جديد أيضاً!!

ولكنّه كان على كل حال مظلوماً في قبضة الظالمين (وسواء كان مقصراً في المقدمات أم لا) فعلى موسى عليه السلام أن يعينه وينصره ولا يتركه وحيداً في الميدان، فلمّا أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما صاح ذلك القبطي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ ويبدو من عملك هذا أنّك لست إنساناً منصفاً ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾[(٣)].

---

(١) كلمة «يترقب» مأخوذة من «الترقب»، ومعناه الانتظار، وموسى هنا في انتظار نتائج هذه الحادثة، ومحل الجملة إعراباً - خبر بعد خبر، وإن قيل إنّها حال، إلاّ أنّ هذا القول ضعيف.

(٢) كلمة «يستصرخ» مشتقة من مادة «الاستصراخ»، ومعناها الاستغاثة، ولكنّها في الأصل تعني الصياح أو طلب الصياح من الآخر، وهذا عادةً ملازم للإعانة.

(٣) يعتقد جماعة من المفسّرين أنّ هذه الجملة قالها الإسرائيلي لموسى، لأنّه ظن أنّ موسى يريد قتله، ولكن القرائن الكثيرة في الآية تنفي هذا الاحتمال!

وهذه العبارة تدلّ بوضوح على أنّ موسى عليه السلام كان في نيّته الإصلاح من قبل، سواءً في قصر فرعون أو خارجه، ونقرأ في بعض الرّوايات أنّ موسى عليه السلام كانت له مشادات كلامية مع فرعون في هذا الصدد، لذا فإن القبطي يقول لموسى: أنت كل يوم تريد أن تقتل إنساناً، فأيّ إصلاح هذا الذي تريده أنت؟! في حين أنّ موسى عليه السلام لو كان يقتل هذا الجبار، لكان يخطو خطوة أُخرى في طريق الإصلاح..

وعلى كل حال فإنّ موسى التفت إلى أن ما حدث بالأمس قد انتشر خبره، ومن أجل أن لا تتسع دائرة المشاكل لموسى فإنّه أمسك عن قتل الفرعوني في هذا اليوم.

ومن جهة أُخرى فإنّ الأخبار وصلت إلى قصر فرعون فأحسّ فرعون ومن معه في القصر أنّ تكرار مثل هذه الحوادث ينذره بالخطر، فعقد جلسة شورى مع وزرائه وانتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسى، وكان في القصر رجل له علاقة بموسى فمضى إليه وأخبره بالمؤامرة.. وكما يقول القرآن الكريم: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾.

ويبدو أنّ هذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذي كان يكتم إيمانه ويدعى «حزقيل» وكان من أسرة فرعون، وكانت علاقته بفرعون وثيقة بحيث يشترك معه في مثل هذه الجلسات.

وكان هذا الرجل متألماً من جرائم فرعون، وينتظر أن تقوم ثورة «إلهيّة» ضده فيشترك معها.

ويبدو أنّه كان له أمل كبير بموسى عليه السلام إذ كان يتوسم في وجهه رجلاً ربّانياً صالحاً ثوريّاً، ولذلك فحين أحسّ بأنّ الخطر محدق بموسى أوصل نفسه بسرعة إليه وأنقذه من مخالب الخطر، وسنرى بعدئذ أنّ هذا الرجل لم يكن في هذا الموقف فحسب سنداً وظهيراً لموسى، بل كان يعدّ عيناً لبني إسرائيل في قصر فرعون في كثير من المواقف والأحداث.

أمّا موسى عليه السلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجدّية وقبل نصحه ووصيته في مغادرة المدينة ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.

وتضرع إلى الله بإخلاص وصفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

فأنا أعلم يا ربّ أنّهم ظلمة ولا يرحمون، وقد نهضت - دفاعاً عن المحرومين - بوجه الظالمين، ولم آل جهداً ووسعاً في ردع الأشرار عن الإضرار بالطيبين، فأسألك - يا ربّي العظيم - أن تدفع عنّي أذاهم وشرّهم.

ثمّ قرر موسى عليه السلام أن يتوجه إلى مدينة «مدين» التي كانت تقع جنوب الشام وشمال الحجاز، وكانت بعيدة عن سيطرة مصر والفراعنة.. ولكنه شاب تربّى في نعمة ورفاه ويتّجه إلى سفر لم يسبق له في عمره أن يسافر إليه، فلا زاد ولا متاع ولا صديق ولا راحلة ولا دليل، وكان قلقاً خائفاً على نفسه، فلعل أصحاب فرعون سيدركونه قبل أن يصل إلى هدفه «مدين» ويأسرونه ثمّ يقتلونه.. فلا عجب أن يظل مضطرب البال!

أجل، إنّ على موسى عليه السلام أن يجتاز مرحلة صعبة جدّاً، وأن يتخلص من الفخ الذي ضربه فرعون وجماعته حوله ليصطادوه، ليستقرّ أخيراً إلى جانب المستضعفين ويشاطرهم آلامهم بأحاسيسه وعواطفه، وأن يتهيأ لنهضة إلهية لصالحهم وضد المستكبرين.

إلاّ أنّه كان لديه في هذا الطريق وعواطفه رأس مال كبير وكثير لا ينفد أبداً، وهو الإيمان بالله والتوكل عليه، لذا لم يكترث بأي شيء وواصل السير.. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[1].

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

---

(١) «تلقاء» مصدر أو اسم مكان، ومعناه هنا: الجهة والصواب الذي قصده.

التّفسير

عملٌ صالح يفتح لموسى أبواب الخير

نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصّة، وهي قضيّة ورود موسى عليه السلام إلى مدينة مدين.

هذا الشاب الطاهر الذي لا يغش أحداً أمضى عدّة أيّام في الطريق، الطريق التي لم يتعود المسير فيها من قبل أبداً، ولم يكن له بها معرفة، وكما يقول بعضهم: اضطر موسى إلى أن يمشي في هذا الطريق حافياً، وقيل: إنّه قطع الطريق في ثمانية أيّام، حتى لقي ما لقي من النصب والتعب، وورمت قدماه من كثرة المشي.

وكان يقتات من نبات الأرض وأوراق الشجر دفعاً لجوعه، وليس له أمام مشاكل الطريق وأتعابه إلاّ قلبه المطمئن بلطف الله الذي خلّصه من مخالب الفراعنة.

وبدأت معالم «مدين» تلوح له من بعيد شيئاً فشيئاً، وأخذ قلبه يهدأ ويأنس لاقترابه من المدينة، ولما اقترب ثمّ عرف بسرعة أنّهم أصحاب أغنام وأنعام يجتمعون حول الآبار ليسقوا أنعامهم وأغنامهم.

يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾(١).

فحركه هذا المشهد... حفنة من الشبان الغلاظ يملأون الماء ويسقون الأغنام، ولا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم.. بينما هناك امرأتان تجلسان في زاوية بعيدة عنهم، وعليهم آثار العفّة والشرف، جاء إليهما موسى عليه السلام ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾(٢).

وَلِمَ لا تتقدمان وتسقيان الأغنام؟!

لم يرق لموسى عليه السلام أن يرى هذا الظلم، وعدم العدالة وعدم رعاية المظلومين، وهو يريد أن يدخل مدينة مدين، فلم يتحمل ذلك كله، فهو المدافع عن المحرومين ومن أجلهم ضرب قصر فرعون ونعمته عرض الحائط وخرج من وطنه، فهو لا يستطيع أن

---

(١) ﴿تَذُودَانِ﴾ مشتقة من «ذود» على زنة «زرد» ومعناها المنع، فهما إذاً كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الأُخرى.

(٢) ما خطبكما: أي ما شأنكما وما شغلكما هنا؟!

يترك طريقته وسيرته وأن يسكت أمام الجائرين الذين لا ينصفون المظلوم!..

فقالت البنتان: إنّهما تنتظران تفرق الناس وأن يسقي هؤلاء الرعاة أغنامهم: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾(١).

ومن أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضي بإرسال بناته للسقي مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فلا هو يستطيع أن يسقي الأغنام، وليس عندنا أخ يعينه على الأمر فلا حيلة لنا إلاّ أن نؤدّي نحن هذا الدور.

فتأثر موسى عليه السلام من سماعه حديثهما بشدّة، فأي أناس هؤلاء لا ينصفون المظلوم، ولا هم لهم غير أنفسهم.

فتقدم وأخذ الدلو وألقاها في البئر.. يقال: إنّ هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلاّ أنّ موسى عليه السلام استخرجها بقوته وشكيمته وهمّته بنفسه دون أن يعينه أحد ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أغنامهما.

ويقال: إنّ موسى عليه السلام حين اقترب من البئر لام الرعاء، قال: أي أناس أنتم لا همّ لكم إلاّ أنفسكم! وهاتان البنتان جالستان؟! ففسحوا له المجال وقالوا له: هلمّ واملأ الدلو، وكانوا يعلمون أن هذه الدلو حين تمتلىء لا يستخرجها إلاّ عشرة أنفار من البئر.

ولكن موسى عليه السلام بالرغم من تعب السير في الطريق والجوع ملأ الدلو وسحبها بنفسه وسقى أغنام المرأتان جميعها.. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أجل.. إنّه متعب وجائع، ولا أحد يعرفه في هذه المدينة، فهو غريب، وفي الوقت ذاته كان مؤدباً وإذا دعا الله فلا يقول: ربّ إنّي أريد كذا وكذا، بل يقول: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي إنّه يكشف عن حاجته فحسب، ويترك الباقي إلى لطف الله سبحانه.

لكن هلمّ إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود! وكم له من بركات عجيبة! خطوة نحو الله ملءُ دلو من أجل إنصاف المظلومين، فتح لموسى فصلاً جديداً، وهيأ له من عالم عجيب من البركات المادية والمعنوية.. ووجد ضالته التي ينبغي أن يبحث عنها سنين طوالاً.

---

(١) «يصدر» مأخوذ من مادة «صدر» ومعناه الخروج من الماء، «والرعاء» جمع راع، وهو سائس الغنم.

وبداية هذا الفصل عندما جاءته إحدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء والعفة ويظهر منها أنّها تستحي من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتا عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ فلم تزد على أن ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

فلمع في قلبه إشراقٌ من الأمل، وكأنّه أحس بأنّ واقعة مهمّة تنتظره وسيواجه رجلاً كبيراً!.. رجلاً عارفاً بالحق وغير مستعد أن يترك أي عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه، هذا الرجل ينبغي أن يكون إنساناً نموذجياً ورجلاً سماوياً وإلهيّاً.. ربّاه.. ما أروعها من فرصة.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب» النّبي الذي كان يدعو الناس لسنين طوال نحو الله، كان مثلاً لمن يعرف الحق ويطلب الحق، واليوم إذ تعود بنتاه بسرعة يبحث عن السبب، وحين يعرف الأمر يقرر أن يؤدّي ما عليه من الحق لهذا الشاب كائناً من كان.

تحرك موسى عليه السلام ووصل منزل شعيب، وطبقاً لبعض الروايات، فإنّ البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلاّ أنّ الهواء كان يحرّك ثيابها وربّما انكشف ثوبها عنها، ولكن موسى لما عنده من عفّة وحياء طلب منها أن تمشي خلفه وأن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله وتخبره من أي طريق يمضي إلى دار أبيها شعيب[1]:

دخل موسى عليه السلام منزل شعيب عليه السلام، المنزل الذي يسطع منه نور النبوّة.. وتشع فيه الروحانية من كل مكان.. وإذا شيخ وقور يجلس ناحيةً من المنزل يرحب بقدوم موسى عليه السلام، ويسأله:

من أين جئت؟! وما عملك؟! وما تصنع في هذه المدينة. وما مرادك وهدفك هنا؟!

ولِمَ أراك وحيداً؟!

وأسئلة من هذا القبيل..

يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فأرضنا بعيدة عن سيطرتهم وسطوتهم ولا تصل أيديهم إلينا، فلا تقلق ولا تشعر نفسك الوحشة، فأنت في مكان آمن ولا تفكر بالغربة، فكل شيء بلطف الله سيتيسر لك!..

---

(١) انظر: تفسير أبي الفتوح الرازي ذيل الآيات مورد البحث.

فالتفت موسى إلى أنّه وجد أستاذاً عظيماً. . تنبع من جوانبه عيون العلم والمعرفة والتقوى، وتغمر وجوده الروحانيّة. . ويمكن أن يروي ظمأه منه.

كما أحسّ شعيب أنّه عثر على تلميذ جدير ولائق، وفيه استعداد لأن يتلقى علومه وينقل إليه تجارب العمر!

أجل. . كما أنّ موسى شعر باللذة حين وجد أستاذاً عظيماً. . . كذلك أحس شعيب بالفرح والسرور حين عثر على تلميذ مثل موسى.

بحثان

١ - أين كانت مدين؟!

«مدين»: اسم مدينة كان يقطنها «شعيب» وقبيلته، هذه المدينة كانت تقع في شرق خليج العقبة [وشمال الحجاز وجنوب الشامات] وأهلها من أبناء إسماعيل «الذبيح» ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت لهم تجارة مع مصر وفلسطين ولبنان.

أمّا اليوم فيطلق على «مدين» اسم «معان».

كما أنّ بعضاً من المفسّرين يعتقدون أنّ مدين اسم لجماعة كانت تعيش ما بين خليج العقبة وجبل سينا المعروف بطور سيناء، وجاء اسمها في التوراة بـ«مديان» أيضاً[(١)].

كما يرى البعض: إنّ أساس تسمية هذه المدينة «بمدين» هو لأنّ أحد أبناء إبراهيم الخليل اسمه «مدين» كان يعيش في هذه المدينة[(٢)].

وفي الوقت الحاضر يبدو في الخرائط الجغرافية للأردن أنّ إحدى مدنها في الجنوب الغربي منها، واسمها «معان» تحمل الأوصاف ذاتها التي كانت في مدين. . وتنطبق عليها تماماً.

٢ - دروس كثيرة توحي بالعبر

في هذا القسم من قصّة موسى عليه السلام دروس كثيرة توحي بالعبر:

أ - إنّ أنبياء الله هم حماة المظلومين دائماً، فموسى سواءً كان في مصر أو كان في مدين كان يسيئهُ أن يرى ظلماً وتجاوزاً على حقوق الآخرين، وكان ينهض لنصرة المظلوم. . ولِمَ لا يكون كذلك، وأحد أهداف بعثة الأنبياء نصرة المظلوم.

---

(١) راجع أعلام القرآن، ص ٥٧٢.

(٢) راجع تفسير روح المعاني، ج ٢٠، ص ٥١.

ب - أداء عمل صغير لله له بركات كثيرة!

لم يفعل موسى سوى أنّه جلب دلواً من الماء وسقى الأغنام للبنتين، ولم يكن له هدف سوى مرضاة الله الخالق سبحانه!

ولكن كم كان لهذا العمل الصغير من خير وبركة؟! لأنّه صار سبباً لأن يصل إلى منزل شعيب نبي الله، وأن يتخلّص من الغربة، وأن يجد مأوى يطمئن إليه، وصار من نصيبه الأكل الهنيء والثياب والزوجة الصالحة، وأهم من كل ذلك.. إنّه وصل إلى شعيب، ذلك الشيخ الكبير الذي يتمتع بضمير حي وله دين سماوي، فعاش معه عشر سنين وأصبح مهيأً لقيادة الأُمة في ذلك الوقت..

ج - إنّ رجال الله لا يتركون أي عمل سدىً - وخاصّة ما يعمله المخلصون - دون أن يؤدوا أجره.. ولهذا السبب فإنّ شعيباً حين بلغه ما قدمه موسى عليه السلام من عمل - وهو شاب لم يكن معروفاً هناك - لم يقرّ حتى أرسل خلفه ليعطيه أجره.

د - وهذه المسألة تثير الانتباه، وهي أنّ موسى كان يذكر الله دائماً، ويطلب منه العون في كل أمر، يوكل حل مشاكله إليه.

فحين قتل القبطي وعرف أنّه «ترك الأولى» استغفر ربّه فوراً و﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾.

وحين خرج من مصر سأل الله أن يحفظه و﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وحين وصل أرض مدين ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

وحين سقى أغنام «شعيب» وتولى إلى الظل دعا ربّه و﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

وهذا الدعاء الأخير - خاصة - الذي دعا به في وقت تحوط فيه الأزمات وهو في أشدّ الحاجات، دعا به وهو في غاية التأدب والخشوع، ولم يسأل الله أن يحقق له ما يحتاج، بل سأل المزيد وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

هـ - لا ينبغي التصور أنّ موسى عليه السلام إنّما كان يذكر الله في الشدائد فحسب، فهو لم ينس ذكر الله حتى حين كان في نعمة ورفاهية من العيش، إذ كان يعيش في قصر فرعون - لذلك ورد في الرّوايات.. «فلما درج موسى كان يوماً عند فرعون فعطس موسى فقال: الحمد لله ربّ العالمين، فأنكر فرعون ذلك عليه ولطمه وقال: ما هذا الذي تقول؟ فوثب موسى على لحيته - وكان طويل اللحية - فهلبها أي قلعها، فآلمه ألماً

شديداً، فهمّ فرعون بقتله فقالت له امرأته، هذا غلام حدث لا يدري ما يقول وقد لطمته بلطمتك إيّاه إيّاك. فقال فرعون: بلى يدري...» الخ[(١)].

﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾
قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ
أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا
عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾

التّفسير

موسى في دار شعيب

هذا هو المقطع السادس من قصّة حياة موسى عليه السلام المثيرة، جاء موسى إلى منزل شعيب، منزل قرويّ بسيط، منزل نظيف ومليء بالروحيّة العالية، وبعد أن قصّ عليه قصّته، بادرت إحدى بنتي شعيب بالقول - وبعبارة موجزة -: إنّني أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام ورعايتها: و﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

هذه البنت التي تربّت في حجر النّبي الكبير، ينبغي أن تتحدث بمثل هذا الحديث الوجيز الكريم، وأن تؤدّي الكلام حقّه بأقلّ العبارات.

تُرى من أين عرفت هذه البنت أنّ هذا الشاب قويٌّ وأمين أيضاً؟ مع أنّها لم تره إلاّ لأوّل مرّة على البئر، ولم تتّضح لها سوابق حياته!

والجواب على هذا السؤال واضح وجليّ... إذ لاحظت قوته وهو يُنحيّ الرعاء عن البئر ويملأ القربة الثقيلة لوحده ويطالب بحق المظلوم، وأمّا أمانته وصدقه فقد اتّضحا لها منذ أن سارت أمامه إلى بيت أبيها، فطلب منها أن تتأخر ويتقدمها، لئلا تضرب الريح ثيابها!.

أضف إلى ذلك... من خلال نقله قصته لشعيب فقد اتّضحت قوته في دفعه القبطي

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١١٧.

عن الإسرائيلي وقتله إيّاه بضربة واحدة... وأمانته وصدقه... في عدم مساومته الجبابرة.

فرضي شعيب عليه السلام باقتراح ابنته، وتوجه إلى موسى و﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ ثمّ أضاف قائلاً: ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾[1].

وعلى كل حال، فلا أريد إيذاءك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

فأنّا ألتزم بالعهد والميثاق وأفي بما نتعاقد عليه، ولا أشدّد عليك في الأمور، وأتعامل معك معاملة حسنة وصالحة... إن شاء الله.

ومن خلال هذا الاقتراح هناك أسئلة كثيرة حول الزواج من ابنة شعيب والمهر وسائر الخصوصيات، وسنبحث عنها في البحوث القادمة إن شاء الله.

واستجابة لهذا القرار والعقد الذي أنشأه شعيب مع موسى... وافق موسى و﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾.

ثمّ أردف مضيفاً بالقول: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ أي سواءً قضيت عشر سنين أو ثماني سنين «حجج» فلا عدوان عليّ.

ومن أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السلام الله كفيلاً وقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾!.

وبهذه البساطة أصبح موسى صهراً لشعيب على ابنته.

بحوث

١ - شرطان أساسيان للإدارة الصحيحة

في العبارة القصيرة التي وردت في الآيات المتقدمة على لسان بنت شعيب في شأن استئجار موسى، كان من أهم الشروط وأكثرها أصالةً شرطان لخصا في «القوّة» و«الأمانة».

---

(١) هذا المضمون نفسه ورد في رواية منقولة في تفسير علي بن إبراهيم، فقال لها شعيب: أمّا قوته فقد عرفتيه أنّه يستقي الدلو وحده، فبم عرفت أمانته؟ فقالت: «إنّه لمّا قال لي تأخري عنّي ودليني على الطريق فإنّا من قوم لا ينظرون في أدبار النساء عرفت أنّه ليس من الذين ينظرون أعجاز النساء فهذه أمانته».

ومن البديهي أنّ القوّة المذكورة - آنفاً - ليس المراد منها قوّة الجسم فحسب، بل القدرة على تحمّل المسؤولية أيضاً.

فالطبيب «القوي الأمين» هو الطبيب الذي له معرفة جيدة وكافية في عمله، وله تسلّط عليه أيضاً.

والمدير القوي هو الذي يعرف «أُصول الإدارة» ويعرف الأهداف المطلوبة.. وله تسلط في وضع الخطط و«البرامج»، وله سهم وافر في الابتكار وتنظيم الأعمال.. ويعبي القوى في سبيل الوصول للهدف المعين.

وفي الوقت ذاته يكون مشفقاً وناصحاً وأميناً وصادقاً في العمل.

والأشخاص الذين يقنعون في تحمل المسؤولية وجود الأمانة والطهارة فحسب، هم مخطئون بمقدار خطأ من يعتمد على سمة التخصص والعلم فحسب.

فالمتخصصون الخونة والعلماء المنحرفون يضربون ضربتهم كما يضربها المخلصون الذين لاحظ لهم من الاطلاع والمهارة في العمل.

وإذا أردنا أن نخرّب دولة ما فينبغي أن نوكل الأُمور إلى إحدى هاتين الطائفتين.. إلى مدراء خائنين لـ «الأمانة»، إلى المخلصين الذين لاحظ لهم من العلم والإدارة والنتيجة واحدة.

إنّ منطق الإسلام هو أن يوكل كل عمل إلى شخص قوي أمين مقتدر، ليصل نظام المجتمع إلى الكمال، وإذا ما تأمّلنا في سبب زوال الحكومات في طول التاريخ، وفكّرنا في الأمر، وجدنا العامل الأصلي هو إيكال الأمر إلى إحدى هاتين الطائفتين اللتين تكلمنا عنهما آنفاً.

ومن الطريف أنّ منهج الإسلام في جميع الأُمور أنّه يقرن «العلم مع التقوى» جنباً إلى جنب.

فمرجع التقليد لابدّ أن يكون «مجتهداً عادلاً» والقاضي وكذلك القائد يجب أن يكون «مجتهداً عادلاً».. وبالطبع فإن شروطاً أُخرى ينبغي توفرها أيضاً، ولكن أساس هذه الشروط جميعاً شرطان هما «العلم المقترن بالتقوى والعدل».

٢ - اسئلة عن زواج موسى من بنت شعيب!

ذكرنا - آنفاً - أنّ الآيات المتقدمة تحمل بين ثناياها أسئلة متعددة، وعلينا أن نجيب عليها ولو باختصار:

أ - هل يجوز من الناحية الشرعية والفقهية، أن تكون الزوجة غير معلومة، بل يقال عند إجراء صيغة العقد «أزوّجك إحدى البنتين مثلاً»؟...

والجواب: ليس من المعلوم أنّ العبارة السابقة ﴿أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَـٰتَيْنِ﴾ ذكرت عند إجراء صيغة العقد... بل الظاهر أنّه جرى كلام ومقدمات للعقد والزواج، وبعد موافقة موسى على الزواج، ثمّ تجري صيغة العقد على واحدة بعينها.

ب - هل يمكن أن يكون المهر مجهولاً، أو مردداً بين النقصان والتمام؟!

والجواب: يفهم من لغة الآية أنّ المهر الواقعي كان ثماني سنوات خدمة.. أمّا السنتان الأخريان فموكلتان لرغبة موسى، إن شاء أدّاهما، وإلاّ فلا!

ج - وهل يجوز أساساً أن يكون المهر «خدمة وعملاً»؟!

وكيف يمكن الزواج من امرأة على هذا المهر والدخول بها، والمهر بعد لم يتمّ، ولا يمكن إتمامه في مكان واحد!

والجواب: إنّه لا دليل على عدم جواز مثل هذا المهر، بل إطلاقات الأدلة على المهر في شريعتنا - أيضاً - تشمل كل شيء ذي قيمة!

كما أنّه لا يلزم أداء المهر في مكان واحد، بل يكفي أن يكون في ذمّة الرجل، والمرأة مالكة له.

وأصل السلامة والاستصحاب يقضيان أنّ هذا الرجل يحيا مدّةً ويستطيع أداء هذا المهر.

د - أساساً كيف يمكن جعل الخدمة للأب مهراً للبنت؟! فهل المرأة بضاعة تباع في مقابل الخدمة[1]؟!..

والجواب: لا شكّ أن شعيباً كان يحرز رضا ابنته على مثل هذا المهر، ولديه وكالة منها على هذا العقد، وبتعبير آخر: إنّ المالك الأصلي لما في ذمّة موسى، هي زوجته «بنت شعيب».

ولكن... حيث إنّهم كانوا يعيشون في بيت واحد وفي غاية الصفاء والنقاء، ولم

---

(١) قال المحقق الحلي في الشرائع «يصح العقد على منفعة كتعليم الصنعة والسورة من القرآن وكل عمل محلل، وعلى إجارة الزوج نفسه مدّة معينة» ويضيف الفقيه الكبير الشيخ محمّد حسن صاحب الجواهر بعد ذكر تلك العبارة قوله: «وفاقاً للمشهور» (جواهر الكلام، ج ٣١، ص ٤).

تكن بينهم فرقة وانفصال «كما هي الحال بالنسبة إلى كثير من الأسر القروية القديمة التي تبدو حياتها منسجمة تمام الانسجام» فلم تكن هذه المسألة - مسألة أداء الدين - محل بحث ولا كيف يوفّى المهر.

المهم هنا أن المالك للمهر البنت وحدها لا الأب، والخدمات التي قدمها موسى كانت في هذا السبيل أيضاً.

هـ - كان مهر بنت شعيب مهراً ثقيلاً نسبياً - لأنّنا إذا أردنا أن نلاحظ أجرة العامل العادي خلال شهر ثمّ خلال سنة، وبعدئذ نضاعف ذلك الأجر إلى ثماني مرات فسيكون مبلغاً كثيراً جدّاً.

الجواب: أولاً لم يكن هذ ا الزواج زواجاً بسيطاً، بل كان مقدمة لبقاء موسى عند «شعيب» متبعاً شاكلته ومذهبه، ومقدمة لأن يدرس موسى عليه السلام في جامعة علمية كبرى خلال هذه الفترة الطويلة، والله العالم كم تعلم موسى من «شيخ مدين» في هذه المدّة من أُمور؟!

ثمّ بعد ذلك كله، لو قلنا: إنّ هذه المدة الطويلة كان يقضيها موسى في خدمة شعيب، ففي مقابل ذلك سيؤمن له شعيب مصروفه ونفقات زوجه من هذا الطريق أيضاً.. فإذا جردنا مصروف موسى ونفقاته من أجرة عمله لم يكن المهر غالياً - بل سيبقى مبلغاً زهيداً وخفيفاً!

٣ - يستفاد ضمناً من هذه القصّة أنّ ما يشيع في عصرنا من أنّ اقتراح الأب على اختيار البعل لابنته أمر مصيب، لا مانع منه وليس معيباً، فإذا وجد الأب شخصاً لائقاً وجديراً، فله الحق أن يقترح عليه الزواج من ابنته، كما فعل شعيب عليه السلام مع موسى في شأن ابنته عليه السلام والزواج منها.

٤ - اسما ابنتي شعيب: واحدة «صفورة» أو «صفورا» وهي التي تزوجت من موسى عليه السلام، أمّا الثّانية فاسمها «ليا»[1].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى

(١) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤٩.

ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾
وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ
أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ
مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ
مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

التّفسير

الشّرارة الأولى للوحي

نصل الآن - إلى المقطع السابع - من هذه القصّة. .

لا يعلم أحد - بدّقة - ما جرى على موسى في سنواته العشر مع شعيب[1]، ولاشكّ أنّ هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السلام سنوات عذبة هادئة، سنوات هيأته للمسؤولية الكبرى.

في الحقيقة كان من الضروري أن يقطع موسى عليه السلام مرحلة عشر سنين من عمره في الغربة إلى جانب النّبي العظيم شعيب، وأن يكون راعياً لغنمه؛ ليغسل نفسه ممّا تطبّعت عليه من قبل أو ما قد أثرت عليه حياة القصر من خلق وسجية.

كان على موسى عليه السلام أن يعيش إلى جوار سكنة الأكواخ فترةً ليعرف همومهم وآلامهم، وأن يتهيأ لمواجهة سكنة القصور.

ومن جهة أُخرى كان موسى بحاجة إلى زمن طويل ليفكر في أسرار الخلق وعالم

(١) يظهر من الرّوايات الإسلامية أنّ موسى عليه السلام عمل مع شعيب عشر سنوات، وهذا الموضوع موجود في كتاب وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٤ (كتاب النكاح. . أبواب المهور. الباب ٢٢ - الحديث الرابع).

الوجود وبناء شخصيته. فأيُّ مكان أفضل له من صحراء مدين، وأفضل من بيت شعيب؟!.

إنّ مسؤولية نبي من أولي العزم، ليست بسيطة حتى يمكن لكل فرد أن يتحملها، بل يمكن أن يقال: إنّ مسؤولية موسى عليه السلام - بعد مسؤولية النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم - من بين الأنبياء جميعاً، كانت أثقل وأهم، بالنظر لمواجهته الجبابرة على الأرض، وتخليص أمّة من أسرهم، وغسل آثار الأسر الثقافي من أدمغتهم.

نقرأ في «التوراة» وفي بعض الروايات الإسلامية - أيضاً - أنّ شعيباً قرر تكريماً لأتعاب موسى وجهوده معه أن يهب له ما تلده الأغنام في علائم خاصة، فاتفق أن ولدت جميع الأغنام أو أغلبها - في السنة الذي ودّع فيها موسى شعيباً - أولادها بتلك العلائم التي قررها شعيب(١)، وقدمها شعيب مع كامل الرغبة إلى موسى.

ومن البديهي أنّ موسى عليه السلام لا يقنع في قضاء جميع عمره برعي الغنم، وإن كان وجود «شعيب» إلى جانبه يعدّ غنيمة كبرى.

فعليه أن ينهض إلى نصرة قومه، وأن يخلصهم من قيود الأسر، وينقذهم من حالة الجهل وعدم المعرفة.

وعليه أن ينهي وجود الظلمة وحكام الجور في مصر، وأن يحطّم الأصنام، وأن يجد المظلومون العزة بالله معه، هذا الإحساس كان يدفع موسى للسفر إلى قومه.

وأخيراً جمع موسى أثاثه ومتاعه وأغنامه وتهيأ للسفر.

ويستفاد ضمناً من التعبير بـ«الأهل» التي وردت في آيات كثيرة في القرآن أنّ موسى عليه السلام كان عنده هناك غير زوجته ولدٌ أو أولاد، كما تؤيد الرّوايات الإسلامية هذا المضمون، وكما صرّح بهذا المعنى في «التوراة» في سفر الخروج، وإضافةً إلى كل ذلك فإنّ زوجته كانت حاملاً أيضاً.

وعند عودته من مدين إلى وطنه أضاع الطريق، ولئلا يقع أسيراً بيد الظلمة من أهل الشام اختار طريقاً غير مطروق.

وعلى كل حال فإنّ القرآن يقول في أوّل من آية هذا المقطع: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ ثمّ التفت إلى أهله و﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ

(١) راجع أعلام القرآن، ص ٤٠٩.

نَارًا لَعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أي (تتدفؤون).

«آنست»: مشتقّة من مادة «إيناس» ومعناها المشاهدة والرؤية المقترنة بالهدوء والراحة.

«جذوة» هي القطعة من النّار، وقال بعضهم: بل هي القطعة الكبيرة من الحطب.

ويستفاد من قوله ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ أنّه كان أضاع الطريق، كما يستفاد من جملة ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أن الوقت كان ليلاً بارداً.

ولم يرد في الآية كلامٌ عن حالة زوجة موسى، ولكن المشهور أنّها كانت حاملاً - كما في كثير من التفاسير والرّوايات - وكانت تلك اللحظة قد أحسّت بالطلق وألم الولادة.. وكان موسى قلقاً لحالها أيضاً.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أي أتى النّار التي آنسها ورآها، وجدها ناراً لا كمثل النيران الأُخر فهي غير مقترنة بالحرارة والحريق، بل هي قطعة من النور والصفاء، فتعجب موسى من ذلك ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

«الشاطىء» معناه الساحل.

و«الوادي» معناه الطريق بين الجبلين، أو ممر السيول.

و«الأيمن» مشتق من «اليمين» خلاف اليسار، وهو صفة للوادي.

و«البقعة» القطعة من الأرض المعروفة الأطراف.

ولا شك أنّ الله سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتية في كل شيء، فأوجد في الوادي شجرة ليكلّم موسى... وموسى بشر له جسم وأذنان ولابدّ له ليسمع الكلام من أمواج صوتية... وطبيعي أنّ كثيراً من الأنبياء كان الوحي بالنسبة لهم إلهاماً داخلياً، وأحياناً يرون ما يوحى إليهم في «النومد» كما كان الوحي يأتيهم. أحياناً - عن طريق سماع الأمواج الصوتية.

وعلى كل حال فلا مجال للتوهم بأنّ الله جسم، تعالى الله عن ذلك.

وفي بعض الرّوايات ورد أن موسى عليه السلام حين اقترب من النّار، دقق النظر فلاحظ أنّ النّار تخرج من غصن أخضر وتضيء وتزداد لحظة بعد لحظة وتبدو أجمل، فانحنى موسى وفي يده غصن يابس ليوقده من النّار، فجاءت النّار من ذلك الغصن الأخضر إليه فاستوحش ورجع إلى الوراء... ثمّ رجع إليها ليأخذ منها قبساً فأتته ثانية... وهكذا

مرّة يتجه بنفسه إليها ومرّة تتجه النّار إليه، وإذا النداء والبشارة بالوحي إليه من قبل الله سبحانه.

ومن هنا ومع ملاحظة قرائن لا تقبل الإنكار اتّضح لموسى عليه السلام أنّ هذا النداء هو نداء إلهي لا غير.

ومع الالتفات إلى أنّ موسى عليه السلام سيتحمل مسؤولية عظيمة وثقيلة.. فينبغي أن تكون عنده معاجز عظيمة من قبل الله تعالى مناسبة لمقامه النبوي، وقد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز:

الأول قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

ويوم اختار موسى عليه السلام هذه العصا ليتوكأ عليها للاستراحة، ويهشُّ بها على غنمه، ويرمي لها بهذه العصا أوراق الأشجار، لم يكن يعتقد أنّ في داخلها هذه القدرة العظيمة المودعة من قبل الله. وأنّ هذه العصا البسيطة ستهز قصور الظالمين، وهكذا هي موجودات العالم، نتصور أنّها لا شيء، لكن لها استعدادات عظيمة مودعة في داخلها بأمر الله تتجلى لنا متى شاء.

في هذه الحال سمع موسى عليه السلام مرّة أُخرى النداء من الشجرة ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾.

«الجانّ» في الأصل معناه الموجود غير المرئي، كما يطلق على الحيات الصغار اسم (جان) أيضاً؛ لأنّها تعبر بين الأعشاب والأحجار بصورة غير مرئية.. كما عبر في بعض الآيات عن العصا بـ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [سورة الأعراف الآية ١٠٧ وسورة الشعراء الآية ٣٢].

وقد قلنا سابقاً: إنّ هذا التفاوت في التعابير ربّما لبيان الحالات المختلفة لتلك الحية... التي كانت في البداية حية صغيرة، ثمّ ظهرت كأنّها ثعبان مبين.

كما ويحتمل أنّ موسى عليه السلام رآها في الوادي بصورة حية، ثمّ في المرات الأُخرى بدأت تظهر بشكل مهول ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾.

وعلى كل حال، كان على موسى عليه السلام أن يعرف هذه الحقيقة، وهي أنّه لا ينبغي له الخوف في الحضرة الإلهية؛ لأنّ الأمن المطلق حاكم هناك، فلا مجال للخوف إذاً.

كانت المعجزة الأُولى آية «من الرعب»، ثمّ أمر أن يظهر المعجزة الثّانية وهي آية أُخرى «من النور والأمل» ومجموعهما سيكون تركيباً من «الإنذار» و«البشارة» إذْ جاءه الأمر ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾.

فالبياض الذي يكون على يده للناس لم يكن ناشئاً عن مرض - كالبرص ونحوه - بل كان نوراً إلهياً جديداً.

لقد هزّت موسى عليه السلام مشاهدته لهذه الأمور الخارقة للعادات في الليل المظلم وفي الصحراء الخالية.. ومن أجل أن يهدأ روع موسى من الرهب، فقد أمر أن يضع يده على صدره ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾.

قال بعضهم: هذه العبارة ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ كناية عن لزوم القاطعية والعزم الراسخ في أداء المسؤولية بالنسبة لرسالته، وأن لا يخاف أو يرهب شيئاً أو أحداً أو قوّة مهما بلغت.

وقال بعضهم: حين ألقى موسى عليه السلام عصاه فرآها كأنّها «جان» أو ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ رهب منها، فمدّ يده ليدافع عن نفسه ويطردها عنه، لكن الله أمره أن يضم يده إلى صدره، إذ لا حاجة للدفاع فهي آية من آياته.

والتعبير بـ«الجناح» [الذي يستعمل للطائر مكان اليد للإنسان] بدلاً عن اليد في غاية الجمال والروعة.. ولعل المراد منه تشبيه هذه الحالة بحالة الطائر حين يدافع عن نفسه وهو أمام عدوّه المهاجم، ولكنه يعود إلى حالته الأُولى ويضم جناحه إليه عندما يزول عنه العدو ولا يجد ما يرهبه!.

وجاء موسى النداءُ معقّباً: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

فهم طائفة خرجت عن طاعة الله وبلغ بهم الطغيان مرحلة قصوى.. فعليك - يا موسى - أن تؤدّي وظيفتك بنصحهم، وإلاّ واجهتهم بما هو أشد.

هنا تذكر موسى عليه السلام حادثةً مهمّة وقعت له في حياته بمصر، وهي قتل القبطي، وتعبئة القوى الفرعونية لإلقاء القبض عليه وقتله.

وبالرغم من أنّ موسى عليه السلام كان يهدف عندها إلى إنقاذ المظلوم من الظالم الذي كان في شجار معه، فكان ما كان... إلاّ أنّ ذلك لا معنى له في منطق فرعون وقومه، فهم مصممون على قتل موسى إن وجدوه.. لذلك فإنّ موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

وبعد هذا كلّه فإنّي وحيدٌ ولساني غير فصيح ﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

كلمة «أفصح» مشتقّة من «الفصيح» وهو في الأصل كون الشيء خالصاً، كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو وزيادة كلمة «الفصيح» أيضاً.

و«الردء» معناه المعين والمساعد.

وعلى كلِّ حال فلأن هذه المسؤولية كانت كبيرة جدّاً، ولئلا يعجز موسى عن أدائها، سأل ربّه أن يرسل معه أخاه هارون أيضاً.

فأجاب الله دعوته، وطمأنه بإجابة ما طلبه منه و﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ فالسلطة والغلبة لكما في جميع المراحل.

وبشّرهما بالنصر والفوز، وأنّه لن يصل إليهما سوء من أولئك: إذ قال سبحانه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ فبهذه الآيات والمعاجز لن يستطيعوا قتلكما أو الإضرار بكما ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

فكان ما أوحى الله إلى موسى أملاً كبيراً وبشارةً عظمى اطمأن بها قلبه، وأصبح راسخ العزم والحزم، وسنجد آثار ذلك في الصفحات المقبلة حين نقرأ الجوانب الأخرى من قصّة موسى عليه السلام إن شاء الله[1].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

التّفسير

موسى في مواجهة فرعون

نواجه المقطع الثامن من هذه القصّة العظيمة.. لقد تلقى موسى عليه السلام من ربّه الأمر بأن يصدع بالنبوّة والرسالة في تلك الليلة المظلمة والأرض المقدّسة، فوصل إلى مصر، وأخبر أخاه هارون بما حُمِّلَ.. وأبلغه الرسالة الملقاة عليهما.. فذهبا معاً إلى فرعون ليبلغاه رسالة الله، وبعد عناء شديد استطاعا أن يصلا إلى فرعون وقد حفَّ به من في

(١) كانت لنا بحوث عديدة في هذا المجال، فراجعها إن شئت في «تفسير سورة الأعراف» و«تفسير سورة طه» و«تفسير سورة الشعراء». وفي بعض السور الأخرى.

القصر من جماعته وخاصته، فأبلغاه الدعوة إلى الله ووحدانيّته.. ولكن لنرَ ما جرى هناك - في قصر فرعون - مع موسى وأخيه.

يقول القرآن في أوّل آية من هذا المقطع: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾.

وأنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾.

فواجهوا موسى متوسّلين بحربة توسّل بها جميع الجبابرة والضالّون على طول التاريخ، حين رأوا المعاجز من أنبيائهم.. وهي حربة «السحر» لأنّ الأنبياء يأتون بأمور خارقة للعادات، و«السحر» خارق للعادة «لكن أين هذا من هذه»؟

السحرة أُناس منحرفون وأهل دنيا وعبيد لها وأساس عملهم قائم على تحريف الحقائق، ويمكن معرفتهم جيداً بهذه العلامة.. في حين أنّ دعوة الأنبياء ومحتواها شاهد على صدق معاجزهم...

ثمّ إنّ السحرة طالما يعتمدون على القدرة البشرية فإنّ عملهم محدود، أمّا الأنبياء الذين يعتمدون على قوّة إلهيّة، فإنّ معاجزهم عظيمة وغير محدودة!..

التعبير بـ «الآيات البيّنات» عن معاجز موسى عليه السلام بصيغة الجمع، ربّما يراد به أن معاجز أُخرى غير المعجزتين هاتين، أو أنّ كل معجزة من معجزتيه مركبة من عدّة معاجز.

فتبديل العصا إلى ثعبان عظيم معجزة، وعودة الثعبان إلى عصا معجزة أُخرى.

والتعبير بـ «مفترى» مأخوذة من «فرية» بمعنى التهمة والكذب لأنّهم قصدوا أنّ موسى يكذب على الله!.

والتعبير بـ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ مع أنّ نداء الأنبياء ودعوتهم من أمثال نوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام كانا من قبل موسى عليه السلام في هذه الأرض، فجميعهم دعوا إلى عبادة الله سبحانه، هذا التعبير أساسه طول المدّة وبُعد العهد عليهم، أو أنّهم يريدون أن يقولوا: إنّ آباءنا - أيضاً - لم يذعنوا لدعوة الأنبياء قبلك!

لكن موسى عليه السلام أجابهم بلهجة التهديد والوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾.

إشارة إلى أنّ الله يعلم حالي، وهو مطلع عليّ بالرغم من اتهامكم إيّاي بالكذب.. فكيف يمكن أن يمكنني الله من الأُمور الخارقة للعادات لكي أضلّ بها عباده؟

فعلمه بحالي ومنحه لي هذه القدرة على الإتيان بالمعجزات دليل على حقانية دعوتي.

ثمّ بعد هذا، الكاذب قد يقضي فترة بين الناس بالكذب والخديعة، لكن سرعان ما يفتضح أمره، فانتظروا لتشهدوا من تكون له العاقبة والانتصار. . . ولمن يكون الخزي والاندحار!؟

ولو كان كلامي كذباً فأنا ظالم و﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

وهذا التعبير يشبه تعبيراً آخر في الآية (٦٩) من سورة «طه» إذ جاء بهذه الصيغة ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

وهذه الجملة لعلها إشارة إلى الفراعنة المعاندين والمستكبرين ضمناً، وهي أنّكم مقتنعون بمعاجزي ودعوتي الحقّة، ولكنّكم تخالفونني ظلماً. . فعليكم أن تعرفوا أنّكم لن تنتصروا أبداً، والعاقبة لي فحسب.

والتعبير بـ ﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ربّما كان إشارة لعاقبة الدار الدنيا، أو لعاقبة الدار الآخرة، أو لعاقبة الدارين جميعاً، وبالطبع فإنّ المعنى الثّالث أجمع وأنسب حسب الظاهر.

بهذا المنطق المؤدب أنذر موسى عليه السلام فرعون وقومه بالهزيمة في هذه الدنيا وفي الأخرى!.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾

التّفسير

كيف كانت عاقبة الظالمين؟

نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ المليء بالأحداث والعبر.

هذا المقطع يعالج مسألة صنع فرعون البرج - أو بنائه الصرح المعروف - للبرهنة على وهمية دعوة موسى عليه السلام.

ونعرف أنّ من سنن الساسة القدماء في أعمالهم أنّه كلما وقعت حادثة مهمّة على خلاف رغباتهم وميولهم (ومن أجل التمويه وإيهام الناس) يبادرون إلى خلق جوّ جديد ليلفتوا أنظار الناس إليه، وليصرفوهم عن تلك الحادثة المطلوبة.

ويبدو أنّ بناء «الصرح العظيم» حدث بعد ما جرى لموسى من مواجهته السحرة ما جرى... لأنّه يستفاد من سورة «المؤمن» أنّ هذا العمل «بناء البرج» تمّ حين كان الفراعنة يخططون لقتل موسى عليه السلام، وكان مؤمن آل فرعون يدافع عنه... ونعرف أنّه قبل أن يواجه موسى عليه السلام السحرة لم يكن مثل هذا العمل ولا مثل هذا الحديث، وحيث إنّ القرآن الكريم تحدّث عن مواجهة موسى عليه السلام للسحرة في سور طه، والأعراف، ويونس، والشعراء» فإنّه لم يتطرق إليها هنا، وإنّما تحدث هنا وفي سورة المؤمن عن بناء البرج.

وعلى كلِّ حال فقد شاع خبر انتصار موسى عليه السلام على السحرة في مصر، وإيمان السحرة بموسى زاد في الأمر أهمّية، كما أنّ موقع الحكومة الفرعونية أصبح في خطر جديّ شديد.

واحتمال تيقظ الجماهير التي في أسر الذل كان كبيراً جدّاً.. فيجب صرف أفكار الناس بأية قيمة كانت، وإشغالهم بسلسلة من المشاغل الذهنية مقرونة ببذل من الجهاز الحكومي، لإغفال الناس وتحميقهم!

وفي هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس فرعون للتشاور في معالجة الموقف، إذ نقرأ في أوّل آية من هذا المقطع: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾.

فأنا إلهكم في الأرض.. أمّا إله السماء فلا دليل على وجوده، ولكنني سأتحقق في الأمر ولا أترك الاحتياط، فالتفت إلى وزيره هامان وقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ثمّ أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جدّاً لأصعد عليه واستخبر عن إله موسى.

﴿فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

لم لَمْ يذكر فرعون اسم الآجر، واكتفى بالقول: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾؟ قال بعضهم: هذا دليل على أن الآجر لم يكن متداولاً حتى ذلك الحين، وإنّما ابتكره الفراعنة من بعد... في حين أن بعضهم يرى أنّ هذا التعبير أو هذا البيان فيه نوع من التكبر وموافق لسنّة الجبابرة.

وقال بعضهم: إنّ كلمة «آجر» ليست فصيحة، لذلك لم يستعملها القرآن، وإنّما استعمل هذا التعبير المتقدم على لسان فرعون!.

هنا ناقش جماعة من المفسّرين كالفخر الرازي والآلوسي مسألة «الصرح»، وهل بنى فرعون «الصرح» حقّاً أم لا؟!

ويبدو أنّ الذي شغل فكر المفسّرين هو أنّ هذا العمل لم يكن متزّناً بأيّ وجه وأي حساب.

ترى.. ألم يكن الناس قد صعدوا الجبال من قبل فرأوا منظر السماء كما هو على الأرض؟.

وهل البرج الذي يبنيه البشر أكثر ارتفاعاً من الجبل؟.

وأي أحمق يصدق أنّه يمكن الوصول إلى السماء بواسطة مثل هذا البرج؟!

ولكن أُولئك الذين يفكرون مثل هذا التفكير غفلوا عن هذه المسألة، وهي أنّ مصر لم تكن أرضاً جبلية، وبعد هذا كلّه نسوا أنّ الطبقة العامّة لأهل مصر بسطاء ويخدعون بشتى الوسائل.

حتى في عصرنا الذي يسمى عصر العلم وعصر النور، نجد مسائل تشبه ما وقع في العصور الماضية ينخدع بها الناس.

وعلى كلِّ حال، فطبقاً لما ورد في بعض التواريخ، فإنّ هامان أمر بأرض واسعة ليبنى عليها الصرح أو البرج، وهيّأ خمسين ألف رجل من العمال والمهندسين لهذا العمل المضني، وآلاف العمال لتهيئة الوسائل اللازمة لهذا البناء، وفتح أبواب الخزائن وصرف أموالاً طائلة في هذا السبيل، وشغّل عمالاً كثيرين في هذا البناء.. حتى أنّه ما من مكان إلاّ وتسمع فيه أصوات هذا البناء أو أصداؤه!.

وكلما اعتلى البناء أكثر فأكثر كان الناس يأتون للتفرج، وما عسى أن يفعل فرعون بهذا البناء وهذا البرج.

صعد البناء إلى مرحلة بحيث أصبح مشرفاً على جميع الأطراف. وكتب بعضهم: إنّ المعمارين بنوا هذا البرج بناءً بحيث جعلوا حوله سلالم حلزونية يمكن لراكب الفرس أن يرتقي إلى أعلى البرج.

ولمّا بلغ البناء تمامه ولم يستطع البناؤون أن يعلوه أكثر من ذلك.. جاء فرعون بنفسه يوماً وصعده بتشريفات خاصة.. فنظر إلى السماء فوجدها صافية كما كان ينظرها من الأرض لم تتغير ولم يطرأ عليها جديد.

المعروف أنّه رمى سهماً إلى السماء، فرجع السهم مخضباً بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنّها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل.. فنزل فرعون من أعلى القصر وقال للناس: اذهبوا واطمأنوا فقد قتلت إله موسى[(١)].

ومن المسلم به أنّ جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعاً أعمى وأصم، صدّقوا ما قاله فرعون ونشروه في كل مكان، وشغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق!.

ونقلوا هذا الخبر أيضاً، وهو أنّ البناء لم يدم طويلاً «وطبعاً لا يدوم» أجل لقد تهدم البناء وقتل جماعة من الناس.. ونقلوا في هذا الصدد قصصاً أُخرى، وحيث إنّ لم تتّضح صحتها لنا فقد صرفنا عنها النظر.

والذي يلفت النظر أنّ فرعون في كلامه هذا ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ كان قد استعمل نهاية الخبث ومنتهى الشيطنة.. إذ كان يرى من المسلّم به أنّه إله!!.. وكان مدار بحثه: هل يوجد إله غيره؟!!.. ثمّ ينفي أن يكون هناك إله سواه؛ لعدم وجود الدليل!!

وفي المرحلة الثّالثة والأخيرة، ومن أجل أن يقيم الدليل على عدم وجود إله غيره بنى ذلك الصرح!.

كل هذه الأُمور تؤكّد جيداً أنه كان يعرف تلك المسائل، إلاّ أنّه كان يضلّل الناس ويصرف أفكارهم عن الحق، ليحفظ موقعه وحكومته!.

بعد هذا كلّه يتحدث القرآن عن استكبار فرعون ومن معه، وعدم إذعانهم لمسألتي «المبدأ والمعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام وجنايات بسبب إنكار هذين الأصلين فيقول: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾.

هذا الإنسان الضعيف الذي لا يستطيع أن يبعد عن نفسه بعوضة، وربّما قتله ميكروب لا يرى بالعين المجرّدة كيف يمكن له أن يدعي العظمة والألوهيّة!؟.

ورد في الحديث القدسي أنّ الله سبحانه يقول: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النّار»[(٢)].

---

(١) مقتبس من تفسير أبي الفتوح الرازي ذيل الآيات مورد البحث، ج ٨، ص ٣٦٢.

(٢) تفسير روح المعاني، التّفسير الكبير، للفخر الرازي، ج٢٤، ص٢٥٣، تفسير الميزان، ج١٦، ص٤٠، وتفاسير أخرى ذيل الآية مورد البحث.

ومن البديهي أنّ الله لا يحتاج إلى أوصاف كهذه. . ولكن حالة الطغيان والعدوان تستولي الإنسان حينما ينسى نفسه، وتملأ ريح الكبر والغرور فكره!

لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون وجنوده؟!

يقول القرآن الكريم: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

أجل، لقد جعلنا سبب موتهم في مصدر معيشتهم، وجعلنا النيل الذي هو رمز عظمتهم وقوّتهم مقبرةً لهم!.

من الطريف أنّ القرآن يعبّر بـ «نبذناهم» من مادة «نبذ» على زنة «نبض» ومعناه رمي الأشياء التي لا قيمة لها وطرحها بعيداً، تُرى ما قيمة هذا الإنسان الأناني المتكبر المتجبّر الجاني المجرم؟!

أجل، لقد نبذنا هؤلاء الذين لا قيمة لهم من المجتمع البشري، وطهّرنا الأرض من لوث وجودهم.

ثمّ يختتم الآية بالتوجه إلى النّبي ﷺ قائلاً: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

هذا النظر ليس بعين «البصر» بل هو بعين «البصيرة»، وهو لا يخص ظلمة الماضي وفراعنة العهد القديم، بل إن ظلمة هذا العصر ليس لهم من مصير سوى هذا المصير المشؤوم!.

ثمّ يضيف القرآن قائلاً في شأنهم: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

هذا التعبير أوجد إشكالاً لدى بعض المفسّرين، إذ كيف يمكن أن يجعل الله أُناساً أئمة للباطل؟!

ولكن هذا الأمر ليس معقداً. . لأنّه أولاً. . إنّ هؤلاء هم في مقدمة جماعة من أهل النّار، وحين تتحرك الجماعات من أهل النّار، فإنّ هؤلاء يتقدمونهم إلى النّار! فكما أنّهم كانوا في هذه الدنيا أئمّة الضلال، فهم في الآخرة - أيضاً - أئمّة النّار، لأنّ ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم!.

ثانياً. . كونهم أئمّة الضلال - في الحقيقة - نتيجة أعمالهم أنفسهم، ونعرف أن تأثير كل سبب هو بأمر الله، فهم اتخذوا طريقاً يؤدّي بهم إلى الضلال وينتهي بهم إلى أن يكونوا أئمّة الضالين، فهذه حالهم في يوم القيامة!.

ولمزيد التأكيد يصوّر القرآن صورتهم وماهيتهم في الدنيا والآخرة! ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾(١) لعنة الله معناها طردهم من رحمته، ولعنة الملائكة والمؤمنين هي الدعاء عليهم صباحاً ومساءً.. وفي كل وقت. وأحياناً تشملهم اللعنة العامة، وأحياناً يأتي اللعن خاصّة لبعضهم، حيث إنّ كل من يتصفح تأريخهم يلعنهم، ويتنفّر من أعمالهم.

وعلى كل حال فإنّ سوء أعمالهم في هذه الدنيا، هو الذي قبّح وجوههم في الدار الآخرة «يوم القيامة»، لأنّه يوم البروز ويوم هتك الحُجب.

ملاحظة!

أئمّة «النّور» وأئمّة «النّار»:

هناك طائفتان من الأئمة في منطق القرآن الكريم، فأئمة للمتقين يهدونهم إلى الخيرات، كما ورد في شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٢).

فهؤلاء أئمّة أصحاب مناهج واضحة، لأنّ التوحيد الخالص والدعوة إلى الخير والعمل الصالح والحق والعدالة، تشكّل متن مناهجهم.. فهم أئمّة النور، وخطهم متصل بسلسلة الأنبياء والأوصياء إلى خاتم النّبيين محمّد ﷺ وأوصيائه عليهم السلام.

وهناك أئمّة للضلال... وقد عبّرت عنهم الآيات محل البحث بأنّهم: ﴿أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾!.

ومن خصائص هاتين الطائفتين من الأئمّة، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام ما يلي: «إنّ الأئمّة في كتاب الله إمامان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ يقدمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف كتاب الله»(٣).

---

(١) «المقبوح» مشتق من «القبح» ومعناه السوء. ما فسّره بعضهم بأنّ المقبوح معناه المطرود أو المفضوح أو المغضوب عليه وما شاكلها، فهو من التّفسير بلازم المعنى، وإلاّ فالمقبوح معناه واضح.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٣) تفسير الصافي ذيل الآيات مورد البحث.

وبهذا المعيار يتّضح معرفة هاتين الطائفتين من الأئمة.. ففي يوم القيامة الذي تتمايز فيه الصفوف، كل جماعة تمضي خلف إمامها، فأهل النار إلى النّار، وأهل الجنّة إلى الجنّة.. كما يقول القرآن الكريم: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾(١).

وقلنا مراراً: إنّ يوم القيامة تجسم عظيم عن هذا العالم «الصغير» وأُولئك الذين ارتبطوا بإمام معين واقتفوا أثره، فهم سائرون خلفه هناك أيضاً.

ينقل «بشر بن غالب» عن الإمام أبي عبد الله الحسين عليه السلام أنّه سأله عن تفسير الآية ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ فقال عليه السلام: «إمام دعا إلى هدى فأجابوه إليه، وإمام دعا إلى ضلالة فأجابوه إليها، هؤلاء في الجنّة، وهؤلاء في النّار.. وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾(٢)».

من الطريف أنّ فرعون الذي تقدّم قومه في هذه الدنيا وأغرقهم بمعيّته في أمواج النيل، يقدم قومه يوم القيامة - أيضاً - يخزيهم بمعيّته في نار جهنم، إذ يقول القرآن في شأنه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾(٣).

ونختم هذا البحث بحديث الإمام علي عليه السلام في شأن المنافقين حيث يقول عليه السلام: «ثمّ بقوا بعده فتقربوا إلى أئمّة الضلالة والدعاة إلى النّار بالزور والبهتان، فولّوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس»(٤).

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.
(٢) أمالي الصدوق لما ورد في نور الثقلين، ج ٣، ص ١٩٢.
(٣) سورة هود، الآية: ٩٨.
(٤) راجع نهج البلاغة، الخطبة ٢١٠.

التّفسير

الأخبار الغيبيّة هي من عند الله وحده

نصل في هذا القسم من الآيات إلى «المقطع العاشر» وهو القسم الأخير من الآيات التي تتعلق بقصّة موسى وما تحمله من معان كبيرة!.

وهي تتحدث عن نزول الأحكام، والتوراة، أي إنّها تتحدث عن انتهاء الدور السلبي «الطاغوت» وبداية «الدور الإيجابي» والبناء!.

يبدأ هذا المقطع بالآية التالية ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

والكلام في أنّ المقصود من «القرون الأولى» أي الأقوام السابقين.. من هم؟!

قال بعض المفسّرين: هو إشارة إلى الكفّار من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم.. لأنّه بتقادم الزمان ومضيّه تمحى آثار الأنبياء السابقين، ويلزم من ذلك وجود كتاب سماويّ جديد في أيدي البشر!.

وقال بعض المفسّرين: هو إشارة إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقوام السابقين، لأنّ الله سبحانه آتى موسى كتاب «التّوراة» بعد هلاكهم.

ولكنّه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الأُولى في الآية شاملاً لجميع الأقوام.

و«البصائر» جمع «بصيرة» ومعناها الرؤية، والمقصود بها هنا الآيات والدلائل التي تستوجب إنارة قلوب المؤمنين.. و«الهدى» و«الرحمة» أيضاً من لوازم البصيرة.. وعلى أثرها تتيقظ القلوب(١).

ثمّ يبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة، وهي أنّ ما ذكرناه لك يارسول الله، في شأن موسى وفرعون وما جرى بينهما بدقائقه، هو في نفسه دليل على حقانيّة القرآن، لأنّك لم تكن «حاضراً» في هذه «الميادين» التي كان يواجه موسى فيها فرعون وقومه! ولم تشهدها بعينيك.. بل هو من ألطاف الله عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهداية الناس.. يقول القرآن: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أي الأمر بالنبوّة ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

---

(١) «البصائر» جمع «بصيرة» وأمّا «البصر» فجمعه «أبصار».

الذي يجلب الانتباه ويستلفت النظر هنا أنّ موسى عليه السلام حين سار من مدين إلى مصر مرّ في طريق سيناء، وكان بهذا الاتجاه يسير من الشرق نحو الغرب.

وعلى العكس من ذلك مسير بني إسرائيل حين جاؤوا من مصر إلى الشام ومرّوا عن طريق سيناء، فإنّهم يتجهون بمسيرهم من الغرب نحو الشرق. . ولذلك يرى بعض المفسّرين أنّ المراد من الآية «٦٠» ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ في سورة الشعراء التي تتحدث عن متابعة فرعون وقومه لبني إسرائيل، هو إشارة إلى هذا المعنى!

ثمّ يضيف القرآن ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ وتقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء وهدايتهم في قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن وبيّنا فيه قصص الماضين ليكون نوراً وهدى للناس.

ثمّ يضيف القرآن الكريم: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ . . وأوحينا إليك هذه الأخبار الدقيقة التي تتحدث عن آلاف السنين الماضية. . لتكون عبرة للناس وموعظة للمتقين[(١)].

وتأكيداً على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ[(٢)] إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي نادينا موسى بأمر النبوّة، ولكننا أنزلنا إليك بهذه الأخبار رحمة من الله عليك ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وخلاصة الكلام: إنّ الله أخبرك يا محمّد بالحوادث التي فيها إيقاظ وإنذار لما جرى في الأقوام السابقين، ولم تكن فيهم من الشاهدين، لتتلو كل ذلك على قومك الذين هم على ضلال لعلهم يهتدون ولعلهم يتذكرون.

هنا ينقدح هذا السؤال: كيف يقول القرآن: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن

---

(١) «ثاوي» مشتق من (ثوى) ومعناه الإقامة المقرونة بالاستقرار، ولذا سمّي المستقر والمكان الدائم بالمثوى.

(٢) كان بين ظهور موسى عليه السلام وظهور النبي (محمّد) صلى الله عليه وآله حدود ألفي عام.

(٣) قال بعض المفسّرين: يحتمل أن يكون المراد من «نادينا» هنا هو النداء الثّاني عندما جاء موسى وسبعون رجلاً من قومه إلى الطور، فجاءه النداء من الله، ولكن هذا الاحتمال بعيد جداً؛ لأنّ هذه الآيات تشير إلى المسائل التي أخبر عنها النبي في الآيات المتقدمة في حين أنّه لم يكن حاضراً هناك ولم يكن من الشاهدين، ونعرف أنّ الآيات المتقدمة تتحدث عن حركة موسى من مدين باتجاه مصر، وسماعه النداء من قبل الله لأول مرّة في وادي الطور «فلاحظوا بدقّة».

قَبۡلِكَ﴾ [أي العرب المعاصرين للنّبي محمّد ﷺ] في حين أنّنا نعرف أنّ الأرض لا تخلو من حجّة لله، وكان بين العرب أوصياء للأنبياء السابقين «كأوصياء عيسى عليه السلام».

وفي الجواب على ذلك نقول: المقصود من ذلك هو إرسال رسول يحمل إلى قومه كتاباً سماوياً بيّناً.. لأنّ بين عصر عيسى عليه السلام وظهور نبيّ الإسلام ﷺ قروناً مديدة، ولم يأت بين عيسى والنبيّ محمّد ﷺ نبيّ من أولي العزم، ولذلك فقد كان هذا الموضوع ذريعة للملحدين والمفسدين.

يقول الإمام علي عليه السلام في هذا الصدد «إنّ الله بعث محمّداً ﷺ وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً ولا يدعي نبوة، فساق الناس حتى بوأهم محلتهم وبلغهم منجاتهم»[1].

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾

التّفسير

ذريعة للفرار من الحق

حيث إنّ الآيات - آنفة الذكر - كانت تتحدث عن إرسال النّبي ﷺ لينذر قومه، ففي هذه الآيات يبيّن القرآن ما ترتب من لطف الله على وجود النّبي في قومه فيقول: إنّنا وقبل أن نرسل إليهم رسولاً إذا أردنا إنزال العذاب عليهم بسبب ظلمهم وسيئاتهم قالوا: لماذا لم ترسل لنا رسولاً يبيّن لنا أحكامك لنؤمن به ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٣٣.

﴿أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، وهو أن طريق الحقّ واضحٌ وبيّن. . . وكل «عقل» حاكم ببطلان الشرك وعبادة الأصنام. . وقبح كثير من الأعمال التي تقع نتيجة الشرك وعبادة الأصنام - كالمظالم وما شاكلها - هي من مستقلات حكم العقل، وحتى مع عدم إرسال الرسل، فإنّ العقوبة على مثل هذه الأُمور ممكنة.

ولكن الله سبحانه حتى في هذا المجال ومع وضوح حكم العقل فيه أرسل الرسل مع الكتب السماوية والمعاجز الساطعة، إتماماً للحجّة ونفياً للعذر، لئلا يقول أحد: إنّما كان شقاؤنا بسبب عدم وجود الدليل، إذ لو كان فينا قائد إلهي لكنّا من أهل الهداية ومن الناجين.

وعلى كل حال فإنّ هذه الآية من الآيات التي فيها دلالة على لزوم اللطف عن طريق إرسال الأنبياء والرسل! وتدل على أن سنة الله قائمة على عدم تعذيب أية أمة قبل إرسال الرسل إليها، ونقرأ في سورة النساء الآية (٦٥) أيضاً ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ثمّ تتحدّث الآيات عن معاذير أولئك، وتشير إلى أنّهم - بعد إرسال الرسل - لم يكفّوا عن الحيل والذرائع الواهية، واستمروا على طريق الانحراف، فتقول الآية: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾.

فلِمَ لم تكن عصا موسى في يده؟ ولِمَ لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ ولم لا ينشقّ البحر له كما انشقّ لموسى؟! ولِمَ لِمَ. . . الخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، ويقول: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي موسى وهارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

والتعبير بـ ﴿سِحْرَانِ﴾ بدلاً عن «ساحران» هو لشدة التأكيد، لأنّ العرب حين تريد

---

(١) يصرّح كثير من المفسّرين أنّ جواب «لولا» الأولى محذوف وتقديره «لما أرسلنا رسولاً» أو «لما وجب إرسال الرسل». . وبديهيّ أنّ التعبير الثّاني أكثر دقّة ووضوحاً. . وعلى كل حال فهذا الكلام مربوط بأحكام يدركه العقل مستقلاً. . وإلاّ فإنّ إرسال الرسل ضروريّ بدلائل أُخرى، على أنّ واحداً من فوائد إرسال الرسل - أيضاً - هو تأكيد الأحكام العقلية كبطلان الشرك وقبح الظلم والفساد. . «فلاحظوا بدقّة».

التأكيد على شخص في خصلة ما تقول: هو العدل بعينه، أو بعينه، أو السحر وهكذا.

كما يرد هذا الاحتمال - أيضاً - وهو: إنّ مقصودهم المعجزتين العظيمتين لموسى عليه السلام وهما عصاه ويده البيضاء!

وإذا قيل: ما علاقة هذا الإنكار بمشركي مكّة، فهذه الأُمور متعلقة بفرعون وقومه السابقين؟

فالجواب على ذلك واضح... وهو أنّ التذرع بالحجج الواهية ليس أمراً جديداً..

فجميعهم من نسيج واحد، وكلامهم يشبه كلام السابقين تماماً، وخطهم وطريقتهم ومنهجهم على شاكلة واحدة.

التفسير الواضح للآية ما قلناه آنفاً، إلاّ أنّ بعض المفسّرين فسّروا الآية تفسيراً آخر وقالوا: إنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ هو «النّبي موسى ونبيّ الإسلام العظيم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم» لأنّ مشركي العرب كانوا يقولون: إنّ كليهما ساحران... وإنّا بكلّ كافرون.

وقد نقلوا في هذا الصدد حادثة تاريخية، وهي أنّ أهل مكّة بعثوا جماعة منهم إلى اليهود في بعض أعيادهم، وسألوهم عن نبيّ الإسلام «محمّد» صلى الله عليه وآله وسلم أهو نبيّ حقّاً؟! فأجابوا: إنّهم وجدوا مكتوباً عندهم في التوراة «بأوصافه»! فرجع المبعوثون إلى مشركي مكّة ونقلوا لهم ما جرى بينهم وبين اليهود، فقالوا: ﴿سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

ولكن بملاحظة هاتين النقطتين يبدو هذا التّفسير بعيداً جدّاً:

الأولى: أنّه قلّ أن يرى في التاريخ والرّوايات أنّ مشركي العرب يتهمون موسى بكونه ساحراً.

الثّانية: كيف يمكن لأحد أنْ يدعي أنّ موسى ومحمّداً صلى الله عليه وآله وسلم ساحران يعين أحدهما الآخر مع وجود فاصلة زمنية بينهما تقدّر بالفي عام.

ترى هل يمكن لساحر قبل آلاف السنين أن يعرف من سيأتي في المستقبل؟! وماذا سيقول؟!

وعلى كلّ حال فإنّ مشركي مكّة المعاندين كانوا يصرّون على أنه لِمَ لَم يأت النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بمعاجز كمعاجز موسى، ومن جهة أُخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه في «التوراة» من علائمه وأوصافه ولا يؤمنون بالقرآن المجيد وآياته العظيمة... لذا يخاطب

القرآن النّبي محمّداً ﷺ ليتحدّاهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن!! ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وبتعبير آخر: إنّهم كانوا يبحثون عن كتاب هداية وعن معاجز!!

فأي كتاب هداية أعظم من القرآن؟! وأية معجزة أسمى منه؟!

ولو لم يكن عند النّبي شيء آخر سوى القرآن لكان كافياً في إثبات دعوته الحقة! ولكنّهم لم يكونوا طلاّب حق، بل أصحاب حجج واهية فحسب!

ثمّ يضيف القرآن ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ لأنّ أي إنسان إذا لم يتّبع هواه فإنّه سيذعن لهذا الاقتراح، لكن أُولئك لم يكونوا على صراط مستقيم، ولذلك يرفضون كل مقترح بذريعة جديدة!.

ولكن من أضيعُ منهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولو كانوا طلاّب حقّ وقد أضلوا سبيلهم، فإنّ لطف الله سيشملهم بمقتضى الآية الكريمة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(١) ولكنّهم ظالمون لأنفسهم ولمجتمعهم الذي يعيشون فيه، فلا هدف لهم سوى اللجاجة والعناد. . . فكيف يهديهم الله ويعينهم؟!

بحث

اتّباع الهوى مدعاة للضلال

في الآيات المتقدمة بيّنت العلاقة بين الهوى والضلال بصراحة، وقد عبّر فيها عن المتّبعين هواهم بأضلّ النّاس، وأنّهم لم يحظوا بهداية الله.

هوى النفس حجاب كبير أمام نظر العقل.

هوى النفس يشدّ الإنسان بالشيء ويجعل قلبه متعلقاً به إلى درجة تفقده القدرة على فهم الحقائق ودركها. . لأنّ التسليم المطلق إزاء الواقعيات، وترك التعلق بالشيء والتسرّع بالحكم، شرط لدرك الحقائق. . التسليم دون قيد أو شرط إزاء الواقع الخارجي، مرّاً كان أم عذباً، موافقاً لرغبات النفس أم مخالفاً، منسجماً مع المصالح

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

والمنافع الشخصية أم غير منسجم. . . لكن هوى النفس لا يتفق مع هذه الأصول!.

وفي هذا المجال كان لنا بحث مسهب في ذيل الآية (٤٣) من سورة الفرقان.

ومن الطريف هنا أنّ روايات عديدة تفسّر الآية بأنّ المراد منها من ترك إمامه وقائده الإلهي واتبع هواه[١].

وهذه الرّوايات المنقولة عن الإمامين الباقر والإمام الصادق عليهما السلام وبعض الأئمّة الطاهرين عليهم السلام . . . هي من قبيل المصداق البارز. . وبتعبير آخر: إنّ الإنسان محتاج لهداية الله. . . هذه الهداية تارةً تنعكس في كتاب الله، وأُخرى في وجود النّبي وسنته، وأُخرى في أوصيائه المعصومين، وأُخرى في منطق العقل.

المهم أن يكون الإنسان في خطّ الهداية الإلهيّة غير متبع لهواه، ليستطيع أن يستضيء بهذه الأنوار.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾

سبب النّزول

نقل المفسّرون ورواة الأخبار روايات كثيرة ومختلفة في شأن نزول الآيات المتقدمة، والجامع المشترك فيها واحد، وهو إيمان طائفة من علماء اليهود والنصارى والأفراد الذين يتمتعون بقلوب طاهرة - بالقرآن ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم.

فعن «سعيد بن جبير» أن هذه الآيات نزلت في سبعين قسّاً مسيحياً بعثهم النجاشي من الحبشة إلى مكّة للتحقيق والاطلاع على دين النّبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فلمّا قرأ عليهم نبيّ الإسلام سورة «يس» دمعت عيونهم شوقاً وأسلموا[٢].

---

(١) هذه الرّوايات في أصول الكافي وبصائر الدرجات طبقاً لما في نور الثقلين، ج ٤، ص ١٣٢.

(٢) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٧، و٣٥٨.

وقال بعضهم: هذه الآيات نزلت في نصارى نجران «مدينة في شمال اليمن» جاؤوا إلى النّبي فسمعوا آيات القرآن فآمنوا به(١).

وقال آخرون: بل نزلت في النجاشي وقومه(٢).

كما يرى بعضهم أنّها نازلة في «سلمان الفارسي» وجماعة من علماء اليهود، كعبد الله ابن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وأضرابهم(٣).

وأخيراً فإنّ بعضهم يرى أنّ الآيات تشير إلى أربعين عالماً مسيحياً من ذوي الضمائر الحيّة والنيرة، جاء اثنان وثلاثون منهم مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، وثمانية آخرون من الشام، من بينهم «بحيرا» الراهب إلى النّبي ﷺ فأسلموا(٤).

وبالطبع فإنّ الرّوايات الثلاث تتناسب مع نزول الآيات في مكّة، كما أنّها تدعم قول من يرى بأنّ جميع آيات هذه السورة مكّية، ولكن الروايتين الرابعة والخامسة تدلاّن على أنّ هذه الآيات الآنفة نزلت بالمدينة استثناءً، كما أنّهما تدعمان قول القائلين على أنّ الآيات المتقدمة مدنية لا مكية.

وعلى كلّ حال فإن هذه الآيات «شواهد بليغة» تدل على أنّ جماعة من علماء أهل الكتاب أعلنوا إسلامهم حين سمعوا آيات القرآن... لأنّه لا يمكن لنبيّ الإسلام ﷺ أن يقول مثل هذا. ولم يكن أحد من أهل الكتاب قد آمن به بعد لأنّ المشركين كانوا ينهضون فوراً ويقومون بالصياح والضجيج لتكذيب النّبي ﷺ.

التّفسير

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن

حيث إنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهية أمام الحقائق التي يقدّمها القرآن الكريم، فإنّ هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهيّأة لقبول قول الحق والتي سمعت هذه الآيات واهتدت للإسلام وبقي أصحابها متمسكين بالإسلام أوفياء له في حين أنّ قلوب الجاهلين المظلمة لم تتأثر بها.

(١-٢) تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٣٥٧، و٣٥٨.

(٣-٤) تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٥٨.

يقول القرآن في هذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعاً ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

هذه الآيات نزلت عليهم نزول المطر المتصلة قطراته وجاءت الآيات على أشكال متنوعة، وكيفيات متفاوتة، فتارة تحمل الوعد بالثواب، وتارة الوعيد بالنّار، وأُخرى الموعظة والنصيحة، وأُخرى تنذر وتهدد، وأحياناً تحمل استدلالات عقلية، وأحياناً تحمل قصص الماضين وتأريخهم المليء بالعبر، وخلاصة كاملة من الأحداث المتجانسة التي يؤمن بها أي قلب فيه أقل استعداد للإيمان، حيث إنّها تجذب القلوب إليها... إلاّ أنّ عمي القلوب لم يذعنوا لها.

إلاّ أنّ ﴿ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾. لأنّهم يرونه منسجماً مع ما ورد في كتبهم السماوية من علامات ودلائل!.

ومن الطريف هنا أنّهم كانوا جماعة من «أهل الكتاب»، إلاّ أنّ الآيات المتقدمة تحدثت عنهم بأنّهم «أهل الكتاب» دون قيد أو تبعيض أو أي شيء آخر، ولعلها تشير إلى أنّهم أهل الكتاب حقّاً، أمّا سواهم فلا.

ثمّ يضيف القرآن في وصفهم قائلاً: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

أجل: كانت تلاوة الآيات عليهم كافيةً لأن يقولوا «آمنا»... ثمّ يضيف القرآن متحدثاً عنهم: إنّنا مسلمون لا في هذا اليوم فحسب، بل ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

إنّنا وجدنا علائم النّبي ﷺ في كتبنا السماوية وتعلقت قلوبنا به، وانتظرناه بفارغ الصبر - وفي أوّل فرصة وجدنا بها ضالتنا أمسكنا بها - وقبلناه «بقلوبنا وأرواحنا».

ثمّ يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعة التي آمنت بالنّبي من غير تقليد أعمى، وإنّما طلباً للحق، فيقول: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾.

فمرّة لإيمانهم بكتابهم السماويّ الذي كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه... ومرّة أُخرى لإيمانهم بنبيّ الإسلام العظيم ﷺ النّبي الموعود المذكور عندهم في كتبهم السماوية.

ويحتمل - أيضاً - كما هو مستفاد من الآيات المتقدمة، إنّما يؤتون أجرهم مرتين؛

---

(١) «وصّلنا» مأخوذ من مادة «وصل» أي ربط، وحيث إنّها جاءت من باب التفعيل، فهي تدل على الكثرة، ويستفاد منها التأكيد أيضاً..

لأنّهم آمنوا بنبيّ الإسلام قبل ظهوره، وحين ظهر لم يكفروا به بل آمنوا به كذلك.

وهؤلاء بذلوا جهداً وصبروا زمناً طويلاً ليؤدّوا ما عليهم من وظيفة ومسؤولية. . .

ولم يرض بأعمالهم المنحرفون من اليهود ولا النصارى، ولم يسمح لهم تقليد السابقين والجوّ الاجتماعي أن يتركوا دينهم ويسلموا، إلاّ أنّهم وقفوا وصبروا وتجاوزوا هوى النفس والمنافع الذاتية، فنالوا ثواب الله وأجره مرّتين.

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى بعض أعمالهم الصالحة من قبيل «دفع السيئة بالحسنة» و«الإنفاق ممّا رزقهم الله» و«المرور الكريم باللغو والجاهلين» وكذلك الصبر والاستقامة، وهي خصال أربع ممتازة.

حيث يقول في شأنهم القرآن الكريم: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

يدرؤون بالكلام الطيب الكلام الخبيث، وبالمعروف المنكر، وبالحلم الجهل والجاهلين، وبالمحبّة العداوة والبغضاء، وبصلة الرحم من يقطعها، والخلاصة أنّهم بدلاً من أن يدفعوا السيئة بالسيئة فإنّهم ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

وهذا أسلوب مؤثر جدّاً في مواجهة المفاسد ومبارزتها، ولا سيما في مواجهة اللجوجين والمعاندين.

وقد أكّد القرآن الكريم على هذا الأسلوب مراراً وكراراً، وقد سبق أن بحثنا في هذا المجال بشرح مبسّط في ذيل الآية (٢٢) من سورة الرعد وذيل الآية (٦٩) من «سورة المؤمنون».

والخصلة الأُخرى في هؤلاء الممدوحين بالقرآن أنّهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وليس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من كل ما رزقهم الله من العلم والقوى الفكرية والجسميّة والوجاهة الاجتماعية، وجميع هذه الأُمور من مواهب الله ورزقه - فهم ينفقون منها في سبيل الله!.

وآخر صفة ممتازة بيّنها القرآن في شأنهم قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾.

ولم يردّوا الجهل بالجهل واللغو باللغو، بل ﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

فلا تحاسبون بجريرة أعمالنا، ولا نُحاسب بجرمكم وجريرة أعمالكم، ولكن ما أسرع ما سيجد كلٌّ منّا نتيجة عمله.

ثمّ يضيف القرآن في شأنهم حين يواجهون الجاهلين الذين يتصدون لإثارة المؤمنين باللغو وما شاكله، حيث يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

فلسنا أهلاً للكلام البذيء، ولا أهلاً للجهل والفساد، ولا نبتغي ذلك، إنّما نبتغي العلماء وأصحاب الضمائر الحيّة والعاملين المؤمنين الصادقين.

وعلى هذا فبدلاً من أن يهدروا قواهم في مواجهة الجاهلين عُمي القلوب وأهل الكلام البذيء، يمرون عليهم كراماً ليؤدوا أهدافهم ومناهجهم الأساسية.

الجدير بالذكر أنّ هؤلاء حين يواجهون الجاهلين، لا يسلّمون عليهم سلام تحية واستقبال، بل سلام وداع.

بحث

القلوب المهيّأة للإيمان

رسمت الآيات المتقدمة للقلوب التي تقبّلت بذور الإيمان رسماً جميلاً وبليغاً.

فهي ليست من نسيج الأشخاص الانتهازيين الذين ملئت قلوبهم من التعصب والجهل، والكلام البذيء السيّىء الفارغ، والبخل والحقد، وما إلى ذلك!!.

إنّ هؤلاء العظماء من الرجال والنساء حطموا قبل كلّ شيء القيود التي فرضها التقليد الأعمى، ثمّ أصغوا بكلّ دقّة إلى نداء التوحيد، وحين وجدوا الدلائل الحقّة بقدر كاف استجابوا له!.

ولا شكّ أنّ على هؤلاء أن يدفعوا ثمناً غالياً، لأنّهم خرجوا عن طوق التقليد الأعمى وحطموا أغلاله، وتحرروا عن محيطهم المنحرف، وعليهم أن يتحملوا الكثير من المشاكل والمتاعب في هذا السبيل ولكنّهم يتمتعون بصبر واستقامة في سبيل هدفهم الكبير ما يعينهم على تحمل تلك الشدائد والمصاعب..

فهؤلاء ليسوا حاقدين، ولا يردون السوء بالسوء، ولا هم بخلاء ولا خسيسون، ليجعلوا المواهب الإلهية خاصة بهم!.

إنّهم أناس عظام بعيدون عن الكذب والانشغال غير الصحيح، والكلام الفارغ الركيك، والمزاح وغيره.

لهم ألسنة طيبة وقلوب أطيب، ولا يضيعون طاقاتهم في الردّ على الجهلاء... بل في كثير من الأحيان يفضلون السكوت على الكلام والردّ على الجهّال!.

ويفكرون في أعمالهم ومسؤولياتهم، ويمضون كأنّهم الظماء إلى النبع، الظماء إلى العلم والمتشوّقون لحضور مجالس العلماء والفقهاء.

أجل هؤلاء العظام هم الذين يستطيعون أن يستوعبوا رسالة الإيمان في نفوسهم، ليؤتوا أجرهم.. لا مرّة واحدة، بل يؤتيهم الله أجرهم مرّتين بما صبروا!.

هؤلاء أمثال سلمان الفارسي والنجاشي وبحيرا الراهب الذين هم في خط واحد وفي جبهة واحدة، والذين بذلوا جهداً وقاوموا أنواع الصعاب ليصلوا إلى معنى «الإيمان».

ومن الطريف أنّنا نقرأ حديثاً للإمام الصادق عليه السلام في هذا الصدد يقول: «نحن صُبر وشيعتنا أصبر منّا وذلك أنا صبرنا على ما نعلم وصبروا على ما لا يعلمون»(١).

تأملوا لو أنّ شخصين من المؤمنين توجها إلى ميدان الجهاد، أحدهما يعلم بانتهاء الأمر وأن عاقبة جهاده النصر، والآخر لا يعلم، ألا يكون صبر الثّاني أكثر من صبر الأول؟!.

أو نقول - مثلاً - إنّ القرائن تدل على أن كلّاً منهما سيشرب من كأس الشهادة، لكن أحدهما يعلم ما في شهادته من أسرار خفيّة وماذا ستحرك من أمواج على مدى الأعصار والقرون المتمادية، وأنّه سيكون أسوة وقدوة للأحرار... أمّا الثّاني فلا يعرف شيئاً عن ذلك، فلا شك أنّ الثّاني أصبر من الأوّل في هذا الصدد.

وفي حديث آخر ورد في تفسير علي بن ابراهيم قال: «اللغو» الكذب، «اللهو» الغناء، والمعرضون عن اللغو و«المتقون» هم الأئمّة عليهم السلام يعرضون عن ذلك كلّه(٢).

وواضح أنّ الحديثين من قبيل المصداق البارز، وإلاّ فإنّ مفهوم «اللغو» أوسع ويشمل غير ما ذكرنا، و«المعرضون عن اللغو» أيضاً هم جميع المؤمنين الصادقين، وإن كان الأئمّة عليهم السلام في طليعتهم!

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(١) بحار الأنوار، ج٢٤، ص٢١٦، وج٦٨، ص٨٤، تفسير القمي، ج ٢، ص ١٤١.
(٢) تفسير علي بن إبراهيم، نقلاً عن تفسير نور الثقلين، ج٤، ص١٣٣.

التّفسير

الهداية بيد الله وحده!

بالرغم من أن بحوثاً كثيرة وروايات وردت في الآية الأُولى من هاتين الآيتين المتقدمتين وشأن نزولها، إلاّ أنّها - كما سنرى - روايات غير معتبرة ولا قيمة لها، حتى كأنّها رويت لأغراض ومقاصد خاصّة، ولذلك رأينا أن نفسّر الآية من القرآن نفسه ثمّ نعالج الرّوايات المشكوكة أو المجعولة.

ومع الالتفات إلى أنّ الآيات السابقة كانت تتحدث عن طائفتين: طائفة من مشركي أهل مكّة المعاندين، كان رسول الله ﷺ شديد الإصرار على هدايتهم، لكنّهم لم يهتدوا ولم يذعنوا لنور الإيمان، وطائفة من أهل الكتاب والأفراد البعيدين عن مكّة، تلقوا هداية الله برحابة صدر وبعشق وضحوا في سبيل الإسلام، وآثروا على أنفسهم مصلحة الإسلام، ولم يكترثوا بعناد قومهم الجاهلين الأنانيين، ولم يستوحشوا من الضغوط والعزلة وما إلى ذلك!.

فمع الالتفات إلى كلِّ هذه الأُمور، نلاحظ أنّ الآية الأُولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقة فتقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

فالله يعلم من هم الجديرون بالإيمان.. وأيّة قلوب تطلب الحقّ وهو يعرف العاشقين له.

أجل، هو يعرف هؤلاء ويوفقهم بلطفه ليسيروا نحو الإيمان.

أمّا الذين أظلمت قلوبهم وساءت سيرتهم وعادوا الحق في الخفاء ونهضوا بكل ما عندهم من قوة بوجه رسل الله، وقد تلوثت قلوبهم في حياتهم إلى درجة لم يكونوا جديرين بنور الإيمان فالله سبحانه لا يضع مصباح التوفيق في طريقهم أبداً.

إذن، وبناءً على ما تقدم، ليس المقصود من الهداية «إراءة الطريق»، لأنّ إراءة الطريق هي من وظيفة النّبي ﷺ، وتشمل جميع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهداية هنا هو «الإيصال للمطلوب والهدف»، والإيصال إلى المطلوب وإلى الهدف هو بيد الله وحده، الذي يغرس الإيمان في القلوب، وليس هذا العمل اعتباطاً ودون حساب، فهو تعالى ينظر إلى القلوب المهيأة والمستعدة ليهبها نور السماء!

وعلى كلِّ حال، فإنّ هذه الآية بمثابة التسلية والتثبيت لقلب النّبي ليطمئن إلى هذه الحقيقة، وهي أنّه لا إصرار المشركين وعنادهم وإن كانوا من أهل مكّة، ولا إيمان أهل الحبشة ونجران وغيرهما أمثال سلمان الفارسي وبحيرا الراهب من دون دليل وسبب.

فعليه أن لا يكترث لعدم إيمان الطائفة الأولى، فإن الله يقذف نوره في القلوب المهيأة للنور ويبسط عليها خيمته!.

ونظير هذا المضمون كثير في آيات القرآن!.

إذ نقرأ في الآية (٢٧٢) من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وفي الآية (٣٧) من سورة النحل ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾.

وفي الآية (٤٣) من سورة يونس ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

كما نقرأ أيضاً في الآية (٤) من سورة إبراهيم ما هو بمثابة القانون العام ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فالآية الأخيرة تدلّ دلالة واضحة على أنّ المشيئة الإلهية في شأن هاتين الطائفتين «جماعة الهدى وجماعة الضلال» ليست دون حساب، بل هي طبقاً للجدارة واللياقة وسعي الأفراد أنفسهم... فالله يهب توفيقه على هذا الأساس، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويسلب الهدى ممن يشاء فيضلون السبيل.

وفي الآية الثّانية - من الآيتين محل البحث - يتحدث القرآن الكريم عن طائفة اعترفوا بالإسلام في واقعهم وأيقنت به قلوبهم، إلاّ أنّهم لم يظهروا إيمانهم بسبب منافع شخصية وملاحظات ذاتية، حيث يقول: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾[1].

ورد في كتب التّفسير أن الذي قال: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ الخ.. هو «الحارث بن نوفل»، حيث قال للنّبي ﷺ: إنّنا نعرف أن ما تقوله حق، لكن الذي يمنعنا من اتباعك والإيمان بك، خوفنا من هجوم العرب علينا ليطردونا من أرضنا، ولا طاقة لنا على ردّهم[2].

(١) كلمة «معك» في الآية الآنفة متعلقة بـ«نتبع»، ويحتمل أن تكون كلمة «معك» متعلقة بـ«الهدى» ويكون التفاوت في المعنى يسيراً..

(٢) تفسير مجمع البيان - ذيل الآية مورد البحث...

هذا الكلام لا يقوله إلاّ من يستضعف قدرة الله ويرى أن قدرة حفنة من العرب الجاهليين عظيمة!! وهذا الكلام لا يصدر إلاّ من قلب لا يعرف عناية الله وحمايته، ولا يعرف كيف ينصر الله أولياءه ويخذل أعداءه، لذلك يقول القرآن ردّاً على مثل هذه المزاعم ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ(١) رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الله الذي جعل هذه الأرض المالحة والمليئة بالصخور والخالية من الأشجار والأنهار، جعلها حرماً تهفو إليه القلوب، ويؤتى إليه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، كلّ ذلك بيد قدرته القاهرة.

فإنّ من له هذه القدرة على إقرار «الأمن» وجبابة «النعم» إلى هذا المكان وهؤلاء يرون ذلك بأعينهم، كيف لا يكون قادراً على أن يحفظكم من هجوم حفنة من الجاهليين عبّاد الأوثان؟!

فقد كنتم في زمان الكفر مشمولين بنعمتي الله العظيمتين «الأمن والمواهب المعاشية» فكيف يمكن أن يحرمكم الله منهما بعد الإسلام؟!

لتكن قلوبكم قوية وآمنوا بما أُنزل اليكم فإنّ ربّ الكعبة وربّ مكّة معكم.

هنا، ينقدح هذا السؤال، وهو: إنّ التاريخ يدل على أن حرم مكّة لم يكن آمناً للمسلمين للغاية، ألم تعذب طائفة من المسلمين في مكّة؟ ألم يرموا النّبي ﷺ بالأحجار الكثيرة؟! ألم يقتل بعض المسلمين في مكّة؟! ألم يهاجر جماعة من المسلمين من مكّة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة آخرون مع النّبي ﷺ آخر الأمر لعدم الأمن في مكّة؟!

فنقول جواباً على ذلك:

أوّلاً: مع جميع هذه الأُمور ما تزال مكّة أكثر أمناً من النقاط الأُخرى... وكان العرب يحترمونها ويقدسونها، وبالرغم من أنّهم كانوا يقدمون على جرائم متعددة في أماكن أُخرى، إلاّ أنّهم كانوا يحجمون عن الإتيان بمثلها في مكّة.

والخلاصة: فمع عدم الأمن العام والكلي كانت مكّة تتمتع بالأمن النسبي ولاسيما أن الأعراب خارجها كانوا يراعون أمنها وقداستها.

(١) «يجبى» مشتق من مادة «جباية» [«ونمكن» في الآية بمعنى نجعل] والجباية معناها الجمع، لذلك يطلق على الحوض الذي يجمع فيه الماء جابية... ونصبُ كلمة «حرم» على أنّها مفعول لنمكن.

ثانياً: صحيح أن هذه الأرض التي جعلها الله حرماً آمناً أضحت لفترة وجيزة غير آمنة على أيدي جماعة. . . إلاّ أنّها سرعان ما تحولت إلى مركز كبير للأمن وتواتر النعم الكثيرة المتعددة، فعلى هذا لم يكن تحمل هذه الصعاب المؤقتة من أجل الوصول للنعم العظيمة، أمراً عسيراً ومعقداً.

وعلى كلِّ حال، فإنّ كثيراً ممن يقلقون على منافعهم الشخصية، كالحارث بن نوفل، لا يسلكون سبيل الهداية والإيمان. . . في حين أنّ الإيمان بالله والتسليم لأمره، لايؤمن المنافع المعنوية لهم فحسب، بل يؤمن لهم المحيط الصحيح والمنافع المادية المشروعة وما إلى ذلك، وعدم الأمن والغارات والحروب التي نجدها في عصر التمدن - كما يصطلح عليه - وفي الدنيا البعيدة عن الإيمان والهداية، كلّ هذه الأُمور شاهد حي على هذا المدّعى!.

ومن الضروري الالتفات إلى هذه النقطة الأساسية، وهي أنّ الله سبحانه أوّل ما يذكر من نعمه نعمة الأمن، ثمّ يذكر جلب الثمرات والأرزاق وغير ذلك من جميع الأنحاء إلى مكّة، ويمكن أن يكون هذا التعبير مبيّناً هذا الواقع، وهو: طالما كان الأمن حاكماً في بلد كان اقتصاده جيداً، وإلاّ فلا، «قد بيّنا هذا الأمر في بحثنا للآية ٣٥ سورة إبراهيم».

كما أنّ الجدير بالذكر أنّ «يجبى» جاءت على صيغة الفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار في الحال والاستقبال، ونحن اليوم وبعد مرور أربعة عشر قرناً، نرى بأمِّ أعيننا مفهوم هذا الكلام واستمرار جباية جميع أنواع المواهب إلى هذه الأرض المباركة، فالذين يحجّون مكّة ويزورون بيت الله الحرام، يرون بأعينهم هذه الأرض الجرداء الحارة التي لا تنبت شيئاً، كم فيها من النعم! فكأن مكّة غارقة بها، ولعل أية نقطة من العالم ليس فيها ما في مكّة من هذه النعم الوفيرة.

بحث

إيمان أبي طالب والضجيج حوله

هذا الموضوع يبدو عجيباً لمن كان من أهل البحث والمطالعة. . فكيف يصرّ جماعة من رواة الأخبار على أن يزعموا أنّ أبا طالب عليه السلام عم النبي كان مشركاً وغير مؤمن وأنّه مات كافراً!! وهو بإجماع المسلمين كان من الذين بذلوا تضحيات منقطعة النظير، وحمى نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم وضحّى من أجله؟!

ولِمَ لا يكون هذا الإصرار بالنسبة للآخرين الذين لا حظّ لهم في تأريخ الإسلام؟!

هنا نعرف أنّ المسألة ليست مسألة عادية. . ثمّ بأقل ملاحظة وتدقيق نصل إلى هذه النتيجة، وهي أنّ وراء هذه البحوث التاريخية والروائية لعبة سياسيّة خطيرة من أعداء علي عليه السلام ومناوئيه! فقد كانوا يصرّون على سلب كلّ فضيلة له، حتى جعلوا أباه المضحّي والفادي للنبي والمؤثر له على نفسه يموت كافراً بزعمهم!!.

ومن المؤكّد أنّ بني أمية ومريديهم في عصرهم، وقبل أن يصلوا إلى دفة الحكومة، سعوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً لإثبات مدعاهم بالشواهد والحجج الواهية.

ونحن بقطع النظر عن هذه الأمواج السياسية المنحرفة والملوثة، التي هي بنفسها تستحق المطالعة من جهات متعددة. . . نبحث المسألة على أساس أنّها مسألة تأريخية وتفسيرية بحتة، بشكل موجز ومضغوط (كما يقتضيه وضع الكتاب) ليتّضح أن ليس وراء هذا الضجيج أي سند معتبر، بل هناك شواهد حيّة ضده!.

١ - إنّ الآية محل البحث ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ليس لها علاقة بأبي طالب كما بيّنا، وقلنا: إنّ الآيات التي جاءت قبلها تدل بصورة واضحة أنّها في شأن جماعة من أهل الكتاب المؤمنين، في مقابل مشركي مكّة.

الطريف أن الرازي الذي يزعم أنّ الآية نزلت في أبي طالب عليه السلام بإجماع المسلمين!! يصرّح بأنّ الآية ليس فيها أقل دلالة على كفر أبي طالب[1].

ولكن مع هذه الحال فلماذا يصرون فيها على أن يكون أبو طالب عليه السلام مشركاً؟ فهذه مسألة غريبة ومدعاة للدهشة!. . .

٢ - وأهم دليل لديهم في هذا المجال أنّهم ادعوا إجماع المسلمين على أنّ أبا طالب مات مشركاً!.

في حين أنّ مثل هذا الإجماع كذب محض لا أساس له، وهو عار عن الصحة.

فالمفسّر المعروف «الآلوسي» - وهو من علماء السنة - صرح في تفسير روح المعاني أنّ هذه المسألة ليست إجماعية، وحكاية الإجماع من قبل المسلمين أو المفسّرين على أنّ الآية المتقدمة نزلت في أبي طالب تبدو غير صحيحة. . . لأنّ علماء الشيعة وجمع

(١) التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٥، ص ٣.

كثير من المفسّرين يعتقدون بإسلام أبي طالب، وادّعى أئمّة أهل البيت عليهم السلام الإجماع على ذلك، إضافة إلى أنّ أكثر قصائد أبي طالب تشهد على إيمانه(١).

٣ - التدقيق والبحث يدل على أنّ هذا الإجماع المزعوم هو من قبل أخبار الآحاد الذين لا اعتبار لهم، وفي سند هذه الروايات أفراد مشكوك فيهم كذابون.

ومن هذه الرّوايات ما نقله ابن «مردويه» بسنده عن ابن عباس أن آية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نزلت في شأن أبي طالب، وقد أصرّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه أن يؤمن فلم يؤمن(٢).

في حين أنّ في سند هذه الرواية «أبو سهل السري» الذي عرف بين كبار أصحاب علم الرجال بأنّه من الكذابين الوضّاع السارقين للحديث. كما أنّ في سند هذه الرّواية «عبد القدوس أبو سعيد الدمشقي» وهو من الكذابين أيضاً(٣).

وظاهر تعبير الحديث يدل على أنّ ابن عباس ينقل هذا الحديث من غير واسطة وكان شاهداً على ذلك، في حين أنّنا نعرف أن ابن عباس ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات، فعلى هذا كان لا يزال رضيعاً عندما مات أبو طالب عليه السلام ... ومن هنا نستنتج أنّ واضعي الحديث حتى في هذا العمل كانوا مبتدئين وناشئين!!.

وهناك حديث آخر في هذا المجال ينقله «أبو هريرة» إذ يقول: حين دنت وفاة أبي طالب قال له النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا عم قل: لا إله إلاّ الله، لأشهد لك يوم القيامة عند الله بالتوحيد، فقال أبو طالب: لولا أنّ قريشاً تقول إنّ أبا طالب أظهر الإيمان حال الموت خوفاً، لكنت أشهد بالتوحيد وأقرّ عينيك، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(٤).

ويبدو من ظاهر هذا الحديث أنّ أبا هريرة كان شاهداً على هذه القضية، في حين أنّنا نعرف أنّ أبا هريرة أسلم سنة فتح خيبر، بعد الهجرة بسبع سنين، فأين أبو هريرة من وفاة أبي طالب التي حدثت قبل الهجرة...؟!!

وإذا قيل إنّ ابن عباس وأبا هريرة لم يكونا شاهدين على هذه القضية، وسمعا هذه القصّة من شخص آخر فإننا نسأل من هو هذا الشخص؟! فالذي نقل هذا الحديث لهذين

---

(١) روح المعاني، ج ٢٠، ص ٨٤ ذيل الآية مورد البحث.
(٢) الدر المنثور، ج ٥، ص ١٣٣.
(٣) الغدير، ج ٨، ص ٢٠.
(٤) الدر المنثور، ج ٥، ص ١٣٣.

الشخصين - إذاً - مجهول، ومثل هذا الحديث يعرف عند أهل الحديث بالمرسل، والجميع يعلمون بأن لا اعتبار للمراسيل!

ومن المؤسف أنّ جماعة من رواة الأخبار والمفسّرين نقلوا هذا الحديث بعضهم عن بعض دون تدقيق في كتبهم، وشيئاً فشيئاً كوّنوا إجماعاً لهذا الحديث! ولكن أيّ إجماع هذا؟ أم أي حديث معتبر!؟!

٤ - وبعد هذا كلّه، فإنّ متن هذه الأحاديث الموضوعة يدل على أنّ أبا طالب عليه السلام كان مؤمناً بحقانية النّبي، غاية ما في الأمر لم يجر ذلك على لسانه لملاحظات خاصة... ونحن نعرف أنّ الإيمان هو بالقلب، وأمّا اللسان فهو طريق القلب، وفي بعض الأحاديث الإسلامية شبه أبو طالب بأصحاب الكهف الذين كانوا مؤمنين وإن لم يقدروا على إظهار الإيمان على ألسنتهم(١).

٥ - ثمّ هل يمكن القناعة برواية مرسلة عن أبي هريرة أو ابن عباس في مثل هذه المسألة المهمّة، فلِمَ لا يؤخذ بإجماع أئمة أهل البيت عليهم السلام وإجماع علماء الشيعة، وهم أعرف بحال أُسرة النّبي وأهله!!

إنّنا اليوم نحتفظ بأشعار كثيرة لأبي طالب توضح إيمانه بالإسلام ورسالة النّبي (محمّد) صلى الله عليه وآله وسلم، وقد نقل هذه الأشعار طائفة من العلماء والأفاضل في كتبهم (وقد نقلنا طائفة منها في ذيل الآية ٢٦ من سورة الأنعام من مصادر سنية معروفة)!.

٦ - ومع غض النظر عن جميع ما تقدم، فإنّ تاريخ حياة أبي طالب وتضحياته العظيمة للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلاقة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الشديدة به إلى درجة أنّ النّبي سمى عام وفاته بـ«عام الحزن» كلّ ذلك يدل على أنّه كان يعشق الإسلام، ولم يكن دفاعه عن النّبي على أنّه أحد أرحامه، بل دفاع رجل مؤمن مخلص وعاشق نظيف وجندي مضحٍّ عن قائده وإمامه.. فمع هذه الحالة، كم يبلغ الجهل والغفلة والظلم وعدم الشكر بطائفة أن تصرّ على أنّ هذا الرجل المخلص المؤمن الموحّد مات مشركاً(٢).

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ

(١) راجع في هذا الصدد تفسير الصافي وتفسير البرهان ذيل الآية مورد البحث.
(٢) هناك بحث مفصل أوردناه لدى تفسير الآية ٣٦ من سورة الأنعام.

﴿يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٖ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٞ وَأَبْقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾

التّفسير

لا تخدعنكم علائق الدنيا

كان الحديث في الآيات المتقدمة يدور حول ما يدعيه أهل مكّة، وقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علينا، وتتكدر حياتنا ويختل وضعنا المعاشي والاقتصادي.. وقد أجابت الآيات السابقة على هذا الكلام بردٍّ بليغ.

وفي هذه الآيات مورد البحث ردّان آخران على كلامهم:

الأوّل: يقول.. على فرض أنّكم لم تؤمنوا، وحييتم في ظل الشرك مرفهين ماديّاً، ولكن لا تنسوا أن تعتبروا بحياة من قبلكم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾.

أجل، إنّ الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، والبطر أساس الظلم، والظلم يجرّ حياتهم إلى النّار... ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

بلى... بقيت بيوتهم خالية خربة متهدمة مظلمة لم يزرها ولم يسكنها أحد إلاّ لفترة قليلة ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

فيا مشركي مكّة... أتريدون أن تعيشوا حياة البطر والكفر كما عاشه أُولئك، وتكون عاقبتكم كعاقبتهم، فأي نفع في ذلك؟!

كلمة «بطرت» مشتقّة من «بطر» على زنة «بشر» ومعناه الطغيان والغرور على أثر وفرة النعم.

والتعبير بـ«تلك» التي هي اسم إشارة للبعيد، وتستعمل غالباً للأُمور التي يمكن مشاهدتها، ويحتمل أن يكون المقصود بها أرض «عاد وثمود وقوم لوط» التي لا تبعد كثيراً عن أهل مكّة، وهي في أرض الأحقاف بين اليمن والشام، أو في وادي القرى، أو في أرض سدوم، وجميع هذه المناطق في مسير قوافل التجار العرب الذين كانوا يمضون من مكّة إلى الشام، وكانوا يرون تلك البيوت بأُم أعينهم خالية خاوية لم تسكن إلاّ قليلاً.

وجملة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ التي جاءت بصيغة الاستثناء، فيها ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأوّل: أنّ الاستثناء عن الساكنين.

والاحتمال الثّاني: أنّه عن المساكن.

والاحتمال الثّالث: أنّه عن السكن.

ففي الصورة الأُولى يكون مفهومها أن جماعة قليلة سكنتها «أي سكنت تلك المساكن».

وفي الصورة الثّانية يكون مفهومها أن فترة قليلة كان بها السكن في هذه «المساكن» لأنّ من يسكن في هذه المساكن المشؤومة سرعان ما تنطوي فيها صفحة حياته.

وبالطبع فإنّ إرادة المعاني الثلاثة من النصّ السابق لا يوجد لنا أي مشكلة، وإن كان المفهوم الأوّل أظهر.

كما أنّ بعض المفسّرين قال: إنّ المقصود من هذه الآية هو الإشارة إلى السكن المؤقت للمسافرين الذاهبين والآيبين حيث يستريحون فيها لا أكثر، وفسرها آخرون بأنّها إشارة لسكن الحيوانات الوحشية.

والقدر المسلم به أنّ هذه المساكن التي كانت ملوّثة بالإثمّ والشرك أصبحت غير صالحة للسكن فهي خاوية وخالية!

والتعبير بـ ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ إشارة إلى خلّوها من الساكنين، كما هي إشارة إلى أنّ مالكها الحقيقي هو الله سبحانه المالك لكل شيء، وإذا ما أعطى ملكاً «اعتبارياً» لأحد، فإنّه لا يدوم له طويلاً حتى يرثه الله أيضاً.

والآية الثّانية في الحقيقة جواب عن سؤال مقدر، وهو: إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك الله الطغاة، فلِمَ لم يهلك المشركين من أهل مكّة والحجاز، الذين بلغوا حدّاً عظيماً من الطغيان، ولم يكن إثم ولا جهل إلاّ وارتكبوه، ولِمَ لم يعذبهم الله بعذابه الأليم؟

يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾.

أجل... لا يعذب الله قوماً حتى يتمّ عليهم حجّته ويرسل إليهم رسله، وحتى بعد إتمام الحجّة، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإنّ الله لا يعذبهم، وهو يراقب أعمالهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

والتعبير بـ﴿مَا كُنَّا﴾ أو ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ دليل على أنّ سنة الله الدائمة والأبدية التي كانت ولا زالت، هي أن لا يعذب أحداً إلاّ بعد إتمام الحجة الكافية.

والتعبير بـ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ إشارة إلى عدم لزوم إرسال الرسل إلى جميع المدن، بل يكفي أن يبعث في مركز كبير من مراكزها التي تنشر العلوم والأخبار رسولاً يبلغهم رسالاته! لأنّ أهل تلك المناطق في ذهاب وإياب مستمر إلى المركز الرئيسي، لحاجتهم الماسة، وما أسرع أن ينتشرالخبر الذي يقع في المركز إلى بقية الأنحاء القريبة والبعيدة، كما انتشرت أصداء بعثة النّبي ﷺ التي كانت في مكّة - وبلغت جميع أنحاء الجزيرة العربية في فترة قصيرة! لأنّ مكّة كانت أم القرى، وكانت مركزاً روحانياً في الحجاز، كما كانت مركزاً تجارياً أيضاً.. فانتشرت أخبار النّبي ﷺ، ووصلت جميع المراكز المهمّة في ذلك الحين وفي فترة قصيرة جدّاً.

فعلى هذا تبيّن الآية حكماً كلياً وعامّاً، وما يدّعيه بعض المفسّرين من أنّها إشارة إلى «مكّة» لا دليل عليه، والتعبير بـ﴿فِىٓ أُمِّهَا﴾ هو تعبير عام كلي أيضاً.. لأنّ كلمة «أم» تعني المركز الأصلي، ولا يختص هذا بمكّة فحسب[1].

وآخر آية من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثّالث على أصحاب الحجج الواهية، الذين كانوا يقولون للنّبي ﷺ: (ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) ويبعدنا العرب من ديارنا، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ ممّا عندكم من النعيم الفاني.. إذ إنّ نعم الدنيا تشوبها الأكدار والمشاكل المختلفة، وليس من نعمة مادية خالية من الضرر والخطر أبداً.

إضافة إلى ذلك فإنّ النعم التي عند الله «الباقية» لا تُقاس مع النعم الدنيوية الزائلة، فنعم الله - إذن - خير وأبقى!.

فبموازنة بسيطة يعرف كلّ إنسان عاقل أنّه لا ينبغي أن يضحي بنعم الآخرة من أجل نعم الدنيا، ولذلك تختتم الآية بالقول: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟.

يقول «الفخر الرازي» نقلاً عن أحد الفقهاء أنّه قال: لو أوصى أحد بثلث ماله إلى أعقل الناس، فإني أفتي أن يعطى هذا المال لمن يطيع أمر الله، لأنّ أعقل الناس من

(١) في أنّ الآية هل تشمل المستقلات العقلية أم لا، بحثنا في ذلك بحثاً مناسباً في ذيل الآية (١٥) من سورة الإسراء.

يعطي المتاع القليل، (الفاني) ليأخذ الكثير (الباقي) ولا يصدق هذا، إلاّ في من يطيع الله.

ثمّ يضيف الفخر الرازي.. قائلاً: فكأنّما استفاد هذا الحكم من الآية محل البحث(١).

﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾

التّفسير

إنّهم عبدَة الهوى

كان الحديث في الآيات المتقدمة عن الذين فضّلوا الكفر على الإيمان بسبب منافعهم الشخصيّة - ورجّحوا الشرك على التوحيد، وفي الآيات التي بين أيدينا يبيّن القرآن حال هذه الجماعة يوم القيامة قبال المؤمنين الصادقين.

ففي بداية هذه الآيات يلقي القرآن سؤالاً يقارن فيه بين المؤمنين والكافرين، ويثير الوجدان ويجعله حكماً فيقول: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

ولا شك أنّ وجدان يقظ يرجّح وعود الله ومواهبه العظيمة الخالدة، على نعم الدنيا التي لا تطول إلاّ أيّاماً وتتبعها آلام وشقاء خالد؟!

جملة ﴿فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ تأكيد على أن وعد الله لا يتخلف أبداً ولابدّ أن يكون كذلك، لأنّ تخلّف الوعد إمّا ناشىء عن الجهل أو العجز، وكلاهما مستحيل على ذات الله المقدسة.

---

(١) التّفسير الكبير للفخر الرازي، ج ٢٥، ص ٦.

وجملة ﴿هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ إشارة إلى الإحضار في محضر الله يوم القيامة للحساب، وفسّرها البعض بالإحضار في نار جهنّم، ولكن التّفسير الأوّل أنسب كما يبدو، وعلى كلّ حال فإنّ هذا التعبير يدل بصورة واضحة على أنّ المجرمين يساقون مكرهين، وعلى غير رغبة منهم إلى تلك العرصات المخوفة، وينبغي أن يكون الأمر كذلك... لأنّ وحشة الحساب والقضاء يوم القيامة ومشاهدها تغمر وجودهم هناك!.

والتعبير بـ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي تكررت في سور مختلفة من القرآن الكريم، إشارة إلى حقارة هذه الحياة بالنسبة للحياة الأُخرى والخلود فيها وعدم الزوال والاضمحلال، لأنّ كلمة «دنيا» في الأصل مأخوذة من «دنو» على زنة «غلو» ومعناها القرب في المكان أو الزمان أو المنزلة والمقام، ثمّ توسّع هذا المفهوم ليطلق بلفظ «دنيا أو أدنى» على الموجودات الصغيرة التي تحت اليد في مقابل الموجودات الكبيرة، وقد يطلق هذا اللفظ على الموضوعات التي لا قيمة لها في مقابل الأشياء ذات القيمة العالية، وربّما استعمل في القرب في مقابل البعد، وحيث إنّ هذه «الحياة» في مقابل العالم الآخر صغيرة ولا قيمة لها وقريبة أيضاً، فإنّ تسميتها بالحياة الدنيا تسمية مناسبة جدّاً.

بعد هذا، يأتي الكلام عن عرصات يوم القيامة ومشاهدها ليجسّده أمام الكفّار، مشاهد يقشعر منها البدن حين يتصورها الإنسان، فيقول القرآن: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وبديهي أنّ هذا السؤال سؤال توبيخ وإهانة، لأنّ يوم القيامة يوم كشف الحجُب والأستار، فلا مفهوم للشرك، ولا المشركون في ذلك اليوم باقون على عقيدتهم و«شركهم».

فهذا السؤال في الحقيقة فيه نوع من الإهانة والتوبيخ والعقوبة!

ولكنّهم بدلاً من أن يجيبوا بأنفسهم، فإنّ معبوديهم هم الذين يردّون الجواب، ويتبرؤون منهم، ويتنفرون من عبادة المشركين إيّاهم.

ونعرف أنّ معبودات المشركين وآلهتهم على ثلاثة أنواع: فإمّا أن يكونوا أصناماً «وأحجاراً وخُشُباً» أو من المقدسين كالملائكة والمسيح، وإمّا أن يكونوا من الشياطين والجنّ. فالذين يردّون على السؤال ويجيبون هم النوع الثالث، كما حكى عنهم القرآن ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

فعلى هذا تكون الآية السابقة شبيهة بالآية (٢٨) من سورة يونس إذ تقول: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾.

فعلى هذا يرد المعبودون الغواة على عبدتهم ويتبرؤون منهم، كما يبرأ فرعون ونمرود والشياطين والجن من عبدتهم وقومهم ويتنفرون منهم، ويدافعون عن أنفسهم، حتى أنّهم ينسبون الضلالة لمن تبعهم ويقولون: إنّهم تبعونا طوعاً... الخ.

ولكن - من البديهي - ليس لهذا النفي أثر، ولا تنفع البراءة منهم، فالعابد والمعبود معاً شريكان «في النّار»[1].

الطريف الذي يستلفت النظر، هو أنّ كلّ واحد من المنحرفين يتبرأ في ذلك اليوم من الآخر وكلٌّ يسعى لأن يلقي تبعة ذنبه على صاحبه.

وهذا يشبه تماماً ما قد نراه في هذه «الدنيا» من اجتماع رهط على أمر ما حتى إذا وقعوا في مخالفة القانون، وألقي القبض عليهم، وأحضروا إلى المحكمة، يتبرأ كلّ واحد من الآخر ويلقي بعضهم الجريمة على صاحبه، فهكذا هي عاقبة المنحرفين والضالين في الدنيا والآخرة!

كما نجد مثل هذا في الآية (٢٢) من سورة إبراهيم ﴿وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾.

ونقرأ في الآية (٣٠) من سورة الصافات في شأن المشركين الذين يتحاجون في يوم القيامة مع أتباعهم فيقولون: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

وعلى كلّ حال، فتعقيباً على السؤال عن آلهتهم. وعجز المشركين عن الجواب. يطلب أن يدعوهم لنصرتهم ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَآءَكُمْ﴾[2].

وحيث يعلم المشركون أن دعاءهم غير نافع، وأن المعبودين «الشركاء» لايمكن أن

---

(١) ويحتمل في الآية الآنفة - أيضاً - أنّ القائلين جواباً على سؤال الله هم رؤساء المشركين «أي جماعة من عبدة الأصنام» فهم من أجل أن يفروا عن الجواب يتحدثون عن أتباعهم، ويقولون: ربّنا إنّنا غوينا فمضينا في طريق الشرك، وهؤلاء اتبعونا طوعاً فأغويناهم، ولكنّهم لم يطيعونا «العبادة في الآية الآنفة معناها الطاعة» وإنّما أطاعوا هواهم، ولكن التّفسير السابق أظهر.

(٢) التعبير بـ«شركاءكم» مع أنّ هؤلاء الشركاء كانوا قد جعلوا شركاء الله سبحانه، هو إشارة إلى أنّ هؤلاء الشركاء من صنعكم وهم متعلقون بكم لا بالله...

يفعلوا شيئاً من شدّة الهلع والوحشة، أو استجابة لأمر الله الذي يريد أن يفضح المشركين والشركاء أمام أعين الخلق، يتوجهون إلى الشركاء ويدعونهم كما يقول القرآن الكريم: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾.

ومن الواضح أنّه لا أثر لهذا النداء والطلب، ولا يقال لهم «لبيك».. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾. فحينئذ لا ينفعهم شيء ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾.

ويتمنون ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾(١).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾

التّفسير

تعقبُ الآيات محل البحث، على ما كان في الآيات السابقة في شأن المشركين وما يسألون يوم القيامة.

(١) بحث المفسّرون في الآية ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ بحوثاً شتى، فكثير منهم قالوا بأنّ «لو» حرف شرط هنا، فبحثوا عن الجزاء، فقالوا: يستفاد من جملة ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وتقدير الجملة يكون هكذا: «لو أنّهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب في الدنيا بعين اليقين».
وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ في سورة التكاثر الآية السادسة.
كما يرى البعض أنّ التقدير هكذا (لو أنّهم كانوا يهتدون في الدنيا لما رأوا العذاب في الآخرة).
وزعم بعضهم أنّ الجزاء غير ما تقدم «يطول بها البحث هنا».
لكنّ بعضهم يعتقد أنّ جواب الشرط «الجزاء» غير محذوف أساساً، وجملة ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ هي الجواب المتقدم، وما بعده جملة الشرط، فيكون المعنى هكذا: (لو كانوا يرون ويهتدون لرأوا العذاب لكنّهم لم يهتدوا)!...
لكن وراء كل هذه المعاني معنى آخر ذكرناه في بيان الآية آنفاً، وهو أن نفسر معنى لو بـ «تمنّوا»، فلا بأس بمراجعة الكتب اللغوية والأدبية «كمغني اللبيب» وغيره!.

فبعد أن يُسألوا عن شركائهم ومعبوديهم، يسألون عن مواقفهم وما أبدوه من عمل إزاء أنبيائهم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ .

ومن المسلم به أنّ هؤلاء «المشركين» لا يملكون جواباً لهذا السؤال، كما لم يملكوا للسؤال السابق جواباً.

تُرى: أيقولون بأنّنا لبيّنا دعوة المرسلين؟ فهذا كذب محض! والكاذب خاسر في ذلك اليوم، أم يقولون بأنّنا كذّبناهم، واتهمناهم، وقلنا لهم بأنّكم سحرة ومجانين وحاربناهم وقتلناهم مع أتباعهم؟

ما عسى أن يقولوا هناك؟! فكلّ ما يقولون كاشف عن فضيحتهم وشقائهم! حتى أنّ الأنبياء والمرسلين في ذلك اليوم يجيبون ربّهم حين يسألون: ﴿مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾(١) .

ما الذي يقوله في ذلك اليوم وفي ذلك المكان عمي القلوب من المشركين؟!

لذلك يكشف القرآن عن حالهم هناك فيقول: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً ولا يعرفون جواباً!

والذي يستلفت النظر أن العمى نسب في الآية للأنباء لا للمشركين فلا يقول عمي المشركون هناك بل يقول: «عميت عليهم الأنباء». . لأنّه كثيراً ما يحدث أن يكون الإنسان غير عالم بالخبر، لكنّه يصله بانتشاره على أفواه الناس، كما يتفق لنا أن نكون جاهلين بالشيء أحياناً فنعرف به حين ينتشر بين المجتمع، لكن في يوم القيامة، لا الناس مطّلعون، ولا الأخبار تنتشر!

فعلى هذا تعمى الأخبار، فلا يملكون جواباً هناك على قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فيحيط بهم الصمت من قرنهم إلى أقدامهم.

وحيث إنّ أسلوب القرآن هو ترك الأبواب مفتوحة بوجه الكافرين والآثمين دائماً، لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الحق في أي مرحلة كانوا من الإثم، فإنّه يضيف في الآية التي بعدها: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ .

فسبيل النجاة - حسب ما يوضحه القرآن - يتلخّص في ثلاث جمل هي العودة والتوبة إلى الله، والإيمان، والعمل الصالح، وعاقبتهما النجاة والفلاح حتماً.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٩.

والتعبير بعسى «من أفعال الرجاء» مع أنّ الذي آمن وعمل صالحاً فهو من أهل الفلاح حتماً - ربّما كان لأنّ الإيمان والعمل الصالح مشروطان بالبقاء والدوام عليهما، وحيث إنّ التائبين لا يبقى جميعهم على التوبة، بل قد يعود بعضهم لعمله السابق، عبر القرآن بقول: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ . . . إلخ.

قال بعض المفسّرين: التعبير بـ«عسى» حين يكون من شخص كريم، فإنّه يدل على المفهوم القطعي، والله سبحانه أكرم الأكرمين.

والآية التي بعدها في الحقيقة دليل على نفي الشرك وبطلان عقيدة المشركين، إذ تقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾(١).

فالخلق بيده، والتدبير والاختيار بيده أيضاً، وهو ذو الإرادة، وليس لأحد سواه أن يفعل ما يشاء، فكيف بالأصنام؟!

فاختيار الخلق بيده، والشفاعة بيده، وإرسال الرسل بيده أيضاً، والخلاصة أنّ اختيار كلّ شيء متعلق بمشيئته وإرادته المقدّسة، فعلى هذا لا يمكن للأصنام أن تعمل شيئاً، ولا حتى الملائكة والأنبياء، إلاّ أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى!

وعلى كلّ حال فإطلاق الاختيار دليل على عموميته. . بمعنى أنّ الله سبحانه صاحب الاختيار في الأُمور التكوينية والأُمور التشريعية أيضاً. . فجميعها يتعلقان به.

فمع هذه الحال، كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك ويتجهون نحو غير الله؟ لذلك فإنّ الآية تنزه الله عن الشرك وتقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وفي الرّوايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام فُسرت الآية المتقدمة باختيار الأئمّة المعصومين من قبل الله سبحانه - وجملة ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أيضاً وردت في هذا المعنى، وهي في الواقع من قبيل بيان المصداق الواضح، لأنّ مسألة حفظ الدين والمذهب واختيار القائد المعصوم لأجل هذا الهدف، لا تكون إلاّ من قِبَل الله تعالى(٢).

(١) «ما» في جملة «ما كان لهم الخيرة» نافية، ولكن البعض يحتمل أنّها موصولة ومعطوفة على المفعول المحذوف «ليختار» لكن هذا الاحتمال بعيد جداً. . .

(٢) أصول الكافي، ج١، ص٢٠١، وتفسير علي بن إبراهيم «طبقاً لتفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٣٦».

أمّا الآية التي بعدها فتتحدث عن علم الله الواسع، وهي في الحقيقة تأكيد أو دليل على الاختيار الواسع في الآية السابقة، إذ تقول هذه الآية: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

فإحاطته بكل شيء دليل على اختياره لكل شيء، كما هي - ضمناً - تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أن الله غير مطلع على سرائرهم ونيّاتهم و«مؤامراتهم».

والآية الأخيرة من هذا المقطع - هي نتيجة الحكم، وتوضيح للآيات السابقة في مجال نفي الشرك، وهي ذات أربعة أوصاف من أوصاف الله، وجميعها فرع على خالقيته واختياره.

فالأول: أنّه ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

فكيف يمكن أن يكون معبود آخر سواه، وهو الخالق وحده وجميع الاختيارات بأمره وبيده. فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند الله فهو من المضلين الخاطئين.

والثّاني: أنّ جميع النعم دنيويةً كانت أم أُخروية هي منه، وهي من لوازم خالقيته المطلقة، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾.

الثّالث: أنّه ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ فهو الحاكم في هذا العالم، وفي العالم الآخر.

والرّابع: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والثواب والعقاب.

فالله الخالق، وهو المطّلع، وهو الحاكم يوم الجزاء، وبيده الحساب والثواب والعقاب.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ
يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ
النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ
الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

التّفسير

نعمتا «الليل والنهار» العظيمتان

هذه الآيات - محل البحث - تتحدث عن قسم كبير من مواهب الله سبحانه، التي تدل على التوحيد ونفي الشرك من جهة، كما أنّها تكمّل البحث السابق. . وتذكر مثلاً للنعم التي تستوجب الحمد والثناء. . الحمد المشار إليه في الآيات المتقدمة، كما هي في الوقت ذاته شاهد على اختيار الله وتدبيره في نظام الخلق من جهة أُخرى!.

ففي الآية الأُولى من هذه الآيات إشارة إلى نعمة النهار والنور الذي هو أساس لأية حركة، فتقول الآية: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾(١).

هنا عبّر عن النهار بالضياء، لأنّ الهدف الأصلي من النهار هو الضياء والانبلاج، ذلك الضياء الذي تتعلق به حياة كلّ الموجودات الحية، فلولا ضياء الشمس لما تنسمت «زهرة» ولانمت «شجرة» ولا طار «طائر» ولا بقي «إنسان» ولا هطل «مطر».

«السرمد» معناه الدائم المتواصل، ويرى البعض بأنّه المتتابع، وأصله «سرد» ويرون أنّ ميمها زائدة. . . لكن الظاهر أنّها كلمة مستقلة تعطي معنى الدوام والاستمرار(٢).

كما تتحدث الآية الأُخرى عن نعمة الظلمة فتقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أمّا الآية الثّالثة فتحكي عن نتيجة النعمة المشار إليها في الآيتين السابقتين فتقول ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

أجل، إنّ سعة رحمة الله تستوجب أن تضمن جميع عوامل حياتكم، فأنتم - من جانب - بحاجة إلى السعي والحركة، وكل ذلك لابدّ لهما من الليل!

لقد ثبت - في هذا العصر - علمياً أنّ جميع أجهزة البدن تكون فعالةً ونشطة مع

---

(١) «أرأيتم» جملة تأتي بمعنى «أخبروني» عادةً، كما فسّروها، ولكن كما قلنا سابقاً تأتي أحياناً بمعنى: هل علمتم؟!

(٢) قال أهل اللغة: إنّ كلمة «سرمدي» تطلق على ما ليس له بداية ولا نهاية، و«الأزلي» ما ليس له بداية، و«الأبدي» ما ليس له نهاية. . .

وجود النور، إذ تنشط الحركة الدموية والجهاز التنفسي وحركة القلب وسائر الأجهزة، وإذا استمر النور أكثر من المعتاد تعبت خلايا الجسم وتحول النشاط إلى خمول!

وبالعكس فإنّ الخلايا تهدأ في الليل وتستريح استراحة عميقة تستعيد نشاطها وقواها «شرحنا هذا المعنى في الجزء السادس ذيل الآية ٦٧ من سورة يونس والآية (١٢) من سورة الإسراء»، الطريف هنا أنّ الآية حين تتحدث عن سرمديّة الليل تخاطب الناس قائلة: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ . . . وحين تتحدث عن سرمدية النهار تخاطبهم قائلة: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ولعل هذا التعبير لأجل أنّ الحسّ المناسب لليل هو السمع والأذن، وما يناسب النهار هو البصر والعين. . إلى هذه الدرجة نلاحظ الدقّة في القرآن الكريم.

كما أنّ من الجدير الالتفات إلى أنَّ الآية هنابعد ذكر مسألتي السمع والبصر أو الليل والنهار، تختتم الحديث بالقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الشكر إزاء النظام المحسوب النور والظلمة، الشكر الذي يوصل الإنسان إلى معرفة المنعم والشكر الذي يكون باعثاً على الإيمان في المباحث الإعتقادية!.

ومرّة أُخرى - بعد ذكر جانب من دلائل التوحيد ونفي الشرك - يعود القرآن الكريم على السؤال الأوّل الذي أُثير في الآيات السابقة ليقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.

وهذه الآية مكررة في السورة نفسها، إذ وردت بنصّها في الآية ٦٢، ولعل هذا التكرار ناشىء عن السؤال مرتين في يوم القيامة، مرّة بصورة انفرادية ليعودوا إلى وجدانهم فيخجلوا من أنفسهم، ومرّة بصورة عامّة في محضر الشهود، وهو ما أشير إليه في الآية التي بعدها. . ليخجلوا أيضاً من حضورهم.

لذلك تأتي الآية التي بعدها فتقول: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾(١).

وحين تنكشف المسائل وتتجلى الأُمور لا تبقى خافية ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

هؤلاء الشهود هم الأنبياء بقرينة الآيات الأُخرى في القرآن، إذ أنّ كلّ نبي شاهد على

(١) التعبير بـ«نزعنا» التي تعني جذب الشيء من مقرّه، هي إشارة إلى إحضار الشهود من بين كل جماعة وأمة. . .

أمته، ونبيّ الإسلام ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء والأُمم، كما نقرأ ذلك في الآية (٤١) من سورة النساء ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

فعلى هذا، ينعقد يوم القيامة مجلس كبير بحضور الأنبياء، ويؤتى بالمشركين المعاندين عمي القلوب، وهناك يعرفون الفاجعة العظمى للشرك، وحقانية الله، وضلال الأصنام... بجلاء.

ومن الطريف أنّ القرآن يعبر بـ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي إنّ تصوراتهم واعتقاداتهم في الأصنام تمحى عنهم يوم القيامة، لأنّ عرصة القيامة عرصة الحق، ولا مكان للباطل هناك، فالباطل يضل هناك ويمحى من الوجود!.

فإذا كان الباطل يغطي وجهه هنا (في هذا العالم) بستار من الحق ليخدع الناس أيّاماً، فهناك تنكشف الحجب ولا يبقى سوى الحق.

نقرأ في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، وقوله: «ومن هذه الأمة إمامها»[(١)].

وهذا الكلام إشارة إلى أنّه لابدّ في كلّ عصر وزمان من شاهد معصوم للأُمة، والحديث آنف الذكر من قبيل بيان مصداق هذا المفهوم القرآني.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(١) تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٢٠٠.

التّفسير

الثّري الإسرائيلي البخيل

جاء تفصيل قصّة موسى عليه السلام العجيبة ومواجهاته ومواقفه مع فرعون في قسم كبير من الآيات السابقة في هذه السورة.. وذكرنا الأقوال فيها، وكان الكلام إلى حدٍّ ما كافياً عليها.

وفي القسم الآخر من آيات هذه السورة، وقع الكلام على مواجهة بني إسرائيل مع رجل ثري منهم يدعى «قارون».

قارون هذا كان مظهراً للثراء المقرون بالكبر والغرور والطغيان.

وأساساً، فإنّ موسى عليه السلام واجه في طول حياته ثلاث قوى استكبارية طاغوتية:

١ - «فرعون» الذي كان مظهراً للقوّة «والقدرة في الحكومة».

٢ - «قارون» الذي كان مظهراً للثروة والمال!

٣ - «السامري» الذي كان مظهراً للنفاق والصناعة.

وبالرغم من أنّ أهم مواجهات موسى عليه السلام هي مواجهته لفرعون و«حكومته» إلاّ أنّ مواجهتيه الأخيرتين لهما أهميّة كبيرة أيضاً، وفيهما دروس ذات عبر ومحتوى كبير!.

المعروف أنّ «قارون» كان من أرحام موسى وأقاربه «ابن عمه أو ابن خالته» وكان عارفاً بالتوراة، وكان في بداية أمره مع المؤمنين، إلاّ أنّ غرور الثروة جرّه إلى الكفر ودعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السلام وأماته ميتة ذات عبرة للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك في الآيات التالية:

يقول القرآن في شأنه أوّلاً: ﴿إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وسبب بغيه وظلمه أنّه كان ذا ثروة عظيمة، ولأنّه لم يكن يتمتع بإيمان قوي وشخصية متينة فقد غرّته هذه الثروة الكبيرة وجرّته إلى الانحراف والاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروة فيقول: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

«المفاتح» جمع «مفتح» على زنة «مكتب» معناه المكان الذي يدخّر فيه الشيء، كالصندوق الذي يحفظ فيه المال، وهو ما يسميه بعض التجار بـ«القاصة».

فيكون المعنى: إنّ قارون كان ذا مال كثير ووفير من الذهب والفضّة، بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء ﴿أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

ومع ملاحظة كلمة «عصبة» التي تعني الجماعة المُتآزرة يداً بيد على الأمر المهم، يتّضح حجم الذهب والفضة والمعادن الثمينة التي كانت عند قارون، قال بعضهم: العصبة هي من عشرة رجال إلى أربعين رجلاً.

وكلمة «تنوء» مشتقّة من «النوء» ومعناه القيام بمشقّة وثقل، وتستعمل في حمل الأثقال التي لها ثقل ووزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه!.

وهذا الذي بيّناه في «المفتاح» اتفق عليه جماعة من المفسّرين.

في حين أنّ بعضهم يرى أنّها جمع «مفتح» على زنة «مِنْبَر» وهو المفتاح الذي تفتح به الخزائن، يقولون: إنّ خزائن قارون كانت من الكثرة إلى درجة أنّ مفاتيحها ينوء بحملها الرجال الأشداء.

والذين ذهبوا إلى هذا المعنى أتعبوا أنفسهم كثيراً في توجيهه، إذ كيف يمكن تصور عدد هذه «المفتاح» بشكل هائل حتى لا يمكن حملها إلاّ بمشقّة وعناء بالغين.. وعلى كلّ حال فإنّ التّفسير الأوّل أقرب للنظر وأوضح بياناً، لأنّنا وإن سلّمنا على أن «مِفتَح، بكسر الميم» تعني آلة الفتح أي «المفتاح» فإنّ أهل اللغة ذكروا لهذا الوزن (مِفتَح) معانٍ أُخرى منها «الخزانة» التي يجمع فيها المال، فالمعنى الأوّل أقرب للواقع وبعيد عن المبالغة، فلا ينبغي الخلط بين «المفاتح» التي تعني الخزائن، و«المفاتيح» التي تعني آلات الفتح، وهي جمع «مفتاح»(١).

فلنتجاوز هذا البحث لنرى ما قال بنو إسرائيل لقارون، يقول القرآن في هذا الصدد: «إذ قال له قومه لا تفرح إنّ الله لا يحبّ الفرحين»(٢).

ثمّ يقدمون له أربع نصائح قيّمة أُخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسية من النصائح مع ما تقدم من قولهم له: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾.

فالنصيحة الأولى قولهم له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ وهذا إشارة إلى أنّ المال والثروة ليس أمراً سيئاً كما يتصوره بعض المتوهّمين، المهم أن تعرف فيم

---

(١) فسّر بعضهم «المفتاح» تفسيراً آخر، وهو أنّ الإتيان بالمفتاح لحفظ الأموال وجمعها كان صعباً على الرجال الأشداء، ولكن هذا التفسير بعيد جداً «فلا بأس بمراجعة لسان العرب لزيادة الإيضاح».

(٢) كلمة «الفرحين» جمع الفرح، وتعني من يكون مغروراً على أثر تملكه الشيء ومتكبراً بطراً منتشياً من ريح النّصر.

يستعمل المال، وفي أي طريق ينفق، فإذا ابتغي به الدار الآخرة فما أحسنه! أو كان وسيلة للعب والهوى والظلم والتجاوز، فلا شيء أسوأ منه!

وهذا هو المنطق الذي ورد على لسان أمير المؤمنين عليه السلام في كلام معروف «من أبصر بها بصّرته ومن أبصر إليها أعمته»[1].

وكان قارون رجلاً ذا قدرة على الأعمال الاجتماعية الكبيرة بسبب أمواله الطائلة، ولكن ما الفائدة منها وقد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

والنصيحة الثّانية قولهم له: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ والآية تشير إلى مسألة واقعيّة، وهي أنّ لكل فرد منّا نصيباً من الدنيا، فالأموال التي يصرفها على بدنه وثيابه ليظهر بمظهر لائق هي أموال محدودة، وما زاد عليها لا تزيد مظهره شيئاً، وعلى الإنسان أن لا ينسى هذه الحقيقة!... فالإنسان... كم يستطيع أن يأكل من الطعام؟ وكم يستطيع أن يلبس من الثياب؟ وكم يمكن أن يحوز من المساكن والمراكب؟! وإذا مات وكم يستطيع أن يأخذ معه من الأكفان؟!

فالباقي - إذن - رضي أم أبى هو من نصيب الآخرين.

وما أجمل قول الإمام علي عليه السلام: «يابن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك»[2].

وهناك تفسير آخر لهذه الجملة في الرّوايات الإسلامية وكلمات المفسّرين، ويمكن التوفيق بين هذا التّفسير والتّفسير السابق (لأنّ استعمال اللفظ في أكثر من معنى جائز).

إذ ورد في تفسير ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «لا تنس صحتك وقدرتك وفراغك وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة»[3].

وطبقاً لهذا التّفسير فالعبارة المتقدمة بمثابة التنبيه لجميع الناس، لئلا يضيعوا أوقاتهم وفرصهم فإنّها تمر مرّ السحاب.

والنصيحة الثّالثة هي: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.

وهذه حقيقة أُخرى، وهي أنّ الإنسان يرجو دائماً نعم الله وإحسانه وخيره ولطفه،

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٨٢.
(٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار الكلمة ١٩٢.
(٣) وسائل الشيعة، ج١، ص٨٩، ح٢١١، ومعاني الأخبار، مطابق تفسير نور الثقلين، ج ٤، ص ١٣٩.

وينتظر منه كلّ شيء، فبمثل هذه الحال كيف يمكن له التغاضي عن طلب الآخرين الصريح أو لسان حالهم.. وكيف لا يلتفت إليهم!.

وبتعبير آخر: كما أنّ الله تفضل عليك وأحسن، فأحسن أنت إلى الناس.

وشبيه هذا الكلام نجده في الآية (٢٢) من سورة النور في شأن العفو والصفح، إذ تقول الآية: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

ويمكن تفسير هذه الجملة بتعبير آخر، وهو أنّ الله قد يهب الإنسان مواهب عظيمة لايحتاج إليها جميعاً في حياته الشخصيّة فقد وهبه العقل والقدرة التي لا تدير فرداً واحداً فحسب، بل تكفي لإدارة بلد أيضاً ووهبه علماً لا يستفيد منه إنسان واحد فقط، بل ينتفع به مجتمع كامل.

أعطاه مالاً وثروة لتنفيذ المناهج الاجتماعية.

فهذه المواهب الإلهية مفهومها الضمني أنّها لا تتعلق بك وحدك - أيّها الإنسان - بل أنت وكيل مخوّل من قبل الله لنقلها إلى الآخرين، أعطاك الله هذه المواهب لتدير بها عباده!.

والنصيحة الرابعة والأخيرة أن لا تغرنّك هذه الأموال والإمكانات المادية فتجرّك إلى الفساد: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وهذا أيضاً حقيقة واقعية أُخرى، إنّ كثيراً من الأثرياء وعلى أثر جنون زيادة المال - أحياناً - أو طلباً للاستعلاء، يفسدون في المجتمع، فيجرّون إلى الفقر والحرمان، ويحتكرون جميع الأشياء في أيديهم، ويتصورون أنّ الناس عبيدهم ومماليكهم، ومن يعترض عليهم فمصيره الموت، وإذا لم يستطيعوا اتهامه أو الإساءة إليه بشكل صريح، فإنّهم يجعلونه معزولاً عن المجتمع بأساليبهم وطرائقهم الخاصة...

والخلاصة: إنّهم يجرون المجتمع إلى الفساد والانحراف.

وفي كلام جامع موجز نصل إلى أنّ هؤلاء الناصحين سعوا أولاً إلى أن يكبحوا غرور قارون!.

ثمّ نبهوه أنّ الدنيا إنّما هي وسيلة - لا هدف - في مرحلتهم الثّانية.

وفي المرحلة الثّالثة أنذروه بأنّ ما عندك تستفيد من قسم قليل منه، والباقي لغيرك.

وفي المرحلة الرابعة أفهموه هذه الحقيقة، وهي أن لا ينسى الله الذي أحسن إليه فعليه أن يحسن إلى الآخرين... وإلاّ فإنّهُ يسلب مواهبه منك.

وفي المرحله الخامسة حذّروه من أنّ مغبة الفساد في الأرض الذي يقع نتيجة نسيان الأصول الأربعة آنفة الذكر.

وليس من المعلوم بدقّة من هم الناصحون لقارون يومئذ ولكن القدر المسلم به أنّهم رجال علماء متقون، أذكياء، ذوو نجدة وشهامة، عارفون للمسائل الدقيقة الغامضة!.

ولكن الاعتقاد بأنّ الناصح لقارون هو موسى عليه السلام نفسه بعيد جدّاً، لأنّ القرآن يعبّر عن من قدّم النصح بصيغة الجماعة ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾.

والآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغي والظالم الإسرائيلي لجماعته الواعظين له!

فأجابهم قارون بتلك الحالة من الغرور والتكبر الناشئة من ثروته الكبيرة، و﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

هذا لا يتعلق بكم، وليس لكم حق أن ترشدوني إلى كيفية التصرف بمالي، فقد أوجدته بعلمي وإطلاعي.

ثمّ إنّ الله يعرف حالي ويعلم أنّي جدير بهذا المال الذي أعطانيه، وعلمني كيف أتصرف به، فلا حاجة إلى تدخلكم!

وبعد هذا كله فقد تعبت وبذلت جهوداً كبيرة في سبيل جمع هذا المال، فإذا كان الآخرون جديرين بالمال، فلِمَ لا يتعبون ويجهدون أنفسهم؟ فلست مضايقاً لهم، وإذا لم يكونوا جديرين، فليجوعوا وليموتوا فهو أفضل لهم[(١)].

هذا المنطق العفن المفضوح طالما يردده الأثرياء الذين لا حظّ لهم من الإيمان أمام من ينصحهم.

وهذه اللطيفة جديرة بالالتفات وهي أنّ القرآن لم يصرّح بالعلم الذي كان عند قارون وأبقاه مبهماً، ولم يذكر أي علم كان عند قارون حتى استطاع بسببه الحصول على هذه الثروة الطائلة!.

أهو علم الكيمياء، كما فسّره بعضهم.

أم هو علم التجارة والصناعة والزراعة.

---

(١) جملة ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ تصلح للمعاني الثلاثة المتقدمة جميعاً، كما أنّها تصلح لأي واحد منها كما فسروا (فتأملوا بدقّة).

أم علم الإدارة الخاص به، الذي استطاع بواسطته أن يجمع هذه الثروة العظيمة.

أم جميع هذه العلوم!

لا يبعد أن يكون مفهوم الآية واسعاً وشاملاً لجميع هذه العلوم «بالطبع بصرف النظر عن أنّ علم الكيمياء علم يستطاع بواسطته قلب النحاس وأمثاله ذهباً، وهل هو خرافة أم حقيقة واقعية»؟

وهنا يجيب القرآن على قول قارون وأمثاله من المتكبرين الضالين، فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

أتقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ ونسيت من كان أكثر منك علماً وأشدّ قوّة وأثرى مالاً، فهل استطاعوا أن يفروا من قبضة العذاب الإلهي؟!

لقد عبّر أولو الألباب والضمائر الحيّة عن المال بقولهم لقارون: ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾، ولكن هذا الغافل غير المؤدّب ردّ على قولهم بأنّ ما عنده من مال فهو بواسطة علمه!!

لكن الله سبحانه عبّر عن حقارة قوّته وقدرته أمام إرادته ومشيئته جلّ وعلا بالعبارة المتقدمة آنفاً.

وفي ختام الآية إنذار ذو معنى كبير آخر لقارون، جاء في غاية الإيجاز: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

فلا مجال للسؤال والجواب، فالعذاب واقع - لا محالة - بصورة قطعيّة ومؤلمة، وهو عذاب فجائي مُدمّر!.

وبعبارة أُخرى إنّ العلماء من بني إسرائيل نصحوا قارون هذا اليوم وكان لديه مجال والجواب، لكن بعد إتمام الحجة ونزول العذاب الإلهي، عندئذ لا مجال للتفكير والجواب، فإذا حلّ العذاب الإلهي بساحته فهو الهلاك الحتمي.

هنا يرد سؤال حول الآية التي تقول: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي سؤال هذا الذي نفاه الله أهو في الدنيا أم في الآخرة؟!

قال بعض المفسّرين: إنّ المقصود بعدم السؤال هو في الدنيا، وقال بعضهم: بل المقصود أنّه في الآخرة! لكن لا مانع من أن يكون عدم السؤال في الدارين «الدنيا والآخرة».

أي لا يسألون حال نزول العذاب في الدنيا، لئلا يدافعوا عن أنفسهم ويبرئوا

ساحتهم، ويظهروا الأعذار تلو الأعذار، ولا يُسألون يوم القيامة - أيضاً - لأنّ يوم القيامة لا يبقى فيه شيء خافياً، فكل شيء واضح، وكما يعبّر القرآن تعبيراً دقيقاً في هذا الصدد ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾(١).

وكذلك فإنّ الآية - محل البحث - ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ منسجمة تمام الانسجام مع الآية من سورة الرحمن إذ تقول: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.

هنا ينقدح سؤال آخر، وهو كيف ينسجم هذا التعبير في القرآن مع قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

ويمكن الإجابة على هذا السؤال عن طريقين:

الأوّل: إنّ المواقف في يوم القيامة متعددة، ففي بعضها يقع السؤال والجواب وفي بعض المواقف لا حاجة للسؤال، لأنّ الحجب مكشوفة، وكل شيء واضح هناك.

الثّاني: إنّ السؤال عادة نوعان.. «سؤال تحقيق» و«سؤال توبيخ» فليس في يوم القيامة سؤال للتحقيق، لأنّ كلّ شيء هناك مكشوف عياناً وواضح دون لبس، ولكن يوجد هناك سؤال توبيخ وهو بنفسه نوع من العذاب النفسي للمجرمين.

وينطبق هذا تماماً في ما لو سأل الأب ابنه غير المؤدب: ألم أقدم لك كلّ هذه الخدمات... أهذا جزاء ما قدمت؟! في حين أنّ كلا من الأب والابن يعرفان الحقيقة، وأن قصد الأب من سؤاله لابنه هو التوبيخ لا غير!.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤١.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٢.

التّفسير

جنون الثّروة

المعروف أنّ أصحاب الثروة يبتلون بأنواع الجنون. . . وواحد منها «جنون عرض الثروة وإظهارها» فهؤلاء يشعرون باللذة عندما يعرضون ثروتهم على الآخرين، وحين يعبرون على مركب غال وثير ويمرّون بين حفاة الأقدام فيتصاعد الغبار والأتربة لينتشر على وجوههم، ويحقّرونهم بذلك، فحينئذ يشعرون بالراحة النفسية والنشوة تدغدغ قلوبهم. .

وبالرغم من أن عرض الثروة هذا غالباً ما يكون سبباً للبلاء عليهم، لأنّه يربي الأحقاد في الصدور ويعبىء الحساسيّات ضده، وكثيراً ما ينهي هذا العمل الرديء حياة الإنسان، أو يزيل ثروته مع الريح!.

ولعل هذا الجنون يحمل هدفاً من قبيل إغراء الطامعين وتسليم الأفراد المعاندين، ولكن الأثرياء غالباً ما يقومون بهذا العمل دون هدف، لأنّه نوع من الهوى والهوس وليس خطة أو برنامجاً معيناً.

وعلى كلّ حال فإنّ قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون، بل كان يعدّ مثلاً بارزاً له، والقرآن يتحدث عنه في جملة موجزة في بعض آياته فيقول: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾. أمام قومه من بني إسرائيل.

والتعبير بـ ﴿فِى زِينَتِهِۦ﴾ ناطق عن هذه الحقيقة، وهي أنّه أظهر جميع قدرته وقوته ليبدي ما لديه من زينة وثروة.

ومعلوم طبعاً أنّ رجلاً بهذه المثابة من الثروة ماذا يستطيع أن يفعل!؟

وينقل في التاريخ - في هذا الصدد قصصاً كثيرة - مقرونة بالأساطير أحياناً، فإنّ بعضهم يكتب أنّ قارون خرج في استعراض كبير، وقد أركب أربعة آلاف نفر على أربعة آلاف فرس حُمر «غالية القيمة» مغطاة بالقماش الفاخر، وقد ملأها زينة من الذهب والجواهر الأُخرى، فمرّ بهذا الاستعراض على بني إسرائيل. . وقد أثار هذا المنظر الناس، إذ رأوا أربعة آلاف من الخدم أبيض يلبسون ثياباً حُمراً مع زينتهم.

وقال بعضهم: بل بلغ عدد هؤلاء «الخدم والحشم» سبعة آلاف نفر، وذكروا أخباراً أُخرى في هذا الصدد.

ولو فرضنا أنّ كلّ ذلك مبالغ فيه، إلاّ أنّه لا يمكن إنكار هذه الحقيقة، وهي أن قارون لديه ثروات مهمّة أظهرها في زينته!

هنا أصبح الناس طائفتين - بحسب العادة فطائفة وهم الأكثرية - من عبدة الدنيا - أثارهم هذا المشهد، فاهتزت قلوبهم وتأوهوا بالحسرات وتمنوا لو كانوا مكان قارون ولو يوماً واحداً ولو ساعة واحدة وحتى ولو لحظة! واحدة...

فأيّة حياة عذبة جميلة هذه الحياة التي تهب اللذات والنشاط... ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

هنيئاً لقارون ولثروته العظيمة!.. وما أعظم جلاله وعزّته.. ولا نظن في التاريخ أحداً أعطاه الله ما أعطى قارون.. وما إلى ذلك من الكلمات.

وهنا جاء دور الامتحان الإلهي العظيم فمن جانب نجد قارون عليه أن يؤدّي امتحانه في غروره وطيشه! ومن جانب آخر من بهرهم مشهده الذين أحاطوا به - من بني إسرائيل -.

وبالطبع فإنّ العقاب الأليم هو العقاب الذي سيقع بعد هذا العرض المثير، وهو أن يهوي قارون من أوج العظمة إلى قعر الأرض إذ تنخسف به الأرض على حين غرّة!.

لكن أمام هذه الطائفة التي ذكرناها آنفاً طائفة أُخرى من العلماء والمتقين الورعين، سمت آفاقهم عن مثل هذه المسائل، وكانوا حاضرين حينئذ و«المشهد» يمرّ من أمامهم.

هؤلاء الرجال لا يقوّمون الشخصية بالذهب والقوّة، ولا يبحثون عن القيم في الأُمور الماديّة، لا تبهرهم هذه المظاهر، بل يسخرون منها ويتبسمون تبسم استهزاء وازدراء! ويحقّرون هذه الرؤوس الفارغة.

فهؤلاء كانوا هناك، وكان لهم موقف آخر من قارون، وكما يعبر عنهم القرآن ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ثمّ أردفوا مؤكّدين ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

أُولئك الذين لا تهزّهم زخارف الدنيا وزبارجها، ويقفون في استقامة - برجولة وشهامة - أمام الحرمان، ولا يطأطئون رؤوسهم للأراذل ويقفون كالجبال الرواسي في الامتحان الإلهي - امتحان الثروة والمال والخوف والمصيبة... وهؤلاء هم الجديرون بثواب الله سبحانه!.

ومن المسلم به أنّه المقصود بجملة ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ هم علماء بني إسرائيل، ومن بينهم «يوشع» وهو من كبار رجالهم.

غير أنّ الطريف في الأمر أنّ القرآن عبّر عن الطائفة الأولى بجملة ﴿ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ لكنّه لم يعبر عن الطائفة الثّانية بأنّهم «الذين يريدون الحياة الآخرة» بل عبر عنهم بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ فحسب، لأنّ العلم هو أساس كلّ شيء وجذر الإيمان والاستقامة والعشق للثواب الإلهي والدار الآخرة. .

كما أنّ التعبير بـ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ هو جواب دامغ - ضمناً - لقارون الذي يدّعي العلم، فالقرآن يريد أن يبيّن أنّ العلماء هم هؤلاء الذين لا يريدون الحياة الدنيا، أمّا أنت يا قارون فمغرور وطائش!.

وهكذا نرى مرّة أُخرى أنّ أساس البركات والخيرات هو العلم الحقيقي.

لقد أوصل قارون بعمله هذا طغيانه وعناده إلى الدرجة القصوى، غير أنّ ما ورد في التواريخ حكاية منقولة عن قارون تدل على منتهى الخسة وعدم الحياء! ننقلها هنا حسب تفصيلها!.

فقال له موسى عليه السلام إنّ الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال: إنّ موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنّه فجر بك، قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربّك قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربّك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنّك قد زنيت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام: أنشدتك بالله إلاّ ما صدقت. قالت: أمّا إذا نشدتني فإنّهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنّك بريء وأنّك رسول الله، فخرّ موسى عليه السلام ساجداً يبكي فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك[1]، فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذيهم

(١) تفسير الدرّ المنثور، نقلاً عن تفسير الميزان، ج١٦، ص٨٤، وأيضاً تفسير روح المعاني وتفاسير أُخرى، ذيل الآية مورد البحث.

فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذيهم فغيّبتهم فأوحى الله: «يا موسى سألك عبادي وتضرّعوا إليك فلم تجبهم فوعزّتي لو أنّهم دعوني لأجبتهم».

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

أجل حين يبلغ الطغيان والغرور وتحقير المؤمنين الأبرياء والمؤامرّة ضد نبي الله الذروة، تتجلى قدرة الله تعالى وتطوي حياة الطغاة... وتدمرهم تدميراً يكون عبرة للآخرين.

مسألة «الخسف» هنا التي تعني انشقاق الأرض وابتلاع ما عليها، حدثت على مدى التاريخ عدّة مرات.. إذ تتزلزل الأرض ثمّ تنشقّ وتبتلع مدينة كاملة أو عمارات سكنية داخلها، لكن هذا الخسف الذي حدث لقارون يختلف عن تلك الموارد.. هذا الخسف كان طعمته قارون وخزائنه فحسب!

يا للعجب!.. ففرعون يهوي في ماء النيل!.. وقارون في أعماق الأرض!.

الماء الذي هو سرّ الحياة وأساسها يكون مأموراً بهلاك فرعون.

والأرض التي هي مهاد الاطمئنان والدعة تنقلب قبراً لقارون واتباعه! ومن البديهي أنّ قارون لم يكن لوحده في ذلك البيت فقد كان معه أعوانه وندماءه ومن أعانه على ظلمه وطغيانه، وهكذا توغلوا في أعماق الأرض جميعاً.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾...

فلم يخلصه أصدقاؤه، ولا الذين كانوا يحملون أمتعته ولا أمواله ولا أي أحد من عذاب الله، ومضى قارون وأمواله ومن معه في قعر الأرض!

أمّا آخر آية - محل البحث - فتحكي عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، وما شابه ذلك! وإذا هم اليوم يقولون: واهاً له، فإنّ الرزق بيد الله ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾.

لقد ثبت عندنا اليوم أن ليس لأحد شيء من عنده! فكلّ ما هو موجود فمن الله، فلا عطاؤه دليل على رضاه عن العبد، ولا منعه دليل على تفاهة عبده عنده!

فالله تعالى يمتحن بهذه الأموال والثروة عباده أفراداً وأقواماً، ويكشف سريرتهم ونيّاتهم.

ثمّ أخذوا يفكرون في ما لو أجيب دعاؤهم الذي كانوا يصرون عليه، وأعطاهم الله هذا المال، ثمّ هووا كما هوى قارون، فماذا يكون قد نفعهم المال؟

لذلك شكروا الله على هذه النعمة وقالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، وعاقبة الغرور والغفلة ونهاية الكفر والشهوة! ونعرف أنّ أمثال هذه الحياة المثيرة للقلوب بمظاهرها الخداعة، ما أوحشها! وما أسوأ عاقبتها!.

ويتّضح من الجملة الأخيرة في هذه القصّة - ضمناً - أنّ قارون المغرور مات كافراً غير مؤمن، بالرغم من أنّه كان يعدّ عارفاً بالتوراة قارئاً لها، وعالماً من بني إسرائيل ومن أقارب موسى.

بحوث

١ - نماذج قارونية بالأمس واليوم!

قصّة قارون - هذا الثري المغرور - التي ذكرها القرآن في سبع آيات بينات - بأسلوب جذّاب - تكشف الحجب عن حقائق كثيرة في حياة الناس!

هذه القصّة النّيرة توضح هذه الحقيقة، وهي أنّ غرور الثروة ونشوتها قد ينجر بهما الإنسان - أحياناً - إلى أنواع الجنون.. جنون إظهار الثروة وعرضها.. ولفت أنظار الآخرين.. إلى التلذذ من تحقير الفقراء والمساكين.

كما أنّ هذا الغرور وهذه النشوة والعشق المطلق للفضة والذهب، قد تكون سبباً لأنّ يجرؤ الإنسان أحياناً على ارتكاب أقبح الذنوب وأخسها، كالإساءة إلى النّبي ومناهضة الحق والحقيقة.. واتهام أطهر الأفراد، واستخدام الثروة لإنفاقها على الفواحش في سبيل الوصول إلى الغرض المطلوب.

إنّ الغرور والنشوة الناشئان من كثرة الثروة، لا يسمحان للإنسان أن يسمع نصيحة الآخرين، ويستجيب لمن يريد له الخير!.

وهؤلاء المغرورون الجهلة يتصورون أنّهم أعلم الناس وأكثرهم اطلاعاً، وفي اعتقادهم أن ثروتهم التي وقعت في أيديهم، وربّما تقع عن طريق الغصب أحياناً، هي دليل على عقلهم وذكائهم... وأنّ جميع الناس جهلة كما يظنون، وأنّهم - وحدهم - العلماء فحسب!.

ويبلغ بهم الأمر حدّاً أن يظهروا قدرتهم أمام الخالق، وكأنّهم مستقلّون، ويدّعون أنّ ما وصلهم هو عن طريق ابتكارهم وذكائهم، واستعدادهم وخلاّقيتهم ومعرفتهم التي لا نظير لها!

ورأينا عاقبة هؤلاء المغرورين المنحرفين، وكيف ينتهون، وإذا كان قارون وأتباعه وثروته جميعاً قد خسفت بهم الأرض فهووا إلى قعرها، فإنّ الآخرين يفنون بأشكال مختلفة.. وأحياناً تبتلع الأرض حتى ثروتهم العظيمة بشكل آخر.. أو يبدّلون ثروتهم الكبيرة بالقصور والبساتين والأراضي الشاسعة ثمّ لا يستفيدون منها أبداً.. وقد يشترون الأراضي الموات والبائرة، على أمل تقسيمها صغيرة لتباع كلّ قطعة بسعر باهظ! وهكذا تبتلع الأرض ثروتهم.

أمثال هؤلاء الأفراد من سقيمي العقول حين لا يجدون طريقاً لصرف ثروتهم العظيمة يتوجهون إلى القِيم الخيالية... وينفقون أموالهم على الخزف المتكسّر على أنّه من التراث القديم كالأكواز والأقداح الخزفية، والطوابع، والأوراق النقدية المتعلقة بالسنوات القديمة، ويحافظون عليها في مكان حريز من بيوتهم على أنها أغلى التحف، وهي لا تستحق أن توضع إلاّ في المزابل لو نظرنا إليها بعين البصيرة والاعتبار!

أُولئك الذين يحيون مثل هذه الحياة الناعمة الخيالية قد يتفق أن يرى في مدينتهم أو في مناطقهم - وأحياناً في جيرانهم - من لا عهد له بالشبع، ويسهرون لياليهم على الطوى جائعين، ومن العجيب أنّهم يرون هذه الحالة فلا تهتز لها ضمائرهم، ولا يتأثر لأجلها وجدانهم!.

كما يتفق لحيواناتهم أن تعيش حياة الرفاه، وتستفيد من رعاية الأطباء والأدوية الخاصّة! في حين أنّ أناساً محرومون يعيشون في ظروف صعبة وسيئة إلى جوارهم، وربّما يرقدون في المستشفى، ويئنون ولا من مصرخ لهم، ولا من علاج لمرضهم!.

جميع هذه البحوث تنطبق أحياناً على بعض الأفراد في مجتمع ما، وقد تنطبق على دولة معينة قبال دول الدنيا كلها، أي قد نجد دولة قارونية مستكبرة أمام الدول الضعيفة، كما نلاحظ في العصر الحاضر في شأن الدول الاستكبارية كأمريكا وكثير من الدول الأوروبية.

لقد هيأ هؤلاء حياة التنعّم والرفاه - في أرقى صورها - باستثمار أبناء العالم الثّالث والدول الفقيرة العزلاء... بحيث إنّهم يرمون فضلات طعامهم في المزابل، ولو قدر أن

تجمع بصورة صحيحة، لأمكن عندئذ تغذية الملايين المحرومة الجائعة من هذه المواد الغذائية الإضافية.

وما نقوله من أنّ بعض الدول فقيرة هي في الحقيقة ليست دولاً فقيرة، بل هي دول مُنيت بسرقة خيراتها وأُغير عليها... وربّما كان لديها أغلى المصادر والمعادن تحت الأرض، لكن هؤلاء المغيرين ينهبون هذه الخيرات ويتركون أهلها على الأرض السوداء الجرداء.

فهؤلاء القارونيون يشيدون قواعد قصورهم الظالمة على أكواخ المستضعفين المهدّمة.. وإذا لم يتّحد المستضعفون يداً بيد ليقذفوا بالمستكبرين إلى قعر الأرض كما فعل بقارون، فإنّ حالة الدنيا ستبقى هكذا.

فأُولئك يشربون الخمور ويضحكون منتشين، وهؤلاء يجلسون على بساط الفقر والحرمان باكين.

٢ - منْ أين جاء قارون بهذه الثروة العريضة؟

الطريف أنّنا نقرأ في الآيتين (٢٣) و(٢٤) من سورة المؤمن ما نستفيد منه بوضوح أنّ رسالة موسى عليه السلام كانت من البداية لمبارزة ثلاثة أشخاص! «فرعون»، ووزيره «هامان»، و«قارون» الثري المغرور: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾.

ونستفيد من النصّ القرآني المتقدم أنّ قارون كان من جماعة فرعون، وكان على خطه؛ كما أنّنا نقرأ في التواريخ أنّه كان ممثلاً لفرعون في بني إسرائيل من جهة[1]، وأنّه كان أمين الصندوق عند فرعون، والمسؤول على خزائنه من جهة أُخرى[2].

ومن هنا تتّضح هويّة قارون.. فإنّ فرعون من أجل إذلال بني إسرائيل وسلب أموالهم اختار رجلاً منافقاً منهم، وأودعه أزمّة أمورهم، ليستثمر أموالهم لخدمة نظامه الجبار، وليجعلهم حفاةً عراة، ويكتسب من هذه الطريقة ثروة ضخمة منهم!

والقرائن تشير إلى أنّ مقداراً من هذه الثروة العظيمة وكنوز الأموال بقيت بعد هلاك

(١) تفسير الفخر الرازي، ج ٢٥، ص ١٣، وتفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٦٦ - ذيل الآية مورد البحث...

(٢) تفسير مجمع البيان، ج ٨، ص ٥٢٠ ذيل الآية ٢٤ من سورة المؤمن.

فرعون عند قارون، ولم يطلع موسى عليه السلام - إلى تلك الفترة - على مكان الأموال لينفقها على أتباعه الفقراء.

وعلى كلّ حال، فسواءً كانت هذه الثروة قد حصل عليها قارون في عصر فرعون، أو حصل عليها عن طريق الإغارة على خزائنه بعد هلاكه، أو كما يقول البعض قد حصل عليها عن طريق علم الكيمياء أو التجارة... أو معرفته بأصول استثمار أموال المستضعفين.

مهما يكن الأمر فإنّ قارون آمن بموسى بعد انتصار موسى على فرعون، وبدّل وجهه بسرعة، وأصبح من قرّاء التوراة وعلماء بني إسرائيل... في حين أنّ من البعيد أن تدخل ذرة من الإيمان في مثل قلب هذا المنافق!.

وأخيراً فحين أراد موسى عليه السلام أن يأخذ من قارون زكاة المال، خدع به الناس، وعرفنا كيف كانت عاقبته.

٣ - موقف الإسلام من الثّروة!

لا ينبغي أن نستنبط من المسائل التي ذكرناها آنفاً أنّ الإسلام يقف من الثروة موقفاً سلبياً، وأنّه يخالف خط الثراء، ولا ينبغي أن نتصور أنّ الإسلام يريد حياة الفقر والفقراء، ويعدّ حياة الفقر من الكلمات المعنوية!.

بل على العكس من ذلك، فإنّ الإسلام يعدّ الثروة عاملاً مهمّاً نحو الآخرة! وقد عبّر القرآن عن المال بالخير في الآية (١٨٠) من سورة البقرة ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي مالاً.

ونقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في هذا الصدد «نعم العون الدنيا على طلب الآخرة»[(١)].

بل حتى الآيات - محل البحث - التي تذم قارون أشدّ الذم، لأنّه اغتر بالمال، هي شاهد بليغ على هذا الموضوع. غاية ما في الأمر أنّ الإسلام يقبل بالثروة التي بواسطتها تبتغى الدار الآخرة، كما قال علماء بني إسرائيل لقارون ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

والإسلام يرضى بالثروة التي نرى فيها «أحسن كما أحسن الله إليك» ولكن للجميع!.

---

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧، ح ٥، الباب ١٦ (من أبواب مقدمات التجارة، باب استحباب الاستعانة بالدنيا على الآخرة).

والإسلام يوافق على ثروة يتحقق فيه القول «لا تنس نصيبك من الدنيا» ويمدحها.

وأخيراً فإنّ الإسلام لا يطلب ثروةً ينبغي بها الفساد في الأرض وتُنسى بها القيم الإنسانية.. وتكون نتيجتها الابتلاء بمسابقة جنون التكاثر، أو أن ينفصل الإنسان عن ذاته ويحتقر الآخرين، وربّما تجرّه إلى مواجهة الأنبياء كما فعل قارون في مواجهته لموسى عليه السلام!.

يريد الإسلام الثروة لتكون وسيلة لملء الفراغ الاقتصادي، وأن يستفيد منها الجميع، ولتكون ضماداً لجراح المحرومين، وللوصول بها إلى إشباع الحاجات الاجتماعية وحلّ مشاكل المستضعفين...

فالعلاقة بين هذه الثروة وهذه الأهداف المقدّسة ليست علاقة دنيوية، أو ارتباطاً بالدنيا، بل هي علاقة أخروية.

كما نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ أحد أصحابه جاءه شاكياً أمره، وقال: والله إنّا لنطلي الدنيا ونُحبّ أن نؤتاها، فقال عليه السلام: «تحبّ أن تصنع بها ماذا؟».

قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصل بها وأتصدق بها وأحج وأعتمر فقال الإمام الصادق عليه السلام: «ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»[1].

ومن هنا يتّضح فساد عقيدة طائفتين في هذا المجال:

طائفة من المسلمين، أو بتعبير أدق: ممن يتظاهرون بالإسلام، وبعيدون عن تعاليمه، فيعرّفون الإسلام على أنّه محام عن المستكبرين.

وطائفة من الأعداء المغرضين الذين يريدون أن يمسخوا وجه الإسلام الأصيل، ويجعلوه معادياً للثروة، وأنّه يقف إلى جانب الفقراء فحسب.

وأساساً فإنّ أُمّة فقيرة لا تستطيع أن تعيش وحدها مرفوعة الرأس حرّة كريمة!.

فالفقر وسيلة للارتباط بالأجنبي والتبعية.

والفقر أساس الخزي في الدنيا والآخرة!

والفقر يدعو الإنسان إلى الإثم والخطيئة.

(١) المصدر السابق، ص ١٩، ح ٣، الباب ٧ (من أبواب مقدمات التجارة، باب استحباب جمع المال من حلال...).

كما نقرأ في حديث للإمام الصادق في هذا الصدد «غنىً يحجزك عن الظلم، خير من فقر يحملك على الإثم»(١).

إنّ على المجتمعات الإسلامية أن تسعى - مهما استطاعت - نحو التقدم لتكون غنيّة غير محتاجة، ولتبلغ مرحلة الاكتفاء الذاتي، وأن تقف على أقدامها وأن لا تضحّي باستقلالها وعزّتها وشرفها من أجل الفقر المذلّ الموجب للتبعية وتعلم أن منهج الإسلام الأصيل هو هذا لا غير.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾

التّفسير

نتيجة حبّ التسلط والفساد في الأرض

بعد البيان المثير لما حدث لثري مستكبر ومتسلط، وهو قارون، تبدأ الآية الأُولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلي لهذا الواقع وهذا الحدث، إذ تقول الآية: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

أجل، فهم غير مستكبرين ولا مفسدين في الأرض وليس هذا فحسب، بل قلوبهم مطهّرة من هذه المسائل، وأرواحهم منزهة من هذه الأوساخ! فلا يريدون ذلك ولا يرغبون فيه.

وفي الحقيقة إنّ ما يكون سبباً لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة في العلو» أيّ الاستكبار و«الفساد في الأرض» وهما الذنوب.. لأنّ كلّ ما نهى الله عنه فهو على خلاف نظام خلق الإنسان وتكامل وجوده حتماً، فارتكاب ما نهى الله عنه يدمر نظام حياة الإنسان، لذا فهو أساس الفساد في الأرض! حتى مسألة الاستعلاء - بنفسها - هي أيضاً واحدة من مصاديق الفساد في الأرض، إلاّ أنّ أهمّيته

(١) وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٧، ح٧، الباب ٦، (من أبواب مقدمات التجارة، باب استحباب الاستعانة بالدنيا على الآخرة).

القصوى دعت إلى أن يذكر بالخصوص من بين جميع المصاديق للفساد في الأرض!.

وقد رأينا في قصّة «قارون» وشرح حاله أنّ السبب الأساس في شقوته وهلاكه هو العلوّ و«الاستكبار».

ونجد في الرّوايات الإسلامية اهتماماً بهذه المسألة حتى أنّنا نقرأ حديثاً عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: «إنّ الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها»[١].

(وهذا أيضاً فرع صغير من الاستعلاء).

ومن الطريف أنّ صاحب «تفسير الكشاف» يعلق بعد ذكر هذا الحديث فيقول: بعض الطامعين ينسبون «العلوّ» في الآية محل البحث لفرعون بمقتضى قوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[٢]، والفساد لقارون بمقتضى قوله: ﴿تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾[٣]، ويدعون بأن من لم يكن كمثل فرعون وقارون فهو من أهل الجنّة والدار الآخرة، وعلى هذا فهم يبعدون فرعون وقارون وأمثالهما من الجنّة فحسب، ويرون الباقين من أهل الجنّة، إلاّ أنّهم لم يلاحظوا ذيل الآية ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بدقة - كما لاحظها الإمام علي عليه السلام [٤].

وما ينبغي إضافته على هذا الكلام هو أنّ هؤلاء الجماعة أخطؤوا حتى في معرفة قارون وفرعون.. لأنّ فرعون كان عالياً في الأرض وكان من المفسدين ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٥]، وقارون أيضاً كان مفسداً وكان عالياً بمقتضى قوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[٦].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان يسير في الأسواق أيام خلافته الظاهرية، فيرشد التائهين إلى الطريق ويساعد الضعفاء، وكان يمرّ على الباعة والكسبة ويتلو الآية الكريمة ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾. ثمّ يضيف سلام الله عليه: «نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من الناس»[٧].

---

(١) تفسير جوامع الجامع، ذيل الآية مورد البحث.
(٢) سورة القصص، الآية: ٤.
(٣) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٤) تفسير الفخر الرازي، ذيل الآية مورد البحث.
(٥) سورة القصص، الآية: ٤.
(٦) سورة القصص، الآية: ٧٩.
(٧) نقل هذه الرواية زاذان عن أمير المؤمنين «مجمع البيان (ذيل الآية مورد البحث)».

ومعنى هذا الكلام، أنّه كما لم يجعل الخلافة والحكومة وسيلة للاستعلاء، فلا ينبغي أن تجعلوا أموالكم وقدرتكم وسيلة للتسلط على الآخرين، فإنّ العاقبة لأولئك الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً وكما يقول القرآن في نهاية الآية: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

و«العاقبة» بمفهومها الواسع هي النتيجة الصالحة، وهي الانتصار في هذه الدنيا، والجنّة ونعيمها في الدار الأُخرى... وقد رأينا أنّ قارون وأتباعه إلى أين وصلوا وأيّة عاقبة تحمّلوا!

مع أنّهم كانوا مقتدرين ولكن حيث كانوا غير متقين فقد ابتلوا بأسوأ العاقبة والمصير!.

ونختم كلامنا في شأن هذه الآية بحديث للإمام الصادق عليه السلام وهو أنّ الإمام الصادق حين تلا هذه الآية أجهش بالبكاء وقال: «ذهبت والله الأماني عند هذه الآية»(١)..

وبعد ذكر هذه الحقيقة الواقعية، وهي أنّ الدار الآخرة ليست لمن يحب السلطة والمستكبرين، بل هي للمتقين المتواضعين وطلبة الحق، تأتي الآية الثّانية لتبيّن قانوناً كلياً وهو مزيج بين العدالة والتفضل، ولتذكر ثواب الإحسان فتقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

وهذه هي مرحلة التفضل، أي أنّ الله سبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيّقة، فإذا أراد الإنسان أن يعطي أجر صاحبه فإنّه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله، إلاّ أنّ الله قد يضاعف الحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها بمئات الأمثال وربّما بالآلاف، إلاّ أنّ أقلّ ما يتفضل الله به على العبد أن يجازيه عشرة أضعاف حسناته، حيث يقول القرآن في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾.

أمّا الحدّ الأكثر من ثواب الله وجزائه فلا يعلمه إلاّ الله، وقد جاءت الإشارة إلى جانب منه - وهو الإنفاق في سبيل الله - في الآية ٢٦١ من سورة البقرة... إذ يقول سبحانه في هذا الصدد... ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) تفسير علي بن إبراهيم، ج٢، ص١٤٦، ذيل الآية مورد البحث.

وبالطبع فإنّ مضاعفة الأجر والثواب ليس أمراً اعتباطياً، بل له ارتباط وثيق بنقاء العمل وميزان الإخلاص وحسن النيّة وصفاء القلب، فهذه هي مرحلة التفضل الإلهي في شأن المحسنين.

ثمّ يعقّب القرآن ليذكر جزاء المسيئين فيقول: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه هي مرحلة العدل الإلهي، لأنّ المسيء لا يجازى إلاّ بقدر إساءته، ولا تضاف على إساءته أية عقوبة!.

الطريف هنا عند ذكر جزاء السيئة أنّ القرآن يعبر عن الجزاء بالعمل نفسه ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي أنّ أعمالهم التي هي طبقاً لقانون بقاء الموجودات في عالم الوجود، تبقى ولا تتغير، وتبرز في يوم القيامة متجسمة دون خفاء، فهو (يوم البروز) في شكل يناسب العمل، وهذا الجزاء يرافق المسيئين ويعذبهم!.

ملاحظات

١ - لِمَ تكرر ذكر «السيئة» في هذه الآية مرتين؟

من المحتمل أن يكون ذكر السيئة مرتين في الآية، لأن الله يريد أن يؤكّد على هذه المسألة، وهي أنّ السيئة لا جزاء لها إلاّ نفسها.

٢ - هل تشمل الحسنة الإيمان والتوحيد؟ فإذا كان كذلك فما معنى هذه الجملة ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؟! وهل هناك خير من الإيمان والتوحيد؟!

وفي الإجابة على هذا السؤال نقول - بدون شك وتردّد - إنّ للحسنة معنى واسعاً فهي تشمل المناهج الاعتقادية والأقوال والأعمال الخارجية، وما هو أفضل من الاعتقاد بتوحيد الله فهو رضا الله سبحانه الذي يكون ثواباً للمحسنين، فنحن نقرأ في الآية (٧٢) من سورة التوبة قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾!

٣ - لِمَ عبّر القرآن عن الحسنة بصيغة الإفراد، وعن السيئات بصيغة الجمع؟!

يعتقد بعض المفسّرين أنّ هذا التعبير عائد إلى كثرة المسيئين وقلة المحسنين[١].

كما ويحتمل أيضاً أنّ الحسنات تتلخص في حقيقة التوحيد، وأنّ جميع الحسنات

---

(١) تفسير روح المعاني، ج٢٠، ص١٢٧، ، الآلوسي ذيل الآية.

تعود إلى «جذر» واحد وهو توحيد الله، في حين أنّ السيئات ترجع إلى الشرك الذي هو مصداق التشتت والتعدد والكثرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾

سبب النّزول

نقل جماعة من المفسّرين - سبباً لنزول الآية الأُولى من الآيات أعلاه عن ابن عباس مضمونه ما يلي:

حين كان النّبي ﷺ متوجهاً من مكّة إلى المدينة في سفر الهجرة وبلغ «الجحفة» وهي لا تبعد عن مكّة كثيراً... تذكر وطنه «مكّة» هذه البقعة التي هي حرم الله وأمنه وفيها البيت العتيق «الكعبة» التي تعلق بها قلب النّبي وروحه تعلقاً لا يقبل الانفكاك.. ظهرت آثار الشوق على وجه النّبي الكريم مزيجة بالحزن والتأثر، فنزل أمين الوحي جبريل على رسول الله وقال: أتشتاق إلى بلدك وهو مولدك؟! فقال النّبي ﷺ: نعم... فقال جبرئيل عليه السلام: فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾(١) يعني مكّة...

ونعلم إنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيراً، ودخل النّبي ﷺ بجيشه القوي وقدرته وعظمته الكبيرة مكّة ظافراً، واستسلمت مكّة والحرم الآمن دون حرب للنبي ﷺ.

فعلى هذا تعدّ الآية آنفة الذكر من الإخبار الإعجازي السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن

(١) راجع تفسير الميزان، ج١٦، تفسير القرطبي، وتفسير مجمع البيان، ج٧، ص٢٦٨، «التّفسير الكبير» للفخر الرازي، ج٢٥، ص٢١، وتفاسير غيرها.

عن رجوع النّبي ﷺ إلى مكّة بصورة قطعيّة ودون أي قيد وشرط، ولم تطل المدّة حتى تحقق هذا الوعد الإلهي الكبير!.

التّفسير

الوعد بعودة النّبي ﷺ إلى حرم الله الآمن

هذه الآيات التي هي آخر الآيات في سورة القصص تخاطب نبيّ الإسلام ﷺ وتبشره بالنصر، بعد أن جاءت الآيات الأُولى لتبيّن قصّة موسى وفرعون وما جرى له مع قومه، كما أنّ هذه الآيات فيها إرشادات وتعليمات مؤكّدة لرسول الإسلام ﷺ.

قلنا: إنّ الآية الأُولى من هذه الآيات طبقاً لما هو مشهور بين المفسّرين نزلت في «الجحفة» في مسير النّبي ﷺ، إلى المدينة إذ كان متوجهاً إلى يثرب لتتحول بوجوده إلى «مدينة الرّسول»... وأن يبذر النّواة الأصيلة... «لحكومة إسلامية» فيها ويجعلها مقرّاً لحكومة إلهيّة واسعة، ويحقق فيها أهدافها.

لكن هذا الحنين والشوق والتعلق بمكّة يؤلمه كثيراً، وليس من اليسير عليه الابتعاد عن حرم الله الآمن.

وهنا يشرق في قلبه الطاهر نور الوحي، ويبشّره بالعودة إلى وطنه الذي ألفه فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

فلا تكترث ولا تُذهب نفسك حسرات، فالله الذي أعاد موسى إلى أُمّه هو الذي أرجعه أيضاً إلى وطنه بعد غياب عشر سنوات في مدين، ليشعل مصباح التوحيد ويقيم حكومة المستضعفين ويقضي على الفراعنة ودولتهم وقوّتهم.

هو الله سبحانه الذي يردك إلى مكّة بكلّ قوّة وقدرة، ويجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقاً في هذه الأرض المباركة.

وهو الله الذي أنزل عليك القرآن، وفرض عليك إبلاغه، وأوجب عليك أحكامه.

أجل، إنّ ربّ القرآن وربّ السماء والأرض العظيم، يسيرٌ عليه أن يردّك إلى معادك ووطنك «مكّة».

ثمّ يضيف القرآن في خطابه للنّبي ﷺ، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علّمه الله ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

إنّ طريق الهداية واضح، وضلالهم بيّن، وهم يتعبون أنفسهم عبثاً، فالله يعرف ذلك جيداً، والقلوب التي تعشق الحق تعرف هذه الحقيقة أيضاً.

وبالطبع فإنّ التّفسير الواضح للآية كما بيّناه آنفاً، إلاّ أنّ جمعاً من المفسّرين لديهم احتمالات أُخرى في كلمة «معاد».. من قبيل «العودة للحياة بعد الموت» «المحشر» أو «الموت». كما فسّروه «بالجنّة» أو مقام «الشفاعة الكبرى»... أو «بيت المقدس» الذي عرج النّبي منه أوّل مرة، وغير هذه المعاني.

إلاّ أنّه مع الالتفات إلى محتوى مجموع هذه السورة - القصص - وما جاء في قصّة موسى وفرعون وبني إسرائيل، وما سقناه من شأن نزول الآية، فيبعد تفسير المعاد بغير العودة إلى مكّة كما يبدو!.

أضف إلى ذلك أنّ المعاد في يوم القيامة لا يختصّ بالنّبي وحده، والحال أنّ الآية تتحدث عن النّبي - هنا - وتخاطبه وحده. ووجود هذه الآية بعد الآية التي تتحدث عن الثواب والجزاء في يوم القيامة، لا دلالة فيها على هذا المعنى، بل على العكس من ذلك، لأنّ الآية السابقة تتحدث عن الانتصار في الدار الآخرة، ومن المناسب أن يكون الحديث في هذه الآية عن الانتصار في هذه الدنيا.

أمّا الآية التالية فتتحدث عن نعمة أُخرى من نعم الله العظيمة على النّبي ﷺ فتقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾(١).

كان كثير من الناس قد سمعوا بالبشارة بظهور الدين الجديد، ولعل طائفةً من أهل الكتاب وغيرهم كانوا ينتظرون أن ينزل عليهم الوحي ويحمّلهم الله هذه المسؤولية، ولكنّك - أيّها النّبي - لم تكن تظن أنّه سينزل عليك الوحي ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.. إلاّ أنّ الله رآك أجدر بالأمر، وأنّ هذا الدين الجديد ينبغي أن ينتشر ويتسع على يدك في هذا العالم الكبير!.

وبعض المفسّرين يرون هذه الآية منسجمة مع آيات سابقة كانت تتحدث عن موسى عليه السلام، وتخاطب النّبي - أيضاً - كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ

---

(١) قال بعضهم: إن «إلاّ» هنا تفيد الاستثناء، فاضطروا إلى أن يقولوا بحذف كلمة والتقدير لها من عندهم وهو تحكّم... إلاّ أنّ البعض الآخر فسّر «إلاّ» بمعنى «لكن» وأنّها تفيد الاستدراك، وهذا الوجه أقرب للنظر!

إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ . . . ﴿٤٤﴾ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ . . . ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴿٤٦﴾﴾(١).

فعلى هذا يكون المقصود بالكتاب هنا هو قصص الأنبياء السابقين. . إلاّ أنّ هذا التفسير لا منافاة فيه مع التفسير المتقدم! بل يعدّ قسماً منه في الواقع!.

ثمّ يضيف القرآن في خطابه للنّبي ﷺ أن طالما كنت في هذه النعمة: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

ومن المُسلّم به أنّ النّبي ﷺ لم يكن ظهيراً للكافرين أبداً، إلاّ أنّ الآية جاءت في مقام التأكيد على النّبي ﷺ وبيان المسؤولية للآخرين، وأنّ وظيفتهم أن يتأسوا بالنّبي ولا يكون أيّ منهم ظهيراً للكافرين.

وهذا الموضوع ينسجم تماماً مع الموضوع الذي قرأناه في شأن موسى عليه السلام، إذ قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ . . وبيّنا معناه في شأن إعانة الظالمين في الآية (١٧) من سورة القصص، أمّا الآيتان اللتان تختتم بهما سورة القصص، فهما تأكيد على مسألة التوحيد بتعابير واستدلالات متعددة ومختلفة.

التوحيد الذي هو أساس جميع المسائل الدينية. . . التوحيد الذي هو الأصل وهو الفرع وهو الكلّ وهو الجزء!.

وفي هاتين الآيتين أربعة أوامر من الله لنبيّه ﷺ، وأربع صفات لله تعالى، وبها يكتمل ما ورد في هذه السورة من أبحاث.

يقول أوّلاً: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وبالرغم من أنّ النهي موجه إلى الكفّار، إلاّ أنّ مفهوم الآية عدم تسليم النّبي ﷺ أمام صدّ الكافرين، وإحباطهم ومؤامراتهم، وهذا تماماً يشبه ما لو قلنا مثلاً: لا ينبغي أن يوسوس لك فلان، فمعناه: لا تستسلم لوسوسته!.

وبهذا الأسلوب يأمر الله النّبي ﷺ أن يقف راسخ القدم عند نزول الآيات ولا يتردد في الأمر، وأن يزيل الموانع من قارعة الطريق مهما بلغت، ولْيَسر نحو هدفه مطمئناً، فإنّ الله حاميه ومعه أبداً.

ويقول ابن عباس: وإن كان المخاطب هو النّبي ﷺ، إلاّ أنّ المراد عموم الناس،

(١) سورة القصص، الآيات: ٤٤ - ٤٦.

وهو من قبيل المثل العربي المعروف «إيّاك أعني واسمعي يا جارة!».

وبعد هذا الخطاب الذي فيه جنبة نهي، يأتي الخطاب الثّاني وفيه سمة إثبات فيقول: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾.. فالله الذي خلقك وهو الذي ربّاك ورعاك...

والأمر الثالث، بعد الأمر بتوحيد الله، هو نفي جميع أنواع الشرك وعبادة الأصنام ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾... فإنّ طريق التوحيد واضحة بيّنة، ومن ساروا عليها فهم على صراط مستقيم!.

والأمر الرّابع تأكيد آخر على نفي جميع أنواع الشرك، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾.

وهذه الأوامر المتتابعة كلّ واحد منها يؤكّد الآخر، يوضح أهمّية التوحيد في المنهج الإسلامي، إذ بدونه يكون كلّ عمل زيفاً ووهماً.

وبعد هذه الأوامر الأربعة تأتي أوصاف أربع لله سبحانه، وهي جميعاً تأكيد على التوحيد أيضاً.

فالأوّل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾.

والثّاني قوله: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾.

والوصف الثالث: ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ والحاكمية في عالمي التشريع والتكوين.

والرابع: أن معادنا إليه ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

والأوصاف الثلاث الأخيرة يمكن أن تكون دليلاً على إثبات التوحيد وترك جميع أنواع عبادة الأصنام، الذي أشير إليه في الوصف الأول!

لأنّه طالما كنّا هالكين جميعاً وهو الباقي.

وطالما كان التدبير لنظام الوجود بيده والحكم له!

وطالما كان معادنا إليه وإليه نرجع!... فما عسى أن يكون دور المعبودات غيره، وأي أحد يستحق العبادة سواه!؟

والمفسّرون الكبار لديهم آراء مختلفة في تفسير جملة ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ تدور حول محور كلمتي «وجه» و«هالك».

لأنّ الوجه يطلق - من حيث اللغة - على المحيّا أو ما يواجهه الإنسان من الشخص المقابل، ولكن الوجه حين يطلق على الخالق فإنّه يعني عندئذ ذاته المقدسة!.

وكلمة «هالك» مشتقّة من مادة «هلك» ومعناه الموت والعدم، فعلى هذا يكون معنى الجملة المتقدمة فناء جميع الموجودات عدا ذات الخالق المقدّسة. . . وهذا الفناء بالنسبة للموجودات الممكنة غير منحصر بفناء هذا العالم وانتهائه، فالموجودات الآن فانية قبال الذات المقدّسة، وهي تحتاج إلى فيضه لحظة بعد لحظة، وليس لديها في ذاتها أي شيء، وكلّ ما لديها فمن الله!

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ موجودات هذا العالم جميعها متغير وفي معرض التبدل، وحتى طبقاً لفلسفة «الحركة الجوهرية» فذاتها هي التغيير بعينه، ونحن نعرف أنّ الحركة والتغير معناهما الفناء والعودة الدائمية، فكل لحظة تموت موجودات العالم وتحيا!.

فعلى هذا فإنّ الموجودات هالكة وفانية الآن - أيضاً - غير أنّ الذات التي لا طريق الفناء إليها ولا تهلك، هي الذات المقدسة!

كما نعلم أنّ الفناء أو العدم يتجلى بصورة واضحة في نهاية هذا العالم، وكما يقول القرآن: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾(١).

ولا يخصُّ الفناء ما على الأرض، بل يشمل حتى أهل السماء.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾(٢) فهذا التّفسير منسجم مع ظاهر الآية والآيات الأُخرى في القرآن، غير أنّ بعض المفسّرين ذكروا تفاسير أُخرى غير ما تقدم بيانه، ومنها:

١ - أنّ المقصود من كلمة ﴿وَجْهَهُ﴾ هو العمل الصالح، ومفهوم هذه الآية يكون حينئذ أنّ جميع الأعمال تمضي مع الرياح سوى ما يكون خالصاً لله.

وقال بعضهم: إنّ المراد بالوجه هو انتساب الأشياء إلى الله، فيكون مفهوم الآية أنّ كلّ شيء معدوم ذاتاً إلاّ من ناحية انتمائه إلى الله!

وقال بعضهم: المراد بالوجه هو الدين، فيكون مفهوم الآية أنّ المذاهب كلها باطلة سوى دين الله.

وجملة ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ هي كما فسّروها بأنّها الحاكمية التشريعية، وهو تأكيد على التّفسير السابق!.

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦ - ٢٧. (٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

كما أنّ جملة ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فسّروها بالرجوع إلى الله في أخذ الشريعة عنه! وهذا تأكيد آخر على هذا المعنى(١).

وهذه التفاسير مع ما بيّناه آنفاً لا نجد بينها منافاةً في الحقيقة!... لأنّنا حين عرفنا أنّ الشيء الوحيد الذي يبقى في هذا العالم هو الذات المقدسة لله فحسب! فيتّضح أن ما يرتبط بذات الله بنحو من الأنحاء فإنه يستحق البقاء والأبدية.

فدين الله الصادر منه أبديّ، والعمل الصالح الذي له أبديّ... والقادة الإلهيّون الذين يرتبطون به يتّسمون بالخلود.

والخلاصة، كلّ ما هو مرتبط بالله - ولو بنحو من الأنحاء - فهو غير فان «فلاحظوا بدقّة».

مسألتان

١ - كيف تفنى جميع الأشياء؟!

من جملة الأسئلة التي أُثيرت في ذيل الآية، هو أنّه إذا كان لابدّ من فناء جميع الأشياء في نهاية العالم، فلا محيص من أن تتلاشى الأتربة التي تكونت من أبدان الناس، في حين أنّ القرآن يصرّح مراراً بأنّ الله سيجمع هذه الأتربة وينشر الناس منها، وأنّ الناس سينشرون في يوم القيامة من قبورهم!

وطبقاً لظاهر الآيات - أيضاً - فإن الجنّة معدّة، والنّار معدّة ومهيأة من قبل، كما جاء التعبير عن الجنّة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢) أو ما شابه ذلك، وهي إشارة لخلق الجنّة وأنّها مهيأة للمتقين. وقد ورد هذا التعبير في موضعين من آيات القرآن «الآية ١٢٣ من سورة آل عمران والآية ٢١ من سورة الحديد».

كما ورد التعبير عن النّار بـ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ في موضعين من القرآن أيضاً «البقرة الآية ٢٤ وآل عمران الآية ١٣١».

فهل ستفنى الجنّة والنّار في انتهاء العالم؟!

---

(١) وردت روايات متعددة في تفسير «نور الثّقلين» في ذيل الآيات فسّرت بعضها الوجه بدين الله، وبعضها برسل الله وما هو منسوب لله.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

ثمّ بعد هذا كلّه فنحن نعتقد بالحياة البرزخية للإنسان، ونستفيد ذلك من آيات القرآن في شأن الأرواح، فهل ستفنى تلك أيضاً؟!

والجواب على جميع الأسئلة يتّضح بما يلي:

إنّ كثيراً ما يتفق أن يكون المراد من الهلاك والعدم هو تخلخل النظام ودماره، لا تلاشيه وفنائه فلو أنّ عمارة مثلاً تهدمت بسبب الزلزلة فهنا يصدق عليها الفناء والهلاك، في حين أنّ مواد العمارة لا تزال موجودة، غير أنّ نظامها قد أختل وانعدم فحسب!.

ونعرف أن في نهاية هذا العالم ستنطفىء الشمس، ويظلم القمر، وتندك الجبال، وتموت الموجودات الحيّة، فهذا معنى هلاكها! هذا من جهة!.

ومن جهة أُخرى فإنّ الفناء متعلق بهذه الدنيا، وما في هذه الدنيا... أمّا الجنّة والنّار فسواء كانتا داخل هذا العالم أو خارجه، فليستا جزءاً من هذه الدنيا ليشملهما حكم الفناء والعدم لنظامهما، فهما متعلقتان بالآخرة لا بالدنيا!

ومن جهة ثالثة، فإنّا ذكرنا آنفاً أنّ الهلاك - أو الفناء - بالنسبة للموجودات الممكنة غير منحصر بانتهاء هذا العالم.. فهي هالكة وفانية الآن أيضاً، لأنّها لا تملك شيئاً في داخل ذاتها، وكل ما عندها فمن غيرها، فهي متغيرة ودائمة الحركة، ومعنى ذلك الفناء التدريجي والمركب من الوجود والعدم!

ومع بيان ما تقدم يتّضح الجواب على الأسئلة السابقة تماماً!

٢ - التّفسير المنحرف لجملة: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾

يستدل جماعة من الوهّابيين أحياناً على أن مسألة «التوسل والشفاعة» لا تنسجم مع حقيقة التوحيد، بالآية الآنفة وآيات أُخرى مشابهة لها.

أذ يقول أُولئك: إنّ القرآن نهى عن عبادة غير الله بصريح العبارة، كما نهى أن ندعو أسماء سوى الله، إذ قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾(١).

والحال أنّ المقصود من هذه الآيات ليس هو أن لا ندعو أشخاصاً آخرين، بل المقصود كما هو مستفاد من الآية ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ أي إنّ من يعتقد أن ما كان لله يمكن طلبه من غير الله ويراه مستقلاً في إنجازه، فإنه مشرك.

ولكننا إذا اعتقدنا بأن جميع القدرات هي خاصّة بالله، ولا نعتقد بأنّ أحداً معه يكون

(١) سورة الجن، الآية: ١٨.

مبدأ الأثر. . . ونعتقد بأنّ لله أولياء يشفعون بإذنه وأمره، فنتوسل بهم إلى الله ليشفعوا لنا عند الله، فهذا هو التوحيد بعينه، وهذا هو ما أشارت إليه آيات القرآن مراراً.

ترى هل كان قول إخوة يوسف لأبيهم: ﴿يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ شركاً؟! (سورة يوسف الآية ٩٧).

وهل - حين يقول القرآن: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1]، يكون قول القرآن هذا دعوة نحو الشرك؟!!

إنّ حقيقة الشفاعة والتوسل - أيضاً - ليس شيئاً سوى ما أشرنا إليه آنفاً[2]!

ربّنا ألهم قلوبنا نور التوحيد والمعرفة، لئلا نرى سواك، ولا نطلب سواك، ولا نرجو سواك!

اللّهم وثّق ارتباطنا بذاتك المقدسة يوماً بعد يوم، أرواحنا تحظى بقبس من بقاء وخلود ذاتك الخالدة!

اللّهم ابعد حبّ الدنيا والاستعلاء والفساد في الأرض عن أرواحنا، واجعلنا في صفوف المتقين، ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

آمين ربّ العالمين.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) لمزيد التوضيح يراجع تفسير الآية ٣٥ من سورة المائدة، وتفسير ذيل الآية (٤٨) من سورة البقرة!

فهرس الجزء السابع عشر

سورة النور

فضل سورة النور ٥
محتوى سورة النّور ٥
حدّ الزاني والزانية ٧
١ - الحالات التي يعدم فيها الزاني .. ١١
٢ - لماذا ذكرت الزانية أولاً؟ ١١
٣ - لماذا تكون العقوبة علنية؟ ١١
٤ - ماذا كان حدّ الزاني سابقاً؟ ١٢
٥ - منع الإفراط والتفريط عند تنفيذ الحد! ١٢
٦ - شروط تحريم الزواج بالزانية والزاني ١٣
٧ - فلسفة تحريم الزنا ١٣
عقوبة البهتان ١٤
بحوث: ١ - المراد من كلمة «رمى» ... ١٦
٢ - لماذا أربعة شهود؟ ١٦
٣ - الشرط المهم في قبول التوبة ١٧
٤ - أحكام القذف ١٧
عقاب توجيه التهمة إلى الزوجة! ٢٠
١ - لماذا استثني الزوجان من حكم القذف؟ ٢٢
٢ - كيفية اللعان ٢٢
٣ - العقاب المحذوف في الآية ٢٣
ذكر سببين لنزول الآيات السابقة ٢٤
تحقيق المسألة ٢٨
حديث الإفك المثير ٣٠
حرمة إشاعة الفحشاء ٣٤
بحوث: ١ - ما معنى إشاعة الفحشاء؟ . ٣٦
٢ - مصيبة الشائعات ٣٨
٣ - استصغار الذنب ٣٨
للعقوبات حساب! ٣٩
بحوث: ١ - من هن الخبيثات ومن هم الخبيثون؟ ٤٥
٢ - هل هذا حكم تكويني أم تشريعي؟ . ٤٦
٣ - جواب استفسار ٤٧
لا تدخلوا بيوت الناس حتى يؤذن لكم . ٤٨
بحوث: ١ - الأمن والحرية في حريم المنزل ٥٠
٢ - ما المقصود بالبيوت غيرالمسكونة؟ ٥١
٣ - عقاب من يتلصص على منازل الناس ٥٢
مكافحة السفور وخائنة الأعين ٥٣

بحوث: ١ - فلسفة الحجاب ٥٧
٢ - استثناء الوجه والكفين ٦٢
٣ - ما المقصود من: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾؟ ... ٦٣
٤ - تفسير عبارة: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ٦٣
٥ - تفسير: ﴿أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ .. ٦٤
٦ - أي طفل مستثنى من هذا الحكم؟ . ٦٥
٧ - لماذا لم يذكر العم والخال ضمن المحارم؟ ٦٥
٨ - تحريم سبل الإثارة! ٦٥
الترغيب في زواج يسير التكاليف ٦٦
١ - الزواج سنة إلهية ٧٠
٢ - المراد من عبارة: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ ٧٢
٣ - ما هو عقد المكاتبة؟ ٧٣
آية النور! ٧٤
ولكن ما المقصود من هذه البيوت؟ ... ٨١
أعمال سرابية ٨٥
الجميع يسبح لله ٨٨
١ - ماذا تعني عبارة: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ٨٩
٢ - التسبيح العام لجميع المخلوقات . ٨٩
٣ - التسبيح الخاص بالطيور ٩٠
٤ - عبارة ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ . ٩١
٥ - ما المقصود بالصلاة؟ ٩٢
جانب آخر من الخلق العجيب ٩٢
بحوث: ١ - ماذا يعني الماء هنا؟ ٩٦
٢ - جواب على استفسار ٩٧
٣ - صور الحياة المختلفة ٩٧
ذكر المفسرون سببين لنزول بعض هذه الآيات ٩٩
الإيمان وقبول حكم الله ٩٩
بحثان: ١ - مرض النفاق ١٠١
٢ - الحكومة العادلة هي الحكومة الإلهية فقط ١٠٢
الإيمان والتسليم التام إزاء الحقّ ١٠٣
حكومة المستضعفين العالمية ١٠٧
بحوث: ١ - تفسير عبارة: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ١٠٨
٢ - الذين وعدهم الله باستخلاف الأرض ١٠٨
٣ - الهدف النهائي عبادة خالصة ١١٠
استحالة الفرار من حكومته تعالى ١١١
آداب الدخول إلى المكان الخاص بالوالدين ١١٣
بحثان: ١ - فلسفة الاستئذان والمفاسد المترتبة على عدم الالتزام به ١١٦
٢ - حكم الحجاب بالنسبة للنساء العجائز ١١٧
البيوت التي يسمح بالأكل فيها ١١٩
بحوث: ١ - هل أن تناول غذاء الآخرين غير منوط بإذنهم؟ ١٢٢
٢ - فلسفة هذا الحكم الإسلامي ١٢٣
٣ - من هو الصديق؟ ١٢٤

٤ - تفسير عبارة: ﴿مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ ١٢٥
٥ - السلام والتحية ١٢٦
لا تتركوا النبيّ وحده! ١٢٧

سورة الفرقان

محتوى سورة الفرقان ١٣٣
فضيلة سورة الفرقان ١٣٤
المقياس الأعلى للمعرفة ١٣٤
بحث: تقدير الموجودات بدقة ١٣٧
الاتهامات المتعددة الألوان ١٤٠
لم لا يملك هذا الرسول كنوزاً وجنات؟! ١٤٥
مقارنة بين الجنّة والنار ١٥٠
المحاكمة بين المعبودين وعبدتهم الضالين ١٥٤
١ - من هم المقصودون بالمعبودين هنا!؟ ١٥٥
٢ - دافع الانحراف عن أصل التوحيد . ١٥٧
٣ - كلمة «بور» ١٥٨
هكذا كان جميع الأنبياء ١٥٩
الادعاءات الكبيرة ١٦١
آفات العمل الصالح ١٦٤
تشقق السماء بالغمام ١٦٦
أضلني صديق السوء ١٧٠
بحث: أثر الصديق في مصير الإنسان .. ١٧٢
إلهي، إن الناس قد هجروا القرآن ١٧٣
بحوث: ١ - تفسير: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ ١٧٦
٢ - الآثار العميقة لنزول القرآن التدريجي ١٧٧
٣ - معنى الترتيل في القرآن ١٧٩
٤ - تفسير: ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ ١٧٩
مع كل هذه الدروس والعبر، ولكن... ١٨٠
بحثان: ١ - من هم «أصحاب الرس»؟ . ١٨٢
٢ - مجموعة من الدروس المؤثرة ١٨٥
أضل من الأنعام ١٨٦
بحثان: ١ - اتباع الهوى وعواقبه الأليمة ١٨٩
٢ - لماذا أضل من الأنعام!؟ ١٩٢
حركة الظلال ١٩٣
بحران متجاوران: عذب فرات وملح أجاج ١٩٩
١ - وحدة القيادة ٢٠٦
٢ - القرآن وسيلة الجهاد الكبير ٢٠٦
أجري هو هدايتكم ٢٠٨
١ - أجر الرسالة ٢١١
٢ - على من يجب التوكل؟ ٢١٢
البروج السماوية ٢١٣
الصفات الخاصة لعباد الرحمن ٢١٦
١ - طريقة مشي المؤمنين ٢٢٠
٢ - البخل والإسراف ٢٢١
بحث آخر في صفات عباد الرحمن ... ٢٢٢
تبديل السيئات حسنات ٢٢٥

جزاء «عباد الرحمن» ٢٢٧
لولا دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة ... ٢٣٢
بحث: الدعاء طريق إصلاح النفس ومعرفة الله ٢٣٣

فهرس الجزء الثامن عشر

سورة الشعراء

محتوى سورة الشعراء ٢٣٦
فضيلة سورة الشعراء ٢٣٧
إنهم يعرضون عن كل جديد! ٢٣٨
الزوجية في النباتات ٢٤٣
بداية رسالة موسى ٢٤٥
مواجهة فرعون مواجهة منطقية وقاطعة . ٢٤٨
الاتهام بالجنون والتهديد بالسجن ٢٥٢
بلادكم في خطر ٢٥٦
اجتماع السحرة من كل مكان ٢٥٩
نور الإيمان في قلوب السحرة ٢٦١
مصير الفراعنة ٢٦٦
بحثان: ١ - هل حكم بنو إسرائيل في مصر؟! ٢٦٩
٢ - ترتيب الآيات ٢٧٠
عاقبة فرعون وأتباعه الوخيمة ٢٧٠
١ - معبر بني إسرائيل! ٢٧٣
٢ - كيفية نجاة بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه ٢٧٥
٣ - الله عزيز رحيم ٢٧٥
أعبد رباً... هذه صفاته ٢٧٦
دعاء إبراهيم عليه السلام ٢٨٠
الخصام بين المشركين ومعبوداتهم ... ٢٨٣
١ - القلب السليم - وحده - وسيلة النجاة ٢٨٧
يا نوح، لم يحف بك الأرذلون؟! ٢٨٩
نجاة نوح وغرق المشركين ٢٩٣
جنايات عاد وأعمالهم العدوانية ٢٩٥
لا تتعب نفسك في نصحنا ٣٠٠
لا تطيعوا المسرفين المفسدين ٣٠١
العلاقة بين الإسرافِ والفساد في الأرض! ٣٠٣
عناد قوم صالح ولجاجتهم ٣٠٥
السفلة المعتدون ٣٠٧
بحثان: ١ - الانحراف الجنسي انحراف مخجل ٣٠٩
٢ - العواقب الوخيمة للإنحراف الجنسي ٣١٠
عاقبة قوم لوط ٣١١
شعيب وأصحاب الأيكة ٣١٥
عاقبة الحمقى ٣١٩
بحوث: ١ - الانسجام التام في دعوات الأنبياء ٣٢١
٢ - التقوى، بداية دعوة الأنبياء جميعاً ٣٢٢

٣ - الانحرافات الأخلاقية ٣٢٣
عظمة القرآن في كتب «السابقين» ٣٢٤
لو نزل القرآن على الأعاجم.... ٣٢٦
بحوث: ١ - العصبية القومية والقبلية الشديدة!.... ٣٢٨
٢ - طلب الرجوع إلى الدنيا.... ٣٣٠
٣ - فضل العجم ٣٣٠
تهمة أُخرى للقرآن ٣٣١
﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ٣٣٤
بحثان: ١ - تفسير ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ٣٣٦
٢ - إنذار الأقربين «حديث يوم الدار» . ٣٣٨
النّبي ليس شاعراً ٣٣٩
بحوث: ١ - لم كانوا يتهمون النّبي بالشعر؟ ٣٤٣
٢ - الشعر والشاعرية في الإسلام ٣٤٣
٣ - ذكر الله ٣٤٧

سورة النمل

محتوى سورة النمل ٣٤٨
فضيلة سورة النمل ٣٤٩
القرآن منزل من لدن حكيم عليم ٣٤٩
الواقعية والإيمان ٣٥٣
موسى يقتبس النور ٣٥٤
حكومة داود وسليمان عليهما السلام ٣٦٠
بحوث: ١ - علاقة الدين بالسياسة ... ٣٦٤
٢ - آيات الحكومة الإلهية ٣٦٥
٣ - منطق الطير ٣٦٦
٤ - رواية «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».... ٣٦٧
سليمان في وادي النمل ٣٧١
بحوث: ١ - معرفة سليمان بلغة الحيوانات ومنطقها ٣٧٤
٢ - سليمان وإلهامه الشكر لله ٣٧٥
٣ - سليمان والعمل الصالح ٣٧٦
قصة الهدهد وملكة سبأ ٣٧٧
الملوك مفسدون مخربون ٣٨٣
بحوث: ١ - آداب كتابة الرسائل ٣٨٦
٢ - هل دعا سليمان إلى التقليد؟! ... ٣٨٨
٣ - مداليل عميقة في قصة سليمان عليه السلام ٣٨٨
٤ - علامات الملوك ٣٨٩
لا تخدعوني بالمال ٣٩٠
حضور العرش في طرفة عين ٣٩٢
١ - الجواب على بعض الأسئلة ٣٩٥
٢ - القوة والأمانة شرطان مهمان ٣٩٦
٣ - الفرق بين «علم من الكتاب» و«علم الكتاب» ٣٩٦
٤ - هذا من فضل ربّي ٣٩٧
٥ - كيف أحضر «آصف» عرش الملكة؟! ٣٩٨
نور الإيمان في قلب الملكة ٣٩٩
بحثان: ١ - عاقبة أمر ملكة سبأ ٤٠٢
٢ - خلاصة عامة عن حياة سليمان ... ٤٠٣
صالح في ثمود ٤٠٤

بحث: «التطير والتفاؤل» ٤٠٦
تآمر تسعة رهط في وادي القرى ٤٠٨
١ - عقوبة ثمود ٤١٠
انحراف قوم لوط! ٤١٢
عندما تعد الطهارة عيباً كبيراً! ٤١٤
أمع كل هذه الأدلة ما تزالون مشركين؟! ٤١٧
بحوث: ١ - من المضطر الذي يجاب إذا دعاه؟ ٤٢٢
٢ - الاستدلال المنطقي في كل مكان . ٤٢٣
٣ - خلاصة عامّة ومرور على الآيات السابقة ٤٢٤
لا يضيق صدرك بمؤامراتهم ٤٢٨
عمي القلوب لا يقبلون دعوتك! ٤٣٢
بحثان: ١ - أسباب التوكل ٤٣٥
٢ - الموت والحياة في منطق القرآن! . ٤٣٥
بحوث: ١ - ما هي دابة الأرض؟! ... ٤٤٠
٢ - الرجعة في الكتاب والسنة! ٤٤٣
٤ - فلسفة الرجعة! ٤٤٦
حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلمية ٤٤٨
آخر ما أمر به النبي! ٤٥٣

سورة القصص

محتوى سورة القصص ٤٥٨
فضيلة تلاوة سورة القصص ٤٦٠
المشيئة الإلهية تقتضي الانتصار ٤٦١
بحوث: ١ - حكومة المستضعفين العالمية ٤٦٦
٢ - من هم المستضعفون ومن هم المستكبرون؟! ٤٦٨
٣ - أسلوب المستكبرين على مدى التاريخ ٤٦٩
في قصر فرعون! ٤٧٠
تخطيط الله العجيب............ ٤٧٥
عودة موسى إلى حضن أمه ٤٧٦
موسى عليه السلام وحماية المظلومين ٤٨٠
بحثان: ١ - ألم يكن عمل موسى هذا مخالفاً للعصمة! ٤٨٤
٢ - دعم المجرمين وإسنادهم من أعظم الآثام ٤٨٥
موسى يتوجه إلى مدين خفية ٤٨٧
عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير . ٤٩٠
بحثان: ١ - أين كانت مدين؟! ٤٩٣
٢ - دروس كثيرة توحي بالعبر ٤٩٣
موسى في دار شعيب ٤٩٥
بحوث: ١ - شرطان أساسيان للإدارة الصحيحة ٤٩٦
٢ - اسئلة عن زواج موسى من بنت شعيب!............. ٤٩٧
الشّرارة الأولى للوحي ٥٠٠
موسى في مواجهة فرعون ٥٠٥
كيف كانت عاقبة الظالمين؟ ٥٠٧
أئمة «النور» وأئمة «النار» ٥١٢

الأخبار الغيبيّة هي من عند الله وحده... ٥١٤
ذريعة للفرار من الحق ٥١٦
بحث: اتباع الهوى مدعاة للضلال ٥١٩
طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن ٥٢١
بحث: القلوب المهيأة للإيمان ٥٢٤
الهداية بيد الله وحده!... ٥٢٦
بحث: إيمان أبي طالب والضجيج حوله ٥٢٩
لا تخدعنكم علائق الدنيا ٥٣٣
إنهم عبدة الهوى ٥٣٦
نعمتا «الليل والنهار» العظيمتان ٥٤٣
الثري الإسرائيلي البخيل ٥٤٦
جنون الثروة ٥٥٣
بحوث: ١ - نماذج قارونية بالأمس واليوم! ٥٥٧
٢ - من أين جاء قارون بهذه الثروة العريضة؟ ٥٥٩
٣ - موقف الإسلام من الثروة! ٥٦٠
نتيجة حب التسلط والفساد في الأرض . ٥٦٢
١ - لم تكرر ذكر «السيئة» في هذه الآية مرتين؟ ٥٦٥
الوعد بعودة النبي ﷺ إلى حرم الله الآمن ٥٦٧
١ - كيف تفنى جميع الأشياء؟! ٥٧٢
٢ - التّفسير المنحرف لجملة: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ ٥٧٣
الفهرس ٥٧٥